موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القرآن الكريم

من سورة الحديد حتى سورة التحريم

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (1-8): تفسير الآية 1
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-03-15

بسم الله الرحمن الرحيم

صفتا الله عز وجل (العزيز، الحكيم)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيُّها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأوّل من سورة الحديد، قال تعالى:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة الحديد]

سبّح ؛أيْ: مجّدَ، و نزّه، و يرى ابن عبّاسٍ أنّ سبّح تعني: صلّى.

أيها الإخوة: إن في الكون حقيقة وحيدة ؛ هي الله، فهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، فَكلّ السعادة في القرب منه، وكل الشّقاء في البعد عنه، و كلّ الخير عنده، وكلّ الشرّ في مَعْصِيَتِهِ، وكلّ الفوز في طاعتهِ، وكلّ الهلاك في الخُروج عن أمره، و ما من شيءٍ يُقَرّبنا إلى الله تعالى إلا وقد أُمِرنا به، وما من شيءٍ يُبْعِدُنا عنه إلا وقد نُهينا عنه، وذلك عن طريق كتاب الله عز وجل، وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلّم، لذا ورد في الحديث الشريف أنْ ما بقِيَ شيءٌ يُرّبكم إلى الله تعالى إلا وأمرتكم به، وما بقيَ شيءٌ يُبعدكم عن الله إلا نَهَيتكم عنه ! فلو قال قائل: كيف تعتقدون أن الله ما فرّط في هذا الكتاب (القرآن) من شيء، وهناك مليون موضوع لم يشر إليه القرآن ! فالجواب هنا: أنّ كلّ شيءٍ يُقَرِّب إلى الله ذُكِرَ في الكتاب والسنّة مأموراً به، كما أن كلّ شيءٍ يُبْعِد عن الله ذكر أيضاً ولكن َمنهياً عنه، و معنى ذلك أنّ الذي سَكَتَ عنه القرآن لا علاقة له بالقرب من الله أو البعد عنه، فهناك موضوعات كثيرة سَكَت عنها القرآن، و هذه الموضوعات فعلها وتركها سواء...

قال الله عز وجل:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(3))

[سورة المائدة]

فهذا الكِتابٍ من عند خالق الكون، والله عز وجل لم يترك قضيّة تزيدك قربًا منه - مهما بَدَت لك صغيرة - إلا أمرك بها، كما أنه لم يترك قضيّة تُبعِدُك عنه - مهما بَدَت صغيرة - إلا نهاك عنها، والأمر والنهي إما في كتاب الله، أوفي بيان كتاب الله وهو سنة النبي عليه الصلاة والسلام، فالله عز وجل هو بالنسبة لنا كلّ شيء، والقرب منه هو الفوز العظيم، والبعْد عنه هو الهلاك الحقيقيّ، لذلك

وجب عليك أن تعرفَهُ، ومعرفته تأتي إما من خِلال خلقه جميعاً، أو من خلال أفعاله، أو من خلال كلامه.

التسبيح:

قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(44))

[سورة الإسراء]

يقول بعض العلماء: إنّ هذا التّسبيح تسبيح دلالة، فالقِطعة المتقنَة لِسانُ حالها ينبئ أنّ صانعها عليم، وأنّ صاحبها على مستوى عالٍ من الذّوق، لكنّ الله سبحانه وتعالى أثبَتَ لِخَلقِهِ جميعًا تَسبيحَين ؛ تسبيح الدلالة، وتسبيح القول، والدليل القطعي على ذلك قوله تعالى:

(و َإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

[سورة الإسراء]

فهذا دليل على أنّ التسبيح تسبيح قول، فإذا كان كلّ خَلْق الله تعالى مِن جمادٍ وحيوان ونبات يُسَبِّح الله تسبيحَ قوْل، فما أشدّ خسارة الإنسان حينما يغْفَلُ عن الواحد الدّيان، ويكتشف أنّه هو المخلوق الأوّل المكرّم، ثم يهبَط بعد ذلك بِغَفْلَتِهِ إلى أدْنى المخلوقات.

أيها الإخوة: إنّ الإنسان بإمكانه أن يفوق الملائكة المقرّبين بطاعته، أما إن خانَ أمانتهُ، ونسيَ عهْدَهُ والتكليف الذي جاء مِن أجْلِهِ، وغَفَل عن ربّه، وأساء إلى خلْقِهِ، فإنه لا يهْبطُ إلى أحْقر الحيوانات وحسب، بل يهبط إلى أسفل سافلين، والدليل قوله تعالى:

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيّةِ(7))

[سورة البينة]

أي: إنهم خَير ما برأ الله على الإطلاق، أما الطرف الآخر فقد قال الله تعالى قال فيهم:

(أُوْلَئِكَ هُم شرّ الْبَرِيّةِ(7))

[سورة البينة]

فالمَلَكُ رُكِّبَ مِن عقْل دون شَهوة، والحيوان رُكِّبَ من شَهوة دون عَقل، أما الإنسان فقد رُكِّبَ مِن كِلَيهما، فإن سما عقلُهُ على شَهوتِهِ أصبْح فوق الملائكة وإن سَمَت شَهوته على عقله أصبَحَ دون الحيوان، قال تعالى:

(سَبّحَ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الحديد]

سبح تسبيحاً: نزّه تنزيهًا،وهنا: نزّه الله عن كلّ ما لا يليق به؛ كالظّلم مثلاً،قال تعالى:

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(124))

[سورة النساء]

و إنك لا تستطيع أن تُثبِتَ عدالة الله تعالى بعَقلِكَ المحدود، فذلك غير ممكن إلا في حالة واحدة وهي أن يكون لك عِلمٌ كَعِلْم الله، وهذا مستحيل ! لكن يمكنك أن تعرف الله مِن خِلال الكون، كما يمكنك أن تعرفه من خلال كلامه، وأفعاله، وقد أنبأكَ تعالى في القرآن أنّه لا يظلِمُ أحدًا، فقد قال تعالى:

(يَابُنَيّ إِنّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّهُ إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(16))

[سورة لقمان]

وقال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرًا يَرَه(8))

[سورة الزلزلة]

الفتيل: خيط بين فلقتي النواة، والنقير: أحد رؤوس النواة المدبّب، والقطمير: هو الغلاف الرقيق الذي يُغلِف النواة، فالناس لا يظلمون قدر قطمير ولا نقير، ولا فتيل، ولا حبّة من خردل، يقول الله تعالى في الحديث القدسي: عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي إِنّي حَرّمْتُ الظّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرّمًا فَلَا تَظَالَمُوا))

[رواه مسلم]

الفرق بين قدرة الله تعالى ورحمته:

قد يقول لك أحدهم: إن الله على كلّ شيءٍ قدير، ونحن في ملكِهِ، فله أن يضَعَ الطائعَ في جهنّم، وله أن يضَع العاصي في الجنّة فهل نستطيع أن نسأله ؟ الجواب: لا، قال تعالى:

(لَا يُسْأَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ(23))

[سورة الأنبياء]

و هذا من حيث القدرة، أما من حيث الكمال فهذا يُنافي كمالهُ سبحانه، فأين قوله تعالى:

(إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

[سورة هود]

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(17))

[سورة غافر]

(يَابُنَيّ إِنّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّهُ إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(16))

[سورة لقمان]

فلا بدّ من التّفريق بين قدرتِهِ تعالى وبين رحمته سبحانه، فلو فرضْنا أنّ أبًا لا يُنجِب ثم أنْجبَ غلامًا بعد وقت طويلٍ، فبإمكان هذا الأب بقدرته العضلية أن يذبح ولده، ولكن هل من الممكن أن يفْعل هذا ؟! على الإنسان أن يُفَرِّق بين طلاقة قدْرتهِ تعالى، وعظمة رحْمتِهِ، فرحمته سبحانه وسعت كل شيء، وقد جاء في الحديث القدسي:

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وترْك معاصيهم لتقطّعَتْ أوصالهم من حُبّي ولماتوا شَوقًا إليّ، فإذا كانت هذه إرادتي بالمعرضين، فكيف إرادتي بالمقبلين ؟! أهْلُ ذِكري أهلُ مودّتي، وأهل شُكري أهْلُ زيادتي، وأهل معصِيَتي لا أقنِّطُهم مِن رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبْتَليهم بالمصائب لأُطهّرهم من الذنوب والمعايب))

مرّ النبي عليه الصلاة والسلام مع أصحابه الكرام على امرأة تخبز في التنور وقد كان طفلها يجلس على طرف التنور، وكانت تضعُ الرغيف وتُقبّلُهُ في كلّ مرّة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((أتُلقي هذه بولَدها إلى النار ؟))

قالوا: معاذ الله، فقال:

((والذي نفسُ محمّد بيَدِهِ للّه أرحم بعَبدِهِ من هذه بولَدها !))

فقد تكون الأم مُتْعبة تعبًا طويلاً ثمّ تأوي إلى فراشها، ولكنها تعاكس حاجة جِسمها إذا بكى وليدها، فتستيقِظ من أجله، فهناك دافِعُ النوم، ودافع خِدمة هذا الطِفل الصّغير، فأيُّهما أقوى ؟! الأقوى هو دافِعُ الرّحمة، لذلك تتغلّب الأم على دافِع النوم، و هذا يعني أنّ الرحمة شيء إيجابي، والدليل أنّ بعض الحيوانات في مرحلةٍ من مراحل تربيَة أولادها تُنْزعُ منها الرحمة فتأكل أولادها، وهذا درسٌ لنا، فإن رأيْتَ أمًّا تعطف على أولادها، فتجوع لِيَأكل ابنها، وتسْهر لِيَنام، وتمرض لِيَصِحّ، فهذه رحمة أوْدَعها الله في قلوب الأمّهات، وفي قلوب الآباء، فكيف هي رحمتُهُ تعالى بنا ؟ لقد وردَ في الأحاديث الصحيحة أنّ كلّ الخلق يتراحمون بجزءٍ من مائة جزءٍ من رحمة الله عز وجل، والدليل قوله تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(159))

[سورة آل عمران]

وفي آية أخرى قال تعالى:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا(58))

[سورة الكهف]

و النبي عليه الصلاة والسلام هو أرْحَم الخلق بالخلق، وهذه الرحمة جزءٌ لا يُذْكر من رحمة الله تعالى، والدليل أنّ الإنسان قد يكون له خَصْمٌ فيقول لك: أتمنّى أن أقطِعه ! وإنما يقول هذا الكلام من جرّاء اعتِداء أو تنافس، أما النبي عليه الصلاة والسلام حينما ذَهَب إلى الطائف فردَّهُ أهلها وكذّبوه وسَخِروا منه، وأغْرَوا صبيانه بضَرْبِهِ، جاءهُ جبريل وقال:**"إن شئْتَ لأطْبقتُ عليهم الجَبَلَيْن"**، فقال:

((اللهمّ اِهدِ قومي فإنّهم لا يعلمون، لعلّ الله يُخرج من أصلابهم من يوحّدُه !))

فإذا كانت هذه رحمة النبي عليه الصلاة والسلام فكيف برَحمة الله تعالى ؟ فيا أيها الإخوة: يمكنني أن أقول لكم بِشَكلٍ دقيق: إن الإنسان حينما يُقصِّر مع الله، ويتقاعس عن تطبيق أمره ونَهْيِه، فلا يلتفِتُ إليه الالتِفات الكافي، تكون معرفته بالله ناقصة، و هناك عمل لا يعْلُو عليه عمل، وهو أن تعرف الله، فالله تعالى لا يُعْرفُ بحَواسِّك الخمس، ولكن بِعَقْلِكَ من خلال خلقه، لذا كان التّفكّر في خلق السماوات والأرض أعلى عِبادة على الإطلاق، قال تعالى:

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191))

[سورة آل عمران]

لذلك كانت هناك دَعوة إلى معرفة الله تعالى، مِن خِلال خَلقِهِ، أو مِن خلال أفعاله، أو من خلال كلامه، فلا بدّ من معرفَتِهِ كي تُطيعَهُ، فحجْم طاعتِكَ له تتناسب مع حجم معرفتِك إيّاه، فإذا رأيْتَ الطاعة أقلّ مِمّا ينبغي فمعنى ذلك أنّ المعرفة أقلّ مِمّا ينبغي، فكلّما ارْتَقَت المعرفة ارْتَقَت معها الطاعة، والخَلقُ جميعًا بما فيهم الجمادات يُسبّحون الله تعالى، قال تعالى:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة الحديد]

إن الكون هو كلّ ما سِوى الله، فالذات الكاملة واجبة الوجود، وما سِواه هو الخلق وهو ممكن الوُجود،فإذا كتبت مثلاً كلمة: بَحر، ووضَعتها في جَيْبك ! هل يبْتلّ جَيْبُكَ ؟! أما البحر الحقيقي فهو أربعة أخماس اليابسة.

ورود البحر في القرآن:

لقد كُنتُ أُجري إحصاءً دقيقًا قبل يومين حول كلمة البحر، فقد وردَت هذه الكلمة في القرآن بشكل عام ثمانٍ وثلاثين مرّة، قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(41))

[سورة الروم]

ووردَت بِشَكل تَسخير البحر للإنسان، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا(70))

[سورة الإسراء]

ووردَت في معرض تنوّع مِياه البحر، قال تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(19))

[سورة الرحمن]

و قد ورد البحر وحده، كما ورد (البحر المسجور)، فمن مِنكم يُصَدِّق أنّ الماء مؤلّف من أكسجين وهيدروجين، و الهيدروجين من أشدّ العناصر اشْتِعالاً والأكسجين مِن أشدِّ العناصر المُعينة على الاشْتِعال، والماء من الأكسجين والهيدروجين قال تعالى:

(وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ(6))

[سورة الطور]

فبأمرٍ من الله صبح البحر نارًا، و قد وردَت كلمة البحر في القرآن ثمانٍ وثلاثين مرّة، كما وردت كلمة البرّ واليابسة ثلاث عشرة مرّة، وعلى الأرض خمسٌ وعشرون قارة، وخمسة وسبعون بحراً، فَنِسبة عدد كلمات البرّ إلى كلمات البحر يُساوي تمامًا نسْبَة اليابسة إلى البحر ! هذا كلام الله، و الله سبحانه وتعالى يقول:

(سَبَّحَ لِلَّهِ)

[سورة الحديد]

هل هذا إخبار أم أمر ؟؟

لو أنّ أباً قال لابنه: إن ابن عمّك فلان يدرس ليل نهار !! فما القصد من هذا الكلام ؟! هل يريد الأب هنا أن يخبر ابنه بهذه الحقيقة أم أنه يدْعوه إلى الدِّراسة ؟ فهناك خبرٌ يُراد به الإنشاء، فالقرآن مثلاً يُخبرنا أنّ من شأن الأمّ أن ترضِع ابنها حولين كاملين، فقد قال تعالى:

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ)

[سورة البقرة]

فهذا كلام خبر، لكن المراد منه الإنشاء (الطلب)، والكلام إما خبر أو إنشاء، فإما أن يكون المراد: (إنّي أُعلمكم)، فهذا خبر، وإما أن يكون (إنّي أطلب منكم)، وهذا إنشاء، فالأمر والنّهي والتمني والحضّ والنِّداء إنشاء، والقرآن الكريم من إعجازه البلاغي أنّه يأتي بالخبر ويريدُ به الإنشاء، قال تعالى:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

حليب الأم:

بالمناسبة أيها الإخوة، لقد أخبرني أخٌ كريم حضَر مِن بلاد الغرب - وهو طبيب ناجحٌ جدًّا- أنّ أحْدث بحثٍ في شأن حليب الأمّ يقول: إنّ أسباب القصور العقلي إنما هو حليب القوارير، وقد ذكر على ذلك أدِلّة قويّة جدّا، و القرآن الكريم قال:

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمّ الرّضَاعَةَ)

[سورة البقرة]

فالشيء الذي لا يُصدّق أنّ حليب الأم يتبدّل في الرّضْعة الواحدة ! فأربعة أخماس الحليب من الماء، و كميّة المواد الدسمة والبروتينيّة والحموض والشحوم والدهون في حليب الأم يتناسب يوميًّا مع أجهزة هضم الولد، أما حليب القوارير، وحليب البقر فهو مهيًّأ للراشدين، وهذا الحليب فيه أربعة أمثال طاقة الهضم عند الصغير، لذا قالوا: إن بعض أمراض القلب، وبعض أمراض الأوْعيَة، وضَعف الذكاء، والقصور العقلي إنما يكون بسَبب الرضاع الصناعي، والأم التي لا تُرْضِع ابنها من حليب ثدْيها مجرمَةٌ في حقِه ! كما أنّه أحد أسباب سرطان الثّدي هو امتناع الأم عن إرضاع وليدها ! فنسبة الإصابة بسرطان الثدي تتضاعف مع النساء اللواتي لا يرْضِعن أولادهنّ حِفاظًا على شَكْلِهنّ.

أيها الإخوة... كلّما تقدّم العِلم، اقتربَ مِن حقائق الإسلام، و كلّ شركات الحليب بالعالم الآن مُلزمةٌ أن تكتب على عبوات الحليب لا شيء يَعدِلُ حليب الأم.

نعود إلى الآية.. وهي قوله تعالى:

(سَبّحَ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الحديد]

فالقرآن الكريم قد يذكر خبراً ويريد به الإنشاء، فـ(سبّحَ) هنا ؛ أي: يا أيها الإنسان سبّحْ، و(الوالدات يرضعن أولادهن) ؛ أي: يا أيّتها الوالدات أرْضِعن أولادكنّ، ومن هذا الله قوله:

(وَالطّيّبُونَ لِلطّيّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرّءُونَ مِمّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(26))

[سورة النور]

أي: يا أيها الآباء والأمّهات اِحْرصوا على أن يكون الطّيّبون للطّيّبات، وقوله تعالى:

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلّهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ(97))

[سورة آل عمران]

أيْ: يا مَن تسلّمتُم أمْر بيتِ الله الحرام اِحْرصوا على أن يكون آمنًا، فهذا خبر أريد به الإنشاء، فالله سبحانه وتعالى يذكر لنا أنّ المخلوقات كلّها تُسبّحُهُ، والحِكمة من هذا أن يأمُرنا الله تعالى أن نسبحه

بأسلوبٍ لطيف وترْبوي، كمن يقول لابنه: يا ُبني، ابنُ عمِّك يدرس ليل نهار، ولا يدع الكتاب من بيد يَدَيه ألا تغار؟ أي: اُدْرُس، قال تعالى:

(سَبّحَ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْض وَهُوَ الْعَزِيزُ)

[سورة الحديد]

العزيز:

إذا وصَفنا معدنًا أنّه عزيز فمعنى ذلك أنه نادر الوُجود، فالحديد غير اليورانيوم، والبلاتين غير الذّهب، فالعزيز هو ما ندَر وُجوده، والعزيز الذي تشْتدُّ الحاجة إليه، والعزيز هو الذي يصْعُب الوُصول إليه، فإذا كان الله عزيزًا ؛ أي: هو واحد، ليس له ثانٍ، ولا شريك، ولا مُشابه ولا نِدّ، ولا كفء، وهو الذي يحتاجهُ كلّ شيء، ويستحيل أن تُحيط به شيء، قال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(255))

[سورة البقرة]

فالله تعالى حينما قال:

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(34))

[سورة لقمان]

فهو لم يقل: (مَنْ)، ولكن قال: (ما)، فلو قال: (مَن) لكان المعنى: يعلم المولود ؛ هل هو ذكر أم أنثى ! ولكنه قال: ما، فالحُوَين المنوي عليه خمسة آلاف مليون معلومة مُبرمجة، فهل استطاع العلم أن يعرف هذه المعلومات ؟ إن هذه المعلومات مُركّزة في نُويّة الحُوين المنوي كما أنها مُركّزة على نُويّة البويْضة، و إن خمسة آلاف المليون معلومة هذه تسْهم في تشكيل الجنين، فالإنسان إذا قرأ مقالةً كان عليه أن يفرِّق بدِقّة بالغة بين البحث العلمي و المقالة العِلميّة، فقد قال العلماء: **المقالة انْطِباع**، فالإنسان فيها يتخيّل ويتوقّع، أما البحث العلمي فهو شيءٌ قطعي، فالصحافة في العالم تبحث عن خبرٍ طريف وجديد، من أجل أن يرتفع عدد المبيعات، فهذه المعلومات فيها سبْق صحافي لا سبْق عِلْمي، فلذلك كان الله هو العزيز الحكيم، والواحد الأحد الفرْد الصّمَد، فهو الذي يحتاجُهُ كلّ شيءٍ في كلّ شيء، و هو الذي يصْعُب أن تُحيط به، قال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(255))

[سورة البقرة]

حدود العقل:

لو وقفت نملة في جبال همالايا، فهي بحجمها الصغير وبإدراكها الذي لا يزيد عن سنتمترات، لا يمكن لها أن تُحيط بوَزن هذا الجبل وعُمقِهِ في الأرض، وحَجم كُتلته وارتفاعه وخصائصه، هذا مستحيل، والإنسان إذا آمَنَ أنّ قدراته محدودة عرف الله تعالى، وقد قال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه كلمة رائِعة،وهي: **(العَجْز عن الإدراك إدراك !)** فإن وقفت على ساحل البحر المتوسِّط وسألك سائلٌ، كم يحوي هذا البحر من لِتر ؟ وأجبْتَهُ برَقم **!!** لكان هذا دليل الجهل، أما إن قلتَ: لا أدري، فهذا دليل العِلم، فيجب عليك أن تؤمن أنّ العقل هو أعظم شيءٍ خلقهُ الله، وأن الإنسان أعْقد مَخلوق على وجْه الأرض، وأعْقدُ ما فيه عَقْلُهُ، وأن العَقل له مهمّة محدودة، فالله تعالى أعطاك عقلاً يؤدِّي مهمّته على أتمّ وجه، فيجب أن تستعمله كما أراد الله، أما لو أردْتَ أن تعرف بهذا العقل ذات الله تعالى لهَلَكْتَ، لأنّك تكون قد اسْتَعملتَهُ لِغَير ما صُنِعَ له، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((تفكّروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

لأنّ هذا شيءٌ فوق طاقتك، و سأضربُ لكم بعض الأمثلة على ذلك ؛ لو فرضنا أن هناك بقالية فيها عشرة آلاف صِنف، و أن أقلّ وزن فيها خمسون غراماً، وأعلى وزن خمسة كيلو غرامات، وكان لديك ميزان حساس، إن اسْتعملته بين الغرام وخمسة كيلو الغرام أعطاك وزنًا دقيقًا ومُدْهلاً، فإن وزنت به سيّارة انكسر، فلا تقل: هذا الميزان سيِّئ، ولكن قل: طريقة الاستخدام هي السيئة، فأنت حينما تأخذ قضيّة متعلِّقة بذات الله ثم تريد أن تفْهمها بعَقلِك، نقول لك: لا، فالشيء الذي يعْجزُ عقلك عنه أخبرك الله به، وسوء استخدام العقل ينتج عنه الخطأ، و مُفادُ قولي أنه لا ينبغي أن تأخذ قضيّة إخباريّة وتُحكِّم عقْلك فيها، فما أخبرَكَ الله به حكمٌ على عقلك، وليس عقْلُكَ حكماً عليه. قال تعالى:

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(11))

[سورة التغابن]

فإذا قال لك: أنت مُخيّر فهذا يعني أنّك مُخيّر، قال تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(148))

[سورة الأنعام]

فعَقلك يدلّك على الله، والله جلّ جلاله يدلّك على ذاته، و َعَقلك كالحِصان الذي تركبه وتذهب به إلى القصر، فإذا وصلت إلى القصْر دخلْتَ وتركتَ الحِصان في الخارج، أما لو أدْخلْتَ الحصان معك لكان هذا من سوء الأدب، فلا ينبغي لك أن تُحكِّم عقْلك فيما أخبرك الله به فالله أخبرنا مثلاً أنّ في الجنّة حور

عين، فلا تكثر السؤال عن صفاتهنّ، فما سكَت عنه القرآن ينبغي أن نسْكت عنه، فليس من العقل أن تسْتخدم العقل فيما لم يُخلق له، وكلّما تأمّلت في الكون زادك العقل معرفة بالله، وفي هذا المجال: فكِّر ولا حرج ! فمهما بالغْتَ في التّفكير فأنت على صواب وهذا أمر يرْقى بك، فكلّ شيء يجب أن يوضع في مكانه فيستخدم لما خُلق له، وهذا موضوع دقيق جدًّا، فلو أنّك حاولْت مثلاً أن تهدِمَ بسيّارتك بناءً، أو أردت أن تتنزّه ب(التراكس) الذي يحرث الأرض لخالفت العقل، فعندما يُستخدم العقل للمهمّة المحدودة ينجح، أما إذا اُستخدم للمطلق فإنّه سيعجَز.

قال تعالى:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة الحديد]

حكمة الله تعالى أعظم دليل على وجوده:

حكمة الله أحدُ أدلّة كمال وُجوده، وحكمة الله تعني: أنّ الله تعالى يضَع الشيء المناسب في المكان المناسب، وفي الوقت المناسب، و هذا دليل من أقوى الأدلّة على وُجود الله سبحانه وتعالى..

فلماذا يوجد مثلاً شَعر في الأنف ولا يوجد شَعر في الفم ؟! أليس في هذا حكمة بالغة ؟

ولماذا خلق الله عَينين لا عيناً واحدة ؟ من أجل البُعد الثالث..

ولماذا خلق أذُنين ؟ من أجل أن تعرف جِهة الصّوت..

ولماذا لم يجعل للشّعر أعصابًا حِسِيّة ؟ لو كان الأمر كذلك لاحتَجنا إلى عمليّات جِراحِيّة عند حَلق الشّعر !

ولماذا جعل في الأسنان أعصاب حس ؟؟ لو لم يكن في الأسنان أعصاب حِسّ لفَقَدَ الإنسان أسنانه في وقت مبكر، أما هذا الألم فهو عبارة عن أجهزة إنذار مُبكِّرة.

ولماذا جعل محور الأرض مائلاً ؟؟ لو كان عموديًا لما كانت هناك فصول، فالنهار مناسب، والليل مناسب، والدوران مناسب، والحر والبرد مناسبان، فإذا برّدْت الماء في الدرجة زائِد أربعة(+4) لازْداد حجْمُهُ، ولولا هذه الظاهرة لما كانت حياة ! ولأصبحت البحار متجمِّدة !! فوفق هذا المنهج في التفسير تستطيع أن تعرف الله، فهذه بلدة (فايرلندا) درجة البرودة فيها سبعون تحت الصِّفر !! فالإنسان فيها يلبس الصوف والواقِيَة والجوارب، ويمكن له أن يُغطِّي كلّ شيءٍ في جسمه إلا العَين، فتبقى ملامسة للهواء الخارجي دون أن تتجمّد، لأن العين فيها ماء، وقد أوْدَعَ الله تعالى في ماء العَين مادّة مُضادّة للتّجَمُّد، ولو ذلك لفقد الإنسان بصره في المناطق الباردة.

أيها الإخوة.. إن دليل الحِكمة هو أعظم دليل وُجود الله تعالى، و مجال التفكّر في آيات الله تَكشف عن حكمته الواسعة، فهو يضَعُك أمام عظمة الله وجهًا لِوَجه، وقد قال الله تعالى:

(وَتُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا(18))

[سورة الكهف]

خَلَق الإنسان دليل على قِدَم الله تعالى:

إنّ لعضلات الإنسان وهيكله العظمي وزن كبير، و هيكلهُ العظمي وعضلاته يضْغطان على العضلات التي تحت الهيكل العظمي وهو نائِم، وهذه العضلات فيها أوْعِيَة، وهذه الأوْعِيَة تضيقُ لمْعتها فتقلّ الترويَة، فيتقلّب الإنسان في نومه ! فعلينا أن نفكِّر في خلق الإنسان الكامل، فلو قارن الإنسان بين سيارة من سنة السبعين، وأخرى حديثة، لاستنبط أنّ خِبرة الإنسان حادِثة ! أما الإنسان فهل طرأ على خلقه تعديل ؟! هل هناك موديلات للإنسان، هذا دليل قِدم خبرة الله تعالى، والله تعالى لا يخلق شيئاً عديم الفائدة، فقد قيل: إن الزائدة الدودية لا فائدة منها، وهذا غير صحيح، فهي تشكل خط دفاع في الجسم، ولذلك كان لي اعتراض على قولهم (الزائدة الدوديّة)، و الصواب هو (الذائدة الدوديّة)، لأنها خط دِفاع، و الله تعالى لا يخلق شيئًا زائِداً في الإنسان.

فالله تعالى في هذه الآية يأمرنا بشَكل تربويّ لطيف أن نتعرّف إليه كي نُنَزّهَهُ ونُمَجِّدَه ونتّصِل به، وقد قال ابن عباس: سبّح ؛ أي: صلّى، فالمعرفة لها منهج، قال تعالى:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(103))

[سورة الأنعام]

فأنت لا تعرف الله جلّ جلاله إلا من خلال عقلك عن طريق الكون، فلذلك كان التفكّر في خلق السماوات والأرض فرضٌ من أجل معرفة الله تعالى، فأنت تعرَفُهُ فتُطيعُهُ، وتُطيعُهُ فتَسْعدُ ِبقُربِهِ، وعندئذ تُوَفّق وتنْجح وترْقى، وتكسبُ الدنيا والآخرة معًا، أما إن عصيته خسرتهما معًا، لأن من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معًا، وهذا القرآن الكريم مأدُبة الله، فإذا فهمت كتاب الله، وتراكم هذا الفهْم شيئًا فشيئًا جعلك هذا الفهم مستقيماً على منهج الله بعد حينٌ من الوقت وأنت لا تشعر بذلك، وهذا مطّلبٌ لكلّ إنسان، والله غنيّ عن العالمين، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ عَن النَّبِيّ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَن اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَر قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي

إنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إيّاهَا فمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فلْيَحْمَدِ اللّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلِكَ فلَا يَلُومَنّ إلّا نَفْسَهُ))

[رواه مسلم]

وفي درس قادم نتابع الحديث.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 2-6

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-03-22

بسم الله الرحمن الرحيم

مظاهر قدرة الله

بسم الله الرحمن الرحيم

أيُّها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الحديد، يقول الله تعالى:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة الحديد]

بيّنتُ لكم في الدرس الماضي أنّ (سبّح) فيها ثلاثة معانٍ ؛ نزّه و مجّد و صلّى، ورأينا أن كلّ مخلوق في السماوات والأرض يُسبّح الله تعالى لا تسبيح دلالة وحسب، بل تسبيح قول، ولا شكّ أنّ كلّ شيءٍ يُسَبِّح الله تسبيح دلالة، فإتقان الصّنعة، ودِقّة الخَلق يُشيران إلى عظمة الخالق، وهناك معنى آخر، وهو أنّ هذه المخلوقات تُسبّح بلسانها، ولكِنّنا - بني البشر- لا نفْقهُ هذا التّسبيح، قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(44))

[سورة الإسراء]

ثمّ إنّي بيّنتُ لكم في الدرس الماضي أنّ التأمّل في خلق السماوات والأرض يجعلك تُواجهُ عظمة الخالق، وهذا يعدُّ أقْصر طريق إلى الله عز وجل وأوْسَعَ بابٍ تدخل منه عليه، فهو العزيز الحكيم المتفرّد الذي لا يُنال جانبُه، وهو الحكيم بمعنى أنه يضع كلّ شيء في مكانه الصحيح، وفي وقته الصحيح، وفي حجمه ونوعه الصحيحين.

ثمّ يقول الله تعالى:

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة الحديد]

قدرة الله المطلقة:

أيها الإخوة.. المُلكيّة كلها لله عز وجل، ومُلكِيّة الله مُلكيّة مطْلقة، أما مُلكِيّة الإنسان فهي مُلكِيّة نِسْبيّة، فقد تمْلِكُ بيتًا ولا تنتفِعُ به، وقد تنتفِعُ به ولا تمتَلِكه، وقد يكون لك النفع والملكية معاً، ولكنّ المصير ليس لك ! أما مُلكيّة الله جلّ جلاله فهي ملكيّة مطْلقة، وكلّ شيءٍ يمكن أن يُملّك إنما هو لله تعالى، والإنسان في الحقيقة لا يملك شيئاً، فمن يملك سمْعه؟ ومن يملكُ بصره؟ ومن يملك نموّ خلاياه ؟ لا أحد، فقد تتفلّت الخلايا من عِقالها فلا يدري أحد كيف يفقدُ الإنسان قوّته، إذًا لله ملك السماوات والأرض، وكلّ من فيها مُلكٌ له خلقًا وتصرُّفًا ومصيرًا، و إذا أيْقَنَ الإنسان أنَّه في قبضة الله استحيى من معصيته، وإذا

أيقن أنّه ملكٌ لله عز وجل استحيى أن يخرج عن منهجه، فالله سبحانه وتعالى يُبَيّن أنّه يملكُ ما في السماوات وما في الأرض، فهو الذي يَهَبُ الحياة وحْده، وهو الذي يُميتُ، والحياة والموت هما أخطر ما يشغل الإنسان، وهما بيد الله عز وجل، فلا يمكن لإنسان أن يصل إليهما، ولو بدا لنا في الظاهر أنّ فلانًا قتَل فلانًا ! إلا أن الإنسان لا يموت إلا بأجله، ولو أنه قُتِلَ قتلاً، وكم مِن زوجَين شابّين سليمين لكنهما عقيمان، وكم مِن إنسانٍ مريض مكّنَهُ الله مِن إنجاب الأولاد فهو تعالى الذي يحيي ويُميتُ، والحقيقة أن كلمة الحق لا تقطع رزقًا، ولا تُقرّب أجلاً، فالذي يُحيي هو الله، والذي يُميتُ هو الله، و إن فزَع الإنسان وألَمه واخْتِلال توازنِهِ حينما يموت له أحد أقربائِهِ من أدِلّة ضَعف إيمانه، والنبي عليه الصلاة والسلام تُوفِّيَ ابنهُ إبراهيم فدَمِعَتْ عَيناه، فلمّا سئِلَ قال:

((إنّ العين لتَدمَع، وإنّ القلب ليَخْشع، ولا نقول إلا ما يُرضي الربّ، وإنا عليك يا إبراهيم لَمَحزونون))

فالإنسان المؤمن متوازن حَتَّى في أحزانه ؛ لأنّه يرى أنّ الموت قرار إلهي، والله حكيم في أفعاله حكمةً مطلقة، ولو لم يكن لله حكمة مطلقة لكان الله سبحانه مَلومًا في أفعاله، ولكان ذلك نقْص في حكمة الله، و لو كُشف لك الغطاء عن كلّ شيء حدث لوجَدْتَ أنّ الذي حدث هو أحكمُ ما حدث، ولكننا دائمًا وأبدًا نقول: الإنسان أُعْطِي حريّة الاختيار في أشياء، وقد أوْدَعَ الله فيه الشّهوات فإذا خرج عن منهج الله اسْتَوْجبُ المعالجة، وهي غير مُحَبّبة، كما أنها ليْسَتْ خيرًا مطلقاً، لكنها تحمل خيرًا نسبيًا، وهو خير المآل، فالأب الذي يقسو على ابنه يتألّم ابنه أشدّ الألم، أما حينما يرى نفسَهُ مِن عِلْية القوم بفَضل تربيَةِ والده الشديدة يعلم عندها أنّ هذه التربيَة الشديدة كانت في ظاهرها شرًا له، أما باطنها ففيه الخير.

أيها الإخوة.. لا يوجد في الكون شرّ مطلق، والخير المطلق نِسبي، ومن الخير النِّسبي أن يُعالِج الله إنسانًا مُقصِّرًا أو شاردًا أو عاصِيًا بالشدائد في الظاهر، لكن هذه الشدائد تنتهي إلى الخير، فما مِن إنسانٍ وصَلَ إلى الله، واستقام على أمره، في الأعمّ الأغلب إلا بعد شِدّة ساقها الله إليه، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(ثُمّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنّ اللّهَ هُوَ التّوّابُ الرّحِيمُ(118))

[سورة التوبة]

أي ساق لهم مِن الشّدائد ما حملهم بها على التوبة، فهذه الشِدّة تبدو للإنسان الأعمى شرًا، و ّما هي إلا مَحضُ خيرٍ، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلّهُمْ يَرْجِعُونَ(21))

[سورة السجدة]

وهناك آيات كثيرة جدًا تُشير إلى هذا المعنى، قال تعالى:

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ(27))

[سورة الشورى]

فأحيانًا تكون قِلّة الرِّزق أحد الكوابح التي تكبح الإنسان عن معصيَة الله عز وجل قال تعالى:

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة الحديد]

وأيُّ شيءٍ مهما بدا لك مُستحيلاً فالله جلّ جلاله قادرٌ عليه، فهذا الذي يتوجّه إلى الله عز وجل ويُقْبِلُ عليه ويشْعُر أنّ الله على كلّ شيءٍ قدير لايعاني من قلق، أو خوف، أو حزن أو يأس، أو قنوط، فالحُزن والقلق والخوف لا يتأتّى إلا مِن إنسانٍ ضَعُف إيمانُهُ، أما إن قَوِيَ إيمان الإنسان فلا شيء يقلقه، فالله موجود، وهو على كلّ شيءٍ قدير، وهو ذو أسماءٍ حُسنى، وصفات فضلى، والأمر كلّه بيدِهِ و يعود إليه، وهو الذات الكاملة، و من هنا كان عليه الصلاة والسلام إذا أصابهُ مكروه قال:

((لا إله إلا هو العظيم الكريم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم))

فالأمر كلّه بيَدِهِ، فأحيانًا يقول لك إنسان: أتمنّى كذا وكذا ولكنّ الأمر ليس بيَدِي ! أما إذا أيْقَنْتَ أنّ الأمر كلّه بيَدِ الله تعالى، وأنّ أمرَهُ هو النافذ، وأنّه إذا حكم لا مُعَقِّبَ لِحُكمِهِ، وأنّه له الخلق والأمر، وهو على كلّ شيء قدير، وهو الرحمن الرحيم، والسميع البصير، وهو الغنيّ، فلا يمكن لأي قلقٍ أو خوفٍ أو همّ أو حزنٍ، أن يدخل إلى قلبك، فالإنسان يحْزن، ويهتَمّ، ويخاف، ويقلق على قدْر ضَعف إيمانه، فكلّما قوي إيمانه ازْداد ثِقَةً بالله عز وجل، وازْداد تفاؤُلاً بعَطائِهِ، ولكن أيها الإخوة، لقد خلقنا الله في هذه الحياة الدنيا، وما أرادنا أن نرْكن إليها، فإذا ركَنّا إليها، جاءَتْ المنغِّصات فسبحانه وتعالى أرادنا أن نعْمل للآخرة، فالإنسان حينما يجعل الآخرة أكبر همِّهِ يرتاح مِن عَناء الدنيا، وإنّ أسْعَدَ الناس في الدنيا أرْغبهم عنها، وإنّ أشقاهم فيها أرغبهم فيها، فالإنسان متى ينجو من عذاب الله في الدنيا ؟ إذا كان وفق الطريق المستقيم، ونحو الهدف الصحيح، فالأب لا يُعقل أن يضرب ابنه وهو متفوّق في دراسته، ومُحسنٌ إلى إخوته، ومنضبطٌ بِتَعليمات والِدِه، هذا مستحيل، ولأنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(147))

[سورة النساء]

فالشّدائد سببها خروج الإنسان المُخيَّر عن منهج الله تعالى، ومن رحمة الله به أن يُعيدَهُ إلى الطريق الصحيح، فهذه الشّدائد التي يسوقها الله للإنسان في ظاهرها شرّ، أما في حقيقتها فهي خير، و سوف نُسمِّيها الخير النِّسْبي، أيْ المصير فيها إلى خير، فهذا صاحب السّفينة الذي ركِبَ معه سيّدنا الخضِر قد خَرَق له السفينة،وخرْق السفينة شر في ظاهره ؟ قال تعالى:

(وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا(79))

[سورة الكهف]

وكان وراءهم ملك يُصادر كلّ سفينة فلمّا رآها مخروقة تركها، وبعد حين أصلحها صاحب السفينة فعادَت مِلْكًا له، إذًا ما الذي نجّاهُ من المُصادرة ؟ إنه خرْق السفينة، فهل كان خرقُ السفينة خيراً أم شراً؟؟ هو شرّ في ظاهره، أما في مآله فهو خير، و حينما يفْهم المؤمن المصائب في الدنيا كلّها على هذه الشاكلة يسْعدُ مع ربّه، ويرْضى بقضاء الله وقدرِهِ، وحالة الرّضا من أرقى الحالات التي يُحصّلها المؤمن، والآية الكريمة تقول:

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(119))

[سورة المائدة]

إنك لا ترضى عنه إلا إذا عرفت كمالهُ وحِكمَتَهُ، فالإنسان أحيانًا قد تُلِمُّ المشكلة به ؛ فيتألق من خلال هذه المشكلة، وقد قال العلماء: الحُزن خلاّق ! فالرّخاء والنّعيم والبَحبوحة والمال المتوافر لا يصْنعُ وطنًا، بل يصنعُ إنسانًا متكبّرًا تافهًا، ولكنّ الفقر أحيانًا يصنعُ المبادئ والقِيَم، فيتألّق الإنسان من خِلال هذه المشاكل والمتاعب، بل إنّ الأنبياء صلوات الله عليهم أشدّ الناس بلاءً، والنبي عليه الصلاة والسلام أشدُّ الأنبياء بلاءً، والبلاء الذي يُصيب الأنبياء إنها يكون من أجل أن يصدِر كمالهم، فهناك كمال لا يبدو في الأحوال العاديّة، فلو أننا رأينا زوجين متفاهمين ومخلصين، فنحن لا ندري هل إخلاص هذا الزّوج لِزَوجته، بسبب كون زوجته في مستوى طُموحه وبسبب الخدمات الكبيرة التي تقدمها له، لا ندري ! أما حينما تمْرض مرضًا طويل الأمد فلا يتأفّف الزوج بل يعكِفُ على خِدمتها ويرْعى أولاده دون تبرّم عندئذٍ نقول: هذا زوجٌ مخلص، فالذي أظهر إخلاصه هو مرض زوْجته فلو لم تمرض لما ظهر إخلاصه، فبدا كأنّه زوجٌ أنانيّ، يحبها لأنّه تحقق له مطالبه، أما حينما يعتني بها عند المرض يظهر كماله، وإخلاصه، فمعنى ذلك أنّ الإنسان قد لا يتألّق ولا يظهر كماله ولا حقيقة محبّتِه ولا شوْقِهِ إلا بالشّدائد، فالشدائد مِحَكُ الرّجال، والإنسان لا ينكشف على حقيقته إلا عند الشِدّة، فلذلك كان الله تعالى يُحيي ويُميت، ويبسُط الرّزق لمن يشاء ويقدر، فأنت قد تصْحب إنسانًا قويًا في نظر الناس، ثم تستعين به في قضيّة ما فيقول لك: هذا فوق طاقتي ! فقُدرته محدودة، فيكون قد خيّب ظنّك، أما إذا كنت مع الله عز وجل فهو على كلّ شي قدير، وهناك قِصص لولا أنّها وقَعَت وأني أعرف أشْخاصها لصَعُبَ عليّ تصديقها، فهذا مريض فُحِص من طرف خمسة أطباء بريطانيّين فقالوا له: إنّ السرطان في درجته الخامسة، ولا سبيل للشِّفاء، فدعا الله تعالى من قلبه فشفي، فمهما كان المرض عُضالاً، فإن الله تعالى قد يخلق من الضّعف قوّة، ومن المرض شِفاءً، ومن الفقر غِنًى، ومن الخفاء ظهورًا، ومن العَجز تفوُّقًا، فإن اعتَمَد الإنسان على الله فهو أقوى الناس، وإن توكّل عليه فهو أغنى الناس، وكلمة (وهو على كلّ شيءٍ قدير) لها مدلول كبير لدى لمؤمن، فالطِفل الصغير الذي له أب غنيّ، لا يشعر بالضّيق لأنّ كلّ

شيء مُأمّن له، قال العلماء: هو غنيٌّ بغِنَى والدِه، والمؤمن قِياسًا على هذه القاعدة فقير، ومسْتَعَف، ولكنّه غنيّ بإقباله على الله تعالى..

وما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع

وما لي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددْت فأيّ باب أقرعُ

ومن الذي أدعو فأهتف باسمه إن كان فضلك عن فقيرك يُمْنعُ

قال تعالى:

(يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحديد]

حقيقتا الزمان والمكان:

إن في الكون حقيقتان ؛ هما: الزّمان والمكان.

الزّمان:

إن كل شيء في هذا الكون مهما أوْغل في القِدَم لا بد أن يكون قبله شيء آخر هو أصل له، وهكذا إلى أن تصل إلى شيء بدأ الله به الكون، فتسأل: ماذا قبلهُ ؟! إن الذي قبله هو الله، وإنك إذا تابَعتَ النّظر بعد المستقبل رأيت أن كلّ شيء لا بد أن يكون بعدهُ شيء، إلى أن تصل إلى شيء فتقول: ماذا بعده ؟ إن ما بعده هو الله، فهو الأوّل والآخر وهو المحيط بالزّمن بدءاً وانتهاءً، فكلّ شيء له بداية و نِهاية، والأصحّ هو أنّ الله سبحانه وتعالى هو واجب الوجود، وما سِواه ممكن الوجود لأنه حادث وسبقَهُ عدم، وينتهي إلى عدم، إلا الله تعالى فهو الأوّل فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، وهو المُحيط بالزّمن، وهو الظاهر والباطن وهذا وجه إحاطته بالمكان أيضاً، قال تعالى:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحديد]

المكان:

إن كلّ شيء ظهر لك ؛ الله هو الذي أظهرهُ، وكلّ شيءٍ خَفِيَ عليك الله هو الذي أخفاه عنك، و الله فوق الإنسان مهما بدا هذا الإنسان لك عالياً في مقامه، والله وراءه مهما بدا لك خفيًا، فقد تمر بك حوادث فيُقال لك: فلان هو الذي حرّكَها ! فمَن حرّكَ الذي حرّكها ؟! الله عز وجل، وقد تجد إنساناً خالي الذِّهن، فيُلْقى في ذِهنه أن سَلوا فلانًا عن الوثيقة الفلانيّة، فإذا سألوه وجدوها مزوّرة ! فيوضع المزوّر في السِّجن، فمَن ألقى في ذِهن هذا الموظّف هذا السُّؤال ؟! الله عز وجل، والإنسان، و كلّما تعمّق في التّوحيد خفتت مشاعر حقده، لأنه يرى أنّ الله وراء كلّ شيء، وأن يدُ الله تعمل في الخفاء، فإذا رأى

شيئاً ظاهر علم أن الله أمامه، وإذا رأى شيئًا يتحرّك بذكاء بالغ علم أن الله تعالى وراءه، لأنه يعلم أن الله سبحانه تعالى هو الظاهر والباطن، قال تعالى:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحديد]

علم الله مطلق:

(عليم): كلمة مطلقة، فهو بِكُلّ شيءٍ عليم، ولا يمكن لعلمه أن يُحدّ، فعلمه تعالى عِلمُ كَشفٍ لا عِلم جبْرٍ! علم ما كان وعلِمَ ما يكون،وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ! وعِلمُ الله مطلق، فلو أنّ قاضٍ أصْدر مائة حُكم وتفوّق في تسعة وتسعين حكمًا وظلم في واحد فقط لأعتبر هذا القاضي عادِلاً عند الناس !! لأنّ الأحكام البشريّة نِسبيّة، وليس هناك من إنسان لا يُخطئ، فإن لِكُل جواد كَبوةً، ولِكل حُسام نبْوَة، ولِكلّ عالم هفْوَة، فإذا قلتَ: فلانٌ عالم، فليس المعنى أنّه لا يخطئ ! ولكنّ المعنى أن خطأهُ قليل، فإطلاق الأحكام على بني البشر إطلاق نِسبيّ، أما إن قلنا: الله تعالى عادل، فَعَدل الله تعالى عدل مُطلق، ورحمتهُ مطلقة، فلو أنّ إنسانًا واحدًا مِن عند آدم إلى يوم القيامة ظُلِم لما كان الله تعالى عادلاً بالمعنى المطلق، فكل صفات الله عز وجل من عدْل ورحمة وحِكمة هي صفات مطلقة، فهذه النُّقطة دقيقة، فلا وجود للنِّسْبيّات مع الله تعالى، قال تعالى:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحديد]

قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

[سورة الحديد]

في ستة أيام:

الآية واضِحة، فلعلّ (ستة أيام) تعني سِتّ مراحل، مرت بالأرض إلى أن أصبحت صالحةً للحياة، ولعلّ المراد أن السماوات والأرض صُممت على نظام ليل ونهار، وصَيفٍ وشِتاء، وخريف وربيع، فالآية واضِحة في معانيها، أما المعنى الحقيقي فالله أعلم به.

فقد قال الله تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

[سورة الحديد]

قال الإمام مالك: **" الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة "**، وقال بعض المفسّرين: الاسْتِواء هو الهَيْمنَة، و أوضح مثل على ذلك أن الطائرة أو المركبة أو السفينة عندما تُباع ويقْبِضَ

ثمنها، يصبح أمرها بيَدِ من اشتراها، ولكنّ الله تعالى- ولله المثل الأعلى- مُهَيْمِن على كلّ شيءٍ خلقهُ.

ما يلج في الأرض وما يخرج منها:

ثمّ قال تعالى:

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

[سورة الحديد]

فالمُزارع مثلاً قد يودَعَ في الأرض الحب، فكَمْ عدد الحبوب التي بذرها ؟ وما مصير هذه الحبوب ؟ هل ستُنبت أم لا ؟ هذا من علم الله، فكلّ شيءٍ دخل في الأرض يعلمهُ الله، وكلّ شيءٍ خرج منها يعلمه أيضاً، ففي أحد الأعوام كان مجموع إنتاج القمح في بَلدنا مائتان وخمسة وستّين طنًا، ثم أصبح في عام آخر ثلاثة ملايين طنّ !! هذا على الرغم من أن المساحة والطرق و السُقيا بقيت كما هي، فالمحاصيل الزّراعيّة ليس لها قاعدة، فأحيانًا تأتي بكَمّيات مذهلة، وأحيانًا تأتي بالقليل، ومن هنا ورد في الحديث:

عَنْ أَنَسٍ قَالَ غَلَا السِّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ سَعِّرْ لَنَا فَقَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّزَّاقُ وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بِمَظْلِمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ))

[رواه الترمذي]

والمعروف أنّ السواحل دائمًا دافئة وقلّما تصاب بالصّقيع، وفي بعض الأعوام هبطَت الحرارة في الساحل إلى تسع درجات تحت الصِّفر، فقال القاطنين هناك: ما مرّ معنا صقيع كهذا من خمسين سنة مضت، وهذا يُتلف مزارع بمِئات الملايين ! كما يتلف ثروة زراعيّة ثمينة، فكلّ شيءٍ يدخل الأرض أو يَخرج منها يعلمهُ الله تعالى.

ما ينزل من السماء وما يعرج فيها:

قال تعالى:

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ)

[سورة الحديد]

كمِّيات الأمطار:

إذا قرأت النّشرات الجَويّة رأيت العجَب العُجاب ! ففي هذه المنطقة هطل ستِّين مليمتر، وفي هذه المنطقة هطل مليمتر واحد !! وهنا لم يهطل شيء، فتوزّع الأمطار شيءٌ عجيب، فكل توقُّعات البشر، من أنّ الأرض تميل نحو الجفاف، وأن حروباً ستقام من أجل المياه إنما هي من أجل بثّ اليأس والقنوط، والله عز وجل هو الرزاق ذو القوّة المتين، فبَعد أنْ مرّتْ دمشق بسبع سنوات عِجاف، التي كان فيها مُعدّل الأمطار يقِلّ عن مائة وخمسون مليمتر، وبعد أن أيْقن العلماء أنّ خطّ المطر انتقل عن

دِمشق وأنها أصبحَت مع المنطقة الجاقة، فوجئنا قبل سنوات ثلاث بِثلاث مائة وخمسين مليمتر !! وقد قرأتُ أنّ بعض الينابيع التي جفّت من ثلاثين عام قد تفجّرت إثر هذه الأمطار الغزيرة! فكيف حصَل هذا ؟! قال تعالى:

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

[سورة الجن]

قال تعالى:

(وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ)

[سورة الحديد]

إذا رأى الإنسان المؤمن منخفظًا جويًا قادمًا نحو البلد ؛ قال هذه رحمة الله قد أتَتْ، لأنّ أصل الرّزق هو الماء، قال تعالى:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد]

فالله تعالى مع المؤمن في كل زمان ومكان، قال تعالى:

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا)

[سورة يونس]

وقال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213)وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ(214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215)فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ(216)وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(217)الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(218)وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ(219)إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(220)هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ(221)تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(222))

[سورة الشعراء]

فهذه الآيات المتتابعة تصف ذات الله عز وجل، ونحن نقرأ هذه الآيات ونتدبّرها، ونقف عند مَدلولاتها دون أن نُحاوِل أن نغوص في معنى بعض الآيات إلى درجة نصل فيها إلى ذات الله، فهذا فوق طاقتنا ! لكنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد]

" وهو معكم أينما كنتم ":

فهو معكم بعِلمه، ومعكم حقيقةً، قال تعالى:

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

[سورة الحديد]

فأنت إن سكت علم، وإن تكلّمت سمع، وإن تحرّكت رأى !

" وإلى الله ترجع الأمور ":

قال تعالى:

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

[سورة الحديد]

فالأمور في النِّهاية بيَد الله عز وجل، وهو الذي يُحي ويُميت، ويوسع الرزق، ويقلِّلهُ، وهو الذي يرفع ويخفض، فإليه الأمور ترجع.

قال تعالى:

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

[سورة الحديد]

هذه الآية تبثّ في قلب المؤمن الراحة، فالأمر كله بيَدِ الله تعالى، فإذا كانت لك خُصومة مع إنسان، ثم رُفِع الأمر إلى قاض عادِل، وكنت واثِقاً بِعَدالته ونزاهتِهِ، كما أنك كنت على حق، فهل تقلق عندئذ ؟؟ فالإنسان المؤمن حينما يقرأ هذه الآية يطمئنّ، ولا يخشى أحدًا إلا الله تعالى، كذلك يشعر المستقيم بطمأنينة عندما يتلو قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30))

[سورة فصلت]

فإذا كان الله وليّك فهل تخاف أحدًا ؟! و القضية هي أن تستحقّ أن يتولّى الله أمرك، والذي يجعلُكَ مُستحِقًا لهذا أن تكون قائماً على طاعته، ومن هنا قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13))

[سورة الحجرات]

فالتَّفرقة بين العباد إنما هي بالطاعة فقط، فالعباد يتفاضلون فيما بينهم بطاعتهم لله عز وجل، فإذا أطَعْتَ الله فأنت في ظِلِّه، وتستحقّ عند ذلك أن ينْصرك ويثبّت خُطاك، ويُلقي على قلبَك السكينة، كما تستحق أن يُوفِّقَك، و يحْفظك، و يمدّك بمنّ من عنده، وهذا كله من أجل طاعتك له، فالله يطلب منك الاستقامة وأنت تحقّ لك بالاستقامة الكرامة !

ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل:

قال تعالى:

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)

[سورة الحديد]

أوْلَجَ بِمَعنى: أدخل، و هذه الآية تُشير إلى كُروِيّة الأرض، فالكرة إذا دارتْ أمام مَنْبع ضَوئي تداخل الضّوء والظّلام بِشَكل لطيف، أما إذا كان الشكل مكعّبًا، فإن الضّوء يأتي فجأة فيحدث الظلام فجأةً، وإن أيّ شَكْلٍ هندسي آخر له أضلاع يمنع تداخل الليل في النهار، قال الله عز وجل:

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)

[سورة الحديد]

فالذي خلق الأرض وحرّكها في دورةٍ حول نفسها وحول الشّمس، يعلمُ ما في نفسك، والإله الذي تعبدُه وتُصلّي له وتُطيعُه هو الذي يُحرّك الأرض، فالأرض تدور حول نفسها ألفاً وستمائة كيلو متر في الساعة، و تدور حول الشمس ثلاثين كيلو متر في الثانية، والأرض في حركتها حول نفسها وحول الشمس إنما هي بيد الله عز و جل، فهو الذي يحركها، وهو الذي يعلم ما في نفسك، لذا كان علم الله عز وجل علماً مطلقاً، كما أن كماله مطلق، وقدرته مطلقة، وغناه مطلق.

قال تعالى:

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

[سورة الحديد]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 7-10
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-03-29

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنفاق برهان الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

أيُّها الإخوة الكرام، مع الدرس الثالث من سورة الحديد، ومع الآية السابعة، وهي قوله تعالى:

(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

الإيمان درجات:

الخِطاب هنا مُوجَّه إلى الذين آمنوا، والواو واوُ الجماعة ، وهي تعود على الذين آمنوا، والإيمان درجات، و الوصول إلى بعض درجاته لا يكفي، فلا يمكنك أن تقطف ثمار الإيمان إلا إذا حملك على طاعة الله تعالى، فإن لم يَحْمِلك على طاعة الله كان إيمانك غير كافٍ، وهذا النوع من الإيمان لا يُنَجِّي صاحبه، وأوْضحُ مثلٍ على ذلك، أنّ إبليس قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82))

[سورة ص]

فإبليس آمن بالله تعالى ربًا ولم ينجّه إيمانه، فليس كلّ إيمانٍ يُنَجّي صاحبه، قال تعالى:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ(38))

[سورة الزمر]

لذلك لم يحفل القرآن الكريم كثيرًا بإيمانك بوُجود الله تعالى وبأنه خالق السماوات والأرض، ولكنّه ألحّ كثيرًا على إيمانك بوَحدانيّته، فلو سألت كلّ الناس في الأرض حتى عُبّاد الأصنام منهم - باستثناء قلّة قليلة ركِبَتْ رأسها - لقالوا: الله الذي خلق السماوات والأرض، ولكنّ الإيمان الذي ألحّ عليه القرآن هو أن تؤمن بأن الله إلهٌ واحد، وأنّ الأمر كلّه راجعٌ إليه، وأنّ مقاليد السماوات والأرض بيدِهِ، وأنّه في السماء إله وفي الأرض إله، وأنّه يحكم لا معقِب لِحُكمه، وأن له الخلق والأمر، فالإيمان المطلوب هو أن تؤمن بوَحدانيّتِه، وأن تؤمن بأنّه إله بيَدِهِ كلّ شيء، ففي اللّحظة التي تؤمن فيها بوَحْدانيّتِهِ يجعلك هذا الإيمان تستقيم على أمره، فتصبح كلّ شؤونك متعلِّقة به، فإذا عرفْت هذه الحقيقة أقْبلت عليه ورَجَوتَ منه الخير وأخلصْت له وحده، وأفْردته بالعبوديّة والإنابة، فالطالبٌ الذي تعلّم القراءة والكتابة ؛ يمكننا

أن نقول له: ادرس ، ولكن هذه الدراسة تكون حسب مستواه العلمي الذي وصل إليه (ابتدائي، إعدادي، ثانوي، جامعي)، فليس كل من تعلّم القراءة والكتابة ملماً بكل شيء، و الإيمان أيضاً له درجات، وفيه درجات عالية جدًا، قال تعالى:

(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

وفي آية أخرى، قال تعالى:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا(136))

[سورة النساء]

فهناك من يقنع بمُستوى إيماني بسيط لا يُقدِّم ولا يؤخِّر، ولا يحْملهُ على طاعة الله، وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى هذا المعنى، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهم أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ)

[رواه البخاري]

قاعدة: إذا كان هناك معْصيَة، فمعنى ذلك أنّ هناك ضَعفًا في الإيمان فقد قال تعالى في آية تتحدث عن اليوم الآخر:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنْ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ(74))

[سورة المؤمنون]

و(الصراط) هنا: الصِّراط المستقيم، فمن الذي ينحرف عن هذا الصِّراط ؟ من لا يؤمن بالآخرة، ومعنى ذلك أنّ أي انحراف في السلوك يُقابله انحراف في العقيدة، فالإنسان مَدعُوٌّ إلى أن يؤمن على الرغم من كونه مؤمناً، كما أنه مَدعوّ إلى أن يزداد إيمانًا لأنّ الإيمان يزيد وينقص، والدليل قوله تعالى:

(فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

[سورة الكهف]

والإنسان أحيانًا يُمسي مؤمنًا ويُصبحُ كافرًا، فالإيمان يذهب بالمعصيَة ويتقوّى بالعمل الصالح، فهو في عقيدة أهل السنّة والجماعة يزيد وينقص، فمهما كنتَ مؤمنًا فهناك درجة أعلى في الإيمان، ومهما أوْغَلْتَ في أعماق الإيمان فهناك مستوى أعمق.

أيها الإخوة الكرام، يقول تعالى:

(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة الحديد]

إن الإيمان باليوم الآخر مِن لوازم الإيمان بالله تعالى، وقد ذَكَرْتُ هذا في خطبة اليوم، لأنّ الذي لا يؤمن بالآخرة لا يستقيم على أمر الله، قال تعالى:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنْ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ(74))

[سورة المؤمنون]

فالإيمان الذي لا يحمِلُك على طاعة الله والإخلاص له، ولا يدفعُك إلى بابه سبحانه هو إيمان غير كافٍ، فنحن لا ننكر أنّ فلانًا من الناس مؤمن، لكن إيمانه غير كاف ما دام مصراً على المعاصي، ولا يتّبع المنهج كاملاً، فالإنسان يحتاج إلى تجديد الإيمان و تقْوِيَتِهِ، والإيمان ما وقَر في القلب، وأقرّه اللِّسان، وصدّقَهُ العمل.

أنا مضْطرّ أن أقول كلمة في هذه المناسبة وهي: أن العِبرة ليست في القول، فالقَول لا يقدِّم ولا يؤخِّر، وقد ضربت على ذلك مثلاً فقلت: يمكن للطالب أن يقول: أنا مهتمّ أشدّ الاهتمام بالنّجاح، بل إني أُعلِّق على النّجاح آمالاً عريضة، فالنجاح هدفي الأكبر ؛ و هذا كله كلام، فإن هو لم يفتح الكتاب أبداً، ولم يعْكف على الدروس، ولم يُداوِم، كان كلامه مرفوضاً، بل إن عملهُ يكذّبه، و الإنسان أحيانًا يقول لك: الله عز وجل عظيم، والجنّة والنار حق، ونسأل الله أن يجعلنا مؤمنين، فما لنا إلا عفْوه وكرمه، فتنظر إلى سلوكه فتجده يتعامل مع النّاس بطريقة سيئة، وكأنّ الحياة الدنيا بالنسبة له هي كلّ شيء، وكأنّ ما بعد الموت لا شيء، فعلى الإنسان أن يكسب وقتهُ وعمْره، والعمر قصير، والمسؤوليّة كبيرة، والسُّؤال دقيق، والناقِد بصير، والبحر عميق، وما علينا إلا تَجديد السّفينة، وعلينا أن نُكثر الزاد فإنّ السّفر بعيد !

الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم:

عليك أن تؤمن بالله تعالى خالقًا، ومُربّيا، ومُسيِّرًا، وموجودًا، وكاملاً، وواحدًا، كما عليك أن تؤمن بأنّ هذا الذي أرسلَهُ الله تعالى إلينا وأنزل عليه الكتاب هو رسوله صلى الله عليه وسلّم، و هو مُشرِّع لا ينطق عن الهوى. سألني أخٌ مُداعباً فقال: هل يمكن للنبي عليه الصلاة والسلام أن يأتي في هذا العصْر، ويتحدّث عن طريق الإعلام والإذاعة والأقمار الصِّناعيّة ؟؟ فقلتُ له: إنّ الأُمِّيّة في حق النبي عليه الصلاة والسلام كمال، والأُمِّيّة فينا نقص، لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام مُهيّأ لِتَلَقِّي الوحي من السّماء، فينبغي أن يكون الوعاءُ نظيفًا وخاليًا وفارغًا ليكون مؤهلاً لهذا التلقي. قال تعالى:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(48))

[سورة العنكبوت]

فلو أنّ النبي عليه الصلاة والسلام تلقّى مِن ثقافات العَصر، واطّلعَ على ثقافات الشُّعوب، وقرأ ودرسَ ثمّ جاءَهُ الوحي لاخْتلطَت علينا الأمور، فكلّما حدّثنا بحديث شريف نقول له: يا رسول الله ! هذا من الوحي أم مِن ثقافتك ؟! قال تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3))

[سورة النجم]

فالكمال أن يتنزّل هذا الكتاب على النبي الأمّيّ، وأن يكون الوحي في أعماق الصّحراء فلو نزل الوحي في مُلتقى الحضارات والثقافات وأماكن التبادل، لكان هذا المُعْترك لا يُناسب نقاوة الدّعوة وصفاءها، فقد نزل الوحي في مكّة والمدينة وفي عصْر كانت فيه الأمور بسيطة، ويغلب على الناس الصِّدق والصّراحة، أما عندما تتعقّد الحياة، وتتداخل المفهومات تسقط الكلمة، والكلمة في ِعَصرنا الحالي لا قيمة لها لأنّها مُزوّرة، والكلام الآن يتناقض مع الأحوال، فالواقع شيء، والكلام شيء آخر**!** فالرّسالة السماويّة نزلت في وقتٍ كان للكلام فيه قُدْسيّة، لذلك قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(24))

[سورة إبراهيم]

فيجب أن تؤمن أنّ الله سبحانه وتعالى أنزَلَ على عبْدِهِ الكتاب، وأنّ النبي عليه الصلاة والسلام بيّنَهُ أوْسَعَ بيان، وأنّك إذا اسْتَغْنَيتَ عن السنّة خالفْت نصّ القرآن، و الآن هناك دَعَوات إلى نبْذ السنّة والاكتِفاء بالقرآن، وقد قلتُ لأحدهم: منْ يَدعُ إلى ترْك السنّة والتّمسُّك بِكِتاب الله وحده فقد خالف كِتاب الله تعالى **!** لأنّ الله تعالى يقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(7))

[سورة الحشر]

فالنبي مُشرّع ومُبيّن، ومُفصّل، ومحبّتك للنبي عَينُ محبّتِك لله تعالى، وأخْذك عن النبي عَين أخذك عن الله تعالى لأنّ الله سبحانه وتعالى اصطفاه وعصَمهُ، وأوحى إليه،و كمّلهُ، فهو القدوة والمثل والمُشرّع والمُبيّن، قال تعالى:

(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

فإن فرّقت بين الله ورسوله كنت مبتدعاً، وجئتَ في الدِّين ما ليس منه، لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام معصوم من أن يخطئ في أقواله وأفعاله و إخباره، والله هو الذي عصَمهُ، و الإيمان داخلي ما هو إلا قناعة ومشاعر ووجهة إلى الله عز وجل، ولكنّ البطولة أن تؤكّد هذا الإيمان بعَمل، وما الذي يُؤكِّد إيمانك ؟ إن ما يؤكد إيمانك هو إنفاقك، والسّبب في ذلك أنّ الإنفاق يتناقض مع طَبع الإنسان، فإذا أنْفقَ فمعنى ذلك أنّ إيمانه صحيح، وأنّ يقينهُ كبير، وعدم الإنفاق يدلّ على عدم الإيمان ؛ و هذا لِمَن وجد سعة طبعًا، فالإيمان شُعور وقناعة وشيء داخلي لا يطّلِعُ عليه أحد، لكنه يتجسّد بالعمل الصالح و حيثما وردَت: (الذين آمنوا) جاءَ بعدها: (وعملوا الصالحات).

والحقيقة أن الإنفاق في هذه الآية شامل، و يُطلق على إطلاقه، فلك أن تنْفق مِن مالك، ولك أن تنفقَ من وقتِك، ولك أن تنفقَ من عضلاتك، ولك أن تنفق مِن خِبرتِك، ولك أن تنفق من عِلمِك، وجاهِكَ، وحِرفَتِك، و دراسَتِك، وممّا جعلك الله فيه قائمًا، قال تعالى:

(وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ)

[سورة الحديد]

معاني (مستخلفين فيه):

وكلمة ممّا جعلكم مستخلفين فيه تُفيد معانٍ كثيرة:

1- التمكين: وهو أولى المعاني:

كيف أعطاك الله تعالى المال ؟؟ لقد أعطاك المال عن طريق خِبْرةٍ مكَّنَكَ مِنها أو حِرفَةٍ جعلك تتْقِنها، أو عِلْمٍ مكنك من تحصيله، فعِلمُكَ بيَدِ الله عز وجل، والله عز وجل حينما علّمَكَ و أغناك و قوّاك و سمَحَ لك أن تُتْقِنَ حرفَةَ استَخلفكَ، فالإنسان هو خليفة الله في الأرض.

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(30))

[سورة البقرة]

فالإنسان خليفة الله في الأرض، وسوف يُحاسبُهُ الله على ما صنع، لذلك كان الإنفاق دليلاً على الإيمان، فهل يتردّد التاجر ثانيَة في شِراء بضاعة جيّدة جدّاً و ذات سعر معتدل، ومطلوبة بشكل كبير، ؟ إنه قد يسْتقرض ثمنها ! و الإنسان حينما يوقن أنّ الآخرة هي محطّ الرّحال و نِهاية الآمال، وأنّ التّعامل مع الله يحتاج إلى عمل، وأنّ هذه الآخرة ثمنها العمل الصالح، وهو مُتاح في الحياة الدنيا يُقدم على الإنفاق، و الإنسان لا ينفق إلا إذا عرف الله تعالى.

2- التوارث:

إن هذا البيت أو هذا المحل التِّجاري قد ورثه ابن عن أبيه، وهذا المنصب في الجامعة قد ورثه أستاذ ناشئ عن آخر متقاعِد، فالناس أفواج وأفواج، فأفواجٌ منهم ينسحِبون من الحياة، وأفواج يدخلون، ونحن مُسْتخلفون في هذه الأرض، فقبل مائة عام مثلاً كان كل من في هذه المدينة غير الذين هم فيها الآن، ومرة وقفْتُ في أحد أسواق دمشق الشّهيرة، فنظرْت وقلتُ: إن كل هذه المحلاّت التِّجاريّة كان أصحابها غير الذين هم الآن ! وبعد خمسين عام آخر سيتبدّل (الطّقْم).

3- الوكالة:

إذا كنت مستخلفاً فهذا يعني أنك وكيل، و أن يدك على المال يد الأمانة، فالله سبحانه وتعالى مكّنَكَ وراقبَك، وسوف يُحاسبك، فحينما تعتقد أنّ هذا المال مالك تكون واهماً ! بل هو مال الله، و قد خاطب أحد الأعراب النبي عليه الصلاة والسلام بغِلظةٍ و فظاظة وهو سيّد الخلق، وقال له: أعْطِني مِن مال الله! ؛ أي: إذا كان بيَدك مال فهذا مال الله، وكذا إن كانت لك خِبرة، فهذه خبرة أعطاك الله إياها، فإن منعْتها فالله تعالى عنده عقوبات كفقْد ذاكرة مثلاً، وقد سَمعتُ أنّ هناك فقْد تدريجيٌّ لخلايا الذاكرة، أي أن تموت خلايا الذاكرة شيئًا فشيئًا ! فينسى الإنسان عند ذلك بعض خِبراته، ثم ينسى أولاده، إلى أن ينسى نفْسه، فكلّ خِبراتك موجودة في ِذاكرتك، وقد تفْقدُها وأنت لا تدري، و كذلك حال مالك، فقد تفقده فجأةً، والله تعالى إذا أعطى أدْهش، وإذا سلبَ أدْهش، فهناك أناسٌ يملكون ملايين مُمَلّيَنة، ثم يأتي عليهم زمان لا يجدون فيه ثمن رغيف خبزٍ !

4- المعنى الرابع:

ومن معاني الاستخلاف أنّ الإنسان هو المخلوق الأوّل الذي جعله الله خليفة في الأرض لِيَحكم بالعَدل، ويرحم الخلق، ويُعطي، ومعنى مستخلف: أنّ يد الإنسان على ما بين يديه يدُ الأمانة، وقد سئِلَ أعرابيّ بيَدِهِ قطيعٌ من الإبل، لِمَن هذه الإبل ؟ قال: لله في يدي ! وقد قالوا: لقد أجاب أبلغ إجابة في اللّغة العربيّة، فهي لله وهي الآن في يدي.

فحِرفتُكَ و مالك ما هما إلا تمكين لك من الله، فهذا ليْس ملكك، بل أنت مستخلف على ما في يدك، والله سبحانه وتعالى ناظرٌ ماذا تصْنع، لذا ورد في بعض الأحاديث أنّ الله سبحانه وتعالى اختَصّ أناسًا بِنِعَم، يُقِرُّهم عليها ما بدلوها فإذا منعوها سلبها منهم، وحوّلها إلى غيرهم ! فإذا مكّنك الله من شيء كالمال أو العلم أو الجاه أو القوّة أو اختِصاص أو حِرفة، وجعلك تقرأ أو تكتب فلا بدّ لك من أن تبذل هذا الاختصاص لِوَجه الله لا أن تمْنعَهُ والدليل قوله تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(77))

[سورة القصص]

قال تعالى:

(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

الارتباط الوثيق بين الإيمان والإنفاق:

هناك ترابط وثيق بين (آمَنَ) و(أنْفق)، فالإنفاق دليل الإيمان، والإنفاق يؤكِّد الإيمان ويحقِّقه ويُجسِّده ويُشير إليه، لذا لا يوجد مؤمن على وجه الأرض يسْتقرّ الإيمان فيه لحْظةً إلا وينطلق إلى العمل الصالح، وإنْ صحّ التَّعبير أقول: إنّ بُنْية المؤمن أساسها العطاء، وإنَّهُ يُعْطي لِيَأخذ من الله تعالى، لأنه يُتاجِرُ مع الله، قال تعالى:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10))

[سورة الصف]

فالكافر أساس حياته الأخذ، أما المؤمن فأساس حياته العطاء، فهو يُعطي مِن ماله وخِبرتِهِ ووقْتِهِ لأنَّه يرجو بذلك رحمة الله، فيقرض الله قرضًا حسنًا لِيَنال رِضْوان الله، ويدخل جنَّة ربّه، فالمؤمن طَموح جدّا، وقد يبْدو للناس أنّ المؤمن بسيط، ومحدود الطُموح! لا والله، لن تجد في الحياة الدنيا كلِّها إنسانًا أشدّ طُموحًا من المؤمن، فأهل الدنيا يطْمحون في الدنيا وهي ذات أمد قصير، كما أنها مَشحونة بالمتاعب والهموم، فلا تصفو لإنسان قط، وأساسها التَّبدّل والتَّغيّر، ولا شيء يدوم فيها، فالمؤمن العاقل يختار الآخرة، وهي العطاء الأبديّ السَّرمدي ؛ فلا همّ فيها ولا حزن ولا قلق ولا خوف ولا خصومة، وكلّ متاعب الدنيا لا تجدها في الجنَّة أبدًا، فَمن هو الزاهد الحقيقي ؟ الزاهد الذي زَهِد فيما عند الله تعالى.

قال تعالى:

(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

فإذا قال لك طفل صغير: أنا معي مبلغ كبير ! فماذا يعني هذا ؟ ربما يكون معه خمس وعشرون ليرة!! أما لو قال لك أكبر غنيّ بالبلد: معي ثروة كبيرة جدًا ! فقد تكون معه الملايين، فكلمة (كبير) تكون حسب قدر القائل، وربنا عز وجل يقول:

(فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

والله - أيها الإخوة – إني لم أجِد في الناس من هو أشدّ حمقًا من الذي يزْهد في الآخرة ويُقْبِلُ على الدنيا، على الرغم من أن كلّ ما يملكه في الدنيا مرهون بِنَبض القلب، وقد يتوقف هذا القلب من دون سبب ! فإذا توقّف القلب يقال: كان رجلاً فصار خبراً، وقد يكون شَخصًا ملء السّمع والبصر فيصير بعد ذلك كلمةً على الجدران، وقد يكون ذا حضور في البيت فيغيب عنه، و قد يكون له قرار في تجارته ومكتبته و توزيع أمواله، فيفْقَدَ هذه الصلاحيَّة، ويصبح المال لِوَرَثَتِهِ، فالموت يأتي ويأخذ معه كلّ

شيء.

أيها الإخوة الكرام، ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة الحديد]

كأنّ الله هنا يَعْجب ! فالإله لا تُدركهُ الأبصار، والكون يدلّ عليه، وقد أعطاك أكثر ممّا تستحقّ، فقد أرسل لك إنسانًا من بني جلدتك، يتكلّم فتسْمعه، ويتحرّك فتراه، وتتعامل معه فتُحبُّه، من هو ؟ هو رسول الله عليه الصلاة والسلام، فَمِن رحمة الله بنا أن جَعَل بشراً من بني جِنسنا يُحدِّثنا عن ربّنا ! فعلى الإنسان أن يستنبط هذا المعاني، فقد أكرمه الله تعالى بعقل، وكون ينطق بعظمة الله، ثم أكرمه إكرامًا لا حدود له حينما جعل رسوله بشرًا مثله، قال تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(128))

[سورة التوبة]

يتكلّم ويتزوّج، ويأكل و يشرب وينام، ويتحرّك وينطق، و تجري عليه كلّ خصائص البشر، لكنه كان سيّد البشر لأنّه انتصر على بشَرِيَّتِهِ.

قال تعالى:

(وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة الحديد]

العلماء ورثة الأنبياء:

و قياساً على ذلك، لا بد من ذكر شيء آخر، وهو أنّ كلّ إنسان لديه لقاءات في حِرفتِهِ ومصلحته وبيئته، ولكن كلام الناس في الأعمّ الأغلب متعلِّق بالدنيا، فأصحاب الحرفة الواحدة يتكلّمون عن حرفتهم، والأهل يتحدّثون عن بناتهم وأولادهم وأزواجهم وأعمالهم ومستقبلهم، ولكنّ الله تعالى خلق أناسًا ينوبون عن الأنبياء في إبلاغ الحق للناس، وذلك لِحِكمة بالغةٍ بالغة، و قد وزّع هؤلاء على كلّ بقاع الأرض تَوزيعا جغرافيًا ومكانيًا محكماً، فما من مكان إلا وفيه إنسان أو أكثر يدعو إلى الله، و هذا أيضًا من نِعم الله تعالى، فالتعرف على الله متاح في المسجد مثلاً، فإنك إن دخلته سمعت فيه الحق، ففيه يُتلى كلام الله تعالى، وتقام دروس العلم، فإذا حضرت درس حديث مثلاً، عرفت ماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام، ومن خلال هذا تعرفُ مُراد الله من خلقه، فكما امْتنّ الله سبحانه وتعالى على خلقه بالرُسل والأنبياء، جعل هناك من ينوب عن هؤلاء القِمَم الشامخة في تعريف الناس بالله، فقوّاهم ووفّقهم إلى نقل الحق، وهذه نِعمة من نِعم الله عز وجل، وإذا أردْت أن تعرف من أنت ؟ ولماذا كنت ؟ وماذا بعد الموت ؟ ولماذا خلق السماوات والأرض ؟ ولماذا أوْدع الله فيك الشهوات ؟ وما معنى هذا الكتاب الكريم ؟ وإلى أيّ مدىً تسير فيه ؟ فما عليك إلا حضور مجالس العِلم. يقول الله عز وجل:

(وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة الحديد]

فلو أنّ هناك إنسانًا يكاد يموت من الجوع، وكان أمامه طعام منوّع ونفيس، وكان هذا الطعام من دون ثمن، فقال له صاحب الدّعوة: ما لك لا تأكل ؟! الطعام نفيس وأنت جائع ! فإن أكل كان هذا شيئاً طبيعياً، أما إن لم يأكل فهذا هو غير الطبيعي، وهذا هو الوضع الشاذّ، فكأنّ الله تعالى يقول:

(وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ)

[سورة الحديد]

فالله أنزل كتابًا، وأرسل رسولاً فصيحًا بليغًا لطيفًا كاملاً، فهو كامل بفصاحته وبيانه وأُنسه وإقباله، والنبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق إلا بالحق، وهناك من ينوب عنه في هذه الدّعوة، فما الذي يمنعُك أن تؤمن ؟ قال تعالى:

(وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة الحديد]

كل شيء في الوجود يدعو إلى الله:

إن كلّ شيء خلقه الله يدعو إليه، فالسماوات والأرض تُشيران إلى الله تعالى، وطبيعة النّفس البشريّة تُشير إلى الله كذلك، فنفسُك البشريّة إن لم تسْتقِم على أمْره تعذّبَت، وعلماء النّفس يتحدّثون عن الكآبة، فما هي الكآبة ؟ هي حالةٌ نفسية صَعبة جدًا تأتي بعد الانْحِراف، فالإنسان إذا خالف منهج ربّه شعر بالكآبة، ولو لم يكن هذا الإنسان يعرف شيئًا عن منهج الله، فقد سَمِعْتُ من أحد الأصدقاء في بلاد الغرب قصة تقول: أنّ رجل دين كان يقرأ الكتاب المقدّس، وحوله هالةٌ من نور، فمرّتْ فتاة متبذّلة فنظر إليها فسقط هذا النور مِن فوق رأسه وفقَدَ كلّ ميزاته !! أنا لا يعنيني مؤدّى هذه القصة، ولكن يعنيني أنّ هؤلاء يعرفون أنّ الإنسان إذا كان مطبّقًا لشرع الله اتّصل به، وأنه إذا عصاه انقطَع عنه هذا النور، وهذه فطرة البشر جميعًا، فالله تعالى قال:

(وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة الحديد]

إن كلّ ما في هذا الوجود من طَعام وشَراب وجماد ونبات ونفوس بشرية، كلُ ذلك يشير إلى الله تعالى، لذلك لا يمكن للإنسان أن يرتاح إلا إذا استقام على أمر الله، فإذا فعل انزاحت عنه هموم كالجبال.

قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة الحديد]

الظلمات: جمع، والنور:مفرد، قال تعالى:

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(257) ﴾

[سورة البقرة]

وقال:

﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(126) ﴾

[سورة الأنعام]

فهذا يعني أنّ واحِد الحق لا يتعدّد، أما الباطل فيتعدّد كثيرًا.

آيات الله البينات:

قال تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾

[سورة الحديد]

إن آيات الله تعالى _ أيها الإخوة _ لا تنقطع، فقد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القرآن وهو من آيات الله، لكنْ أفعال الله تشير دائماً إلى وحدانيته، فأحيانا قد يعاقب الله الإنسان عقاباً شديداً، فيعرف الإنسان أنّ هذا العقاب عادل، و أنه آيةٌ من آيات الله، وآياتُ الله قائمة تشير إليه، كالزلازل و البراكين و الفيضانات و القحط المستمر، فلله أفعالٌ تشير إليه، وعرفتٌ اللهَ من نقض العزائم، وأحيانا قد يتمتّع الإنسان بقوّةٍ شديدة و ذكاء حادٍّ، فيخطِّط لمستقبله تخطيطا رائعًا، ولكنّه يكون قد بنى مَجْدَهُ على أنقاض الآخرين، فلا بدّ من أن يُحْبِط الله عمله، فيفاجأ بأنّ الله موجود، وأنّه لا إله إلا الله.

أيها الإخوة، قال تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

[سورة الحديد]

إن كتاب الله مليء بالآياتٌ التي تدلّ عليه وتُشير إلى المنهج القويم الذي ينبغي أن نتّبِعَه، ويبيّن لنا تاريخ الشّعوب السابقة ومستقبل الحياة وحقيقة الدنيا والكون المنهجَ القويم الذي ينبغي أن نتّبعه، والإنسان يكون قبل قراءته القرآن في ظلماتٍ بعضها فوق بعض، أما إذا قرأ القرآن وعقلهُ وتدبّر آياته أخرجه القرآن من الظلمات إلى النور، فيخرجه من ظلمات الجهل إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن ظلمات الشكّ إلى أنوار اليقين، ومن ظلمات التّيه والضّياع إلى أنوار الوجدان، ومن ظلمات التردُّد إلى أنوار اليقين، ومن ظلمات التعسّف في حركة الحياة إلى أنوار منهج واضِح يسير عليه، فالظلمات كثيرة، فمن قرأ القرآن وتدبّرهُ وعَمِلَ به، أخرجهُ من الظلمات إلى النور، وأحيانًا قد يدْعم الله عز وجل هذا الكتاب الذي هو كلامه بأفعاله، فإذا قال تعالى:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصّدَقَاتِ وَاللّهُ لَا يُحِبُّ كُلّ كَفّارٍ أَثِيمٍ(276))

[سورة البقرة]

محقَ المُرابي، وإن كلّ شيء وعد به القرآن أو توعّد به كائن لا محالة، و أفعال الله جلّ جلاله تؤكّد وعْدهُ ووعيده، فهناك آيتان ؛ آية قرآنيّة وأخرى تكوينيّة، وعلى الرغم من ذلك لا يزال الإنسان مُقصّراً، قال تعالى:

(وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالرّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8) هُوَ الّذِي يُنَزّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظّلُمَاتِ إِلَى النّورِ وَإِنّ اللّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

فما لكم لا تؤمنون ؟ وما لكم لا تنفقون ؟ فالمال مال الله، وإنك إن أنفقتهُ أخلفهُ الله عليك، وأتاك مقابله بالأضعاف المضاعفة (أنْفِق بلالاً، ولا تخْشَ من ذي العرش إقلالاً)، قال تعالى:

(وَمَا لَكُمْ أَلّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الحديد]

فالمال لن يبقى لك حتى وإن لم تنْفقه، بل سيكون تركَةً لِوَرَثتِك، فقد سألوا مرّةً شابًا مات أبوه من وقت قريب، إلى أين أنت ذاهب ؟ فقال بالحرف الواحد وباللغة الدارجة: (أريد أن أسْكرَ على روح أبي!!)، فلماذا يبخل الإنسان بمال لا يدري كيف سيَتَصَرّف الورثة فيه بعد موته ؟ إن درهماً تنفقه في حياتك خير لك من مائة ألف درهم ينفَق بعد مماتك، وقد اطّلَعْتُ على عشرين أو ثلاثين وصيّة أوصى أصحابها أن يُنفقَ مالهم على أرواحهم في الخير، وقد كنت شاهداً على هذه الوصايا، بيد أنها لم تُنفّذ منها واحدة، لقد بخل أهله عليه بعشرة آلاف ليرة، مع أنه قد ترك لهم أموالاً طائلة ! فالله تعالى قال:

(وَمَا لَكُمْ أَلّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الحديد]

فهذا المال إن أنفقت منه نجحْت وفُزْت، وإن لم تنفقه أُخِذ منك، وعندئذ تخْسر خسرانًا مبينًا.

تلخيص:

لقد تحدث الدرس اليوم عن الإيمان والإنفاق، والإنفاق في الآية مطلق، وله أبواب كثيرة، فيمكن للطبيب أن يُعالج الفقراء مجّاناً، كما يمكن للمحامي أن يتوكّل قضيّة لإنسانٍ فقير ومظلوم، ويمكن لِصاحب المحل المواد الغذائيّة أن يوزّع منها مجّانًا، فيمكن لك أن تتصدّق من كلّ شيء تملكه ؛ مِن عِلمٍ إلى مال إلى خِبْرةٍ إلى متاعٍ إلى بضاعةٍ إلى غذاءٍ، قال تعالى:

(فَالّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

وقال تعالى:

(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا)

[سورة الحديد]

فالآيات كلّها تتحدث عن الإيمان والإنفاق، والإنفاق يؤكِّد الإيمان ويُحَقِّقه ويثبّتُهُ ويُجسِّدُهُ لذا قال تعالى:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(133))

[سورة آل عمران]

فأوّل صِفة من صفات المتّقين هي كما قال تعالى:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ)

[سورة آل عمران]

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((الصّدقة برهان))

فهي برهان على إيمانك، والصِّدق هو مطابقة العمل للقول، فمن أنفق من ماله دلّ إنفاقه على إيمانه.

و التّوجيه الأخير هو قوله عليه الصلاة والسلام:

((إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم..))

فيمكنك أن تنفق من أيّ شيء آتاك الله إياه، قال تعالى:

(وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا)

[سورة الحديد]

لقد كان الإسلام في بادئ الأمر ضعيفًا، و كان عِبئًا على المسلمين، فلما نصره الله صار ميزة، لكن الذي أنفق في الضرّاء وفي زمن الشِّدة كان له الأجر الأعظم، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((اللهَ الله في أصحابي لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغتم مُدّ أحدهم ولا نصيفه !))

فالذي آمن قبل الفتح كان له درجة أعظم، فقد كان الإيمان في ذلك الوقت صعباً وفيه شِدّة، وهذا يحدث في كُلّ عصر، فالذي يمنع من ممارسة شعائر دينه، ويمارس عليه ضَغطٌ شديد يُضاعف الله عز و جل له أجره، و هناك فرق كبير بين كونك حراً تتحرّك كيف تشاء، وبين أن تكون مقيداً تحْسِب حِساباً لِكلّ شيء، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

[رواه الترمذي]

وأعجب المؤمنين إيمانًا هؤلاء الذين جاؤوا بعدي ولم يروني ! هكذا قال عليه الصلاة والسلام، فالإنسان إذا استقام على أمر الله كان من أحبابه، قال تعالى:

(لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا)

[سورة الحديد]

قال تعالى:

(وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى)

[سورة الحديد]

كما قال عليه الصلاة والسلام:عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[رواه مسلم]

فالكل (على العين والرأس)، وهذا ينطبق على الذي آمن قبل الفتح، والذي آمن بعد الفتح، والذي آمن في الشدّة، والذي آمن في الرّخاء، و كُلاًّ وعد الله الحسنى، قال تعالى:

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

[سورة الحديد]

فالله تعالى يعرف عملك و أبعادك وبواعثك وإخلاصك، و ليس من شأن البشر تقييم بعضهم بل إن هذا من شأن خالق البشر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 11-15
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-04-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيُّها الإخوة الكرام، مع الدرس الرابع من سورة الحديد، ومع الآية الكريمة الحادية عشرة، وهي قوله تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[سورة الحديد]

آيتان تتحدثان عن التدبر:

أيها الإخوة الكرام، قبل أن أبدأ بِشَرح هذه الآيات بِتَوفيق الله عز وجل، أُحِبُّ أن أقف معكم عند آيتين من كتاب الله تعالى، و هاتان الآيتان تتحدّثان عن تدبّر القرآن الكريم ؛ والآية الأولى هي قوله تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

[سورة محمد]

والآية الثانية:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا(82))

[سورة النساء]

فالله سبحانه وتعالى يدعونا في قوله (أفلا) إلى تدبّر القرآن، فمن غير المعقول أن يقف الإنسان من كتاب الله تعالى موقفًا سلبياً (موقف اللامُبالاة)، أو أن يقرأ القرآن من دون تدبّر ولا وعي ؛ من غير أن يصل إلى أبعاد الآيات ومدلولاتها، وما تنطوي عليه من أوامر، ونواهٍ وحِكَم، ثم يتوهّم بعد ذلك أنّه تبارك بهذه القراءة، فهذا لا يليق بالإنسان.

أيها الإخوة: ما مِن نصّ على وجه الأرض أجْدر أن يُقرأه بالعناية والفهم من القرآن الكريم ؛ لماذا ؟ لأنّه كلام الله، وفضل كلام الله على كلام خلقه كَفضل الله على خلقه، فأنت مأمور من خلال هاتين الآيتين أن تقرأ القرآن متدبّراً.

التدبّر: مصدر من تدبَّر، وهو مزيد، مجرّده: (دَبَر)، فيجب عليك أن تقرأ الآية ثمّ تفكِّر فيما وراءها من أمْر ونهي و وَعْد ووعيد، والإنسان أحياناً قد يقرأ مادّة من قانون صدر حديثًا، فيقول: إن أنا بلّغتُ عن حجمي المالي ترتبت عليّ ضريبة، وإن ما بلّغت كان عليّ سِجن ! وتراه لا ينام الليل إلى أن يتم قراءة هذه المادّة وفهمها، وهذه المادة ما هي إلا قانون بشري، فكيف بكلام خالق الكون الذي يقول:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ)

[سورة محمد]

مانعا التدبر:

الآية الأولى تقول:

(أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

والآية الثانية تقول:

(لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً (82))

فكأنّ هناك مانِعين يَمْنَعانِكَ من تدبّر النصّ الذي أمامك، المانع الأوّل هو أنت، والمانع الثاني هو النّص، فلو كان هذا النص من صُنع إنسان ومن صِياغَتِهِ لما انشدّ الإنسان إليه ولا وجد رغبةً جامحة في فهمه وفهم مدلولاته،لأنّ كلام البشر فيه الخطأ وفيه الصّواب، وفيه البعد عن الله تعالى أحياناً، فما هو إلا معالجة سريعة للأمور، كما قد يكون فيه عدم توازن، و قد تجد فيه بعض الأفكار من دون دليل لأنه كلام البشر، ولكن إذا كان الكلام كلام الله فلن تجد فيه تناقضًا ولا اختلافًا، ولا ضَعفًا، ولا معالجة سريعة ؛ إنّه كلام خالق الكون، قال تعالى:

(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا(82))

[سورة النساء]

أيها الإخوة، أقول لكم وأعني ما أقول: إنه ما مِن كتاب على وجه الأرض يُؤلَّف، ويُطرحُ في الأسواق، إلا و يُكتشف بعد حين أنّ فيه نقصاً أو خللاً أو بُعداً عن الواقع أو تناقضاً مع حقيقة عِلمِيّة،فالزّمن وحدهُ يكفي لِكَشْف خلل كلّ كتاب، ما خلا القرآن الكريم، فقد مضى على نزوله خمسة عشر قرنًا، وقد انتقلَ العلم خلال هذه الحِقَب إلى قفزاتٍ مذْهلة، ومع ذلك لا نجد حتّى الآن في كتاب الله شيئًا يتناقض مع العلم، بل إننا لا نجد العلم الصحيح إلا إذا تطابق مع القرآن الكريم.

أيها الإخوة الكرام، الآية الثانية، وهي قوله تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

[سورة محمد]

فهذا مانعٌ آخر، وهو أنت، فما هو القِفل ؟ و القفل هو حُبّ الدنيا ! وحبُّ الدنيا يُعمي ويُصِمّ، وهو رأس كلّ خطيئة، و الإنسان الذي لا يفهم القرآن، إما منغمس في الدنيا، أو أنّه يقرأ نصّاً ليس بقرآن.

فيا أيها الإخوة.. هاتان الآيتان في كتاب الله تحضّان الإنسان على تدبّر القرآن الكريم ومعنى التدبّر أن تتدبّر فيما وراء هذه الآية، فالله عز وجل قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور]

فلو أنّني خالفت هذه الآية مثلاً فلن أسْعدَ في زواجي، ولن أتفرّغ لِدِراستي، ولن أرقى عند ربّي، كذلك لمّا قال الله عز وجل:

(يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ(276))

[سورة البقرة]

إن خالق الكون هنا يقول لك:

(يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا)

و معنى ذلك: أنه مهما بدا لك المُرابي ذَكِيًّا فهو أحمقٌ غَبِيّ، لأنّ خالق الكون يتوعّدُهُ بالدّمار !

و التّدبُّر هو أن تكتشف ما وراء هذه الآية من أمر، ونهي، ووعد ووعيد، وسعادة وشقاء، فكلام الإنسان قد تجده أحياناً يستحق أن تُفكِّر فيه، وأن تقف موقفًا منه، فكيف بكلام خالق البشر ؟!

أيها الإخوة الكرام.. إذا توهَّمَ الإنسان أنّه إذا قرأ القرآن كُفِيَ ؛ سواء كانت هذه القراءة بفهم ووعي أو من دون ذلك، يكون بتوهمه هذا مُناقضاً للآيتين الكريمتين السابقتين. قال تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

[سورة محمد]

أي إن لم تتدبّر كان قلبك مُغلقاً بِحُبّ الدنيا،فكأن النّص في نظرك ليس من عند الله تعالى، لأنّه لو كان من عند الله لما وجدْت فيه اختلافًا ولا انحرافًا، ولا تناقضًا ولا ضَعفًا، ولا خللاً، فالمسلم الصادق يُسارِعُ إلى تطبيق كلام الله عز وجل فيتدبّر، لقد ورد أن الإمام الغزالي خاطَبَ نفسَهُ قائلاً: **" يا نفسُ، لو أنّ طبيبًا منعَكِ مِن أكلةٍ تُحِبّينها، فلا شكّ أنّكِ تمْتنِعين، يا نفْسُ أيَكُون الطبيب أصْدق عندك من الله؟!"** ؛ إنك قد تسكن شقّة في الطابق الرابع فتمضي سنوات عديدة في تزيينها، فإذا بالطبيب يقول لك: عليك أن تسكنَ بناءً أرضِيًّا لأنّ مُصاب بمرض القلب !! فيتغيّر كلّ شيء بين عشيّة وضُحاها! وهذا من أجل قلب فقط، وكذا الأمر إذا قال لك الطبيب: دَعْ هذا العمل، أو تخلّ عن هذا السفر، فإنك تسارع إلى تركه، يقول الإمام: **" إذًا ما أكْفرك ! "**، وما أشدّ كفر الإنسان عندما يُطيعُ إنساناً خوفاً منه ويعصي الإله، أو عندما يثق بنَصيحة إنسان فيستجيب لها، ولا يثق بنَصيحة الله عز وجل، فما أشدّ كفرهُ عندئذ، ثمّ يقول هذا الإمام: **" أيّتها النّفس، أيكون وعيدُ الطبيب أشدّ عندك من وعيد الله، إذًا فما أجْهلَكِ ! "**، صدِّقوني أيُّها الإخوة أنّه ما من إنسانٍ يعصي الله عز وجل إلا وهو مَدْموغٌ بالكفر أو الجَهل،ولا يُسمّى الإنسان عاقلاً إلا إذا عرف الله تعالى، فقد يتفوّق في اختِصاصه، وفي حرفتِهِ، وفي دراسته، وفي مهنتهِ، وهذا ذكاءٌ فقط، ولكنّ العَقل شيءٌ آخر، لأنّ العقل أن تعرف الذي خلقَك، وأن تَدرُس المنهَج الذي وُضِعَ لك، وأن تبْحث عن أسئلةٍ كبيرة مثل: من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟

أيها الإخوة الكرام، إن تدبّر كتاب الله عز وجل فرْض عَيْنٍ على كلّ مسلم،قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

[سورة سبأ]

فهل تحترمون إنسانًا جاءتْهُ رسالةٌ فمزّقها قبل أن يقرأها ؟ و القرآن وَحيُ السماء إلى الأرض أفلا ينبغي أن نستوعِبَ ما فيه، وأن نقف عند حُدوده، وعند حلاله و حرامه لأنّه كلام خالق الكون ؟.

إقراض الله !!

ننتقل إلى الآية الحادية عشرة من سورة الحديد، وهي قوله تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[سورة الحديد]

إن مركز الثِقل في هذا الآية هو كلمة: (يُقرِضُ)، فما هو الشيء الذي تثق في رجوعه إليك ؟ إنه القرض، فهناك هِبة، وهناك هديّة، وهناك غِبن، و هناك أشياء كثيرة ولكنّ شيئاً واحِداً عَوْدتُهُ إليك مُؤكّدة، وهو القرض، و ربُّنا سبحانه وتعالى يدْعونا هنا إلى أن نُقْرِضَهُ، أيْ: إنّ الله سبحانه وتعالى قد خلقنا لِنَعملَ صالحاً، ليُكافئنا عليه في جنّة عرضها السماوات والأرض، وإن أيّ عمل صالح مادياً كان أم معنوياً، صغيراً أو كبيراً، فعلياً أو قولياً، كإنفاق مال أو تعليم، أو أمر بمَعروف و نهي عن المنكر، أو مُعاونة لأحد أو صدقة، أو إتقان أو توجيه أو نصيحة لأيّ مخلوق، إنساناً كان أم حيواناً أم نباتاً، مسلماً أو كافراً، قريباً أو بعيداً، و سواء كان العمل جليلاً أم صغيراً، فهو يسمى عند الله تعالى (قرض حسَن)، فتصورّ أنّ ملكاً كان بيَدِهِ أمر البلد كله، ثم قال لإنسان: أقرِضْني مائة ليرة **!** فهل هو بحاجة إلى مائة الليرة هذه ؟ أم أنّه يريد أن يُكافئَك بما هو أكثر.

أيها الإخوة الكرام، لو تدبّرنا هذه الآية وحدها، لَنِدْمنا أشدّ ندمٍ على كلّ ساعة مرّت دون عمل صالح، لأنّ كلّ عمل مهما كان صغيرًا مُسَجّل عند الله، قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

[سورة الزلزلة]

فمهما بدا لك العمل قليلاً فهو عند الله كثير، فلو أنّك أكرمْتَ شيخًا لأكرمك الله على فعلك هذا، يقال: **" ما أكرم أحد شيخًا لِكِبر سِنِّهِ إلا سخّر الله له من يخدُمُه عند كبره ! "** ولو كنتَ ولدًا بارًّا لكافأك الله في الدنيا والآخرة بأولادٍ أبرار، ولو أطعمت الفقير لصانَ الله وجْهك عن أن تسأل أحدًا مِن خلقِه، فاللهمّ صُن وجوهنا باليَسار ولا تبْذِلها بالإقتار.

أيها الإخوة الكرام، قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ)

[سورة الحديد]

فأيّ إنسانٍ طرَقَ باب المؤمن أو دخل مَحَلِه، وسألهُ حاجةً وهو صادق، وكان المؤمن قادِراً على أن يعْطِيَهُ فأعطاه، كان عمله هذا قرْضاً لله تعالى على وجه اليقين، فإذا بَخِل الإنسان كان هذا مُنتهى الحُمق والغباء، لأن معنى فعله هو: أنّ الله يسألُه قرضًا حسنًا فيبْخَل، قال تعالى:

(و مَنْ يَبْخَلْ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ(38))

(سورة محمد)

وقد فَهِم اليهود هذه الآية فهْماً معكوساً، فقالوا: إذا كان الله يقترض من عباده فهو فقير إذًا ! قال تعالى:

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمْ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ(181))

[سورة آل عمران]

فهو تعالى ما طلب القرض إلا لِيُكافِئنا به.

وكل أعمال الخير قرض لله، فلو سألك إنسان عن الطريق مثلاً فوقفْتَ وأجبْتَهُ بِهُدوء ووُضوح وصراحة، ووضّحتَ له الطريق وذَهَبتُ معه كان فعلك هذا قرضاً لله تعالى، وإن سَقَيْتَ هِرّة عطشى أو أطْعمت كلباً جائعاً كان هذا قرضاً لله تعالى أيضاً، كذلك إن أقرضت إنساناً قرضَ مالٍ...إلخ، فحينما تفْهم أنّ القرض هو لله تعالى تُبادِر إلى إقراض الله عز وجل، قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[سورة الحديد]

أي: يا عبادي من منكم يُقرض في سبيلي حتَّى أكافئه ؟ والله هو الغنيّ ونحن الفقراء.

أيها الإخوة الكرام.. ما مِنّا واحد إلا وهو مفتقر إلى الله تعالى، فالله سبحانه وتعالى مثلاً أسبغ على الإنسان صِحّة، فماذا يفعَل هذا الإنسان لو تعطّلت كليته ؟ أو ضاقت دسّامات قلبه ؟ أو تعطّلت وظائف كبده ؟ أو ازْدادت حساسيّة أعصابه ؟ أو لم تسْتَجِب عضلاته للأوامر الحِسيِّة وأُصيبَتْ بالشّلل ؟ لو حدث ذلك لضاقت به الحياة، ولأصبحت حياته جحيماً! ألا ترضى أنّ يكافئك الله سبحانه وتعالى بِحَياةٍ طيّبَة في الدنيا قبل الآخرة؟ قال الله عز وجل:

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ(40))

[سورة غافر]

و الحياة الطيّبة فيها رِضىً وصِحّة وسمعة طيّبة و غِنَى.

أيها الإخوة الأكارم: استقيموا على أمر الله، فكلّ الخير في طاعة الله تعالى، وكلّ الغِنَى النّفسي في طاعة الله، قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[سورة الحديد]

وقوله: (يُضاعفه له): مطلق، والمُطلق يبقى على إطلاقه ؛ فقد يضاعفه له أضعافًا كثيرة، وإن أقلّ عطاء من مُلوك الأرض هو بيت أو مركبة ! فكيف بمَلِكِ الملوك ؟! ما هو حجم عطائه إذا أقرضه عبده؟؟ وهو الذي قال لك: يا عبدي أقرضني ! يقول الله تعالى في الحديث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي ! قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي! قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي ! قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي))

[رواه مسلم]

فما من إنسان يلتقي بالمؤمن الصادق إلا يراهُ هديّة من الله، فهو يُرْشِدُهُ ويُعطيه ويُعاونُهُ وينفِقُ عليه، لعلّ الله يرضى عنه بذلك، فأساس حياة المؤمن العطاء، وهو ذكِيّ جداً، وعاقلٌ جدًا ؛ لأنة يبتغي بهذا العطاء وجه الله، أما الجاهل فأساس حياته الأخذ، فلا يتحرّك حركةً، ولا يتكلّم كلمة إلا وهو ينتظر العطاء من وراءها، وهذا هو نصيبُهُ من الله تعالى! أما المؤمن فيبتغي بعطائه وجه الله، فهذا سيّدنا عثمان بن عفان كان له سِتّمائة بعير مُثقلة بالبضائع الرائِجة _ وهي اليوم تعادل سِتُمائة شاحنة _ فجاءه التُّجار وأخذوا يضاعفون له ثمنها، إلى أن وصلوا إلى ثمانيَة أضعاف الثمن، وهو يقول: دُفِعَ لي أكثر ؛ هِيَ لِوَجه الله عز وجل !! ووزّعها على فقراء المدينة، فكلّما زادت معرفة الإنسان بالله كان عطاؤُه أكبر، فهو يُعطي وقتَهُ وماله وخِبرَتَهُ قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[سورة الحديد]

شروط القرض الحسن:

ما معنى (حسنًا) ؟ إن أوْسَعُ معاني القرْض - كما قلتُ قبل قليل - العمل الصالح المادّي والمعنوي، من إرشاد، ودعوة، وتعليم، وإنفاق مال، ورعاية يتيم أو أرملة،أو دلالة إنسان على طريقه، فأيّ عملٍ صالحٍ على الإطلاق هو قرض لله عز وجل، فما هو القرض الحسن إذًا ؟ القرض الحسن ما كان موافقاً لشروط ثلاثة، وهي:

1- أن يكون العمل مُتقنًا.

2- وأن يكون الذي تفْعلُهُ معهُ مُسْتحِقًا له.

3- وأن تكون بهذا العمل مخْلِصاً.

فهناك شَيءٌ مُتَعَلِّق بالعمل، وشيءٌ متعلِّق بمن يستحقّ العمل وشيء متعلّق بك، قال تعالى:

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا(9))

[سورة الإنسان]

و قال:

(وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى(19))

[سورة الليل]

فالشرط الأوّل: الإخلاص، والشرط الثاني: الإتقان ؛ أي: أن تعْطِي شيئًا ثمينًا تُحِبُّه، فلا تقدّم شيئًا تعافُهُ نفسُك وتكرهُهُ، لأنّك تُقدِّم هذا العمل هَدِيّة لله تعالى، فكلّما كان العمل الصالحُ مُتْقنًا أو طيّباً أو كثيراً أو محبوباً ارتقى أجرهُ عند الله، فلا تصدّق مِمّا تكره بل أعْطِ شيئاً ثميناً، وهذا العطاء الثمين دليل إخلاصك لله تعالى، كما يجب عليك أن تِبْحَث عن من يسْتحقّ هذا العطاء، وابْدأ بالمؤمنين الأعفّة الصادقين، قال تعالى:

(لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمْ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ(273))

[سورة البقرة]

ابْدأ بالصائِم المصلِّي، فهذا ينبغي أن ينال من عطْفكَ و إحْسانِكَ الشيء الكثير، وهذا معنى قوله تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَنَاً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[سورة الحديد]

وأحيانًا تكون هناك مساعدات فيما لا يُرضي الله عز وجل، و هذا ليس قرضاً حسناً، فلا بدّ أن يكون القرض الحسن مشروعاً في الأصل خارجاً من إنسان مخلص، وأن يكون الشيء المُتَصدّق به مُحَبّباً ومُتْقناً، كما يجب أن يكون الذي تُعطيه إيّاه مسْتحقاً، فلا يُعطى لِمَن يعصي الإله، لأن القرض يجب أن يُعين على طاعة الله تعالى، قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَنَاً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[سورة الحديد]

فالجنّة أجر كريم من كلّ شائبة.

نور المؤمنين يوم القيامة:

ثم يقول الله تعالى واصفاً المؤمنين يوم القيامة:

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)

[سورة الحديد]

إن الأوراق الآن مختلطة ! فالناس جميعًا يأكلون ويشْربون، ويتنزّهون ويكسبون المال وينفقونه، ويتزوّجون ويُنْجِبون، ويُزوِّجون أولادهم، أما يوم القيامة فيُفْرز فيه الناس، قال تعالى:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ(59))

[سورة يس]

في يوم القيامة يكون المؤمنون في مكان، والمجرمون في مكان، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، هؤلاء في أعلى عِلِيّين، وهؤلاء في أسفل السافلين، هؤلاء تلفح وجوههم النار، وهؤلاء وجوههم ناضرة إلى ربها ناظرة ! فهناك فرْقٌ كبير، فلا يستوي هؤلاء أبداً.

النساء شقائق الرجال:

قال تعالى:

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الحديد]

لو ذكر الله تعالى المؤمنين فقط لفُهِمَ معها والمؤمنات ! ولكنّ الله تعالى أراد أن يذكر المؤمنين والمؤمنات لِيُبيّن أنّ المرأة كالرّجل تماماً من حيث التكليفُ و التشريف والمسؤوليّة، فهي ترقى كما يرقى الرجل، وتؤمن كما يؤمن، وتحبّ الله كما يحبّ، ويتفضّل الله عليها كما يتفضّل الله على الرجل، ولها عند الله مقام عليّ كما للرجل، و كلّما اقترب الإنسان من كتاب الله شعر أنّ المرأة صِنوُ الرّجل، فالنِّساء شقائق الرّجال، تؤمن وترقى بإيمانها، لذا كان عليه الصلاة والسلام إذا قدِمت عليه فاطمة وقفَ لها ! والمرأة يمكن أن تصل إلى أعلى الدرجات و أقصى الغايات إذا عرفتْ ربّها وأطاعته، لذا الله تعالى قال:

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)

[سورة الحديد]

قال تعالى:

(رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ(193)رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ(194)فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)

[سورة آل عمران]

فالمساواة الحقيقية بين المرأة والرّجل إنما هي في التكليف والتّشريف والمسؤوليّة، ولكنّها ليْسَت كالرجل في بنْيَتِها الفيزيولوجيّة والنّفسيّة والاجتماعيّة، و إن كلّ خصائصها كمالٌ فيها، وكلّ خصائص الرجل كمال فيه، وهما متكاملان، فقد جعل الله كلّ منهما سكَناً للآخر، وهذه حِكمة الله، أما إذا غيّرنا خلْق الله عز وجل، ودفعنا المرأة إلى التّشبّه بالرّجال فإننا نكون بذلك قد شوّهنا أنوثَتَها، وهذا بحث

آخر.

أيها الإخوة... قال تعالى:

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الحديد]

هذا النور هو نور الطاعة و الهداية، والإنسان أحيانًا قد يكون له عمل طيّب فيشفع له، فلو كان لإنسان مثلاً ولد أثيرٌ عنده يُحِبُّه حُبًّا جمًّا، فوَقَعَ هذا الولد الصغير في نهْرٍ، وأشْرف على الغرق، فرأى موظّف عند والد هذا الطِّفل ابن سيّده في النّهر قد أشرف على الغرق، فألقى بِنَفْسِهِ وأنْقذَهُ، فعملُه الطيب هذا يمكّنه من اقتحام الباب على سيده في أي وقت شاء، ولو كان لهذا الأب حُجّاب وموظّفون، فإذا أتى يقول فقط: قلْ له إن فلاناً بالباب، فيدخل، فما الذي جَعَلَهُ يدخُل من دون استِئذان ؟ إنه عملهُ الطّيّب، و هذا العمل هو الذي رَفَعَهُ عند سيّده، وكذا حال الإنسان في الدنيا مع الله، فإيمانه بالله واستِقامته على أمرِهِ وعمله الصالح، يكون نوراً أمامه يهْديه السَّبيل، وكلّ إنسان تقرّب إلى الله بِعَمَلٍ صالح كان هذا العمل نوراً يسوقهُ إلى الله تعالى، فلو كنت تمشي في ظلمات بعضها فوق بعض، وكان أمامك ضوء يتحرّك، وكنت وراء هذا النور لاستطعت أن تمشي لأن الطريق واضح ؛ فأنت تستضيء بهذا النور، وكذا يكون الإيمان بالله والاستقامة نوراً للمؤمن يوم القيامة يسوقهُ إلى الجنّة، وقد يقول لك الإنسان أحيانًا: أنا ناجح، أنا معي استثناء ! أو معي بطاقة ! أو معي جواز سفر ديبلوماسي فمكانتهُ في بلدِهِ جَعَلَتْ له تسهيلاً حينما يُسافر، كما أن عمل المؤمنين يكون له نوراً يوم القيامة، قال تعالى:

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الحديد]

(أيْمانهم): هي أعمالهم الصالحة، قال تعالى:

(بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[سورة الحديد]

هذا هو الفوز الحقيقي، فليس الفوز أن يكثُر مالُكَ في الدنيا، ثم تُغادرها ولا تأخذ منها شيئًا، قال تعالى:

(كم تركوا من جنّاتٍ وعُيون (25) و زروعٍ ومقام كريم(26))

[سورة الدخان]

ثم قال:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظرينَ(29))

[سورة الدخان]

فالقضِيَّة هي أن تؤمن بالله و تعمل صالحاً في هذه الدنيا، فلعلّ هذا الإيمان وذاك العمل يكون نورًا لك في جنّة عرضها السماوات والأرض، وذلك هو الفوز العظيم، فالدنيا الآن فيها الكثير المعاصي، ففيها

الفنادق والحفلات المختلطة، كما فيها المساجد، وهي بيوت الله، فهناك باطل ودجل، وهناك حق، ففي الدنيا يوجد كلّ شيء، والمؤمن يختار رضوان الله عز وجل وطاعته عمّا سواه.

حوار بين المؤمنين والمنافقين:

والآن ندخل في موضوع دقيق جدّاً، قال تعالى:

(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ)

[سورة الحديد]

لو أن طالباً يدرس ليلاً نهاراً طيلة السّنة الدراسية، فإنه سيَكتُب في الامتِحان بطلاقة عجيبة، وبِراحةٍ نفْسيّة مُدْهِشَة، وبِتَفاؤُلٍ شديد، وربما كان إلى جانبِهِ طالبٌ أمضى عامهُ الدِّراسي بالكسَل والتَّواني والانحرافات، فقال له: اِعْطني ورقتَك لأُجيب، فهذا لا يجوز لأنّها خِيانة، و الله تعالى قال عن المنافقين والمنافقات في قوله تعالى:

(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ)

[سورة الحديد]

هذا النور اكْتسبْناهُ في الدنيا، حين آمنّا بالله تعالى و أطعناه، وطلبنا العِلم، وتقرّبنا إلى الله، وكنّا مع المؤمنين لا مع الكافرين، وكنّا مع الحق لا مع الباطل، وآثرنا ما يبقى على ما يفنى، وتركنا مباهج الدنيا، لقد أحدهم لِطَبيب: أنا أطلب منك فقط أن تعلمني كيف أكتُب الوصْفة الطِّبيّة ؟ فقال له الطبيب: هذه محصِّلة دراسة ثلاث وثلاثين سنة ! فَمِن السّذاجة أن يطلب إنسانٌ غارق في النعيم والشّهوات والمباهج المنحطّة من مؤمن أمْضى حياته كلّها في معرفة الله وطلب العلم، أن يعطيه مِمّا أعطاه الله تعالى، قال تعالى:

(قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً)

[سورة الحديد]

قال تعالى:

(فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ)

[سورة الحديد]

باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره من قِبَلِه الذي يلي الكافرين والمنافقين العذاب، فالله عز وجل أدخل المؤمنين الجنّة، وأدخل الكافرين والمنافقين النار، وبين الجنّة والنار سور، جانبه الذي يلي الكفار فيه العذاب والحرّ، وجانبه الذي يلي المؤمن فيه **" عين جارية "**، وفيه كما قال تعالى:

(وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ(15))

[سورة الغاشية]

الآن جرى نِقاش دقيق جداً، قال تعالى:

(يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ)

[سورة الحديد]

يقولون لهم: ألم نك نسكن ببلدٍ واحدٍ، وبنايةٍ واحدة ؟ كما كُنّا معكم في المسجد، نعم لقد كانوا معهم، لكنهم لم يكن لديهم استقامة، فهناك أناس في المسجد يتمتّعون بسَماع دروس العلم ويفتخرون بها ! فهذه المعيّة الجِسميّة لا قيمة لها، و العبرة بالمعية القلبية، وهي أن تكون على منهج الله، و أن يراك الله حيث أمرك، و يفتقدك حيث نهاك.

صفات المنافقين:

قال تعالى:

(أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

[سورة الحديد]

لقد كنا في بلدة واحدة و حيٍّ واحد و بناء واحد و وظيفة واحدة و سلك واحد، و لكنَّ المؤمن في وادٍ، والمنافق في وادٍ، فالمؤمن كان يتحرىّ الحلال و ذاك كان يأكل الحرام، والمؤمن كان يعِفُّ عن محارم الله، و ذاك كان واقعاً فيها، المؤمن يرجو رحمة الله و ذاك يرجو عطاء أهل الدنيا، و المؤمن راضٍ بما قسمه الله له و المنافق ساخطٌ لما أعطاه الله، فالشكل واحد، و المكان واحد و الثياب واحدة،حتى الطقوس واحدة، لكن البَوْنُ شاسع، فهناك الإنسان عنده مسبَح مختلط، أقام فيه مولداً و دعا الناسَ و المنشدين و بعض العلماء فألقوا فيه كلمات ولكن.... قال تعالى:

(أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

[سورة الحديد]

هذا صحيح و لكن عملكم الذي تعملونه، ورزقكم الذي ترتزقون منه حرام، قال تعالى:

(أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

[سورة الحديد]

قال تعالى:

(قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ)

[سورة الحديد]

أي: إنكم أحببتم الدنيا و الشهوات المحرمة و المال الحرام، وأحببتم أهل الدنيا و العصاة و الكافرين،و أحببتم زينة الدنيا، وأعرضتم عمّا عند الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا(27))

[سورة الإنسان]

قال تعالى:

(وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ)

[سورة الحديد]

أي: تربصتم بالمؤمنين وانتظرتم أن تحلّ بهم المحنُ و كانت كل تمنّياتكم أن تدور عليهم الدوائر، و توقعتم أن ينهاروا، قال تعالى:

(أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

[سورة الحديد]

أي: لقد كنتم معنا بأجسادكم في مكان واحد، ولم تكونوا معنا بأرواحكم، لقد كنتم في واد وكنا في واد آخر، كنتم معنا في المصالح لا في المتاعب، و ذلك لم يكلِّفكم شيئًا، أما حينما تصادمت مصالحكم مع أحكام الدِّين تركم الدِّين، ومعظم الناس الآن إذا أيقن بحاسّته السادسة أنّ قضيّته تنْحلّ عند المشايخ يقول لك: أنا أريد الشّرع ! وأنا خاضِع للشرع ! أما إذا كانت قضيّتهُ تنْحلّ بالمحاكم يقول لك: أنا مع القانون، فمع الشرع يريد الشرع، ومع القانون يريد القانون، قال تعالى:

(وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ)

[سورة الحديد]

فالمنافق يكره المؤمن ويتمنّى دماره، قال تعالى:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ(50))

[سورة التوبة]

(تربصتم): توقعتم دمار المؤمنين، و (ارتبْتُم) ؛ أي: لم تعبؤوا بوَعد الله ووعيده، فقد فتنتم أنفسكم بِحُبِّ الدنيا، وتربّصتم بالمؤمنين أن يُصابوا وأن يفْقِدوا مكانتهم، وارْتَبتم في وعد الله ووعيده، قال تعالى:

(وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ)

[سورة الحديد]

فما من إنسانٍ بعيد عن الحق إلا والدنيا معْقِدُ آماله، لقد حدّثني شخص عن خِطّته التي تحتاج عشرين سنة ! وفي اليوم نفسه توفّاه الله !! فأخطر شيء في الحياة طول الأمل، فقد تكون أكفان المرء قد نُسَجت وهو لا يدري، والشيطان يَعِدُ الناس ويمَنّيهم، ويُلقي بينهم العداوة والبغضاء، ويُخوّفهم، قال تعالى:

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(175))

[سورة آل عمران]

فهو يَعِدُك الفقر إذا أنفقتَ مالك، والدّمار إن حضَرْتَ مجالس العِلم ! فالله موجود يا عبد الله، وهو الذي يَحميك، قال تعالى:

(وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة الحديد]

فهذا النِّقاش يجري بين المنافقين والمؤمنين.

أيها الإخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا(145))

[سورة النساء]

لأنَّهم عرفوا وانحرفوا، وسَمِعوا وعَصَوا، وأدْركوا فما استفادوا، واشْتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً، وأرادوا مصالحهم من خِلال تَدَيّنهم الظاهر، فهؤلاء هم المنافقون، قال تعالى:

(وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة الحديد]

عَودٌ على بدْء...

مرّة أخرى أيها الإخوة أقول:

إن تدبُّر القرآن فرضُ عَين على كل المسلمين، وما من كتاب أجْدر أن تعقل معانيه، وتعرف مدلولاته كالقرآن الكريم، فهو منهجنا، وحبل الله المتين.

أيها الإخوة الكرام، في الدرس القادم نبدأ بقوله تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

[سورة الحديد]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 17-20
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-04-12

بسم الله الرحمن الرحيم

عتاب المؤمنين و حقيقة الدنيا

أيُّها الإخوة الكرام، مع الدرس الخامس من سورة الحديد، ومع الآية السادسة عشرة وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

(سورة الحديد)

عتاب رقيق:

يُخاطِبُ ربنا سبحانه وتعالى عَقل الإنسان في كثير من الأحيان، كما أنه يُخاطِبُ قلبه أحياناً، و في هذه الآية خِطابٌ لِقلبِهِ، فالله جلّ جلاله يُعاتِبُ هذا الإنسان المُقصِّر الذي لم يخْشَع قلبهُ لِذِكر الله، ولم يسْتجب لأمر الله تعالى، ولم يلْتزِم منهج الله عز وجل، فيا أيها الإنسان إلى متى أنت غافل ؟ وإلى متى أنت ساهٍ؟ إلى متى أنت مُقصِّر ؟ وإلى متى أنت مغلوب على أمرك؟ قال أحدهم:

إلى متى أنت باللّذات مَشغول وأنت عن كلّ ما قدّمتَ مسؤول

وقال آخر:

تعْصي الإله وأنت تُظهر حُبّه هذا لَعَمري في المقال شَنيــع
لو كان حُبُّك صـادِقا لأطعْتَهُ إنّ المحبّ لِمَن يحبّ مطيــع

فماذا بعد هذا الإهمال ؟ قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد)

قال تعالى:

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآَنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(21))

[سورة الحشر]

فما بال هذا الإنسان يقرأ القرآن فلا يتأثر، وما باله يقرؤُه فلا يقْشَعِرُ جلدُه، قال تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(37))

[سورة فاطر]

إن من دخل الأربعين دخل أسواق الآخرة ! ماذا ينتظر إذاً ؟! فلو أنّك ذَهَبتَ في رحلة لِعَشرة أيام، للاحظت نفْسَكَ تتَّجِه اتِّجاهاً آخر في اليوم السابع، فتبدأ بالبحث عن بِطاقات العَودة، وعن الهدايا وجمْع الحاجات، فالإنسان إذا دخل في الأربعين دخل أسواق الآخرة، قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد)

هناك من يقول لك: إنني أسمعُ خطباً ودروساً من عشر سنوات، و أنا ملتَزمٌ بمَسجد ؛ و هذا شيء جميل، ولكنّ هذه الدروس والخطب يجب أن تنعكس على سُلوكه في بيته و عمله وعلاقاته، فقيمة الإنسان عند الله تكون حسب استِقامته وعَمله الصالح قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(19))

[سورة الأحقاف]

فلو قرأه مؤمن مُقَصِّر هذه لانْهَمَرَت عَيناهُ بالدُّموع ولوَجِلَ قلبهُ وخشَع، ثم قال: يا رب لقد آن الأوان !! فالإنسان أحيانًا يستمِع ويسْتمع ثمّ يتألّق فجأةً، وهذا التّألق هو المقصود، فإذا كنت مقيماً على المعاصي والمُخالفات، فلا تؤدي الحقوق، وتقصر في الواجبات، فهناك إذًا حِجاب خفيف، قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد)

خشوع القلب:

ومعنى (أنْ تخْشَعَ قلوبهم) ؛ أيْ: أن تسْتقيم على أمر الله تعالى، وأن ينقاد الإنسان لأوامر الله، والحقيقة أن هذا المِقياس مقياس دقيق يضعك على المحكّ، فتكلّم ما شئت، وتحدّث عن نفسك ما شئت، وأعْطِ نفْسِكَ أيّ حجمٍ، وفي النِّهاية: أنت لسْتَ بالحجم الذي تدّعيه ما لم تلتزم بالأمر والنّهي، فَخشوع القلب كما قال المفسّرون: هو انقياد القلب لِطاعة الله تعالى، فالخُشوع هو شُعور، ولكنّ هذا الشُّعور يُجَسَّد بانقياد النّفس إلى طاعة الله تعالى، فالحركة الظاهرة دائمًا أساسها حال نفسي، و الحال النفسي خُشوع لله، والحال الظاهري انْقِيادٌ لأمر الله تعالى، فإن لم يكُن لديك انْقِياد لأمر الله فأنت لسْتَ خاشعاً بقلبكَ، لأنّ القلب لم يأخذ من الفِكر الأدلّة على عظمة الله، والإنسان إذا فكّر بعَظَمة الله خشع قلبه وانقادت جوارحه، و انْقِيادُ الجوارح يسْبقُهُ خُشوع القلب، وخُشوع القلب يسْبقُهُ تفكّر في السماوات والأرض، فلو التَقيْتَ بإنسان لا تعرف عنه شيئًا فإنك تُعاملُهُ معاملةً عاديّة، أما إذا بلغكَ أنّه أعلم علماء الأرض في اخْتِصاص معيّن، أو أنه من أقوى الأقوياء و أغنى الأغنياء، ثم التَقيْتَ به ثانيَةً فإنّك تحترمُهُ وتُوقِرُهُ، وهذا يكون بِحَجم عِلمهِ أو قوّته أو ماله، و الفِكر إذا جال في ملكوت السماوات والأرض وعاد بِنَتيجة تُؤكِّد عظمة الله عز وجل جعل القلب يخْشع لله، فإذا خشَع القلب انْقادَت الجوارح.

أيها الإخوة الكرام: هناك كلامٌ جامعٌ مانع موجَز يقول: إذا لم يحمِلك إيمانُك على طاعة الله تعالى فهذا الإيمان لا يُقدِّم ولا يؤخِّر، وإن شئت سمّ هذا الإيمان بالإيمان الإبليسي، لأنّ إبليس قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82))

[سورة ص]

فالإيمان الحقيقي هو الذي يَحْمِلُكَ على طاعة الله عز وجل، والله عز وجل يقول:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد)

أنواع الخطاب الإلهي للإنسان:

1- خطاب العقل: فالله تعالى يُخاطب العَقل البشري،كما في قوله تعالى:

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(25)ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا(26)فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(27)وَعِنَبًا وَقَضْبًا(28)وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا(29)وَحَدَائِقَ غُلْبًا(30)وَفَاكِهَةً وَأَبًّا(31)مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(32))

[سورة عبس]

2- خطاب القلب: أحيانًا يُخاطب القلب كقوله تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد)

3- خطاب القلب والعقل معاً: وأحيانًا يُخاطب الله القلب والعقل معًا، كما في قوله تعالى:

(يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ(6))

[سورة الانفطار]

نتابع في هذه الآية.. وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد)

(أَلَمْ يَأْنِ)؛ أيْ: أَلَمْ يَحِنِ الوقت المناسب ؟ وإلى متى أنت في غفْلة ؟ وإلى متى أنت في التقصير والمخالفات ؟ فهؤلاء آمنوا بِألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، أو آمنوا ولم يَحْمِلهم إيمانهم على طاعة الله إيمانهم لا يكفي.

(أنْ تَخْشَعَ قلوبهم) ؛ أيْ: أن يسْتَشْعِروا عظمة الله عز وجل، فإن أنت اسْتَشْعَرَتَ عظمة الله عز وجل انقادَت جوارحك إلى طاعة الله وذكره.

ذكر الله تعالى:

إن ذِكْر الله تعالى باب مِن أوْسَع الأبواب، فأيُّ شيءٍ يُقرِّبُكَ من الله هو من الذِّكر الحكيم، فلو عُرِضَتْ عليك آية من آيات الله تعالى الدالة على عظمته ؛ لكانت هذه الآية من ذِكْر الله عز وجل، ولو عُرِضَ

عليك حدثٌ هو مِن فِعْل الله تعالى لكان مِن ذِكْر الله، ولو عُرِضَت عليك آية مفصّلة تفصيلاً رائعاً فهي من ذِكْر الله تعالى أيضاً، وقراءة شيء من سنّة رسول الله مِن ذِكر الله تعالى، فأيُّ شيءٍ يُذَكِّرُك بالله عز وجل هو من ذِكر الله، قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)

(سورة الحديد)

ما نزل من الحق :

أيْ: القرآن الكريم، قال تعالى:

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآَنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(21))

[سورة الحشر]

فإذا قرأ الإنسان القرآن ولم يخْشَع قلبُه فهذا مُؤشّرٌ خطير ! لأنّ المؤمن إذا تُلِيَتْ عليه آيات الله ازْداد إيماناً، واقْشعرّ جِلْدُهُ، ووجِلَ قلبهُ، فإذا تُلِيَتْ عليه آيات الله ولم يشْعُر بشَيءٍ كان هذا دليلاً على صدأ قلبه، قال تعالى:

(ألا بذِكر الله تطمئنّ القلوب)

[سورة الشعراء]

الأغذية الثلاثة:

إن عقلك يحتاج إلى غِذاء وغذاؤه العِلم، و قلبكَ أيضاً يحتاج إلى غِذاءٍ وهو الذّكر فالعَقل غِذاؤُهُ العِلم، والقلب غِذاؤُهُ الذّكر، والجسم غِذاؤُهُ الطّعام والشّراب،فأنت بحاجة ماسّة إلى أغْذِيَةٍ ثلاثة ؛ إلى عِلمٍ يُغذّي عَقلَكَ، وإلى ذِكْر يُغذّي قلبكَ، وإلى طعامٍ يُغذّي جسمك.

وأنت تتأثر بآيات الله بِقدْر استقامتك على أمر الله تعالى، و إن المؤمن يُنادَى من مكانٍ قريب لأنّه قريب أصلاً، أما العاصي فيُنادَى من مكانٍ بعيد لأنّه بعيد عن الله تعالى، فالمؤمن يَجِلُ قلبهُ ويقشَعِرُ جلدهُ، وتضْطربُ أعضاؤُه إذا ذكَر الله عز وجل، أو قرأ آياته بينما لا يتأثّر المنافق، فقد كانوا يقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم:

(ماذا قال آنفًا)

[سورة محمد]

مرض خطير:

يعرض الله تعالى علينا هنا مرضاً خطيراً مِن أمراض أهل الكتاب، وما عرضَ علينا هذا المرض إلا لأنّ المسلمين مهيؤون لأن يُصابوا بمِثل هذا المرض قال تعالى:

(وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

(سورة الحديد)

فهم قد أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد، فإذا وقعَ الإنسان في مخالفة وجب عليه أن يتوب من قريب، أما إن أخّر التوبة، واسْتمرأ المعْصِيَة ورضِيَ بها وألِفَها، حتى أصبْحَت جزءاً من حياته نقول عنه: إنه طال عليه الأمد بهذه المعْصيَة، والإنسان حسّاس جدّا، فإذا ظل مُتلبّساً بمَعصيَة، ومخالفاً لِشَرع ومقصِّراً في حقّ الله قسا قلبه، فتحْجُبه هذه المعاصي عن الله تعالى، قال تعالى:

(فطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فقسَتْ قُلُوبُهُمْ)

(سورة الحديد)

وإذا قسا القلب فسقَ الإنسان، وإذا خشَع القلب أطاع الإنسان ربّه قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقّ)

(سورة الحديد)

إن خشَع القلب انْقادت الجوارح، وإن قسا القلب تفلّتَتْ الجوارح، فالفسق أساسه قسوة القلب، والطاعة أساسها خَشية القلب، وخَشْيَة القلب أساسها التّفكر في خلق السماوات والأرض، أما قسْوَةُ القلب فأساسها تأخير التوبة والاسْتمرّار عليها، وإنّ أخطر ما يحيق بالمسلم أن يستمْرأ بعض المعاصي والمخالفات إلى أمدٍ طويل فيقْسُوَ قلبهُ، وتغْدو العبادات عنده طقوسًا لا معنى لها !! فيُؤَدّي الصلاة و الزكاة و الحجّ وهو غافل، وقد أراد الله تعالى أن يكون في هذه العبادات خشوع وقُرب وتألّق، ولو لم يرد ذلك لكانت العبادات طُقوساً وأقوالاً تؤدّى بِغَير معنى، فالذي يألَف أحياناً مسجداً أو دَعوةً قد يُصيبُهُ الملل والسّأم، فلا تجد في صلاته روحانيّة لأنّه استَمرأ الغفلة،فالله عز وجل خاطب النبي عليه الصلاة والسلام وقال:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(159))

[سورة آل عمران]

فهناك قلب للجِسم، وقلبٌ للنّفس، قال تعالى:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(179))

[سورة الأعراف]

فالقلب الذي هو مركز النّفس إما أن يكون موصولاً أو أن يكون مقطوعاً، فإذا كان موصولاً كانت هناك رحمة، أما إذا كان مقطوعًا كانت القَسْوَة، وأنت بين هاتين الدرجتين ؛ فإما أن تنْطوِيَ على قلبٍ موصول بالله تعالى ومفعمٍ بالرّحمة، أو أن تنْطوي على قلبٍ مقطوع من الله تعالى موصومٍ بالقسْوة، فيخرجُ من هذا الإنسان كل الخير بِسَبب قلبه المملوء بالرحمة، كما تصدر عنه كلّ الشرور والآثام بِسَبب القَسْوة التي في قلبه، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(159))

(سورة آل عمران)

و معنى ذلك أنّ الإنسان حينما يتّصِل بالله يمتلأ قلبهُ رحمةً ويُلْهِمُ الحِكمة والرّحمة واللُّطْف والأدَب والخَشْيَة والإنفاق، ويلتفّ الناس حوله، فإذا ابْتَعَد عن الله عز وجل وقسا قلبُهُ انفضّ الناس من حوله، فاللّيونة سببها الرحمة ! فلو كان للإيمان مؤشّر لكانت الرّحمة مؤشّرًا له، و لو كان للشر مؤشر لكانت القسْوة مؤشّرًا عليها ! و المسلم مُعرّض لِمَرضٍ خطير أصاب أهل الكتاب، وهو أن تغْدو عباداته طُقوساً، ويغْدو الكتاب المنزّل عنده كلاماً أجْوفَ من المضمون، يقرؤُهُ فلا يتأثّر، ثم يعبد عن الله فلا يتأثّر، فقد قسا قلبهُ وجوارحه، وطال عليه الأمد.

يحيي الأرض بعد موتها:

أيها الإخوة الكرام: لكي لا يقع الإنسان في اليأس، وحتى لا يسْتغلّ الشيطان هذه الحالة المَرَضِيّة التي تُصيبُ المؤمن أحيانًا، يقول الله جلّ جلاله:

(اعْلَمُوا أَنّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

(سورة الحديد)

فهذه الأرض الجرداء القاحلة فيها أشجار كأنّها الخشب من قسوتها، فتأتي أمطار السماء عليها فتهْتزّ الأرض، وتنمو بالعُشب الأخضر، والأزهار والرّياحين، وتورق الأشجار وتُثمر، فهذا المطر الذي نزل على هذه الأرض هو الذي جعلها كذلك، فالله عز وجل طرَحَ آيةً من آياته الكَوْنيّة لِتَكون هذه الآية مِعْوانًا للإنسان على الانصراف إلى طاعة الله عز وجل، فلِمُجَرّد أن يتوب الإنسان إلى الله عز وجل يعود قلبُهُ حياً متألِّقاً ومُفعماً بالمحبّة والرّحمة، حتى وإن قسا قلبهُ وطال عليه الأمد، قال تعالى:

(اعْلَمُوا أَنّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

(سورة الحديد)

قال بعض المفسّرين: هذه الآية فيها تهديد، وبعضهم قال: بل فيها تَشْجيع ! بمعنى أنّه إذا مات قلب الإنسان مات الإنسان نفسه بعده، ثم يُعاد خلقهُ من جديد، وسوف يقِفُ بين يدي الله عز وجل لِيُحاسبَ على أعماله كلِّها !

أجر المصّدقين والمصّدقات:

ثمّ يقول الله عز وجل:

(إِنّ الْمُصّدِّقِينَ وَالْمُصّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

(سورة الحديد)

(المُصّدِّقين)؛أيْ: المتصدِّقين، و(المُصّدِّقات) ؛أيْ: المُتَصَدِّقات، والصّدقة كما قال عليه الصلاة والسلام برهان، فأنت حينما تتصدّق تُعطي برهانًا على إيمانك ! لأنّ الصدقة بذْل، وأنت حينما تتصدّق يدلّ فعلك هذا على محبّتِك لله، وأنّ المال لا قيمة له في نظَرك، ولكنّ الله سبحانه وتعالى يقول إنّك بهذا العمل لا تُقدِّم الخير لإنسان فقط، بل إنّك في حقيقة الأمر تقْرض الله عز وجل، قال تعالى:

(إنّ الْمُصّدِّقِينَ وَالْمُصّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

(سورة الحديد)

فعلى المؤمن أن يعلم أنه يُقرضُ الله قرضاً حسناً حينما يتصدّق، فهو يقرض الغني الحميد، ومَن بيَدِهِ ملكوت كلّ شيء، لذا يجب على المؤمن ألا يعْبأ برُدود الفِعل إذا تصدّق، فهناك مَن يتصدّق فلا يجِدُ في الذي تصدّق عليه اسْتِجابة حسنة أو شُكراً، فيقول حينها: لن أفعل الخير أبداً ! و هذا من ضَعف توحيدِه، ومن ضَعف إخلاصه، أما لو كان تُوحيده وإخلاصه راسخين لما اكترث برُدود الفِعل، لأنه حينما يتصدّق إنّما يقرضُ الله قرضاً حسناً، فهؤلاء كما قال تعالى:

(يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا(69))

[سورة الفرقان]

أما المؤمنون الذين يقرضون الله قرضاً حسناً فيُضاعف لهم هذا القرض وتلك الصّدقة، كما أن لهم أجراً كريماً نقياً من كلّ شائبة، فالإنسان إذا وضَع اللّقمة في فيّ زوجته كُتبت له صدقة، وقد يتصدّق الإنسان باللّقمة فيراها يوم القيامة كجَبل أُحُد.

و (الأجر الكريم): هو الأجر النقيّ من كلّ شائبة، فيُضاعف لهم أضعافًا كثيرة، وهو دليل حبّهم الله عز وجل.

الصديقون:

قال تعالى:

(وَالّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصّدِّيقُونَ)

(سورة الحديد)

و هذه مرتبة تلي مرتبة الأنبياء، فهناك الرُسل، وهناك سيّد الرُسل وهو نبيُّنا عليه الصلاة والسلام، وبعدها يأتي الأنبياء، و بعد الأنبياء الصدّيقون، وهم الذين يخلفون الأنبياء في تبليغ الناس الدّعوة إلى الله، فهؤلاء على منهج الأنبياء وسنتهم، وهم يقتفون أثَر الأنبياء، ولا يحيدون عن منهجهم، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويُبلِّغون رسالات الله، ولا يخْشَون أحدًا إلا الله، ويشهدون أن لا إله إلا الله، كما قال تعالى:

(شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(18))

[سورة آل عمران]

فالصِّديقون ينوبون عن الأنبياء في تبليغ رسالات الله تعالى،فهم على سُنَنِهم، ويقتفون أثرهم، ولا يخشون أحدًا إلا الله، وهم المخلصون المُوحِّدون، الذين لا يتقاضَوْن أجراً على دعوتهم، قال تعالى:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20))

[سورة يس]

وهؤلاء الصِّديقون ابتلاهم الله عز وجل فصَبروا، قال تعالى:

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(124))

[سورة البقرة]

وقال تعالى:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ(41))

[سورة القصص]

فالصِّديقون هم الأتْباع الصابرونَ، الذين يخافون الله تعالى، و لا تأخذهم في الله لومة لائم فهؤلاء هم الذين قال تعالى فيهم:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ)

(سورة الحديد)

الشهداء:

أما الشُّهداء فهم الذين ضَحَّوْا بأنفسهم في سبيل الله، والصدّيقون أعلى من الشُّهداء، فمرتبة الصدِّيقيّة أعلى من مرتبة الشّهادة، فالسيّدة مريم كانت صدِّيقة فقد قال تعالى عنها:

(وأمُّه صدِّيقة)

و قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن أبي بكر رضي الله عنه:

((ما طلعت شمي على نبي أفضل من أبي بكر))

وقال:

((لو وُزن إيمان الخلق مع إيمان أبي بكر لرجَح !))

ولو قرأتُم سيرة أبي بكر الصِّديق لوَجَدتم العَجَب العُجاب، ولوجدتم الإخلاص والحبّ، فلا يوجد إنسان أحبَّ إنسانًا كَحُبِّ أبي بكر لرسول الله عليه الصلاة والسلام ! وليس هناك إنسان بذّل كلّ ما يمْلِك من أجل إنسانٍ كما بذل الصدّيق لِرَسول الله صلى الله عليه وسلّم قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ)

(سورة الحديد)

فالأجر في الدنيا والآخرة، والإنسان حينما يُطيع الله عز وجل يُلقي الله تعالى في قلبه نوراً، فقرار المؤمن حكيم، وتصرُّفه سليم وكلامه مُحْكَم،وذلك لأنّ الله عز وجل نوّر قلبه، فالنور يكشف لك الخبايا إن كنت في طريق مظلم، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ)

(سورة الحديد)

وقد جاء في آية أخرى:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ)

(سورة الحديد)

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

(سورة الحديد)

فالذين آمنوا بالله ورسوله هم الصدّيقون والشُّهداء عند ربِّهم لهم أجرهم و نورهم، والذين كفروا و كذّبوا وأعرضوا لهم جحيم في الدنيا وجحيم في الآخرة، كما لهم جحيم نفسي وجحيم جسدي.

حقيقة الدنيا:

ثمّ يقول الله عز وجل: لعلّ هذه الدنيا هي التي تصْرِفكم عن طاعة الله تعالى فسأصفها لكم، قال تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

هذه الآية من أجمل الآيات التي تُعرّف المؤمن بالحياة الدنيا، فاللّعِب عمل لا طائل منه ولا جدوى، فلو لعب الإنسان النَّرْد في إحدى السهرات حتّى الساعة الثانية ليلاً ماذا يكْسب ؟ لا شيء، أما لو قرأ كتابًا لاستفاد من معلوماته، ولو حدّث أخاه لأقنعَهُ ببَعض الحقائق، ولو آوى إلى فراشِه لاسْتراح جِسمُهُ، أما حينما يلعب لعباً لا طائل منه ؛ ماذا يستفيد ؟! اللّعِب سُلوك غير الهادف، فالدُّنيا كما قال تعالى لَعِب، ومهما وصَلْتَ إلى مراتبها العلِيّة يأتيك الموت فيأخذ كلّ شيء ! فالذي تُحصِّلُهُ في عمر مديد تخْسرُه في ثانية واحدة ! وهذه القِصص أمامكم ؛ فالإنسان الذي يشاد بيتاً، ويزخرفه بأثمن الزخرف، يأتيه الموت بغتة فيخسر بيته وكل شيء يملكه

((عِشْ ما شئْتَ فإنّك ميّت، وأحْبب من شئت فإنّك مُفارِقه، واعْمل ما شئتَ فإنّك مَجْزِيٌّ به))

فالله تعالى يقول:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

أما اللّهو فهو أخْطر، واللّهْوُ: أن تلْهُوَ بالخسيس عن النّفيس ! فلو قرأ إنسان قصّة ذات مستوىً دنيء لما استفاد من هذه القصّة شيئًا ؛ فهي ما قدّمَتْ له حقيقة ولا موقف، فإذا كان لهذا الإنسان امتِحان مصيري يُعلِّق عليه الإنسان آمالاً عريضة، فقرأ القصّة وترك الامتحان لما كان هذا لعباً بل هو لهو، وهو أخطر ! فالله سبحانه وتعالى أرسل الإنسان إلى الدنيا لِيَتَعرّف إليه، ويعْبُدَهُ، فإذا انْشَغَل بشيء آخر فقد لها.

قال تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

فتجد الإنسان يسعى للزّينة والرّفاهية والمركبة الفاخرة والمزرعة الجميلة،والله تعالى يقول:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ)

(سورة الحديد)

مصير الدنيا وزخرفها:

لقد ورد في آية أخرى، قوله تعالى:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(24))

[سورة يونس]

فكلّ شيء كان مرفهاً و مُهيَّأً لِمُتْعة العين، من حدائق وطرقات و فنادق الفخمة، وقد رافقَ هذه الزّينة وهذا الزُّخرف شُعور يقول: إنّ الإنسان سيّد الموقف وسيّد العصر، ففي عصرنا تجد الإنسان يفتخر ويقول لك: معي هاتف خلوي !! وعنده أجهزة كهربائيّة، فهناك شعور بالسّيطرة يرافق هذه الزّينة، قال تعالى

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(24))

[سورة يونس]

فإنجلترا هي أكبر دولة في العالم لِتَصدير البقر، وقد ظنّ أهلها أنّهم قادرون عليه، فجاءهم جنون البقر،فاضْطرُّوا إلى أن يُتلفوا ويعْدموا أحد عشر مليون رأس قيمتها ثلاثة وثلاثون مليون جُنَيه إسترليني !! لقد قُهروا !! ولمّا ظنّ الإنسان أنّ الجِنس شيءٌ طبيعي، وأن على كلّ إنسان أن يُمارسَهُ! جاءه الإيدْز، فإذا شَعَر الإنسان أنّه قويّ ومتمكّن، وأن العلم وكلّ شيءٍ بيَدِهِ أتاه أمر الله، وهذا الأمر مستمرّ ؛ فكلّما ادّعى الإنسان أنّه قويّ، وله سيْطرة على الطبيعة جاءه الأمر، يقول أصحاب الحضارة الغربيّة أنهم سَيْطروا على الطبيعة ! وغاب عنهم أنّ الله لهم بالمرصاد، فالأمراض الوبيلة التي تفتك بالبشريّة لا تُعدّ ولا تُحصى ! و كلّ تغيير في خلق الله تُرافقهُ مصائب لا تعدّ ولا تُحصى، فالله تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ)

(سورة الحديد)

وهناك مِن أهل الدنيا مَن يتنافس مع أقرانه من أجل المال، ويقول: أنا رصيدي كذا وكذا، وقد يتباهى بالأولاد ولو لم يكونوا مستقيمين ! وإنما يعنيه من أولاده أن يكونوا متألّقين فهذا وصفٌ من ربّنا جامعٌ مانِعٌ لحال الدنيا وأهلها، قال تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

ثمّ يقول تعالى:

(كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(يهيج) ؛ أي:ييْبَسُ، فإذا ألقيْتَ البذرة في الأرض نمَتْ هذه النَّبْتَةُ، وتألّقت واصفرّت، وبعدها تُصبحُ حطاماً، و حال الإنسان كحال النبات، قال تعالى:

(وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

إن الإنسان يولَدُ فيَفْرحُ أهلهُ ويُعْلِنون عن هذا الفرح ويدْعون الأصدقاء، ويعتني أهل هذا الطِّفل به إلى أن يكْبُر، فيدخل المدرسة و يدرس المراحل، وبعدها يتزوّج، ثم تأتي مرحلة العمل، ومرحلة تزويج أولاده، وفي آخر مرحلة توضَع (نعْوتُهُ) في الطرقات، وبعد مائة سنة لن يكون ذكره موجوداً، فهذه الدنيا مرحلة عابرة، وهنيئاً لِمَن طال عمره وحسُن عمله، فحالنا كَحَال النبتة التي ذبلتْ، والتي ضرب الله بها مثلا في القرآن، فالدنيا زائلة، وكلّ مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت، قال تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

(الكفار) هنا هم الزُّراع، والكَفر: هو الغطاء، و(يهيج) ؛ أي: ييْبَس، قال عليه السلام:

((فوالذي نفس محمّد بيَدِه ما بعد الدنيا من دار إلا الجنّة أو النار !))

فهؤلاء الخلق جميعًا مصيرهم إما إلى جنّة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفذ عذابها، قال تعالى:

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

فالدنيا فيها متاع، أما الآخرة ففيها السعادة، ومتاع الدنيا غرور، فالإنسان في البدايات يرى الدنيا فوق حجمها الحقيقي، فهو يرى المال شيئًا كبيراً، والمرأة شيئاً أكبر، لكنك كلّما كبُرتَ عند الله صْغرت الدنيا في عَينَيك، وكلّما صغُرت عند الله كبرت الدنيا في عَينَيك، فالدنيا زائلة، وطلاّبها كلابها، وهي دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له! فهي عارية مستردّة، أمدها قصير، وشأنها حقير، ما أرادها الله عقاباً لأعدائِهِ، ولا مكافأةً لأوليائِه، فلينظر الناظر بعَقْلِهِ هل أكرم الله محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا ؟ و هو سيّد ولد آدم، وسيّد الأنبياء والمرسلين، وكان إذا صلّى الليل لا تسعه بيته للصلاة ! يقول عليه الصلاة والسلام: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[رواه الترمذي]

قال تعالى:

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

فهي تبدو للجاهل بِحَجم كبير، فيبيع دينه بعَرض منها قليل، وما هي إلا غرور، والسعادة كلّ السعادة في جنّة الرّضوان، فكم من سعادة في الدنيا تأتي بعدها الكآبة والملل، فالدنيا تضرّ وتمرّ وتغرّ، وفي درس قادم إن شاء الله تعالى نتابع درسنا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 21-26

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-04-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

السباق إلى الجنة

بسم الله الرحمن الرحيم

أيُّها الإخوة الكرام، مع الدرس السادس من سورة الحديد، ومع الآية الحادية والعشرين، وهي قوله تعالى:

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

الإنسان زمن :

إن كلمتا (سابقوا) و (سارعوا) تُشْعِران أنّ الإنسان في أصْله زمن، وأنّ الزّمن يمْضي، فلو كان الإنسان مُخلّداً لما احتاج أن يُقال له: سابق أو سارع ! ولكن الإنسان ذو عُمُر محدود، والزّمن يمضي، ومُضيّ الزّمن يستهلك الإنسان، فهو في كلّ ثانية يقترب من نهايته، لذلك قال تعالى في هذه الآية: (سابقوا)، و قال في آيات أخرى: (سارعوا)، والإنسان في حقيقته زمن، فهو بضْعة أيّام، كلّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، وإنّ أثْمَنَ شيءٍ تملِكُهُ على الإطلاق هو الزّمن، لأنّ كلّ شيءٍ لا معنى له من دون زمن، فإذا انتهى الزّمن بطلت قيمة كل الإنجازات و لم يعد للمال معنى، فأنت زمن، ورأس مالك زمن، و أثمنَ شيء تملكُهُ هو الزّمن.

نوعا إنفاق الزمن: استهلاكي و استثماري:

وهذا الزّمن- أيها الإخوة -هو أخطر شيء على الإطلاق، فإما أن تنفقه استِهلاكاً،أو أن تنفقهُ استِثمارًا، فالإنفاق الاستهلاكي للزّمن يعني أنْ تفعَل كلّ المباحات التي لا علاقة لها باليوم الآخر، أما الإنفاق الاستثماري فهو أن تعمل عملاً في هذا الزّمن ينفَعُكَ بعد انقضاء الزّمن ! فالإيمان بالله تعالى ومعرفة منهجه، وطاعته، والعمل الصالح، والدّعوة إلى الله، و كلّ نشاط بشري يستمرّ أجرُه وفائدته بعد انْقِضاء الحياة يُعدّ استْثماراً للزّمن، فلو أنّ الإنسان تنبّه إلى خطورة الزّمن لما نام الليل، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا))

[رواه البخاري]

والإنسان دائماً يعدّ حياته بالطريقة التّصاعديّة، فيقول مثلاً: عمري خمسون عاماً، فلو أنّه قال: بقيَ لي عشر سنوات لانْخلَعَ قلبهُ ! فكيف مضَتْ هذه الخمسون؟ وكيف مضَت الأربعون ؟ عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أعْمَارُ أُمّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إلَى السّبْعِينَ وَأَقَلّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذلك))

[رواه الترمذي]

فكلّ إنسان عاقل يعدّ عمرهُ عدّاً تنازلياً، لا عدّاً تصاعديّاً، فيسأل هل بقِيَ بِقَدْر ما مضى ؟ فإذا أنت لم تدخل ساعة مغادرة الدنيا في حِساباتك اليوميّة فإنك لن تنجو لا من عذاب الدنيا ولا من عذاب الآخرة ! لقد ذكرتُ أنّ مرةً طالباً نال الدّرجة الأولى، فقيل له: بِمَ نِلْتَ هذا ؟ فقال: لأنّ لحظة الامتحان لم تُغادِر مخيّلتي ساعةً واحدة !!! والإنسان المؤمن لا تُغادر ذِهنَه إطلاقاً لحظةُ مُغادرته الدنيا، ووقُوفه بين يدي الله، وسؤاله عن كلّ أعماله، فهو دائِماً يسعى للآخرة، قال تعالى:

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(19))

[سورة الإسراء]

تصوّر مثلاً أنّ هناك شريطاً يمشي الناس عليه، وقد كنت تمشي على هذا الشريط، فلو نزلت لحظة لسبقك كلّ من عليه ! لأنّ الحركة مستمرّة، فينبغي عليك أن تتحرّك وأنت فوق هذا الشريط، لذا قال: (سابقوا) و(سارعوا): وهذا يعني أنّ الإنسان له عمر محدود، وهذا العمر ينقضي، فهناك حركة الليل والنهار، و حركة الأسابيع، والأعوام، وفجأةً يُغادر الإنسان الدنيا، فالزّمَن يمضي و مُضِيُّ الزّمن يستهلك الإنسان.

هناك آية أخرى تُفيدنا في فهْم هذه الآية، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(148))

(سورة البقرة)

فأنت في الدنيا تتمتّع بمَا يُسَمّى الآن بحُريّة الاختيار، فالدنيا دار عمل ودار توبة ومغفرة، واصطلاح مع الله، وعمل صالح، أما إذا انقضَت فكلّ هذه الفُرَص أُغْلِقَت، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(148))

[سورة البقرة]

أي: أينما تكونوا يلحقكم الموت !

قال تعالى:

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا(78))

[سورة النساء]

الإنسان نقطة متحركة إلى هدف ثابت...

النِّهاية محدّدة، وأنت الآن مُتحرِّك، أيْ: هناك نقطة تتحرك إلى هدف ثابت ! ومُضيّ الزّمن يُقرّب المسافة، فلو أنّ الإنسان ركب سيارته واتَّجَهَ بها إلى حمص و نظر إلى حركة عقرب الثواني في ساعته لرأى أن كلّ حركة تدلّ على الاقتراب من حِمص ! فالنِّهاية ثابتة، ولكل إنسان أجل مسمّى لا يزيد ولا ينقص، والمسافة تتناقص إلى أن تصل إلى الصِّفر.

هناك وَهمٌ يدخل على بعض الشباب، فيقول: أنا لا زلتُ شابًّا !! فنقول رداً عليه: هناك من يموت في الثلاثين أو في الخامسة والثلاثين، وهناك من يموت في العشرين، والأجل إذا جاء لا يعرف شابًّا ولا طِفلاً ولا وليداً ولا شيخاً، قال تعالى:

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ(61))

[سورة النحل]

ويقول الله عز وجل:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(102))

[سورة آل عمران]

قد تقول: كيف يُخاطبني الله عز وجل ويقول لي: لا تمُت إلا وأنت مسلم ؟! الموت ليس بيدي ! إنه بيد الله عز وجل ! و الإجابة عن ذلك أنّ الموت ليس بيَدِ الإنسان، فهو يأتي فجأةً، فاحرَص على أن لا يأتِيَك الموت إلا وأنت مسلم، وكُن مستعِداً دائِماً لِلقاء الله عز وجل، فإذا جاء الموت فجأةً كنتَ مسلماً لله خاضِعاً لأمرِهِ، ومنقاداً لِمَنهجه.

فالسِّباق يعني أنّ هناك هدفاً ثابت يتحرك إليه الإنسان، لكن الناس اليوم يتسابقون لا إلى مغفرة و جنّة، لكنهم يتسابقون إلى الدنيا، وإلى جمع الدِّرْهم والدِّينار، قال تعالى:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

[سورة الزخرف]

يظل الإنسان يفكر في النموّ ومضاعفة الأرباح، ويظن هذا سِباقاً، ولكنه يُفاجأ بأنه سيخسر هذه الدنيا التي اكتسبها بجُهدٍ جهيد في ثانية واحدة، فالذي يضع آماله كلّها في الدنيا يُعدُّ مُقامِراً ! لأن الموت ينسف كلّ هذه الآمال، أما إذا تعامل مع الله وكان كسبه عملاً صالحاً، عندها تبدأ سعادته عند الموت،

والشيء الذي يبدأ بعد الموت هو الشيء الثّمين النفيس، أما الشيء الذي ينتهي مع الموت فهو الشيء التافه الخسيس، والعاقل من يعمل لما بعد الموت، و كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث))

فعندما تحدث عما بعد الموت غيّر الحديث عن مضيّ الزّمن والمسارعة والمسابقة، يقول الإمام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: **"الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما!"** فالإنسان عندما ينظر إلى صوره القديمة يرى الفرق واضحاً في خطوط وجهه، وفي شَكل ملامِحِه، فمعنى ذلك أنّ الليل والنهار عملا فيك، فمن أجل أن لا تكون ضَحِيّة مُضِيّ الزّمَن فاعْمَل فيهما العمل الصالح الذي ينفعُك بعد مضيّ الزّمن ! و هذا كلّه في قوله تعالى:

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

المغفرة والجنة هدفا الإنسان المؤمن:

إن الأهداف المشروعة التي أرادها الله لنا هي المغفرة والجنّة، فالمغفرة هي أن يشفى الإنسان من أمراضه الدُّنيَوِيّة، فالإنسان رُكِّبَت فيه الشّهوات فإذا بَعُد عن منهج الله، وكان ضعيف الاتِّصال به ولدت هذه الشّهوات عنده أمراضاً تحْجُبه عن الله تعالى، فالمؤمن يُسارع ويُسابق لِيَشفى منها، وهذه الأمراض لا تشفى إلا بطاعة الله تعالى والإقبال عليه، فالهدف الأوّل هو المغفرة، فالجنّة طيّبة لا يدخلها إلا طيّب، والله سبحانه وتعالى طيّب لا يقبل إلا طيّبًا، فأوّل عمليّة في الصُّلح مع الله تعالى أن تشفى هذه النّفس من أمراضها، فهذا هو الهدف الكبير الذي ينبغي أن نسعى إليه، قال تعالى:

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

فالمغفرة شِفاء وتَطهير، فهي تعالج كلّ الأمراض النّفسيّة التي تحجب الإنسان عن الله عز وجل وتجعله خاسراً بعد الموت.

أيها الإخوة الكرام.. إن أمراض الجسد تنتهي عند الموت، وأمراض النفس تبدأ بعد الموت، فمهما كان المرض عُضالاً فإنه ينتهي إذا مات صاحبه ! ولكنّ أمراض النّفس تبدأ عند الموت، فإذا كان الإنسان مستقيمًا ووقّافًا عند حدود الله تعالى يسعدُ سعادةً أبديّة، ومن كان عاصياً ومنافقاً، بدأ حسابه بعد الموت، لذا قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

[سورة الشعراء]

و قال تعالى:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(133))

[سورة آل عمران]

"عرضها كعرض السماوات والأرض":

من أجل أن تعرف ماذا يعني قوله تعالى:

(عرضها كعرض السماء والأرض)

عليك أن تعلم أن المسافة بيننا و بين القمر تعدل ثانية ضَوْئيّة واحدة ؛ أي: ثلاثمائة وستُّون ألف كيلومتر، و أن بيننا وبين الشّمس ثماني دقائق ؛ أي: مائة وستّة وخمسون كيلومتر، كما أن بيننا وبين نجم القطب أربعة آلاف سنة ضَوْئيّة، وبيننا وبين مجرّة المرأة المسلسلة مليون سنة ضوئيّة، وبيننا وبين بعض المجرّات أربعة وعشرين مليون سنة ضوْئيّة، هذا كله و نحن لازلنا في الكون، والله تعالى قد قال:

(عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

و قال:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا(20))

[سورة الإنسان]

فهل يمكن لأحد أن يزهد في جَنّة عرضها كعرض السماء والأرض ؟ ويجب على الإنسان أن يعرف أن هذه الجنّة هي أعظم عطاءٍ على الإطلاق، فهي العطاء الأبدي السرْمدي، قال تعالى:

(لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ(48))

[سورة الحجر]

فقد يكون الإنسان في حالة جيّدة، ويقال عنه: إنه في قلق عميق ! فلا بد له من أن يترك هذا البيت ! ولا بدّ لأحد غيره أن يأخذه هذا المكتب الفخم ! أما هذه المركبة الفارغة فإنه لن يستطيع أن يتمتّع بها إلى ما لانهاية، فكلّ شيء في هذه الدنيا مؤقّت، لذا نجد عند الإنسان قلق عميق، ناتج عن خوف الفناء لكنّ الإنسان إذا دخل لم يخرج منها الجنّة، فقد قال الله تعالى:

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ(48))

[سورة الحجر]

فالبقاء في الجنّة أبدي والسعادة فيه متنامية...

ثمن الجنة:

قال تعالى:

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

وثمن هذه الجنّة يملكُهُ كلّ إنسان، فأنت إن آمنْتَ بالله تعالى خالقًا، ومُربّيًا، ومُسيّراً، وآمنتَ برُسله، وبما جاؤوا به من منهَج قويم ملكت ثمن الجنة، قال تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(62))

[سورة يونس]

فالإيمان بالله والاستقامة على منهج، هما ثمن الجنّة، قال تعالى:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا(20))

[سورة الإنسان]

لقد زار أحد أصدقائي بلداً صِناعِياً، فدعاهُ مُدير شَركة هناك إلى بيته، فقال هذا الصديق: إن بيْتُهُ كان قصْراً في غابة، وهو ذو مساحته لا تُقدّر، وحوله بساتين، فإن كان الأمر هكذا في الدنيا فما بال الجنّة إذاً ؟! لقد أعدّ الله لنا ما عين رأتْ ولا أُذن سَمِعت، ولا خطر على قلب بشر، وهذه الجنّة العظيمة لا يزْهد بها إلا أحمق وغبيّ مُعطّل القلب، وهي ليْسَت لِفئةٍ محدودة، ولا لطبقة محدودة ولا لأناس لهم صفات محدودة، إنما أُعدّت كما قال تعالى:

(أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

(من يشاء): تُشير إلى الاختيار، فمن أراد الآخرة وسَعى لها سَعيَها وطلب رضاء الله ودفع ثمنه نال الجنة، و الله يؤتي فضل الله من يشاء ؛ أيّ: من يشاء الجنّة، وإن من تعرّف إلى الله عز وجل، وتعرّف إلى كتابه وسار على منهج الله تعالى وصَل إلى الجنّة، فَمِن رحمة هذا الدِّين أنه مَيسّر، فهو باستطاعة كل إنسان، والإنسان أحياناً قد يمضي وقته في كلام فارغ ولقاءات سخيفة، أفلا تستدعيه الجنّة ليحضر مجالس العلم كي تعرّف فيها إلى الله و كتابه وسنّة نبيّه، ويتعرف فيها إلى سِرّ وُجوده والحكمة منه، وإلى أثمن شيءٍ ينبغي أن يفعَلَهُ في هذا الوُجود، فَثَمَن الجنّة هو أن تعرف الله وأن تُطيعهُ، و كلنا يستطيع أن يكون صادقاً وأمينًا، وعفيفاً، لأنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

[سورة البقرة]

كما أنه بإمكانك أن لا تشتري كثيراً من الأشياء التي تُبعِدُك عن الله تعالى، فهناك أشياء اقتنيتها جعلتك تسَهر إلى ما بعد منتصف الليل وأنت في المعاصي، أليس بإمكانك أن تمتنع عن المعصيَة ؟ فالجنّة ثمنها طاعة الله والاستقامة على أمره، وأن تتقرّب إليه بالعمل الصالح، وهذا مُتاحٌ لِكُلّ إنسان.

عدالة الله:

لولا أنّ الجنّة مُتاحة لكل إنسان لما كان الله تعالى عادِلاً ! قال تعالى:

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

قال عليه الصلاة والسلام:

((الناس سواسية كأسنان المشط! والخلق كلهم عِيال الله))

وهذه المبادئ تُلغي كلّ التّمييز الطّبقي والعنصري والفِئوي والعشائري، وهذا كلها تقسيمات شيطانيّة ما أنزل الله بها من سلطان.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَطَبَ النّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكّةَ فَقَالَ:

((يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنّ اللّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبّيّةَ الْجَاهِلِيّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا فَالنّاسُ رَجُلَانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيّنٌ عَلَى اللّهِ، وَالنّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، قَالَ اللّهُ(يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)))

[رواه الترمذي]

فهناك إنسان عرفَ الله ومنهجه، واستقام على منهج فاتّصَل به واكتسب الكمالات فسَعِد بما فعل، وآخر جهل هذه الحقيقة وانقطع عن الله عز وجل وأساء لِخَلق الله تعالى، وسقط من عَين الله ومن عين الناس، فشَقِيَ في الدنيا والآخرة، وهذا هو التقسيم الطبيعي.

((النّاسُ رَجُلَانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيّنٌ عَلَى اللّهِ وَالنّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ قَالَ اللّهُ(يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)))

[رواه الترمذي]

والتقسيم القرآني تقسيم آخر، ففيه إنسان آمن بالله ورسله وأطاع الله تعالى، وإنسان كفر وتفلّت من منهج، و هناك إنسان رحماني، وآخر شيطاني، وإنسان مؤمن وآخر غير مؤمن، وإنسان مسيء، وآخر مُحسن، وإنسان مستقيم وآخر منحرف، وإنسان صادق وآخر كاذب، وهكذا...قال تعالى:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(133))

[سورة آل عمران]

فالله يقول عن نفسه أنّه عظيم، وهذه الكلمة لا يمكن أن نعرف أبعادها إلا إذا تفضّل الله على إنسان ودخل الجنّة، قال تعالى:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(74))

[سورة الزمر]

فإذا أذن الله للمؤمن بِدُخول الجنّة نشأت في نفسه من مشاعر الامتنان والحمد ما لا يوصَف، فلو كانت حياته كلّها عذاب لقال: لم أر شرًا قطّ ! أما الذي دخل النار فلو كانت حياته كلّها نعيم لقال: لم أر خيرًا قطّ ! فالخير الذي بعده النار ليس بِخَير، والشرّ الذي بعده الجنّة ليس بِشَرّ، وكلّ نعيم دون الجنّة حقير، وكلّ بلاء دون النار عافيَة، وإنّ أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وإنّ أشقاهم أرغبهم فيها !

حقيقة المصائب:

يقول الله عز وجل:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد]

المصيبة دائماً هي عِلاج إلهي، فما سُمِّيَت المصيبة مصيبة إلا لأنّها تُصيب الهدف، فالذل مصيبة وهو إهانة للكِبر، و الإفقار مصيبة وهو إهانة للإسراف، و الخروج عن منهج الله مُصيبته هي دَفْعُ الثَّمَن الرادِع.

أيها الإخوة الأكارم، لا وُجود في الكون لشرّ مطلق، وكلّ ما يُسمِّيه الإنسان شراً إنما هو شَرٌّ نِسْبيّ هَدَفُه المُعالجة.

قصة أصحاب الجنة:

أصحاب الجنّة الذين ورَدَتْ قِصّتهم في القرآن الكريم في سورة القلم، كان عندهم بساتين وثِمار يانعة وإنتاج وفير، فاتّفقوا على أن لا يُعطوا منها مسكيناً ولا فقيراً قال تعالى:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(19))

[سورة القلم]

فلمّا انطلقوا لِيَحصدوا هذه الثِّمار ويقطفوها قالوا: (إنّا لضالون)، فهذه ليْسَت بساتيننا ! ثمّ تأكّدوا منها فقالوا: (بل نحن محرومون !!) لقد أقسموا ليْصرمُنّها مصبحين، ولا يستثنون أحداً في العطاء، فطاف عليها طائف من ربّك وهم نائمون، قال تعالى:

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ(26)بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(27)قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ(28))

[سورة القلم]

أوسطهم ؛ أي: أقربهم لله تعالى، فقال: لو اتّصلتم بالله لشُفيتم من مرض الشحّ والبخل، ولأنفقتم بعض هذه الثِمار للفقراء والمساكين، ولما تلفت هذه الثِمار، قال تعالى:

(قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(29))

[سورة القلم]

و القصّة معروفة في كتاب الله ولكني ذكرتُها لكم لذكر هذه الآية:

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ(30)قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ(31)عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ(32)كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(33))

[سورة القلم]

أي كلّ أنواع العذابات في الدنيا من هذا النوع، فهناك مُصيبة تكون مُعالجة رادعة وهناك مصيبة كاشفة، كما أن هناك مصيبة رافعة، لذا قال تعالى:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد]

المصيبة هنا جاءت نكرة، وهذا التّنكير تنكير شُمول، وكلمة (مِن): تُفيد استغراق أفراد النّوع،أي: إن أيّة مصيبة ؛ صغيرة كانت أو كبيرة،جليلة أو حقيرة، مادّيّة أو معنويّة، جِسْمِيّة أو نفسيّة، ماليّة أو بدنيّة، ومهما يكن حجمها أو نوعها، ومهما تكن شِدّتها، هي علاج من الله تعالى، فالله تعالى قال:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد]

فإذا جفّت الينابيع مثلاً و ماتَتْ النباتات، و انْقرَضَت الحيوانات، و جفّت الأنهار، حدث الوباء، قال تعالى:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ(65))

[سورة الأنعام]

(من فوقكم): كالبراكين و الصواريخ، (من تحت أرجلكم): كالزلازل، (يلبسنا شيَعاً ويذيق بعضكم بأس بعض): إن وُحوش الأرض كلّها لا تُساوي وحْشيّة البشر، فوُحوش الأرض تفترس لِتَشْبع فإذا شبِعَت كفّتْ عن الافتِراس، أما الإنسان فإذا كان جبّاراً في الأرض وبطّاشًا فإنه لا يرْتوي إلا بالدِّماء، لذا قال تعالى:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد]

أيٌّ كتابٍ هذا ؟ قالوا: هذا كتاب العمل، و مِن باب التقريب والتّوضيح أود أن أضرب هذا المثل: إذا كان هناك طبيب وقف على سرير مريض فقرأ لائحة المرض، فرأى فيها أن الضّغط مرتفع جداً، فقرّر منْعَ نفسه عن المِلح، وربما رأى أن الضّغط منخفض جداً فيتناول ملحاً زائداً، و هذا القرار مَبنيّ على لائحة المرض، فكلّ إنسان له عند الله تعالى كتاب أعماله، فإذا كان هناك انحراف كانت هناك مصيبة رادِعة، وإذا كانت هناك استقامة كانت هناك مكافأة، وإذا كان هناك علوّ تأتي المصيبة لتُهين المتعالي، وإذا كان إسراف تأتي المصيبة لِتُفقِرَ المسرف... فيا أيها الإخوة، إن لكل شيء حقيقة، ولا يبلغ الإنسان حقيقة الإيمان حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليُخطئه، فكُلّ مصيبة تُصيبُ الإنسان لا بدّ أن تصيبهُ، فلا يوجد عند الله تعالى فجأة أو طيش أو خطأ، و أخطاء البشر تُوظّف في القضاء والقدر، قال تعالى:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد]

فقوله:

(نَبْرَأَهَا)

يعني أن هناك تقديراً حكيماً يسبق مجيء المصيبة، والإيمان بالقدر نِظام التوحيد كما أنه يُذْهب الهمّ والحزن، فالعشوائية غير موجودة، فسواء كانت المصيبة صغيرة أو كبيرة فلا بد أنها موجودة في كتاب أعمالنا، كما أنها متعلِّقة بأعمالنا، والإنسان أحياناً يكون جاهلياً فيقول: تطيّرنا ! فما هو التّطيّر ؟ هو أن تتشاءم من طَيرٍ طار على شِمالك، أو أن تتفاءَل من طائرٍ طار عن يمينك !! و هذه خرافة، إنّما طائركم عند الله ! فالإنسان يتشاءم إذا كان عمله سيّئاً، ويتفاءَل إذا كان عملهُ طيّباً، فمَبْعث التشاؤم التفاؤُل هو سوء العمل، أو حُسن العمل ! قال تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكّلْ الْمُؤْمِنُونَ(51))

[سورة التوبة]

وقال تعالى:

(مَا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطّيّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنّ اللّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ(179))

[سورة آل عمران]

لذا قال تعالى

(إلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أنْ نَبْرَأَهَا إنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد]

أي نخلقها، قال تعالى:

(إنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

[سورة الحديد]

إنزال المصيبة أمر يسير على رحمة الله:

ونحن نؤمن قطعاً أن كل شيء يسير على الله، لكن المعنى هنا: أن إنزال هذه المصيبة شيء يسير على رحمة الله عز وجل ! فالأب الطبيب يُوافق على إجراء العمليّة الخطيرة مباشرةً، ولا يتردّد في ذلك، فأحياناً يُوافق على بتْر يد ابنه في أقصر وقت، فالرّحمة مع العِلم تقتضي المُعالجة، أما الرحمة من دون علم فتقتضي الشّفقة الحمقاء ! فلو ترك الله الشارد اللاهي المنغمس في المحرّمات على شروده لهلك ودخل النار، فيُنْزِل ربُّنا به عقوبة رادعة، وقد تكون قويَّة طاحنة ومؤلمة، فتحدث هذه المصيبة له من أجل أن يرجع إلى الله ويستقيم على أمره و ينتهي عن اقتِراف الذّنوب والآثام والمعاصي، لذا قال تعالى:

(لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

[سورة الحديد]

لا تقل: لو، قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تقل: لو أنني فعلت كذا وكذا))

واستثنى العلماء لو الإيجابيّة كأن تقول: لو لم آكل هذا المال الحرام ما تلف مالي ! أو تقول: لو لم أنحرِف عن منهج الله لما خسرتُ كذا وكذا ! فالمؤمن يؤمن أنّ كلّ شيء بقضاء وقدر من الله عز وجل، فلا ييئَس على ما فات، ولا يفرح بما هو آت ! لأنّ الذي فات لا بدّ أن يفوت عند الموت، أما الذي هو آت فلن يستمرّ إلا إلى حين، لهذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((من عرفها لم يفرح لِرَخاء، ولم يحْزن لِشَقَاء))

فكلاهما مؤقّت، فالموت يُنهي كلّ شيء، فهو يُنهي غِنى الغنيّ وفقْر الفقير، وقوّة القويّ، وضَعف الضعيف، وصِحّة الصحيح ومرض المريض، لذا قال تعالى:

(لا تأسَوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم)

وشُعور الإنسان أن الدنيا ستَمضي، وأن العبرة في الآخرة شُعور مُريح يمْتصّ كلّ متاعب الحياة، فقد حدّثني صديق لي يعمل قاضياً فقال: هناك عشرات الدّعاوى بل مئات تُشْطب لِمَوت أحد الخصْمين !!

المختال الفخور:

قال تعالى:

(وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

[سورة الحديد]

فالمختال جاهل، والمفتخر بما ليس له أجْهل، والمختال هو الذي يزْهو بمَا عنده، وينسى فضل الله عليه، فعلى الإنسان أن يحمد الله على النِّعمة، والمؤمن دائماً ينتقل من النِّعمة إلى المنْعِم، أما غيره فيقف عند النِّعمة ويزْهو ويفتخر بها على الناس، قال تعالى:

(وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

[سورة الحديد]

فهؤلاء المختالون يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، وإن نفسُ المؤمن مَبنيّة على العطاء، والبخل يتناقض مع الإيمان، وهما لا يجتمعان في الإنسان إطلاقاً، فهذا الذي يبْخل لا يعرف ما عند الله تعالى من خَيرات، قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(21))

[سورة الحجر]

كمية الحديد في الأرض:

في الدرس القادم إن شاء الله سنَصِل إلى موضوع متعلِّق بالحديد، ولكني سأتعجل في ذكر أمر حول موضوع الحديد، ففي عام ألف وتسعمائة وعشرة عُقِدَ مؤتمر لِدراسة مخزون الحديد في الأرض، فَشُكِّلَت لِجانٌ، ودرسَت كلّ أماكن التَّعدين في الأرض خِلال أشهر، فصدر تَقرير من المؤتمر يقول: إن مخزون الحديد في الأرض يكفي سِتِّين عاماً ! ثمّ اكْتُشِفَ أنّ كميّة الحديد في الأرض تُساوي خمساً بالمائة من وزْن القِشرة الأرضيّة ؛ أي: خمسة وسبعين ألف مليون مليون طنّ !! قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(21))

[سورة الحجر]

فالكلام عن نفاذ المعادن أو غيرها كلام مضحِك، فالله تعالى عنده تقنين تأديب، أما الإنسان فعنده تقنين نقص، قال تعالى:

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ(27))

[سورة الشورى]

فالإنسان إذا قنَّن كان تقنينه تقنين عَجز، و الذين يبخلون لا يرَون ما عند الله من خيرات قال لي شَخص مرة: نحن على وشَك جفاف مهْلك في حوض دمشق ! و في العام التالي هطل ثلاثمائة وخمسون مليمتراً من الأمطار!! فالمؤتمرات واللِجان كلّها كلام ! وليس كل ما يُقال يُصدَّق، فالذي خلق هذا الإنسان خلق له طعام، والأصل طاعة الله تعالى، قال تعالى:

(وَلَوْ أَنّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(96))

[سورة الأعراف]

والإنسان إذا أقبل على الله تعالى كان هذا الإقبال لِصالحه، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ(46))

[سورة فصلت]

في درس قادم نتابع الآيات، وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

[سورة الحديد]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 25-27
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-05-03

بسم الله الرحمن الرحيم

شرائع الرسل، ومنافع الحديد

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الحديد، ومع الآية الخامسة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

[سورة الحديد]

البينات:

أيها الإخوة الكرام.. إن الحديث عن رُسل الله صلَوات الله عليهم، جاء بصيغة الجمع، وصيغة الجمع تعني أنّ هؤلاء الرُّسل الكرام على اخْتِلاف عُصورهم واختلاف أقوامهم يأتون برسالة واحدة، قال تعالى:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا)

[سورة الحديد]

فمِن حق العباد على ربهم أن يُنَبِّهَهُم و يُحذِّرهم و يُرْشِدهم، فالله سبحانه وتعالى أرْسَل الأنبياء والمرسلين لِيَكونوا هداةً إلى الله عز وجل، ولا شكّ أنّ الدِّين السّماوي فيه منهَج وفيه أمر ونهي، والإنسان قد يَعْجب من كثرة أتباع هذه الأديان الوَضْعِيّة التي هي مِن صُنع البشَر، فهناك أُناسٌ يعبدون البقر! وأُناس يعبدون الموج ! وأُناس يعبدون الشمس ! وآخرون يعبدون القمر والنار !! فما سِرُّ كَثْرة أتباع هذه الأديان ؟ السرّ بسيط جداً، وهو أنّ هذه الدّيانات ليس لها منهَج، بل فيها: اِفْعَل ما شئْت ! ولكن أَعْلِن ولاءك لهذا الدِّين، وانتهى الأمر بعد ذلك، فلا يوجد لديهم تكاليف، لكنّ الأنبياء والرُّسُل حينما يأتون برسالة من عند الله ؛ فإن مِن لوازم هذه الرّسالة التكاليف، وكلمة تكليف تعني أنّه شيءٌ ذو كُلفة، فهناك أمر بالصِّدْق والأمانة والاستقامة، والوفاء بالعَهد، وإنجازهُ، وأمر بِحُسن الجوار، والكف عن المحارم والدِّماء، فقد قال سيّدنا جعفر: **" كنا قوما أهل جاهلية....حتّى بعث الله فينا...."** فحينما يُرسل رسول من عند الله تعالى يأتي ومعه منهج ؛ و هذا المنهج فيه أمْرٌ ونَهْي، وهذا الأمر والنّهي يُقيِّدُ حُريّة الإنسان، وهو ضمانٌ لِسَلامته، ولكنّ الكافر لا يرى هذه السّلامة، بل يرى في الأمر الإلهي تَقييدًا لِحُرِيّتِهِ، لذلك كان ردّ الفِعل الطبيعي للإنسان المُتفلِّت الشّهواني المُقيم على مباهج الدنيا إذا جاءَتْهُ رسالة سَمَاوِيّة أن يقول لهذا الذي جاءهُ: أنت كاذِب **!!**.

ولا بدّ مِن أن يؤيّد الله رُسلهُ بالبيّنات، فحينما يقول موسى عليه السّلام لقومه: **أنا رسول الله،** ُكذّبوه، فأعطاه الله معجزات، منها أنه إذا أمْسَكَ بالعصا كانت ثعباناً ! كما أنه كان يُخرج يده من تحت إبطِهِ فإذا بيضاء للناظرين ! أما سيدنا عيسى فقد كان يحْيي الموتى بإذن الله، ويبْرأ الأكمَه والأبرص بإذْن الله، وسيّدنا إبراهيم ألقِيَ في النار فكانت برْداً وسلاماً عليه !! و البيّنات هي المعجزات، وهي شيء خارقٌ للعادات، لا يستطيعهُ إلا ربّ الأرض والسماوات، فإذا قال إنسان: أنا رسول الله، فالأصل أن تكون لديه معجزة، إلا أنّ معجزات الأنبياء السابقين كانت مُعْجزات حِسِيَّة، فهي كَعُود الثِقاب يشتعل فيتألّق ثمّ ينطفئ !! ثم يُصبح خبراً يُصَدِّقُهُ مَن يُصدِّقه، ويُكَذِّبُهُ من يُكَذِّبُه، إلا أنّ معجزة النبي عليه الصلاة والسلام معجزةٌ عَقليّة بيانيّة، فليس لها عُمر، وهي قائمة إلى يوم القيامة، فكّما تقدّم العِلم كشَف عن جانب من جوانب هذا القرآن العظيم، لذا كان معنى قوله تعالى:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ)

[سورة الحديد]

إعجاز القرآن:

(البينات): هي المعجزات التي تُبيّن للناس أنّ هذا الإنسان رسول الله، والنبي عليه الصلاة والسلام جاء بكتابٍ تحدّى الله به العرب جميعاً، فما استطاعوا أن يأتوا بمِثله ولا بسُورة منه ولا بعَشر آيات فقط! فالبرهان القوي على أنّ هذا القرآن هو كلام الله هو إعجازه، ففيه الإعجاز العلمي، والإعجاز التربوي، والإعجاز البياني والتشريعي والإخباري، ومثال الإعجاز الإخباري هو قول الله تعالى:

(غُلِبَتْ الرُّومُ(2)فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(3))

[سورة الروم]

والإعجاز الإخباري أنواع ثلاثة: إخبار الماضي وإخبار الحاضر وإخبار المستقبل، وهذا موضوع طويل ولا مجال للتوسُّع فيه، قال تعالى:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ)

[سورة الحديد]

البيّنات: هي الأدلّة الواضحة على أنّ هؤلاء رُسُل من عند الله عز وجل، قال تعالى:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(39))

[سورة يونس]

لقد قال العلماء قولاً رائعاً في تفسيرهم لكلمة (التأويل)، وهو: أن تأويل القرآن الكريم إنما هو وُقوعُ وَعْدِهِ ووعيده، والله عز وجل يقول:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل]

فالشاب المؤمن الذي يصطلح مع الله يستقيم على أمره يذوق الحياة الطيّبة، فالحياة الطيّبة هي بيّنة من الله عز وجل لهذا المؤمن تثبت له أنّ هذا القرآن كلامه، أما حينما يُعرض الإنسان عن الله عز وجل إعراضاً شديداً، ويتفلّت من منهجه، فإن له المعيشة الضّنك، وهذا أيضاً هو بيّنة من الله لهذا الإنسان على أنّ هذا القرآن كلامه، فلو أنّ طالباً دخل إلى قاعة التّدريس فرأى جملة مكتوبة على السبورة تقول: يوجد في الساعة الأولى من يوم الأحد مذاكرة ! فيتساءل: يا تُرى هل هذا الكلام هو كلام الأستاذ أم أن طالباً كتبه ؟! وما الذي يؤكِّد أنّ هذا الكلام كلام أستاذ الرياضيات ؟ فإذا جاء يوم الأحد و دخل أستاذ الرياضيات في الساعة الأولى وقال: افتحوا أوراق الامتحان كما ذُكِر ! فهذا يؤكِّد أنّ هذا الذي كتب العبارة على السبورة هو أستاذ المادة، كذلك كانت كلّ للأحداث الواقعة مطابقة لما في كتاب الله تعالى، فلو أنّ أحداً سأل نفسَه: ما الذي يؤكِّد لي أنّ هذا القرآن كلام الله ؟ نقول له: تحرّك في الحياة كيفما تريد، تجدْ أنّ أحكام الله وأفعاله تزيدك إيمانًا بهذا القرآن الكريم، فلو أنّ أحدهم تتبّع سلوك إنسان مؤمن، وسلوك شاب آخر متفلِت، لوجد المؤمن موفّقاً وسعيداً ومتوازناً ومطمئناً وراضِياً بما قسمه الله له، فالمؤمن يُدافع عنه الله تعالى، فله منه التأييد والنصْر والتطمين ؛ و هذا كلّه يلْمسُهُ المؤمن لمْس اليد، فهو حينما يقرأ الآية الكريمة يصدِّقها، لأنّ الله سبحانه وتعالى بيّن لهذا الإنسان أنّ القرآن كلامه، فالله تعالى قد توعّد المرابي مثلاً بالمحق، فقال:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصّدَقَاتِ وَاللّهُ لَا يُحِبُّ كُلّ كَفّارٍ أَثِيمٍ(276))

(سورة البقرة)

فتَدمير مال المُرابي هو بيّنة من عند الله عز وجل لقارئ القرآن تثبت أنّ هذا القرآن كلام الله تعالى، وهناك نقطة مهمّة جداً، وهي أنّ كلّ أفعال الله تُطابقُ كلامه، ومطابقة أفعال الله لِكَلام الله تعالى هو أكبر دليل على أنّ هذا القرآن كلام الله عز وجل، فالله تعالى يقول:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ)

[سورة الحديد]

والبيّنات مستمرّة، فالأنبياء السابقون جاؤوا بالمعجزات الحِسيّة، والنبي عليه الصلاة والسلام جاء بهذا الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أمثلة من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

لقد قال الإمام عليّ كرّم الله وجهه:**إن في القرآن آياتٍ لمّا تُؤوّل بعد !**

" والسماء ذات الرجع ":

لقد اتّضَح الآن أنّ الكون كلّه عبارة عن مجرّات فيها كواكب ونجوم تدور حول بعضها، وربُّنا عز وجل قد قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ(11))

[سورة الطارق]

لقد أحْدث تفسير لِهذه الآية يقول: إنّ كلّ كوكب في الكون يدور في مسار مُغلق بحيث يرْجع إلى مكان انْطِلاقه ! وقد اتَّضَح أنّ كلّ شيءٍ في الكون مؤلّف من ذرات، وهذه الذرات تحوي كهارب تدور حول نويّات بدءاً من الذرّة وانتهاء بالمجرّة !! قال تعالى:

(كلٌ في فلك يسبحون)

[سورة يس]

النطفة هي التي تحدد نوع الجنين:

وقال:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(46))

[سورة النجم]

لقد اتَّضَح الآن أنّ نوع الجنين لا تُحدِّدُهُ البُوَيْضة بل يُحدِّده الحُوَين المنَوي ! ولو أنك تتبّعْت آيات القرآن الكريم لوجَدت أن كلّ هذه الآيات تتوافقُ توافقاً رائِعاً مع مُعطَيات العِلم، على الرغم من أنّ النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن فيه هذا التّفوّق العلمي.

الذبح الإسلامي:

لقد ذكرتُ مرّة أنّ النبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نذبَح الذّبيحة من أوداجها فقط دون قطْع رأسها!! وعصْرُ النبي عليه الصلاة والسلام لايسْمح بِتَفسير هذا الحديث !! فماذا يحدث لو أننا قطَعنا رأس الدابة كما تفعل بعض المسالخ في البلاد الأوروبيّة،حيث تُعلّق الدواب وتُقْطعُ رؤوسها كليًا ؟! لقد اكْتُشِفَ الآن أنّ القلب يتلقّى أمر ضَرباته النِّظاميّة من مراكز كهربائيّة في القلب ذاته، والله عز وجل أوْدَعَ في القلب ثلاثة مراكز كهربائيّة وذلك لِحِكْمةٍ بالغة، فلو تعطّل الأوّل لَعِمل الثاني ولو تعطّل الثاني لَعَمِل الثالث ! إلا أنّ هذه المراكز لا تعطي الأمر إلا بالضربات النِّظاميّة، وهناك ثمانون ضربة في الدقيقة، فإذا واجَهَ الإنسان عَدُواً أو بذل جُهداً لاحتاج إلى دم أكثر يجري في عضلاته، فهذه المِضّخة تعمل بشكل أكبر في هذه الحالة، فعندئذٍ يأتي أمر إلى القلب عن طريق الدِّماغ برَفْع ضرباته إلى المائة والثمانين ضربة ! وهذه الضربات السّريعة يمكن أن تُفْرغَ الدم كلّه من الذّبيحة، فالإنسان إذا قطَع رأس الذبيحة عطّل هذا الأمر الاستثنائي، فضربات القلب النِّظاميّة لا تكفي لإخراج دم الذّبيحة إلى خارج الذّبيحة، أما إذا أبقى رأسَهاً مُعلّقًا فإن هناك أمراً استثنائياً يأتي فيرفع النّبضات إلى مائة وثمانين ضربة، بحيث تكون مهمّة القلب بعد الذّبح إخراج الدّم كلّه إلى خارج الذّبيحة ! يقول الله عز وجل:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ

يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(3))

[سورة المائدة]

وحينما أطعموا الأبقار في بريطانيا لُحوم الجيَف والدِّماء المُجَفَّفة، أُصيب البقر هناك بمَرض جنون البقر، وهذا المرض اقتضى منهم أن يقتلوا أحد عشر مليون بقرة قيمتها ثلاثة وثلاثون مليار جُنَيه إسترليني ! وذلك لأنَّهم خالفوا منهَج الله عز وجل فقط، فهذه تعليمات الصانع فلا يجوز مخالفتها.

العلاقة بين الأمر الإلهي ونتائجه علاقة علمية:

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يُمَكِّنني من توضيح هذه الفِكرة التي تقول...

إن العلاقة بين الأمر الإلهي ونتائجه علاقة عِلْميَّة، وهي علاقة سبب بنَتيجة، فأحياناً يقول الأب لابنه: اِجْلس هنا ! فيجلس الابن لِسَبب أو لآخر في مكان آخر فيبدو متحدياً لوالده، فيؤدِّب الأب هذا الابن فيضرْبُهُ، فهل هناك من علاقة بين الضّرب الذي تلقّاهُ وبين مقْعدٍ صُنِعَ لِيُجْلَسَ عليه ! إن العلاقة وضعها الأب، ونقول: هناك علاقة وَضْعِيَّة، فالأب رأى أنَّ هذا السُّلوك يُنافي أدَب الابن مع أبيه فضَرَبَهُ، وفي الحقيقة لا توجد هناك علاقة بين الجلوس والضّرب ! فالعلاقة ليْسَت عِلْمِيَّة ولكن هي وَضْعِيَّة، أما إذا قال الأب لابنه: لا تلمِس المدفأة وهي مشْتعلة ! فلمسها هذا الابن فاحْترقتْ يدُهُ، فهنا نقول: هناك علاقة عِلْميَّة بين نَهي الأب والنتيجة التي آل إليها الابن، فالعلاقة بين اللّمس والاحتراق علاقة عِلميَّة.

أيها الإخوة، حينما نؤمن أنَّ العلاقة بين أمْر الله ونتائِجه علاقة عِلْمِيَّة نكون قد فقهْنا وفهمنا أن الدِّين ضمان لِسَلامتنا، وليس حدًّا لِحُريَّتنا، فحينما يحمل عمود كهربائي تياراً كهربائيّاً عالي التُّوتر يُكتب عليه: ممنوع الاقتراب، فثمة خطر ! فإذا قال المواطن: سأصعد هذا العمود بشرط أن لا يراني أحد، كي لا تُكتب عليّ مخالفة !! نقول له: أنت لا تفقه شيئاً، فالتيار نفسُه هو الذي يصعقك ! فهذه علاقة عِلْمِيَّة، وأنت حينما تقْتَنِع أنّ هناك علاقة بين المعصِيَة ونتائجها لا ترى الدِّين تقييدًا لِحُريَّتِك و انطِلاقك، بل تراه ضمانًا لِسَلامتك، فالإنسان حينما يفقهُ هذا الدِّين ينطلق إلى تطبيقه بدافِعٍ مِن حُبِّه لِذاته، فَمَن مِنَّا يتمنَّى الهلاك ؟ و الشّقاء والمرض والذلّ ؟ إن الإنسان مفطور على حُبِّ ذاته، ووُجودِهِ، وسلامة وُجودِهِ، واستمرار وُجوده وكمال وُجوده، وهذا لا يتحقّق إلا بطاعة الله عز وجل، لأنَّه هو الخبير، فهناك أمراض كثيرة يُعاني منها المُجتمع الدّولي ؛ كمرض الإيدْز مثلاً، ففي كلّ عشرة ثوان يموت إنسان بالإيدز، فما هو هذا المرض ؟ إنه عِقابٌ إلهي على مُخالفة منهَجِهِ، فالله عز وجل خلَقَ الذَّكَر والأنثى، وجَعَل الأنثى مُهيَّأة للذّكَر، وجَعَل الذّكر مُتكامِلاً مع الأنثى، فالإنسان حينما اتَّجَهَ إلى جِنْسِ مثْلِهِ، مُخالفاً بذلك الفِطرة التي فُطِر الإنسان بها كان مرض الإيدز عقوبة له ! فالله تعالى يقول:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ)

[سورة الحديد]

إن العقل يبحث عن الخالق، وهذه هِيَ مُهمّة العَقل، يقول الله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ(4))

(سورة السجدة)

ويقول العقل لك لماذا خُلِقنا، فيقول الله تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي(56))

[سورة الذاريات]

ويقول لك: ماذا بعد الموت ؟ فيقول تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(83))

[سورة القصص]

فالكتاب يُوضِّح تصوُّرات دقيقة عن الكون الإنسان و الحياة، ويبين لك مًّا ينفعك وما يضرّك، ومًّا يُسْعِدُك وما يُشْقيك، ومًّا يضْمنُ سلامتك، و هذا الكتاب هو القرآن الكريم، وقد أرسل الله الرُسل، ومعهم أدِلّة على رسالتهم وهي المعجزات والبيّنات، قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ)

[سورة الحديد]

لماذا أنزل الله الميزان ؟؟

إن الناس حين يتحرّكون ويتعايشُون، تتداخَلُ مصالِحُهم، فحتى لا يخْتَصِموا ويتنازعوا، و يعتدي بعضهم على بعض أنزل الله مع الكتاب الميزان، والميزان هو الشّرع، والشّرع يعني أن كلّ يقف إنسانٍ عند حدِّه، فقد قال بعض العلماء: **"الشريعة عَدلٌ كلُّها، ورحمة كلُّها ومصلحة كلّها "**، فمصالحك كلها تتحقق بتَطبيق الشريعة، فهي ميزان وقوانين، وذلك كأحكام الزّواج والطلاق، وأحكام البيع والشِّراء والإيجار والوديعة و الأمانة والعارية، وأحكام القرض والمضاربة والمزارعة، فكلّ نشاطات الإنسان مقننة في الشّرْع، فلو طُبِّق الشّرْع لأغلقَت المحاكم أبوابها ! فما من قضيّة تُرْفع إلى القضاء إلا بسبب مخالفة منهج الله عز وجل، فالإنسان الذي يأخذ ما ليس له يحتاج إلى أن يُشتكى عليه، أما الوقّاف عند حُدود الله تعالى فلا يحتاج إلى أن يُشتكى عليه،لأنّه يعرف ما له وما عليه، والله تعالى قال:

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)

[سورة الحديد]

فإذا خطبَ الشاب فتاةً و جرى عَقدٌ بينهما ثم فُسخ هذا العقد، فإن كان الرجل هو الذي أراد أن يفْسَخَ هذا العقد فعليه نصف المهر إن لم يدخل، كما أن عليه كامل المهر إن دخَل، أما إن كانت هي من أراد

فسخ هذا الزواج فليس لها شيء، كما له أن يسْترِدّ كلّ شيء قدّمه لها، وهناك تفاصيل يُسمّونها كتُب الفروع وهي دقيقة جداً، فلمّا وصل نابليون إلى مصْر أخذ الفقه الحنفي وترْجمه إلى الفرنْسيّة، فأصبح القانون الفرنسي مأخوذاً في معظمِهِ من الفقه الحنفي !! فالشّرع ميزان بين الزّوجين، وميزان بين الجارين، وميزان بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، والطبيب والمريض، والبائع والشاري، فالإنسان إن ترك هذا الميزان هلَكَ، وإن طبّق شريعة الله عز وجل فهو في سَلام وأمان، قال تعالى:

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

[سورة المائدة]

فهؤلاء الرُسل جميعًا أُرسلوا بالبيّنات وبما يؤكِّد أنَّهم أنبياء ورسل، وأنزل الله معهم الكتاب الذي يُوضِّح حقيقة الوُجود، وغاية الإنسان، وحقيقة الدنيا والآخرة، وسبب السعادة، و هذا كلهّ لِيَقوم الناس بالقِسط.

" وأنزلنا الحديد ":

قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ)

[سورة الحديد]

ما علاقة الحديد بالميزان ؟

إن الإنسان إذا رأى نبيّ الله، أو استْمعُ إلى حديثه الذي جاء فيه بالبيّنات، أو قرأ كتاب الله عز وجل – وكتاب الله فيه سِرُّ الوجود وغاية الوُجود وطريق السعادة والسلامة فإنه سيطبق الميزان و الشريعة الإلهية في حركته اليومية مع بني جِنسِهِ، فإن لم يخْضَع لهذا الأمر الإلهي ولم يرْتَدِع به، كان لا بد من وجود من يرْدعُهُ (إنّ الله ينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن!).

أما الحديد: فقد ذكَرْتُ لكم في الدرس الماضي أنّ مؤتمراً لِدِراسة مخزون الحديد في الأرض عُقِدَ في عام ألف وتسعمائة وعشرة، فَشُكِّلت لِجانٌ لذلك، فدرسَت كلّ أماكن التّعدين في الأرض خِلال أشهر، وعادت بِتَقرير إلى هذا المؤتمر يقول: إن مخزون الحديد في الأرض يكفي سِتِّين عاماً ! ثمّ اكْتُشِفَ أنّ كميّة الحديد في الأرض تُساوي خمساً بالمائة من وزْن القِشرة الأرضِيّة ؛ أي: خمساً وسبعين ألف مليون مليون طنّ !! قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(21))

[سورة الحجر]

فيجب علينا ألا نُصدِّق كل شيء يُقال لنا ! فهناك من يقول: سوف يحدث الجفاف، فإذا بالمطر ينهمر فيُفجّر الينابيع، و أنا أذكر أنّ الله أكرمنا في بلدنا هذا بِثَلاثة ملايين طن قمحاً، واستهلاكنا منه مليون طن فقط، فَنَظِريّة الانفجار السُكاني وقِلّة الموارد، وقلّة المياه ؛ هي نظريّات ما أنزل الله بها من

سلطان، ولكنّ الله تعالى يُقنّن، وتقنين الله تقنين تأديب، ولكنّ الإنسان إذا قنَّن فإنّه يُقَنِّن تقنين عَجْز، وشتان بين التَّقنينَين.

الحديد مادة أساسية في الحياة:

الحديد في جسم الإنسان..

يحوي جسم الإنسان ثلاثة غرامات من الحديد، وهي تساوي خمساً من مائة ألف مِن وزنه ! ولولا هذه الغرامات الثلاثة لَهَلك الإنسان، وهذا الحديد طبعاً يدخل في الهيموغلوبين ! والهيموغلوبين موجود في الكريّة الحمراء، وهي المادّة التي تحمل الأكسجين من الرّئتين إلى الخلايا، ولولاها لمات الإنسان، و تُنْتِجُ معامل الكريات الدّم الحمراء اثنين ونصف مليون كريّة في الثانية الواحدة، كما يموت في الثانية الواحدة العدد نفسه، و هذه الكريات تموت لِحِكمة بالغةٍ أرادها الله تعالى، فهي لا تُطرَحُ خارج الجسم بل يُذْهب بها إلى مقبرة، وهذه المقبرة هي الطُحال ! فهي تُحلّل، ثم يؤخَذُ الحديد منها، ويُرْسَلُ إلى نقي العِظام وهو معمِل الكريات الحمراء، بينما يُنقل الهيموغلوبين إلى الكبد لِيُكَوّن الصفراء، فالصّفراء من كريات الدّم الميّتة، والإنسان من دون حديد يموت، و أعراض نقص الحديد عند الإنسان هي التَّعَب والإرهاق والإنهاك والأوجاع في الرأس.

الحديد في يخضور النباتات ودماء الحيوانات:

أيها الإخوة.. النباتات كلُها تحوي الحديد، فإذا اصْفرّ النبات دلّ ذلك على نقص الحديد فيه، والحديد يدخل في المادّة الخضراء (اليَخضور)، وهي المادة الأساسيّة في الورقة، فلا يوجد مُزارِع إلا وهو في أمسّ الحاجة لإعطاء نباته مركّبات الحديد، وإن لم يفعل اصْفرّ النبات ومات، كما أن الحديد يدخل في تركيب دماء الحيوان أيضاً، فهناك من الديدان ما له دَمُ أخْضر، ورغم ذلك يوجد فيه الحديد، و هناك من الأسماك ما هو شفّاف كالماء، ومع ذلك يوجد فيه حديد، فالحديد يدخل في تركيب الدِّماء كلِها، وفي تركيب الأوراق كلِها، فهو مادّة أساسيّة في الحياة.

وإن أكثر الخضراوات يحوي الحديد، والتُفاح غنيّ بالحديد كذلك، فلو قطَعتَ تُفاحّة ثم تركتها في الهواء لاسودّت ؛ وذلك بسبب تأكْسَدَ حديدها مع الهواء، والحديد في الآية مقْصود منه السِّلاح ! و الله عز وجل ينَزَعُ بالسُّلطان ما لا ينزعُهُ بالقرآن، قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاس)

[سورة الحديد]

منافع الحديد:

أما المنافع فهي كثيرة،فلا يكاد يوجد حِرفة ولا مصلحة في الأرض إلا وأدواتها مصنوعة من الحديد ؛ بدءاً بأدوات المزارع الذي يحفر الأرض، وانتهاء بأدوات جرّاح القلب، قال الله تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

[سورة الحديد]

استخدام الحديد:

يستخدم الحديد بِنِسبة: ستّ وتسعين بالمائة من استخدام المعادن ! و هناك نباتات بحْريّة تسْتهلِكُ من الحديد ما يوازي تقريبًا نصف مليار طنّ ! وهو يعادل ما تنتجه مناجم الحديد في العالم، لذلك تُعد العوالق البحريّة أسمِدةً رائعة للنباتات !

النيازك والحديد:

إن تسعين بالمائة من وزن النيازك التي تنزل على الأرض هو من الحديد، ولعلّ هذا النزول من السماء إلى الأرض أشير إليه في هذه الآية، قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

[سورة الحديد]

يقال: إن هناك نيزكاً نزل منه سِتّون طنًّا من الحديد، وقد ترك هذا النيزك حفرة قطرها ألف ومائتان متر، وعُمقها مائتان متر !! فلعلّ الإنزال المُشار إليه في هذه الآية هو بهذا المعنى ! لكن.. دون أن نقطع بهذا المعنى !! فالحديد كما قلنا هو السِّلاح والإنسان حينما يأبى أن يخضع لِمنهج الله، فإنّ الله ينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن، والحديد فيه منافع للناس كذلك.

نصرة الله ورسوله:

قال تعالى:

(وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

[سورة الحديد]

حينما دعا النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه إلى معركة بدر ومعركة أحُد انطلق أكثرهم مع رسول الله، و كان هناك من تقاعس وتقاعد، فامتحنهم الله سبحانه وتعالى لِيَعلم الذين نصروا رسوله والذين خذلوه، و الحقيقة أنّ الله تعالى لا يحتاج إلى من ينصره، ولكنّك إن نصَرْت دينه أيّدك الله ونصرَك وحَفظَك، وأنت حينما تُطبّق منهج الله عز وجل تكون ناصراً لله، وحينما تأتَمِر بما أمرَ الله تعالى وتنتهي عمّا نهى عنه تنصره أيضاً، فنُصْرة الله تأتي من تطبيق الدِّين، فلو طبّق التُّجار منهج الله في البيع والشِّراء لكُنّا في حالٍ غير هذا الحال، ولو أنّهم قَنِعوا وأخلصوا، ونصحوا، وابتَعَدوا عن الغشّ، لكانت أفعالهم هذه نصرٌ لِدِين الله، فقد ورد أنّ أطْيَب الكَسْب كسب التُّجار الذين إذا حدّثوا لم يَكذبوا، وإذا وعَدوا لم يُخلفوا، وإذا ائْتُمنوا لم يخونوا، وإذا اشْتروَا لم يذُمّوا، وإذا باعوا لم يُطروا، وإذا كان لهم لم يُعسِّروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا ! فالإنسان بِتَطبيق منهج الله تعالى ينصر الله تعالى، والله ليس بحاجة إلى أن تنصره، ولكن الحق يتَّسِعُ بنُصرة الدِّين، وإذا اتسَع الحق عاشت الإنسان حياة سعيدة، فإن

أنت نصرت الحق انكمَشَ الباطل، وكنت أوّل الرابحين فتسعد بذلك، ونحن الآن نُلاحظ في دِمشق ملاحظة غريبة، وهي أن هناك محلات تِجاريّة كثيرة يذهب أصحابها إلى الصلاة دون أن تُغلق أبوابها أثناء الصلاة، وهذا من آثار الدِّين، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81))

[سورة الأنعام]

فلو ربّى الإنسان أولاده تربيَةً صالحة لقطف ثِمار هذه التربية، ولو أنك أحسنت لِجارِكَ لقَطَفْتَ ثِمار هذا الإحسان، ولو اخترْتَ زوْجةً صالحة لقطَفْتَ ثِمار اختيارك، ولو ابتعدت عن الربا وأدّيت الزكاة لحصّنت مالك ! قال تعالى:

(إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ(7))

[سورة محمد]

و نصر الله يكون بتطبيق منهجه وشريعته، وأنت الرابح من تطبيق لِدِين الله.

كتب لي أحدهم _لا أدري من هو_ رسالة يقول فيها: إنِّي أدّيْتُ لِوَرَثةٍ مبلغاً فلكياً، وهؤلاء الورثة ليس عندهم أيّ دليل على إرثهم، ولا حتى ورقة إثبات ! وهذا من آثار الدِّين أيضاً، فحين يُطبَّق الدين يفوز المؤمنون ويسعدون، قال تعالى:

(وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

[سورة الحديد]

وبمُجرّد تأدية الصلاة تكون قد نصرت الدِّين، وإذا كنت صادقاً أمام أولادك رسّختَ فيهم خصلة الصِّدق، والأب مسؤول وكذا الأم، قال تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

[سورة الحديد]

لقد أرسل ربنا عز وجل نوحاً وإبراهيم، وجعل الله في ذريّتهما النبوّة والكتاب فمنهم المهتدي ومنهم الفاسق، قال تعالى:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(116))

[سورة الأنعام]

فالإنسان ينبغي أن يكون مع الحق ولو كان قليلاً، وينبغي أن يبتعد عن الفساد ولو كان كثيراً، فالحق والباطل لا علاقة لهما بالقلّة والكثرة !

قال تعالى:

(ثُمّ قفّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقفّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قلُوبِ الّذِينَ اتّبَعُوهُ رَأفة وَرَحْمَة)

[سورة الحديد]

علامة المُتبّع لهذا النبي العظيم أن يكون قلبه منطوياً على الرأفة والرحمة.

" ورهبانية ابتدعوها ":

ثمّ يقول تعالى:

(وَرَهْبَانِيّة ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)

[سورة الحديد]

فالله عز وجل جعل هذا الدّين دين الفِطرة، وركّب في كيان الإنسان الحاجة إلى المرأة، وجعل الزّواج من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عليه الصلاة والسلام:

((أنا أتقاكم إلى الله ولكني أتزوج النساء وأصوم وأفطر))

فهم الذين حمّلوا أنفسهم ما لا يُطيقون، وقد أرادوا من ذلك طاعة الله، فقد ابتدعوا الرهبانية، و ما كتبها الله عليهم، ولأنها فوق طاقتهم، قال الله فيهم:

(فَآتَيْنَا الّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقونَ)

[سورة الحديد]

أيها الإخوة، في درس قادم نتابع تفسير هذه السورة، و قد بقيت الآية الأخيرة وهي:

(يَا أيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقوا اللّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ)

[سورة الحديد]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحديد 057 - الدرس (8-8): تفسير الآيتان 28-29
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-05-10

بسم الله الرحمن الرحيم

جزاء المؤمنين في الدنيا والآخرة

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثامن والأخير من سورة الحديد، ومع الآية الثامنة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

تقسيم الناس عند الله تعالى:

يُخاطب الله سبحانه وتعالى عامّة الناس بأصول الدّين، بينما يُخاطب المؤمنين بفُروع الدِّين، فالله تعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(21))

[سورة البقرة]

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(183))

[سورة البقرة]

و الإيمان هو أعلى مرتبة يمكن أن ينالها الإنسان، فالناس رجلان ؛ مؤمن وغير مؤمن، وقد يكون الإنسان كافراً أو ملحداً أو مشركاً أو منافقاً، لكن الأصحّ أن نقول: هناك مؤمن وغير مؤمن، وهناك تقسيمات كثيرة يمكن أن يقسم الناس بها، فهناك الانتِماء والانتِساب والأعراف والأجناس والمِلَلِ والنِحَل والمذاهب والطوائف و المكانة والإنتاج والاسْتِهلاك والغِنى والفقر والأعِراق، فهناك العرق الأبيَض والعِرق الملوّن، وهناك أهل الجنوب وأهل الشرق، وهذه التقسيمات كلُّها ما أنزل الله بها من سلطان،و التقسيمان الحقيقيان هما: (المؤمن وغير المؤمن !) ولن تجد تقسيماً ثالثاً، فالمؤمن عرف الله، وبحث عن منهجه، وطبّقه وتقرّب إليه واتّصل به، وأحْسَنَ إلى خلقِهِ، فسَعِدَ في الدنيا والآخرة، وغير المؤمن غفَلَ عن الله، وتفلّت من منهجه، وأساء إلى خلقِهِ، وانقطع عن الله فشَقِيَ في الدنيا والآخرة، ويؤكِّد هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((فَالنَّاسُ رَجُلَانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ وَالنَّاسُ))

[رواه الترمذي]

فإذا قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا)

[سورة الحديد]

فهو يُخاطب ِمن خَلْقه مَن عرفهُ فآمن بوُجوده ووحْدانِيَّته وكماله و سِرّ وُجوده، وغاية وُجوده، فهذا الذي عرف الله هو المَعْنِيُّ بالخِطاب، ولذلك أود أن أُزجي نصيحةً لإخوتنا المؤمنين فأقول لهم: قبل أن تُعرّفوا الناس بأمر الله ؛ عرّفوهُم بالآمر، وقبل أن تُعرّفوهم بِتَفاصيل الدِّين،عرّفوهم بأُصول الدِّين، لأنّ تفاصيل الدِّين لا معنى لها إن لم نؤمن بأصول الدِّين، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا)

[سورة الحديد]

التَّقوى: مِن وقى، والوقاية لا تكون إلا من شيء مُخيف، فيا من آمنتم.. إن إيمانكم لا معنى له إن لم تتَّقوا الله، و هو لا يُجدي و لا ينفع إن لم تُطيعوا الله وتستقيموا على أمره، وإيمانكم لا يقدِّم ولا يؤخِّر إن لم تعتمدوا منهج الله في حياتكم، فهناك أربعة ملايين من الناس يطوفون حول الكعبة كل عام، و هذا شيء جميل، ولكنّ النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يقول:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُ مِائَةٍ وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَلَا يُغْلَبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[رواه الترمذي]

علاقة جدلية:

يقول الله تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم)

[سورة النور]

هناك علاقة جدليّة بين الإيمان والاستخلاف ؛ فإن كنت مؤمناً كما أراد الله تعالى اسْتَخْلَفَكَ الله في الأرض، وهذا ليس نادراً، بل هي سنَّة الله و قانونه في خلقه، فإن لم نُستخلف ولم تكن كلمتنا هي العليا، فمعنى ذلك أنّ في إيماننا خلل وخطأ، كما يعني أننا لسنا في المستوى الذي ينبغي أن نكون عليه، فالقضيّة دقيقة أيها الإخوة، وقد يسأل سائل فيقول: ألم يقل الله عز وجل في كتابه الكريم:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

كما أنه قال:

(إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(160))

[سورة آل عمران]

وقال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم)

[سورة النور]

الإيمان الحقيقي:

أريد هنا أن أقول لكم كلمة مختصرة: إن الإيمان الذي لا يَحْمِلُكَ على طاعة الله والخوف منه، ولا يجعلك تقف على الحلال والحرام، لا جَدوى منه إطلاقاً، فإقرارك بأنّ الله خلق الكون قد أقرّهُ إبليس من قبل، كما أن إقرارك بأنّ الله سبحانه وتعالى هو الخالق قد أقرّ به كلّ الكفار، فهم عبدوا الأصنام وقالوا كما في قوله تعالى:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ(3))

[سورة الزمر]

فالعِبرة أن تضَعَ يَدَك على جَوْهر الدّين، وأن تؤمن الإيمان الذي ينبغي أن يكون، فإن آمنْتَ الإيمان الصحيح قطفت ثِمارَهُ، و لمستَ نتائجهُ.

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا)

[سورة الحديد]

أي: أطيعوه... و إني أريد أن أقفُ هُنَيْهةً عند هذه الآية..

لقد قال: **" اتّقوا الله !"**، فكيف تطيع الله إن لم تعْرِفْهُ ؟ و كيف تُطيعه إن لم تعرف أمرَهُ ؟ فمن أجل أن تتّقي معْصِيَتَه وغضبَهُ و سَخَطه و نارَهُ ينبغي عليك أن تُطيعه، و إنك لن تُطيعهُ قبل أن تعرفَهُ، فسَلْ نفْسَكَ هذا السُّؤال: كم من الوقتٍ تخصص من الصّباح حتّى المساء لِمَعرفة الله ؟! إنَّك إن حضرْتَ مجلسَ العِلم وأصْغَيْت فيه إلى الآيات فراجعتها و دقّقت فيها وتأمّلْتها انْعَكَسَ هذا على سُلوكك طاعة لله تعالى، فهذه المعرفة تجعلك تضبَط جوارحك وبيتك وعلاقاتك، فلا شكّ أنّ هذه المعرفة أثمرت طاعة، والإنسان يَقُرّ عَيْنًا بهذه الطاعة، أما إن لم تكن هناك طاعة،وكان هناك كسبٌ حرام وعلاقات اجْتِماعيّة غير منضبطة أو كان هناك انْحِرافات وتعلّق بالشّهوات، فلن يؤتي الإيمان ثماره، و الله تعالى قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا)

[سورة الحديد]

فلا ينبغي أن يكون للمؤمن همّ أكبر من أن يعرف الله تعالى، ويعرف منهجه، فهذا الأمر لا يعلو عليه أمر آخر مهما بدا لك مهمّاً، **" يا ابن عمر دينَكَ دينَكَ إنّه لحمكَ ودَمُك، وخُذْ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا ! "** وإنّك ما لم تأخذ موقفًا عمليًا لم تكن مؤمنًا، قال أحدهم:

وعالم بِعِلمه لم يعْملنْ مُعبّد من قبل عُبّاد الوثن

فإذا لم تُحرّر دخْلك من الحرام و لم تُقِم الإسلام في بيتك و لم تجعل علاقاتك إسلاميّة ؛ فتلتزم بالصدق والأمانة وإنجاز الوعد وصيانة العهد والحكمة والكرم، إن لم تفعل كل هذا لم تكن مؤمنًا، لأنّ الخُلق ذهَب بِكُلّ الخير، وأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقاً .

مكانة السنة المطهرة في التشريع الإسلامي:

إن في القرآن الكريم أمْرٌ ونهْيٌ، و قد جاءت السنّة مطهّرة بشيء من التفصيل، والله تعالى يقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(7))

[سورة الحشر]

فيجب علينا أن نبحث عن الأمر التّفصيليّ في سنّة النبي عليه الصلاة والسلام، فالقرآن الكريم فيه أوامر إجْماليّة، كـ (أقيموا الصلاة)، ولكن القرآن لم يفصّل كيفية الصلاة وأوقاتِها وعددَ ركعاتها وفرائضَها وواجباتِها وسننَها ومكروهاتِها ونواقضَها**!!** وهذا كلّه موجود في سنّة النبي عليه الصلاة والسلام، كما نجد في السنة المطهرة كيفية البيع والشراء والتجارة، فقد جاء فيها أن أطْيَب الكسب كسْبُ التُّجار، الذين إذا حدّثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يُخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشْتروا لم يذُمُّوا، وإذا باعوا لم يُطروا، وإذا كان لهم لم يُعسّروا، وإذا كان لهم لم يُمطِلوا.. فالقرآن الكريم فيه مبادئ كُبرى، فقد أمرك الله تعالى في القرآن أن تؤتي الزّكاة، لكنه لم يبين نِصاب الزّكاة، و زكاة الذّهب والفضّة، وزكاة عروض التِّجارة، وزكاة الإبل، وزكاة البقر وزكاة الحليّ، وزكاة العسل، وزكاة الإنتاج الزراعي، فمِن أين سنأخذ تفاصيل هذه الأحكام **؟!** من السنة النبوية الشريفة، فمن يقول لك: أنا أكتفي بِكِتاب الله فقط يكون مُخالفاً لكتاب الله تعالى نفسه، لأنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(7))

[سورة الحشر]

فأنت مُكلّف أن تأخذ ما آتاك الرسول صلى الله عليه وسلم.

و القرآن أيها الإخوة، قَطْعِيُّ الثّبوت، وقطعيّ الدلالة وظَنِيُّها، أما الحديث الشريف فهو ظنيّ الثبوت، وظنيّ الدلالة وقَطْعِيُّها، فالقرآن الكريم كلّه ثابت عن الله عز وجل، أما السنّة فهي تحتاج إلى تدقيق في صِحّتها، فهناك الحديث المتواتر، والحديث الصحيح والحسن والضعيف، وهناك الحديث الموضوع، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ: تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلَا تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي وَمَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

طلب العلم فريضة:

إن الله تعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا)

[سورة الحديد]

لا بدّ لي من معرفة منهج اله حتى أتمكن من تقوى الله بمعرفة أوامره ونواهيه، ومن هنا كان طلب العلم حتماً و فريضة واجبة، فإنك إن أطَعْت الله فُزْتَ فوزاً عظيماً، وإن لم تُطِعْهُ خَسِرْت خسارةً عظيمة، و مِن لوازم طاعة أمر الله عز وجل أن تتعرّف إلى الأمر، فمَجلس العلم فرض عيْنٍ على كلّ مسلم، ومن خلاله يمكنك التعرف إلى أحكام الإسلام، كأحكام الزّواج، والطلاق، وأحكام البيع والشِّراء والمساقاة والمزارعة والمضاربة، والأمانة والهبة والقرض والدّين والحوالة والوصيّة، و هناك آلافٌ وآلاف من الموضوعات في العلاقات المالية والاجتماعية ؛ و هذه كلها لها أحكام تفصيليّة، فإن لم تعرف هذه الأحكام لم تستطع أن تتّقي الله تعالى، وإن مِن لوازم هذا الأمر أن تعرف منهج الله، وأن تعرف الحلال والحرام، فما من شيءٍ في الحياة الدنيا إلا وتُسْحَبُ عليه أحكام خمسة ؛ فرض وواجب، وسنة مؤكّدة، و سنة غير مؤكدّة، ومباح، ومكروه، وحرام، فأيّ نشاط إنساني يتراوح بين الفرضيِّة والحُرْمة، وبينهما الواجب والسنة والمكروه والمباح والحرام، فينبغي عليك أن تسأل: ما حُكم هذا الشيء؟ وما حُكم هذا البيع ؟ وما حُكم هذا الطلاق ؟ وما حكم هذا الزّواج ؟ وما حُكم هذه الزّيارة ؟ وما حكم هذه النُّزْهة ؟ وما حكم تلبيَة هذه الدّعوة ؟ وما حكم التِّجارة بهذه البضاعة ؟ فَمِن علامة إيمانك أن تبْحث عن أمر الله تعالى، لأنّ هناك قاعدة تقول: (ما لا يتمّ الواجب إلا به فهو واجب)، فقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا)

[سورة الحديد]

وإن من لوازم هذا الأمر أن تعرف أمر الله، فأنت مأمور أن تُطيع الله تعالى، فالذي يريد أن يتقي الله وهو لا يعرف الحلال والحرام لديه مشكلة كبيرة، فعليك قبل أن تأكل أن تعرف ماذا تأكل، كما يحب عليك قبل أن تتكلّم أن تعرف ماذا تتكلّم، فلا تتكلم كلاماً فيه غيبة و نميمة و اسْتِعلاء و كِبر وعُجب، ومن هنا كان طلب العلم حتماً لازماً على كلّ مسلم، فِحُضور مجالس العلم ينير القلب، ويُجنِّب الإنسان كل ما لا يُسْعِده، فإذا كان الإنسان لا يعرف أصول القيادة، ثم ركب في سيارة واقفاً أو مستريحاً على وسادة فليست لديه مشكلة، أما إن كان وراء المِقْوَد، وكانت المركبة مُتحرّكة بسُرعة فائقة، وهو لا يعرف كيف يوقفها، ولا كيف ينحرفُ بها يَمنةً ويسْرةً، فإنه يكون بفعله هذا منْتحِراً، فمعرفة قِيادة المركبة وإيقافها وتحريكها والانعطاف بها يَمنةً ويسْرةً من الأشياء المفروضة على قائد المركبة، وإلا كان الهلاك مصيره، والإنسان كائنٌ متحرّك أودِعَت فيه ألشهوات من حبّ المال والنِّساء، والعلو في

الأرض، فإذا كان عندك زوجة وأولاد، فربما كان لزوجتك طلبات مخالفة للشّرع أو موافقة له، فلا بدّ لك من معرفة الله لتستقيم على منهجه في كل تفاصيل حياتك، فتخالفها في كل ما يخالف الشرع، فهناك إنسان حجّ بيت الله الحرام، فرأى ازدحاماً غير معقول، فقد كان هناك أربعة ملايين، فنزل في أحد الأيام لِيطوف فلم يَجِد أحداً !! فقال: يا الله، أين الناس ؟ لمَ لم يأتوا لِيَطوفوا معي في هذا الوقت المُريح، فإذا باليوم هو يوم عرفات، وهو لا يعرف ذلك !! فهذا مثَل لِواقِع الناس اليوم، فمن الناس من يكون بيته متفلتاً، وزوجته وبناته سافرات، وأهل بيته يفعلون المعاصي ليل نهار، ثمّ يقول لك: أنا مسلم ! فأين منهج الله تعالى ؟ قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا)

[سورة الحديد]

هذا أمر إلهي معناه: اتَّق يا عبدي غضبي وسَخطي ومعصيَتي وناري، لأنّ هذه الأشياء خطيرة، وعليك أن تتَّقِيَها، فإذا لم تعرف هذا الأمر والنهي فكيف تتَّقيه ؟! فَمن لوازم الأمر بِتَقوى الله عز وجل أن تتعرّف إلى أمر الله ونهْيه، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ)

[سورة الحديد]

إن الإنسان يستطيع بعَقله أن يصل إلى الله تعالى، وذلك عن طريق التّفكّر بالكون، لكنه لا يستطيع أن يُحيط بالله، بل يصل إليه فقط، فأن تصل إليه شيء، وأن تُحيط به شيء آخر، قال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(255))

[سورة البقرة]

فيُمكن لعقلك أن يوصِلك إلى الله تعالى، عن طريق الكون الذي هو مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، فإذا عرفت أنّ لهذا الكون خالقاً عظيماً فعليك أن تعلم أيضاً أن من لوازم الخالق أن لا يضَعَ عباده في غفْلة عنه، فلا بدّ من إنزال الكتب، ولا بدّ من إرسال الرسل، وإن أيّ رسول يرسه الله لِبني البشر يُعطى بيّنةً تؤكِّد أنّه رسول، وهذا شيء ثابت، وهذه البينة إما أن تكون معجزة حِسيّة ؛ كأن يصبح البحر طريقا يبساً، أو أن تصبح العصا ثعباناً مبيناً، أو أن يحيي البشر الموتى كما فعل سيّدنا عيسى، أو أن تخرج الناقة كما في معجزة سيدنا صالح، فهذه الأشياء لا يستطيعها البشر، بل هي من فعل خالق البشر، والله سبحانه وتعالى يُجري على هذا الإنسان المعجزات التي تدل أنّه رسول الله، فمن خلال المعجزة تؤمن أنّه رسول، و نبيُّنا عليه الصلاة والسلام معجزته القرآن الكريم، و إعجاز هذا الكتاب هو أحد أكبر الدلائل التي تثبت أنّه من عند الله تعالى، ومن مظاهر هذا الإعجاز، إعجازه البياني، وإعجازُهُ التشريعي، وإعجازه التربوي، وإعجازهُ الإخباري.

" وما ينطق عن الهوى ":

والآن دخلنا في النقطة الثانية في الدرس وهي أنّ حديث رسول الله تَشريع، فإذا نطق، أو فعَل، أو أقرّ كان كل نطقه وفعله وإقراره تشريعاً، والنبي عليه الصلاة والسلام مشرّع، فالنبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، وأقواله وأفعاله وإقراره وصِفاته لها حكم الأمر والنّهي، ومن هنا جاء قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ)

[سورة الحديد]

إن آمنتَ أنّ هذا رسول الله، فيجب عليك أن نؤمن أن الله عصَمَهُ من الخطأ في أقواله وأفعاله وإقراراته وصِفاته، وأنه لا ينطق إلا بالحقّ، ومن هنا قال سيّدنا سَعد بن أبي وقّاص: **(ثلاثة أنا فيهنّ رجل، وفيما سِوى ذلك فأنا واحِدٌ من الناس، ما سمِعتُ حديثاً من رسول الله عليه الصلاة والسلام إلا أيْقنتُ أنّه وحي من الله تعالى وحق، وما صلّيْتُ صلاة فَشُغِلَت نفسي بغيرها حتّى أنْصرف منها، ولا سِرْتُ في جنازةٍ فحدّثتُ نفسي بغير ما تقول حتّى أنْصرف منها).**

فهذا رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول:

((مُصّوا الماء مصاً ولا تعبُّوه عبّاً..))

وقد اتّضح بعد ألف وخمسمائة عام أنّ هناك عصباً اسمه العصب الحائر أو العصب المبهم، وهو بين القلب والرّئتين والمعدة، التأثير الشديد جدًّا قد ينتقل هذا إلى القلب نهْيًا عن نبْضِهِ، فمن شَرِب الماء عَبّاً -مرّةً واحدة من دون تمهّل- عَرّض نفسَهُ لأخطار، وقد اكتشفوا ذلك في أيامنا هذه، فكلام النبي حقّ من الله تعالى، فهو الذي لا ينطق عن الهوى، و هناك آلاف الأحاديث التي فيها من الحقائق العِلْمِيّة ما لا يمكن لعصر النبي، ولا لمن عاصر النبي، ولا للحضارات التي عاصَرت النبي، ولا الحضارات التي جاءت بعد ألف وأربعمائة عام أن ِتفسرها، و َمُعظم أحاديث رسول الله تدلّ على أنّه نبي، فإن آمنتَ بالله خالقاً ومُربّياً ومُسيّراً وموجداً وواحداً وكاملاً، وآمنتَ أنّه لا بد من إرسال الرُّسل وإنزال الكتب وأن ذلك من كمال الله، و آمنت أنّ هذا الكتاب كلامه، وعَلِمتَ أنّ الذي جاء بهذا الكتاب هو رسول الله، عندئذ تؤمن أن كلام النبي صلى الله عليه وسلم تشريع، يقول الله تعالى:

(وَمَا آَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(7))

[سورة الحشر]

وقال تعالى:

(وما ينطق عن الهوى)

[سورة النجم]

فقد عصمه الله في كلّ أقواله وأفعاله، و السؤال الآن: أين أمرُ الله ونهْيُه ؟ إن أمْرُ الله ونَهيه هو سنّة النبي عليه الصلاة والسلام، والدليل الأقوى قوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(31))

[سورة آل عمران]

لذلك كانت طاعة النبي صلى الله عليه وسلّم عَيْنَ طاعة الله تعالى، فهي مُتطابقة مع طاعة الله تطابقًا تامّاً ومن هنا قال الله عز وجل:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ(62))

[سورة التوبة]

بضَمير المفرد، لأنّ إرضاء رسول الله عين إرضاء الله تعالى.

مظاهر رحمة الله:

ثمّ يقول الله تعالى:

(يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

و هذا هو الجزاء، و (الرحمة): كلمة واسعة ينضَوي تحتها عطاء الله كلِّه ! والرحمة شيء مُريح للإنسان، ولها مظاهر كثيرة، فالصِّحة، والكفاية، والزّوجة الصالحة، والأولاد الأبرار، و سلامة الجسم، و دِقّة الفهم، و السُّمعة الطيّبة والتجلي و السكينة اللذان ينزلان على قلب المؤمن، وحِفظ الله وتوفيقه وتأييد ونصره، وإكرامه للعبد كل هذا من رحمة الله تعالى بنا.

قال تعالى:

(وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

ننتقل إلى فكرة أخرى، أسأل الله عز وجل أن يوفِّقني إلى توضيحها..

أريد أن أسألك: هل تتصور أنّ المؤمن الذي عرف الله، وعرف منهجه، وتقرّب إليه، واستقام على أمرِهِ وطلب رضاه يمكن أن يُعامله الله تعالى كإنسان عادي ؛ و هل يُعامل المُتفلِّت والجاهل والمنحرف العاصي كالمؤمن المستقيم، إذا توهمت هذا فأنت لا تعرف الله أبداً، لأنّ الله تعالى يقول:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

[سورة الجاثية]

فحياة المؤمن تختلف عن حياة الآخرين، فبيته غير بيتهم، وسعادته غير ملذّاتهم، وأعماله غير أعمالهم، وإذا لم يكن هناك تميّز صارخ بين حياة المؤمن وحياة غيره، كان الإيمان لا جَدوى منه.

(الكِفْلين): هما النّصيبان ؛ فهناك نصيب في الدنيا، ونصيب في الآخرة ؛ ففي الدنيا هناك نصيب مُعجّل تشجيعي، و في الآخرة هناك نصيب مؤجّل تقديري، والحقيقة أنّ الذي يشدُّنا إلى الدِّين و الإيمان و

طاعة النبي عليه الصلاة والسلام، هو أنّ حياة المؤمن شيء نفيسٌ جدّاً، فالإيمان مرتبة أخلاقيّة عِلمِيّة وجماليّة، وذوق المؤمن يختلف عن أذواق الآخرين،فحياته وزواجه وبيته وأولاده، ومبادئه وتصرّفاته حتّى لَهْوُهُ كل هذا بريء ونظيف وعفيف ومنضَبِط، فأفراحه فيها الطاعات و الدعوة إلى الله، و أتراحُهُ فيها الصبر والإنابة، فإن لم يكن المؤمن صارخًا في أخلاقه وعلاقاته ومبادئِهِ وقِيَمِهِ، فما قيمة إيمانه إذاً؟؟ إن المؤمن الذي يعرف الله ذو قلب رحيم وعقل ناضِج وعلاقات واضِحَة، وإن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم مجرى الدم... لكن المؤمن يوضّح أفعاله، فحظوظه الدنيوية كلها تحت قدَمه، فهذا سيّدنا الصِّدّيق رضي الله عنه الذي يحمل المرتبة الأولى بعد النبوّة، والذي قال عنه النبي عليه الصلاة والسلام:

((ما طلعت شمس بعد نبيّ أفضل من أبي بكر))

لمّا توفيّ النبي عليه الصلاة والسلام، واجتَمَع أصحاب النبي في السقيفة، وقف أبو بكر رضي الله عنه، وقال لِعُمر: **يا عمر، مُدّ يَدَك لأُبايعَك!** فصُعِقَ عمر وقال: **أنت أفضل مِنّي !** فهذا تواضع وإنصاف وأدَب وتعاوُن، فقال أبو بكر: **بل أنت أقوى مِنّي**، فما كان من عمر إلا أن قال: **قوّتي مع فضلك وأنا تحت جناحك، وأنا وزير لك**، وقال عمر: **لا أطيق أن أكون أميراً على قوم فيهم أبو بكر**، فهذا هو الإيمان ؛ لا يوجد فيه طعن ولا تنافس، فقوله:

(يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ)

يعني أن لك رحمة عند الله، ولا تنس هذه الآية:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ(32))

[سورة الزخرف]

فرحمة الله خير من ملايين الأرض، فهي الله خير مِمّا يجمعون، وإن القبر صندوق العمل، ومصيرنا جميعاً إلى القبر، وهناك ينعدم التّمييز، فالموت يُنهي غِنى الغنيّ، وفقرْ الفقير، ويُلغي قوّة القويّ وضَعف الضّعيف، ويُلغي وسامة الوسيم، ودمامة الدميم، ويُلغي صِحّة الصحيح ومرض المريض فالموت يجمع الناس فيكونون سواءً.

قال تعالى

(وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

فأنت محفوظ و مكفول و موفّق ومنصور من الله عز وجل، والله جلّ جلاله -خالق الأكوان- يُدافع عنك، قال تعالى:

(إِنّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الّذِينَ آمَنُوا إِنّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلّ خَوّانٍ كَفُورٍ(38))

[سورة الحج]

ألا تتمنّى هذه المرتبة ؟ ألا تتمنّى أن تكون كقوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30))

[سورة فصلت]

ألا تتمنّى أن يُلقي الله في قلبك الرضا والسرور ؟ ألا تتمنّى أن تكون لك هَيبة ؟ لقد قلتُ لكم مرةً أنّ الحجاج أراد قتل الحسن البصري فاستدعاه، فدخل الحسن على الحجاج، وكان السياف واقفاً، فتكلّم بكلمات لم تُفهم ! فما كان من الحجاج إلا أن وقف له واستَقبلهُ وأجْلسَهُ إلى جانبه على السرير وقال له: يا أبا سعيد أنت سيّد العلماء ثم استفتاه في قضيّة، وطلب الدعاء منه، وعطّرهُ وشيّعهُ إلى باب القصر، فصُعِق السيّاف وكذا الحاجب، فلحِقاه، وقالا له: لقد أُتِي بِكَ لِغير ما فُعِل بك، فماذا قلتَ لِربّك ؟ قال قلتُ: **يا ملاذي عند كربتي، ويا مؤنسي في وحشتي، اِجعل نقمته عليّ برْداً وسلاماً كما جعلت النار برْداً وسلاماً على إبراهيم**، فهذه هي هَيبَة المؤمن لك، ومن اتّقى الله هابَه كلّ شيء، ومن لم يتّقه خاف من كلّ شيء، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81))

(سورة الأنعام)

والله أيها الإخوة، لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكَفت، فالله عز وجل يَمْنحُكَ فيها نِعمة الأمن، لتكون واثقاً من دون خوف، فلا ترتعِدُ فرائصك من فلان وفلان، لأنك مع الله، وإذا كان الله معك فمَن عليك وإذا كان عليك فمن معك ؟!

يا رب، ماذا وجد من فقَدَكَ ؟ وماذا فقدَ من وجَدَك ؟؟؟

هذا كلام خالق الكون، وإن زوال الكون أهون على الله من أن لا يؤتِيَك كِفلين إذا كنت مؤمناً، فالعِبرة في أن تكون مؤمنًا، وأن تنفِذ ما أمرك الله أن تنفِذَهُ، فضلاً عن هذه الرحمة التي تملأ قلبك رضىً ورحمة وسعادةً وثِقة بالمستقبل، قال تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(51))

[سورة التوبة]

أيُها الإخوة... إن مستقبل الإنسان من دون إيمان مخيف، فهناك أمراض عضالة كالأورام الخبيثة، وهناك قهر وفقر، أما المؤمن فهو واثق من حفظ الله له، لقد كان هناك شيخ مؤمن في السادسة والتِّسعين من العمر، لكنه منتصِب القامة، حادّ البصر، نشيط، وأسنانه في فمه، فقيل له: يا سيّدي ما هذه الصِّحة التي متّعَك الله بها ؟ فقال: حَفظناها في الصِّغر فحَفظها الله لنا في الكِبر !

إن من عاش تقيًّا عاش قويّاً، والله تعالى يمتّع المؤمن بالصِّحة والأولاد الأبرار والزوجة الصالحة وبدَخل يكفيه، وكلّ وُعود الله ثمنها أن تؤمن وأن تُطيعه فقط.

الرؤية الصحيحة:

ثم قال تعالى:

(وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

هناك شيء آخر الدّين غير الراحة والطمأنينة، وهو الرؤية الصحيحة ؛ فإذا كنت مؤمناً أعطاك الله هذه الرؤية الصحيحة، فإذا كان الناس في غفلة، كنت في صَحو، وإذا كانوا في عمى كنت مُبصِراً، وإذا كانوا في متاهة كنت على محجّة واضِحة، وإذا كانوا في قلق، كنت في طمأنينة، فالطريق واضِح أمامك، والهدف واضح كذلك، والدنيا ليْسَت مقرّاً، لكنها ممرّ، فهي حياة دنيا إعداديّة لِحياة عليا أبديّة، فمركز الثقل عند المؤمن في الآخرة، واهتِماماته وحِرصُه كله منصب على الآخرة.

أيها الإخوة الكرام، قال تعالى:

(وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

فالمؤمن يرى ما لا يراه الآخرون، ويسمع ملا يسمعون، فلو دقّقتِ في كلّ إنسانٍ يرتكب هذه الحماقة وتساءلت لماذا يرتكبها ؟ السبب أنه يرى أن هذه الحماقة لِصالِحِه، فيرى أن الكذب مثلاً يجلب له المال، وهو أحمق في هذا، ويرى أنّ هذا العمل يجلب له السرور، وهو أحمق في هذا أيضاً، و هذا كلة لأنّه أعمى، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

[سورة طه]

هناك خمسة آلاف مليون إنسان على وجه الأرض، فإذا كان هناك واحد معرضاً عن ذِكر الله وهو ليس في عيشة ضنك لكانت هذه الآية ليْسَت من كلام الله تعالى ! فهؤلاء الذين بلغوا قِمَم النّجاح في المال هم أشقى الناس، كذلك الذين بلغوا المراتب العليا وهم معرضون هم أشقى الناس أيضاً، أما المؤمن فهو يتمتّع برؤية سليمة، فهو يرى النِّهايات والعواقب، ويرى الأهداف لأنه يمشي على هدى، قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ(108))

[سورة يوسف]

و النور المذكور في الآية هو نور الصلاة، والمصلي الحقيقي هو الذي يلقي الله في قلبه الطمأنينة والرؤية الصحيحة، قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلَّا الْمُصَلِّينَ(22))

[سورة المعارج]

فهذا مستثنى.

قال تعالى:

(وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

فالماضي كله مغطّى بالمغفرة، فما عليك إلا أن تصطلح مع الله، وتتوب إليه توبة نصوحة، فأنت إن عرفت الله وآمنت به واتَّقَيْت أن تعْصِيَهُ كانت النتيجة أن يؤتيك كِفلين من رحمته في الدنيا والآخرة، ويجعل لك نوراً تمشي به وهذا النور هو الرؤية الصحيحة، وإن أكثر حماقات الناس من جهلهم وعماهم عن الدِّين، فالإنسان إذا مشى في طريق مظلم ووعر كان الوُقوع في حقه حَتمياً، أما الآخر الذي يمشي في نفس المكان ولكن معه مِصباح متألِّق يكشف له كلّ شيء فهو في مأمن من الوقوع والزلل، فأنت إن اتّصلت بالله ألقى الله في قلبك نورًا... ثمّ يقول تعالى:

(وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد]

الفضل بيد الله:

الآية الأخيرة، قوله تعالى:

(لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

فهذا الفضل مُتاحٌ لِكُلّ إنسان كائنًا من كان، وفضل الله عظيم، وهو ليس لِفئة ولا لأمة، ولا لِجيل، قلتُ لأخ: إن دينُ الله كالهواء للناس، لا يستطيع أحدٌ أن يحتكرهُ، لا جماعة ولا فئة ولا إقليم، فدين الله لكل الناس، وهذا هو معنى قول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

قال تعالى:

(لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

ففضل الله ليس بيَدِ أهل الكتاب بل هو بيَدِ الله تعالى، والجنّة بيد الله وليس بيَدهم، وكلُّنا عبيد، قال عليه الصلاة والسلام:

((اللهم إني عبدك وابن عبد...ناصيتي...))

فأهل الكتاب لا يقدرون على شيء من فضل الله، وفضل الله ليس بيدهم بل بيد الله، قال تعالى:

(وَأَنّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المجادِلة 058 - الدرس (1-4): تفسير الآيات 1-7
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-05-17

بسم الله الرحمن الرحيم

حدود الله، وحرمة التّعدي عليها

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الأول من سورة المجادلة، قال تعالى:

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

توضيح لبعض الحقائق:

أيها الأخوة الكرام...أريد أن أوضح بين يدي هذه السورة بعض الحقائق...

1- الحقيقة الأولى: (مراحل الدعوة الإسلامية):

لقد مرت الدعوة الإسلامية في طورَين؛ طور مكي إيماني، وطور مدني تشريعي، وإذا لم يسلك الدعاة إلى الله هذا المنهج في ترسيخ الإيمان أولاً، و توضيح الشرع ثانياً فلن يفلحوا في دعوتهم، فالإيمان والشرع كل منهما شرط لازم غير كافٍ، فإن أنت بينت حكماً شرعياً ولم تعرّف بالله عز وجل من خلال خلقه فلن يطبّق هذا الحكم، فالذي يعرف الأمر ولا يعرف الآمر لا يمكنه أن يتقرب إليه، بل إنه يتفنن في التفلت من أحكامه، أما الذي يعرف الأمر بعد أن يعرف الآمر فهو يتفانى في تطبيق أحكامه، والإنسان يعرف الله عن طريق الكون، لكنه يعبده عن طريق الشرع، فيجب أن يكون عمل الداعية على خطين: خط يعمل فيه على تعريف الناس بالله، وخط يعمل فيه على تعريفهم بأمر الله، لأن الإنسان إذا عرف الله تقرب إليه عن طريق تطبيق أمره،فالدعوة إلى الله لها جناحان: جناح العلم بالله وجناح العلم بأمره، فنحن نطيع الله فيما شرع لنا لأننا نعرفه من خلال الكون، وهذه السورة جاءت في المرحلة المدنية التي اختصت في الأغلب بأمور التشريع، أما الشيء الأدق من ذلك فهو أن هذا القرآن العظيم - كلام رب العالمين و الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله - يحوي على الكثير من المواضيع التي تهم الإنسان في حياته، فبعد أن تحدث مثلاً عن الكون و الشمس والقمر والكواكب والجبال والرياح ودعانا إلى النظر فيها، وصل إلى أدّق العلاقات بين المرء وزوجه، فهو شرع كامل ومنهج تفصيلي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

2- الحقيقة الثانية: (الإسلام منهج متكامل):

إن هذا الإسلام منهج متكامل لحياة الإنسان، لكن بعض الناس يفهم الإسلام على أنه صلاة وصيام وحج وزكاة فقط، وهو ليس كذلك، بل هو منهج تفصيلي، و حينما فهم المسلمون الإسلام على أنه عبادات لا

أكثر، ابتعدوا عن حقيقة دينهم وصاروا في مؤخرة الأمم، فالإسلام منهج تفصيلي يصل إلى أدّق نواحي حياتك، فهل هناك علاقة أشدّ خصوصية من علاقة الرجل بزوجته ؟ وعلى الرغم من ذلك وصل الإسلام إلى هذه العلاقة وشرّع لها، وهذه هي الحقيقة الثانية.

3- الحقيقة الثالثة: (اهتمام الإسلام بالأسرة):

إن من بالغ حكمة الله عز وجل أنه جعل قوة المجتمع المسلم في قوة أصغر وحدة فيه، فالمجتمع الإسلامي يتألف من أسر، والأسرة تتألف من زوج وزوجة وأولاد، و قوة المجتمع الإسلامي تكمن في تماسك أسره، فالإسلام حريص على قوة المسلمين و رقيهم وتألقهم، كما أنه حريص أيضاً على أصغر وحدة في مجتمعهم، كحرصه مثلاً على علاقة الزوج بزوجته، والحقيقة -أيها الأخوة- أن الإسلام يلح أشدّ الإلحاح على تماسك الأسر، كما أنه يعتبر أي تصرف أو أية فكرة أو عقيدة تباعد الزوج عن زوجته من فعل الشيطان، لأن غاية أفعال الشيطان هي أن يفرق بين الرجل وزوجه، وكل تشريع الله عز وجل بدءاً من غض البصر ومروراً بالمعاشرة بالمعروف ثم الإحسان إلى الزوجة.. كل هذه التشريعات المتعلقة بالزوجين إنما شُرعت من أجل تماسك هذه الأسرة.

فالأسرة إذا تماسكت نشأ الأطفال فيها نشأة صحيحة، فتبدأ هذه الأسرة بقذف عناصر طيبة متوازنة ذات تربية عالية للمجتمع، أما إذا تداعت أركان الأسرة من داخلها و نشأ فيها الشقاق والخلاف والتقاطع بين الزوجين، فإن الأولاد سيكونون أول ضحية لهذا الخلاف، وإذا كان البيت شقياً فيه الفوضى والعداء والبغضاء تخلخلت فيه هذه الوحدة الاجتماعية الصغيرة، فينعكس ذلك على قوة المجتمع بأكمله، لقد تحدث أحد رؤساء الدول الكبرى أن أمريكا تواجه أربع تحديات، فالمتبادر إلى الذهن أن يقول: إن هذه التحديات هي الخطر الصيني مثلاً، أو خطر الاتحاد الأوربي أو اليابان، لكنه لم يقل ذلك، بل قال: (إن أمريكا تواجه أربع تحديات منها تفكك الأسرة)، فأكبر تحد تواجهه دولة عظمى تمسك بقياد العالم هو تفكك الأسرة وانحلال الأخلاق وشيوع المخدرات وشيوع الجريمة، لذلك كانت قوة المجتمع من قوة أسره.

و الشيء الغريب في هذه السورة أن الله سبحانه من فوق سبع سماوات، يشرع لعلاقة بين الزوجين، وذلك لتمتين هذه العلاقة، ليكون هذا التشريع عاملاً في تماسك الأسرة، وذلك من أجل ينشأ الأطفال في جو صحي، فينتهي المطاف بعد ذلك إلى قوة المجتمع. روايات قصة المجادِلة:

أيها الأخوة الكرام... إن المجادِلة هي امرأة اسمها (خولة بنت ثعلبة)، وهناك روايات كثيرة تروي قصتها مع النبي صلى الله عليه وسلم، من هذه الروايات أنها جاءت إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقالت: يا رسول الله إن زوجي تزوجني وأنا شابة ذات أهل ومال وجمال، فلما كبرت سني ونثر بطني وتفرق أهلي وذهب مالي قال: أنت عليّ كظهر أمي، ولي منه أولاد إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن

ضممتهم إليّ جاءوا، وقد ورد في بعض الروايات أن النبي بكى لما كان في قلبه من الرحمة.

وتروي بعض الروايات أن عمر بن الخطاب -خليفة المسلمين وعملاق الإسلام- كان يركب دابة، فمرّ في أحد أسواق المدينة، فاستوقفته امرأة كبيرة في السن و قالت له يا عمر: كنت تدعى عميراً، ثم قيل لك: عمر، ثم قيل لك: أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر، فإنه من أيقن بالموت خاف الموت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب، فقالت كل ذلك و هو واقف في أدب، فقيل له: يا أمير المؤمنين ! أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟! فقال: **(والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره ما زلت إلا للصلوات المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز ؟ هي خولة بنت ثعلبة التي سمع الله قولها من فوق سبع سماوات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعها عمر).**

وقالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم و تقول: يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية:

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ)

و يبدو أنها كانت تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم على استحياء فخفضت من صوتها وكانت السيدة عائشة في الغرفة نفسها فلم تسمع تفاصيل قصتها، وهناك رواية ثالثة لهذه القصة تقول: لقد جاءت المجادلة تشكو إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في ناحية البيت لا أسمع ما تقول فأنزل الله عز جل:

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ)

وروى ابن عباس أن هذه المرأة هي خولة بنت خويلد الخزرجية، وكانت تحت أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، وكانت حسنة الجسم فرآها زوجها، فطلبها فأبت فغضب عليها، وكان امرؤ به لمم فأصابه بعض اللمم، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي ؛ يعني حرمها على نفسه.

الإيلاء والظِّهار:

الإيلاء والظهار من أنواع الطلاق في الجاهلية، والإيلاء: أن يحرّم الرجل زوجته عليه، والظهار: أن يقول أنت عليّ كظهر أمي، و يقول تعالى: إن هذه المرأة التي حبستها أيها الزوج ليست أمك بل هي زوجتك، فإذا بدلت في ذلك عن طريق الكلام، كان كلامك باطلاً و ما أنزل الله به من سلطان، فكيف تجعل من زوجك أماً لك ؟؟ هذا شيء غير منطقي وغير واقعي وفيه ظلم شديد، وقد كان الإيلاء والظهار من أنواع الطلاق في الجاهلية، فسألت هذه المرأة النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها:

((حرمت عليه))

فأفتاها بحسب ما هو شائع، ولم يكن الوحي قد نزل بعد في هذا الموضوع، فقالت: والله ما ذكر طلاقاً، ثم قالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وابن عمي، فقال لها:

((حرمت عليه))

فما زالت تراجعه حتى نزلت هذه الآية.

أيها الأخوة...

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ)

و الشكوى إلى الله من أعظم أنواع الشكوى، ومنها قوله:

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(86))

(سورة يوسف)

وكل من يشكو الرحيم إلى من لا يرحم يعاب، أما هذه امرأة فقد اشتكت إلى الله فسمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، فإذا قال لك الطرف الآخر أو قال لك خصمك: أشكوك إلى الله وجب أن ترتعد أطرافك من الخوف لأن الله يسمع الشكوى من فوق سبع سماوات، وذلك طبعاً إن كنت تعرف الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ))

(مسند أحمد 12091)

فشكوى الإنسان إلى الله عز وجل شيء مخيف، وهذا الرجل اشتكت زوجته إلى الله.

(وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا)

إن الله عز وجل مع كل إنسان، قال تعالى:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد 4)

فهو مع كل إنسان بعلمه:

(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا)

(سورة المجادلة7)

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

سميع: لك إذا دعوته، بصير: بك إذا تحركت، عليم: إذا خطر في بالك خاطر، فهو يراك إن تحركت، و يسمعك إن دعوته، و يعلم كل أفكارك، حتى وإن كنت تفكر في موضوع دقيق في باطنك، فهو يعلم السرّ وأخفى.

لذلك ينبغي على الإنسان أن يتقي الله في زوجته، وينبغي على الزوجة أن تتقي الله في زوجها، لأن الله معهما يسمع ويرى، ويعلم المخطئ والمصيب، والظالم و المظلوم.

(وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

وإن أعظم درجة في الإيمان أن تعلم أن الله معك يراك ويسمع قولك ويعلم باطنك، وأفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه أينما كان، وأنت إذا كنت تعلم أن هناك شهيد يشهد عليك فلا بدّ أن تنضبط، فكيف إذا كان الشهيد هو الله عز وجل !

(الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ)

تحريم التلاعب في الألفاظ:

ظاهر من امرأته ؛ أي قال لها: أنت عليّ كظهر أمي ؛ أي: ابتعد عنها ولم يؤد لها حقها الزوجي، فهي محبوسة له بمنهج الله عز وجل، فإذا قصّر في حقها فقد أوقعها في العنت وقوى فيها جانب المعصية، فالزوج محاسب أشدّ الحساب إذا قصّر في حق زوجته، فما لبّى حاجاتها التي أودعها الله فيها.

(الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ)

هذا لعب في الألفاظ لا يرضي الله عز وجل، فالزوجة زوجة، والأم أم، والأخت أخت، والخالة خالة، والعمة وعمة، والأجنبية أجنبية، أما أن تخلط بين هذه الهويات فهذا لا يرضي الله سبحانه، فقد يقول لك قائل: هذه الأجنبية مثل أختي، وهذه مثل أمي، فهذا كله لعب في دين الله ما أنزل الله به من سلطان، لأن هذا الشرع العظيم مبني على قواعد عظيمة، فلو جعل الإنسان زوجته كأمه فابتعد عنها لأوجد خللاً في الأسرة، ولو أنه جعل امرأة أجنبية كزوجته أو أخته لأوجد خللاً أيضاً، فكل إنسان له طبيعة، وهذا شرع الله عز وجل فيجب أن نأخذ به بدقائقه، قال:

(الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ)

(أنت عليّ كظهر أمي): تعبير مفاده أن هذا الرجل ابتعد عن زوجته كما لو أنها أمه، وفي هذا ظلم شديد للزوجة، وفي المقابل فإن المرأة إذا امتنعت عن زوجها باتت والله غاضب عليها، و إن أي زوج ابتعد عن زوجته سهواً أو تقصيراً يحاسبه الله أشدّ الحساب.

قال هؤلاء النساء اللاتي هنّ أزواج الرجال:

(مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ)

فالأمور واضحة الأم أم، والزوجة زوجة... فقولك لزوجتك: أنت كأمي ظلم لها، وقولك لامرأة وهي أجنبية: أنت كأختي غير صحيح أيضاً، فربما وقعتَ في الفاحشة معها وأنت لا تدري، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ما خلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما))

وكم من مأساة حدثت في المجتمع المسلم من جراء الاختلاط، حيث تقع المنكرات والخيانات، فيسقط الإنسان في الوحول لأنه خالف منهج الله عز وجل.

(إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)

إن الإنسان محاسب على كل كلمة ينطق بها، فهذا كلام منكر لا يقبله الشرع ولا العقل ولا الفطرة ولا الواقع، لأن الزوجة زوجة، والأم أم، واللعب بهذه الأوراق لعب خطير، لأنه لعب بدين الله و سلامة الحياة.

(وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً)

الكلام المنكر هو الكلام الذي تنكره الفطرة السليمة و العقل الراجح والواقع.

(وزوراً) ؛ أي: الكذب والتزوير للحقيقة.

عفو الله وغفرانه:

(وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)

لكن الله سبحانه وتعالى يعفو عما مضى، ومعنى (غفور) ؛ أي: أنه يسامحك في هذا الذنب فلا يعاقبك عليه، أما العفو: فهو الذي ينسيك ذاك الذنب، فالله عفو غفور ؛ أي: يسامحك ولا يعاقبك، وهذا من تمام إكرامه لك، فهو ينسيك ذاك الذنب، فباب التوبة مفتوح مادام في الإنسان قلب ينبض و بقية من رمق الحياة، وهذا الباب المفتوح من أعظم النعم على المؤمنين، فكلما أخطأ الإنسان و زلت قدمه وجد الله تواباً رحيماً، **"لله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من الضّال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد ".**

كفارة الظِّهار:

(وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا)

فهذا الذي ظاهر من زوجته وقال لها: أنت عليّ كظهر أمي وابتعد عنها وحرّمها على نفسه لا يمكن له في تشريع الله عز وجل أن يعود إلى مقاربتها إلا بشروط صعبة، وقد أرادها الله صعبة كي يعرف الإنسان للزوجة حقها، و يعرف أن هذا العقد الذي أبرمه مع الزوجة من أقدس العقود في حياته.

(وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا)

فعليه أن يعتق عبداً، وقالوا: كمال هذا العبد أن يكون مسلماً.

(ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

وهذه الكفارات على الترتيب: أولاً: عليه أن يعتق رقبة، وقد أشار العلماء في هذه الآية إلى أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أن العبودية سوف تختفي و تنتهي وذلك لعلمه الغيب، بدليل قوله تعالى:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ)

أي: عليه أن يصوم ستين يوماً.

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً)

وقال: يجب أن تطعم هذا المسكين مُدّين من القمح.

(ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

فالإنسان له منهج يجب أن يسير عليه، فحتى في أخص علاقاته مع زوجته لا بدّ له من أن يقيم منهج الله عز وجل، فمن لغا وقال لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، كان كلامه هذا كبيراً و خطيراً، فيقتضي ذلك منه أن يعتق رقبة، أو أن يصوم ستين يوماً، أو أن يطعم ستين مسكيناً.

فلما أنزل الله هذه الآية الكريمة قال النبي عليه الصلاة والسلام لخولة بنت ثعلبة:

((قولي لزوجك أن يعتق رقبة))

فقال: لا أجد، فقال له:

((صم شهرين متتابعين))

قال: لا أستطيع، فقال له:

((أطعم ستين مسكيناً))

قال: فأعنّي، فأعانه النبي صلى الله عليه وسلم بشيء، كما أن زوجته خولة أعانته بشيء حتى أدى هذه الكفارة وعاد إلى زوجته.

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

أي: لتؤمنوا بمنهج الله عز وجل، و الله عز وجل خالق وله منهج، كما أن رسوله له سنة، فبعد أن يؤمن الإنسان بالله ورسوله عليه أن يتبع منهج الله في كتابه ومنهج النبي في سنته، (نتابع).... و لتؤمنوا به خالقاً ومربياً ومسيراً ومشرعاً، فما معنى أن تؤمن بالله دون أن تؤمن بشرعه ؟ و ما معنى أن تؤمن بوجوده ثم لا تأتمر بما أمر ولا تنتهي عما نهى عنه وزجر ؟

حدود الله وعقوبة المعتدي عليها:

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ)

فهناك آيات قيل فيها: هذه حدود الله عز وجل (فلا تعتدوها)، وهناك آيات قيل فيها: (فلا تقربوها)، وسيدنا عمر رضي الله عنه كان وقافاً عند حدود الله، و قد قال أحد العارفين بالله:**(ليس الولي الذي يمشي على وجه الماء ولا الذي يطير في الهواء، ولكن الولي الذي تجده وقافاً عند الحلال والحرام)**، أي: أن يجدك الله حيث أمرك وأن يفتقد حيث نهاك.

(وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

من هم الكافرون هنا ؟ إنهم الذين كفروا بحدود الله، فلم يعبؤوا بمنهجه،هؤلاء الكافرون لهم عذاب أليم مطلق في الدنيا والآخرة، والقضية مصيرية بالنسبة لك، فإما أن تختار طاعة الله ورسوله لتكون في سلام:

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

(سورة المائدة16)

أي: سلام مع نفسك و ربك ومع من حولك، أو أن تكون في عذاب، و طاعة الله تعني السلامة، ومعصيته تعني العذاب، فهذه حدود الله، وللكافرين بهذا التشريع وهذا المنهج وهذا الأمر وهذه الحدود عذابٌ أليم، ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

معنى **(يحادون الله ورسوله)** ؛ أي: يشاقون الله ورسوله و يعادونهما، ويعرضون عنهما، وهناك معنى آخر لـ**(يحادون الله)** وهو: أنهم لا يقفون عند حدوده فلا يقيمون لها وزناً و يستخفون بها، وإن علامة المؤمن أنه إذا فعل ذنباً كان هذا الذنب كالجبل الجاثم على صدره، وعلامة المنافق أنه إذا فعل ذنباً كان هذا الذنب بالنسبة له كأنه ذبابة دفعها بيده، فذنب المنافق كالذبابة، وذنب المؤمن كالجبل الأصم.
أيها الأخوة الكرام... في هذه الآية بشارة عظيمة يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

إن هؤلاء الذين يعادونه و لا يعبؤون بحدوده ومنهجه وحلاله وحرامه، ولا يعتقدون أن هذا المنهج قويم و صالح لهذا الزمان، هم يتفلتون من منهج الله عز وجل إما تقصيراً أو كفراً، مع أن هناك فرقاً كبيراً بينهما، فهناك من لا يطبق منهج الله كفراً بهذا المنهج، وهذا كفر حقيقي عملي، وهناك من لا يطبق منهج الله تقصيراً، فهذا الذي يخرج عن منهج الله إنكاراً أو تقصيراً له عذاب أليم.

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا)

(كبتوا) ؛ أي: قبروا وغلبوا وسحقوا، فالشيء الذي تكبته هو الشيء الذي تقهره وتضعفه وتهلكه، وقد جاء هذا الفعل في الآية بصيغة الماضي، لكنك قد تجد كافراً كبيراً قوياً له يد طولى في المجتمع، فكيف يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا)

والإجابة عن ذلك: أن هذا الفعل جاء بصيغة الماضي بشارة للمؤمنين، وهذا يعني أن الإنسان حينما يكون في معصية الله فهو مغلوب وهالك عند الله، فسيكبته الله ويسحقه ويعاقبه، فالفعل الماضي هو البشارة.

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا)

أي: كبتوا مع وقف التنفيذ، فالإنسان إذا كان دخله حرام، أو كان متفلتاً في حياته و علاقاته و حركته و نشاطه، فهذا التفلت معناه أنه لن ينتصر ولن يعلو ولن يرتفع، وإن كان قوياً في الظاهر، فقوته هذه قوة آنية، ولسوف يكبت بعد حين.

(إِنّ الّذِينَ يُحَادّونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

إن الذي يعادي الله عز وجل في كل الأزمان والعصور، وفي كل الحقب قديماً كان أم حديثاً، لا بدّ له من أن يهزم و يكبت، والتاريخ بين أيديكم، فأين هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين عزروه ونصروه وافتدوه بأرواحهم وأموالهم وكانوا معه ولم يتخلوا عنه الآن ؟ إنهم في أعلى عليين، أما الذين ناصبوه العداء وأخرجوه من دياره وقاتلوه ونكلوا بأصحابه فأين هم الآن ؟ إنهم في مزبلة التاريخ وهذا التاريخ بين أيدينا والتاريخ يعيد نفسه.

فالإنسان إذا كان في خندق الحق فهو مع الحق، وإن الحق سيؤيده و سينصره، وإذا كان في خندق معادٍ لأهل الحق فمهما كان يبدو قوياً إلى حين لكن الله سبحانه وتعالى لا بدّ أن ينتقم منه، لهذا قال الله عز وجل:

(أَقِمْ الصّلَاةَ لِدُلُوكِ الشّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78) وَمِنْ اللّيْلِ فَتَهَجّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(79)وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا(80)وَقُلْ جَاءَ الْحَقّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

فالباطل من خصائصه الوجودية أنه زاهق، فهو زاهق اعتقادياً، وسلوكياً، و إن أي شيء يكون خلافاً لمنهج الله زاهقٌ عاجلاً أو آجلاً.

(إِنّ الّذِينَ يُحَادّونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا)

وإن أكبر نعمة أنعمها الله عليك أن تكون مع الحق، وأن تكون مؤيداً للحق و ناصراً له، وأن تكون مع أهل الحق، وأن تكون جندياً للحق، وأن تكون داعياً للحق، وأن تكون صابراً من أجل الحق، فهذه أعلى مرتبة في الحياة، أما أحط مرتبة في الحياة فهي أن تكون مع الباطل داعياً ومؤيداً ومناصراً. وقد قيل:**(كفاك نصراً على عدوك أنه في معصية الله)**، فلمجرد أن تكون في طاعة الله ويكون عدوك في معصية الله فأنت منتصر عليه لا محالة.

(وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)

و الله عز وجل قبل أن يعاقب يبين، وهذا أسلوب الحكيم، فهؤلاء الكافرون سوف يكبتون، لكن الله بين لهم قبل أن يُكبتوا آياتِه الكلامية ؛ وهي القرآن، وآياته التكوينية ؛ وهي أفعاله، وآياته الكونية، وهو خلقه، فآياته الكونية و التكوينية دالة عليه ومشية إليه، وآياته القرآنية مبينة لما عنده من نعيم وعذاب.

(إِنّ الّذِينَ يُحَادّونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

هذه سنة الله في خلقه، فالله مع المؤمنين: ينصرهم ويؤيدهم ويحفظهم ويوفقهم، وهذا من أصل المنهج، كما أن الله يكبت أعداءه ويخزيهم ويعذبهم عذاباً أليماً في الدنيا الآخرة، ولهم جهنم وبئس المصير، والخيار واضح جداً فإما أن تكون مع الحق أو أن تكون مع الباطل، وليس بين الحق والباطل موقف ثالث، فإن لم تكن مع الحق فأنت مع الباطل، و إن لم تكن على منهج الله فأنت على منهج أعدائه، والدليل قوله تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنّمَا يَتّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص50)

الجزاء الأخروي:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً)

الدنيا دار عمل لا جزاء، والآخرة دار جزاء لا عمل، فنحن الآن في دار عمل، وقد أعطي في الدنيا الإنسان حرية الحركة، فلك الآن أن تصلي ولك أن لا تصلي، و لك أن تصوم ولك أن لا تصوم، ولك أن تحج ولك أن لا تحج، ولك أن تزكي ولك أن لا تزكي، كما أن لك أن تستقيم ولك أن تنحرف، و لك أن تصدق ولك أن تكذب، و لك أن تقبل ولك أن تعرض، ولك أن تخلص ولك أن تخون، فأنت الآن في حرية حركة وفي دار عمل، وكل شيء له حسابه المسجل، قال تعالى:

(وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49))

(سورة الكهف)

أيها الأخوة... حينما يكافئ الله بعض عباده المؤمنين على بعض أعمالهم الصالحة تكون مكافأتُه هذه تشجيعاً لبقية المؤمنين، وحينما يعاقب الله إنساناً على بعض الأعمال المنحرفة، يكون عقابه هذا ردعاً لبقية المسيئين، لكن الحساب الأوفى والجزاء الكامل الرصين إنما يكون يوم القيامة.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنّمَا تُوَفّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران 185)

و قال الله عز وجل:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً فَيُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللّهُ وَنَسُوهُ)

فسينبئهم بأدقّ المخالفات.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا(77))

(سورة النساء)

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا(13)اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(14)مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا(15))

(سورة الإسراء)

كلام الله عز و جل كلام واضح كالشمس، يبين لنا أن هناك منهجاً بين أيدينا، كما أن هناك رباً كريماً عليماً حكيماً مطلعاً، يعاقب ويكافئ فإن أحسنت فلك وإن أسأت فعليك.

يعني هنا لما قال الله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (5) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

فكل الخلق سيأتون فراداً كما خلقهم الله أول مرة.

(فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ)

فالإنسان سيحاسب على أدقّ التصرفات، لماذا غضب ؟ لماذا أعطى ؟ لماذا منع ؟ لماذا وصل ؟ لماذا قطع ؟ لماذا مدح ؟ لماذا ذمّ ؟ لماذا أقبل ؟ لماذا أدبر ؟ فكل المواقف والتصرفات يحصيها الله عز وجل، ولسوف يُنَبَّأ بها الإنسان يوم القيامة، و قد قدّم لله عز وجل الحجة على ذلك.

الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

قال الله عز وجل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

هناك حقيقتان: الأولى: هي أن تعلم أن الله يعلم، أما الثانية: فهي أن تعلم أن الله قدير، فعلمه يطولك وقدرته تطولك كذلك، فإذا أيقنت أن الله يعلم ويحاسب و يعاقب استقمت على أمره، وإن الذي يفرق بين الإيمان والكفر، والسعادة والشقاء، والنجاة والهلاك هو علمك أن الله يعلم وأنه سيحاسب وسيعاقب.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

أيها الأخوة... إذا أدخل كل إنسان في حساباته أن الله مطلع عليه وأنه يعلم سرّه وجهره وأنه سوف يحاسبه ويعاقبه كفّ عن أفعال السوء، لكن أخطر مرض يصيب الإنسان هو الغفلة عن الله.

فمعظم الناس الآن يأكلون المال الحرام وفي توهمتهم أن الله لن يحاسبهم، والحقيقة أنه يعلم وسيحاسب ويعاقب.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

(ألم تر): تعني: أن الله يرينا من آياته، فهو يرينا كيف يقصم الإنسان الظالم، كما يرينا كيف يرفع الإنسان المستقيم، و يرينا إنسان كيف يغني الأمين، وكيف يفقر غير الأمين، فهناك أحداث نراها بأعيننا، وهذا القرآن فيه كل شيء، فالأحداث كلها تنطق بما يوجد في القرآن الكريم، بل إن الأحداث أو أفعال الله عز وجل هي في حقيقتها تأويل القرآن الكريم، و تأويلها هو وقوع وعده ووعيده.

كلمة **(ألم تر)**: تعني أن الأحداث أمامك، فإذا رأيت شاباً مؤمناً مستقيماً على أمر الله يعمل صالحاً ويطلب الحلال، علمت أن هذا الشاب لن يعامل كالشاب المتفلت الذي اكتسب المال الحرام وفعل الموبقات.

(أَمْ حَسِبَ الّذِينَ اجْتَرَحُوا السّيّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

فكلمة **(ألم تر):** تعني أن الأمر واقع أمام عينيك، فهناك وقائع شتى تؤكد أن الله مع المؤمن يؤيده وينصره ويحفظه ويوفقه، أما الكافر فإن الله يخذله ويعاقبه ويفضحه... هكذا.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلّا هُوَ رَابِعُهُمْ)

لقد جلس صفوان بن أمية مع عمير بن وهب في مكان خالٍ لا يراهم ولا يسمعهم فيه أحد، فقال عمير لصفوان: لولا أطفال صغار أخاف عليهم العنت، ولولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، لذهبت إلى محمد فقتلته وأرحتكم منه، فاستحلها صفوان فقال: أما ديونك فهي علي بالغة ما بلغت، وأما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر، فانطلق لما تريد، فأمر عمير بن وهب أن يسقى سيفُه سماً، وأن تجهز راحلته، ثم ركبها وعلق سيفه على ظهره وذهب إلى المدينة ليقتل محمداً صلى الله عليه وسلم، وكان هذا بعد موقعة بدر، وقد كان لعمير ابناً وقع أسيراً، فقرر في نفسه أنه إذا سئل: لماذا أنت هنا ؟ أن يقول: جئت لأفدي ابني، فلقيه عمر بن الخطاب في الطريق، فقال: هذا عدو الله جاء يريد شراً فقيده بحمالة سيفه وقاده إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي الكريم: **"يا عمر أطلقْه "** فأطلقه، قال: **"يا عمر ابتعد عنه"** فابتعد، قال: **"يا عمير ادنُ مني فدنا منه "**، قال: **"اجلس، ما الذي جاء بك إلينا؟ "** قال: جئت أفدي ابني، فقال النبي: **"وهذا السيف الذي على عاتقك ؟؟ "** قال: قاتلها الله من سيوف،

وهل نفعتنا يوم بدر، فقال النبي: **"ألم تقل لصفوان لولا ديون ركبتني ما أطيق لها سداداً، وأطفال أخشى عليهم العنت لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه "**، فوقف وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله، وأنت رسول الله.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمّ يُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنّ اللّهَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

فأسلم عمير، أما صفوان فطار قلبه فرحاً، وكان يقول لمن حوله: انتظروا أخباراً سارة بقتل محمد، فانتظر أياماً طويلة وأسابيع مديدة، فكان يخرج كل يوم إلى ظاهر مكة فينتظر القوافل لعلها تأتي بخبر مقتل محمد عليه الصلاة والسلام، ثم فوجئ بأن عميراً قد أسلم.

فإن أي حديث تتكلمه مع أخيك الله يعلمه، حتى الخاطرة التي تفكر بها، وحتى الشيء الذي يغيب عنك يعلمه الله، فهو يعلم ما كان ويعلم ما يكون ويعلم ما سيكون ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمّ يُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنّ اللّهَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام... إن مع كل إنسان ملكان يكتبان حسناته وسيئاته، بل إن الأبلغ من هذا أن الله معه يسمع أقواله ويرى أفعاله، فكلما قوي إيمان الإنسان قوي شعوره بأن الله معه يسمع ويرى، يقول تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذّبِينَ(213)وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ(214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215)فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنّي بَرِيءٌ مِمّا تَعْمَلُونَ(216)وَتَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ(217)الّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(218)وَتَقَلّبَكَ فِي السّاجِدِينَ(219))

(سورة الشعراء)

فهو معك وأنت في بيتك مع أهلك وأولادك، كما أنه معك في عملك، و في مركبتك، و في سفرك، فهو معك في أي مكان، يراك ويسمعك ويعلم حالك، وإنك كلما شعرت بوجود الله عز وجل وأنه قريب منك وأنه سميع بصير كنت أكثر انضباطاً.

وهذا هو الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، فالمؤمن يعلم أن الله يعلم، أما الكافر فلا يعلم شيئاً من هذا القبيل، وفي درس قادم إن شاء الله ننتقل إلى الآيات الباقية:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذِينَ نُهُوا عَنِ النّجْوَى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المجادِلة 058 - الدرس (2-4): تفسير الآيات 8-10
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-05-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

مراقبة الله، وآداب النجوى

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثاني من سورة المجادلة، ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى)

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة... إن هذه الآية تبدأ بقوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

فكيف نرى أن الله يعلم ؟؟ إن هناك معنىً مركباً يقول: إنك حين ترى بعينك مصير الظالم الذي يدمره الله عز وجل، و ترى مصير آكل المال الحرام كيف يُذهب الله ماله، وترى كيف ينتقم الله من المعتدي، كما ترى بعينك أن المستقيم يوفّق وينصَر ويحفَظ ويؤيّد، فهذه الأحداث كلها وقعت تحت سمعك وبصرك، و معنى ذلك أن الله يعلم، لأن الله سبحانه وتعالى يجازي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته.

أيها الأخوة... إن الإنسان حين يعلم أن الله يعلم يكون قد قطع أربعة أخماس الطريق إلى الله عز وجل.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

يعني: ألا ترى أفعاله.. ألا ترى توفيقه للمؤمنين وعقابه للكافرين.. ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى ينمّي المال الحلال ويبارك فيه ويمحق المال الحرام ويذهبه.. ألم تر أن المؤمن المستقيم يحيى حياة طيبة، وأن المعرض عن الله يعيش معيشة ضنك، هذه الحوادث بين يديك وتحت سمعك وبصرك، فإذا كان الله يجزي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته فمعنى ذلك أن الله يعلم، و هذا ردع للإنسان عن أن يرتكب معصية وهو يعلم أن الله يعلم، فأفعال الله تعالى تدل عليه، كما أن خلقه وكلامه يدلان عليه، فهذه الآية تشير إلى أفعال الله عز وجل، فإذا تتبع الإنسان أحوال الناس رأى أن الله مع المستقيم مؤيداً وناصراً وحافظاً وموفقاً، كما أنه يعاقب المنحرف إما بإتلاف ماله أو بإلقاء الخوف في قلبه أو بمشكلة تجعل حياته جحيماً.

إذاً: الله يعلم، فإذا علمت أن الله يعلم انحلت مشكلاتك مع الله، لأن الله سبحانه وتعالى جعل معرفته علة وجودك على وجه الأرض، قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

وكما قلت في درس سابق: إذا للإنسان كان جهة قوية تضبط حركاته وسكناته، وتحاسبه حساباً عسيراً على أفعاله، وهي تعلم كل شيء عنه، فإنه سيستقيم على أمرها مرغماً، لأن حركته مسجلة عليه، فكيف إذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم ؟

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

إن علم الله ليس قاصراً على حركاتك وسكناتك، بل إن كل ما في الكون خاضع لعلم الله، فعلم الله يتعلق بكل ممكن في الكون، و الله سبحانه يعلم السرّ وأخفى، فهو يعلم ما تعلن ويعلم ما تخفي ويعلم ما خفي عنك، وإذا علمت أن الله يعلم فلا بدّ لك من أن تضبط سلوكك.

الله يعلم السرّ وأخفى...

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)

فإذا كان هناك ثلاثة أشخاص جالسون في مجلس، وكان فيهم رجل موظف من قبل جهة قوية بيدها زمام الأمور، فالكلام عندها سيكون منضبطاً إلى أقصى درجة، فكيف إذا علمت أن الله موجود مع كل واحد أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة.. أو أدنى من ذلك أو أكثر ؟؟!

النجوى: هي الكلام غير الصالح للنشر ؛ أي: كلام مؤامرة، وقد ذكرت في الدرس الماضي أن عمير بن وهب قال لصفوان بن أمية: لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، ولولا أطفال صغار أخشى عليهم العنت لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، فهذه نجوى؛ أي: مؤامرة وكلام غير معلن يكون بين شخصين أو أكثر على انفراد، في مكان آمن، لا يستمع فيه أحد إليهم، والأبواب مغلقة، وربما يكونون في مكان بعيد، أو في فلاة أو قمة جبل، فالله سبحانه مع هؤلاء يعلم ما يقولون.

(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)

أي: إنه معهم يستمع إليهم ويعلم نواياهم ويعلم خبثهم وسوء طويتهم، وسوف يحاسبهم أشدّ الحساب، أيها الأخوة: لو علم هؤلاء الثلاثة الذين يتناجون بما يسخط الله أن الله معهم وسيحاسبهم هل كانوا سيتناجون ؟ إطلاقاً... لو أن كل من يعصي الله علم أن الله معه فهل يعصي ربه ؟ هذا مستحيل... و لو علم كل من أراد أن يقترف معصية أن الله ناظر إليه لما اقترفها... إذاً: ألا ترون معي أنك إذا علمت أن الله يعلم استقمت على أمره، وأن الذي لا يستقيم على أمره لا يعلم أن الله يعلم.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)

لذلك ورد في الحديث القدسي

((: يا موسى أتحب أن أكون جليسك، قال: كيف ذلك يا رب ؟ قال: أما علمت أني جليس من ذكرني وحيثما التمسني عبدي وجدني ؟؟))

فيجب عليك أن تعلم أن الله معك حتى وإن كنت وحدك، **"اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "**

التطبيق العملي لهذه الآية:

إن التطبيق العملي لهذه الآية هو أن الإنسان إذا كان مع أصدقائه أو إخوانه أو جيرانه أو أقربائه أو مع من يلوذ به في مكان مغلق، لا أحد يستمع فيه إليه، وكان يتكلم كلاماً لا يرضي الله وجب عليه أن يعلم أن الله معه، فكم من مجلس يغتاب فيه المسلمون، ولو علم هؤلاء المغتابون أن الله يعلم ما يقولون لما اغتابوا، لو علم الأفاكون أن الله يعلم ما يأفكون ما أفكوا، و لو يعلم العصاة أن الله معهم لما عصوه، و إذا علم الإنسان العادي أن الله يعلم انضبط أشد الانضباط، فإذا زارك أحد علية القوم مثلاً، وكان إنساناً وقوراً قوياً استحييت أن ترتدي ثياباً مبتذلة أمامه، كما استحييت أن تسب ابنك، أو أن ترفع صوتك أو أن تنطق بكلمة سوء أو أن تفعل فعلاً شنيعاً أمامه، وهو إنسان من علية القوم، فكيف إذا علمت أن الله معك ؟ لذلك كان أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه أينما كان، **"اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "**

(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا)

قد يقول قائل: لماذا ذُكر العدد لثلاثة و العدد خمسة ؟لماذا لم يذكر الاثنين أو الأربعة، إن قوله تعالى:

(وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ)

يعني: أقل من ثلاثة، وقوله:

(وَلَا أَكْثَرَ)

يعني ولا أكثر من أربعة أو خمسة أو ستة، وقد قال بعض المفسرين: إن بعض المنافقين كانوا ثلاثة فتآمروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قد كان منهم خمسة تآمروا عليه، فأراد الله أن ينوه بهم وبمؤامرتهم وبنجواهم التي تسخط الله عز وجل.

إن ملخص هذه الآية يقول: إذا علمت أن الله يعلم فلا بدّ من أن تستقيم على أمره، فاجهد أن تعلم أن الله معك يراقبك، وهناك الكثير من الآيات التي تدلك على هذا المعنى:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

(إنّ رَبّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

(الّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(218)وَتَقَلّبَكَ فِي السّاجِدِينَ(219))

(سورة الشعراء)

فعلمك أن الله معك له وزن كبير في حسابات الإيمان، فكيف إذا علمت أيضاً أن الله يعلم ما تقول ؟ وأنه سوف يحاسبك على ما تقول ؟ و أنك سوف تلقى الله رؤوس الأشهاد يوم القيامة بهذه النجوى التي كانت بينك وبين زيد أو عبيد على انفراد في غرفة مغلقة من دون أن يشعر بكم أحد، فالإنسان أحياناً قد يتكلم بكلمة لا ينبغي له أن يقولها، فإذا هي تنشر في الصحف فيقرؤها الناس جميعاً، و الخبر إذا أذيع أو نشر في محطات إعلامية استمع إليه العالم كله، لاسيما إذا كان خبراً شائناً أو فضيحة أو خيانة.. فإذا ضبط الإنسان بالخيانة أو التجسس، ثم أذيع اسمه في شتى بقاع الأرض لكان هذا مما يندى له الجبين، كذلك هو حال النجوى التي كانت بينك وبين فلان على انفراد، وقد كنت تظن أن أحداً لا يراكما، إنك سوف تلقى الله بها على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، وما أعظمها من فضيحة !! فليس هناك فضيحة أكبر من أن يكون هناك كلاماً غير معد للنشر ولا للإعلان ثم يصبح معروضاً على رؤوس الأشهاد يوم القيامة.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمّ يُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

قال لي أحد الأصدقاء أنه كان قد وضع جهاز (الأنترفون) في بيته بين غرفة الضيوف والمطبخ، و زاره يوماً بعض الضيوف، وأطالوا الجلوس، وكان هذا الجهاز مفتوحاً وهو لا يشعر، فدخل إلى المطبخ وقال لزوجته: هؤلاء الثقلاء لم يذهبوا إلى الآن، فماذا حصل بعدها ؟ قال: لقد بقيت سنوات وأنا أخجل أن أنظر إليهم، لأن هذا الكلام نقل إليهم عبر هذا الجهاز، فقد يتكلم الإنسان أحياناً بكلمة شائنة أو قذرة أو فيها خسة نفس أو مؤامرة أو عدوان، فما هو موقف الإنسان يوم القيامة إذا أعلنت هذه الكلمة على رؤوس الأشهاد ؟ هذه هي الفضيحة الحقة.

وضوح المؤمن:

إن من عظمة إيمان المؤمن أن يكون سرّه كعلانيته وعلانيته كسرّه، وأن تكون خلوته كجلوته وبالعكس، قال عليه الصلاة والسلام:

((تركتكم على بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا ضال))

فالمؤمن واضح ليس عنده أسرار أو شيء لا يقال، و ليس عنده موقف حقيقي وموقف معلن، فليس ثمة شيء يفعله في السرّ و يستحيي أن يفعله في العلن، فأموره واضحة لأنه يطبق منهج الله، فهو يسمح بكل ما سمح الله به و لا يستحيي منه، فالله تعالى سمح بالزواج مثلاً، فترى الناس يطلقون أبواق السيارات يوم العرس، وهم لا يستحون من ذلك لأنه شيء مسموح به، كما أن لمؤمن يحرم ما حرمه الله تعالى، و إن أجمل ما في المؤمن هو الوضوح، أما غير المؤمن فهو مخيف، لأن مظهره غير مخبره، و ظاهره غير علانيته، كما أن باطنه غير سريرته،فهو يقول شيئاً أما بعض الناس، ثم يغيره أمام آخرين، قال تعالى:

(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(14)اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)

(سورة البقرة)

فذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها ً، وإن أجمل ما في حياة المؤمن الوضوح، فهو لا يقول شيئاً يستحيي أن ينقل عنه، أو شيئاً يرجو السامع ألا يتكلم به لأنه يتكلم الحق، والحق لا يخشى أن يُبحَث فيه أبداً، فالحق حق والباطل باطل، فقد يكون الإنسان أحياناً أسير كلمة قالها، قال أحدهم:.

احفظ لسانك أيها الإنسانُ لا يلدغنّك إنه ثعبـــانُ

كم في المقابر من قتيلٍ لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقد يتكلم الإنسان حياناً كلمة ترديه وتشقيه و تبعده، وكلكم يعلم الحديث الصحيح الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام:

((إِنّ الرّجُلَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللّهِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا فَيَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا))

فحينما تعلم أن كلامك من عملك، وأنك محاسب على هذا العمل عليه تنجو.

الكلام من العمل !!!

(ثُمّ يُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

و هذا أقوى شاهد على أن كلام الإنسان من عمله، دققوا في هذه الآية:

(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمّ يُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

لم يقل: بما قالوا، بل: بما عملوا، فمعنى ذلك أن نجواهم عمل، فقد جاء الأنبياء بالكلمة، كما كفر الكفار بالكلمة، والزواج الشرعي يتم بالكلمة، والزنى يتم بالكلمة، فالكلمة لها دور خطير جداً، إنك قد ترقى و تعلو بكلمة و قد تسقط و تهلك بكلمة.

فلو كان العمل شيئاً غير الكلام لقال الله عز وجل: ثم ينبئهم بما قالوا، والنجوى كلام.

(ثُمّ يُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

ولعل النبي عليه الصلاة والسلام قد استنبط هذا المعنى الدقيق في حديثه السابق من هذه الآية، فكلام الإنسان من عمله، وإذا عدّ الإنسان كلامه من عمله استقام على أمر الله وضبط لسانه، ومن صفات المؤمن ضبط اللسان، فهو يفكر ملياً قبل أن يتكلم.

كان عمر بن الخطاب _ وهو عملاق الإسلام _ يتمنى لو أن له رقبة كرقبة الجمل، لأنه يفكر بالكلمة ملياً قبل أن يلقيها، فقد يكون هناك كلمة تفرق بين زوجين أو شريكين، أو بين أم وابنها، فالشر كله كلمات تلقى.

نجوى المنافقين:

ثم يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى)

و يبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام كان قد نهى المنافقين عن هذه اللقاءات الجانبية والمؤامرات الخفية و الدسائس و العمل الخسيس الذي لا يُرضي الله، لأن الإنسان الواضح يعمل تحت ضوء الشمس أما الإنسان غير المستقيم فهو يعمل في الظلام بعيداً عن الظهور.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى)

لقد كان هؤلاء المنافقون الذين يجلسون مع اليهود ويتآمرون على النبي صلى الله عليه وسلم يظهرون أمام النبي الولاء، ويبطنون له العداء، ويظهرون هذا العداء أمام اليهود عندما يختلون، فهم أصحاب موقف ازدواجي، والمنافق _كما قلت في درس سابق_ هو شخص قبل انفصام الشخصية، فهو يتقن أدواراً متباينة، فيتقن دور المؤمن المسلم المعظم للنبي صلى الله عليه وسلم، كما يتقن دور الكافر العدو اللئيم، فإذا التقى بالنبي عليه الصلاة والسلام أظهر له الولاء وإذا خلا بمن معه أظهر العداء، و هذا شأن المنافق.

نهيُ النبي صلى الله عليه وسلم تشريعٌ:

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ)

وهذه الآية تعني نهي النبي تشريع، و أذكر مرة أن امرأة ضاقت ذرعاً بزوجها فشكت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأرادت أن تخلعه، فقال عليه الصلاة والسلام لها:

((لو تراجعينه))

أي: لو تقبلين به، فقالت هذه المرأة العاقلة: يا رسول الله أتأمرني ؟ فقال:

((لا إنما أنا شفيع))

فلو أنه أمرها وعصت لكانت عاصية لله، فيجب أن نعلم علم اليقين أن طاعة رسول الله هي عين طاعة الله، وأن إرضاء رسول الله هو عين إرضاء الله، قال تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(132))

(سورة آل عمران)

وقال:

(وَمَا آَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر 7)

إن هؤلاء الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه قد وقعوا في معصية الله عز وجل، فهناك إنسان واحد إذا عصيته عصية الله وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الإثم والعدوان:

(وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ)

(الإثم): المنكرات، فقد يتحدث أحدهم عن مغامراته مع النساء، أو عن بعض الأشخاص الذين وقعوا في المعاصي والآثام و الفحشاء والمنكر، فالحديث عن المعصية وأساليبها ومسبباتها ونتائجها إثم، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء كثيرة تجرح عدالة الإنسان، فالعدالة والضبط صفتان في المؤمن، فالضبط صفة عقلية والعدالة صفة نفسية، وقد تسقط العدالة أو تجرح باختلال أحد هاتين الصفتين، فمن عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوّته وحرمت غيبته، فإنك إن ظلمت الناس أو كذبتهم أو أخلفت ما وعدتهم سقطت عدالتك، **"ألا لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له "**

فهناك أشياء ثلاثة تُسقط العدالة: الظلم والإخلاف والكذب، و هناك أشياء كثيرة تجرحها، كالتنزه في الطرقات المليئة بالكاسيات العاريات مثلاً، أو الحديث عن النساء في المجالس الخاصة، كقول أحدهم: فلانة شكلها كذا وطولها كذا، أو صحبة الأراذل،أو البول في الطريق، أو الأكل فيه، أو أن يمشي الإنسان حافياً في الطريق، أو التطفيف بتمرة في الميزان، أو أكل لقمة من حرام، أو علوّ الصياح في البيت، أو قيادة الكلب العقور ليتباهى به، أو إطلاق العنان للفرس، ومن هذا القبيل من يسرع في سيارته في الطرقات الآن، فهذه الأمور كلها تجرح عدالة الإنسان، فالمؤمن كامل، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

الإثم: كالحديث عن المعاصي ودور اللهو والأفلام والمسرحيات والممثلات والزناة والمنحرفين و الانحراف الجنسي، أو سلب أموال الناس بغير حق والمؤامرة على أملاكهم وغصب حقوقهم، كأن يأخذ

أحدهم محل ثم يلقي بشريكه في الطريق، أو أن يغتصب بيتاً، أو يأكل مالاً محرماً، أو يحوز على هذه المركبة ليست له، أو أن يماطل في وفاء الدين، فهذا كله من العدوان.

(وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ)

إن الأوامر الموجودة في القرآن الكريم هي أوامر الله، وقد يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأوامر آنية تنظيمية، فلو أن النبي أعطى أمراً، ثم خولف هذا الأمر لكانت هذه المخالفة معصية للرسول، ومن عصى الرسول فقد عصى الله.

تحية اليهود النبيّ عليه الصلاة والسلام:

ثم يقول تعالى:

(وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ)

كان اليهود إذا أرادوا أن يحيّوا النبي عليه الصلاة و السلام يقولون: السّام عليكم، والسّام هو الموت، فكان عليه الصلاة والسلام يقول:

((وعليكم))

الله تعالى يمهل ولا يهمل:

قال تعالى:

(وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ)

أي: يقولون لو كان هذا رسول الله كما يدعي لعذبنا الله بما نقول، فنحن حينما نقول السّام عليك يا محمد نستهزئ به وندعو عليه بالموت، فلو أن هذا نبي حق لعذبنا الله بما نقول و قد غاب عنهم أن الله يمهل ولا يهمل، وهناك الكثير من الأشخاص الذين ينطقون بكلمة الكفر فيقول أحدهم: أين الله ؟ وقد غاب عنه أنه في دار عمل لا في دار جزاء، وأن الله سبحانه وتعالى قد يعاقب فوراً وقد لا يعاقب وذلك لحكمة يريدها، يقول الله عز وجل:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(11))

(سورة الأنعام)

وفي آية أخرى يقول:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ(69))

(سورة النمل)

فـ (الفاء) لها معنى، و (ثم) لها معنى، (الفاء): تعني أن تأتي عاقبة المكذبين عقب تكذيبهم،وهناك آلاف الحوادث من هذا القبيل، كإنسان يحلف يميناً غموساً كاذبة فيصاب بالشلل لتوه، وقد يكون هناك إنسان يحلف يميناً غموساً كاذبة ثم يحيا عشرين عاماً من دون مصيبة، وذلك لحكمة أرادها الله، فالله عز وجل

عليم بكل شيء، وأفعاله كلها لحكمة، ولكننا لا نعلم الحكمة، فقد يأتي العقاب سريعاً وقد يتأخر، لكن العقاب إذا تأخر فلا ذلك يعني أن الله غافل، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

لماذا يحسب الإنسان الله غافلاً ؟ لأنه لا يرى العقاب السريع، والله أحياناً قد يؤخر العقاب، وإذا أخره كان ذلك لحكمة بالغة، و ليس معنى ذلك أنه لم يقع، فلا بد له من أن يقع، ثم يقول الله عز وجل:

(لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

يعني ذلك أن العقاب الحقيقي يكون يوم القيامة في النار، قال تعالى:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران 185)

ثم يقول:

(حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

و إذا عاقب الله عز وجل الإنسان في الدنيا كان ذلك أفضل بمليون مرة من أن يؤخر عقابه إلى الآخر، فهو إذا عاقبه في الدنيا كان معنى ذلك أنه أعطاه فرصة للإصلاح والتغيير، وإذا أحب الله عبده عجّل له بالعقوبة، فإذا جاءك العقاب بعد الذنب فاعلم بأن هذه علامة طيبة، فقد أعطاك الله فرصة لتتوب، أما إذا ركب الإنسان رأسه واقترف المعاصي والآثام ثم لم يأته العقاب فمعنى ذلك أن عقابه أُخِّر ليوم القيامة، وهذا شيء خطير جداً.

التناجي بالبر والتقوى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ)

ليس هناك من إنسان ليس له أصدقاء و إخوان وأصحاب، فإذا أراد أن يتناجى معهم في سهرة أو حفلة أو نزهة أو سفر، فليتحدث عن أعمال البر، كإصلاح ذات البين،أو الدعوة إلى الله، أو الذكر، أو خدمة الشباب المؤمن، وهذا حديث يفتخر به كل إنسان، يقول تعالى: أيها المؤمنون، إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول كما فعل المنافقون وتناجوا بالبر والتقوى، والحقيقة أن هاتين الكلمتين جامعتان، فالبر يشمل صلاح الدنيا، فهناك آلاف الهموم التي تشغل المسلمين اليوم، فإذا ناجيت أخاك فناجه في أمر من أمور المسلمين، أو ناجه في أمر من أعمال البر، كمشكلة توفير مساكن للشباب وتزويج الشباب مثلاً، أو مشكلة صيانة الأعراض، أو مشاكل المرأة المسلمة، أو مشكلة نشر الثقافة الإسلامية، أو مشكلة دعوة الناس إلى الله، أو مشكلة أن يكون كتاب الله بين المسلمين هادياً ومرشداً، فإذا ناجيت أخوك فناجه في أعمال البر التي تعود على المسلمين بالخير.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ)

كما فعل اليهود والمنافقون.

(وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

فلو أن هذا اللقاء مسجل خفية عنك مثلاً، فلا ينبغي عليك _إذا كنت مؤمناً_ أن تتكلم كلمة تستحيي منها، لأن المؤمن الصادق واضح كالشمس، فإذا تكلم في بيته أو في خلوته مع أصدقائه وجيرانه فهو لا يتكلم إلا في خير المسلمين، فهو يعنيه ما يعني المسلمين، ويؤلمه ما يؤلمهم، و يفرحه ما يفرح المؤمنين، فكلامه لا يمكن أن يكون مأخذاً عليه، لأنه يعمل لله ويعمل تحت ضوء الشمس، على بيضاء نقية ليلها كنهارها.

فيا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فتناجوا بالبر والتقوى وبطاعة الله، كأن تتناجوا بكيفية الدعوة إلى الله، أو كيفية إقناع الناس بأحقية هذا الدين، أو طرق تعليم كتاب الله، وأساليب جذب الناس إلى بيوت الله و حملهم على الاستقامة، فمناجاة المؤمنين تكون إما بالبر وهو صلاح أمر المسلمين، أو بالتقوى وهي صلاح دينهم، وقد جاء في الدعاء الشريف:

((اللهم اصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا))

فإذا اكتفى المسلمون في بلادهم ذاتياً، فأكلوا ما يزرعون، و لبسوا ما ينسجون واستعملوا الآلات التي يصنعون، فما كانوا عالة على أحد، فهذه نعمة كبيرة، كذلك إذا أُمِّنت المياه للبيوت جميعها، وعبّدت الطرقات، وأشيدت المستشفيات والجامعات، وحوفِظ على الانضباط الأخلاقي كان كل هذا من البرّ، فالمجتمع المسلم يحتاج إلى طبابة جيدة وإلى تجارة رابحة وإلى تصنيع مُتْقَن، فهناك أعمال كثيرة تعود بالخير على المسلمين، و تمنعهم من أن يكونوا تحت رحمة أمم أخرى، لقد ذكرت لكم مرةً أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يزور بلدة إسلامية من رعاياه، فلفت نظره أن كل الفعاليات الاقتصادية في يد غير المسلمين فآلمه ذلك، فلما سألهم اعتذروا، فقال رضي الله عنه:**كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم؟؟** فقد أدرك هذا الخليفة الراشد أن الإنسان إما منتج أو مستهلك، فالمنتج قوي ومتحكم، أما المستهلك فهو ضعيف، و نحن مثلاً قد نبيع الصوف فيرجع إلينا قماشاً مصنوعاً بألف ضعف، والإحصاء في ذلك بسيط، فسعر الرطل من صوفنا سبع عشرة ليرة، فيعود هذا الصوف مصنعاً منسوجاً إلينا بألف و سبعمائة ليرة، فلو أننا صنعنا إنتاجنا من القطن بأيدينا، و استثمرنا بترولنا بأيدنا لكان أولى بنا.

فلذلك كان هذا البرّ صلاحاً للمسلمين، فالمسلم يحتاج إلى مدرسة وطبيب وطريق ومستشفى و بيت يسكنه، فكل مشروع من أجل المسلمين ومن أجل حاجياتهم ومن أجل مستقبل أولادهم هو عمل طيب.

(وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

فالضمان صحي مثلاً، يرعى في صندوق العمليات التي تكلف مئات الألوف للناس الفقراء الذين يحتاجون لعمليات من هذا النوع، فهذا عمل طيب، كذلك هو عمل الجمعيات الخيرية التي تلبي حاجات الفقراء والمساكين، كجمعية دار الأيتام، فإذا كان هناك إنسان فقد والديه فإنه يجد في المجتمع داراً تؤويه، وتعطف عليه وتطعمه أطيب الطعام و تلبسه أجمل الكساء، و هذا مشروع شيء جيد جداً.

وهناك من عندنا أعمال البرّ ما لا يُعد ولا يُحصى، فإذا ناجيت أخوك فناجه بالبرّ، وحدثه عن طموحاتك و ما تنوي أن تفعل في خدمة المسلمين فهذا هو البرّ.

والتقوى تكون في الدعوة إلى الله وتطبيق شريعة الله والأخذ بيد الناس إلى الله.

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

أي إن النهاية إلى الله.

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

كما قلت في درس سابق إن الإنسان حينما يوضع في قبره يقول له الله عز وجل:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

فمهما كانت مظاهر الموت فخمة فلا بدّ من وقفة مع الله عز وجل، فهذه الآية تقول: أطيعوا الله الذي إليه مآلكم ومصيركم.

(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ)

و هذا هو الكلام الخسيس و المؤامرات والدسائس والغيبة والنميمة والإفك والبهتان والسخرية والعداء الخفي.

(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ)

فهذا من وسوسته ومن فعله، وهذه النجوى يفرح بها الشيطان لأنها توقع بين المؤمنين، وإن هدف الشيطان الأول هو أن يوقع العداوة والبغضاء بين المسلمين، فهو يحرش بينهم، و يستفز بعضهم على بعض، فإذا كان بهم بقية جاهلية استجابوا لاستفزازه ووقعت بينهم العداوة والبغضاء، لذلك ورد في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إياكم وفساد ذات البين، فإن فساد ذات البين الحالقة، لا أقول حالقة الشعر وإنما حالقة الدين))

فالخلافات العالقة بين إنسانين من شأنها أن تفسد دينهما، **"يا ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك "**، فمن الممكن أ يحدث خطأ في أساس البيت فيهدم البيت عندئذ ويستغني عنه صاحبه، كما يمكن أن يحدث في العمل فيؤسس الإنسان عملاً جديداً، أما الخطأ الذي يصيب الدين فهو أمر خطير، فـ

((إياكم وفساد ذات البين، فإن فساد ذات البين الحالقة، لا أقول حالقة الشعر وإنما حالقة الدين))

وإن الشيطان حينما يئس أن يُعبد في جزيرة العرب رضي بالتحريش بين المؤمنين، لذلك كان كل خلاف بين المسلمين أساسه من الشيطان، فإذا وقع بينهم العداوة والبغضاء فهذا من عمل الشيطان.

للآية معنيان:

(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا)

هذه الآية لها معنيان.

1- لو فرضنا أن مؤمناً _لا سمح الله وقدر_ زلت قدمه وانزلق لسانه في مجلس وتكلم بكلمة لا ينبغي له أن يقولها، فإن هذه النجوى التي انزلق بها المؤمن تحزنه، لأن الإنسان الذي يتكلم بما يسخط الله محجوب عن الله.

2- أن المنافقين إذا تكلموا في مجالسهم الخاصة كادوا للمؤمنين، وإذا بلغ المؤمنين هذا الكلام حزنوا، فإذا تأمر إنسان عليك مثلاً فطعن بك أو طعن بعلمك وكال لك الصاع صاعين، فهذا فعل الشيطان، ولكن الله طمأننا فقال:

(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

إنهم مهما تكلموا و تآمروا، فإن فعلهم هذا ليس بضار المؤمنين شيئاً إلا بإذن الله.

التوكل على الله من صفات المؤمن:

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

أي إذا كنت مؤمناً كان فاستقم على أمر الله وتوكل عليه، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31)نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ(32))

(سورة فصلت)

الله ولي المؤمنين،يدافع عنهم و ينصرهم ويؤيدهم و يحفظهم و يكرمهم ويعطيهم، ولا يستجيب لمن من يعاديهم، فهذه بشارة من الله:

(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

فإذا كنت مؤمناً حقاً فتوكل على الله، وإذا توكلت على الله فأنت أقوى الناس، وإن قنعت بما أعطاك الله فأنت أغنى الناس، وإن أطعت الله فأنت أكرم الناس، و من توكل على الله فهو أقوى الناس، لأن أقوى قوة معك، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك من معك ؟ ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

نبدأ بهذه الآية في الدرس القادم إن شاء الله، لنشير إلى أدب المجلس فمجلس العلم أساسي في حياة المسلم، ولهذا المجلس آداب نوه بها القرآن الكريم تارة، ونوه بها النبي عليه الصلاة والسلام في مواطن كثيرة، والإنسان إذا حضر مجلس علم عليه أن يعرف آداب هذا المجلس، فالإنسان أحياناً قد يسيء وهو لا يشعر، فكم من مخالفات تُرتَكب فـ (تشوّش) على الجالسين درسهم، وهذا الذي (يشوّش)لا يدري ماذا يفعل، فحبذا لو تعلمنا جميعنا آداب مجالس العلم، وكيفية الحضور والإنصات، وللمجالس آداب كثيرة. وسأشير إلى هذه الآية بشكل موجز.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ)

ففي أيام زحام قد يأتي إنسان فلا يجد مكاناً فيستحيي، فهناك رجل جاء إلى مجلس النبي عليه الصلاة والسلام فآوى إلى الله فأواه الله، وهناك رجل آخر ما وجد مكاناً فأعرض، فأعرض الله عنه، فإذا جاء أخ مسلم فلم يجد مكاناً، فأعطاه أحد الأخوة مكاناً لكان هذا أمراً جيداً، وهو من صفات المؤمنين، وقد يكون هناك إنسان جالس في مكان مريح لوحده، بينما يكون أخوه غير مرتاح، وقد قال تعالى:

(إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ)

والجزاء من نفس العمل، يعني إذا فسحت لأخيك فسح الله لك من رحمته، و إذا أعنت أخاك أعانك الله، و إذا نفست غن أخيك كربة دنيوية نفس الله عنك كربة من كرب يوم القيامة، فمن أساليب ربنا عز وجل أنه يجازي على الإحسان إحساناً مشابهاً له.

(وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

والدرجات عند الله هي درجات العلم والعمل وهذه الآية من أوضح الآيات.

(وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المجادِلة 058 - الدرس (3-4): تفسير الآيات11-13

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-05-31

بسم الله الرحمن الرحيم

آداب المجلس في القرآن والسنة

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الثالث من سورة المجادلة ومع الآية الحادية عشرة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

الله سبحانه وتعالى يخاطب عامة الناس بأصول الدين، و يخاطب المؤمنين بفروع الدين، وهذه الآية تتحدث عن أدب المجلس، فالمؤمن لا بدّ له من أن يحضر خطبة جمعة أو مجلس علم، ولهذا المجلس آداب، وتعد هذه الآية مع الأحاديث الشريفة الصحيحة بمجملها من آداب مجالس العلم التي أقرها القرآن الكريم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا)

حرص أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على مجالسه:

لقد كان أصحاب النبي رضوان الله عليهم شديدي التعلق به، كما أنهم كانوا حريصين على مجالسه أشدّ الحرص، فكانوا يجلسون في مقدمة الصفوف حول النبي صلى الله عليه وسلم طلباً للقرب من الله عز وجل، لكن هذا الحرص الشديد من أصحاب النبي على أن يكونوا مع النبي في الصفوف الأولى نشأت منه مشكلة الازدحام.

سبب نزول الآية:

يروي بعض المفسرين أن سبب نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً بين أصحابه، فجاء قوم من أهل بدر من الأنصار والمهاجرين، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف للناس مكانتهم وينزلهم منازلهم، فهؤلاء الأصحاب الذين سبقوا بقية المؤمنين كانوا قد عاونوا النبي صلى الله عليه وسلم وخاضوا غمار الحرب في موقعة بدر مع النبي عليه الصلاة والسلام، لذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام حريصاً على مكانتهم، فجاء هؤلاء وسلموا ولم يتزحزح أحد لهم، ولم يكن هذا الفعل انتقاصاً لأصحاب رسول الله، ولكن الصحابة كانوا يحرصون حرصاً شديداً على مكانهم إلى جنب النبي في الصف الأول، فسلّم هؤلاء فلم يستجب أحد لهم، فتألم النبي عليه السلام، وعُرف ذلك من وجهه فنزلت هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا)

آداب المجالس:

قال العلماء: **إن هذه الآية متعلقة بمجالس العلم، كما أنها متعلقة بمقاعد القتال أيضاً،** فقد كان بذل النفس عند أصحاب النبي رضوان الله عليهم من أحبّ الأشياء إليهم، وقد كانوا يتزاحمون على الصف الأول من القتال، ولا يسمحون لأحد أن يزاحمهم هذا المكان، و سبب ذلك إنما هو تنافس الصحابة على القرب من الخير الذي جعله رسول الله هدفاً لهم، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة إلى بعض هذه الآداب، فقال عليه الصلاة والسلام:

((من سبق إلى ما لم يُسبق إليه فهو أحق به))

وهذا الحديث يمثل نظام مجلس العلم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أن هناك توجيهاً نبوياً في حديث آخر يقول: **" لَا يُقِيمُ الرّجُلُ الرّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمّ يَجْلِسُ فِيهِ"**، فلا يجوز للمؤمن أن يومئ إلى إنسان ليقوم من مجلسه ويجلس فيه، لأن المؤمنين عند الله سواسية، و مقامك ليس في مكانك بل في مكانتك، وقد نهى النبي في أحاديث كثيرة جداً بلغت درجة التواتر إلى عدم جواز قيام الرجل للرجل من مجلسه ليجلس فيه، فلا ينبغي للقادم الجديد أن يقيم أحد من مجلسه ليجلس فيه، لكن هذا الشأن مختلف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو أن النبي عليه الصلاة والسلام طلب من أحد أصحابه _لمصلحة راجحة وحكمة بالغة_ أن يقوم من مجلسه، لوجب على هذا الصحابي أن يبادر إلى طاعة رسول الله.

و إذا قام الإنسان طواعية من نفسه كان ذلك جائزاً، فقد كان سيدنا علي كرم الله وجهه يجلس إلى جنب النبي عليه الصلاة والسلام، فيدخل سيدنا الصديق وهو صاحب رسول الله و سيد أصحابه، فما كان من سيدنا علي كرم الله وجهه إلا أن يقوم من مجلسه إكراماً لسيدنا الصديق ثم يجلسه مكانه، فإذا بادرت بالقيام لأخ كريم كبير في السن أو لإنسان يتفوق عليك بالعلم تكريماً له لما يحمل من علم، أو لحافظ كتاب الله، أو لمن له فضل عليك، كان هذا من أدبك وعلمك و فقهك و كمالك، أما أن تقيم أحداً من مكانه لتجلس فيه، فهذا مما نهى عنه النبي أشد النهي، فهناك فرق كبير بين أن يقوم أحدهم لك إكراماً لعلمك أو مكانتك أو سنك، وبين أن تقيم أحداً لتجلس مكانه، فهذا مما نهى عنه النبي أشد النهي. أيها الأخوة الكرام... لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا علياً كرم الله وجهه يقوم طواعية لسيدنا الصديق تأثر أشد التأثر و قال: " لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل "، فإذا قمت من مجلسك لإنسان كبير في السن، أو إنسان يحمل كتاب الله عز وجل، فهذا العمل من مقتضيات أدبك مع الله و معرفتك بسنة رسول الله، أما أن تقيم أحداً لتجلس مكانه، فهذا لا يجوز أبداً لأنه

((من سبق إلى مكان فهو أحق به))

كما قال عليه الصلاة والسلام، لكنك لو قمت لإنسان من مكان، ثم خرجت من المجلس إكراماً له لكان فعلك هذا منهياً عنه، لأنه لا إيثار في الخير، فلك أن تقوم من مكان إلى مكان أقل منه، أما أن تلغي مجلس العلم من أجل أن تكرم أخاً فهذا ليس وارداً إطلاقاً، لأن الخير كله في الإيثار، ولا إيثار في الخير، فلا ينبغي لك أن تؤثر أحداً كائناً من كان على نصيبك من الله.

إن للنبي عليه الصلاة والسلام حديثين: يقول في الأول لأصحابه الأنصار:

((قوموا لسيدكم سعد))

وفي حديث آخر يقول:

((من أحب أن يتمثل الناس له قياماً فليتبوأ مقعده من النار))

فإن من أراد السيادة والاستعلاء وإخضاع الناس وقيامهم له تعظيماً لذاته، فليتبوأ مقعده من النار، أما إذا قام الأصحاب لسيدهم فهذا جائز. قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا)

فقد أمرك الله عز وجل أن تفسح للناس في المجلس لا أن تقوم له، من هنا جاء قولهم: تزاحموا تراحموا، لأن التفسّح غير القيام.

(إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ)

أي وسع فرجة لأخيك ليجلس فيها، و هذا هو معنى تفسحوا.

معاني (يفسح الله لكم):

(يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ)

وإن من بلاغة القرآن أن يكون الجزاء من جنس العمل، قال بعض العلماء في تفسير هذه الآية: يفسح الله لكم في قبوركم ويصبح القبر مدّ البصر، وقال بعضهم: يفسح الله لكم في مكانتكم يوم القيامة، وقال بعضهم: يفسح لكم في قلوبكم فيتجلى الله على هذا القلب ؛ فإذا أنت أفسحت لأخيك كافأك الله عز وجل بما يتجلى به على قلبك من طمأنينة وسكينة، و هذا أعظم عطاء إلهي، ولكنه لا يعرفه إلا من ذاقه، فهناك فرق كبير بين أن يكون قلبك ممتلئاً بالسكينة التي أنزلها الله عليه، وبين أن يكون منقلباً كئيباً، وإن العالم الآن يعاني من كآبة ما بعدها كآبة، فحين آثر الناس أنفسهم ومصالحهم وذواتهم على إرضاء الله عز وجل ابتلاهم الله بالكآبة، أما إذا آثرت أخاك فسح الله لك قلبك وملأه نوراً وسكينةً وتجلياً.

1- المعنى الأول: أن الله يفسح لكم في قبوركم حيث يغدو القبر روضة من رياض الجنة.

2- المعنى الثاني: يفسح الله لكم في قلوبكم فتغدو مهبطاً لنور الله وتجلياته وسكينته، وإن في القلب شيئاً ثميناً جداً لا يعرفه إلا المؤمن، فقد تملك المال الوفير، والبيت الجميل والمركبة الفارهة، لكن الانقباض يعصر قلبك، وهذا ما قال عنه الله عز وجل:

(و مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

(سورة طه 124)

وقد يقول قائل: فما بال الملوك والأغنياء؟ أية معيشة ضنك يعيشونها ؟ إن المال كله بأيديهم، فلهم أن يأكلوا ما يشاؤون، وأن يسكنوا في أي مكان يشاؤون، وقد فسر العلماء المعيشة الضنك التي يبتلي الله بها الأغنياء والملوك بضيق القلب، فالمعرضون عن الله لهم في قلوبهم من الضيق ما لو وزع على أهل بلدة لكفاهم، هذا معنى قول الله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى(126))

3- المعنى الثالث: أن الله سبحانه وتعالى يوسع عليكم في الدنيا والآخرة.

فليس من المقبول إذن أن تزاحم وتدفع بيدك وتكون فظاً غليظ القلب، وذلك غير جائز لا في مجلس العلم ولا في غيره، كالطواف في الحج أو العمرة مثلاً،لأنك تكون بهذا قد تخليت عن هوية المؤمن، فالمؤمن لطيف يحب الآخرين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا)

فإذا كلفكم النبي صلى الله عليه وسلم بعمل كالجهاد أو التعاون مثلاً فقوموا إلى هذا العمل سريعاً، و يجب عليكم أن تقوموا أيضاً إذا هو أنهى المجلس.

(وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا)

أي: اذهبوا أو ارتفعوا، و الشيء النشاز هو العالي من الأرض، يقول الله عز وجل:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

أيها الأخوة الكرام... إن الآية في مطلعها تبين أدب المجلس وأدب الانصراف، وقد كان كل صحابي يحرص أن يكون آخر رجل يبقى مع رسول الله، فكان يأتي الأمر بالانصراف فيبقى هو ليختلي برسول الله، وذلك ليحظى بما يعتقد أنه مغنم كبير، لكن هذا كان يؤذي النبي فيستحيي من أصحابه، فوقت النبي صلى الله عليه وسلم لكل المؤمنين و ليس لواحد فقط، والله سبحانه وتعالى يعلمنا في هذه الآية أدب الجلوس في المجلس والانصراف منه، ولكنه يبين لنا في مقطعها الأخير حقيقة خطيرة جداً: وهي أن مكانة الإنسان عند الله لا تأتي من مكانه في المجلس، وإنما تأتي من استقامته وورعه و علمه و عمله.

معاني (يرفع):

يقول الله سبحانه وتعالى:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

1- يرفع الله الذين آمنوا عن الذين لم يؤمنوا درجات، فشتان بين المؤمن وغير المؤمن.

2- والمعنى الثاني يرفع الله الذين أوتوا العلم عن الذين لم يؤتوا العلم درجات.

3- وهناك معنى آخر يقول: يرفع الله الذين آمنوا وأوتُوا العلم عن الذين آمنوا ولم يُؤتَوا العلم.

فضل العالم على العابد:

قال عليه الصلاة والسلام:

((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ))

(سنن الترمذي 2609)

وقال:

((فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكواكب))

(سنن أبي داود 3157)

فالمسافة بين العابد وبين العالم كبيرة جداً، فهي كالمسافة بين النبي صلى الله عليه وسلم - وهو سيد الخلق وحبيب الحق - وبين آخر مؤمن في الأرض، إنها مسافة بعيدة !! وذلك لأن العالم ينفع الأمة، أما العابد فلا يستطيع أن ينفع إلا نفسه، فالعالم معه سلاح خطير وهو العلم، بينما لا يملك العابد هذا السلاح، فأدنى شبهة تزحزحه، و أدنى ضغط يخرجه عن الاستقامة، و أدنى إغراء يحول بينه وبين طاعة الله عز وجل، ومقاومة العابد مقاومة هشة سريع الفتنة، فامرأة جميلة أو صفقة رابحة مثلاً تغير مجرى حياته وتقلبه رأساً على عقب، لقد رأى النبي عليه الصلاة والسلام رجلاً يصلي في أوقات العمل، ولم يكن الوقت وقت صلاة، فقال له:

((من يطعمك ؟))

قال: أخي، قال:

((أخوك أعبد منك))

وقد أثنى الصحابة مرة على رجل عابد فقال عليه الصلاة والسلام:

((من يعيله ؟))

قالوا: كلنا نعيله، فقال:

((كلكم خير منه))

ولكن نجد أن الأمر يختلف مع طالب العلم، فحينما شكا شريكٌ شريكَه طالبَ العلم إلى رسول الله قال عليه الصلاة والسلام:

((لعلك ترزق به))

لأن طالب العلم يتعلم لغيره، بينما يعبد العابد لنفسه، و طالب العلم معه سلاح خطير وهو العلم، أما العابد فلا يملك السلاح، فيدخل عليه الشيطان من ألف باب وباب، فهو يُفْتَن لأي إغراء و يَفسد لأي ضغط، ويُصرف عن الطريق لأي شبهة تعترضه، فهناك فرق كبير إذا بين العابد والعالم.

وقال بعض المفسرين: في هذه الآية فيها توجيه لطيف، لأنها جاءت تتمة لأدب المجلس وهذا التوجيه يقول: أيها المؤمن إذا رأيت من يفوقك في العلم فأكرمته كان هذا من أدبك مع الله، و من أكرم أخاه فكأنما أكرم الله، فإذا أكرمت أولي العلم و الفضل و الإيمان كنت بهذا من أهل الفضل لأنك عرفت أهل الفضل.

قيمة الإنسان بمكانته لا بمكانه:

و أريد هنا أن ألفت النظر إلى مثل يوضح حقيقة:

إذا كان هناك حاجب عند أستاذ من أساتذة الجامعة، وكان لهذا الأستاذ مكتب وكرسي، فهذا الحاجب يستطيع في غيبة الأستاذ أن يجلس على كرسيه وراء المكتب، فجلوس هذا الحاجب على كرسي سيده وراء المكتب لا يرفع قدره في العلم درجة واحدة، أما لو تلقى هذا الحاجب العلم، فأخذ شهادة إعدادية، ثم ارتقى فنال الشهادة الثانوية، ثم ارتقى أكثر فدخل الجامعة، لرفعه علمه هذا، فالذي يرفع هذا الحاجب ليس أن يجلس مكان أستاذه وراء المكتب، فالإنسان قيمته ليست بمكانه بل بمكانته، وهناك فرق كبير بين المكان والمكانة، فبإمكانك مثلاً أن تذهب إلى العمرة وأن تصلي في المكان الذي صلى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن تقبّل الحجر الذي قبّله النبي عليه الصلاة والسلام، لكن.. هل هذا يرفع من مقامك عند الله ؟ لا، بل إن الذي يرفع مكانك عند الله هو أن تتبع رسول الله وتطبق سنته وتقتفي أثره، فحينما قال ربنا سبحانه وتعالى: تفسّحوا يفسح الله لكم، أراد من طرْف خفي أن يذكر أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام أن مكانتهم عند الله لا علاقة لها بمكانهم عند رسول الله، فهل تصدقون أن رئيس المنافقين في عهد النبي كان يجلس إلى جانب النبي عليه الصلاة والسلام، فلما مات أعطاه النبي قميصه ليُكَفّن به، وقال:

((ما يغني عنه من الله شيئاً الآن استقر في جهنم حجر كان يهوي به سبعين خريفا))

فالمنافق إذاً يمكنه أن يجلس في مكان قريب من رسول الله، قال تعالى:

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا)

(سورة التوبة 81)

فقيمتك ليس بمكانتك بل هي في إيمانك وعملك، لذلك قال الله عز وجل:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

فهو عليم بأعمالكم خبير بها، والخبرة أبلغ من العلم، خبير بأعمالكم ؛ أي: يعلم خلفية أعمالكم، من نوايا ومقاصد، وملابسات الحياة، وحجم العمل والتضحية.

فمكانتك إذاً متعلقة بإيمانك وعلمك وعملك، و هذه الأشياء الثلاثة تحدد مكانتك عند الله، فليس هناك مانع من أن تكون في الصفوف الأخيرة، مع أن السبْق إلى الصفوف الأولى مندوب إليه في الإسلام، أما إذا تخلفت عن الصف الأول لسبب قاهر، فليس معنى ذلك أنك تراجعت، لأن العبرة في أن تكون قريباً من الله عز وجل.

أيها الأخوة الكرام... إن سيدنا عمر بن الخطاب قدّم مرة سيدنا ابن عباس رضي الله عنهم، وكان فتىً صغيراً، فتضايق بعض أصحاب النبي من هذا التصرف وظهر ذلك في وجوههم، فسأله أمامهم عن معنى الآية:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1)وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا(2)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(3))

(سورة النصر)

وكان قد سأل بعض أصحاب رسول الله فأجابوه إجابة عادية، فقال ابن عباس رضي الله عنه: هذه السورة فيها نعي النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يعني أن إدراكه لكتاب الله كان عميقاً جداً، لذلك كان عمر بن الخطاب يقدمه في المجلس على من هو أكبر منه، وقد ورد في التاريخ أيضاً أن سيدنا عمر ولّى إنساناً من الموالي على بعض المناطق، فلما تضجر بعض الناس من ولايته قال عمر بن الخطاب القول الشهير: **(إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين).**

و تروي الكتب أن أبا سفيان وقف مرة بباب عمر بن الخطاب ساعات طويلة فلم يؤذن له، وقد كان بلال وصهيب يدخلان عليه بلا استئذان، فلما دخل عاتب عمرَ بن الخطاب فقال: شيخ قريش (سيد قريش) يقف ببابك ساعات طويلة دون أن تأذن له، وصهيب وبلال يدخلان بلا استئذان ؟ فقال عمر:**هل أنت مثلهما ؟؟**

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

فقيمة الإنسان في صدق إسلامه.. وكثرة تضحياته.. وعلو إيمانه.. وأعماله الطيبة التي قدمها في سبيل مرضاة الله عز وجل.

أيها الأخوة الكرام... هذه الآية أصل في أدب المجلس.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

آداب المجلس في السنة المطهرة:

ننتقل الآن إلى بعض الأحاديث الشريفة الصحيحة المتعلقة بهذه الآية:

عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يُقام الرجل من مجلسه وأن يجلس فيه آخر ولكن تفسحوا وتوسعوا.

وجاء في حديث آخر:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا قَامَ الرَّجُلُ مِنْ مَجْلِسٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ))

(سنن أبي داود 4212)

و هذا أدب ثانٍ من أصول السنة في آداب المجلس.

ومنه أيضاً ما رواه عبد الله ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((لا يحل للرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما))

و يروي كتّاب السيرة أن نفراً ثلاثة قدموا مجلس النبي عليه الصلاة والسلام، فأقبل اثنان منهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام وذهب واحد، فلما وقفا على مجلس النبي عليه الصلاة والسلام سلما، فأما أحدهما فوجد فرجة في المجلس فجلس فيها وأما الآخر فاستحيى، فجلس خلف الصفوف، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((ألا أخبركم عن النفر الثلاثة، أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيى فاستحيى الله منه، وأما الآخر فأعرضَ فأعرض الله عنه))

وعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أننا إذا فرغنا من مجلس أو لقاء أو سهرة وأردنا القيام، أن ندعوَ بهذا الدعاء:

((سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك))

فيجب أن نُنهي كل مجلس بهذا الدعاء لأنه من تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لنا.

وقد علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أيضاً أن ندعو بالدعاء بهذا الدعاء عند انفضاض مجلس، وهو:

((اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا بها الجنة، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا اللهم بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا))

وهناك الكثير من الآداب النبوية في الجلوس مع الأصحاب في مجالس العلم أو خطب الجمعة أو اللقاءات الودّية، ومنها ما قاله عليه الصلاة والسلام:

((إذا لقي الرجلُ الرجلَ فكلمه لم يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذي ينصرف، وصافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزعها ولم ير متقدماً بركبتيه جليساً له قط))

وما رُئي عليه الصلاة والسلام ماداً رجليه قط أدباً مع الله عز وجل وأدباً مع أصحابه ، – و من آداب المجلس ما قاله عليه الصلاة والسلام:

((إذا جلس أحدكم أو استلقى، لا يضع رجليه إحداهما على الأخرى))

لأن هذا الجلوس فيه كبر اجلس في أدب، ومن أدب المؤمن لا يضع رجلاً على رجل إذا جلس في مكان.

ومن أدب المجلس قوله:

((إذا نعس أحدكم فليتحول عن مجلسه ليقم وليغسل وجهه))

لأن الإنسان إذا اقترب من النوم فإنه يعدي بنومه هذا بعض من في المجلس، وهذا مما لا يليق بمجلس العلم.

الصدقة بين يدي نجوى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ثم يقول تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً)

لقد كثر طلب الصحابة الكرام من أجل لقاء رسول الله، كما أن معظم المنافقين كانوا يتمنون أن يلتقي بهم رسول الله لغاية في نفس يعقوب، و وقت النبي عليه الصلاة والسلام ثمين جداً، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يميز بين المؤمنين والمنافقين، فجعل لهذا اللقاء ثمناً، وهذا الثمن صدقة، وهي ليست لرسول الله إطلاقاً، فهناك من يفهم هذه الآية على غير ما أرادها الله عز وجل، فالمعنى: قدم صدقة بين يدي لقائك مع رسول الله، لأن هذه الصدقة التي أمرنا الله بها تفرز الناس قسمين: المنافق لا يدفع، أما المؤمن فيدفع ويلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً)

أهداف هذا الصدقة:

1- إن الفقراء سينتفعون بهذه الصدقة.

2- هي دليل يظهر صدق المؤمنين ونفاق المنافقين.

3- من خلالها يصبح اللقاء معقولاً، فلا يمكن أن يكون لقاء رسول الله لكل من أراد من المسلمين بلا ثمن مبذول، فبهذه الطريقة قد يخرج اللقاء عن غرضه الأساسي، فإذا استأثر مثلاً أحدهم بهذا اللقاء وأطال الجلوس، ثم طلب الآخر لقاءً ليفوز على الأول، لخرج الموضوع عن هدفه.

وسأضرب على ذلك مثلاً _ولله المثل الأعلى_: إن أي إنسان يقدِّم طلباً يدفع رسم هذا الطلب قبل تقديمه، فلو كانت طلبات الشهادة العامة مثلاً بلا رصيد لتقدم خمسمائة ألف طلب، وكل هؤلاء ليسوا جادّين في تقديم الشهادة، و بعد تقدم الطلبات يجب أن تُعَد لهؤلاء المتقدمين المراكز والمقاعد والأسئلة وما إلى ذلك، ثم تُفاجأ الوزارة أن معظم الذين تقدموا للامتحان لم يأتوا إلى الامتحان، فما الحل ؟ الحل أن تضع الوزارة رسماً مع الطلب، فالجاد في تقديم الامتحان يدفع الرسم، فالرسم له فائدة وفائدته أنه يفرز الجاد عن الهازل، فإذا كانت النجوى بلا ثمن لالتقى أي إنسان مع النبي عليه الصلاة والسلام، وقد يكون هذا الشخص منافقاً أو عدواً للرسول عليه الصلاة والسلام، فجاء هذا التوجيه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً)

فالصدقة تُظهر إيمان المؤمنين و حرصهم على هذا اللقاء، كما أنها ينتفع بها الفقراء بهذا، فالمنافق لن يدفع صدقة للفقراء، فهذا فرز دقيق، والشيء الثالث والأهم هو أن الصدقة ليست للنبي لأن الأنبياء لا يأخذون الصدقة، فقد قرأت قصة لا أدري مدى صحتها أن النبي عليه الصلاة والسلام قطع عنه الوحي أسبوعين أو أكثر فقال: يا عائشة لعلها تمرة أكلتُها من تمر الصدقة خطأً، و كان قد رأى تمرة على السرير فأكلها، فقد كان عليه الصلاة والسلام يتعفف عن مال الصدقة، فهذه الصدقة ليست له، إنما هي للفقراء.

فإذا أردت أن تحضر درس علم مثلاً، فمن المستحب أن تقدم هدية لله، ليجعل جلوسَك في هذا المجلس متألقاً، فما هذه الهدية ؟ الهدية مثلاً أن تكرم أخاً لك، فهناك طلبة العلم وهناك الكثير من المحتاجين، وربما يكون المسجد بحاجة إلى أشياء، فإذا قدمت شيئاً ثم حضرت مجلس علم تكون قد قدمت هدية لله، فلا يوجد شيء بلا ثمن، و إذا أردنا أن نتوسع في مفهوم هذه الآية نقول: إن عملك الصالح الذي تعمله قبل أن تأتي إلى مجلس العلم يجعلك أكثر فائدة واستفادة من هذا المجلس..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً)

فالنجوى هنا هي اللقاء الخاص، أما اللقاء العام فهو شيء آخر.

(ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ)

فالعمل الطيب يعود عليك بالخير،و طهارة النفس.

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قال العلماء: هذا الأمر على مستوى الندب لا الفرض، فأنت بإمكانك أن تخدم إنساناً فقيراً بأن تساعده وتؤمن له بعض الحاجات، أو أن تقدم شيئاً للمسجد، فهذا العمل الطيب ربما أعانك على الطهارة النفسية وجلب لك الخير العميم، و هذا هو فحوى الآية وعلاقتها بواقعنا، قال:

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ)

أأشفقت أن تقدم جزءاً من مالك إلى إخوانك الفقراء المحتاجين المساكين ؟؟ إن حياتك الدنيا كلها يجب أن تكون من أجل العمل الصالح.

(فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصّلَاةَ وَآتُوا الزّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

فالمقصود هو أن لا تأتي إلى مجلس العلم مستمعاً فقط، بل متفاعلاً مع هذا الدين، فهناك إخوان كثيرون يطرحون عليّ هذا السؤال: ما بالنا ننكر قلوبنا ؟ والإجابة: أن الإنسان إذا قل عمله الصالح أنكر قلبه وشعر بسآمة في صلاته، فهو يقرأ القرآن لا يتأثر ولا يخشع قلبه لا يقشعر جلده، يصلي فلا يشعر بالقرب من الله عز وجل، و لا تذوب نفسه في الصلاة، فما الحل إذاً ؟ الحل هو العمل الصالح ولو كان قليلاً، والدليل، قوله تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبّهِ أَحَدًا(110))

(سورة الكهف)

الاستقامة تمهد الطريق إلى الله:

إن الأمر ثمين جداً والحقائق واضحة وناصعة أمام الإنسان، وإنك إذا استقمت على أمر الله زللتّ كل العقبات التي تكون في طريقك إليه، فالمعصية و المخالفة والتقصير حجاب بينك وبين الله، فإذا حجبت عن الله عز وجل فماذا بقي من الدين ؟ يبقى أفكار.. ثقافة.. طقوس مملة.. عادات وتقاليد، وهذا هو سبب انصراف الناس عن العبادات، فالعبادات عندهم حركات جوفاء لا معنى لها، لأنهم لما قصروا ولم يفعلوا الخيرات، وفعلوا بعض المنكرات حجبوا عن الله عز وجل، ولما حجبوا عن الله أصبحت العبادات عندهم جوفاء لا تقدم ولا تؤخر، وسأضع الآن يدي على شيء دقيق في حياة كل مؤمن...

إنك إن استقمت على أمر الله تماماً كان كل شيء تقوم به عملاً صالحاً تبتغي به وجه الله، وكل إنسان عنده من إمكانيات ما يمكن أن يكون عملاً صالحاً، فالطبيب إذا عالج المرضى الفقراء كان هذا عملاً صالحاً، و المحامي إذا دافع عن إنسان مظلوم كان هذا عملاً صالحاً أيضاً، كذلك المدرس إذا درس طالباً ضعيفاً وفقيراً.... فكل شيء تقدمه من علمك أو من خبرتك من مالك من جاهك هو عمل صالح إن ابتغيت به وجه الله:

(إِنّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا(9))

فإذا أضيف هذا العمل إلى طاعتك لله فإنه يجعلك تتألق، فإذا لم يمتلك الإنسان حاسة يشعر من خلالها بانقطاعه عن الله وقربه منه فهذه مشكلة كبيرة جداً، فالإنسان الموصول يعرف أنه موصول بطاعته لله واستقامته على أمره وتأديته لواجباتك الدينية وعمله الصالح الذي يصله بالله عز وجل، فإذا اتصلت بالله وصلت إلى كل شيء وما فاتك شيء من الدنيا.

والشيء الذي أريد أن أقوله هو أن الاستقامة تمهد الطريق، لكن العمل الصالح هو الذي يدفعك على هذا الطريق، فمهما ارتقت ثقافة الإنسان الإسلامية، ومهما كثر حضوره لمجالس العلم، ومهما تزين بزينة الإسلام، فإن لم تكن مستقيماً وله عمل صالح يبتغي به وجه الله فإنه لن يتألق ولن يتصل ولن يسمح الله لقلبه أن يتشبع بالسكينة والتجلي.

فيا أيها الأخوة الكرام... هذه آيات دقيقة أرجو من الله أن تكون نبراساً لنا في طريقنا إلى الله، والإسلام منهج متكامل، يتطرق إلى كل شيء في حياة المؤمن، فشرب الماء و تناول لطعام مثلاً ينبغي أن يكونا وفقاً لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، كذلك الحال مع كل ما يتعلق بحياة الإنسان من بيع وشراء و أداء للحرفة، فهناك مشكلة يعاني منها المسلمون وهي أن المسلم قد يكون ملتزماً من رواد المسجد،لكنك إذا بعته أو اشتريت منه، أو احتككت معه بالدرهم والدينار وجدت بوناً شاسعاً بين تمسكه و تعامله، فهو لا يتقي الله في صنعته، والدين الحقيقي إنما يكون في دكانك و مصنعك ومكتبك، و بيعك وفي شرائك، و خلوتك و جلوتك وفي كل نشاطاتك.

أيها الأخوة... إننا إن لم نستقم على أمر الله كان طريقنا إلى الله غير سالك، و عندئذ يغدو الإيمان ثقافة، ويغدو الإسلام عادات وتقاليد، كما تغدو العبادات طقوساً لا تقدم ولا تؤخر، فالوصول إلى الله شيء ثمين جداً، ولكن الله عز وجل إذا نظر إلى قلبك وألقى فيه السكينة فإن الدنيا كلها لا تعدل شيئاً أمام هذا الشعور، و هذا هو الذي ينبغي أن نحرص عليه، فقد وصل أصحاب النبي -على قلتهم- إلى أقاصي الأرض، وفُتحت أمامهم المشارق والمغارب، و حينما ترك المسلمون دقائق دينهم وتخلوا عن استقامتهم وأعمالهم الطيبة، أصبح الدين عنده انتماءات تاريخية ليس غير، وهذا الانتماء التاريخي سبب لهم مشاكل لا حصر لها.

آداب أخرى من آداب المجلس:

أيها الأخوة... هناك بعض من آداب المجلس أضعه بين أيديكم:

من أدب المجلس: (أنه إذا سئل أحدكم عما يعلم فليقل به)، ونريد هنا أن نوسع الدائرة قليلاً، فلو جلست في مجلس مع إخوانك، فإن من الأدب فيه أنه إذا سئل أحدكم عما يعلم فليقل به، وإذا سئل عما لا يعلم فليقل: الله أعلم، و أنت أحياناً قد تتورط في مجلس فتتكلم عما لا تعلم، وإذا تكلمت فيما لا تعلم وقعت في

إثم كبير، يقال: **(فإن من علم الرجل إذا سئل عما لا يعلم قال لا أعلم والله أعلم)**، وذلك كأن أن تقول على الله بغير علم، فتفسر آية بغير علم مثلاً، وهذا مما يتناقض مع أدب المجلس، فاحفظ أمانة العلم، فإن سئلت عما تعلم فقل، فإن لم تكن تعلم فقل: لا أعلم، فهذا من نَصَف العلم، واقتدِ في ذلك بـ(مالك) إمام دار الهجرة، الذي جاءه وفد من أقاصي المغرب من الأندلس، وكان سفرهم قد استغرق أشهر، و كان معهم ثلاثون سؤالاً، فأجاب عن سبعة عشر سؤالاً، فلما قيل: أين إجابات الأسئلة الباقية ؟ قال: **لا أعلم**، فقالوا: الإمام مالك لا يعلم، فقال: **"قولوا لمن أرسلكم إن الإمام مالك ابن أنس لا يعلم "** و هذا من أدب المجلس.

هناك أدب آخر، فعن أبي عبيدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن بني إسرائيل لما وقع فيهم النقص،كان الرجل فيهم يرى أخاه على الذنب فينهاه، فإذا كان الغد لم يمنعه ما رآه منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ونزل فيهم قرآناً))

فقد يجلس أحياناً بعضنا مع بعض، ويجامل بعضنا الآخر، وقد نرى منكرات كثيرة فنسكت، فنكون بذلك قد استحيينا من أن نجهر بأمر الله، فسكتنا عن منكرات المجلس فقال الله عز وجل:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ(78)كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(79)تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ(80)وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ(81))

(سورة المائدة)

فإذا كنت في مجلس علم أو في لقاء خاص فسُئلت، فإن كنت تعلم فقل ما تعلم، وإن كنت لا تعلم فقل: لا أعلم، وإن رأيت منكراً فأنكره بيدك كأن يكون الفاعل ابنك مثلاً، أو أنكره بلسانك إن كان فاعله صديقك، أو أنكره بقلبك إن كنت لا تستطيع أن تجهر بالإنكار وذلك أضعف الإيمان.

أيها الأخوة... لا بدّ لنا من أن نتناصح، لأن التناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الفريضة السادسة بعد الفرائض الخمسة، والله سبحانه وتعالى جعل التواصي بالحق أحد أركان النجاة فقال:

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(3))

(سورة العصر)

وقال تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ(104))

(سورة آل عمران)

أما إذا تركت أمةُ النبي صلى الله عليه وسلم الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر انتقلت من أمة الاستجابة إلى أمة التبليغ، وأمة التبليغ ليس لها عند الله أي ميزة.

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(80))

(سورة البقرة)

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

(سورة المائدة 18)

وإذا قال المسلمون: نحن أولياء الله فالجواب: فلم يعذبنا الله بذنوبنا ؟ فعندئذ نكون بشراً ممن خلق الله عز وجل ليس لنا ميزة واحدة، أما إذا أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر كانت لنا الميزات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المجادِلة 058 - الدرس (4-4): تفسير الآيات 14-22

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-06-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

صفات النافقين، وضرورة التزام الجماعة المؤمنة

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الرابع والأخير من سورة المجادلة ومع الآية الرابعة عشرة، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

تولّي غير المؤمنين:

الحديث هنا عن المنافقين، وقد ذكرت لكم أن النفاق لا يأمنه إلا منافق ولا يخافه إلا مؤمن، و النفاق يسري بين المؤمنين كالنار في الهشيم، فإذا لم يكن المؤمن يقظاً واعياً حريصاً على سلامة إيمانه فإن النفاق يسري إلى قلبه وهو لا يشعر، لكن هذا النفاق ليس نفاق الكفر، إنما نفاق المعصية، فحينما يخضع المؤمن إلى ضغوط أو مغريات أو شبهات فإنه قد ينحرف في داخله، بينما يكون محافظاً على ظاهره، وهذا النوع من النفاق خطير جداً، إلا أن شفاءه محقق، لذلك يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

هؤلاء المنافقون هم الذين والوا، و الإيمان في حقيقته ولاء لله ورسوله والمؤمنين، وما الكفر والنفاق إلا العداء والبغضاء لهم، فمن أحب الله ورسوله والمؤمنين فهو-ورب الكعبة- مؤمن، ومن أبغض المؤمنين كان بغضه هذا أحد أنواع النفاق، فإذا أردت أن تطمئن على قلبك فانظر إليه، أيحب المؤمنين أم يبغضهم ؟.

هؤلاء المنافقون الذين تحدث الله عنهم تولوا هم اليهود، قال الله عز وجل:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ(7))

(الفاتحة)

فالناس ثلاثة: رجل عرف الله فأطاعه، فهو من الذين أنعم الله عليهم وهداهم طريق الاستقامة وقربهم وتجلى على قلوبهم وأسعدهم في الدنيا والآخرة.

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)

المغضوب عليهم ؛ أي: الذين عرفوا وانحرفوا، وقال بعض المفسرين: هم اليهود، والذين لم يعرفوا ثم انحرفوا هم الضالون، يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

الانتماء إلى جماعة المؤمنين:

أيها الأخوة... أذكر لكم بالمناسبة أن الإيمان إنما هو انتماء المؤمن إلى جماعة المؤمنين، فهو يشعر أنه أحد أفراد المؤمنين، كما يشعر أنه لصيق بهم، فيؤلمه ما يؤلمهم ويسعده ما يسعدهم، و يرضى لهم ما يرضى لنفسه، و يتمنى رفعتهم ورقيهم وفوزهم، فإذا فازوا شعر أن هذا الفوز له، أما الذي يتولى أهل الكفر والعصيان وينتمي وينضم إليهم ويدافع عنهم فهو منهم، فقد ورد في الحديث الشريف:

((أنه من هوي الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً))

فهناك من الناس من يذهب إلى بلاد الغرب، فيعود ويتحدث عن فضائل الغربيين، أما سقطاتهم وانحرافاتهم وانحلال أسرهم وتفلت أخلاقهم وسوء عقيدتهم فيكتمه، فهو إذاً ولي لهم لكن المؤن الصادق يتولى المؤمنين.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

والانتماء الحقيقي أيها الأخوة إنما يكون إلى مجموع المؤمنين، فلا تنتمِ إلى جماعة صغيرة بل إلى مجموع المؤمنين، لتحس بعد ذلك أن أي مؤمن على وجه الأرض قريب منك ولو تباعدت الأجسام واختلفت البلاد، وذلك لأن انتماءك إلى مجموع المؤمنين يجعلك أقرب إليهم.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ)

فهؤلاء المنافقون ليسوا من المؤمنين، فهم مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

ثمرة الدين:

إخوانا الكرام... هناك نقطة هامة جداً أريد أن أشير إليها، وهي أن هذا الدين له ثمرة واحدة هي الاتصال بالله، فهدف التجارة مثلاً هو تحقيق الربح، وإن كل النشاطات التجارية من اختيار المحل وتزيينه وملئه بالآلات... إلخ،إنما هي من أجل أن تحقق الربح، فإن لم تحقق ربحاً كانت هذه التجارة لا معنى لها، كما أن الدين كلّه، بعقيدته و عباداته، كطلب العلم وتعليمه، وغير ذلك، كل ذلك يكون من أجل أن تتصل بالله فتسعد بهذا الاتصال، فإن لم يكن لك اتصال بالله كان كل ما فعلته ليس بشيء، فهؤلاء المنافقون لم يقطفوا ثمار الدين، لأنهم لم يستقيموا على أمر الله، فكان انتماؤهم انتماء شكلياً، كما أنهم ليسوا مع الكفار، إنهم لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فهم لم يأخذوا ميزات المؤمنين، ولا تفلت الكافرين، وإنك قد ترى عندهم انضباطاً، وذلك إرضاءَ للمؤمنين لا إرضاء لله عز وجل، أما باطنهم فهو مع الكافرين، فهم ليسوا مع الكفار أحراراً فيما يتحركون، ولا هم مع المؤمنين يقطفون ثمار الدين، فأنت مثلاً محسوب عند جيرانك وأقربائك من المؤمنين، فإن لم تقطف ثمار الإيمان ضيعت هذه وتلك،

فثمرة الإيمان هي الاتصال بالله عز وجل، وحسن العلاقة به، و الإقبال على الله دوام ذكره، و السعادة بالقرب منه.

إن هذه العلاقة تحتاج إلى وسائل، فالمركبة لا تمشي إلا إذا استُكملت جميع أجزائها، من محرك ووقود و مكبح... إلخ، أما لو كان عندك قطع من سيارة فهي لا تسير، وقد يكون لهذا القطع ثمن، لكنها لا تسير، فأنت لا تستطيع أن تسير إلى الله ولا أن تتصل به لتقطف ثمار الإيمان من القرب والسعادة إلا بطاعتك لله، فإن لم تفعل هذه الطاعة خسرت ثمار الدين وبقي انتماؤك إلى الدين شكلياً، فلا أنت مع أهل الدنيا المتفلتين ولا مع أهل الإيمان، وهذه هي المشكلة، قال:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ)

الولاء للمؤمنين:

إنك قد تعامل إنساناً غضب الله عليه بعلاقة عمل، فهنا لا شيء عليك، أما الحب والانتماء فهذا هو الولاء، فالذي يوالي إنساناً يدافع عنه، و يصوب عمله، و يميل قلبك إليه، فيسترشده ويصغي إلى نصائحه، و يكبره ويعظمه....

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

إن المنافق يعلم أنه منافق كاذب، لذلك تراه دائماً يلجأ الأيمان المغلظة ليستر نفسه،إلى فإذا رأيت إنساناً يكثر حلف الأيمان بسبب وبغير سبب فاعلم أن فيه [خصلة] من النفاق.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(ألم تر) ؛ أي: انظر إلى حال هؤلاء، وما فيهم من وضاعة الشكل، و ازدواج الشخصية والبعد عن الله، واعلم أن الله سيفضحهم، يقول الله عز وجل:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران 179)

وقال:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

فهناك من الناس من يظهر خلاف ما يبطن، لكنه لا يمكن أن يستمر بهذا إلى ما لا نهاية، فلا بدّ من أن يفضحه الله عز وجل، فيكشف حقيقته و يظهر ما يضمر، و هؤلاء الذين يقول الله عنهم:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

كان هؤلاء المنافقون يجلسون إلى اليهود والكفار، وينقلون إليهم كل ما قال النبي للمسلمين من خطط وأخبار، فقد كانوا يخونون الله ورسوله.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

علاقتنا بهذه الآية:

قد يقول قائل: ما علاقتي بهذه الآية ؟ فنقول: إنك إذا واليت إنساناً من أهل الدنيا والمعاصي، وكان هذا الإنسان بعيداً عن الله عز وجل ومقطوعاً عنه، ثم أحببته ونقلت له كل شيء عن المؤمنين، فإنك تكون بذلك تنتمي إليه ولا تنتمي إلى المؤمنين، فتنطبق عليك هذه الآية، لأن هؤلاء المذكورين في الآية هم الذين يوالون أعداء الله، فيدافعون عنهم وينسجمون معهم ويمدحونهم، فقل لي من توالي أقل لك من أنت، والمؤمن يوالي المؤمنين.

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

إن لم يعامل الإنسان الله عز وجل ساء عمله وحبط، فإذا كان لديك عمل فافحص عملك واعرضه على كتاب الله، ثم انظر هل هو وفق المنهج ؟ و هذا هو الشرط أول، وهل ابتغيت به وجه الله ؟ وهذا هو الشرط الثاني، ثم افعل هذا مع مجمل عملك، في بيتك ومكتبك و حرفتك و طريقك و علاقاتك المالية والاجتماعية، وحركتك في الدنيا، فاعرض كل هذا على كتاب الله، فإن كانت موافقاً للمنهج وتبتغي بها وجه الله فهنيئاً لك وهنيئاً لمسعاك، أما إذا كان في العمل معصية أو خلل، أو كانت النوايا ليست طيبة فلا بدّ أن تصحو قبل فوات الأوان، وهناك فسحة للتوبة والإصلاح مادام القلب ينبض.

إن الله عز وجل ما جعل هذا الكلام وحياً يتلى إلى يوم القيامة، وما جعلنا متعبدين بتلاوته إلا ليكون درساً بليغاً لنا، فاسأل نفسك: هل أنت توالي المؤمنين أم توالي أهل المعصية والفجور؟ عمّن تدافع ؟ ومن تتمنى أن يرقى بك ؟ هؤلاء أم هؤلاء، هل يؤلمك ما يؤلم المؤمنين ؟ هل يقلقك ما يقلق المؤمنين ؟ هل يرضيك ما يرضيهم ؟ هل يسعدك ما يسعدهم ؟ فإذا كنت كذلك كان ولاؤك للمؤمنين، أما إذا واليت أهل الدنيا وأهل المعصية والفجور وانضممت إليهم وانتميت إلى فئتهم، وأعنتهم ودافعت عنهم ومحّضْتَهم الحب كان ولاؤك لغير المؤمنين، والولاء قضية مهمة جداً، فقد جاء في الحديث أن العبد يقول يوم القيامة: يا رب لقد فعلت كذا وكذا، فيقول الله تعالى:

((أما جُهدك فقد تعجلت فيه الراحة لقلبك ولكن ماذا فعلت من أجلي يا عبدي ؟؟))

يقول: يا رب ماذا أفعل من أجلك ؟، يقول الله عز وجل:

((هل واليت فيّ ولياً ؟ هل عاديت فيّ عدواً ؟))

أي: هل واليت إنساناً لا تحبه إلا في الله ولم يكن لك عنده مصلحة أبداً، من علاقة مالية أو اجتماعية، أو قرابة... فكنت لا تحبه إلا لله لأنه مؤمن به، وكانت علاقتك به علاقة الإيمان، فإذا أحببت إنساناً لله فأنت مؤمن، أما إذا أحببت مَن لك مصلحة عنده فأنت من أهل الدنيا، لأن هذا الذي يبني علاقاته على أساس مصالحه، فيوالي الجهة التي يأتيه الخير منها ولو كان ذلك على معصية، ويعادي والجهة التي لا تنفعه ولا تضره ولو كان ذلك على طاعة، فهو منافق، لأن هذا أحد أنواع النفاق، فالمنافق حركته مع مصالحه، أما المؤمن الصادق فهو يحب أي مؤمن من دون علاقة مادية أو قرابة، لأنه لا يحبه إلا لله، فإذا كان في حياة أحدنا علاقات خالصة لله، فكان يحب مؤمناً لا يحبه إلا لله، ويبغض الكافر و الفاسق و المنافق و الفاجر لا يبغضهم إلا لله فهذا هو المؤمن ورب الكعبة، فالمؤمن يحب لله و يبغض لله ويعطي لله و يمنع لله و يغضب لله ويرضى لله، ويقيم علاقاته على أساس الإيمان.

فالآية تقول لك: يجب عليك أن توالي المؤمنين و تنتمي إليهم و تحبهم لله و تسترشدهم، كما يجب عليك أن تبغض الفاسق لله..

قال تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف)

فهؤلاء المنافقين الذين والوا اليهود ومحّضوهم النصح، ونقلوا إليهم أخبار النبي وأصحابه هؤلاء:

(أَعَدّ اللّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أيها الأخوة... ما منا واحد إلا يحب السلامة لنفسه، فإذا علمت أن المنافق سيحاسب أشد الحساب في الدنيا والآخرة وجب عليك أن تبتعد عن النفاق، إلا أن الشيء الذي يلفت النظر أن الجزاء بعيد، أما المغانم فهي قريبة وهذا من ابتلاء الله للناس، فالأشياء المحسوسة قريبة، أما الجزاء فهو خبر جاء في كتاب الله أو في حديث رسول الله، فالمؤمن الصادق يصدق خبر الله عز وجل فيرتدع، أما غير الصادق فيتبع ما بين يديه من مكاسب مادية وشهوات، وينسى وعد الله ووعيد، ثم يندم أشد الندم حينما يأتي العقاب.

(إِنّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

فالعمل السيئ سوف يسوء صاحبه.

اليمين الفاجرة سلاح المنافق:

(اتّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنّةً فَصَدّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ)

إن سلاح المنافق هو اليمين الفاجرة، فالمؤمن أقوى من أن يؤكد كلامه بيمين، لأن كلام الإنسان الصادق واضح و حقيقي، فكلما رأيت إنساناً يكثر الحلف فاعلم أن فيه خصلة من النفاق، وقد قال الله عز وجل:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

(سورة المائدة 89)

فإن لم يصدقك الذي يستمع إليك فلا تلق عليه كلاماً أبداً، لأنك إنسان مؤمن، ومن أبرز خصائص المؤمن أنه صادق، فإذا سُئلت فأجب من غير أيمان، لكن المنافق يعلم أنه منافق و أنه يكذب على الناس، فهو يلجأ دائماً إلى حلف اليمين من أجل ألا يفتضح أمره.

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

(جُنَّة) ؛ أي: ستراً أو ردْءاً يستترون به

جزاء المنافقين:

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

إن عذاب الازدواجية عذاب مُهين، فقد يبطن الإنسان شيئاً ويظهر شيئاً، فإذا انكشف هذا الذي أبطنه أهين الإنسان، وليس هناك شعور أشد على نفس البشرية من أن تفتضح، فإذا علم الناس حقيقة الإنسان وهو يحاول أن يستره نفسه كان هذا عذاباً مهيناً بالنسبة له، وإذا كان للإنسان مظهر معين ثم كشفت حقيقته كان هذا الكشف شيئاً مخيفاً، فمن الناس من له أسرار فاحشة ومنحرفة، لكن يملك مظهراً راقياً، فإذا كشفت أسراره وفضحت كان في عذاب مهين.

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

إن للمنافق مظهراً وله مخبراً، و ظاهراً و باطناً، كما أن له مواقف معلنة و مواقف حقيقية، فلو كشف إنسان ازدواجيته انصرف هذا المنافق عن طريق الدين كله، فيكون بذلك قد صدّ الناس عن الدين وهو لا يشعر، فإذا أنت عاملت الناس معاملة راقية، وكنت محسوباً بينهم على أنك مؤمن، لجذبت هذه المعاملة الراقية الناس إلى الدين، فإذا أسأت معاملتهم نفّرتهم من الدين، و كل إنسان عنده ازدواج في شخصيته، وله ظاهر و باطن يصد الناس عن سبيل الله وهو لا يشعر.

لماذا ينافق المنافق ؟؟

ولكن السؤال المُحير: لماذا ينافق المنافق ؟ لماذا يظهر ما لا يبطن ؟ لماذا يكذب ؟ لماذا يوالي أهل المعصية والفجور ؟ لماذا يوالي أهل الدنيا ؟ إنه يفعل ذلك من أجل الدرهم والدينار و المكاسب المالية، فلكل إنسان هدف معيّن في ذهنه، وإن هدف النفاق هو المكاسب المادية والدنيا، فقد نافق المنافقون من أجل الدرهم والدينار، لكن ربنا عز وجل طمأنهم أن أموالهم وأولادهم لن تغني عنهم من الله شيئاً، فهذا

الذي سعَوا في سبيله وضحوا من أجله بدينهم لن يغني عنهم من الله شيئاً، فمن ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى... فعندما يعصي الإنسان ربه ويبيع دينه وعرضه أحياناً من أجل الدنيا لم تغن هذه الدنيا عنه من الله شيئاً، فقد لا ينتفع بها، وقد لا تمنعه من مصيبة تلم به، قال:

(لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

لقد أكثر الله عز وجل من ذكر أوصاف المنافقين كي نحذر الوقوع في طريقهم، وما ذكر الله أوصاف المنافقين إلا لنكون يقظين من أن تزل أقدامنا إلى سلوكهم.

ليسوا على شيء...

قال تعالى:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

إن المنافقين ليسوا على شيء، و المشكلة هي أن المنافق أحياناً قد يظن أنه على شيء رشيد، وأنه يفعل ما يفعل من أجل مصلحته، كي يرضي مطامعه ويرقى عند الناس ويكسب المال الوفير، قال تعالى:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

فسوف يكشف الله لهم حقيقتهم وكذبهم و نفاقهم و دجلهم، وأنهم ليسوا على شيء، فالإنسان لا يكون شيء إلا إذا عرف الله وأطاعه فكان مؤمناً مستقيماً.

(ليس على شيء): إذا كان الإنسان معتنقاً لعقيدة صحيحة يقال: هو على شيء، وإذا كان لفلان عمل طيب يرضي الله نقول: هو على شيء، وإذا كان فلان ينطوي على علم عميق نقول هو على شيء ؛ أي: على شيء حقيقي، أما إذا قال الله عز وجل: ليسوا على شيء فمعنى ذلك أنهم ما حققوا شيئاً وما كسبوا شيئاً و ما نالوا شيئاً وما وصلوا إلى شيء و ما نجحوا في شيء، فالمنافق لم يحقق من الدنيا شيئاً إلا أنه استحق لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

جهل المنافقين:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ)

إنهم من شدة جهلهم بالله يظنون أن الكذب الذي كانوا يكذبونه على المؤمنين ينطوي على الله عز وجل، وهناك من الناس مَن يسلك الحيل الشرعية وهو يظن أن هذه الحيل تنطوي على الله، وهؤلاء أيضاً ليسوا على شيء، فإذا أنت عاملت خالق الكون الذي يعلم السر وأخفى و لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء على أنه يمكن أن ينطلي عليه شيء، فأنت إذاً لا تعرفه، فقد أشار الله إلى جهلهم وإلى غفلتهم بهذه الآية:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ)

إن لك أن تقول كل شيء تريد، لكن أسألك بربك: ألا تعلم هل أنت صادق في قولك أم كاذب ؟؟ فقد تنصح الناس بأي شيء لكنك تعلم: هل هذا نصح لهم أم لا ! فلو كان عند البائع لون كاسد مثلاً، ثم طلب منه شخص أن ينصحه بلون جميل، فأشار عليه باللون الكاسد، ألا يعلم البائع من نفسه أنه يغشّ المشتري ؟؟ قال الله عز وجل:

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

فليس هناك من إنسان إلا هو علم بحقيقة نفسه، و قد بلغ النفاق بهؤلاء مبلغاً أرادوا فيه أن يغشّوا الله عز وجل قال تعالى:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

وقال:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الّذِينَ ضَلّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

فيجب على الإنسان ألا يبرئ نفسه، فكلما بالغ في اتهامها نجح في الخلاص من النفاق، و كلما أكثر من حساب نفسه حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً، فلا تراع نفسك ولا تجاملها ولا تتملقها، بل افحصها فحصاً جيداً.

لقد أعد الله لهؤلاء المنافقين عذاباً مهيناً في الدنيا، ولسوف يسوءهم عملهم ثانية في الآخرة، وذلك لأنهم يصدون عن سبيل الله وهم لا يشعرون، فهم منفرون من الله ورسوله، فلهم عذاب مهين حينما يفضحهم الله عز وجل.

إن هذا المال الذي جمعوه بسب نفاقهم وولائهم لأهل الدنيا لن يغني عنهم شيئاً، كذلك أولادهم الذين ضحوا بدينهم من أجلهم لن يغنوا عنهم شيئاً أيضاً، فقد يمنع الإنسان ابنه من أداء العبادات من أجل مستقبله القريب، وقد يضعه في مجالات تفسده من أجل أن يضمن له مستقبله القريب أيضاً..

فهذا المال الذي جمعوه بنفاقهم ودجلهم، وهؤلاء الأولاد الذين أقحموهم في مجالات الضلالة والشهوات من أجل مستقبلهم القريب، كل هؤلاء لن يغنوا عنهم من الله شيئاً.

(لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

سيُسألون:ما قولكم ؟ والله إنه شيء مخيف، إن أعمالهم سيئة وسوف تسوءهم، فقد صدوا عن سبيل الله، كما أنهم لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً، وهم فوق كل ذلك يحسبون أنهم على شيء وهم ليسوا

على شيء، ويوم القيامة سيحلفون لله كما يحلفون للمؤمنين في الدنيا، وذلك منتهى الجهل، لأن الإنسان حين يظن أن الله سبحانه وتعالى لا يعرف حقيقته فهو لا يعرفه إطلاقاً.

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

إن الكذب شيء خطير، فإذا فشا الكذب في مجتمع فاقرأ عليه السلام، فالصدق أساس الرقي.

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (18) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ)

استحوذ عليهم الشيطان ؛ أي: غلبهم وسيطر عليهم، وهيمن عليهم، وسخرهم لمآربه، فاستخدمهم لإضلال البشر.

(اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ)

لقد أنساهم ذكر الله وطاعته، فإما أنه جعلهم غافلين وإما أنه جعلهم عصاة، وفي كلا الحالتين استحوذ عليهم، فأنساهم ذكر الله، فما ذكروه اعتقاداً و ما ذكروه طاعة.

(أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

من كان له رغبة في قراءة التاريخ فليقرأ، ما مصير المنافقين والكافرين والعصاة الذين كادوا للمؤمنين عبر التاريخ كله ؟ إن مصيرهم في مزبلة التاريخ، إلى الهلاك والدمار و الندم الشديد، أما هؤلاء الذين وقفوا مع الحق ونصروه ووالوا المؤمنين ودعوا إلى الله عز وجل، فماذا كان مصيرهم ؟ لقد كان مصيرهم التألق في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

أقسام الناس:

الناس بين اثنين: إنسان يوالي الشيطان كالكافر والغافل عن الله والمتفلت، فهو شقي في الدنيا والآخرة، وهناك إنسان مؤمن منضبط يعرف الله، فهو موصول محسن سعيد في الدنيا والآخرة، فتقسيمات بني البشر لا تزيد الناس على تقسيمَين:إنسان مؤمن متّقٍ فهو كريم على الله، وآخر خب لئيم فهو هين على الله.

معاني (يحادون):

ثم يقول تعالى في الآية العشرين:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ)

1- المعنى الأول: إن الذي يحادِدُ الله ورسوله هو الذي لا يعبأ بحدوده ولا بأمره ولا بنهيه، فلا يقيم حدوده ولا يلقى لها بالاً ولا يعظمها، بل يخرقها.

2- المعنى الثاني: إن الذين يحادون الله ورسوله هم الذين يعادون الله ورسوله، فكيف يُعادى الله ؟ إن الله يعادى بالطعن في دينه، و السخرية من أوامره، كقول أحدهم: هذا الأمر لا يصلح لهذا الزمان، هذا الأمر شيء مضحك... فهو يتلذذ في انتهاك حرمات الله.

(إِنّ الّذِينَ يُحَادّونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلّينَ)

فإما أنهم لا يعبؤون بحدود الله، أو أنهم يقفون موقف المعادي لله ورسوله.

مصير من يحادّ الله ورسوله:

قال تعالى:

(أُولَئِكَ فِي الْأَذَلّينَ)

كأن الله سبحانه وتعالى هنا يبين أن مصيرهم إلى الذل، وليس هناك من شيء يمكن أن يهز أركان النفس ويردها رداً أليماً كأن يذل الإنسان، والله أيها الأخوة لو قرأتم التاريخ كله لما وجدتم فيه إلا تأكيداً لهذه الحقيقة.

(إِنّ الّذِينَ يُحَادّونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلّينَ)

فقد تجد أحياناً أخين في أسرة واحدة، أحدهما مؤمن مستقيم ورع، والآخر فاجر منحرف، فقد يكون الفاجر في البداية حرّاً طليقاً يفعل ما يريد، وله شعبية بين أهله، فإن كان أهله منحرفين فإنهم يكبرونه ويثنون عليه ويفتخرون به، أما هذا المؤمن المستقيم فيكون بينهم في تعتيم، ولكنك بعد حين ترى أن هذا المنحرف وقع في شر عمله، فإما أن يقع في مرض عضال أو فقر مدقع.. إلخ، أما هذا الشاب المستقيم فيرفعه الله في الدنيا قبل الآخرة.

الغلبة لله ورسوله:

(إِنّ الّذِينَ يُحَادّونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلّينَ (20) كَتَبَ اللّهُ لَأَغْلِبَنّ أَنَا وَرُسُلِي إِنّ اللّهَ قَوِيّ عَزِيزٌ)

أفلا ترضى أن تكون مع القوي العزيز ؟ ألا ترضى أن يكون الله سبحانه وتعالى القوي العزيز ناصراً لك و مدافعاً عنك ؟ لقد كتب الله في اللوح المحفوظ أنه سينصر مَن ينصره، فهذا من كلمات الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً، وقد ذكر الله تعالى كلمة (كتب) من أجل أن يطمئننا إلى أنه شيء ثابت قطعي مكتوب عنده.

(كَتَبَ اللّهُ لَأَغْلِبَنّ أَنَا وَرُسُلِي)

إن الله سبحانه وتعالى قد يحرك الأشخاص ليمتحنهم، فهو أحياناً يحرك الكافر، فيبدو لك أنه أقوى من المؤمن، لكن العاقبة في النهاية الأمور لا تستقر إلا على نصرة المؤمن، فحينما قوي الكفار في عهد النبي وجاؤوا بجيش كبير في معركة الخندق، ثم نقض اليهود العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم،

وأصبح الإسلام على وشك الانهيار، لم تكن القضية عندئذ قضية انتصار أو هزيمة، بل كانت قضية نكون أو لا نكون، حتى قال أحدهم أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟؟ فقال تعالى:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا(11)وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا(12))

(سورة الأحزاب)

لكنه قال أيضاً:

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا(23))

(سورة الأحزاب)

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ)

صدقني أيها الأخ الكريم أنه إذا استوى الكافر والمؤمن، والمستقيم والمنحرف، والمحسن والمسيء، و الذي يخاف الله والذي لا يخافه، والمطيع والعاصي، والعالم وغير العالم إذا استوى هؤلاء كان هذا متناقضاً مع وجود الله، و الدليل قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

فيجب عليك أن تثق بالله و تتفاءل و توقن أن العاقبة لك إذا كنت مع الله، فإذا كنت مع الله كان الله معك.

كـن مع الله ترى الله معك   واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطـاك من يمنعـه؟   ثم من يعطي إذا ما منعك؟

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ)

وهذه القاعدة تنسحب على كل أمور الحياة، فإذا كان هناك رجلان في عمل مثلاً، وكان أحدهما يريد أن يبني تجارته على معصية الله ولا يعبأ بأوامر الدين، أما الآخر فكان يخاف الله عز وجل و يبني تجارته على طاعة الله، فقد تجد المتفلت في البدايات يغنى سريعاً، لكن الله عز وجل يقسمه بعد حين، أما الخائف من الله فيرفعه الله، فانظر دائماً إلى عواقب الأمور، لان العبرة بالعواقب لا بالبدايات

المحيرة، فلا بدّ من بدايات محيرة لكي يُمتحن الإنسان، لكن الأمر لا يستقر بعد ذلك إلا على إكرام المؤمن وإهلاك الكافر.

(إِنّ الّذِينَ يُحَادّونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلّينَ)

لذلك جاء في دعاء القنوت **(سبحانك إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت)** فمن المستحيل أن تكون في صف أعداء الله ثم تكون عزيزاً، ومن مستحيل أن تكون في صف أولياء الله و تكون ذليلاً.

(كَتَبَ اللّهُ لَأَغْلِبَنّ أَنَا وَرُسُلِي إِنّ اللّهَ قَوِيّ عَزِيزٌ)

المؤمنون لا يوادّون من حادّ الله ورسوله:

ثم يبن الله عز وجل في هذه الآية الخطيرة أن الإنسان الذي يود من حاد الله ورسوله لا يمكن أن يكون مؤمناً، قال تعالى:

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادّونَ مَنْ حَادّ اللّهَ وَرَسُولَهُ)

فهذا الذي يعادي الله ورسوله، و يهزأ بالدين ن و يطعن به، و يرى أن هذا الدين لا يصلح لهذا الزمان، و يسخر من أحاديث رسول الله هذا الإنسان لا يمكن أن يواليه مؤمن.

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادّونَ مَنْ حَادّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ)

فإذا كان هناك أب غير مستقيم، لكنه لا ينهى ابنه عن العمل الصالح، فهو لا تنطبق عليه الآية، وهذا الأب من الممكن أن يوالى، لأن الله سبحانه وتعالى سيأخذ بيده بعد حين إن شاء الله، أما الإنسان الذي يحارب الدين ويصد الناس عن سبيل الله ويهزأ بالدين فلا يجوز أن يوالى.

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادّونَ مَنْ حَادّ اللّهَ وَرَسُولَهُ)

إن علاقات العمل شيء والعلاقات الحميمة شيء آخر، فمن الممكن أن تعامل إنساناً غير ملتزم معاملة جيدة في حدود العمل، فإذا كان على المؤمن واجبات فليؤدها، وإذا كان عليه مواقف فليقفها كما ينبغي، أما أن يقيم علاقة حميمة مع إنسان يحادد الله ورسوله فهو أمر من المستحيل أن يقبله مؤمن.

فالله سبحانه وتعالى يقول هنا: لا يمكن أن تجد في الأرض كلها مؤمناً واحداً يود من يحادد الله ورسوله.

فالحقيقة تقول: إن هناك شيئاً اسمه التناقض، كما أن هناك شيئاً اسمه التعاكس، فهذه الجدران فيها لون غامق ولون فاتح، فالألوان فيها متعاكسة لكنها موجودة، أما الضوء والظلام فهما متناقضان، فوجود الضوء ينقض وجود الظلام، و وجود الظلام ينقض وجود الضوء، ولا يمكن للمتناقضان أن يجتمعا، فدققوا فيما سأقول:

المؤمن الذي يؤمن بالله واليوم الآخر حق الإيمان يتناقض مع إنسان كافر الذي لا يعبأ بأمر الله، فهما لا ينسجمان ولا يتوافقان و لا يتماشيان، فإذا تماشيا كان أحدهما ليس على الحق وقد وافقه الطرف الآخر.

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

إن هذه الآية تذكرنا بقوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(24))

(سورة التوبة)

و هذه الآية خطيرة جداً، فهي تقول: إذا رأيت أن هذا المسكن المريح، أو أن هذه التجارة المشبوهة في طريقة معاملتها و نوع بضاعتها، أغلى عندك من الله ورسوله، فإن طريقك إلى الله في هذه الحال غير سالك، لأنك تؤثر أشياء على طاعة الله، وهذه الآية نفسها:

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ)

فالمؤمن قلبه ممتلئ بالإيمان، فهو مسدد و مؤيد و ملهم، وهو ذو كلام مؤثِر، و عمل حكيم، لأنه يتولاه الله فيسدد خطاه ويلهمه الصواب ويدله على الخير ويعين عليه، و هذا هو معنى:

(أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ)

فإذا أيدك الله تعالى فعلت الشيء المستحيل، فأحياناً قد يتكلم الإنسان كلاماً مؤثراً، أو يتصرف تصرفاً حكيماً، فيكون هذا بتوفيق الله وتأييده، فتصور أن هناك آلة كهربائية لا تتحرك بسبب عدم وجود الكهرباء فيها، فإذا حركت المروحة بإصبعك فإنها تدور دورتين ثم تتوقف، أما إذا جاءت القوة الكهربائية فإنك لن ترى (الريش) من سرعتها، فإذا كان الإنسان بعيداً عن الله فهو كأنما يحرك المروحة بيده، فإذا استمد من الله العون والتوفيق فعل ما لا يفعله الآخرون، فهل تصدق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصاحبه الكرام الذين لا يزيدون عن بضعة آلاف قد وصلوا إلى أقاصي الأرض فاتحين، و أن هناك مليار ومائتي مليون مسلم معاصر وضعهم اليوم لا يرضي، ألم يخطر ببالك هذا السؤال؟ هذا السؤال دقيق، وجوابه سهل، وهو قوله تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(59))

(سورة مريم)

لقد كتبَ الله في قلوبهم أولئك الإيمان، وأيدهم بروح منه، ألا تتمنى أن تكون مؤيّداً من الله عز وجل؟ألا تتمنى أن يكون الله معك دائماً يلهمك الصواب ويدلك على الخير ويعينك عليه ويعطي كلامك قوة تأثيرية ؟!

(وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

قال تعالى:

(وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة التوبة 72)

فأعلى مرتبة يمكن أن ينالها الإنسان هي أن يرضى الله عنه، فمن هو الذي يرضى عنه خالق الكون ؟؟ قد يكون المؤمن ذا حجمك صغير، فقد يكون موظفاً بسيطاً، أو صانعاً بمحل، لكن الله إذا كان راضياً عنه فهو ملك الملوك، وهو بذلك أسعد الناس، فالله معه ولا أحد في الكون يستطيع أن يصل إليه، **(إذا كان الله معك فمن عليك وإذا كان عليك فمن معك ؟).**

أيها الأخوة الكرام... إن هذه مرتبة متاحة لكل إنسان بطاعة الله، فالمؤمن إذا عرضت عليه الدنيا بأكملها على أن يعصي الله فإنه لا يعصيه، فهو يستوي عنده التبر والتراب، و الناس يتوهمون أن الإيمان كلمة تُقال، بل إن الإيمان مرتبة راقية جداً.

وحينما يرضى الله عنه المؤمنين يتجلى على قلوبهم و يسعدهم، فإذا أسعدهم رضوا عنه.

(أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ)

كما أن هناك حزب الشيطان **(ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون)**، وهنا قال تعالى:

(أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحشر 059 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1- 5

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-06-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الحشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَبّحَ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

سَبّحَ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

1 ـ معنى التسبيح:

التسبيح هو التنزيه، والتسبيح التمجيد، التنزيه أن تنزّهَ الله جلّ جلاله عن كل ما لا يليق به، والتمجيد أن تجول في كماله، وأن تتحقق من أسمائه الحُسنى ومن صفاته الفُضلى، أن تنزهه، وأن تمجده.

2 ـ كلُّ المخلوقات تسبّح اللهَ:

الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الأولى من سورة الحشر يبيّن أن كل المخلوقات من دون استثناء تسبح الله، ولكن لا نفقه تسبيحها، وكلمة لا نفقه تسبيحه هي قرينة مانعة من أن نفهم التسبيح إتقان صنعتها، الشيء المتقن كأنه يتقن، ويقول: سبحان الذي صنعني ! المعنى أعمق من ذلك، إن هذه المخلوقات من دون استثناء تسبح الله على نحوٍ لا نعرفه، فإذا كانت المخلوقات التي سخّرها الله للإنسان تسبّح وتنزه وتمجد بطريقةٍ لا نفقهها، فلأن نكون نحن المسبّحين من باب أولى حينما سخّر الله لنا الكون بأكمله:

(وَسَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: الآية 13)

نحن أولى بالتسبيح، ونحن أولى بالتنزيه، ونحن أولى بالتمجيد، فكيف إذا غفل هذا الإنسان المخلوق المكرم المكلف، وتنبّه الذين سُخروا له فسبحوا، ونَزّهوا ومجّدوا.

3 ـ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(سَبّحَ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

أي عزيزٌ قويٌ، متفردٌ بالقوة، فعّالٌ لما يريد، قاهرٌ، إرادته هي النافذة، وحكيمٌ في أفعاله، والحكمة من أولى ومن أبرز دلائل عظمته، فهو عزيزٌ لا يُنال جانبه، فإذا كنت مع العزيز فأنت العزيز، وإذا كنت مع القوي فأنت القوي، وإذا كنت مع الفعّال لما يريد ودعوتَه كان ما تريد، وأنت بالدعاء أقوى إنسان، فالدعاء كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

[الترمذي عن أنس]

تلازمُ عزة الله مع الحكمة المطلقة:

هو عزيزٌ، ومع أنه عزيز هو حكيم، كل أفعاله فيها حكمة مطلقة، لذلك قالوا: **" كل ما أراده الله وقع، وكل ما وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة "**، ومعنى الحكمة المطلقة أن الشيء الذي وقع إن لم يقع على النحو الذي وقع فهذا نقصٌ في حكمة الله، لأن حكمته مطلقة، فكل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

(قُلْ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمّنْ تَشَاءُ وَتُعِزّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنّكَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران)

لم يقل: بيدك الخير والشر، بل قال:

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمّنْ تَشَاءُ)

(تُعِزّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلّ مَنْ تَشَاءُ)

قال:

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

معنى ذلك أن إيتاء الملك خير، ونزع الملك خير، الإعزاز خير، والإذلال خير، فالله سبحانه وتعالى نافعٌ وضار، لكن يضرُ لينفع، ويخفض ليرفع، ويأخذ ليُعطي، ويبتلي ليجزي، وقال النبي الكريم في إحدى خطبه:

((وإن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح برخاء، ولم يحزن بشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عُقْبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[ورد في الأثر]

(هُوَ الّذِي أَخْرَجَ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنّوا أَنّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللّهِ فَأَتَاهُمُ اللّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

(سورة الحشر)

قصة إجلاء بني النضير من المدينة النبوية:

1 ـ إجلاء بني النضير كان في السنة الرابعة:

هذه الآية في سورة الحشر تشير إلى حدثٍ وقع في عهد النبي حينما أجلى النبي عليه الصلاة والسلام بني النضير، أجلاهم في السنة الرابعة للهجرة، وفي إجلائهم قصة يحسن أن نتطلع عليها قبل أن نتابع تفسير الآية.

2 ـ سببُ إجلاء بني النضير:

ففي السنة الرابعة للهجرة بعد غزوة أُحد، وقبل غزوة الأحزاب (الخندق) يذكُرُ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذهب مع عشرةٍ من كبار أصحابه، فيهم أبو بكرٍ وعمر وعلي رضي الله عنهم أجمعين، ذهبوا إلى محلة بني النضير، يَطْلُبُ منهم المشاركة في أداء دية قتيلين، بحكم ما كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبينهم من عهدٍ في أول مدة مَقدَمِه إلى المدينة، النبي عليه الصلاة والسلام حينما هاجر إلى المدينة قبل أربع سنوات أبرم العهود مع جيرانه بني قريظة، وبني قينقاع، وبني النضير.

3 ـ يهود بني النضير يدبّرون لاغتيال النبي:

لما ذهب النبي مع كبار أصحابه إلى محلة بني النضير ليطالبهم بإنجاز العهد الذي بينه وبينهم المشاركة في أداء دية قتيلين، بحكم ما كان بينه وبينهم من عهدٍ في أول مقدمه إلى المدينة، فاستقبله يهود بني النضير بالبشر والترحاب، ووعدوه بأداء ما عليهم، بينما كانوا يدبّرون أمراً لاغتيال النبي عليه الصلاة والسلام ومَن معه، وكان صلى الله عليه وسلم جالساً إلى جدارٍ من بيوتهم، فقال بعضهم لبعضٍ: **" إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله تلك.. أي أنها فرصة لا تعوض.. فمن رجل منكم يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرةً فيريحنا منه ؟ "**

فانتدبوا لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، أحد بني النضير فقال: " أنا لذلك "، فصعد ليلقي عليه الصخرة كما قال، فأُوحِي إلى النبي صلى الله عليه وسلم بما يبيّت هؤلاء ضده، فقام كأنه ليقضي أمراً، فلما غاب، واستبطأه أصحابه خرجوا من المحلة يسألون عنه، فعلموا أنه دخل المدينة، جاءه الوحي، وأخبره بما تآمر عليه اليهود.

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم للتهيُّؤ لحرب بني النضير لظهور الخيانة منهم ونقض عهد الأمان الذي بينه وبينهم، وكان قد سبق هذا إقذاع كعب بن الأشرف من بني النضير في هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأليبه الأعداء عليه، وما قيل من أن كعباً ورهطاً من بني النضير اتصلوا بكفار قريش اتصالَ تآمرٍ وتحالفٍ وكيدٍ ضد النبي صلى الله عليه وسلم، مع قيام ذلك العهد بينه وبينهم، مما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يأذن في قتل كعب بن الأشرف، فلما كان التبييت للغدر برسول الله في محلة بي النضير لم يبق مفرٌ من نبذ عهدهم إليهم، وفق الآية الكريمة:

(وَإِمّا تَخَافَنّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِين)

(سورة الأنفال)

4 ـ المنافقون يوالون اليهود ويدافعون عنهم:

فتجهّز النبي صلى الله عليهم وسلم، وحاصر محلة بني النضير، وأمهلهم ثلاثة أيام، وقيل: عشرة، ليفارقوا جواره، وليذهبوا عن محلتهم، على أن يأخذوا أموالهم، ويقيموا وكلاء عنهم على بساتينهم ومزارعهم، ولكن المنافقين في المدينة، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق أرسل إليهم يحرضهم على الرفض والمقاومة، وقالوا لهم: " أن اثبتوا، وتمنّعوا فإنا لم نسلمَكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتكم خرجنا معكم ". المنافقون الذين حول النبي تواطئوا مع بني النضير، وفي هذا يقول الله عزّ وجل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (12) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (13))

(سورة الحشر)

تحصن اليهود في الحصون، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقطع نخيلهم وتحريق بعضها، فنادوا: **"أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بالك تقطع النخيل وتحرّقها ؟"**، وفي الرد عليهم قال الله تعالى:

(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة الحشر)

5 ـ اليهود يزلون على حكم النبي عليه الصلاة والسلام:

ولما بلغ الحصار ستاً وعشرين ليلةً يئس اليهود من صدق وعد المنافقين لهم، وقذف الله في قلوبهم الرُعب، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم، وأن يكف عن دمائهم، كما سبق أن جلى بني قينقاع، على أن لهم ما حَمَلَت الإبل من أموالهم، فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم، فاحتملوا من أموالهم ما استقلّت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن خشبةٍ من أجل أن يأخذها معه، أو يخربه حتى لا يقع في أيدي المسلمين، وكان المسلمون قد هدموا، وخربوا بعض الجدران التي اتخذت حصوناً في أيام الحصار.

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

يقول الله عزّ وجل:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

هو: أي أن الله عزّ وجل تولى إخراجهم بذاته، وأحياناً الله عزّ وجل يفعل فعله، لكن من خلال جهاتٍ أرضية، وأحياناً يتولى بذاته مباشرةً فعل أفعاله، فهذه الآية تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى تولّى أمر إخراجهم مباشرةً:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

هذه الآية أيها الإخوة تعطينا الشيء الكثير، الله بيده كل شيء، وكل الخلق بيده، وفي الأثر: **" إن العباد أطاعوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة "**، فالأمر كله بيد الله.

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب)

يبدو أن بني النضير كانوا بأعلى درجة من القوة والتَحَصُّن، فما كان يخطر في بال المسلمين أن هؤلاء يخرجون من حصونهم، وما كان يخطر ببالهم إطلاقاً أن هؤلاء يخربون بيوتهم بأيديهم، فالله عزّ وجل له آيات، أحياناً الإنسان يؤتى من داخله، قد يكون من خارجه قويًا جداً، ومحصنًا جداً، ولكن إذا قذف الله في قلبه الرعب يؤتى من داخله.

صراع الحق والباطل من حكمة الله:

هذه الآية تفيدنا أشياء كثيرة، مما تفيدنا به أن المؤمن لا يخشى إلا الله، لأن الخلق كلهم بيد الله، فإذا كان مع الله كان الله معه، وإذا كان الله معه فمن عليه ؟ وإن لم يكن مع الله لم يكن الله معه، وإذا لم يكن الله معه فإن أضعفَ الخلق يتطاول عليه، وأقرب الناس إليه يكيد له، فهذه الآية تعلمنا الشيء الكثير.
شاءت حكمة الله أن يكون في الأرض مؤمنون وكفار، أهل حقٍ وأهل باطل، مستقيمون منحرفون، محسنون ومسيئون، هذا من حكمة الله، وكان من الممكن أن يخلق الله المؤمنين في قارة والكفار في قارة، وبينهما بحارٌ شاسعة، ولكن اختلاط الكفار بالمؤمنين من حكمة الله العظيمة، أن هذا الاختلاط هو الذي يضاعف أجر المؤمنين، أي أن الطريق إلى الله ليست مفروشة بالورود والرياحين، بل لابدّ من أن تتحمل، لابدّ من أن تصبر، هناك أعداءٌ للحق، هناك مناوئون للحق، هناك من يريد أن يطفئَ نور الله عزّ وجل.

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

(سورة آل عمران)

أليس بقدرة الله عزّ وجل أن يخلق النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام الذين تفانوا في محبته وحدهم من دون أبو لهبٍ ومن دون أبو جهلٍ، ومن دون صفوان بن أمية، هذا شيء كان من الممكن أن يفعله الله، ولكن من أجل أن يظهر صدق النبي، أن يظهر حرصه على الحق.

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أدع هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

أحياناً المناوئ، الطرف الآخر الذي يشوش عليك، والذي يزعجك، والذي يكيد لك، والذي يقف لك بالمرصاد، هذا من تقدير الله لك، وهذا مما يرفع قدر المؤمن، ويظهر صدقه، وإصراره، وثباته، فالحزن خلاّق، وحياة النبي عليه الصلاة والسلام مفعمة بالمتاعب.

(طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

(سورة طه)

كان النبي ينتقل من غزوةٍ إلى غزوة، ومن سريةٍ إلى سرية، ومن مشكلةٍ إلى مشكلة، من أجل أن يظهر صدق النبي وثباته، وأن تظهر محبته لله عزّ وجل، معنى ذلك أن المؤمن إذا عانى من بعض المتاعب ممن حوله، أحياناً من أسرته، من أولاده، ممن حوله، من جيرانه، هذه المتاعب مقدّرة، لتظهر صدق إيمانه، ولتظهر ثباته على مبدئه، ولتظهر محبته لله ورسوله.

أيها الإخوة:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب)

أحياناً تستمع إلى أقوياء وضعفاء، وأناس انتصروا، وأناس انهزموا، يجب أن تعلم علم اليقين أن الأمر بيد الله، هو مكّن هؤلاء من هؤلاء، هو سلّط هؤلاء على هؤلاء، هو قوّى هؤلاء على هؤلاء، الأمر بيده، يقوّي لحكمةٍ، ويضعِّف لحكمةٍ، وينصر لحكمة، ويقدِّر الهزيمة لحكمة، من أجل أن يكشف حقيقة عباده لأنفسهم ولمن حولهم، هو يعرفهم، فالأمر بيد الله، وهذا هو التوحيد.

الآية واضحة جداً:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب)

بحسب القواعد الدنيوية بنو النضير لن يخرجوا من المدينة أبدا:

أحياناً الإنسان بحسب القواعد، بحسب ما يبدو له من قوانين، يقول: فلان مستحيل أن يضعف، فإذا به يهوي كبيت العنكبوت، وهذه من آيات الله الدالة على عظمته، وقد قيل: **" عرفت الله من نقض العزائم".**

يبدو فيما يروي التاريخ أن بني النضير كانوا من أقوى الناس، لهم حصون منيعة، وأموال وفيرة، وبساتين غنّاء، كل شيء بيدهم، ما كان يصدّق المؤمنون، وما كان يخطر في بالهم أن هؤلاء يخرجون من حصونهم، ما كان المؤمنون ليصدِّقوا أن هؤلاء يخربون بيوتهم بأيديهم، هذه الآية مطمئنة فلا تخف إلا الله، وأقوى قوى الأرض بيد الله، أقوى الأقوياء في قبضة الله، فإذا كنت مع الله كان الله معك، وكنت أقوى من كل قوي، وإذا تخلّى الله عنك تطاول عليك كل ضعيف من أجل أن تثق بوحدانية الله، وبقدرة الله، وبنصر الله.

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ)

مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ

هؤلاء بنو النضير ظنوا أن هذه الحصون تمنعهم، وأحياناً الإنسان يظن أن ماله يمنعه من كل المسلمين، فيسوق الله له مشكلة لا تحل بالمال، يظن أن الذي حوله يمنعونه، فيضعه الله في مأزقٍ لا يستطيع أن يعلم أحداً ممن حوله بما هو فيه، لله آياتٌ باهرات، آياتٌ جليّات، كل شيءٍ تتكئ عليه يخليه الله من تحت يدك، فإذا أنت على هواء، لذلك: **" ما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من**

نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطّعت أسباب السماء بين يديه، وما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت من بيد ذلك مخرجاً ".

هذا ما يجب أن تعتقده وتفعله:

العبرة من هذه الآية أن تعتصم بالله، وأن تثق بالله، وأن تتوكل على الله، وألا ترى مع الله أحداً، أن توحِّدَهُ، أن لا تشرك به، أن تؤمن أنه في السماء إلهٌ وفي الأرض إله، أن تؤمن أن الأمر كله بيده:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: آية " 123)

أن تؤمن أن يد الله فوق أيديهم، أن تؤمن أنه ما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى، أن تؤمن أنَّه:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

أن تؤمن أن الله يحكم، ولا معقِّب لحكمه، أن تؤمن أن الله خالق لكل شيء، وهو على كل شيءٍ وكيل، أن تؤمن أن الله له الخلق وله الأمر، أن تعبده، هو الفعال لما يريد، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل، هذه كلمات الإيمان، هذه الكلمات التوحيدية تلقي في قلبك طمأنينة ما بعدها طمأنينة، تلقي في قلبك سكينة ما بعدها سكينة، تلقي في قلبك أمناً ما بعده أمن، لأن الله معك، أنت عبدٌ له تطيعه وتخطب وده، فماذا تنتظر منه ؟ كل الخير:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة: الآية 51)

إذا كنت تخطب ود الله عزّ وجل ؛ تتقرب إليه بالطاعات، بالأعمال الصالحة، بالتوبة النصوح، ماذا تنتظر منه ؟ كل خير، لذلك ربنا عزّ وجل طمأن المؤمنين.

علاقتنا بهذه الآية: إذا كان هناك خصوم أقوياء جداً فهؤلاء عند الله ضعفاء، فإذا كنا مع الله كان الله معنا، ونصرنا على أعدائنا، لذلك الله عزّ وجل ما كلّفنا أن نعد لأعدائنا القوة المكافئة، بل كلفنا أن نعد لهم القوة المتاحة، وهو يرمم ما بقي، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال: الآية 60)

المؤمن يجب أن لا يضعف أمام ما يقال، يقولون لك: تفوق، وتكنولوجية، وأقمار صناعية، يقولون لك مثلاً: سلاح ذكي، قنابل عنقودية، هذه كلها عند الله لا شيء، إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، لا تخف إلا الله، ولا تخش إلا الله، ولا تتكل إلا على الله، وهذه الآية:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا)

بحسب المُعطيات، بحسب ما يبدو لكم، بحسب القوانين المادية، هم أقوياء جداً، وأنتم ضعفاء، لكنهم خرجوا من بيوتهم، وخرّبوها بأيديهم.

(مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا)

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ)

وأنت ترى بأم عينك كلما ادعت قوةٌ أنها الأقوى في العالم تهاوت كبيت العنكبوت، والتاريخ القريب يؤكِّد هذه الحقيقة، قلعةٌ من قلاع الكفر تهاوت كبيت العنكبوت.

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ)

إذا أردتَ أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله:

أحياناً الإنسان يَتَّكئ على ماله، فإذا المال لا شيء، يتكئ على مكانته، فإذا مكانته لا شيء، يتكئ على مَن حوله، فإذا مَن حوله لا شيء، يتكل على علمه، فإذا علمه لا شيء، يتكل على أعوانه، فإذا أعوانه لا شيء، كلما اتكلت على شيءٍ، وقد أشركت بالله عزّ وجل زلزل الأرض من تحت قدمك، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله.

غزوة بدرٍ وحُنينٍ درسانِ بليغان في حياة المسلمين:

لا تبتعدوا كثيراً، فهؤلاء أصحاب النبي، وهم صفوة الله من خلقه في بدرٍ قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة آل عمران)

هُم هم، في حنين قال تعالى:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

معنى ذلك أن في حياة كل مؤمنٍ يومين، يومَ بدرٍ ويوم حنين، في بدر إذا قلت: الله، وأنا لا شيء، تولاّك الله بالرعاية والحفظ والنصر، والتأييد والتوفيق، وفي حنين إذا قلت: أنا، ذكاء، علم، خبرة، قوة، إذا قلت هذا تخلّى الله عنك، فأنت بين أن يتولاّك الله وبين أن يتخلى عنك.

نحن بحاجةٍ ماسّةٍ إلى هذا الدرس، وكلكم يعلم أن المسلمين يواجهون أعداءً لهم في شتّى بقاع الأرض، فإذا آمن المسلمون أن الله وحده بيده كل شيء، وأنه مع المؤمنين، عندئذٍ لا تضعف عزائمهم، ولا تخور قواهم.

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا)

مِن مَأمنه يُؤتَى الحذِرُ: فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا

يؤتى الحذر من مَأمنه، يؤتى القوي من نقطة ضعفه، يؤتى الإنسان من داخله، أحياناً يلقي الله في قلبك الرُعب، فتخور قواك، وترتعد فرائسك، وتنهار من الداخل، وينتهي الأمر، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ))

[متفق عليه عن جابر]

فإذا عصت أمته ربها، أو خالفت سنة نبيها، ربما تخافُ، وتهزم بالرُعب، النبي في صدر الإسلام نصر بالرعب.

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم)

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: الآية 55)

وعدُ الله يتحقّق بتحقق شروطه:

هذا قانون ربنا عزّ وجل، والتاريخ يؤكِّد هذه الحقيقة، ففي بدر كان عددهم ثلاثمائة غلبوا ألفاً بإذن الله، كل معارف المسلمين، كانوا قلّة لكن قوتهم في إيمانهم، وفي اعتمادهم على ربهم، وفي تطبيقهم لمنهج ربهم، فإذا خالفوا منهج ربهم، وآثروا الشهوة على المبدأ عندئذٍ تخلّى الله عنهم، الله تخلى عن أصحاب رسوله في حنين، فمن نحن إذاً إذا تخلّى الله عن أصحاب رسوله ورسوله بين أظهرهم:

(إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

فمن نحن ؟

لذلك أيها الإخوة، نحن أقوياء بالله:

(وَلَا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

أنت بإيمانك بالله تشعر أن الله معك، وإذا كان الله معك فلا أحد يجرؤ أن ينال منك.

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ)

فالله عزّ وجل يمكن أن يقوي خصمك، ويمكن أن يضعف خصمك، يمكن أن يضعفك من الداخل، فيصبح خصمك الضعيف أقوى منك إذا أضعفك من الداخل، لأن الأمر بيده، وقلبك بيده، وعزيمتك بيده، ورؤيتك بيده.

(إِذْ يُرِيكَهُمْ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ)

(سورة الأنفال: الآية 43)

أن ترى رؤيتك بيد الله، قلبك بيد الله، ثباتك بيد الله، كن مع الله، ولا تخشَ أحداً.

(فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)

إلقاءُ الرعب في قلوب الكفار قانونٌ إلهي مطّرد في كل زمان ومكان:

إخواننا الكرام، هذا الرُعب الذي يقذف في قلب المشرك هو قانون، في آيةٍ أخرى:

(فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ)

(سورة آل عمران: الآية 151)

قال تعالى:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

الإنسان بمجرد أن يدعو مع الله إلهاً آخر يدخل في الخوف، فقانون الخوف متعلقٌ بالشرك، إن وَحّدْت فلا تخف، وإن أشركت تخف.

(يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

(سورة الحشر)

والإنسان قد يجد في حياته، أو في عصره، أو فيمن حوله الدلائل الكثيرة، الله عزّ وجل قال:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

الله عزّ وجل يقول:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

المؤمن أكبر ميزة يمتاز بها عمن سواه أن الله سبحانه وتعالى يلقي في قلبه الأمن، والسكينة، والطمأنينة، والسعادة، والتوازن، والاستقرار، وأن المبتعد عن الله، الشارد عن منهجه، المنقطع عنه، المرتكب للمعاصي والآثام، أول ضعف يصيبه أن الله يلقي في قلبه الخَوْف، فنعمة الأمن خاصةٌ بالمؤمنين، ومشكلة الخوف من لوازم المشركين، فهؤلاء اليهود ألقى الله في قلوبهم الخوف، لذلك لا يقاتلون إلا في قرى محصنة، وبأسهم بينهم شديد.

(وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ)

(سورة الحشر: الآية 3)

معنى قوله: وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ

هذه الآية لها معنى دقيق: أي أن الله عزّ وجل كتب عليهم أن يخرجوا من ديارهم، كتب عليهم الجلاء، لو لم يفعل ذلك لعالجهم بطريقةٍ أخرى.

إن الإنسان أحياناً الله يسوق له مرض فيعالجه به، وهناك طريقة ثانية، تأتي مشكلة أخرى، المشكلة لابد من تعالج، فإن لم تعالج بهذا العلاج تعالج بعلاج آخر، فأنت في قبضة الله، وقد يقول لك قائلٌ: لو لم آكل هذه الأكلة لما أصابني هذا الجرثوم، لا، لا تقل هكذا، لا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، أي إن لم يقدر لك العلاج من هذا الطريق فعند الله ألف طريقٍ وطريق.

(وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ)

بطريقة أخرى، معنى ذلك أن هؤلاء لأنهم خانوا عهد رسول الله، و ائتمروا على قتله، وخانوا العهد الذي بينهم وبينه، استحقوا من الله العقاب، فكان من عقاب الله لهم أن أجلاهم عن بلادهم، ولو لم يكتب عليهم الجلاء لعذّبهم بطريقةٍ أخرى، فالله عنده من أنواع البلاء ما لا يعد ولا يحصى، والجسم البشري وحده فيه أمراض تصيب القلب، أمراض تصيب الرئتين، أمراض الأعصاب، العضلات، الدماغ، خثرة بالدماغ، خثرة بالقلب، أحياناً بالبصر، أحياناً بالسمع، أحياناً بالجلد، مليون طريق وطريق بجسمك فقط، بمالك، إذا نفذ الإنسانُ من شيء قد يقع في شيء آخر، الآية دقيقة جداً.

(وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الْجَلَاءَ)

قد كان من تقدير الله أنه عاقبهم بأن أجلاهم عن بلادهم.

(وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا)

طرق المعالجة الربانية كثيرة متنوّعة:

بطريقةٍ أخرى، فإذا أخذ الإنسانُ الاحتياط، اعتنى بصحته اعتناء شديدا، ولم يكن مستقيما، يقول لك: أنا رياضي، وهو كذلك، إذا اعتنى بصحته أبلغ عناية، ولم يكن مستقيماً على أمر الله فهناك ألف طريق وطريق لمعالجته من طريق آخر، حَصّن ماله، هناك طريق ثالث، حَصّن حاجاته الأساسية، يقول لك: كل أمّنت عليه، يأتي من طريق رابع.

فهذه النقطة:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد: الآية 11)

مهما تحّصنوا، إن حصنوا أموالهم من طريق آخر، إن حصنوا ممتلكاتهم من طريق آخر، إن حصنوا أنفسهم من طريق آخر.

(وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّار(3) ذَلِكَ)

(سورة الحشر)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

لماذا عذّبهم ؟ لماذا أجلاهم من بلادهم ؟ لماذا أذلّهم ؟ لماذا أخزاهم على يد النبي عليه الصلاة والسلام لماذا ؟

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

(سورة الحشر: الآية 4)

معنى مُشاقة الله ورسوله:

من أوجه المعاني هذه الآية: أنهم اتخذوا شقاً آخر غير شق الله، أي أنهم ناوؤوا الله، لم يكونوا مع الله، أرادوا أن يطعنوا في دينه، أرادوا أن يطفئوا نوره، أرادوا أن يفعلوا شيئاً يطفئ نور الله بأفواههم.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

إن الإنسان إذا كان من السُعداء لا يفكر إطلاقاً أن يقف ضد الحق، كن مع الحق، ولا تكن ضده، كن مع أهل الحق، ولا تكن ضدهم، كن مع إحقاق الحق، ولا تكن مع ترسيخ الباطل، وحينما يتخذ الإنسان له موقفاً يناوئ به أهل الحق يستحق عذاب الله عزّ وجل.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

أحياناً يطرح الإنسان فكرا مناوئًا للدين، فيلقي الشبهات، يلقي في قلوب الناس التُرّهات، النقاط السلبية، الأشياء الخلافية، من أجل أن يزلزل ثقة الناس بالدين، هذا يشاقق الله ورسوله، أحياناً ينقِب في السيرة عن أشياء، يقول لك: النبي تزوج تسع نساء، يريد أن يقول لك: إنه زير نساء.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

أحياناً يقال لك: لماذا المرأة نصف الرجل ؟ هي تعمل مثله ؟ يريد أن يطعن في هذا الشرع العظيم، أو في التاريخ، أو في نبوة النبي، أو في عصمة النبي، أو في كمال أصحاب النبي، وحينما يقف الإنسان الموقف المعارض، الموقف المناوئ، الموقف الذي يطعن، ويربك، ويشوّش..

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

كن مع المؤمنين، كن دعماً لهم، كن مؤيّداً لهم، كن ناصراً لهم، كن مدافعاً عنهم، من أجل أن يدافع الله عنك، من أجل أن يرفعك الله عزّ وجل.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

هل تقوى على أن تقف في وجه خالق الكون ؟ أنت لا شيء، فحركتك بيد الله، سمعك وبصرك بيد الله، نقطة دم كرأس الدبوس لو تجمّدت في أحد شرايين الدماغ الفرعية يقول لك: خثرة دماغية، وانتهى الإنسان، إما أن يفقد حركته، وإما أن يفقد سمعه أو بصره، وإما أن يفقد ذاكرته، وإما أن يفقد عقله، من أجل نقطة دمٍ لا تزيد على رأس دبوس، تجمدت في أحد فروع شرايين الدماغ.

مَن أنت أيها الإنسان حتى تتعالى على الله:

من أنت ؟ كل من يقول: أنا، فهو جاهل، وقد قالها إبليس فأهلكه الله، قال:

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة الأعراف: الآية 12)

قالها فرعون:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف: الآية 51)

فأهلكه الله.. قالها قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: الآية 78)

فأهلكه الله.

قالها بنو سبأ:

(قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ)

(سورة النمل: الآية 33)

فأهلكهم الله، فكلما ارتقى علم الإنسان يتواضع، كلما ارتقى علمه يوحِّد، كلما ارتقى علمه يفتقر لله عزّ وجل، وإذا افتقر إلى الله نصره الله.

إن الله عزّ وجل علّمنا من خلال التاريخ أن المسلمين على ضعفهم كانوا سادة الدنيا، الإسلام جعل من رعاة الغنم رعاةً للأمم، جعل من سُكّان البوادي قادةً للأمم، بفضل طاعتهم لله عزّ وجل، والله موجود هو هوَ، والآن نحن المسلمين إذا أطعنا الله عزّ وجل، وأنبنا إليه، واصطلحنا معه أظهر لنا من آياته الدالة على عظمته وأيّدنا، ونحن والحمد لله نعيش في إكرام من الله عزّ وجل، الله عزّ وجل لن يضيّعنا، ولن يسلمنا، ولن يخذلنا، ما دمنا معه.

كن مع الله ترَ الله معك و اترك الكل وحاذر طمعك

و إذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا مـا منعك

***

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

الإنسان أحياناً يروّج فكرة باطلة، يلقي شبهة في النفوس، يزعزع ثقة الناس في أحكام الشرع، أحياناً يتّهم الدعاة إلى الله باتهامات باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، يفتري عليهم، وهو يعلم علم اليقين أنهم بريئون من هذا، هذا كله يشاقق الله ورسوله..

(وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

كمؤمن كن مع المؤمنين، كن مؤيّداً لهم، كن دعماً لهم، كن ناصراً لهم، كن مدافعاً عنهم، حتى يكرمك الله برحمته التي هي كل شيء.

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ

ثم يقول الله عزّ وجل:

(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة الحشر: الآية 5)

النبي يقطع نخيل بني النضير:

النبي عليه الصلاة والسلام تحرّك بوحيٍ من الله، ما فعل شيئاً كما وصفه أعداؤه، وهذا النخل تعلّقت نفوسهم به، وقد أحرق بعضها، قالوا: ستة من النخيل فقط أحرقها النبي، فتزلزلوا، وخرجوا من حصونهم، ورضخوا لأمره، فنجاح الدعوة هو المّقدم على كل شيء، قال:

(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

العلماء استنبطوا من هذه الآية حكم: أن ممتلكات العدو إذا كان بإمكانك أن تستفيد منها، وأن تهزمه فدعها قائمةً، أما إذا كانت قوةً له، وهو يتقوّى بها عليك خرّبها عليه من أجل يضعضع.

(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ)

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ

1 ـ غنائم المسلمين من بني النضير نوع من الفيء:

ثم ذكّر الله عزّ وجل أن هذه الغنائم التي غنمها المسلمون من بني النضير بعد أن أجلوهم عن ديارهم، هذه الغنائم لم تكن بعد حرب ضروس، إنما كانت من دون حرب، فالغنيمة التي يأخذها المسلمون من دون حرب هي فيء أفاء الله به عليهم، لذلك قال تعالى:

(وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ)

(سورة الحشر: الآية 6)

2 ـ معنى: مَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ

أوجف بمعنى أسرع، أي أنتم لم تتحملوا المشاق لنيل هذه الغنائم، هذه جاءتكم سائغةً، هم تضعضعوا، وانهاروا من داخلهم، وخرجوا من ديارهم، وحمّلوا متاعهم على جمالهم، وانتهى الأمر، أورثكم أرضهم وديارهم، هذه ليست غنائم كانت عقب حربٍ ضروس، إنما هي من الفيء الذي اختص الله به النبي عليه الصلاة والسلام، لهذا قال تعالى:

(وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الحشر)

الغنائم التي تأتي بعد حربٍ سِجَالٍ بين المسلمين وأعدائهم هذه خُمُسُها لله عزّ وجل ولرسوله وأربعة أخماسها للمقاتلين، أما الفيء فكله لله ورسوله يوزعه النبي عليه الصلاة والسلام بحكمةٍ من حكمه على الفقراء والمهاجرين، لذلك:

(مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

(سورة الحشر: الآية 7)

قاعدتان مهمتان مستنبطتان من الآية:

1 ـ قاعدة اقتصادية عظيمة: كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ

النبي عليه الصلاة والسلام خَصّ بهذا الفيء المهاجرين، لأنهم تركوا بلادهم وأوطانهم وأموالهم، وجاءوا إلى المدينة فقراء من كل شيء، مع أن الأنصار استقبلوهم، ورحّبوا بهم، وعرضوا عليهم نصف ممتلكاتهم، إلا أن التاريخ الإسلامي لم يسجّل أن مهاجراً أخذ نصف مال الأنصاري، كان أحدهم من الأنصار يقول للمهاجر: **" يا فلان، دونك نصف مالي فخذه، لي بستانان خذ أيهما شئت، لي داران خذ أيهما شئت "**، وكان هذا المهاجر العفيف يقول للأنصاري: **" بارك الله لك في مالك، ولكني دُلّني على السوق "**.

على كلٍ، هؤلاء المهاجرون تركوا بلادهم، وديارهم، وأموالهم، وتجارتهم، وأعوانهم، وجاءوا مع رسول الله ابتغاء وجه الله، لذلك النبي ارتأى أن تكون هذه الغنائم للمهاجرين وحدهم، والنبي عليه الصلاة والسلام انطلق من هذه القاعدة في كتاب الله:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

أي أن هذه الكتلة النقدية يجب أن تكون متداولة بين أيدي الناس جميعاً، هذا هو الوضع الصحي الطبيعي، إذا تداول الناس المال جميعاً عاشوا في بحبوحة وفي كفايةٍ وعدل ؛ أما إذا تجمّعت الأموال بأيدٍ قليلة، وحرمت منها الكثرة الكثيرة اختل التوازن الاجتماعي، ومع اختلال هذا التوازن تنشأ المُشكلات، فلذلك يقول الله عزّ وجل:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

ففي هذه الآية قاعدتان أساسيتان في حياة المؤمنين، القاعدة الأولى أن المال يجب أن يكون متداولاً بين الجميع، إذاً الاحتكار حرام، والربا، المال يلد المال، الربا من خصائصه أن يجمِّع الأموال في أيدٍ قليلة، المال يجب أن يتولّد من الأعمال لا من المال، إذا ولد المالُ المالَ تجمّع المال في أيدٍ قليلة، أما إذا ولدت الأعمال المال توزّعت بين الكثرة الكثيرة.

قم بفتح محل تجاري، تحتاج لتشغيل مئة إنسان، أو مئتي إنسان دون أن تشعر، أنت بحاجة إلى دفتر فواتير، تحتاج لورق، ومطبعة، وخطاطين، بحاجة إلى مستودع، بحاجة إلى وسائل نقل، وأنت لا تشعر اشتغل بسببك مئات عديدة، فإذا أردت أن تكسب المال من الأعمال فهذا المال توزّع.

أنشأت مزرعة، تحتاج إلى مهندس زراعي، تحتاج إلى معالجة بعض الأمراض، إلى خبرة معينة، فحينما تفكر أن تكسب المال من الأعمال فهذا المال يوزّع بين أكثر الأيادي، أما إذا أردت أن يلد المالُ المالَ تأخذ الفائدة، بهذه الطريقة الأموال تتجمد.

القاعدة الأولى: الله حرم الربا، حرم الاحتكار، حرم مثلاً الغش، حرم التدليس، كل شيء من شانه أن يجمِّع الأموال في أيدي قليلة حرّمه الله عزّ وجل.

أيها الإخوة، إذاً هذه الآيات في سورة الحشر تبيّن أن الأمر بيدِ الله وحده، وأن الله وحده هو القوي، وأنك إذا كنت معه كان معك، وإذا كان معك انتصرت على أعدائك، والمسلمون الآن بحاجة ماسّة لهذه الآيات، هم بحاجة ماسّة بأن يصطلحوا مع الله، بحاجة ماسة بأن يثقوا بالله، بحاجة ماسة بأن ترتفع معنوياتهم.

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

وهذه الآيات تعلمنا أيضاً أن الإنسان في قبضة الله، فلمجرد أن يلقي الله في قلبه الرعب انهار من داخله وانتهى، فبين أن يلقي الله في قلبك الأمن والطمأنينة، وبين أن يلقي في قلبك الرعب، هذا ما بين التوحيد والشرك، المشرك يلقي الله في قلبه الرعب، أما المؤمن فيلقي الله في قلبه الثقة بالله عزّ وجل، والمسلمون بحاجةٍ ماسةٍ إلى أن يتعاونوا، وإلى أن يثقوا بعظمة دينهم، وإلى أن يثقوا بعظمة منهجهم، وإلى أن يعلموا أن الأمر بيد الله وحده، مهما تبجّح أعداؤهم، مهما تطاولوا، مهما تعجرفوا، مهما تبختروا، مهما استعلوا، فهم في قبضة الله..

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أخطر شيء أن يصاب الإنسان بالضعف من الداخل، بالخَوَر، بالخنوع، مهما تبجحوا، مهما ادعوا بتفوقهم، لا.. كن مع الله تر الله معك، نحن علينا أن نعدّ كل شيءٍ لأعدائنا الذين يتربّصون بنا الدوائر، ولكن نعد، ونتكل على الله، والله سبحانه وتعالى لا يضيعنا.

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

2 ـ قاعدة تشريعية عظيمة: وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا

القاعدة الثانية، هناك قاعدة في التشريع: الله جلّ جلاله هو المُشَرّع من خلال قرآنه، ومن خلال سنة نبيه، ولا يوجد مصدر ثانٍ إطلاقاً.

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

هذه الآية تشمل ما أعطاكم من غنائم، أو إن لم يعطكم، والأوسع من ذلك ما آتاكم من أمر، وما نهاكم عن شيء، فالله سبحانه وتعالى من خلال قرآنه هو المُشَرّع، والنبي عليه الصلاة والسلام من خلال سنته المطهرة هو المُبَيّن والمُفَصِّل، فنحن كمؤمنين وكمسلمين ليس لنا إلا القرآن وسنة النبي عليه الصلاة والسلام مصدراً تشريعياً.

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

التحذير من مخالفة القواعد الإلهية:

فإن لم تفعلوا ذلك:

(وَاتّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

هذا يسمونه المؤيّد القانوني، فالنظام يحتاج إلى مؤيّد قانوني، إلى ردع، فإن اتبعت منهج الله عزّ وجل ومنهج رسول الله المبين نجوت، وإلا فهناك عقابٌ من الله شديد.

إذًا عندنا قاعدتان، الأولى: أن المال يجب أن يكون متداولاً بين أيدي الجميع، فأي سلوكٍ يُجَمِّعَ المال بأيدٍ قليلة، ويحرم منه الكثرة الكثيرة فهو يهدم أصول المجتمع، وهو محرّم في الإسلام.

القاعدة الثانية: المصدر التشريعي للمسلمين واحد، وهو الكتاب والسنة..

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحشر 059 - الدرس (2-5): تفسير الآيتان 6- 7
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-06-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الحشر، ومع الآية السادسة، وهي قوله تعالى:

(وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الحشر)

بين الغنيمة والفيءِ:

أيها الإخوة، هناك الغنيمة وهناك الفيء، فالغنيمة ما تؤخذ من العدو عقب حربٍ سجالٍ بين المسلمين وأعدائهم، هذه الغنيمة شَرَّع الله طريقة توزيعها، فأربعة أخماسها للمقاتلين، وخُمُسُها مُقَسَّمٌ خمسة أخماس، لله وللرسول الخمس، ولذي القربى، قرابة النبي عليه الصلاة والسلام الخمُس، وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ثلاثة أخماس، هذه هي الغنائم، لكن الفيء هو الذي يؤخذ من العدو من دون قتال، هذا الفيء كلّه لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، يقول الله عزّ وجل:

(وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ)

أي أن هذا الفيء ما كان بسبب قتالٍ مرير بينكم وبين أعدائكم، فبنوا النضير كانوا على مقربةٍ من المدينة، وأصحاب النبي عليهم رضوان الله ساروا إليهم مشياً على الأقدام، وقد ألقى الله في قلبهم الرعب، فتركوا ديارهم وأموالهم، وكان هذا المال فيئاً للنبي عليه الصلاة والسلام بيّن الله جلّ جلاله كيف يُوّزَع هذا الفيء .

(وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ)

معنى: فَمَا أَوْجَفْتُمِ

معنى: فَمَا أَوْجَفْتُمِ، أي ما أسرعتم، وما ركبتم المَطايا إليهم، ولا تَجَشّمتم المشاقّ إلى قتالهم، ولا لقيتم من قتالهم عنتاً ولا مشقةً، إنما ذهبتم إليهم مشياً على الأقدام، ولا استخدمتم البعير في الوصول إليهم.

(وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ)

فائدة جليلة مستفادة من الآية:

هنا وقفةٌ متأنِّية، الله سبحانه وتعالى هو الفَعّال، لكن قد يفعل فعله عن طريق إنسان، وقد يفعل فعله مباشرةً، والله سبحانه وتعالى قادرٌ دائماً وأبداً أن يَمْحَقَ الكافرين بنفسه، ولكن أراد أن يمتحننا.

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا)

(سورة البقرة: الآية 253)

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ)

(سورة محمد: الآية 4)

فالله عزّ وجل حينما يكلِّفنا أن ننشر هذا الدين، حينما يكلفنا أن ننشر الحق من أجل أن نرقى عنده سبحانه وتعالى، هو غنيٌّ عنّا، والحديث القدسي الصحيح:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنّ إِلّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

لو أردنا أن نطبّق هذه القاعدة على حياتنا اليومية، لما دعي الكفّار على الإنفاق على الفقراء ماذا قالوا؟

(أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ)

(سورة يس: الآية 47)

الله عزّ وجل قادر أن يطعم الفقير، وأن ينصر المظلوم، ولكن الإنسان جعله الله خليفته في الأرض ليرقى عنده بالعمل الصالح، فأفعال الله عزّ وجل يمكن أن يجريها عن طريق الخلق، ويمكن أن يجريها مباشرةً، فلذلك هنا:

(وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنّ اللَّهَ)

مع بني النضير اقتص منهم مباشرةً، فألقى في قلبهم الخوف، والمسلمون في معركة بدر قاتلوا المشركين، وكان القتال مريراً، وانتهى بانتصار المسلمين، إنّ الله هو الذي نصرهم، وهو الذي قوّاهم على عدوّهم، ولكن هذه المعركة انتهت بنصرٍ مؤزّرٍ من خلال حربٍ حقيقيةٍ والتحامٍ مرير، لكن في معركة الخندق المسلمون لم يقاتلوا، بل هبّت رياحٌ عاتية خربت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، وقلبت قدورهم، وألقى الله بينهم وبين حلفائهم العداوة والبغضاء، قال تعالى:

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

(سورة الأحزاب: الآية 25)

الله عزّ وجل يمكن أن ينتصر من أعدائه عن طريق المؤمنين، ويمكن أن ينتصر منهم مباشرةً.

(ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

(سورة محمد: الآية 4)

أي حينما يكلِّفنا ربنا ؛ إطعام الفقراء، ومعالجة المرضى، والعطف على المساكين، حينما يكلفنا ربنا أن ننشر هذا الدين إنما ليرقى بنا، إنما ليكسبنا عملاً صالحاً نسعد به إلى أبد الآبدين، فهذه الأعمال الصالحة التي يقوم بها المؤمنون هي في الحقيقة من فعل الله عزّ وجل، فإذا أراد ربك إظهار فضلك عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

كلنا ضعفاء أيها الإخوة، كلنا فقراء، كلنا لا نعلم، لكن من طلب من الله العلم علّمه الله، ومن طلب المال من الله لينفقه على الفقراء والمساكين أغناه الله، ومن طلب القوة ليقوّي بها الحق قوّاه الله، فنحن ضعاف وفقراء ولا نعلم، فإذا طلبنا من الله العلم علّمنا، وإذا طلبنا القوة قوّانا، وإذا طلبنا الغنى أغنانا من أجل أن نعمل صالحاً نرقى به عند ربنا..

وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ

(وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ)

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ)

(سورة المدثر: الآية 31)

الرعب والخوف من جنود الله:

أحياناً فيروسٌ لا يرى بالعين، من أضعف خلق الله قاطبةً.. هذا فيروس الإيدز أضعف فيروسٍ عرفه العلماء حتى الآن.. إن خرج في الهواء بعد ثوانٍ ويموت، هذا الفيروس الضعيف دولٌ عُظمى، وهيئات علميةٌ في أعلى درجات العلم، وأموالٌ فلكية، ألوف المليارات أنفقت من أجل أن نبحث عن مصلٍ مضادٍّ لهذا الفيروس، لم يصل العلم الآن إلى هذا المَصْل، والعالم كلُّه مكتوف اليدين ينظر إلى خمسةٍ وثلاثين مليون مصاب بالإيدز، وفي كل عشر ثوانٍ يموت إنسانٌ بالإيدز في بعض البلاد الغربية فقط، هذا من جنود الله.

الطاعون من جنود الله، وإلقاء الخوف في قلوب الكفّار من جنود الله، والخوف أحد الجنود، وربنا عزّ وجل لا يعلم جنوده إلا هو، أن يلقي الله في قلب أعدائه الخوف هذا من جنود الله عزّ وجل، أن يبتليهم بالأوجاع التي لم تكن في أسلافهم من جند الله عزّ وجل.

الآن جنون البقر لم يعرف العلماء حتى الآن مسببات هذا المرض، لكنهم يرجّحون أن مسببات هذا المرض أقلّ من الفيروس، كائن حي، لكن لم يهتدوا إلى طبيعته، هذا الكائن الحي المسبب العامل الممرض سبّب كارثة لبلدٍ تعيش على بيع لحوم البقر، من أقصاها إلى أقصاها كلّها مراعٍ وتُربّى فيها البقر، وهم الآن يواجهون أزمةً اقتصاديةً لا حدود لها، لأن الله سبحانه وتعالى سلّط على أبقارهم مسبباً لهذا المرض أقلّ من الفيروس، هذا من جنود الله عزّ وجل، لأنهم خالفوا منهج الله، وأطعموا هذا البقر طحين لحم الجِيَف، وطحين الدم المجفّف، والله سبحانه وتعالى حَرّم الميتة والدم ولحم الخنزير.

الآيات بين أيدينا، الآيات الدالة على صحّة هذا المنهج، وعلى أحقِّيته، وعلى أنّ هذا الدين دين الله، وعلى أنّ هذا الدين شرع الله، وعلى أنّ هذا الدين هو الحق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الأدلّة والآيات أكثر من أن تُحصى.

أيها الإخوة :

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلا هُوَ)

إن الإنسان محاط بمليارات جنود لله عزّ وجل، فإن لم يستقم على أمر الله يأتِه الجنود من حيث لا يشعر، تارةً من صحّته، وتارةً جرثوم، وتارةً فيروس، وتارةً مسبّب للمرض، وتارةً في ماله، أحياناً تُسلّط ذبابةٍ على محصولٍ قيمته مئات الألوف، هذا المحصول يفنى، يصاب بمرض، وحتى الآن الذبابة البيضاء لا أحد يعرف كيف الخلاص منها، ذبابة تُسلّط على الخضراوات في الصيف، هذا مرض، هناك أمراض تصيب النباتات، وهناك أمراض تصيب الحيوانات، هناك أمراض تصيب الإنسان، وهناك خوف يُلْقَى في قلب الإنسان، هذا كلّه من جنود الله..

(وَلَكِنّ اللّهَ يُسَلّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ)

ألا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

إنه لا ينجينا من الله إلا أن نطيعه، ولا ملجأ منه إلا إليه، ولا مَفَرّ منه إلا إليه، لذلك الله عزّ وجل قال:

(ألا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد: آية " 28 ")

هو الذي خلق قلوبنا، هذا القلب البشري لا يطمئن إلا بذكر الله، ولا يسعد إلا بذكر الله.

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

لا يضلُّ عقله، ولا تشقى نفسه.

في الآية لفتة لطيفة، وهي أن الله سبحانه وتعالى قدّم الذكر على الاطمئنان فقال:

(ألا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

ولو أنه قال: تطمئن القلوب بذكر الله لكان المعنى أنها تطمئن بذكره وبغير ذكره، إذا قلت: نعبد إياك يا رب، أي نعبدك، وقد نعبد غيرك، أما إذا قال الله عزّ وجل:

(إِيّاكَ نَعْبُدُ)

(سورة الفاتحة: الآية 5)

أي أنّه قدّم المفعول على الفعل، هذا تقديم الحصر والقصر، أي إن هذه الآية الواضحة الجليّة تبيّن أنه لا يمكن لمخلوقٍ أن يسعد إلا بذكر الله، بذكر عظمته، وذكر أمره، وذكر رحمته، وذكر فضله، والاستقامة على أمره ..

(وَلَكِنّ اللّهَ يُسَلّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

وَاللّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

هو قدير أن ينصرك على عدوّك، وقدير أن يكفّ يد عدوّك عنك، لكن ابحث عن الذي يرفعك عند الله، ابحث عن الذي يرقيك عند الله عزّ وجل، أحياناً الحدث يقع على يد إنسان، وأحياناً يقع من قِبَل الله مباشرةً، وهذا ما يسمّيه الناس القضاء والقدر.

مثلاً: إذا وقع طفل من الشرفة فمات فهذا من قضاء الله وقدره، وأحياناً إنسان عن حيطةٍ وعن حذرٍ يدهس صبيّاً، مات الصغير بالقضاء والقدر المباشر، ومرّةً بالمقضي عن طريق إنسان، فكلُّه فعل الله عزّ وجل، ولكن أحياناً يحقق الله أفعاله مباشرةً، وقد يحققها من خلال بعض الكائنات..

(وَاللّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أي أن الإنسان في قبضة الله.

هناك مثل ضربته قبل يومين: إن هذه اللعب بالسيارات الكهربائية.. لو أن عشر سيّارات اتجهت نحو سيارةٍ كي تجعلها في زاوية، والذي يملك قطع التيار عن هذه الساحة لو فعل هذه الحركة لعطّل كل الحركات، الأمر كلّه بيد الله عزّ وجل، أي إنها قضية تقوية، الله يقوي إنسانًا، ويضعّف إنسانًا، فإذا كنت مع الله قوّاك الله، وإذا ابتعدت عنه ضعفت، فإذا كان الإنسان مع الله لا يخشى أحداً، وإن لم يكن مع الله خاف من كل شيء..

(مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

الحقيقة أنّ هذه قصّة جرت للنبي مع بني النضير، كيف أجلاهم ؟ وكيف خانوا العهد ؟ ثم كيف تآمروا على قتله ؟ ثم كيف أجلاهم، وأخذ منهم أموالهم على أنه فيءٌ أنعم الله به على المؤمنين ؟

قاعدتان مهمتان من قصة بني النضير:

ولكن من خلال هذه القصّة وردت قاعدتان، إن هاتين القاعدتين هما أصلان من أصول حياة المسلمين..

القاعدة التشريعية الأولى: كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

نقف عند هذه القاعدة قليلاً، هذا المال أيها الإخوة قِوام الحياة، جعله الله قِوام الحياة، هذا المال وضعه الطبيعي، وضعه السليم، وضعه الصحّي هو في خدمة الإنسان إذا كان متداولاً بين جميع الناس، أي إذا كان بين أيدي مجتمع ما كتلة نقدية، هذه الكتلة النقدية ينبغي أن تكون متداولة بين كل الناس، كل الناس يعيشون، ويأكلون، ويشربون، ويسكنون، ويتطبّبون، ويتنزّهون، ويلبسون.. إلخ، أما إذا تجمّع المال في أيدٍ قليلة وحُرِمت منه الكثرة الكثيرة اختل توازن المجتمع، لذلك تعدُّ هذه الآية على أنها جاءت عرضاً في سورة الحشر، وفي قصّة بني النضير، إلا أنّ هذه الآية لا يقلِل من قيمتها ولا من شموليّتها أنها وردت في هذه القصّة، لأن القواعد القرآنية تتجاوز مناسباتها، ولعبرة لا بخصوص السبب، بل بعموم الحكم.

الوضع الصحي أن يلد المالُ المالَ:

مثلاً: حينما تلد الأعمال المال، المال يتولّد، من أين ؟ إما أن يتولّد المال من المال، أو أن يتولّد المال من الأعمال، فالوضع الصحيح، والصحّي، والسليم، والذي يعيد المال إلى كل الناس أن يتولّد المالُ من الأعمال، فحينما تزرع أرضاً فأنت بحاجة إلى مهندس زراعي، بحاجة إلى دواء لآفّة معينة، بحاجة إلى عمّال لجني المحصول، بحاجة إلى علب أو عبوات لتعبئة المحصول، بحاجة إلى وسائل لنقل المحصول، بحاجة إلى تاجرٍ يبيع لك هذا المحصول، أنت لا تشعر حينما تزرع أرضاً إلا ومئات الأشخاص قد شاركوك في هذا الربح، فالعمل حينما يكون هو الأصل فريعُ هذا العمل يوزّع بين أيدي

مئاتٍ بل ألوف، بهذه الطريقة فإن المال يتوزّع بين الجميع، ويكون متداولاً بين الجميع، ولو أنك زرعت حقلاً فأنت بحاجة إلى آلاف الأشخاص ؛ من عمّال، من صاحبِ ناقلات، من مهندسين.. إلخ.

إذا أسّست عملاً تجارياً، فإن ربع هذا العمل التجاري يوزّع بين ألوفٍ مؤلّفة، وأنت لا تشعر، إن كنت بحاجة إلى دفتر فواتير فأنت بحاجة إلى مطبعة، والمطبعة تحتاج إلى آلات، والآلات تحتاج إلى حبر وإلى موظّفين، وإلى عناصر كثيرة جداً من أجل أن تؤمّن لك دفتر الفواتير.

دققوا أيها الإخوة، الأعمال إذا ولدت المال كان المال متداولاً بين الجميع، لذلك الإسلام لا يسمح للمال أن ينمو إلا من خلال الأعمال، أما إذا سمحنا للمال أن يلد المال تجمّع المال في أيدٍ قليلة، وحُرمت منه الكثرة الكثيرة، فاختلّ توازن المجتمع، وصار الواحد يملك مليونًا، ومليونٌ لا يملكون واحداً، ومن اختلال هذا التوازن نشأت الاضطرابات، نشأت أعمال العنف، اتسعت السرقات، الاغتصاب، الاحتيال، وكل أمراض المجتمع تنجم من اختلال توازن توزيع المال بين فئات المجتمع، لذلك هذه قاعدة أساسية.

أيها الإخوة الكرام، حياتنا الاقتصادية تشبه مخروطاً، هذا المخروط له ارتفاع، وله حلقات متناقصة في المساحة، فكلّما ارتفع السعر ضاقت الشريحة التي تستفيد من هذه السلعة، لتكن فاكهةً، لتكن لحماً، لتكن أي شيء، إذا ارتفع السعر ضاقت الشريحة، إذا انخفض السعر اتسعت الشريحة، وأوضح مثل هو الفواكه إذا رخصت اشتراها كل الناس، فإن غلت اشتراها بعض الناس.

أيها الإخوة، كل شيءٍ يؤدّي إلى رفع السعر حرّمه القرآن الكريم، حرّم الاحتكار، الاحتكار، ويمكن للمحتكر أن يربح أضعافاً مضاعفة، أن يربح بالمائة خمسمائة، لأن هذه البضاعة محصورةٌ فيه، وله أن يجعل سعرها كما يشاء، لذلك المحتكر خاطئ، كما قال عليه الصلاة والسلام فعَنْ مَعْمَرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ))

[مسلم]

لأن الاحتكار يرفع السعر، وإذا ارتفع السعر ضاقت الشريحة المستفيدة من هذه السلعة، فإذا ضاقت تمتّع بها قلّةٌ قليلة ممن يملك المال، وحُرمت منها كثرةٌ كثيرة ممن لا يملك المال، إذاً: الذي رفع السعر هو الاحتكار، الاحتكار محرّم، الذي رفع السعر هو الكذب والتدليس أحياناً، توهم الشاري أن هذه البضاعة من نوع مُعَيَّن فيُقبِل على شرائها، وهي ليست كذلك، فالاحتكار والكذب والتدليس والغش، وكل ما من شأنه أن يرفع الأسعار هو في الحقيقة يخلُّ بالتوازن بين أفراد المجتمع، فهذه القاعدة الذهبية التي وردت في هذه السورة:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

والآية التي تقابلها، والتي توضِّحها:

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ)

(سورة البقرة: آية " 188)

هذه الآية فيها روعة ما بعدها روعة، ذلك أن مال أخيك سَمّاه الله مالك، لم يقل: لا تأكلوا أموال إخوانكم، لا تأكلوا أموال غيركم، لا تأكلوا أموال بعضكم، بل إنه قال:

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

أي أن هذا المال مال أخيك، هو من زاويةٍ واحدةٍ مالك، هذه الزاوية أي أنك مطالبٌ أن تحافظ عليه كما لو أنه مالك..

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

مال أخيك مالك من زاوية أنك مطالبٌ أن تحافظ عليه، كيف أنك تحافظ على مالك ؟ كذلك تحافظ على مال أخيك.

إذا افتقر أخوك فأنت ملزمٌ به، فإذا حفظت ماله حفظت نفسك، وإن أخذت ماله ظُلماً أفقرته فضعُفت بضعفِه، قال تعالى:

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

وهذه إشارة لطيفة إلى أن المال يجب أن يكون بين الناس جميعاً، فلذلك سيدنا عمر رضي الله عنه كلّما التقى بأحد الولاة أول سؤالٍ يطرحه عليه: << **كيف الأسعار عندكم يا فلان ؟** >>، لأن الأسعار إذا تدنّت رحِمَ الله الناس بها، وإذا ارتفعت شقي الفقير، والإنسان أحياناً كما قال الإمام علي كرّم الله وجهه: << **كاد الفقر أن يكون كفراً** >>، والإنسان إذا افتقر لم يجد ما يأكل، لم يجد ما يلبس، لم يجد المال الكافي لزواجه أو لسكنه في مأوى، فاختلف وضعه، وأعرض عن الدين، وفكّر في الذي لا يرضاه الله عزّ وجل، فكل إنسان يُخِلُّ بهذا التوازن، أو يحرم الناس حقّهم الطبيعي هو ظالمٌ.

سيدنا عمر سأل أحد الولاة فقال: **<< ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارقٍ أو ناهب ؟ قال: أقطع يده، قال: فإن جاءني من رعيّتك من هو جائعٌ أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسدّ جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفِّر لهم حرفتهم، فإن وفّينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خُلِقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية >>.**

الربا من العبد مقابَلٌ بحربٍ من الله رسوله:

أيها الإخوة، المال يكون متداولاً بين الناس من خلال الأعمال، ويُجَمّعُ المال في أيدٍ قليلة، وتُحرَم منه الكثرة الكثيرة إذا نما ذاتياً عن طريق الربا، لذلك أشدُّ المعاصي عند الله عزّ وجل الربا، لماذا ؟ لأنه يقضي على سلامة مجتمعٍ بأكمله، فإذا نَمّى الإنسانُ ماله عن طريق الربا حرم الكثرة الكثيرة من ماله، وجُمِّعت الأموال بأيدٍ قليلة، والله سبحانه وتعالى تَوَعَّد المرابين بحربٍ من الله ورسوله:

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ)

(سورة البقرة: الآية 279)

وإلا ..

(فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: الآية 279)

لأن المعصية تشتدّ خطورتها إذا اتسعت رقعتها، والإنسان قد يشرب الخمر وحده، مَن يضرُّ ؟ يضر نفسه فقط، أما إذا زنى فإنه أفسد فتاةً معه، وإذا أكل الربا أفسد مجتمعاً بأكمله، لأن المال قِوام الحياة، وقد جعل الله المال قِوام الحياة.

لو أن شابًا مثلاً أمّنت له عملا بدخل معقول، وأمّنت له مأوى فتزوّج، إذا تزوج انطلق إلى عمله نشيطاً، وأمّن فتاةً تبحث عن زوج، فتاة وشاب تزوجا في مأوى، وله عملٌ يعيش منه، هذه أسرة، هذه خلية من خلايا المجتمع صحيحة، فإذا بُني المجتمع على أساس صحّي نما وتقدّم، فلذلك القاعدة الأولى:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

أي متداولاً.

المال الحلال والعمل المشروع واجب شرعي:

هذا البحث يطول جداً، والمجتمع الإسلامي بأكمله مبنيٌ على هذه القاعدة: المال قِوام الحياة.. **" وحبّذا المال أصون به عرضي وأتقرّب به إلى ربي "..**

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى))

[متفق عليه]

وقد أمسك النبي عليه الصلاة والسلام بيد عبد الله بن مسعود، وكانت خشنة من العمل، أمسكها ورفعها وقال:

((إن هذه اليد يحبها الله ورسوله))

[ورد في الأثر]

وهناك عشرات الأحاديث الصحيحة تبين أن الإنسان حينما يعمل من أجل أن يكفي نفسه، ويكفي أهله، وأن يتقرّب إلى ربه، وكان عمله مشروعاً، وسلك فيه الطُرُقَ المشروعة، ولم يشغله عن فريضةٍ أو واجبٍ ديني انقلب العمل إلى عبادة، والأدلّة على هذا كثيرة:

حينما سأل النبي عليه الصلاة والسلام شاباً يصلي في المسجد فقال له:

((من يطعمك ؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك))

[ورد في الأثر]

ومرّةً أثنى الصحابة على رجل فقال:

((من يطعمه ؟ قالوا: كلّنا نطعمه، قال: كلكم أعبد منه))

[ورد في الأثر]

وقد التقى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه رجلاً يقرأ القرآن، فقال: **<< إنما أنزل هذا القرآن ليُعمَل به، أفاتخذت قراءته عملاً ؟ >>.**

المسلمون الآن يجب أن ينهضوا عن طريق العمل، والعمل في الإسلام مقدّس، وحينما يعمل الإنسان فإنه يتألّق، وحينما يعمل، ويكسب مالاً حلالاً، وينفقه لحلّ مشكلات الناس يرقى عند الله عزّ وجل.

إذاً القاعدة الأولى:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

أيّ سلوكٍ يُجَمِّع الأموال في أيدٍ قليلة فهو محرّم، لو عُدتم إلى كتب الفقه لوجدتم أن مئاتٍ من التصرّفات حرّمها النبي عليه الصلاة والسلام لأنها تؤدي في النهاية إلى تجميع الأموال في أيدٍ قليلة، لذلك:

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[الترغيب والترهيب عن ابن عباس، وسنده ضعيف]

ولا يكون مطعمك طيباً إلا إذا كنت صادقاً فيه، ومتقناً له، مخلصاً في أدائه، مطبقاً منهج الله في التعامل معه، عندئذٍ يكون الكسب حلالاً، فإن اشتريت بهذا المال طعاماً كان هذا الطعام طيباً، فإذا طاب مطعمك كنت مستجاب الدعوة، دققوا، هذا هو الدين، الدين أن ننطلق جميعاً إلى أعمالنا بإخلاص، بإتقان، بصدق، بأمانة ؛ دون كذب، دون تدليس، دون احتكار، دون استغلال، دون إخفاء عيوب، دون إيهام، وكل سلوكٍ من شأنه أن يضرّ المشتري فهو محرّم، كل سلوكٍ فيه إخفاء حقيقة عن المشتري فهو محرّم، فإذا استقمنا في تجارتنا أكرمنا الله عزّ وجل بالرزق الحلال.

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: الآية 96)

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ))

[أبن ماجه، أحمد]

أيها الإخوة الكرام، لا يوجد أروع من إنسان أدّى صلواته الخمس، وانطلق إلى عمله ليثبت للناس أن الإسلام منهجٌ كامل، فيجب أن يكون المؤمن في عمله ملفتاً للنظر بصدقه، باستقامته، بأمانته، بعدم غشّه، والله عزّ وجل وحده هو الرزّاق ذو القوّة المتين.

هذه آية وردت في سورة الحشر، وفي معرض الحديث عن بني النضير، وكيف أن النبي صلى الله عليه وسلّم أخذ هذا المال، وأعطاه للمهاجرين دون الأنصار، الأنصار تبوءوا الدار والإيمان، وهم مقيمون في بلدهم، عندهم بساتينهم، عندهم منازلهم.

أما هؤلاء المهاجرون فقد أتوا من مكّة بلا مال، بلا ضياع، بلا بساتين، بلا بيوت، آثروا الله ورسوله، فالنبي عليه الصلاة والسلام استشار الأنصار، فكان جواب الأنصار ملفتاً للنظر، إما أن نعطيهم هذا الفيء، وأن ينزلوا لكم عن كل ما أعطيتموهم، وإما أن نُقَسِّمه بينكم سويّة، فقالوا: **" بل يبقون عندنا كما كانوا، ونؤثرهم بهذا المال "**.

الحقيقة إذا كنّا نريد نموذجين من المؤمنين متعاونين إلى أقصى الدرجات فعلينا أن ندرس حياة الأنصار والمهاجرين، لذلك جاءت الآية الكريمة:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

القاعدة التشريعية الثانية: وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

هذا القرآن الكريم وحي الله إلى بني البشر، وحي السماء إلى الأرض، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام كل ما قاله موضحاً لهذا الكتاب يُعَدُّ مصدراً ثانياً من مصادر التشريع، فهناك وحي متلو هو القرآن الكريم، ووحيٌ غير متلو هو تشريع النبي عليه الصلاة والسلام، وإن ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام هو تبيّينٌ، وتفصيلٌ وتوضيحٌ لما جاء في كتاب الله، فلذلك كل من أراد أن يلغي سُنّة رسول الله يقع في مطبٍّ كبير، وهو يكذِّب القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم يقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

وذكرت هذا قبل قليل أن خصوصية السبب لا تُلغي عموم الحكم، لعلّ سياق هذه الآية: أن أيها الأنصار، أو أيها المهاجرون..

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ)

من غنائم فخذوه، وما لم يؤتكم فلا تعترضوا على ذلك، إنه لا ينطق عن الهوى.

إن الأنبياء وحدهم يتحرّكون وفق أمر الله لهم، حتى في تفاصيل سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ما تحرّك حركة إلا بأمر الله، فلذلك هو في أقواله مشرّع، وفي أفعاله مشرّع، وفي إقراره مشرّع، وفي أحواله مشرّع ..

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

ولكن إذا تجاوزنا موضوع الغنائم والفيء إلى ما هو أوسع ؛ كل أقوال النبي تشريع، وكل نهي النبي تشريع، وكل إقرار النبي تشريع، وكل عدم إقرار النبي تشريع، وكل أحوال النبي تشريع، لذلك عَرّفوا سنّته بأنها: أقواله وأفعاله وإقراره وأحواله..

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

أعداء الدين متأكِّدون أنهم لن يستطيعوا أن يواجهوا هذا الدين إلا من بابٍ خفي، تارةً بإلغاء السنّة، وتارةً بتأويل القرآن تأويلاً لا يرضي الله عزّ وجل، فالمسلم يجب أن يكون يقظاً، وأية دعوةٍ إلى ترك السنّة هي دعوةٌ إلى مخالفة القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم يقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

فهاتان الآيتان اللتان وردتا في سورة الحشر في سياق إجلاء بني النضير هما قاعدتان أساسيتان في المجتمع الإسلامي، المصدر التشريعي الكتاب والسنّة، الكتاب وحي السماء إلى الأرض، والسنّة تبيين النبي عليه الصلاة والسلام.

والقاعدة الثانية: أن الإنسان بعد أن يُخلَق، وبعد أن يهتدي إلى الله قِوام حياته المال، هذا المال في مبادئه العريضة يجب أن يكون موزّعاً بين كل الفئات، فلذلك الإنسان ترتاح نفسه إذا رأى الناس جميعاً في حالة سَمّاها النبي الكفاية، فعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا، وَقَنَعَ))

[الترمذي]

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

الكفاف لا يعني الفقر، كما أنه لا يعني الغنى، أي أن تجد ما تغطي به حاجاتك، أن يكون دخلك مقابلاً لنفقاتك المعقولة، لكن الناس يلهثون وراء الغنى، ووراء الترف، ووراء التبذير، قد يقول لك: أنا فقير، لأنه لا يجد ما ينفقه على ملاذِّه غير المشروعة، وكلكم يعلم أن الإنسان إذا أنفق مالاً على معصيةٍ سمِّي مبذِّراً، وأنه إذا أنفق مالاً في مباحٍ أكبر مما يجب سمِّي مسرفاً، وربنا عزّ وجل نهى عن الإسراف، ونهى عن التبذير، وقال بعضهم: من دَخَّن وهو غني عُدَّ مبذِّراً، ومن دخَّن وهو فقير ماذا نسميه ؟ سفيهاً، السفيه هو الذي ينفق ماله بغير حكمة، هذا مال أولاده، وقوت أولاده، وقِوام حياته أنفق نصفه على ما يؤذيه، فمن دخَّن وهو غني عُدَّ مبذِّراً، ومن دخَّن وهو فقير عُدَّ سفيهاً، فلذلك هنا:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ)

أي أطيعوه.

(إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

القضية أعمق من ذلك، هذا هو الحق، وهذا هو الباطل، يجب أن يكون المال متداولاً بين الناس، يجب أن يكون المصدر التشريعي القرآن والسنّة، إن أبيتم ذلك فهناك علاجٌ إلهي..

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(25))

(سورة الأنفال)

الإنسان بين تكريم الله له والتضييق عليه:

هذا ينقلنا إلى موضوع دقيق ؛ هو أن الله رب العالمين أمرَ ونهى، ولكنه يتابع ما تفعله أنت أيها الإنسان، إن اتخذت قراراً سليماً شجّعك على ذلك، وشرح صدرك، وأكرمك وأعطاك، ورفع قدرك، وإن اتخذت قراراً سيئاً، اتبعت شهوتك، وآثرت الدنيا على الآخرة، ضيّق صدرك..

(يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

(سورة الأنعام: الآية 125)

ثم عالجك.

النقطة الدقيقة هنا أن القضية أكبر من أنّه أمر ونهى، لا، أنت افعل ما تريد، هو يتابعك لأنه ربك، وأنت يمكنك أن تقوم بتعيين موظف، وأن تقول له: هناك شهران للتدريب، فإما أن أقبلك بعد شهرين موظّفاً دائماً، وإما أن أصرفك، أنت بإمكانك أن تراقبه مراقبة دقيقة، وأن تسجّل عليه كل أخطائه، فإن كثرت هذه الأخطاء صرفته، واستغنيت عن خدماته، أنت بهذا لست مربياً، إنك صاحب عمل، لكنك

لست مربياً، أما لو أن هذا الإنسان المتمرّن كنت حريصاً عليه فإنك عند أول خطأٍ تنبّهه قائلا: هذا الخطأ لا تعِده، عند أول انحرافٍ تلفت نظره، تقوّم نفسه، موقف المربّي أكمل بكثير، وحينما تتخذ قراراً سليماً يشجعك رب العالمين، ويشرح صدرك، وهذه معاونة منه لك، ويكافئك، ويرفع قدرك، أما حينما تتخذ قراراً خاطئاً فإنه يضيّق صدرك..

(يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

وهذا التضييق في الصدر معاونة لك من أجل أن تترك هذا السلوك، أحياناً يسوق لك الشدائد، أحياناً يضيّق عليك، لذلك ربنا عزّ وجل شديد العقاب، أي يتابع الأمور، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا أحبّ الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن شكر اقتناه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة وابن مسعود]

((إذا أحبّ الله عبده عاتبه في منامه))

[الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف]

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا))

[الترمذي]

((إذا أراد الله بعبده خيرًا جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه))

[الجامع الصغير عن أم سلمة بسند ضعيف]

إذا وجد الواحد منّا نفسه في متابعة من الله، وفي عنايةٍ مشدّدة فليحمد الله على هذا كثيراً، أما إذا وجد نفسه ينحرف، ولا يُحاسب ليعلم أن الله يمقته، وأنه أخرجه من دائرة العناية المشدّدة، فالذي نرقى به عند الله أن نكون في دائرة العناية المشدّدة..

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

إن الإنسان إما أن يأتي الله طائعاً، وإما أن يأتيه كرهاً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ))

[البخاري]

سلاسل الامتحان والتأديب والتضييق.

على كلٍ، الإنسان إن وصل إلى الله بأية طريقة فهو من الفائزين، إما أنه يأتي الله طوعاً، أو يأتيه عقِب تضيقٍ أو تشديد .

هؤلاء هم المهاجرون:

1 ـ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ

لِمَن الفيءُ ؟

لكن هذا الفيء لمن ؟ قال الله عزّ وجل:

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ)

(سورة الحشر: الآية 8)

إنسان مستقر في بلده ؛ له دكّان، له منزل، له بستان، له مركز، له أقرباء، ما ذنب هؤلاء المهاجرين ؟ لهم ذنبٌ واحد ؛ أنهم آمنوا بالله ورسوله، عندما آمنوا بالله ورسوله ضَيّق عليهم كفّار قريش، ونكّلوا بهم حتى حملوهم على الهجرة، قال تعالى:

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ)

الفقر ليس وصمة عارٍ :

بالمناسبة، لا يمكن أن يكون الفقرُ وصمة عارٍ في حق الإنسان، وصمة العار هي المعصية.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي]

إن الإنسان لا ينبغي أن يستحي من الفقر بل ينبغي أن يستحي من المعصية، هؤلاء قِمَمٌ عند الله عزّ وجل وهم فقراء، والمهاجرون لأنهم آمنوا بالله ورسوله تركوا أموالهم، تركوا بيوتهم، تركوا تجارتهم، تركوا بساتينهم، تركوا أهلهم، ونصروا النبي عليه الصلاة والسلام، وجاءوا معه، ولو أن رجلاً منّا له بيت، ومتجر، وبيت في المصيف، ومركبة، فجأةً أُخِذ ووُضِع على رصيف في مدينة بعيدة، وليس في جيبه درهمٌ واحد، هذه هي الهجرة، اقتلاع من الجذور، إنسان متمكِّن له دخل، له بيت، له مأوى، له متجر، له مكانة، يأتي إلى بلد آخر بعيد لا شيء معه إطلاقاً، فالفقر ليس وصمة عارٍ في حقّ الإنسان، بل بالعكس، كن مستقيماً والله سبحانه وتعالى يغنيك، أما لو أنّ الإنسان عصى ربّه لو أنه غني فإنّ الله عزّ وجل يؤدِّبَهُ على غنى..

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا)

2 ـ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا

نحن ماذا نبتغي ؟ هل نبتغي طاعة الله ؟ هل نبتغي فضل الله العظيم ؟ هل نبتغي جنّته ؟ هل نبتغي محبّته ؟ هل نبتغي خدمة خلقه ؟ هل نبتغي نشر دينه ؟ هل نبتغي معونة الضعفاء والمساكين ؟ هل نبتغي عملاً صالحاً يقرّبنا إليه ؟ قال تعالى:

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

3 ـ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

أنت أحياناً تنصر هذا الدين بالصدق، تنصره بالأمانة، تنصره بأداء العبادات، تنصره بحضور مجالس العلم، تنصره بتكثير سواد المسلمين، هناك مليون طريق يمكن من خلالها أن تنصر هذا الدين، إذا كنت صادقاً فهذا نصرٌ للدين، إذا كنت أميناً فهذا نصرٌ للدين، إذا كنت مخلصاً فهذا نصرٌ للدين، إذا كنت متقناً فهذا نصرٌ للدين، إذا كنت عفيفاً فهذا نصرٌ للدين، إذا كنت معطاءً فهذا نصرٌ للدين، هؤلاء المهاجرون الفقراء..

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ)

4 ـ أُولَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ

لماذا هم صادقون ؟ لأن أفعالهم أكّدت أقوالهم.

قال لك شخصٌ: لو أتيتني لأعطيتك ما تريد، طرقت بابه، وقلت له: أعطني فأعطاك، كلمته السابقة هل هو صادقٌ بها أم كاذب ؟ ما دام قد أعطاك فهو صادق، هؤلاء المهاجرون آمنوا بالله، وكلٌ منّا بإمكانه أن يَدّعي الإيمان بالله، لكنهم آمنوا وهاجروا، آمنوا وآثروا، آمنوا وأنفقوا، آمنوا وجاهدوا، آمنوا وضحوا بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس، آمنوا فجاءت أفعالهم مؤيدةٌ لأقوالهم، هذا برهان، و النبي قال:

((وَالصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ))

[الترمذي عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ]

المال محبّب، أما إذا أنفقته فإنك تؤكِّد لنفسك ولمن حولك ولربك أنك صادق، غض البصر يؤكِّد إخلاصك لله، ضبط اللسان يؤكِّد إخلاصك لله، فهؤلاء المهاجرون..

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)

أما الأنصار.

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

(سورة الحشر: الآية 9)

هؤلاء هم الأنصار:

1 ـ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ

هم في بلادهم، وبيوتهم، وبساتينهم، لكن الإيمان دخل إلى أعماق أعماقهم.

(تَبَوَّءُوا الدَّارَ)

وكانوا بإيمانهم مخلصين..

(يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ)

2 ـ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

هذه علامة الإيمان، أن تحبَّ المؤمنين، أن لا ترى المؤمن عبئاً عليك، مؤمن أتاك تستقبله بالترحاب، تؤثره بما عندك.

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ)

يحبونهم.

عنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ))

[متفق عليه]

وفيما بيننا أن يحب بعضكم بعضاً هذا من علامة إيمانكم، أما فلان أحقد عليه، فلان أغار منه، فلان أحسده، فلان أتمنَّى دماره، فلان أتمنى أن لا ينجح لئلا يفوز عليّ، هذه علامة النفاق، حبُّ المؤمنين إيمان، وبغضهم نفاق..

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ)

هذا وصف الله لهم.

3 ـ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا

لما آتاهم النبي فيء بني النضير.. آتى المهاجرين أمام أعين الأنصار، تحت سمعهم وبصرهم، وما شعروا بشيء، ما شعروا بالحرج، ما تألّموا، ما اغتاظوا..

(يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

4 ـ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

المؤمن ينطلق من الإيثار، يؤثرون على أنفسهم إخوتهم المؤمنين، مع أنهم في أشدِّ الحاجة إلى هذا المال.

قد تقول لإنسان: خذ هذه الحاجة، أنت لا حاجة لك بها، فائضة عن حاجتك، فتعطيها، هذا عطاء ولا شك، لكن قيمته تقلّ، أما حينما تكون في أمَسّ الحاجة إلى شيء وتعطيه أخاك المؤمن، حينها انطبقت عليك هذه الآية:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

والله أعرف إخوة مؤمنين استطاع أن يؤمِّنوا بيتاً، فإنْ خطب أخاه، وليس له بيت آثره به، وقال له: أنا بعد حين أبحث عن بيت، خذه، والحقيقة أننا لا نرقى عند الله إلا بالمؤاثرة، والإنسان إذا عاش في مجتمع فيه مؤاثرة يصير المجتمع جنّة الله في الأرض..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ، فَظَهْرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ، فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[الترمذي]

هذا وصف دقيق جداً، وهؤلاء نماذج يجب أن تكون متكررة، أنا لا أسمي مجتمع الإيمان مجتمعاً حقيقياً إلا إذا كان فيه أنصار ومهاجرون، انظر إلى هذا الوصف:

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

على فقْرِهِ، وعلى ضيق ذات يده، وعلى حاجته الماسّة يُعطي أخاه المهاجر، خذ مالي، خذ نصف مالي، خذ هذه الدكان، خذ هذا البستان، والمهاجرون في أعلى درجات العِفّة، بارك الله لك في مالك، ولكن دلّني على السوق.

إن لم نعش حياة هؤلاء فلسنا مسلمين:

إخواننا الكرام، إن لم نعش حياة هؤلاء فلسنا مسلمين، يجب أن نعيش حياتهم، أن نعيش محبّتهم، أن نعيش مؤاثرتهم، أن نعيش تعاونهم، أن نعيش علاقتهم المتينة فيما بينهم، فلذلك يد الله مع الجماعة عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ))

[الترمذي]

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ، يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ، فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ وَالْمَسْجِدِ))

[أحمد]

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

1 ـ الشح مرضٌ خطير:

هذه الآية إن شاء الله لنا عودة إليها في الدرس القادم لأنها مهمّة جداً، فيها تفصيلات دقيقة جداً، ولكن أخطر مرضٍ يصيب النفس هو الشُح، والشح أهلك من كان قبلنا، وإذا وقي الإنسان من شُحّ نفسه فقد أفلح ونجح، والشُحُّ أن تأخذ ما ليس لك، الشُحُّ أن تبيع دينك بعرضٍ من الدنيا قليل، الشح مرض الأمراض، كل الأعراض الخطيرة هي أعراض لمرض واحد وهو الشُح.

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

والله عزّ وجل هو الرزّاق ذو القوة المتين.

2 ـ هؤلاء بريئون من الشح:

أيها الإخوة، قال عليه الصلاة والسلام:

((برئ من الشح من أدّى زكاة ماله، وأعان على النائبة))

[الجامع الصغير عن خالد بن زيد حارثة، وفي سنده ضعف]

((برئ من الشح من أقرى الضيف))

[ورد في الأثر]

الذي يعين على النائبة برئ من الشح، والذي يقري الضيف برئ من الشح، والذي يؤدي زكاة ماله برئ من الشح، أما إذا قتَّر على نفسه لحكمةٍ يراها ليس لك أن تسميه شحيحاً إطلاقاً، ومن أدى زكاة ماله، وأقرى الضيف، وأعان على النائبة فإنه ليس شحيحاً، وهذه قواعد قعّدها النبي عليه الصلاة والسلام:

((من حمل سلعتَه فقد برئ من الكبر))

[الجامع الصغير عن أبي أمامة، وسنده ضعيف]

((من أكثر من ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة، وفي سنده ضعف]

هذه الآية الأخيرة إن شاء الله تعالى، وإن أحيانا الله الأسبوع القادم فلنا عودة إليها تفصيلية إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحشر 059 - الدرس (3-5): تفسير الآيات 8- 17
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-06-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الحشر، ومع الآية الثامنة، وهي قوله تعالى:
(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الصّادِقُونَ)

المسلمون في العهد الأول فئتان: مهاجرون وأنصار:

ضرورة استمرار هذين النموذجين:

الله جلّ جلاله بينّ أنه في عهد الإسلام الأول، في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان المؤمنون فئتين؛ فئة هاجرت لله ورسوله، وفئة آوت ونصرت، وكأن الله يريدنا إلى نهاية الزمان أن يكون مؤمنٌ مؤاثر ومؤمنٌ مُكْرِم، فهذان نموذجان أساسيان: إنسان ترك الدنيا لله ؛ ترك ماله، ترك مكانته، ترك بلده، ترك موطنه، ترك أهله، ترك ممتلكاته في سبيل الله، وإنسانٌ آخر آوى ونصر ؛ استضاف هذا الإنسان المهاجر، أعطاه وأسكنه وآواه، أطعمه وسقاه.
أحياناً يخطر في بال إنسان مقيم في بلد متمكِّن، له بيت، وعمل، وتجارة، ومكانة، قد يأتيك طالب علم، لو لم يطلب العلم لعاش بين أهله، وكان معززاً مكرماً، لكنه ترك بلده، وترك أهله، وترك مصادر قوته، وأتى يطلب العلم يريد رضوان الله عزّ وجل، أنت كإنسان مقيم ما واجبك تجاه هذا الإنسان المهاجر ؟
إن الله عزّ وجل ما أراد أن يحدثنا عن شيءٍ وقع، أراد أن يعطينا صورةً للمجتمع الإسلامي إلى نهاية الدوران، في المجتمع الإسلامي قوي وضعيف، القوي يجب أن يعين الضعيف، مقيم ومسافر، مُتَمَكِّن وطالب عِلْم، فالمهاجر والأنصاري هذان النموذجان ينبغي أن يستمرا إلى يوم القيامة، لا نفهم القرآن فهماً محدوداً على أن هناك في حياة النبي أناسٌ مهاجرون وأناسٌ أنصار، يجب أن تكون أنت في آخر الزمان أحد رجلين مهاجرٌ أو أنصاري، إنسان آثرت الله ورسوله على دنياك، وإنسان آخر آوى ونصر.

فقرُ المهاجرين كان بسبب دينهم واستقامتهم:

إن الله سبحانه وتعالى يصف المهاجرين بأنهم فقراء، هذا الفقر ليس مِن كسلهم، وليس من ضعف حيلتهم، ولكن بسبب انتمائهم إلى الدين، بسبب مؤاثرتهم رضوان الله عزّ وجل، وكم من إنسانٍ في حياتنا الدنيا يُصبْحُ فقيراً لأنه مستقيم، وكم من إنسانٍ يكون غنياً لأنه غير مستقيم، لأن المؤمن مقيّد بألفِ قيدٍ وقيد، أما غير المؤمن فمتفلّت يأخذ المال من أية جهة، وبأي أسلوب، وبأي طريق، فلذلك هذا الفقر يعدُّ وسام شرفٍ في حقهم، لهم أهلٌ في مكة، لهم أرض، لهم ديار، لهم ممتلكات، لهم تجارة، لكنهم تركوا أرضهم، وديارهم، وأموالهم، وتجارتهم، وبيوتهم، وجاءوا إلى المدينة المنوّرة فقراء لا يملكون شيئاً، فهذا ليس فقر الكسل، إنما هو فقر الإيمان، ويمكن أن تنسحب هذه الحقيقة إلى نهاية الدوران.

قد يقول أحد الأشخاص: فلان صديقي معه الملايين، وأنا لا أملك شيئاً، لو رجعت إلى التفاصيل لعل الذي صار غنياً، لعل بعضهم لم يكن يهتم بمصدر دخله من طريقٍ مشروع أو من طريقٍ غير مشروع، ببيعٍ شرعي، أو ببيعٍ غير شرعي، ببضاعةٍ محللةٍ، أو بضاعةٍ محرمةٍ، العبرة أن يربح، فأحد أسباب الغنى أن هذا الغني لا يأبه بطريقة كسب المال، وأحد أسباب الفقر أن المؤمن مقيّد، فلا يمكن أن يكذب، ولا يمكن أن يبيع بضاعة محرمة، ولا أن يغش المسلمين، ولا أن يتعاون مع ظالم، فلذلك ربما وجدت المؤمن أقلّ دخلاً من غير المؤمن، فالفقر إذا أضيف إلى المؤمن فلعله وسام شرف، لكم نتمنى أن نكون أقوياء، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ))

[مسلم]

اسعَ أن تكون ذا مال لأن المال قوة، ولكن إذا خُيّرْتَ بين مالٍ حرام، أو بين مالٍ تكسبه على حساب عقيدتك، أو على حساب دينك، أو على حساب مبادئك، فلا كان هذا المال، ولا كان هذا الغنى، والفقر أفضل منه.

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ)

ما ذنبُ المهاجرين حتى أُخرجوا من ديارهم وأموالهم ؟

ما ذنبهم ؟ ما ذنبهم إلا أنهم قالوا: ربنا الله.

لا يخاف الفقرَ مَن اتبع رضوان الله:

إن الإنسان أحياناً يفقد كثيراً من حظوظه من الدنيا، لأنه انتمى إلى هذا الدين، لأنه انتمى إلى الحق، لأنه آثر مرضاة الله عزّ وجل، ألم يقل الله عزّ وجل:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(سورة التوبة: الآية 28)

ماذا قال الله بعدها ؟

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)

(سورة التوبة: الآية 28)

حينما مُنِعوا من دخول بيت الله الحرام ربما تعانون من ضائقةٍ مالية.

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة التوبة: الآية 28)

حينما يتحرّك الإنسان إلى الله عزّ وجل فإنه لا يعبأ بالمال أتى أو لم يأتِ، الأصل هو المبدأ، لكن الذي ضحّى من أجل دينه لابد من أن الله سبحانه وتعالى سوف يغنيه من فضله استناداً إلى هذه الآية:

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)

واقعة محققة.

(فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا)

(سورة الحشر)

قصدُ ونيةُ المهاجرين في هجرتهم:

1- طلَب رضوان الله وحده:

يبتغي رضوان الله، ولا يوجد إنسان أقدس ممّن يبتغي رضوان الله، والإنسان أحياناً يبتغي رضوان إنسان، يبتغي رضوان جهة، يبيع آخرته من أجلها، يبيع دينه من أجلها، وهو مغبونٌ في هذا الاختيار، لأن الله سبحانه وتعالى وحده أهلٌ أن تضحي من أجله، والله عزّ وجل وحده أهلٌ أن تبيعه شبابك، وأن تبيعه عمرك، وأن تبيعه حياتك، وأن تبيعه مالك.

(إِنّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنّ لَهُمْ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة: الآية 111)

لا توجد جهة في الكون أهلٌ أن تهبها حياتك، أو تهبها شبابك، أن تهبها عمرك، أن تهبها علمك، أن تهبها قدراتك، أن تهبها مالك إلا الله، وإذا وهبتَ هذه الأشياء لغير الله فأنت أكبر مغبون، إن وهبت شبابك، وعمرك، وطاقاتك، وذكاءك، ولسانك، وقلمك لغير الله فأنت أكبر مغبون، هؤلاء المهاجرون:

(يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا)

هذه نيّتهم.

2- نصرةُ الله ورسوله:

أما عملهم:

(يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

في كل حركةٍ، وفي كل سكنةٍ، وفي كل كلمةٍ إنما هم ينصرون الله ورسوله، فإذا قمت لتصلي نصرت الله ورسوله، قد يقوم معك آخرون كانوا مترددين، وإذا امتنعت عن دخلٍ حرام نصرت الله ورسوله، وإذا أقمت الإسلام في بيتك نصرت الله ورسوله، أنت إذا أقمت الإسلام في عملك نصرت الله ورسوله، وذا امتنعت عن مصافحة المرأة الأجنبية، وقلت: هذا هو الدين، نصرت الله ورسوله، وإذا امتنعت عن حفلةٍ مختلطة وقلت: هذا يخالف الشرع، نصرت الله ورسوله، وإذا امتنعت عن علاقةٍ ربويةٍ، وبيّنت أنك لا تفعلها لأنها محرمةٌ في الدين، نصرت الله ورسوله، مع أنّ الله غنيٌّ عن أن تنصره، لكنك إذا نصرته بمعنى أنك نصرت دينه، وإذا نصرت دينه أي أقمت دينه، وإذا فعلت مؤكّداً أحقية هذا الدين تشجّع الآخرون.

هؤلاء المهاجرون افتقروا، لا لأنهم ضعيفو الحيلة، بل لأنهم آثروا الله ورسوله.

فقر المهاجرين ليس وصمة عارٍ:

كم مِن إنسان إلى يوم القيامة بسبب انتمائه للدين، بسبب مبدئه، بسبب مواقفه المشرفة، بسبب أنه على الحق، يخسر حظوظ من الدنيا كثيرة ؟ وكم من إنسان بسب تخاذله، وانهزامه الداخلي، وبسبب ضعف إيمانه، وضعف يقينه بالآخرة يصبح غنياً ؟ فهذا الفقر ليس مما يعيب صاحبه، إنه وسام شرفٍ لصدر هذا المُهاجر.

أحياناً تضيع منك الدنيا، وتكسب رضوان الله، لذلك: يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ واللهِ لم يفقد شيئاً، والذي ضيّع الآخرة، وضيع رضوان الله، ونال الدنيا، يا رب ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا فقد من وجدك؟

" ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء ".

إن اتصلت بالله وصلت إلى كل شيء، أنت الغني، أنت القوي، أنت السعيد، وإن فاتك حظك من الدين، وجاءتك الدنيا من أوسع أبوابها فما نلت شيئاً، هؤلاء الفقراء:

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا)

من الممكن أن تشارك إنسانًا في عمل مربح كثيرًا، له ربحٌ وفير، ويفرض عليك طريقة تغضب الله عزّ وجل في كسب المال، فإذا انسحبت من هذه الشركة لأنها لا ترضي الله، وهذه الشركة بحكمةٍ بالغة نما مالها نماءً كثيراً، وصار شريكك الذي انسحبت منه من أكبر الأغنياء، وأنت لم تجد رزقاً وفيراً كما كنت معه، أليس هذا الفقر الطارئ وسام شرفٍ في صدرك ؟ يقول السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام مقولة رائعة: " ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان "، الإنسان يحيا بالمبادئ، يحيا بكرامته، يحيا برضوان الله عليه، يحيا بأمله بدخوله الجنة، فليست الحياة كلها مادةً.

هؤلاء المهاجرون الفقراء أخرجوا من ديارهم لا ذنب لهم إلا أنهم قالوا: ربنا الله، وكم من إنسان فاتته الدنيا لأنه قال: الله ربي، وكم من إنسان فاتته حظوظٌ كثيرة لأنه لم يجامل، لم ينافق، لم يُداهن، لم يمارِ، لم يضع مبدأه تحت قدمه، بل وضع مبدأه على رأسه، فَحُرِمَ من الدنيا، فهل هذا الفقر يعد نقيصةً في حقه ؟ إنه وسام شرف.

بعد الفقر يأتي فضلُ الله العميم:

هؤلاء المهاجرون لهم أرض، ولهم ديار، ولهم تجارة، ولكنهم تركوا أرضهم وديارهم، ومساكنهم، وتجارتهم، ولجؤوا إلى الله ورسوله فكانوا فقراء، لكن فقرهم ليس دائماً، هذا فقر امتحان، فقد أغناهم الله من فضله.

سيدنا عمر حينما جاءت كنوز كسرى كان الرجلان يرفع كل منهما رمحه، والرجل الآخر في الطرف الثاني فلا يرى أحدهما رأس رمح زميله، لأن الغنائم أعلى من رمحيهما، كلُّها ذهب، وتيجان، وأساور، وممتلكات، لقد أغناهم الله من فضله، فهذا الفقر طارئ، فقر امتحان، ثم يأتي فضل الله العميم.

(يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا)

أما سلوكهم:

(وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

الله عزّ وجل غنيٌ عن أن تنصره، لكن حينما تقيم الإسلام، حينما تطبّق تعاليم الإسلام، حينما تعتزُّ بالإسلام، حينما تدافع عن الإسلام، حينما تؤيّد المسلمين، حينما تنصرهم، حينما تبغض أعداءهم، حينما يكون ولاؤك لهم وبغضك لأعدائهم فأنت بهذا نصرت المسلمين.

(أوْلَئِكَ هُمْ الصّادِقُونَ)

(سورة الحشر)

أوْلَئِكَ هُمْ الصّادِقُونَ

هذا مثلٌ من أضيق الأمثلة: شاب سمع من مجلس علم أنه لا يجوز إطلاق البصر إلا في المحارم، فإذا دخل إلى بيته وحوله أمه وأبوه وإخوته، وأراد أن لا ينظر إلى من لا تحلُّ له من قريباته، فأقام عليه النكير أمه وأبوه وإخوته وأعمامه وعمّاته، فإذا جاء مَن يؤيّده فهذا هو الحق، وهذا هو الشرع، هذا الذي دافع عن هذا الشاب المؤمن الذي أراد أن يستقيم على أمر الله، ماذا فعل هذا الإنسان ؟ لقد نصر الله ورسوله، ودافعَ عن موقف شرعي.

هذا الذي يمتنع عن أكل الربا، والناس مِن حوله يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة، فإذا امتنع، واتُّهم بالغباء، وقام أحدٌ وقال: هذا هو الحق، وهذا الدخل حرام، ولا يجوز، إن هذه الكلمة التي تلقيها على مسمع من الناس تنصر بها هذا المستقيم على أمر الله، إن هذا نصرٌ لدين الله، وتقوية الدين، أما إذا تساهلنا في نصرة المؤمنين، ووالينا أعداء المؤمنين، ولم نستجب لله ورسوله فقد خذلنا هذا الدين، وحينما يهون الدين علينا نهون على الله، وحينما يهون أمر الله علينا نهون على الله..

(أوْلَئِكَ هُمْ الصّادِقُونَ)

(سورة الحشر)

الصدقُ دليلُ الإيمان:

الله عزّ وجل سمّاهم صادقين، لأن أفعالهم أيّدَت أقوالهم.

إنسان وعدك أن يعطيك مبلغاً من المال في الوقت الفلاني، فلما جئته وطالبته بالمبلغ نقده لك، هل هو صادقٌ في وعده ؟ بالطبع لأنه دفع لك المبلغ في الوقت المحدد الموعود فهو صادق، وكل مؤمن يطبّق أمر الله عزّ وجل يعد هذا تطبيق مصداقيةً في إيمانه، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَالصّدَقَةُ بُرْهَانٌ))

[الترمذي عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيّ]

لأنها تؤكد صدق صاحبها، فهذا النموذج أنه إنسان يخسر شيئًا من الدنيا، أحياناً أب يكتب لأحد أولاده ظلماً وعدواناً كل ماله، لأن هذا الابن من زوجته الأخيرة، وأولاده الآخرون من زوجةٍ قد طلّقها، ولا يحبها، فإذا كتب هذا المال كلّهُ لابنه من زوجته الجديدة، وحرم أولاده من زوجته المطلقة، فلو أن هذا الابن كان مؤمناً، وأراد أن يرحم أباه، وأن ينقذه من عذاب النار فوزّع هذه التركة بين إخوته جميعاً وفق ما أمر الله عزّ وجل، ألا يخسر ؟ يخسر طبعاً، هل يعدُّ فقره الطارئ ضعفَ حيلةٍ فيه ؟ لا، هذا فقر وسام شرف له.

أعرف عدداً كبيراً والله الأب أعطاهم كل شيء، بعد موت الأب وزّعوا هذا المال على إخوتهم وفق قواعد الشرع، فأنقذوا أباهم من عذاب النار، ورمموا العلاقة بينهم وبين إخوتهم، كانوا أعداء فأصبحوا أحباباً، فهذا الذي كان له خمسة وعشرون دنما بقي له دنمان من الأراضي، هل يعد هذا الفقر ضعفًا فيه؟ لا، هذا الفقر وسام شرف في حقه.

أما في فقر الكسل، إنسان مهمل، غير متقن، كسول، متوانٍ، ذهَب عمره فُرُطًا، مهمل أعماله، هذا فقر اسمه فقر الكسل، هذا وصمة عار، وهناك فقر يأتيك من مبادئك، فقر يأتيك من استقامتك، أحياناً الإنسان يرفض أن يدفع مبلغًا غير مشروع فيخسر صفقة كبيرة جداً، فيها شرط مسبق، شروط ليست في كتاب الله، في إنفاق من المال غير شرعي، فإذا امتنعت عن إنفاق هذا المال غير الشرعي خسرت صفقةً كبيرة، وليكن، ومرحباً بقضاء الله.

أنا أريد أن أركز على أنه ليس كل فقر يعد وصمة عار، هناك فقر يعد وسام شرف، هذا انتصار لمبادئك، الدنيا تحت قدمك، هذا نموذج، وهذا النموذج نموذج المهاجر الفقير، هذا نموذج مستمر إلى يوم القيامة، كل إنسان خسر شيئاً من الدنيا، أو خسر الدنيا من أجل مبدئه ومن أجل دينه، ومن أجل آخرته تنطبق عليه هذه الآية.

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

(سورة الحشر: الآية 9)

الأنصار وما أدراك ما الأنصار:

1 ـ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ

هؤلاء الأنصار الذي أقاموا بالمدينة قبل أن يأتيها المهاجرون، وتبوءوا الإيمان، وهذه عبارةٌ رائعة، فكأن الإيمان مأوىً لهم، آووا إليه، أسكنوه، كأن الإيمان حصنٌ حصين، قلعةٌ شامخة تبوءوها، سكنوها، أووا إليها.

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

هؤلاء الأنصار يحبون من هاجر إليهم، فأنت ساكن في دمشق، لك بيت، لك عمل، لك تجارة، لك وظيفة، عندك إمكانيّات معقولة، رأيت طالب علمٍ أتى هذا البلد لوجه الله، ليتعلّم العلم الشرعي، ليعود إلى بلده خطيباً أو داعية، إذا ساعدته، أسكنته غرفة، قدّمت له معونة، قدّمت له مأوى، قدّمت له بعض الأثاث، قدمت له بعض المساعدات، بعض الكتب، أنت كنت أنصاريًا الآن بالمعنى الموسّع، هناك أنصاري عاش مع النبي، وأنصاري مستمر إلى يوم القيامة، فكل إنسان عاون أخاه، كان أقوى منه مالاً، وسعة، وعاون أخًا مهاجرًا، طالب علم، هذا أنصاري أيضاً، إذا فهمنا الدين فهماً موسّعاً فهذا الدين يتسع لكل العصور.

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ)

2 ـ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

أحياناً بعض البلاد الغنية في أوروبا يأتيها مهاجرون من دول فقيرة، هؤلاء المتعصبون يفتعلون الجرائم لقتلهم، كما جرى في ألمانيا، لا يحبُّون من هاجر إليهم مع أنهم يخدمونهم، فهؤلاء الذين يأتون إلى دول غنية يعملون في أعمال يترفّع عنها أهل البلاد، ومع ذلك يكرهونهم، هم في خدمتهم، وفي معونتهم، ويكرهونهم، هذا مجتمع الكفر، أما مجتمع الإيمان فإنهم:

(يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ)

3 ـ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا

وحينما أعطاهم النبي فيء بني النضير، أعطى المهاجرين الفقراء، وكان الأنصار في أعلى درجات الطيب والمؤاثرة، قال تعالى:

(وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا)

مما أوتي هؤلاء، فما حسدوهم، وما وجدوا عليهم في أنفسهم، ولا تألموا، ولا اغتاظوا أبداً.

(وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا)

إسقاط على حياتنا اليومية:

أنا أريد أن أنقل هذه الحقائق لعصرنا.. إذا أخذ أخوك دكتوراه هل تنزعج ؟ إذا أخذ أخوك منصبًا، إذا نال أخوك شهادة، أو اشترى بيتًا، أو تزوّج، أو استقر، أو أسس شركة، إذا تألّمت، واغتظت، وطعنت فيه فلست مؤمناً، أما علامة إيمانك أن تفرح له، وأن لا تتأثر، بل هناك موقف أرقى، وكأن هذا الخير أصابك أنت، أخوك ارتقى، الله أعطاه، فعلامة إيمانك أن تفرح لأخيك إذا نال من الله فضلاً، لا أن تحسده، لا أن تطعن في، لا أن تغار منه، لا أن تُسَفِّهه، لا أن تنال من عِرْضِهِ.

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا)

أحياناً يكون أخوان مؤمنان طيّبان رفيقان، بينهما علاقات حميمة، فإذا نال أحدُهما نال شيئًا، نال شهادة، نال منصبًا، تزوج، تجد الآخر بدأ بالطعن، والغمز، واللمز، والغيرة، والحسد، هذا نفاق، هذه أحوال المنافقين، أما إذا كنت مؤمنًا صادقا فإنك تفرح لأخيك، وكأن الذي ناله نالك، وكأن الذي أصابه من خير أصابك.

(وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا)

4 ـ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

وأبلغ من ذلك:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

حضرنا قبل يومين حفل تخريج معهد شرعي، فحدّث مدير المعهد أن ثمة جائزة بعشرة آلاف ليرة للأول، عنده طالبان نالا العلامات بالتمام والكمال، متشابهان، فالعشرة لمن ؟ الثاني له خمسة آلاف، بقي نصف ساعة في مكتب الإدارة وهو يقنع أحدهما أن يأخذ العشرة آلاف، كل منهما يؤثر أخاه بالمبلغ، وهما فقيران، وليسا من الأغنياء، يقول كل منهما: أعطها لزميلي، هذا هو الإيمان، والحقيقة أن ربنا عزّ وجل لا يرضى عنا إلا إذا كنا كذلك، قال تعالى:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

فهو قد يكون في أشد الحاجة إلى هذا المبلغ، لكنه يعطيه لأخيه.

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

إخواننا الكرام، الإيمان ليس كلاماً تردده، ولا حركاتٍ تؤدِّيها، ولا انتماءً تاريخياً تعتزُّ به، الإيمان سلوك، الإيمان مؤاثرة، الإيمان مواقف، والله عزّ وجل لا يرضى عنا، ولا يحبنا، ولا ينصرنا على أعدائنا، وما أكثرهم، إلا إذا كنا كذلك، فإذا كان المسلمون متحاسدين، متباغضين، كلٌّ يطعن في أخيه، كل يسفِّه حلقة أخرى، يعتز بحلقته أو بجماعته، ويسفِّه الحلقات الأخرى، هذا إنسان لا ينتمي إلى مجموع المؤمنين، بل ينتمي إلى فقاعةٍ لا قيمة لها، لا تعظُم عند الله إلا إذا كان انتماؤك لمجموع المؤمنين.

سخاء الأنصار وعفة المهاجرين:

إذاً: هؤلاء الأنصار كان أحدهم يقول: " يا أخي، خذ هذا البستان فهو لك، خذ هذه الدار فهي لك، يرد عليه أخوه: << أن بارك الله لك في مالك، ولكن دلني على السوق >>، كما أن الأنصار كانوا أسخياء، كان المهاجرون أعِفّة أتقياء، السخاء من الأنصار، والعفة والتقى من المهاجرين.

إذاً:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

صورٌ ونماذج لإيثار الصحابة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ ؟ قَالَتْ: لَا، إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، قَالَ فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ، قَالَ: فَقَعَدُوا، وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ))

[متفق عليه]

آثر هذا الضيف على طعام أولاده.

كان الصحابة في سفر، وأصابهم جوعٌ شديد، الطعام قليل، فوضعوا هذا الطعام في طبق، وكان الوقت ليلاً، وكل واحدٍ أوهم الآخر أنه يأكل، فلما انتهوا من الطعام، وجدوا أن الطعام لم يؤكل إطلاقاً، كل واحد يؤثر أخاه فيما يأكل.

وأبلغ من ذلك الإنسان الجريح حاجته إلى المال خيالية، فلو قلت له: هل تشتري هذا الكأس بمليون ليرة؟ يقول لك: نعم، كأس ماء، ففي معركة اليرموك حينما طاف أحدهم بقربة ماءٍ على سيدنا عكرمة آثر بها أخاه، سمعه يئن فقال: أعطِ أخي، فلما جاء إلى أخيه سمع أخاً ثالثاً يئن فقال: أعطِ أخي. أول إنسان سمع أخاه يئن قال: أعط أخي، لعله أحوج مني، فانتقل هذا الساقي إلى الثاني فسمع أخاً يئن فقال: أعطِ أخي، فإنه أحوج مني، ذهب إلى الثالث فرآه قد مات، فاضت روحه، عاد إلى الثاني فرآه قد مات، عاد إلى الأول فرآه قد مات، ثلاثةٌ وهم في طور النزاع، وهم في أشد الحاجة إلى الماء، آثروا غيرَهم على أنفسهم، انظرْ إلينا، هل نحن في هذا المستوى ؟ تجد الإنسان يقتنص المغانم، وكأنه ليس في الدنيا إلا هو.

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

إخواننا الكرام، المؤمن الصادق يبني حياته على العطاء والمؤاثرة، والمنافق يبني حياته على الأخذ والأَثَرَة.

عندنا أثرة وعندنا مؤاثرة، الأثرة أن تأخذ كل شيء دون أن تعطي شيئاً، والمؤاثرة أن تعطي أخاك كل شيء ولا تعطي شيئاً، المؤمن الصادق يبني حياته على المؤاثرة والعطاء، والمنافق يبني حياته على الأثرة والأخذ.

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

بين البخل والشحّ:

الحقيقة أنّ البُخل أنْ تبخل بمالك، أما الشُح فأن تطمع في مال غيرك، أن تأخذ ما ليس لك، لذلك الإنسان الذي يأخذ ما ليس له هو عند الله شحيح، وهذا من أخطر الأمراض، لأن أكل المال الحرام مُدَمِّر، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((برئ من الشح من أدى زكاة ماله، وأعطى في النائبة، وأقرى الضيف))

[الجامع الصغير عن خالد بن زيد بن حارثة]

أدى زكاة ماله، وأقرى الضيف، وأعان على النائبة، هذا بريءٌ من الشح، أما الذي يستأثر بكل شيء، ولا يعطي شيئاً فهو بخيل، أما إذا أخذ ما ليس له فهو شحيح.

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

من أكبر الأمراض المدمرة المهلكة في الإنسان أن يكون شحيحاً، أن يأخذ ما ليس له وأن يبخل بما في يديه، والإنسان كما قال الله عزّ وجل:

(إِنّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

المصلي ليس جزوعاً ولا منوعاً.

((يا رسول الله، لمن هذا الوادي ؟ ـ وادٍ من غنم ـ قال: هو لك، قال: أتهزأ بي ؟ قال: "هو لك " قال: " أشهد أنك رسول الله، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر))

[ورد في الأثر]

المال عند المؤمن في يديه، وليس في قلبه، سخيٌ من هذا الباب، فهو يرى أن هذا المال مال الله، وأن الله يؤتيه من يشاء، وأن الله يخلف كل ما تنفقه، لذلك كلما ازددت إنفاقاً ازداد الله لك عطاءً:

((أنفق بلالاً، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً))

[الطبراني عن أبي هريرة بسند صحيح]

((أَنْفِقْ أُنْفِقَ عليك))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

حدثني أخ كان له قريب توفّاه الله عزّ وجل، وقد وقف على تغسيله، فقال المغسِّل: أعليه دين ؟ كما هي العادة، قال أهله: نعم، فقال هذا القريب: عليّ دينه، قال لي: أنا لا أعرف كم مقدار المبلغ، في اليوم التالي فوجئ أن المبلغ كبير جداً، فما تراجع، ودفع الدين كله، أقسم بالله العظيم أنه في اليوم التالي باع بيعاً على خلاف المألوف من سنتين، حيث إن نصيبه من الربح يغطي هذا الذي دفعه لهذا القريب الفقير، أقسم بالله أن نصيبه في يومٍ واحد يغطي المبلغ الكبير الذي أنفقه وفاءً لدين قريبه المتوفّى،

((أنفق بلالاً، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً))

[الطبراني عن أبي هريرة بسند صحيح]

((أَنْفِقْ أُنْفِقَ عليك))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

وهناك قصص شهيرة جداً.

الفئة الثالثة بعد المهاجرين والأنصار:

1 - وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ

هناك فئة ثالثة، وهؤلاء الذين عشوا مع النبي مهاجر وأنصاري، إنسان ضحّى بالدنيا في سبيل الله، وإنسان بذل الدنيا في سبيل الله، أحدهم ضحّى، وأحدهم بذل، ونحن إلى يوم القيامة يجب أن يكون فينا أنصاري ومهاجر، المهاجر إنسان آثر رضوان الله على الدنيا، ضحّى بالدنيا في سبيل الله، والأنصاري بذل الدنيا في سبيل الله، والإنسان أحد رجلين: إنسان آثر، وإنسان بذل، الذي ضحّى هو المهاجر، والذي بذل هو الأنصاري، أما الفئة الثالثة هؤلاء الذي جاءوا بعد رسول الله، وبعد أصحاب رسول الله، وهم التابعون، وتابعو التابعين، وتابعو تابعي التابعين، ومن جاء بعدهم إلى يوم الدين، الله عزّ وجل وصفهم، فإن انطبق الوصف علينا فالحمد لله، وإلا فنحن لسنا على شيء، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ)

(سورة الحشر)

قال بعض المفسرين: " تنطبق هذه الآية على كل المسلمين الذين جاءوا بعد رسول الله إلى يوم القيامة"، وبعضهم قال: " على التابعين فقط "، أما الأصح والأرجح فإنها تنطبق على جميع الذين جاءوا بعد رسول الله إلى يوم القيامة:

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ)

2 - يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ

أمم الكفر كلما جاءت أمة منهم لعنت أختها، كلما جاء إنسان مكان إنسان لعن الذي قبله، هذه أمة الكفر والنفاق، أما أمة الإسلام فكلما جاءت أمة أثنت على التي قبلها..

(رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا)

يعني الأنصار والمهاجرين.

(الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ)

إياكم والطعنَ في الأمة الإسلامية:

فإذا طعن الإنسان في أمته، طعن في تاريخه، طعن في أصحاب النبي الكرام، طعن في هؤلاء الذين نقلوا لك هذا الدين فهذه علامة النفاق، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ))

[متفق عليه عن أنس]

أما الذي يطعن في أمته العربية فماذا يعني ذلك ؟ عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يَا سَلْمَانُ، لَا تُبْغِضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ أُبْغِضُكَ وَبِكَ هَدَانَا اللَّهُ ؟ قَالَ: تُبْغِضُ الْعَرَبَ فَتُبْغِضُنِي))

[الترمذي]

أحياناً يذهب الإنسان إلى بلاد الغرب فيرجع، ويقول لك: نحن متخلفون، لا نفهم، كل صفات النقص يلصقها بأمته العربية، وكل صفات الكمال يلصقها بهؤلاء الذين يستبيحون دماء الشعوب..

قتل امرئٍ في غابةٍ جريمة لا تغتفر وقتل شعبٍ آمنٍ مسألة فيها نظر

***

فالذي يُصْبِغُ على أهل الكفر والفساد والطغيان، والذي يعيشون على أنقاض الأمم كل الخير والفضيلة، والفهم، والحكمة، فهذا إنسان ليس فيه من الإيمان شيء، والذي يطعن في أمته التي أوصلت له هذا الدين فهو منافق أيضاً.

هؤلاء الذين جاءوا من بعدهم يقولون:

(رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ)

أما أهل الكفر فكلما جاءت أمة لعنت أختها، أما أهل الإيمان، وعلى مستوى الدعاة إلى الله، فأنت واحد منهم يجب أن تنتبه إلى فضائلهم، إلى مكانتهم، إلى علمهم، إلى ورعهم، دون أن تطعن فيهم.

أحيانا يكون الطعن على مستوى المِهَن، فقد يزور الإنسان طبيبًا، فيقول الطبيب للمريض: من وصف لك هذه الوصفة ؟ رأساً يطعن في زميله، والمحامي يطعن في زميله، والمهندس يطعن في زميله، هذا الطعن والتسفيه والتحقير، وأن تبني مجدك على أنقاض الآخرين، على مستوى الحِرَف، على مستوى الدعوة إلى الله، على مستوى الأمم، هذا من صفات المنافقين، كلما جاءت أمة لعنت أختها، أما هؤلاء الذين جاءوا من بعدهم..

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ)

هذا دعاءهم للسابقين، وفيما بيننا:

(وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا)

3 ـ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا

امتحن نفسك من هذين البندين، هل تدعو للصحابة الكرام الذين أوصلوا لك هذا الدين ؟ هل تدعو للتابعين، ولتابعي التابعين، وللعلماء العاملين، وللفقهاء والمحدثين والقُرّاء والمفسرين ؟ هل تدعو لهؤلاء جميعاً الذين حفظوا لك هذا الدين، وأوصلوه إليك، أم تطعن فيهم ؟ وتقول: هذا الشيخ الأكفر ! وهذا الجاهل ! هل هذا هو السلوك الصحيح ؟

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة)

ليس من المهم أن ننبُشَ الماضي، ليس من المهم أن نستخدم مشكلاتٍ قديمةً، وأن نجعل هذه المشكلات سبب عداوتنا.

(وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة الحشر)

فإذا كنت ممن تنطبق عليهم هذه الآية ؛ تترحّم على السلف الصالح، وتقيم مودةً بينك وبين إخوانك، أو بينك وبين كل مسلم، أنا أرفض أن يكون انتماؤك إلى جماعةٍ محدودة، أنت تنتمي إلى مجموع المؤمنين، كل مسلمٍ أخوك في الله، يجب أن تنصره، وأن تحترمه، وأن تؤيّده، وأن تدافع عنه، وأحياناً بعض الجماعات الدينية إذا ترك الإنسان جماعة إلى أخرى يكفرونه، ويخرجونه من دينه، هل هذا هو الدين ؟ هل هكذا كان أصحاب رسول الله ؟

تخلّف رجلٌ عن الغزو مع رسول الله، وهناك إنسان طعن فيه، فقام أحد أصحاب رسول الله، قال:

((والله يا رسول الله لقد تخلّف عنك أناسٌ ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو علموا أنك تلقى عدواً ما تخلفوا عنك "، النبي ابتسم وسُرّ))

[ورد في الأثر]

سيدنا الصديق قال لسيدنا عمر: " يا عمر.. أمام أصحاب رسول الله بعد وفاة النبي.. مُدَّ يدك لأبايعك، قال: **<< أي أرضٍ تقلّني، أي سماءٍ تظلّني إذا كنت أميراً على قومٍ أبو بكرٍ فيهم.. أنا أكون أميراً عليك !! معاذ الله.. قال له: " أنت أقوى مني، فقال عمر: أنت أفضل مني، قوتي إلى فضلك >>**، أنا أعينك.

مرة قال: **<< كنت خادم رسول الله وجلواذه، وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي عني**

وهو عني راضٍ، وأنا بهذا أسعد، ثم جاء أبو بكر فكنت خادمه، وجلواذه، وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي عني وهو عني راضٍ، وأحمد الله على هذا كثيراً، وأنا به أسعد >>.

هكذا كان الصحابة بين بعضهم البعض في مودة، وفي حب، وفي إيثار بشكل غير معقول، فالله سبحانه وتعالى لا يرضى عنا إلا بهذا الود، وهذه المحبة، وهذه المؤاثرة.

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا)

يجب أن تترحّم على السَلَف الصالح، الذين قدّموا لك هذا الدين، حفظوه من تأويل المتأولين، وتحريف المفسرين، أوصلوه إليك، لكن هناك شخص ليس لهم همّ إلا أن يطعن بالمحدثين، بالمفسرين، بالعلماء، فهذا ليس من شأنك..

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة)

(وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا)

إذا أويت إلى فراشك، وليس في قلبك حقدٌ على أحد، ولا غلٌ على أحد، تحب الخير لكل المسلمين، ترجو رحمة الله لكل المسلمين، تفرح إن أصاب الخير المسلمين فأنت مؤمن، إما إذا كان لك عداوة، وحقدٌ، وتطعن وتنتقص، وتغمز وتهمز، فليس هذا من أخلاق المؤمنين.

(رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

الفئة الأولى: المهاجرون الذين تركوا الدنيا في سبيل الله، والأنصار الذين أعطوا الدنيا في سبيل الله، بعضهم تركها ليرضى الله عنه، و بعضهم أعطاها ليرضى الله عنه.

مرة أحد الرجال كان عند سيدنا عثمان، وجاء رجل وأعطاه عطاءً جزيلاً، فبكى هذا الرجل، قال له: ما يبكيك ؟ طبعاً هو بكاء كيدي، قال له: كنت عند عمر بن الخطاب، وجاءه هذا الرجل فلم يعطه، تغير الزمان، فقال عثمان رضي الله عنه: **<< لقد منع عمر لله، وأنا أعطي لله >>.**

مرة سيدنا عمر لما وقف على المنبر رأساً نزل درجة، قال: **<< ما كان الله ليراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر >>**، عثمان لم ينزل درجة، لماذا لم يفعلها عثمان ؟ بعض الخلفاء من بني أمية سأل وزيراً له، قال له: " لمَ لم يفعلها عثمان ؟ قال له: والله لو فعلها لكنت في قعر بئر "، فإذ نزل كل واحد درجة نحتاج إلى حفر بئر عميقة لكي ننزل إلى الأسفل، فعلها عمر مرةً واحدة، وعثمان لم يفعلها، عمر فعلها لله، وعثمان لم يفعلها لله، لو كان فعلها لصارت سنة، كل واحد ينزل درجة، ولوصل الإنسان إلى الأرض، فيحفر، قال له: **" لكنت في قعر بئر ".**

الفئة الأولى: المهاجر الذي ترك الدنيا في سبيل الله، والفئة الثانية: الذين أعطوا الدنيا في سبيل الله، والذين جاءوا من بعدهم ترحّموا على من سبقهم، وأحبوا مَن حولهم، ترحموا على مَن سبقهم، واثنوا عليهم، وعزوا الفضل لأهله، وأثنوا، وأحبوا مَن حولهم، أما لو كان دأبُنا الطعنَ في السلف الصالح، وعادينا من حولنا، معنى ذلك أننا منافقون.

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة الحشر)

أما الفئة الأخرى فنعوذ بالله أن نكون منهم:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ)

(سورة الحشر: الآية 11)

الفئة المريضة: المنافقون:

1 - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا

اليهود، الله سماهم: إِخْوَانهمْ، لأنهم على شاكلتهم.

(يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ)

(سورة الحشر: الآية 11)

يقولون لبني النضير: إيّاكم أن تستسلموا لمحمد، إياكم أن تخضعوا له، إياكم أن تنزلوا على حكمه، نحن معكم، إن قاتلكم نقاتل معكم، إن أخرجكم نخرج معكم، حمّسوهم، انتظروا ثلاثة وعشرين يوماً فلم يجدوا حركة منهم على الإطلاق، عندئذٍ نزلوا على حكم النبي..

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

نموذج المنافقين مستمر إلى قيام الساعة:

لو أن الإنسان لا يصلي، ولا عنده دين، وغارق في المعاصي، ووعدك، وقال بك: لا تخَف أنا معك، فلا تصدقه، بل ننصحك أن لا تصدقه، ولا تتورط معه إطلاقاً، لأنه كذّاب، سوف يخلف وعده، وسوف تحتاجه في أصعب الظروف فيختفي من وجهك، ويتنصل منك، هذا الكلام، وهذا النموذج مستمر إلى يوم القيامة..

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(11)لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ)

2 ـ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ

يقال: هؤلاء تورّطوا، ونحن نصحناهم فلم ينتصحوا..

3 ـ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ

(وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ(12)لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ)

(سورة الحشر)

المنافق شديد الخَوْف، يبيعك كلاما فارغًا فقط، أما عند الموقف الحرج فيختفي من وجهك.

(لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

(سورة الحشر)

ثم إن الله جلّ جلاله يبين لعلمه بطبيعة هؤلاء المستمرة إلى يوم القيامة، يبيّن أن المنافق جبان، ومن علامات جبنه:

(لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ)

(سورة الحشر: الآية 14)

4 ـ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ

المنافق أجبن وأضعف من أن يلتحم مع مؤمن، لكنه يحتمي بحصن، يحتمي بجدار، والآن قد يحتمي بمدرّعة، والحقيقة هذا وصفٌ مستمرٌ لهم، لا يقاتلون قتالاً مباشراً، لا يلتحمون أبداً مع عدوّهم، والحروب المبنية على الجبن تبدأ بالقصف الجوي، قد لا تجد التحاماً مباشراً إطلاقاً.

(لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر: الآية 14)

المؤمنون هم يدٌ على من سواهم، هم جميعاً حقاً.

5 - بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى

أما المنافقون:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

هناك عداوات بين المنافقين، وشرخ، وبغضاء، وحقد لا يعلمه إلا الله، لأنهم ليسوا على حق، فالحق يجمع، لكن الدنيا تفرق، الدنيا مصالح، والمصالح تتضارب، فإذا تضاربت فرّقت القلوب، أما المؤمن فهو صاحب مبدأ، والمبدأ يجمع، لذلك المؤمنون لأنهم أصحاب مبادئ يجتمعون، والمنافقون لأنهم أصحاب مصالح يتفرّقون.

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا)

في الظاهر.

(بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ)

(وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

إنّ الله عزّ وجل إذا غضب على أمةٍ جعل بأسها بينها، وإذا أحب أمةً جعل بأسها على أعدائها، وإذا كانت الأمة بأسُها فيما بينها، ولينها لعدوها فهذه أمة تودِّعَ منها، ومن علامة غضب الله على أمةٍ أن بأسها بينها، وأنها أمام عدوها ضعيفة، أما من علامة نصرة المؤمنين أنهم يتراحمون فيما بينهم، وهم يدٌ على من سواهم.

(بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)

(سورة الحشر)

6 - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ

ما عرفوا الحق، ما عرفوا أن الله هو الناصر، ما عرفوا أن الدار الآخرة هي الأصل.

(كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

(سورة الحشر: الآية 15)

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

النبي الكريم أجلى أولاً بني قينقاع، لما انتصر النبي عليه الصلاة والسلام في معركة بدر حسدوه على هذا النصر، فأسمعوه كلاماً في منتهى الجُرْأة، ومنتهى الوقاحة، وقالوا: أنت انتصرت على قومٍ لا

يعرفون القتال، ولو قاتلتنا لرأيتنا نحن الناس، وتحرشوا بامرأةٍ مسلمةٍ فكشفوا عن ثيابها، فنشأت فتنةٌ انتهت بهم إلى أن أجلى النبيُّ بني قينقاع قبل بني النضير، وبعدهم بنو قريظة.

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ

(كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(15) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الحشر)

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم)

قال:

(فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

(سورة الحشر)

اليوم تبين في هذا الدرس أن هناك فئة عاصرت النبي ضحت بالدنيا في سبيل الله، وفئة أخرى أعطت الدنيا في سبيل الله، وفئة جاءت بعد الفئتين ترحّمت على مَن سبقها، وأخلصت فيما بينها، هؤلاء التابعون إلى يوم الدين، ونحن منهم إن شاء الله، نثني على السلف الصالح، ونقيم المودة فيما بيننا، أما المنافقون فولاؤهم لأعداء الله، وأعداء الله يمنونَهم كالشيطان، فإذا حق الحق تخلّوا عنهم، فهذا النموذج هو نموذج المهاجرين، والأنصار، والتابعين، والمنافقين، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون عند حسن ظن ربنا بنا، وأن نكون ممن استمعوا القول فاتبعوا أحسنه، وأن نقيم المودة والرحمة فيما بيننا، وأن نثني على من سبقنا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحشر 059 - الدرس (4-5): تفسير الآيات 18-21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-07-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الرابع من سورة الحشر، ومع الآية الثامنة عشرة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا

1 ـ أهمية الخطاب بـ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا

هذا خطاب الله للذين آمنوا، والمؤمن يُدرك أهميّة هذا الخِطاب، خالق السماوات والأرض الذي خلق الإنسان في أحسنِ تقويم، وكرّمه أعظم تكريم يُخاطِبه فيقول: يا أيها المؤمن افعل كذا، ولا تفعل كذا..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

2 ـ اتَّقُوا اللَّهَ

اتقوا الله أي توبوا إليه، وأصلحوا ما مضى، وتقرّبوا إليه، اتقوا أن تغضِبوه، اتقوا عقابه، اتقوا ناره، اتقوا أن تعصوه، اتقى من وقى، والوقاية من الخطر، والعاصي في خطر، الذي لا يفكِّر في منهج الله وتطبيقه فهو في خطر، والذي لا يطبّق تعليمات الصانع هو في خطر، والذي لا يعرف لماذا خلقه الله هو في خطر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

3 ـ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ

العاقل يعيش مستقبله:

الحقيقة أن الإنسان الجاهل يتغنّى بماضيه، والأقلُّ جهلا يبحث في حاضره، لكن العاقل هو الذي يعيش مستقبله، هو الذي يعيش غده، حياتنا كيف تسير ؟ هناك خطٌ إجباري نسير عليه ؛ نولد، نترعرع،

ندرس، نتعلّم، نتزوج، ننجب، نُزَوّج، ثم لابدّ من اللقاء مع الله، لابدّ من مغادرة الدنيا، لابدّ من أن نغادر دون أن نعود، ولكن هذه ساعة المغادرة ألا تستدعي أن نفكِّر فيها ؟ حينما ينتقل الإنسان من كل شيء إلى لا شيء.. فيما يبدو للعين.. من بيتٍ فخم إلى حفرةٍ تحت الأرض، من فراشٍ وثير إلى أرضٍ صلبة، من غرفٍ منوّرة إلى قبرٍ مظلم، من طعامٍ وشراب إلى حسابٍ وعقاب، هذه النقلة من الدنيا إلى الآخرة ؛ هذه إن لم نفكِّر فيها، إن لم ندخلها في حساباتنا اليومية، إن لم ندخلها في مواقفنا، في حركاتنا وسكناتنا فنحن في خطرٍ عظيم..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

اتقوا أن تعصوه، اتقوا أن تغضبوه، اتقوا ناره.

(وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

هل فكّرت في العمل الذي تلقى الله به:

أحيانا أيها الإخوة يُستَهْلَك الإنسان من قِبَل دنياه، مستهلَكٌ من عمل إلى عمل، من لقاء إلى لقاء، من موعد إلى موعد، من صفقة إلى صفقة، يأتيه ملك الموت فجأةً، وهو صفر اليدين من العمل الصالح، فلذلك من أفضل أو من أهمّ ما ينبغي أن تفعله أن تقف فجأةً في زحمة العمل، وفي زحمة القيل والقال، وفي زحمة المُشكلات، وهموم العمل، والمعاش والأسرة، أن تقتطع وقتاً ثميناً، وتتأمّل ماذا قدّمت لغدٍ ؟ إذا جئتُ الله عزّ وجل يوم القيامة، وطلب منّي أن يا عبدي بماذا أتيت ؟ ما العمل الذي جئت به ؟ بعثت بك إلى الدنيا من أجل أن تعرفني، من أجل أن تطيعني، من أجل أن تتقرَّب إليّ، جعلتك خليفةً في الأرض، أعطيتك كل شيء، سَخَّرت لك السماوات والأرض، بماذا أتيتني ؟ الحقيقة إنه سؤال خطير، وسؤال مهم جداً.

أنت أيها الأخُ الكريم الجالس في هذا المسجد، هل فكّرت في العمل الذي ينبغي أن تقدِّمه لله يوم القيامة؟ هل يعقل أن تمضي الحياة الدنيا في المُباحات ؟ أكلنا، وشربنا، ولهونا، وسافرنا، وعدنا، واستقبلنا الضيوف، وودّعنا، وتنزّهنا، وربحنا، وأنفقنا، وأقمنا الحفلات، يا عبدي ما العمل الذي تأتي به يوم القيامة ؟ هل واليت فيّ وليّاً ؟ هل عاديت فيّ عدواً ؟ هل أمرت بالمعروف ؟ هل نهيت عن المُنكر؟ هل علّمت القرآن ؟ هل نصحت لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامّتهم ؟ هل ربّيت أولادك ؟ هل دللت زوجتك على الله ؟ هل أقمت الإسلام في بيتك ؟ هل كسبت المال الحلال ؟ هل نفعت المسلمين في عملك وهل، نصحتهم ؟ هل دعوت إلى الله ؟ هل نشرت الحق ؟ هل نصرت دين الله ؟

ما العمل الذي يمكن أن تنطق به يوم القيامة ؟ هل وظّفت اختصاصك في الحق ؟ هل وظّفت عملك في خدمة المسلمين ؟ هل كنت في خندق الإيمان أم في الخندق المعادي ؟ مع من عملت ؟ من نصرت ؟ لمن سخّرتَ نفسك ؟ لمن وهبت عمرك ؟ لمن وهبت شبابك ؟ ما العمل الذي يمكن أن تقدّمه بين يدي الله يوم القيامة ؟

إذا أرسل أب ابنه إلى بلدٍ غربي، وحوّل له كل شهر ألف دولار.. خمسين ألف ليرة.. بعد أربع سنوات ألا ينبغي أن يسأل الأبُ ابنه: ماذا فعلت يا بني ؟ أين الشهادة ؟ أين الوثيقة ؟ ماذا حصّلت ؟ هل نلت الدرجة الجامعية ؟ وبأي تقدير نلتها ؟ هل صدّقتها في الجهات الرسمية ؟ من أي جامعة أخذتها ؟ هذا الذي يُرسل إلى بلدٍ أجنبي، وتُدفَع له النفقات كاملة ألا يُسأل عن عمله، ماذا فعلت ؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

أنت أب أنجبت الأولاد فهل ربيتهم ؟ هل عرّفتهم بكتاب الله وبسنّة رسول الله ؟ هل أدّبتهم على حبِّ نبيّ الله، وعلى حبِّ أصحابه الكرام ؟ هل أدبتهم بأدب الإسلام، أم تركتهم لأجهزة اللهو يستقون منها كل طيّبٍ وخبيث، وكل حقٍّ وباطل، وكل خيرٍ وشر ؟ هؤلاء الذين أنجبتهم مَن قدوتهم ؟ الملاكم الفلاني؟ أم لاعب الكرة الفلاني ؟ أم الصحابي الفلاني ؟ من قدوتهم ؟ هذه الزوجة التي في بيتك ماذا فعلت من أجلها ؟ هل دللتها على الله ؟ هل رحمتها ؟ هل أخذت بيدها إلى الله ؟

(اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

أي عبدي بمَ أتيتني ؟ ما العمل الذي يصلح أن تعرضه علي ؟ ما العمل الذي يمكن أن تقدّمه بين يدي ربك ؟ يا رب فعلت كذا، كنت بارّاً بوالدي، هذا عمل جيد، يا رب، اخترت زوجة مؤمنةً لأولادي، هذا عمل جيد، ربّيت أولادي على طاعتك وعلى حبِّ نبيك، أدبتهم بأدب الإسلام، هذا العمل جيد ومقبول، يا رب كانت لي حرفة فنصحت بها المسلمين، وما غششتهم، ما كذبت عليهم، ما ابتززت أموالهم، ما بخستُهم أموالهم بالباطل، يا رب كنت طبيباً نصحت المسلمين، ما كبّرت الوهم على المرضى، ما كلّفته ما لا يطيق، ما كلّفته من الأمور ما لا يحتمل، كنت نصوحاً له، هذا سؤال يجب أن تسأله كل يوم، لابدّ من ساعةٍ تخلو بها مع ربك.

أيها الإخوة الكرام، كلنا بحاجةٍ إلى مغارتين، أو إلى غارين، كلنا بحاجة إلى غار حِراء، ولكن مجزّأً لكل يوم خمس دقائق، أو عشر دقائق، وكلنا بحاجة إلى غار ثور، نحن بحاجة إلى غار حراء كي نتفكّر، ونحن بحاجة إلى غار ثور كي نلجأ إلى الله، كي نلوذ بحماه.

فيا أيها الإخوة الأكارم، هذه آية ينبغي أن تفعل فعلها في نفوس المؤمنين.

(وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

اسأل تاجرًا فإنه يبيع ويشتري، ويحاسب، ويشحن البضاعة، ويستقدم بضاعة، ويقبض الثمن، هل فكّرت في أن هذه التجارة ترضي الله أم لا ترضي الله ؟ هل أدّيت زكاة مالك ؟ هل نصحت المسلمين في هذه التجارة ؟ هل استغللت حاجتهم إلى هذه البضاعة فرفعت السعر ؟ ماذا قدّمت لله عزّ وجل ؟

إذا ضاقت الأمور فابحث لك عن عمل صالح ادّخرتَه:

إخواننا الكرام، النبي عليه الصلاة والسلام علّمنا أن الإنسان إذا ضاقت به الأمور عليه أن يذكر صالح عمله، فلو كنت في أزمةٍ، أو في ملمّةٍ، أو في نازلةٍ لا سمح الله، وأردت أن تدعو الله بصالح عملك، ما العمل الصالح الذي تتذكّره ؟ أردت أن تدعو الله بصالح عملك، يا رب أنا فعلت هذا في سبيلك..
مرّة حدّثني أخ وهو من تجّار الغنم، كان في البادية، ومعه قطيع غنم كبير، وأصابهم عطش شديد، كاد يموت هو وغنمه، فناجى ربه، وقال: يا رب، إنك تعلم أنني ما عرفت الحرام في حياتي، ولا أكلت درهماً حراماً، إن كان هذا العمل عندك مقبولاً فَفرّج عنّا.. النبي علّمنا إذا كنّا في ضائقة، في مشكلة، في أزمة أن نذكر صالح أعمالنا، وإذا سألت نفسك ما العمل الذي سأقدّمه لله يوم القيامة ؟ من خلال أسرتك، أنت ابن من بنوّتك، أنت أب من أبوّتك، أنت أخت مستمعة أم من أمومتها، الزوج من كونه زوجاً، إذا كانت زوجة هل أدّت حقّ زوجها ؟

((اعلمي أيتها المرأة وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعُّل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[كنز العمال عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

لو أنّ الزوجة سألت نفسها: هل قمت بحقّ الزوج ؟ هل كنت زوجة طيّعة ؟ هل كنت زوجة صالحة ؟ هل جعلته يسكن إليّك أم كنت منفّرةً له ؟ كنت عبئاً عليه ؟ أم كنت تبحثين عما يغيظه ؟ إن كنتِ زوجةً فاسألي نفسك هذا السؤال، وإن كنتَ زوجاً فاسأل نفسك هذا السؤال: هل رحمتها ؟ هل أدّيت حقّها ؟ هل دللتها على الله ؟ هل أكرمتها، وإن كنتَ ابناً فاسأل نفسك هذا السؤال: هل كنت بارّاً بوالديك ؟ وإن كنت جاراً فهل أديت حق الجار ؟ إن كنت صاحب معمل فهل أديت بضاعةً للمسلمين جيدة، بسعر معتدل ؟ أم وضعت مواد غير جيدة، مواد مسرطنة لأنها رخيصة ولا أحد يعلم ؟ هذه دقّة بالغة، والسؤال هو: ما العمل الذي قدّمته لله عزّ وجل: من خلال الأسرة، من خلال المهنة، من خلال العبادة، هل دعوت إلى الله ؟ هل كنت قدوةً ؟

هل كنت مرغِّباً في الدين أم منفّراً منه ؟ هذا سؤال كبير، هل كنت واصلاً أم قاطعاً ؟ هناك من يقطع الناس عن سبيل الله، هل وصلتهم أم قطعتهم ؟ وعمل سيء واحد يقطعهم، قال بعضهم: **" إنّ ألف**

سلوكٍ ذكيّ يشد الناس إلى شيءٍ ما، وسلوكٍ أحمق واحد ينفِّرهم منه "، وألف سلوكٍ ذكيّ صادقٍ ومخلصٍ يجذب الناس إلى مبدأٍ ما، وسلوكٌ أحمقٌ واحدٌ ينفِّرهم منه.

(وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

ماذا قدّمت ؟ هناك مدرّس، أو مهندس، أو طبيب، أو صانع، أو صاحب حرفة، يا ترى هل أتقن الحرفة ؟ هل تعلم أن إتقان العمل جزءٌ من الدين ؟ هل تعلم أن الناس لا يحترمون دينك إذا كنت مهملاً لعملك ؟ هل تعلم أنك تنتزع إعجاب الناس بدينك من خلال إعجابهم باستقامتك والتفوّق في عملك ؟ ماذا قدّمت ؟ هل استعملت المواد المُحَرّمة دولياً في تنمية النبات من أجل أن تربح، ولم تعبأ بصحّة الناس ؟ هؤلاء الذين يستخدمون الهرمونات في تنمية النبات عند العقد هؤلاء لا يبالون بصحّة الناس، هل استخدمت موادّ مضرّة من أجل أن تربح ؟

إخواننا الكرام، هناك مسؤولية كبيرة، وقد قالوا عن كاتب أدبه سخيف: **" إنك تقرأ قصّته وتتثاءب وتنام، بينما الكاتب الخطير تقرأ قصّته وتنتهي من قراءتها فتبدأ متاعبك مع نفسك "**.

هذا كلام خطير، هذا كلام ربِّ العالمين، هذا كلام خالق الأكوان، هذا كلام الذي سيسألنا وسيُحاسبنا.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

قال: قد كُفيت.. أعرابي سأل النبي الكريم قال: عِظني ولا تطل، فتلا عليه هذه الآية، فقال: قد كفيت، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فَقُهَ الرجل))

[ورد في الأثر]

لم يقل: فَقِهَ، بل إنه قال: فَقُهَ، أي صار فقيهاً.

هذا سؤال كبير، لك بيت، لك زوجة، لك أولاد، لك عمل، لك حرفة، لك لقاءات، وسهرات، ونُزُهات، وعلاقات، وسفر، ماذا فعلت في السفر ؟ هل لأعمالك هدفٌ بعيد ترضي الله عزّ وجل به ؟

(اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

بالأمثلة البسيطة القريبة منا: الطالب في العام الدراسي: مَن هو الذي سيأخذ الدرجة الأولى على مستوى القطر ؟ هو الذي لم تغادر لحظة الامتحان مخيّلته ثانية واحدة، ماذا سأكتب في الامتحان ؟ لو جاءتنا مسألة ماذا سأجيب، وكيف سأحلّها ؟ هذا الذي يفكِّر في ساعة الامتحان ينال الدرجة الأولى.

(وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

لا أحدَ يضمن أن يعيش ساعة قادمة:

هل يستطيع أحد أن يُلغي الموت من حياته ؟ هل منّا واحد يستطيع أن يضمن حياةً لساعةٍ قادمة ؟ كنّا مرّةً في احتفال المولد في جامع قريب منّا، دخلت إلى المسجد، أحد أفراد الجمعية استقبلني، ورَحّب، وابتسم، فدخلت، وبعدما جلست بدقائق رأيت أن هناك حركة غير طبيعية في المسجد، فلم أعرف ما السبب، اضطراب، وعريف الحفلة اضطرب، ولكن الحفل استمر، ثم أنبئت أن هذا الذي استقبلني ورَحّب بي توفي بعد دقائق، إنه كان قبل دقيقة واقفا يرتدي أجمل الثياب.. فمن منّا يضمن أن يعيش ساعة، **" من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت "**.

هناك قصص كبيرة ومؤثِّرة جداً، فهذا السؤال إخواننا الكرام يجب أن نطرحه على أنفسنا، لأن الله أمرنا أن نطرحه على أنفسنا، إنه أمر إلهي.

(وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

أحياناً أخ كريم شاب ابن ثمانية عشر عاما، أو عشرين، أو خمسة وعشرين يقول: أنا ما زلت صغيراً على الموت، هل يراعي الموت عمراً ؟ لا، أبداً، إن الشباب يموتون في سنٍ مبكر، وهناك جلطات في سن الثلاثين، والخمسة وعشرين، واثنين وثلاثين، الموت لا أحد يعلم متى يأتي.

أيها الإخوة الكرام، يجب أن تعدّ للآخرة عملاً صالحاً، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وصواباً، هكذا قال الفُضَيْل، خالصاً، أي ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنّة، فإذا اقتطعت من وقتك الثمين، من زحمة المشاغل، من الانهماك في الأعمال واللقاءات، والمواعيد والصفقات، إذا انتزعت من وقتك الثمين وقتاً من نوع غار حِراء، تقول فيه: من أنا ؟ لماذا خلقني الله عزّ وجل ؟ ماذا ينبغي عليّ أن أفعل في الدنيا ؟ ماذا بعد الموت ؟ اتخذ قرارا، هذا الذي لا يفكِّر، ويعيش على هامش الحياة إلى أن يأتيه الموت بغتة هذا إنسان جاهل.

(وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ)

مرة ثانية: وَاتَّقُوا اللَّهَ

بعض علماء التفسير قال: **" الأولى.. اتقوا الله في التوبة والإصلاح عن ما مضى.. والثانية للمستقبل"**، أي اعقدوا العزم على أن لا تعصوا الله أبداً في المستقبل، والأولى اعقدوا توبة نصوحاً مع الله عزّ وجل.

احذروا فـ: إنّ اللّهَ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

لكن قد تقول أيها الأخ الكريم: أنا فعلت كذا، وفعلت كذا، وقدّمت كذا، ودفعت كذا، وتكلّمت كذا، وألقيت كلمة في الوقت الفلاني، لكن هذا العمل من يعرف حقيقته ؟ الله وحده.

(إنّ اللّهَ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

((إنّمَا الأعْمَالُ بِالنِّيّاتِ))

[البخاري عن عمر]

احذر ألاّ يكون عملك خالصا وصوابًا:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((إنّ أوّلَ النّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتّى أُلْقِيَ فِي النّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلّمَ الْعِلْمَ، وَعَلّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: تَعَلّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنّكَ تَعَلّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتّى أُلْقِيَ فِي النّارِ، وَرَجُلٌ وَسّعَ اللّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمّ أُلْقِيَ فِي النّارِ))

[مسلم]

إنه شيءٌ مخيف، وإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً وصواباً.. خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنّة، امتحن دائماً عملك، هل هو وفق السنّة ؟ ماذا تبتغي منه ؟ أن تنتزع إعجاب الناس ؟ أن يقول الناس عنك: إنسان صالح ؟ إنسان كريم، محسن كبير ؟ رجل فقيه، رجل عالم؟ أم أنك تبتغي وجه الله عزّ وجل ؟ " إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً وصواباً ".. خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنّة.

(إنّ اللّهَ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

حجم العمل، مؤدّى العمل، غاية العمل، بواعث العمل، خلفيات العمل، ملابسات العمل، حجم التضحية، كله محسوبٌ بدقّةٍ بالغةٍ عند الله عزّ وجل، هذا كله يعلمه الله عزّ وجل، لذلك اتّقِ الله أن تماري أحداً، اتّقِ الله أن تعرض عملك على الناس كي تنتزع إعجابهم.

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

حينما تبيّن للخبير تكون إنسانا أحمق، أنت أمام خبير مثلاً بالماس، أو بالذهب، إن قلت له: هذا ذهب عيار أربعة وعشرين، هذا كلامٌ ليس له معنى إطلاقاً، لأن الخبير يعلم كل شيء، لذلك أنت أمام الخبير فعليك أن تلوذ بالصمت.

(إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

أيها الإخوة الكرام.

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)

(سورة الحشر: الآية 19)

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

1 ـ نَسُوا اللَّهَ

وهذه آية من أدق الآيات، نسوا الله، نسي الإنسان ربّه، ليس معنى نسي الله أنه أنكر وجوده، لا، لم ينكر وجوده.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

(سورة العنكبوت: الآية 61)

لكنه لم يُقبل عليه، لم يعبأ بأمره ونهيه، لم يتوجّه إليه، لم يجعله هدفاً لأعماله، فهو قد سمع الناس يقولون شيئاً فقاله، عاش في مجتمع إسلامي، سمع خُطَب الجمعة، عرف أن لهذا الكون خالقاً هو الله، لكن أمره ونهيه لم يدخله في حساباته اليومية، لم يُقِم بيته على مبدأ الإسلام، لم يربِّ أولاده تربية إسلامية، لم يُقِم عمله على منهج الله عزّ وجل، إنه نسي الله، نسي أمره، ونسي نهيه، نسي منهجه، ونسي أنه هو الهدف، نسي أن الحياة الدنيا مؤقتة، نسي الآخرة.

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)

2 ـ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ

نسيان الله أنساهم أنفسهم، حينما تنسى الله لا تعرف لماذا خلقك ؟ حينما لا تعرف أن الله خلق السماوات والأرض، وأن الله سبحانه وتعالى هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنّه إليه يرجع الأمر كله، بيده كل شيء، الله عزّ وجل يقول:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر: الآية 2)

حينما نسيت الله فنسيانك لله أنساك هويّتك، من أنت ؟ أنت المخلوق المكرّم، لم يعرف نفسه، أنت مخيّر، لم يعرف نفسه، أنت مكلّف، لم يعرف نفسه، أنت في دنيا محدودة، الدنيا إعدادية لحياةٍ أبديةٍ عُليا، لم يعرف، جعل الدنيا أكبر همِّه، ومبلغ علمه، جعل الدنيا نهاية آماله، ومحطّ رحاله، حينما نسي الله، ونسي سرّ الخلق نسي نفسه، نسيانه لله عزّ وجل أنساه نفسه، لذلك الكافر نفسه هَينةٌ عليه، لا قيمة لنفسه عنده.

إخواننا الكرام، هناك أشياء ترفضها، لأنك تحتقرها، إلا أنك إذا رفضت الدين إنما تحتقر نفسك.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة: الآية 130)

أنت حينما ترفض دين الله عزّ وجل أن تعتنقه، ترفض منهج الله أن تطبقه، ترفض هذا الدين القويم أن تتمسّك به، ترفض هذا التفسير الدقيق المُطْلَق في صحّته أن تعتنقه فأنت تحتقر نفسك.

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ)

3 ـ أُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ

كأنها سلسلة، حينما فسق عن أمر ربه حُجِب عن الله عزّ وجل فما عرفه، وحينما لم يعرف الله عزّ وجل لم يعرف من هو، القضية مترابطة، إن عرفت أن لهذا الكون خالقاً، خلقنا من أجل أن يسعدنا، من أجل أن يرحمنا، خلقنا لجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، جاء بنا إلى الدنيا لتكون إعداداً للجنّة، أعطانا العقل، أعطانا الكون، أعطانا حرّية الاختيار، أودع فينا الشهوات، أعطانا قوّةً في ما يبدو كي نحقق اختيارنا، قلت: فيما يبدو، أعطانا المنهج الكتاب والسنّة، جعلنا المخلوق المكرّم، سخّرت لنا السماوات والأرض، كلّفنا بالأمر والنهي، أنت إن لم تعرف هذا فلا تعرف مَن أنت، فالقضية مترابطة..

(نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)

لم يعرف نفسه، من أنت ؟ يقول لك: نحن نعيش، لماذا أنت تعيش ؟ مِن قلّة الموت، ماذا تفعل ؟ إننا نزاحم في الدنيا، والله شيء جميل، هذا كلام الناس، لماذا أنت عايش ؟ قال:

((كالناقة عقلها أهلها، فلا تدري لمَ عُقِلَت ؟ ولمَ أُطلِقت ؟))

[ورد في الأثر]

لماذا هناك موت ؟ إنه لا يعرف، لماذا هناك مصائب ؟ يقول لك: هكذا الله قدّر علينا، فما السبب ؟ أين قوله تعالى:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى)

وأين..

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: الآية 147)

لماذا لا يوجد رزق وفير ؟ لأن ثمة جفافا، الله عنده جفاف ؟ الإنسان يقنن تقنين عجز، أما هل الله يقنن تقنين عجز ؟ إنه يقنن تقنين تأديب.

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف: الآية 96)

هذا كلام ربنا.

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10) يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا(13))

(سورة نوح)

اعرف الحقيقة قبل فوات الأوان:

فلذلك الآية الكريمة فيها سلسلة، حينما يفسق الإنسان يُحجَب بمعصيته عن الله، إن حُجِبَ عنه ما عرفه، وإن لم يعرف الله لم يعرف نفسه.

إن الإنسان إذا عرف أن هناك جامعة، وهذه جامعة من يتخرّج منها ينال أعلى المرتبات.. مثلاً.. إذا عرف قيمة هذه الجامعة، وعرف أنها تعطي مرتبة عُليا لمن ينجح في امتحاناتها، وأن مستقبله يصبح زاهراً، وهو طالبٌ فيها، متى عرف قيمته ؟ حينما عرف قيمة جامعته، متى عرف قيمته كطالب في هذه الجامعة ؟ حينما عرف قيمة جامعته، لو لم يعرف قدرها لم يعرف قدره، هذا مثل للتوضيح..

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ)

فاعل أنساهم: نسيان الله أنفسهم، فنسيان الله أنساهم أنفسهم.

(أُولَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ)

الفسق خطير، ومضاعفاته خطيرة، والإنسان يفسُق فيحجَب، ويحجَب فيجهل، ويجهل فيجهل نفسه، جهل نفسه فجهل حقيقته، جهل هويّته، جهل دوره، جهل تكليفه، جهل أمانته، جهل مصيره، يأتيه الموت فجأةً..

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور)

ماذا قولك عن رجلٍ.. للتقريب.. يبيع أرضه خمسمائة دنم، وبيته في حي المالكي، ومعمله، وفيلا راقية، وسيارته، ويقبض ثمنها عملة صعبة، ثم يكتشف فجأةً أن العملة كلّها مزوّرة، هذا الخبر كيف وقعه عليه ؟ كل شيء يملكه باعه بعملة صعبة، ثم اكتشف فجأةً أنها كلّها مزوّرة، هذا هو الصَعْق، عندما يأتي الإنسان يوم القيامة يجد أن كل شيءٍ فعله في الدنيا..

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

(سورة الفرقان)

إخواننا الكرام... كل إنسان يندم فهذا يدلّ على وجود قصور في تفكيره، والعاقل ينبغي أن لا يندم، لأنه عرف الحقائق المستقبلية، وانسجم معها من الآن.

تصوّر طالبًا عرف خطورة الامتحان، واستعدّ له أعلى استعداد، فإذا جاء الامتحان والأسئلة واضحة، يعرف الأجوبة الكاملة، وهو يكتبها، فإنه في الامتحان هو في أسعد لحظات حياته، لأن الحقيقة المستقبلية انسجم معها من الحاضر، حتى إنهم يقولون في علم النفس: **" من أرقى الذكاء التكيُّف ".**

ساعة المغادرة:

أنت إنسان، أنت بضعة أيام، كلّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منك، هل يوجد أحد ليس له عمر عندنا في الأرض ؟ ضع رقمًا كمثال: ثلاث وسبعون سنة، وخمسة أشهر، وأسبوع، وخمسة أيام، وثماني ساعات، وأربع دقائق، وثلاث ثوان، هذا هو عمره، كل ساعة بل كل ثانية تقرّبنا إلى الأجل، أنت كائن متحرّك لهدف ثابت، لملاقاته، كلّما تمضي ثانية في الساعة معنى هذا أنها ذهبت من عمرك، الإنسان بضعة أيام كلّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، أما عندما يأتي مَلَك الموت فلا رجعة.

إذا كان الإنسان مقيمًا في دولة نفطية، ومعه إقامة، وكتبوا له: مغادرة بلا عودة، يمكن أن يصاب بجلطة، وكلنا سوف نغادر ولا نعود، فعندما يأتي ملك الموت تكون المغادرة بلا عودة، وإذا مات الإنسان، وشُيّع، ودفن، هل يقول أهله مساءً: لماذا لم يأت فلان ؟ لا، إنه لن يرجع، غرفته انتهت، وملابسه يوزّعونها، هذه الساعة الحرجة.. ساعة مغادرة الدنيا.. ينبغي أن نعرف خطورتها، ينبغي أن نستعدّ لها من الآن.

والله أيها الإخوة، إن الإنسان المؤمن الذي يستعدُ لهذه الساعة بالتوبة والطاعة والاستقامة والعمل الصالح، والله حينما يأتي ملك الموت ليس في الأرض كلّها إنسانٌ أسعد منه.. **<< وا كربتاه يا أبتا، قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبّة محمّداً وصحبه >>..**

تصوّر لو أن طالبا يدرس في بلد أجنبي، يعمل في مطعم خادما يغسل الصحون، ويدرس، وهو ساكن في غرفة قميئة إلى أن نال الدكتوراه، إنه موعود في بلده بأعلى منصب، وأجمل بيت، وأجمل زوجة، وأجمل مركبة، أخذ الشهادة، وصَدّقها، ووضعها في حقيبته، وقطع تذكرة السفر، وصعد إلى الطائرة، وهو يصعد الطائرة هو في أسعد لحظات حياته.. كيف القدوم على الله يا أبا حازم ؟ قال: **" كالغريب عاد إلى أهله "**.

سيدنا رسول الله تفقّد أحد أصحابه اسمه سعد بن الربيع، بحث عنه أصحابه، فإذا هو بين الموت والحياة في ساحة المعركة، قيل له: **"يا سعد بن الربيع، إن النبي قد أمرنا أن نتفقّد حالك، هل أنت مع الأحياء أم مع الأموات ؟ أي هل هناك أمل ؟ فقال: بل أنا مع الأموات، ولكن بلِّغوا نبي الله مني السلام، وقولوا له ـ وهو في الرمق الأخير ـ: جزاك الله عنّا خير ما جزى نبيّاً عن أمّته، وقولوا لأصحابه: لا عُذْرَ لكم إذا خُلِص إلى نبيكم وفيكم عينٌ تطرف "**.

ما حالة هذا الإنسان ؟ حالة هذا الإنسان في أعلى درجات السعادة، لأنه أدّى ما عليه.

عندما نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه قبل أن يتوفّاه الله عزّ وجل لأول مرّة يبتسم حتى رأى الناس نواجذه، قال:

((علماء حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء))

[تخريج أحاديث الإحياء]

إنه أدّى الأمانة.. اللهمّ إني أديت الأمانة، وبلّغت الرسالة، ونصحت الأمة، هكذا أنت تقول أمام قبر النبي: **" نشهد أنك بلغت الرسالة، وأدّيت الأمانة، ونصحت الأمة، وكشفت الغُمّة، وجاهدت في الله حقّ الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد "**.

إذا كان الرجلُ منّا الله خلقه في الدنيا، ثم كبر، وصار أبًا، تزوج امرأة صالحة، وأنجب أولادا، ربّاهم تربية إسلامية، له عمل ابتغى به خدمة المسلمين، له دعوة إلى الله، له سَمْتُه الحسن، له أعماله الصالحة، له إنفاقه، ثم جاء ملَك الموت فإنه يقول له: أهلاً بك، الله يسلِّم عليه.

(سَلامٌ قَوْلا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)

(سورة يس)

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي)

(سورة يس)

لا يستوي الصنفان:

لابد للإنسان أن يكون على منهج الله، ويعرف حقيقة هذا الدين..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

مَن عنده قطعة من الماس صغيرة، ثمنها ثمانية ملايين ليرة، وآخر عنده قطعة فحم كبيرة، هل هما مثل بعضهما ؟ قطعة الماس ثمنها ثمانية ملايين، وقطعة فحم للحم المشوي وكبيرة، ويفتخر بكبرها، إنه أحمق..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ)

(سورة الحشر: الآية 20)

أين الثرى من الثريّا ؟ لا توجد نسبة، إنسان جاهل جهلا مطلقا، وإنسان يحمل أعلى شهادة في العالم، لو جلسا جنبًا جنب وتحدّثا، فلا توجد نسبة.

أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه كان يدرّس، يبدو أن هناك ألما في رجله، وتلاميذه يحبونه.. مع أن النبي ما رئي ماداً رجليه قط.. يبدو أنه معذور فمدّ رجله، دخل إنسان طويل القامة، عظيم الهيئة، يرتدي عمامة وجبّة، فظنّه عالماً، فاستحيا، فرفع رجله، وجلس، وكان الدرس عن صلاة الفجر، بعد أن أتمّ الدرس سأله الرجل: وقال له: كيف نصلي الفجر إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ فقال له: عندئذٍ يمدُّ أبو حنيفة رجله.

شتّان بين العالم والجاهل، هناك عالم وهناك جاهل، هناك إنسان رحيم، وهناك إنسان قلبه كالصخر، شتان بين الرحمة والقسوة، وبين العدل والجَوْر، وبين الإحسان والإساءة، وبين الاستقامة والانحراف، وبين الصدق والكذب، وبين الإخلاص والخيانة، لا يوجد شيء يجمع بينهما، الدنيا فيها مراتب، هل بائع متجوّل يشبه أكبر مستورد ؟ إنسان يعمل بأعلى منصب في الجيش، هل هو مثل جندي غر ؟ هناك فرق كبير في كل شيء، هل الأستاذ في الجامعة كإنسان يحمل شهادة ابتدائية ؟ هناك فرق كبير جداً..

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ)

لو أن قطعتين من اللحم، قطعة لحم مشوية، وهي من أجود الأنواع، وقطعة لحم متفسِّخة من خمسة أيام، وريحها تصل إلى ما بعد خمسين مترًا، إنّ هذه لحم، وهذه لحم، فهل يستويان ؟ والله البونُ شاسع بينهما، وأنا أعتقد أنه لا توجد رائحة على وجه الأرض أكثر إيذاء للإنسان من اللحم المتفسّخ، وكلكم سافرتم، فإذا كان هناك حيوان ميت متفسِّخ من مئتي متر تجد أنك لا تتحمّل الرائحة، فتسد أنفك، وتضاعف السرعة لكي تتخلّص من هذه الرائحة، وهناك لحم مشوي، وكلاهما لحم..

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ)

لا يستوي، المؤمن عالم.. ما اتخذ الله ولياً جاهلاً ولو اتخذه لعلّمه.. الكافر جاهل، إنه كتلة جهل، وقد يكون يحمل أعلى شهادة، ولكن لأنه لم يعرف الله فهو جاهل، قد يكون في اختصاصه متفوّقا، هذا يسمى ذكيا ولا يسمى عاقلاً، بالمعاملة ؛ هذا مستقيم وهذا منحرف، هذا وفيّ وهذا خائن، هذا حيي وهذا وقح، هذا عفوّ وهذا منتقم، هذا صبور وهذا لجوج، هذا منصف وهذا ظالم، هذا سامٍ وهذا دنيء، هذا وديع وهذا فيه غلظة، هذا مؤنس وهذا موحش، لا يستويان، المؤمن متصل بالله فاشتقّ من كماله، وأي مؤمن إن اتصل بالله عزّ وجل اشتقّ من كماله، فتجد فيه الوداعة واللطف، والأدب والحياء، والرحمة والشفقة، والعدل والإنصاف، والورع والخوف، والافتقار والتواضع ؛ وابتعد عن الكبر والغطرسة، والعنجهية والسيطرة، والدناءة والأنانية، والأثرة والقسوة والجحود..

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ)

والله لو عشت مع مؤمنٍ، وعشت مع عاصٍ أو كافر لو لم ينطق كلاهما بكلمة لرأيت البون شاسعاً بينهما.

حدّثني طبيب يعمل في مستشفى قال لي: زارنا مريض معه ورم خبيث في أمعائه، وهو مؤمن، لكن العجب أنه كلّما دخلنا عليه استأنسنا به، كلّما دخل عليه إنسان يقول له: أتشهد أنني راضٍ عن الله ؟ اشهد على أنني راضٍ على ما ساقه الله لي، يا رب لك الحمد، قال لي: حينما يضغط على كبسة الجرس يتنافس الممرضون لخدمته، ويتنافس الأطبّاء لخدمته، واضطروا أن يفتحوا أمعاءه، وأن يخرج الغائط من طرف أمعائه، قال لي: والله.. وهو صادق.. إذا دخلنا لغرفته فهي برائحة المسك، وجه منير، تسبيح

وذكر وصبر، واعتراف بالفضل، ويا رب، إني راضٍ عن فعلك، فارض عني، ويُشهد كل الناس أنه راضٍ عن الله، ثم توفي هذا المريض، وانصرف إلى رحمة الله، قال لي: لحكمةٍ أرادها الله ولدرسٍ تأديبيّ لنا جاءنا مريض بالمرض نفسه، ورم خبيث في الأمعاء، قال لي: لا يوجد نبي لم يسبّه، رائحة الغرفة لا تطاق، كلّما قرع الجرس لا أحد يستجيب له، يتكلّم كلامًا غير معقول، نفس غليظة، اعتراض على حكم الله، يتكلّم بالكفر، انظر الشاهد:

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ)

المرض نفسه، هذا تلقّاه بالصبر، والثاني بالضجر، هذا بالشكر، وهذا بالجحود، هذا بالهدوء، وهذا بالضجيج، هذا بالعرفان بالجميل، وهذا بإنكار الفضل.

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ)

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ

قد يفوز الكافر في الدنيا.

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197)لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)

(سورة آل عمران)

لابد من استخدام مقاييس القرآن للفوز:

ينبغي أن تستخدم مقاييس كتاب الله، أن تقيّم الناس لا بحجمهم المالي، ولا بقوّتهم، بل بطاعتهم لله..

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

هذا كلام ربنا.

(فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

أحياناً يقول لك أحدُهم: أخذنا أرضا الدنم بعشرين ألف ليرة، الآن بستة ملايين لا أبيع هذا الدنم، خير إن شاء الله ؟ يظن أنه فاز فوزاً عظيماً، اشترى بيتا بثلاثين ألفًا فأصبح ثمنه ثمانية ملايين، يظن نفسه فاز فوزاً عظيماً، وكيل شركة حصرية أرباحها طائلة، ومركزه مكين في الشركة، يظن أنه قد فاز فوزاً عظيماً، وصل إلى منصبٍ رفيع، يظن أنه قد فاز فوزاً عظيماً، لكن الله يقول:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ)

أي إن الإنسان إذا كان في طريق الجنّة فهذا من أسعد الناس، وفي الكون حقيقة: أن الله جلّ جلاله هو كل شيء، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأيّ شيء يقرّبك منه فهو الحق، وأيّ شيءٍ يبعدك عنه فهو الباطل، فلذلك:

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ)

هم الفائزون بنصّ القرآن الكريم، وهناك مليون نص آخر غير قرآني يبين أن الغني هو الفائز، القوي هو الفائز، الذكي هو الفائز، المنتمي إلى فئة معيّنة هو الفائز، لا..

(أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ)

وأصحاب الجنّة هم الطائعون، الجنّة لكل الناس، لكن لها ثمن، سلعة الله غالية، وثمنها طاعة الله عزّ وجل.

(أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ)

ثم يقول الله عزّ وجل:

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ

هذه الآية لها تفسيرات عدّة:

1 ـ معنى الآية:

أحد تفسيراتها: أن النبي صلى الله عليه وسلّم أنزل الله عليه القرآن، وكان ثابتاً..

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)

(سورة النجم)

إذاً: النبي عليه الصلاة والسلام كان أشدّ رسوخاً من الجبال، وحي السماء ينزل على إنسان ويتحمّله !!

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

2 ـ كيف يخشع الجبل ولا يخشع الإنسانُ ؟!!

القرآن فيه الحق، فيه وعد خالق الكون، فيه وعيده، فيه حلالٌ وحرام، فيه أمر ونهي، فيه تاريخ البشرية، فيه مستقبل البشرية، فيه غيب الماضي، فيه غيب الحاضر، فيه غيب المستقبل، قرآن، إذا أنزل على جبلٍ، وكان لهذا الجبل عقلٍ لاستوعبه، وآمن به، وخشع له، فكيف إذا أُنزل على البشر العقلاء الذين وهبهم الله أعظم نعمةٍ على الإطلاق، نعمة العقل، ومع ذلك لا يتأثّرون، ولا يعبؤون به، ولا يلقون له بالاً، بل اتخذوه وراء ظهورهم، وأهملوه.

3 ـ القرآن مهجورٌ في حياة المسلمين:

الآن في حياة المسلمين، ادخلْ إلى بيت مسلم تجد أنه لا يطبّق منهج الله، طبعاً القرآن موجود، معلّق في غرفة، وتوجد لوحات كثيرة قرآنية، آية الكرسي في كل البيوت تقريباً، لكن العلاقات، اللقاءات، الاجتماعات، السهرات، الندوات، الحفلات، الكسب، الإنفاق، خروج الزوجة، خروج البنات، كله غير إسلامي، إذاً: هذا القرآن لا يحكّم في بيوتنا، ولا في أعمالنا، بل مكاسبنا ربوية، وهناك غش، وكذب ودجل، وإخفاء عيوب، وبيعة في بيعتين، آلاف المخالفات في أعمالنا، وفي بيوتنا، إذاً: هذا القرآن لا يحكِّم في حياتنا اليومية.

أيها الإخوة الكرام، هذا القرآن الكريم إذا أنزل على جبلٍ لرأيته:

(خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا)

أي متشقِقاً ..

(مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

4 ـ كتاب الله منهج للمسلمين:

فكيف إذا أُنزل على إنسان من لحمٍ ودم، له عقل وله نفس، وله قوةٌ إدراكية، وقد كُلِف حمل الأمانة، واختاره الله على علم، وجعله سيد المخلوقات، وسخّر له الأرض والسماوات ؟ فهذا مثَلٌ يحثُّنا على أن نتمسّك بهذا الكتاب، هذا منهج الله، هذه تعليمات الصانع، هذا حبل الله المتين، هذا ركنٌ ركين، هذا الملجأ، هذا المنهج، هذا الدستور، هذا الطريق القويم، هذا الصراط المستقيم، هذا كما يقول بعض الناس: المنهج الذي إن تمسّكنا به وصلنا إلى سعادتنا في الدنيا والآخرة، فعلينا أن نقرأه، علينا أن نفهمه، علينا أن نتدبّره، علينا أن نطبّقه..

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

إذا كان الإنسان مستقيما، وكان الخط مع الله سالكا، وهو قريبٌ من الله يلقي الله في قلبه من المعاني الدقيقة، ومن السرور في قراءة هذا الكتاب ما لا يوصف، أما حينما يبتعد عن الله بالمعاصي حُجِب عنه ذلك.

(وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَارًا)

(سورة الإسراء)

معنى هذا أنك إذا آمنت، واستقمت فإن هذا القرآن شفاءٌ لك، شفاءٌ لعقلك، شفاءٌ لنفسك، شفاءٌ لجسدك، شفاءٌ لمجتمعك، شفاءٌ في دنياك سعادةٌ في آخرتك، هذا الكتاب ينبغي للإنسان ألاّ يهجره، أن يعيشه ليلاً ونهاراً، صبحاً ومساءً.

في الدرس القادم إن شاء الله نتحدّث عن آيات الله الكريمة:

(اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ)

(سورة الحشر: الآية 22)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحشر 059 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 22- 24

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-07-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الخامس والأخير من سورة الحشر، ومع الآية الكريمة، وهي قوله تعالى:

(هُوَ اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ هُوَ الرّحْمَنُ الرّحِيمُ(22)هُوَ اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدّوسُ السّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبّارُ الْمُتَكَبّرُ سُبْحَانَ اللّهِ عَمّا يُشْرِكُونَ(23)هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبّحُ لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(24))

(سورة الحشر)

هُوَ اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ هُوَ الرّحْمَنُ الرّحِيمُ

1 ـ هُوَ اللّهُ

أيها الإخوة الكرام، قد تسأل إنساناً: من فلان ؟ يقول لك: هو زيد، هو مبتدأ، وزيدٌ خبر، سألته: من هو؟ فقال: هو فلان، أما في هذه الآية حينما يبدأ الله عزّ وجل تلك الآية بقوله تعالى:

(هُوَ اللّهُ)

الله خالقُ الكون:

معنى ذلك أن هناك سؤالاً: إذا فكّر الإنسان في خلق السماوات والأرض رأى كوناً لا نهاية له، فآخر الإحصاءات أن في الكون ما يقترب من مليون مجرة، وأن في المجرة الواحدة ما يقترب من مليون نجم، وأن هذه النجوم متفاوتةٌ تفاوتاً كبيراً في حجومها، وفي عددها، وفي صفاتها، فلو أن واحداً سأل نفسه: مَن خلق هذا الكون ؟ هذا سؤال وجيه، من جعل هذا النظام البديع فيما بين الكواكب والمجرات ؟ هذا التوازن الحركي، قانون الجاذبية، هذه الكتل الهائلة من أين جاءت ؟ أين كانت قبل أن تخلق ؟ من أوجدها من العدم؟

إذا نزلنا إلى الأرض، مَن أعطاها حجمها المناسب ؟ مَن جعلها تدور حول نفسها بمحورٍ مائلٍ على مستوى دورانها حول الشمس ؟ ينشأ عن هذا الميل الفصول الأربعة، وعن هذا الدوران الليلُ والنهار، من جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ؟ من جعل الأرض مفتتة من أجل أن تزرع.

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ(11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12))

(سورة الطارق)

الأرض تتشقق عن النبات، والسماء تتشقق عن المطر، هذا عمل مَن ؟ عقل الإنسان أثمن شيءٍ فيه، عقل الإنسان جهازٌ قوة إدراكية لا تفهم ما حوله إلا وفق ثلاثة مبادئ، العقل البشري لا يفهم الواقع إلا وفق سبب، ولا يفهمه إلا من أجل غاية، ولا يقبل التناقض، فالإنسان ذو التفكير الحر، ذو العقل السليم، ذو الفطرة السليمة.

الله خالق الإنسان:

نحن فيما بيننا أيّ آلةٍ يجب أن تعتقد أن لهذه الآلة مصنعاً، وأن في هذا المصنع مصممين، ومهندسين، ومنفذين، ومواد أولية، وآلات متنوعة، ومراقبة، هذه آلةٌ صغيرة !! والإنسان أعقد آلةٍ في الكون، مَن خَلَقه ؟ مَن الذي أخرج من الرّجُل خمسمئة مليون حوين ؟ واحدٌ من هذه الخمسمئة مليون يلقِح البويضة، كيف أن بويضة ملقحة بعد تسعة أشهرٍ أصبحت طفلاً ؟ مئة وأربعون مليار خلية في الدماغ، وأربعة عشر مليار خلية قشرية، والعصب البصري تسعمئة ألف عصب.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8))

(سورة البلد)

مئة وثلاثون مليون عُصَيَّة ومخروط في شبكية العين، الشبكية عشر طبقات، العصب البصري تسعمئة ألف عصب، ولكل عصب ثلاثة أغمدة.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8))

هذه العين ترى الشيء بحجمه الحقيقي، وبألوانه، وتدركه إدراكاً فورياً دون تحميض، من صمم العين؟ من أجرى فيها المُطابقة أنك بعد دون ستين متراً الشيء المتحرك كأن جهةً ثالثة تقيس المسافة بينك وبينه، وتضغط على الجسم البلوري ضغطاً ميكرونياً كي يزداد احديداب العدسة، كي يقع الخيال على الشبكية، كي تدرك، يد من ؟ تصميم من ؟ تنفيذ من ؟ حكمة من ؟ روعة من ؟ هذا سؤال.
والسمع: أصواتٌ لا تعد ولا تحصى، كيف تأتي هذه الأصوات بلا أذنين ؟ لأن هناك أذنين تعرف جهة الصوت، ولأن الدماغ حينما يأتيه صوتٌ من الخارج يحسب حساباً دقيقاً تفاضلَ وصول الصوتين إلى

الدماغ، والتفاضل هو واحد على ألف وستمئة وعشرون جزءًا من الثانية، من حساب هذا التفاضل يعرف الإنسان جهة هذا الصوت، من صمم هذه الأذن.

من صمم هذا اللسان ؟ كل حرف تسهم فيه سبع عشرة عضلة ؟ مَن صمم اللسان ؟ من صمم الحبال الصوتية ؟ من صمم الرئتين ؟ من صمم القلب والرئتين ؟ الجواب: هو الله، مليون مليون مليون مليون سؤال يطرحه الإنسان على نفسه والجواب: هو الله.

الله خالق النباتات:

هذه الأزهار البديعة من أعطاها ألوانها، أشكالها، روائحها الفوّاحة ؟ هذا النبات الذي تأكله من صممه ؟ من صمم نظام البذور ؟ بعض البذور تعطي مليوني ضعف، الطماطم، من صمم البذور ؟ من جعل هذا الرشيم ؟ وهذا السويق ؟ وهذا الجذير، وهذه المحفظة الغذائية ؟ وهذه الخصائص التي لا تعد ولا تحصى ؟ كلها مبرمجة في النويّة ؟ شيء لا يصدق ؟ هو الله، كلما قرأت:

(هُوَ اللّهُ)

فهناك سؤال: من جعل الجميل جميلاً ؟ من جعل القوي قوياً ؟ من جعل هذا العلم العظيم ؟ من العالِم ؟ هو الله، من المصمم ؟ هو الله، من الموجد ؟ هو الله، من المنظِم ؟ هو الله، من المسير ؟ هو الله، أنت تسأل والله يجيب.

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

كأن الله سبحانه وتعالى يجيب كل سائل: أن هذا الكون وما فيه من عظمة الذي صممه، وخلقه، وأبدعه، وبرأه، وصوّره هو الله..

أيها الإخوة الكرام، لا سبيل إلى معرفة الله بالحواس، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام: آية 103)

ولكن العقل إذا أعملته في الكون عرف الله، والعقل أداة معرفة الله، وهو الأداة الإدراكية الذي كرّم الله به الإنسان، فالإنسان مدرك، وكأن العقل خُلِقَ كي يعرف الله، وأشقى الناس من استخدم عقله على خلاف ما خلق له.

أيها الإخوة، الله سبحانه وتعالى له أسماؤه الحسنى وصفاته الفضلى، أما كلمة (الله) فهي علَمٌ على الذات، الاسم الجامع من للأسماء الحسنى كلها وللصفات الفضلى كلها هو الله:

وفي كل شيءٌ له آيةٌ تدل على أنه واحد

أيها الإخوة، إن أسعد الناس هو الذي يُعمِل عقله فيما خَلَق الله عزّ وجل، والأمر لا يحتاج إلى تعقيد.

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24))

(سورة عبس)

الله خالق كل شيء:

عاهد نفسك أن تنظر في طعامك، فيما تأكل، تأكل أنواعًا منوّعة من الخضراوات، والفواكه، والمواد الدسمة، ومشتقّات الألبان، تشرب الماء الزلال الذي كان ملحاً أجاجاً، كأس الماء يدلك على الله، ورغيف الخبز يدلك على الله، وكأس الحليب يدلك على الله، والشيء الذي تُعَمِّقُ في التفكير به يوصلك إلى الله، وعدد الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

كأن كلمة: (هو الله) جواب لمليار مليار سؤال: من صمم ؟ من خلق ؟ من صوّر ؟ من أبدع ؟ من أعطى الشيء الجميل جماله ؟ من أعطى الشيء اللطيف لُطفه ؟ من أعطى الشيء القوي قوته ؟ ماذا أقول لكم ؟

الحوين الذي ذكرته قبل قليل هو خلية، أصغر خلية، والخلية لها غشاء خارجي، ولها هَيولى، ولها نواة، على النواة.. وأنا لا أقول رقماً لست متأكداً منه.. على النواة خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، على نواة الحوين المنوي الذي يلقِّح البويضة خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة تتحرك وفق برنامج زمني، كل صفات الإنسان مكتوبٌ على هذه النويّة على شكل أوامر مبرمجة، فأنت أمام خلقٍ معجز.

إن نظرت إلى الشمس والقمر فهما شيءٌ لا يصدق، تبعد الشمس عن الأرض مئة وستةً وخمسين مليون كيلو متر، يقطعها الضوء في ثماني دقائق، بينما هناك نجومٌ في بعض الأبراج تتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، هذه الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة، أحدث مجرة كُشفت رصدتها مركبةٌ فضائية بقيت تطير في الفضاء الخارجي ستة سنوات، رصدت مجرةً تبعد عنا ثلاثة آلاف مليون سنة ضوئية، أرقام يصعب على العقل البشري أن يصدّقها.

أيها الإخوة الكرام، حينما تقرأ قوله تعالى:

(هُوَ اللَّهُ)

أي سؤالٍ تطرحه: من خلق ؟ من صمم ؟ من أوجد ؟ من صوّر ؟ من برأ ؟ ما هذا العلم ؟ ما هذه الدقة المحكمة ؟ فلو أن إنسانًا له عينان ذهب إلى القطب الشمالي حيث الحرارة سبعون تحت الصفر، كل شيءٍ جامد، بردٌ لا يحتمل، فالإنسان يغطي يديه، يغطي رجليه، يلبس ثياباً ثقيلة، يضع على رأسه صوفاً، أيستطيع أن يضع على عينيه شيئاً كي يقي عينيه من البرد والتجَمُّد، في العينين ماء، وهذا الماء مُعَرّض للتجمد، مَن وضع في ماء العين مادةً مضادةً للتجمد ؟ هو الله.

تطابق العينين، تطابق الأذنين، نطق اللسان، الإحساس باللمس، هذا الجلد الغلاف الرائع.

أيها الإخوة... لو ذهبنا نعدد آيات الله في خلقه لوجدنا العجب العجاب، هو الله، الشيء الدقيق في الآية أن الله لا إله إلا هو، لا توجد جهة ثانية تفعل فعلاً.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

2 - الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

فالإله هو المعبود، تعبد من ؟ تعبد الذي يخلق، تعبد الذي يرزق، تعبد الذي يتصرّف، تعبد الذي يحيي، تعبد الذي يميت، تعبد الذي يعطي، تعبد الذي يمنع، تعبد الذي يعز، تعبد الذي يذل، تعبد الذي بيده كل شيء، الإله لا معبود بحقٍ إلا الله، الإنسان بفطرته يعبد الذي خلقه.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: آية 21)

الإنسان بفطرته يعبد الذي يُحْيي، الإنسان بفطرته يعبد الذي يميت، الذي يرزق، الذي يعز، الذي يذل، الذي يرفع، الذي يخفض.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

أما قولنا: (لا إله إلا الله)، فهذه كلمة الإسلام، هذا شعار التوحيد، الإسلام كله مضغوطٌ بهذه الكلمة، الإسلام كله في هذه الكلمة، لا إله إلا الله، لا مسيّر إلا الله، لا معطي إلا الله، لا مانع إلا الله، لا خافض إلا الله، لا رافع إلا الله، لا قابض إلا الله، لا باسط إلا الله، لا معز إلا الله، لا مذل إلا الله، لا مسعد إلا الله، لا مُشقي إلا الله، لا معطي إلا الله.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

التوحيد ينافي الشرك، والشرك ينافي التوحيد:

حينما نصل أيها الإخوة إلى الإيمان بلا إله إلا الله نصل إلى كل شيء، تنقطع كل آمالنا بالخلق، وترتبط بالحق، وحينما ييأس الإنسان من الخلق يتوجّه إلى الحق، حينما ييأس من أهل الأرض يتوجه إلى السماء، حينما يقطع الأمل مما سوى الله يتوجه إلى الله، ما دام هناك شرك فالطريق إلى الله ليس سالكاً، وفي الحديث قدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ))

[مسلم]

العمل المشترك لا يقبله الله عزّ وجل، والقلب المشترك لا يقبل عليه، الله عزّ وجل لا يَقْبَل ولا يُقْبِل، لا يقبل عملاً مشتركاً، ولا يُقبل على قلبٍ مشترك، وما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه.

الحديث عن (لا إله إلا الله) حديثٌ يطول، لأنه الإسلام كله، بل لأن التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً من دون استثناء..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

حينما ترى أن رزقك بيد الله لا تعصيه إذاً، سلامة جسدك بيد الله، لا تعصه إذاً، نجاحك في الزواج بيد الله، فلا تعصه إذاً، نجاحك في العمل بيد الله، لا تعصه إذاً، سعادتك بيد الله، شقاءك بيد الله، رفعتك بيد الله، عزّتُكَ بيد الله، سلامتك بيد الله..

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

هو الذي خلق الكون، أبدع الوجود، هو الواحد، هو الموجود، هو الكامل..

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

3 ـ معنى: عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

المعنى الأول:

الشهادة ما تراه عيوننا، والغيب ما لا نراه..

(فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(38)وَمَا لا تُبْصِرُونَ(39))

(سورة الحاقة)

الكون شيءٌ تبصره، وشيءٌ لا تبصره، كأس الماء ماذا ترى فيه ؟ ماءً صافياً، عذباً زلالاً، لو أخذت نقطة ماءٍ، ووضعتها تحت مجهر لرأيت من المخلوقات التي في الماء ما لا يعد ولا يحصى، فالماء الذي يبدو لك صافياً

(بِمَا تُبْصِرُونَ)

والذي تراه تحت المجهر

(مَا لا تُبْصِرُونَ)

هذه الأذن لها عتبة للسمع، الأذن تستمع من ست عشر اهتزازة في الثانية إلى عدد لا أذكره الآن، (عشرون ألف ذبذبة في الثانية)، بينهما عتبة السمع، هناك أصوات لا نسمعها، هذه ما لا نسمعها، دون وبعد، فللسمع عتبه، وللبصر في عتبه، للإحساس عتبة، فالكون بمجمله بعضه مدرك، بعضه غير

مدرك، بهذه العين ترى الأرض، هل ترى ما في الأرض ؟ ما في أعماق الأرض ؟ ما في نواة الأرض؟ ما في مركز الأرض ؟.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

هو عالم ما تشاهده، وعالم ما لا تشاهده.

(فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(38)وَمَا لا تُبْصِرُونَ(39))

ما تراه عينك وما لا تراه عينك، ما تسمعه أذنك، وما لا تسمعه أذنك، ما يدركه عقلك، وما لا يدركه عقلك.

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

الشهادة ما كان، الماضي، والغيب ما سيكون.

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

ما كان وما سيكون، لا يعلم الغيب إلا الله.. **" علم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون "..**

إذاً المعنى الأول: ما نراه، وما لا نراه، ما كان، وما سيكون.

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

المعنى الثالث:

وبعضهم قال:

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

عالم الدنيا وعالم الآخرة، الآخرة عالَم قائم بذاته، الله جل جلاله عليمٌ بما في الدنيا، عليمٌ بما سيكون في الآخرة، لكن هذا الإله العظيم ذو العلم المُطْلَق، علمه يتعلّق بكل ممكن، وبكل موجود، هذا الذي يعلم كل شيء، هل يمكن أن تعصيه، وأن تتفلت من قبضته ؟! الإنسان بفطرته الذي يراقبك لا يمكن أن تعصيه، هو معك في سرّك وجهرك، في خلوتك وجلوتك، في إقامتك وسفرك، في بيتك وخارج البيت.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

4 ـ هُوَ الرّحْمَنُ الرّحِيمُ

أحياناً الإنسان يرتكب مخالفة، يساق ليحقق معه، حينما يصل إلى المحقق، المحقق إنسان، لكن الموقف مخيف، أما إذا وصلت إلى أمك، ماذا تنتظر من أمك ؟ الرحمة، الحب، الحنان، العطاء، الطمأنينة، الأمن، فالعلاقة بين الله وعباده علاقة رحمة، علاقة عطاء لا علاقة تخويف.

أحياناً الأم تربي ابنها، أما الأصل أن الأم للرحمة، الله عزّ وجل ينزل مصائب، وهذا الكون بُنِيَ على الرحمة، تقول:

(بِسْمِ اللَّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ(1)الْحَمْدُ لِلّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ(2)الرّحْمَانِ الرّحِيمِ(3))

(سورة الفاتحة)

الإنسان خُلق للرحمة:

الأصل أن الإنسان خُلق ليرحمه الله، الأصل أن الإنسان خلق ليسعده الله، الأصل أن الإنسان خلق ليسلم من أي شقاء، الأصل هكذا، فمثلاً المركبة الأصل فيها أنها تسير، صممت من أجل أن تسير، أصل تصميمها من أجل أن تسير، تشتريها من أجل أن تسير، أي مركبةٍ فيها مكابح، المكابح تناقض عِلّةُ وجودها، علة وجود المركبة أن تسير، والمكابح تناقض علة وجودها من أجل سلامتها، فالأصل أن هذا الكون من أجل الرحمة..

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: الآية 119)

المصائب تأديبٌ من الله وتربية منه للعباد:

إذا رأيت في الكون مصائب، ومتاعب، وهموما، ونقصا في المواد أحياناً، هذا كله تأديبٌ من الله عزّ وجل.

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبّكُمْ إِنّهُ كَانَ غَفّارًا(10)يُرْسِلْ السّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12))

(سورة نوح)

في الأثر:

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين لا يمشي إلى أحدٍ بسوء أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي))

ذكرهم بآلائي، بآياتي العظيمة، ونعمائي بنعمي، وبلائي بالمصائب، ذكرهم بآلائي كي يعظموني، ذكرهم بنعمائي كي يحبوني، ذكرهم ببلائي كي يخافوني.

الأصل أن هذه المركبة صممت لتسير، وفيها مكابح من أجل سلامتها، الأصل أن هذا الخلق الذي خلقه الله عزّ وجل من أجل أن يسعد، وهناك أشياء تشقي حينما يخرج المخلوق عن منهج الخالق.

كلمة مختصرة: أنت مخلوقٌ كي تسعد في الدنيا والآخرة، وكل أنواع الشقاء بسبب شركٍ أو معصيةٍ.

(فلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

أو معصيةٍ.

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

آيتان عظيمتان:

أما الآية التي ينبغي أن لا تنساها إطلاقاً فهي قوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سورة النساء)

هذا كلام الله، فاطمئن..

(إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ)

لماذا العذاب ؟

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

والله أيها الإخوة، لو لم يكن في كتاب الله إلا هاتان الآيتان لكفتا:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء)

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

في الفاتحة في الصلاة كل ركعة يجب أن تقرأ فيه الفاتحة، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ))

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2)الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(3))

[الفاتحة الآية: 2 - 3]

الأصل في علاقة الأم بابنها علاقة عطاء، علاقة إسعاد، لا يهدأ لها بال إلا إذا كان صحيحاً، لا يهدأ لها بال إلا إذا أكل، إلا إذا نام نوماً عميقاً، إلا إذا كان جسمه سليماً، إلا إن كانت نفسه مشرقةً، سعادة الأم من خلال سعادة ابنها، أصل العلاقة بين الأم وابنها علاقة رحمة، علاقة عطاء، علاقة إسعاد، ويجب أن تعلم علم اليقين ولله المثل الأعلى أن أصل العلاقة بين الله وخلقه أن يسعدهم، أن يسعدهم إلى أبد الآبدين، وما الحياة الدنيا إلا إعدادٌ لحياةٍ أبدية، الحياة الدنيا حياة محدودة، سنوات تنقضي، أما ثمن الطاعة في هذه السنوات المحدودة فسعادةٌ في جنة عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين..

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ(22)هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ)

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ

الله هو الملِك إيجادًا وتصرفا ومصيرا:

الملك، هناك من يملك ولا ينتفع، مثلاً: تملك بيتاً، ولا تنتفع به، مؤجر على النظام القديم، هناك من ينتفع ولا يملك، هناك من يملك وينتفع، ولكن ليس له النصيب، قد ينّظم هذا البيت، قد يستملك، قد يشق شارع فيهدم، لكن الله سبحانه وتعالى إذا قال:

(هُوَ الْمَلِك)

يملك كل شيء إيجاداً، وتصرُّفاً، ومصيراً، فإذا اشترى الإنسان بيتًا جاهزا فلا يكون مثلَ الذي عمّر بناء، وهو الذي اشترى الأرض، هو الذي بنى الأساسات، هو الذي أقام البناء، وهو الذي كساه، يملك إيجاداً وتصرفاً ومصيراً.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ)

الملكية الحقيقة لله عزّ وجل، الله عزّ وجل مالكٌ لِما مَلّكَنَا، أعطاك سمعًا، هو يملكه، وفي أي لحظةٍ يأخذه منك، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً، أعطاك عينًا هو الذي يملكها، وفي أية لحظةٍ تفقدها.. لا سمح الله..

هناك رجل يحمل أعلى شهادة فقدَ بصره، يحتل أدق منصب، وبالطبع خلال شهر بدأ يوقِع المعاملات بالشرح، هذه المعاملة يقول صاحبها كذا وكذا، إذاً أوافق، بعد ذلك سُرّحَ من عمله، قال لصديقه: والله يا فلان، أتمنى أن أجلس على الرصيف أتكفف الناس، وليس على جسدي إلا هذا المِعْطَف، وأن يرد لي بصري.

من منا يملك عينه ؟ الله هو مالكٌ لما ملّكنا.

من منا يملك عقله ؟

أحياناً يفقد الإنسان عقله، أقرب الناس إليه، وعن الطريق واسطة كبيرة جداً يرسلونه إلى مستشفى المجانين، أقرب الناس إليه، ابنه، زوجته، أنت مكانتك في البيت، لأن لك عقلا، فلو ذهب هذا العقل فليس عندك مكانة على الإطلاق، هو الذي يملك ما ملّكك به، أعطاك عقلا، أعطاك سمعا، أعطاك بصرا، أعطاك حركة، لو أن الذي ملك الحركة سلبها منك، أول أسبوع خدمة ممتازة، لأن هذا الشيء جديد، الثاني أقلّ، بعد شهر يتمنى أقرب الناس إليك أن تموت، تجد من يخدمه يقولون: الله يخفف عنه يا أخي، لا نقدر أن نتحمّله، لأنه سلب منك الحركة فقط، لكن الإنسان يقوم بنفسه ليقضي حاجته، يمشي بنفسه، هذه نعمةٌ لا يعلمها إلا الله، فهو مالكٌ لما مَلّكَنا، هذه الفكرة دقيقة.

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران: الآية 26)

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

(سورة الملك: الآية 1)

الله مالك، مالك السمع والبصر، مالك العقل، مالك الحركة، مالك العِلم، والإنسان أحياناً يفقد ذاكرته، فإذا كان طبيبا انتهى طبه، أو مهندس ذهبت شهادته، لأن كل المعلومات في الذاكرة، إذا فقد ذاكرته فقدَ كل شيء.

دققوا في هذه الكلمة: الله قادر في خلال أربع ثوانٍ أن يجعل أكبر بناء أنقاضاً فوق أصحابها.. هكذا حدث في زلزال القاهرة.. بناء من اثني عشر طابقاً، وفي ثوانٍ معدودة أصبح كوما من الأنقاض، هذه الطوابق، وما فيها من تحف، وأثاث، وممتلكات، وذهب، وسكّان، ومطابخ، وغرف استقبال، وغرف نوم، وستائر جميلة، ومرافق، في يد مالك الملك، الأرض مستقرة، مَن ملك استقرارها ؟ الله عزّ وجل.

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل: الآية 61)

هو الله، بحركة بسيطة يصبح لا شيء بزلزال، مدينة تصبح أثراً بعد عين، إعصار يتحرك نحو بلد لا يبقي ولا يذر، لا بيت، ولا شجرة، ولا معمل، ولا حقل، إذا كانت السرعة ثمانمئة فما فوق فلا يبقي ولا يذر، من المالك ؟ هو الله.

إنسان في أعلى قوته، نقطة دم كرأس الدُبوس تتجمد في أحد أوعية دماغه يفقد الحركة، يقول لك: خثرة دماغية، جلطة دماغية، انتهى، صار عبئاً على أسرته، فإذا تحرك الإنسان، وإذا كانت كليتاه تعملان بانتظام فمن يملك الكليتين ؟ الله عزّ وجل، اسأل الأطباء، الفشل الكلوي حتى الآن لا أحد يعرف سببه، الكليتان تكفّان عن العمل فجأةً، فإلى أن يموت هذا المريض يحتاج إلى غسيل كلية كل أسبوع مرتين، وكل مرة ثماني ساعات، هذا غير الأجر المادي، ثماني ساعات وهو جالس كي يصفى دمه، يغسل دمه بكليةٍ صناعية، ويبقى بالمئة عشرون من آثار البولة في الدم، من الذي يملك الكلية ؟ من الذي يملك دسّامات القلب ؟ من الذي يملك مرونة الشرايين ؟ من الذي يملك ضبط النمو بالخلايا، حتى الآن لا أحد يعلم ما أسباب المرض الخبيث ؟ لكل الأعمار، بالجلد، بالأحشاء، بالأعصاب، بالدم، حركة عشوائية في نمو الخلايا انتهى الإنسان.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ)

الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ

1 ـ الْقُدُّوسُ

فهو منزهٌ عن كل نقص.

(الْقُدُّوسُ السَّلَامُ)

أي منزهٌ عن كل نقص، ومقدّس، القدوس الذي لا يليق به نقصٌ إطلاقاً.

(الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ)

2 ـ السّلَامُ

مدلولات اسم السلام:

لهذه الكلمة معانٍ عدة:

السلام هو الذي يمنح السلام، يمنح سلاماً لك مع نفسك، تجد المؤمن معنوياته عالية، أما الإنسان حينما يعصي الله يحتقر ذاته، ولا يحترمها، ولو استطعت أن تنزع إعجاب الناس، وهناك أعمال قذرة يفعلها الإنسان، يفقد احترامه لذاته، فلذلك يعيش مع نفسه في صراع، يقول لك: توبيخ الضمير، وخز الضمير، الشعور بالنقص، عقدة النقص، أما حينما تستقيم على منهج الله عزّ وجل يمنحك الله سلاماً مع نفسك، وسلاماً مع الخلق، لك سمعة طيبة، ولك مكانة متألِّقة، ولك حبٌ في قلوب الخلق، وإذا أحب الله عبداً جعل قلوب الخلق تميلُ إليه.

السلام أي سلم من كل عَيْب، والسلام هو الذي سلم عباده من الظلم، والسلام هو الذي منحك السلام مع نفسك، ومع الخلق ومعه، ويهديهم سُبُلَ السلام، فالإنسان يحب أن تسلم حياته من كل نغص، ولن تسلم من كل نغص إلا إذا اصطلحت مع الله، إن اصطلحت معه سلّمك من كل نغص، من كل شقاء، من كل خوف، من كل قلق.

إذاً:

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ)

أي أن الله جل جلاله يهب الإيمان، قال في كتابه كلاما إذا طبقته، وإذا طبقت كلامه رأيت من أفعاله ما يحملك على مزيدٍ من الإيمان، فقال الله عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: الآية 97)

حينما تحيا حياةً طيبة يزداد إيمانك بهذه الآية، من الذي منحك الإيمان بهذه الآية ؟

3 ـ المُؤْمِنُ

المؤمن الذي وهبك الإيمان.

(يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)

(سورة التحريم: الآية 8)

إذا اعتقدت بشيء، وطبّقته، ولم تقطف ثماره اهتزّت ثقتك بهذا الشيء، ولم تؤمن به، أما إذا طبقته، وجاءت الأحداث تؤكد النتائج التي وصفت من قبل تزداد يقيناً بهذا، هو مؤمنٌ بذاته، يمنح الإيمان لعباده، لا يخزيهم حينما يُنْجِزُ وعده معهم، حينما يقع وعده ووعيده.

(المُهَيْمِنُ)

4 ـ المُهَيْمِنُ

أي: المسيطر، كلمته هي العليا، حكمه هو النافذ، يحكم ولا مُعَقِّبَ لحكمه، الله جلّ جلاله ليس في الكون كله من يستطيع أن يُعَقِّبَ على حكمه، أما أكبر قاضٍ يحكم، وهناك قاضي النقض ينقض حكمه، و قاضي الاستئناف، والله يحكم لا معقب لحكمه.

(أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: الآية 54)

(اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

(هُوَ اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ هُوَ الرّحْمَانُ الرّحِيمُ(22)هُوَ اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدّوسُ السّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ)

الله وحده المهيمن، فلا تبحث عن غيره:

أنت تحب أن تقيم علاقة متينة مع المهيمن في أي مجال، من القوي في هذه الدائرة ؟ تبحث عن علاقة إيجابية مع جهة قوية من أجل أن تركن إليها، أن تعتمد عليها، أن تحميك، أن تغطِّيك، هذا هو منطق الناس، فإذا علمت علم اليقين أن الله وحده هو المهيمن، هو المسيطر، الآن الناس يتهافتون على الأقوياء ليأخذوا منهم أمناً وطمأنينة، وتغطية، ودعماً، أما حينما تعلم أن الله هو المهيمن كلمته هي العليا.

(فَعّالٌ لِمَا يُرِيدُ(16))

(سورة البروج)

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: الآية 54)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

(هُوَ اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدّوسُ السّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ)

الْعَزِيزُ

معنى العزيز:

الشيء الذي يندر وجوده يسمى عزيزاً، وتشتد الحاجة إليه فيسمى عزيزاً، ويَصْعُبُ الوصول إليه فيسمى عزيزاً.

الله عزّ وجل واحدٌ لا شريك له، إذاً: هو عزيز، تشتد الحاجة إليه، ويحتاجه كل شيءٍ في كل شيء، يستحيل أن تحيط به، لكن يمكن أن تصل إليه بمنهج، فالله هو العزيز، لا ينال جانبه.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ)

معنى الْجَبّارُ

المعنى الأول:

يجبر الخواطر الكثيرة، ويُجْبِرُ الظالم.

والجبّار الشيء العالي نقول: نخلة جبارة أي شامخة، عالية.

أحياناً يكون الإنسان مهيض الجناح، مظلوما، له أب قاسٍ، أعطى ولداً، ولم يعط آخر، فالذي لم يعطه فهو مكسور، يجبره الله، يعطيه ويكرمه، هذا من معاني الجبار.

الجبار يجبر الكسر، يجبر الضَعْف، يجبر التذلل، فالله سبحانه وتعالى جبار، بمعنى أن عبداً من عبيده أصابه ضعفٌ فيجبره، يخلق من الضعف قوةً، ومن الفقر غنى، ومن الحيرة وجداناً.

المعنى الثاني:

لكن الجبابرة من أهل الدنيا يقصمهم الجبار، وهو الذي ينهيهم بالموت، لأنه جبار.

الجبّار له معنيان: مهيض الجناح جبره بأن يقوّيه، والقوي الطاغي جبره بأن يقصمه، فهو جبارٌ لكلا الطرفين، جبارٌ للضعيف وللقوي.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ)

المتكِّبر:

التكبُّر في حق الله كمال، وفي حق الإنسان نقص:

التَكَبُّرُ في حق الله كمالٌ، وفي حق الإنسان نقصٌ، الإنسان بالأساس ضعيف، في الأصل الإنسان ضعيف، فإذا تكبَّر تَكبَّر بغير حق، أما ربنا عزّ وجل كبير، عطاؤه كبير، كماله عظيم، منحته لا حدود لها، فإذا ذكّرنا بعطائه الكبير فهذا كمالٌ فيه.

إذاً: المتكبر لا نهاية لعظمته، لا نهاية لكرمه، لا نهاية لجوده، لا نهاية لعطائه، في حق الله كمال، وفي حق العبيد نقص، لأنه تكبرٌ بغير حق.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

1 ـ سببُ ذكر الشرك بعد أسماء الله الحسنى:

إذا اعتقدت أن في الكون جباراً غير الله فقد أشركت، وإذا رأيت كبيراً غير الله فقد أشركت، أو مهيمناً غير الله فقد أشركت، أو عزيزاً غير الله فقد أشركت، أو ملكاً غير الله فقد أشركت، أو قُدُّوسا غير الله فقد أشركت.

(سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

الله عزّ وجل وحده.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ)

تنزهت أسماؤه.

(عَمَّا يُشْرِكُونَ)

2 ـ معنى التسبيح:

سبحان الله، التسبيح والتنزيه والتمجيد هو بعيدٌ عن أن يتمثّل بنقصٍ، ذاته منزهةٌ عن كل نقصٍ، وعن كل ضعفٍ، وكماله لا حدود له، فإذا قلت: سبحان الله، فأنت تنزهه وتبجّله.

آيةٌ ثالثة:

(هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ)

هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ

بين الخالق والبارئ:

أحياناً المهندس يصمم على الورق بناء، ثم ينفذ هذا البناء، فتراه أمامك بثلاثين طابقا، العلماء قالوا: الخالق هو الذي صمم، والبارئ هو الذي نَفّذ.

(الْبَارِئُ الْمُصَوّرُ)

الْبَارِئُ الْمُصَوّرُ

المصوّر: هو الذي أعطى كل شيءٍ صورته.

(هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوّرُ)

خلق أي صمّم، برأ أي نَفّذ، فهو مصوِّر أعطى لكل شيء صورة، المصور داخل في البارئ والخالق، وكل شيءٍ أوجده له صورة، الحصان له صورة، الجمل له صورة، الفواكه له صوَر، والإنسان له صورة.

(هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى

لو أن الله عزّ وجل قال: الأسماء الحسنى له، لما أفادت القصر، له وحده الأسماء الحسنى، أسماؤه كلها حسنى، لذلك أي تفسير لأسماء الله الحسنى لا يليق بكماله فهو تفسيرٌ باطل، لأن أسماءه حسنى، فكلمة: منتقم ينبغي ألا نفهمها بالمعنى الذي بين الناس، المنتقم هو الذي يُوقف المعتدي عند حده، هذا هو

المنتقم، المتكبّر هو الذي يظهر ما عنده من خير كي يطمع عباده به، فينبغي أن تفسّر أسماء الله تعالى تفسيراً يتناسب مع هذه الآية.

(يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

كل ما خلق الله سبحانه وتعالى يسبّح له.

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: الآية 44)

(يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أليس عاراً على الإنسان أن يغفل عن الله، وكل الكون يسبح له ويقدس له **!!** لذلك: **" ابن آدم، إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني ".**

لمجرد أن تذكر الله فهذا أحد أنواع الشُكْر.

(يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

كل ما أراده الله وقع، وكل ما وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورةالممتحنة060 - الدرس(1-5): تفسيرالآيات 1-3 أسباب نزول سورة الممتحنة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-07-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

الأحداث التي وقعت في عهد النبي جعلها الله متَّكأً للتشريع والتعليم :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الممتحنة:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

يا أيها الأخوة الأكارم تندرج هذه السورة تحت ما يُسَمَّى بالتربية النفسية الاجتماعية للمؤمنين، فالله سبحانه وتعالى بعد أن آمن المؤمنون به يربِّيهم التربية النفسية والاجتماعية.

بادئ ذي بدء في صحيح البخاري قصَّة هذه الآية، أو أسباب نزول هذه الآية، كان عليه الصلاة والسلام حينما نقضت قريشٌ عهدها مع النبي صلى الله عليه وسلَّم- عهد صلح الحديبية- أزمع النبي صلَّى الله عليه وسلَّم أن يتوجَّه إلى مكَّة ليفتحها، وقد جاءت الأحداث التي تقع في عهد النبي مقصودةً لذاتها، الأحداث التي وقعت في عهد النبي لم تقع صدفةً، إنما قدَّرها الله تقديراً حكيماً، فحينما يكون الحَدَث، وتقع المشكلة، ويأتي التنزيل، ليعلِّم أصحابه الكرام الطريق القويم، فإن هذا تعليمٌ لا يُمْحى إنه راسخ، أيُّ شيءٍ تلقيه على الناس جزافاً بلا مشكلة، بلا تجربة، بلا قضية، قد يُنسى، أما حينما تلقي حقيقة عقب مشكلةٍ، أو معاناةٍ، أو تجربةٍ فهذا هو التعليم العملي، فالله سبحانه وتعالى جعل من الأحداث التي وقعت في عهد النبي صلى الله عليه وسلَّم أحداثاً مقصودةً لذاتها كي تكون متَّكئاً للتشريع، والتعليم، والتأديب.

أسباب نزول سورة الممتحنة :

النبي عليه الصلاة والسلام عقِب أن نقضت قريشٌ عهدها في صلح الحديبية أزمع أن يتوجَّه إلى مكَّة فاتحاً، وقد أَسَرَّ بعزمه هذا إلى بعض أصحابه المُقَرَّبين ومنهم حاطب بن بلتعة، أسرَّ إليه أنه سيفتح

مكَّة، الذي حدث وقد يصعب تفسيره أن هذا الصحابي الذي كان موضع سِرِّ النبي أرسل كتاباً مع امرأةٍ مشركةٍ إلى زعماء قريش يخبرهم فيه بعزم النبي على فتح بلدهم، هذا الذي حدث، ولأن النبي عليه الصلاة والسلام كان مُسْتَجاب الدعوة، وكان من دعائه: اللهمَّ عمِّي عنهم أخبارنا. لذلك جاء الوحي النبي صلَّى الله عليه وسلَّم وأخبره أن صاحبك فلاناً- حاطب بن بلتعة- قد أرسل كتاباً مع امرأةٍ مشركةٍ يُخْبِرُ فيها قريشاً أنك ستغزوهم، فما كان من النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن أُخْبِرَ من الوحي هذا الخبر أن طلب إلى عليٍّ كرَّم الله وجهه وصاحبٍ آخر أن يذهبا إلى موضعٍ بين مكَّة والمدينة اسمه الروضة، وأن يأخذا كتاباً من امرأةٍ مشركةٍ ويعودا به إلى النبي عليه الصلاة والسلام، توجَّه الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه وصاحبه الزبير- فيما أذكر- إلى موضع الرَوْضة ولقيا امرأةً تركب ناقةً، أوقفاها وأنزلاها عن ناقتها وطلبا منها الكتاب، فأنكرت، قالا: لتلقين الكتاب أو لنفعل كذا وكذا، فلمَّا رأت أنهما جادَّان في طلب الكتاب ألقت إليهما الكتاب، حملا الكتاب وأوصلاه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فُتِحَ الكتاب فإذا به: " من حاطب بن بلتعة إلى قريش، إنَّ مُحَمَّداً سيغزوكم فخذوا حذركم ".

عفو النبي عليه الصلاة والسلام عن حاطب بن بلتعة :

أيها الأخوة، هذه القصَّة فيها معاني كثيرة، بادئ ذي بدء هذه في عرف المجتمعات الإنسانية كلّها خيانةٌ عُظمى، هذه عقوبتها الإعدام في أي مجتمع، قديماً وحديثاً، إنها نقل أخبارٍ خطيرةٍ إلى العدو.

سيدنا عمر عملاق الإسلام ما كان منه إلا أن قال للنبي عليه الصلاة والسلام: " يا رسول الله دعني أضرب عُنُق هذا المنافق ". إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق استدعى حاطباً وقال: " يا حاطِبُ ما حملك على ما فعلت؟ " لمَ فعلت ما فعلت؟ فقال حاطِبُ: " والله يا رسول الله ما كفرت ولا ارتددت، و أنا لصيقٌ في قريش فأردت بهذا الكتاب أن تكون لي يدٌ عندهم أحمي بها أهلي ومالي، والله ما كفرت ولا ارتددت فاغفر لي ذلك يا رسول الله".

الذي وقع أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:" إنَّي صَدَّقته فَصدِّقوه ولا تقولوا فيه إلا خيراً ".

أما كتُب السيرة فقالوا: إن عمر وهو الشديد حينما نظر إلى هذا العمل رآه خيانةً عُظمى يقتضي أن يقتل صاحبه. أما النبي عليه الصلاة والسلام الرحمة المُهداة والنعمة المُزْجاة فرأى غير ذلك، رأى صحابياً شَهِدَ بدراً، فما أراد أن يهدر عمله، ولا أن يُضَيِّعه عليه، ورأى هذا العمل من زاويةٍ أخرى، رأى هذا العمل ضعفاً طارئاً أصاب حاطب، فبدل أن يسحقه أنهضه، بدل أن ينتقم منه عفا عنه، قال: "إني صدَّقته فصدِّقوه ولا تقولوا فيه إلا خيراً "، نهى أصحابه على أن يطاردوه بفعلته، منعهم أن يطاردوه، ألجمهم جميعاً عن ذلك.

ما يستفاد من هذه القصة :

1 ـ المؤمن لا يستطيع أن يتحرَّك أيةَ حركة إلا وفق منهج الله

أيها الأخوة الكرام، هذه هي القصَّة، ماذا يُستفَاد منها؟ يُستفاد منها أن هذه الآية التي قرأتُها لكم في مطلع الدرس متعلّقةٌ بهذه القصَّة، لعلَّ خير سببٍ لنزول هذه القصَّة كما ورد في البخاري قصَّة حاطب بن بلتعة، إلا أن القاعدة الأصولية في فهم القرآن: أن العبرة لا بخصوص السبب بل بعموم اللفظ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يبيّن للمؤمنين أن يكونوا ربَّانيين أولاً، إنسانيِّين ثانياً، معنى ربَّانيين ألا يستلهموا توجيهاتهم، ألا يتحرَّكوا إلا وفق ما يمليه عليهم دينهم، ومعتقدهم، وتعليمات خالقهم ومربّيهم، هذه معنى ربَّانيين، أي أن المؤمن لا يستطيع أن يتحرَّك أية حركة إلا وفق منهج الله، إنه ربَّاني.

2 ـ على المؤمن أن يكون إنسانياً يبني كل علاقاته وفق مبدأ الإيمان :

الشيء الثاني: أن يكونوا إنسانيّين، بمعنى أن الناس جميعاً أبيضهم وأسودهم، وأحمرهم وأصفرهم، غنيّهم وفقيرهم، عربيّهم وأعجمهم، كلُّهم عند الله سواسية، هناك عاملٌ واحدٌ يميِّز بينهم وهو الإيمان، لذلك كأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية ألغى كل العصبيَّات؛ العصبيّة إلى الأهل، العصبيّة إلى العشيرة، العصبيّة إلى القبيلة، إلى الأرض، إلى المكان، إلى الزمان، كل أنواع العصبيّة أُهْدِرَت في هذه الآية:

((الناس رجلان بَرٌّ تقي كريم على الله عزَّ وجل، وفاجِر شقي هيِّن على الله))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر]

المؤمن من خلال هذه القصَّة يجب أن يكون ربَّانياً لا يتحرَّك إلا وفق أمر الله عزَّ وجل ونهيه، وأن يكون إنسانياً يبني كل علاقاته بين البشر لا على أساس عصبيّةٍ، ولا قرابةٍ، ولا مصلحةٍ، ولا لونٍ، ولا عرقٍ، ولا جنسٍ، ولا طائفةٍ، ولا مِلّةٍ، لا يبني علاقاته إلا وفق مبدأ الإيمان، فالناس على اختلاف مللهم ونحَلِهم وانتماءاتهم، وأجناسهم وأعراقهم وألوانهم، وثقافاتهم، وأصلهم، وخلفيّتهم إنما هم رجلان، رجلٌ عرف الله وعرف منهجه، فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فاشتقَّ من الله الكمال، فسعِد بقربه في الدنيا والآخرة، ورجلٌ لم يعرف الله، لم يعرف منهجه، تفلّت حكماً من منهجه، أساء إلى خلقه، شقي في الدنيا والآخرة، إن لم نُقِمْ هذه المقياس لن يرضى الله عنَّا، أنا جدُّ كل تقي ولو كان عبداً حبشياً:

((سلمان منَّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

((نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه))

[كنز العمال عن عمر]

سيدنا الصديق وضع يده تحت إبط بلالٍ رضي الله عنه وقال: "هذا أخي حقَّاً". حينما قال أحدهم لصحابيٍّ ملوّن يا بن السوداء، قال عليه الصلاة والسلام:

((إنك امرؤٌ فيك جاهلية))

[متفق عليه عن المَعْرُور بْن سُوَيْدٍ]

المؤمن ربَّانيٌّ إنساني :

فأول نقطة في هذه السورة أن المؤمن ربَّانيٌّ إنساني، ربّاني لا يتحرَّك إلا وفق منهج الله والأمر والنهي، لا توجد عنده حركة من عنده، من شهوته، أو رغبته، أو غريزته، أو مصلحته، أو انتماءاته، أو عصبيّته، أو انحيازه هو الذي يُملي عليه حركته، لا يتحرَّك إلا وفق الأمر والنهي.

أما أنه إنساني، فالناس عنده رجلان، مؤمنٌ عرف الله يمحضه الود والتقدير ولو كان بعيداً قرابة، وإنسانٌ آخر ما عرف الله لا يمكن أن يقيم معه مودَّةً على حسابِ دينه.

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ)

[سورة الممتحنة: 8]

أن يقيم مودَّة على حساب دينه فإن هذا لا يكون أبداً، يقيم مودَّة لعلّه يتقرَّب إلى الله، يستجلبه بها، أما أن يقيم مودَّةً على حساب دينه فهذا لا يفعله إطلاقاً.

الله تعالى يُخاطِب عامَّة الناس بأصول الدين و يخاطب المؤمنين بفروع الدين :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أليس في هذا الخِطاب تحبُّباً إلى المؤمنين؟ يا من عرفتموني، يا من آمنتم بي ينبغي أن تفعلوا كذا وكذا، لأن الله كما تعلمون يُخاطِب عامَّة الناس بأصول الدين، بينما يخاطب المؤمنين بفروع الدين، وهذه السورة فيها تربيةٌ اجتماعيةٌ ونفسيّةٌ للمؤمنين، أنتم بعد أن آمنتم لا ينبغي لكم أن تقيموا علاقاتٍ حميمةً مع غير المؤمنين، وهذا الدرس لنا، إنني قلت في بادئ الدرس: العبرة لا بخصوص السبب بل بعموم اللفظ، وإن كانت هذه الآيات نزلت في سيدنا حاطِب إلا أن الله سبحانه وتعالى أرادها قانوناً.

فأنت الآن بعد أن آمنت بالله كيف تُقيم علاقاتك مع الناس؟ ينبغي أن تقيم علاقاتك مع الناس وفق مبدأ الإيمان، يمكن أن تقيم علاقة عملٍ مع إنسانٍ كافر، أما أن تقيم علاقة مودَّةٍ، علاقة حميمة مع إنسانٍ لا يعتقد بما تعتقد، يكفر بما تؤمن، يحتقر ما تقدِّس، فهذا لا يكون.

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

[سورة المائدة: 51]

العلم والعمل وحْدَهُما هما اللذان يرفعان الإنسان بين بني البشر :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي)

قد تقول: إنه أخٌ لي، إنه والدي، إنه صديقي، إنه جاري، كما قلت قبل قليل: المؤمن يبني كل علاقاته على مبدأين، هو ربَّاني يتحرَّك وفق توجيهات الله ورسوله، إنسانيّ الناس كلُّهم عنده سواء، يتمايّزون بالإيمان فقط، لذلك القيم التي يقدِّسها الناس، قيمة الغنى مقدَّسة عند الناس، الذكاء، القوّة، هذه القيم أهدرها القرآن الكريم، ما اعتمدها أبداً، ما اعتمدها في كل كتابه، ما اعتمد إلا قيمتين: قيمة الإيمان، وقيمة العمل، قال:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

[سورة المجادلة: 11]

وقال:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام: 132]

العلم والعمل وحْدَهُما هما اللذان يرفعان الإنسان بين بني البشر..

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ)

دققوا في هذا الكلام الرقيق، أي هذا الذي تمحضه ودَّك هو عدّو لك يا عبدي، وهو في الوقت نفسه عدّوٌ لي، فكيف تتخذ عدّوك الحقيقي وعدو الله صديقاً؟! كيف تمحضه ودَّك؟!

الولاء و البراء :

نحن جميعاً بعد ألف وخمسمئة عام في أمسِّ الحاجة إلى هذه الآية، أنت مؤمن ينبغي أن تحبَّ المؤمنين، ينبغي أن تواليهم، ينبغي أن تمحضهم ودَّك، ومحبَّتك، ونصيحتك، وإكرامك، أما أن تضع كل خبراتك في خدمة أهل الكفر، أي أنَّ هذا الذي يذهب إلى بلدٍ غربي ويتجنَّس ويعطي علمه لأعداء المسلمين ألا يفعل هذا؟ هذا قرآن، جُعِل قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة لأنه قانون لأي إنسان يوالي أهل الكفر، يحبُّهم، يعظِّمهم، يُقدِرُهُمْ، يمحضهم علمه، يمحضهم نصيحته، يمحضهم إخلاصه، ويدير ظهره للمسلمين ولا يعبأ بهم، هذا ممن تنطبق عليه هذه الآية:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ)

الحمية الاجتماعية من لوازم الإيمان :

طبعاً ذكرت لكم قبل ذلك أن علاقات العمل لا غُبار عليها، كل إنسان أحياناً يشتري من إنسان غير مسلم، وغير مؤمن، علاقات العمل مستثناة، أما علاقات الولاء، علاقات الحُب، العلاقات الحميمة فإذا كانت بين المؤمنين وغير المؤمنين جَرَّت على المؤمن وبالاً كبيراً، فمن لوازم الإيمان الحمية الاجتماعية، وبصراحةٍ بالغة الإنسان إذا عرف الله، واصطلح معه، وتاب إليه، وسلك طريق الإيمان، لابدَّ له من أن يغيّر كل أصدقائه المتفلّتين، إذا بقي على صداقاتهم، وعلى لقاءاته معهم، وعلى سهراتهم إلى الفجر، لا يمكن أن يبقى على حاله، يجرُّوه، لابدَّ من أن تبحث عن أصدقاء جدد، ليس معنى هذا أن الذين كانوا أصدقاءك من قبل أن تُهملهم، عليك أن تقيم علاقاتٍ معهم بالقدر الذي تطمع في هدايتهم فقط، لو أنك أثّرت فيهم كن معهم، فأنا أقول لكم: الأصدقاء السابقون، أصدقاء الجَهْل، أصدقاء ما قبل الإيمان، أصدقاء الجاهلية هؤلاء يحكمهم هذا القانون: قانون شَدِّ الحبل، إذا كان بإمكانك أن تشدَّهم إليك فاجلس معهم، لأن الله يسأل العبد عن صحبة ساعة، أما إذا شدُّوك إليهم فابتعد عنهم، هذا المقياس، إن جلست معهم وتمكّنت أن تأخذ بيدهم إلى الله فاجلس معهم، لان الله سيسألك عنهم: أين الوفاء معهم؟ أما إذا جلست معهم ورأيت أنهم سيسحبونك إليهم عندئذٍ ابتعد عنهم، ولابدَّ من أن تبحث عن إخوةٍ جُدد من المؤمنين، المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادّون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم.

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ)

ألا تشعرون أن في هذا الخطاب رقّة ما بعدها رقّة؟ أي يا عبدي يا من آمنت بي ألم تؤمن بي؟ كيف تُبيح لنفسك أن تقيم علاقة حميمة مع عدوِّك وعدوِّي في وقتٍ واحد؟

المؤمن الغيّور على أمَّته لا يُظهر لغير المؤمنين إلا الوجه المشرق :

بالمناسبة حينما يأتي قوله تعالى:

(عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ)

أي أنت لا تستطيع أن تعادي إلا من كان عدواً لله وعدوّك في وقتٍ واحد، أما أن تعادي ولياً لله فأنت في خندقٍ آخر، في خندقٍ معادٍ للدين.

(تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ)

قال بعض المفسِّرين: " تلقون إليهم أخبار المسلمين، أماكن ضعفهم، حالاتهم ". فالمؤمن الغيّور على أمَّته لا يُظهر لغير المؤمنين إلا الوجه المشرق، إذا كان هناك أغلاط هذه ينبغي أن يسترها لأن في هذا إضعافاً للمؤمنين..

(تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ)

كأن الله يعجب، هذا الذي هو عدوٌ لك حقيقةً وعدوي في وقتٍ واحد تلقي إليه بالأخبار الخطيرة تودداً إليه؟ الباء باء السببية.

(تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ)

أخبار المسلمين بسبب التودد إليهم، هذا المعنى الدقيق.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ)

لا تصاحب إلا مؤمناً :

لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما تراه، لا تصاحب إنساناً لا يعبأ بدينك، لا يعبأ بمقدّساتك، يسخر من الدين، يطعن بالمؤمنين ويسيء الظن بهم، هذا إن صحبته ضاقت نفسك، واسوّد العالم في نظرك، وشعرت أنك ضائعٌ عنده، دققوا في هذا القول: لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له، إن صاحبت مؤمناً خرجت من عنده وأنت سعيد، كأن الملائكة قد حفّت هذا المجلس، شعرت كأن الله سبحانه وتعالى يرضى عن هذا المجلس، أما إذا دخلت على غنيٍّ فاسق، " من دخل على الأغنياء- طبعاً غير المؤمنين- خرج من عندهم وهو على الله ساخط ". لأن حديثهم كلّه في الدنيا، وفي المال، وفي القيم المادية، وقد يستصغرونك إن كان مالك قليلاً، أما إذا دخلت على المؤمنين فيستعظمون إيمانك، يقّدرون فيك طاعتك لله، علمك الغزير، فإذا أردت أن تسعد لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي، وهذا حديث رسول الله:

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنا، ولا يأكُلْ طعَامَكَ إلا تَقِيّ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

بربكم ألا تعلمون علم اليقين أنكم إذا سهرتم مع أناسٍ متفلّتين، ضائعين، شاردين، شعرتم بضيقٍ لا يوصف؟ أنت في وادٍ وهم في واد، ما تقدّسه لا يقدّسونه، ما تعظّمه لا يعظّمونه، ما تخافه لا يخافونه، ما تحتقره يفعلونه، ما تشمئز منه يبجّلونه، الكلام الذي إن سمعته اصطبغ وجهك باللون الأحمر يلقونه جزافاً بلا حياء ولا خجل، إن أرادوا أن يتفكّهوا في المجلس تفكّهوا بالغيبة، إن أرادوا أن يمزحوا مزحوا بالجنس، إن أرادوا أن يلغموا الكلمات حمّلوها معاني يستحي منها الإنسان، لا تجلس مع هؤلاء لأنك أرقى منهم، أنت أقدس وأرقى من أن تجلس مع هؤلاء.

المؤمن الصادق بعد أن يصطلح مع الله يجْردُ كل علاقاته و أصدقائه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ)

هذه الآية نحن في أمسِّ الحاجة إليها، فمؤمن يصاحب أهل الدنيا غير المؤمنين، غير المستقيمين، غير المصلين، المتفلتين، المجاهرين بمعصيتهم، يصحبهم بعلاقاتٍ حميمة لابدَّ من أن يؤثِّروا فيه، وأن يجرّوه إلى طريقهم وانحرافهم، هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء، الولاية فيها حُب، فيها إكبار، فيها تعظيم، أحياناً يكون الواحد في عمله له شخص يحترمه لذكائه لكنه لا دين له، فهذه العلاقات الجاهلية التي قبل الإسلام ينبغي أن تُقيّم تقييماً جديداً.

المؤمن الصادق أخواننا الكرام بعد أن اصطلح مع الله هناك جرد لكل علاقاته، ولكل أصدقائه، يجري عملية مسح دقيقة جداً، هذا الإنسان أصِلُهُ دون أن أقيم معه علاقة حميمة، هذا الإنسان أقطعه لأنه يهاجم القِيَم الدينية، هذا الإنسان أزوره في الشهر مرَّةً واحدةً، يجب أن تقيم علاقاتٍ جديدة في ضوء إيمانك لأنك ربَّانيٌّ إنساني، ربَّاني لا تتحرَّك إلا وفق أمر الله ونهيه، إنساني الناس كلهم عندك سواسية، لا فرق بينهم إلا بالتقوى.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

[سورة الحجرات: 13]

مثلاً- ذكرت هذا كثيراً - عندما جاء عمير بن وهب ليقتل النبي عليه الصلاة والسلام، سقى سيفه سُمَّاً، وركب ناقته وتوجَّه إلى المدينة، هو مغطّى بأنه جاء يطلب فداء أخيه أو ابنه من الأسر، عندما وصل إلى المدينة رآه عمر بن الخطاب، فلا يوجد ترحيب؛ أهلاً وسهلاً، أين أنت؟ اشتقنا إليك، الآن تجد الناس مجاملات غير معقولة، عداوات غير معقولة، مجاملات غير معقولة، هذا الوجه المزدوج، قال: " هذا عدو الله جاء يريد شرّاً "، قيّده بحمَّالة سيفه وساقه إلى النبي، دخل على النبي فقال النبي: يا عمر أطلقه، فأطلقه، ابتعدْ عنه، فابتعد عنه، يا عمير ادنُ مني، فدنا منه، ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئت أفدي ابني، قال له: وهذه السيف التي على عاتقك؟ قال: قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر؟ قال: ألم تقل لصفوان: لولا ديون ركبتني لا أطيق سدادها، ولولا أطفالٌ صغار أخشى عليهم العنت لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، فوقف على قدميه وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله وأنت رسوله. وأسلم.

موطن الشاهد أن عمر يقول: " دخل عميرٌ على رسول الله والخنزير أحبُّ إلي منه، وخرج من عنده وهو أحبّ إليّ من بعض أولادي ". الإسلام لا توجد فيه عداوة، المسلم يكره عمل الكافر فقط، أما لو

أنه عاد إلى الله لعاد إلى قلبه، هذا الإسلام، هذه عداوة مؤقَّتة، ما دام مُقيماً على المعصية، ما دام يعادي الدين، يحتقر الدين، يجب أن أريه قسوةً..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة:73]

الابتعاد عن نقل الأخبار الخطيرة عن المسلمين للمشركين :

(تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ)

الأخبار الخطيرة عن المسلمين بسبب التودد إليهم**!!**

(وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ)

فهذا كفرهم، فما عملهم؟..

(يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ)

ألم يخرجوكم من مكَّة؟ ألم يعذِّبوكم؟ ألم ينكِّلوا بكم؟ ألم يأتمروا على قتلكم؟ ألم يأتمروا على قتل نبيّكم؟ عجيب تمحض ودَّك لهذا الإنسان، تعطيه معلومات خطيرة عن أمَّتك من أجل أن تحمي مالك وأولادك، أيُعْقَلُ هذا؟ خطاب فيه رقَّة بالغة، ما ذنبكم؟ لماذا أخرجوكم؟ هل اقترفتم جريمةً؟ هل اغتصبتم أموالهم؟ لا.. لسببٍ لا يصدَّق، لأنكم آمنتم بالله فقط..

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

[سورة البروج:8]

من ضلّ سواء السبيل فقد وقع في خطر عظيم :

هنا:

(يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ)

بسبب..

(أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ)

هل هذا ذنب؟ فلماذا أخرج قريشٌ النبي وأصحابه من مكَّة؟ لماذا عذَّبوا عمَّار بن ياسر؟ هل ارتكب جريمةً؟ لا، هل سرق؟ لا.. لأنه آمن بالله وحده، لماذا عذَّبوا بلالاً؟ وضعوا عليه الصخر وهو يقول: "أحدٌ أحد "، ماذا فعل؟ إنه آمن بالله فقط، وهذا إلى يوم القيامة، أحياناً لا ذنب لك إلا لأنك آمنت بالله فقط، ذنبك الوحيد أنك آمنت بالله ربّاً، وبمحمّدٍ نبيّاً، وبهذا الإسلام منهجاً، هذا الذنب..

(أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

أي في خطر، خطر يصيب المؤمن أن يضلَّ سواء السبيل!

أكبر عقاب أن يضل الإنسان عن هدفه :

من الممكن أن تكون ذاهباً إلى حلب فأكبر خطر في هذا الذهاب أن تتجه إلى مكان آخر، هدفك حلب مثلاً، القبض من حلب، العلاقة في حلب، خرجت عن خط حلب إلى خطٍّ صحراوي وسرت فيه مئات الكيلو مترات في ضلال بعيد، أو ضلالٍ مبين، هذا أكبر عقاب أن تضل عن هدفك..

(وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

أي أنه خرج عن السير الصحيح، خرج عن الطريق المفضي إلى سعادته في الدنيا والآخرة، لو أن هذه الحادثة وقعت ولن تقع مرَّةً ثانية لما ذكرها الله في القرآن الكريم، بل ما ذكر هذه الآيات ذات الطابع العام المنطلقة من حادثٍ خاص إلا لأن هذا يمكن أن يقع في كل زمانٍ ومكان، يجب أن تحدِّد انتماءك، أنا مسلم، أنا مؤمن أقدِّم عملاً متقناً للناس، أما وقت فراغي فلا أمضيه إلا مع من هم على شاكلتي، أقدِّم عملاً متقناً للناس من أجل أن أكسب رزقي، أما وقت فراغي فهذا لا أُضَيِّعُهُ إلا مع من هم على شاكلتي، لذلك جلوسك مع المؤمنين مسعدٌ لك ولهم، أن تنصح المؤمنين هذا يسعدك ويسعدهم، أما أن تنضمَّ إلى أعداء المؤمنين، أما أن تستمرئ الحديث معهم، الجلوس معهم، فإن هذا يشقيك وإيَّاهم.

على المؤمن أن يكون مع المؤمنين :

لكن ذكرت لكم في بادئ الدرس: علاقاتك مع غير المؤمنين من هم من أصدقاء الجاهلية يحكمها قانون شدِّ الحبل، إن كنت تستطيع أن تشدَّهم إليك صاحبهم، أما إن شَدُّوك إليهم فابتعد عنهم، هذه القاعدة..

((فمن هوي الكفر فهو مع الكفرة ولا ينفعه عمله شيئاً))

[أخرجه الطبراني عن جابر بن عبد الله]

فأنت لك ولاء، أنت مع من؟ أنت مؤمن ينبغي أن تكون مع المؤمنين، يوجد أناس يقول لك: إنه مرن، أي إنه منافق، بعض الصفات التي لا تليق تُعْزَى الى بعض المؤمنين، كقولهم: " أرْضِهِم ما دمت في أرضهم ".. " دارهم ما دمت في دارهم ".. إنه يرضي جميع الناس، ومن استطاع أن يرضي الناس جميعاً فهو منافق، أنت لك هويَّة وهويّتك مؤمن، لا يمكن أن تجلس على مائدة يُشرَب فيها الخمر، سكوتك عن هذا الأمر احتقارٌ لمبدئك، لا يمكن أن تصاحب رجلاً يتَّهم دينك بأنه دينٌ خرافي، دينٌ

ضبابي، دينٌ غيبي، هذا العصر عصر علم، الدين انتهى، إنسان يعتقد هذا الاعتقاد وتمحضه ودَّك؟ وتحترمه؟ وتقدِّم له آيات الاحترام؟ هذا دليل ضعف إيمانك، أنت مؤمن، ففي الوقت الذي تقف كالطود شامخاً أمام أعداء الدين أنت ألين بالمؤمنين من أنفسهم.

على المؤمن أن يقيم العلاقات الحميمة مع المؤمنين لا مع الكافرين :

سيدنا عمر عندما تولَّى الخلافة بعضهم تخوَّفوا من ولايته لأنه كان شديداً، فقال رضي الله عنه: "إنكم قد تخوفتم من شدَّتي، كنت مع رسول الله سيفه وخادمه وجلواذه، كنت سيفه المسلول فكان يغمدني إذا شاء، توفي عني وهو عني راض، والحمد لله على هذا كثيراً، ثم كنت خادم أبي بكرٍ وجلواذه وسيفه المسلول فكان يغمدني إذا شاء، توفي عني وهو عني راض وأنا به أسعد، ثم آلت الأمور إلي، قال: اعلموا أن هذه الشدَّة قد أُضْعِفَت وإنما تكون على أهل البغي والعدوان، أما أهل العفاف والإيمان فأنا أَلينُ لهم من أنفسهم ".

والله عزَّ وجل وصف المؤمنين فقال:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[سورة المائدة : 54]

فكأن الله أراد من هذه السورة أن يربِّي المؤمنين، أي عليكم أن تعلنوا ولاءكم للمؤمنين، أن تقيموا العلاقات الحميمة مع المؤمنين لا مع الكافرين، أما عندما ينفتح الإنسان انفتاحاً عشوائياً، ويفتح قلبه لكل إنسان من دون تمحيص، فإنه قد يقع في شرِّ عمله..

(إِنْ يَثْقَفُوكُمْ)

ثقِفَه أي لقيه..

(إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً)

أي يكنّون لكم العداوة والبغضاء، لن يرضوا عنكم حتى تتبعوا ملّتهم..

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى)

[سورة البقرة : 120]

لن يرضى عنك الطرف الآخر إلا إذا اتبعت ملّتهم، وينبغي أنت بالمقابل ألا ترضى عنهم إلا إذا اتبعوك، لن يرضوا عنك إلا إذا اتبعتهم، ولن ترضى عنهم إلا إذا اتبعوك.

الكفار إن لم ينالوا المؤمن بالأذى سلقوه بألسنةٍ حِداد بلا سبب :

(إنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إلَيْكُمْ أيْدِيَهُمْ)

شيئان، الشيء الأول أنهم ينطوون على عِداءٍ لكم شديد، الشيء الثاني أنهم يتحرَّكون لإيذائكم، ليتهم قبلوا أن يعادوكم بقلوبهم، إضافةً إلى العِداء المستحكم في قلوبهم تحرَّكوا لإيذائكم، يوجد عِداء قلبي وتوجد حركة عدوانية، قال:

(إنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إلَيْكُمْ أيْدِيَهُمْ وَألْسِنَتَهُمْ)

كلام دقيق جداً، إن لم يستطيعوا أن ينالوكم بالأذى سلقوكم بألسنةٍ حِداد بلا سبب، بلا منهج، بلا دليل، بلا برهان، موقف عدائي وقح، موقف عدائي أرعن، موقف عدائي بلا دليل، بلا مبرّر، وهذه معاناة المؤمنين في كل زمانٍ ومكان، القرآن الكريم يصف حالة نموذجية متكرّرة؛ مؤمن وغير مؤمن، المؤمن صادق وهذا يكذب، المؤمن منصف وهذا لا يُنصِف، المؤمن ينفتح وهذا لا ينفتح – مغلق-، المؤمن يريد الخير وهذا يريد الشر، المؤمن مسالم وهذا معتد، لذلك من السذاجة وضيق الأفق أن تضع ثقتك في غير محلّها، أن تضع ثقتك بغير مؤمن ثم تفاجأ بعد حين أنه خانك، وأنه طعن بك، وأنه تَنَكَّرَ لك، وأنه قلب لك ظهر المِجَنْ، وأنه لم يكن في المستوى المطلوب، شيء طبيعي جداً، ماذا تنتظر من إنسان لا يعرف الله؟ الإنسان عندما لا يكون شاكراً لمن خلقه أيشكر عباده؟ إنسان لا خير فيه لأمِّه وأبيه أيكون لك فيه خير؟ مستحيل، وأيضاً من السذاجة وضيق الأفق والبساطة أن تمحض ودَّك لإنسانٍ يعاديك، ويتمنَّى لك السوء، ويتحرَّك للإيقاع بك، فإن لم يستطع سلقك بلسانٍ حاد بحقٍ وبغير حق، بشيءٍ وقع وبشيء لم يقع، بشيء معقول وبشيء غير معقول، هذا هو وضع غير المؤمن..

(إنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أعْدَاءً)

ينطوون على عداوةٍ كبيرة..

(وَيَبْسُطُوا إلَيْكُمْ أيْدِيَهُمْ)

معتدين، فإن لم يستطيعوا..

(وَألْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ)

لا ترتاح نفوسهم إلا إذا كنتم على شاكلتهم، إلا إذا كفرتم بما جاءكم، إلا إذا داهنتموهم..

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

[سورة القلم : 9]

لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق :

ثم ربنا عزَّ وجل يبين لهؤلاء المؤمنين وهو يربيهم..

(لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

الآن ربنا سبحانه وتعالى يبيِّن للمؤمنين أن هؤلاء الذين ألقيتم إليهم بالمعلومات الخطيرة بسبب التودد إليهم هم أرحامكم، هم أولادكم، هم أخوانكم، هؤلاء لن ينفعوكم يوم القيامة.. السيدة عائشة تسأل النبي عليه الصلاة والسلام: أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة؟ قال: نعم يا أم المؤمنين إلا في ثلاثة مواضع: عند الصراط، وإذا الصُحِفُ نُشِرت، وفي موطن ثالث- لا أذكره الآن- وفيما سوى ذلك قد تقع عين الأم على ابنها فتقول له: يا ولدي جعلت لك صدري سقاءً، وبطني وعاءً، وحجري وطاءً، فهل من حسنةٍ يعود عليَّ خيرها اليوم؟ يقول هذا الابن الذي وقعت عليه عين أمِّه: ليتني أستطيع ذلك يا أماه إنما أشكو مما أنتِ منه تشكين، لا أم، ولا أب، ولا أخ، ولا صديق، ولا زوجة، لذلك:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

[سورة المؤمنين: 101]

قدِّم كل الخدمات لمن تعرف ولأهلك الأقربين، أما أن يحملوك على معصية الله فإنهم لن ينفعوك، لن ينفعوك أبداً.. أم سيدنا سعد بن أبي وقَّاص قالت له: " يا بني لا آكل الطعام حتى تكفر بمحمد "، قال لها: " يا أمي لو أن لك مئة نفسٍ فخرجت واحدةً واحدة ما كفرت بمحمد، فكُلي إن شئتِ أو لا تأكلي ".. هذه قضايا غير خاضعةٍ للمناقشة، قدِّم لها كل شيء إلا أن تحملك على معصية، لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق..

(لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

إرضاء الأم و الأب و الزوجة ينبغي ألا يحمل الإنسان على معصية الله :

الآن أناسٌ كثيرون يأكلون المال الحرام إرضاءً لزوجاتهم وأولادهم، سألوا شاباً بعد أن مات والده وخَلَّفَ له أموالاً طائلة، إلى أين أنت ذاهب؟ قال بعبارةٍ سوقيةٍ: " أنا ذاهبٌ لأشرب الخمر على روح والدي "، إن روح الميت ترفرف فوق النعش تقول: يا أهلي يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلَّ وحرُم فأنفقته في حِلِّه وفي غير حلّه، فالهناء لكم والتبعة علي.

هذه آية دقيقة..

(لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ)

من هنا قال الله عزَّ وجل:

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

[سورة التغابن: 14]

(لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

أنت تتخذ حجَّة، الآن الإنسان يغش في بيعه وشرائه ليكسب مالاً وفيراً ليرضي بها زوجته، أما الصحابية الجليلة فكانت تقول لزوجها: "يا فلان اتق الله فينا، نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام". لا يحملنَّك إرضاء زوجتك، ولا أمك، ولا أبيك، ولا إخوتك، ولا أولادك على معصية الله، لأنهم إن فعلت هذا لن ينفعوك أبداً، تُحاسب وحدك..

موقف سيدنا إبراهيم من قومه :

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)

ما دمتم هكذا فأنتم أعداؤنا إلى أن تؤمنوا بالله وحده..

(إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

سيدنا إبراهيم أيضاً وقف هذا الموقف من قومه..

(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

[سورة الشعراء: 75-80]

هذا الكلام لا يعني أن تبدأ أنت بالعداء، لا أبداً، أما إذا دُفعت إلى معصية يجب أن تقول: لا بملء فمك، وليكن ما يكن، ما دام لا يوجد عدوان..

(لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

هذا شيء أساسي، أما حينما يُعْتَدَى عليك، يُعتدى على دينك فقل: لا بملء فمك، ولا تخشى في الله لومة لائم، ولا تعبأ بكل ما سيكون لأن الله معك.

استغفار إبراهيم لأبيه بسبب موعدةٍ وعدها إياه :

سيدنا إبراهيم وقف موقفاً إيمانياً من أبيه..

(وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أما استغفار إبراهيم لأبيه فبسبب موعدةٍ وعدها إياه، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إياه، إذا الإنسان قرَّب خطوة وفيه أمل تحرَّكْ نحوه خطوات، أما إذا لم يكن فيه أمل فأنت في مكانك وهو في مكانه..

(رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى نقف عند هذه الآية الخطيرة:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الممتحنة 060 - الدرس (2-5): تفسير الآيتان 4-5 الولاء و البراء.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-08-02

بسم الله الرحمن الرحيم

من أخصّ خصائص المؤمن أن يوالي أهل الإيمان و يتبرّأ من أهل الكفر والعصيان :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الممتحنة، ومع الآية الرابعة وهي قوله تعالى:

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

أيها الأخوة الكرام، الآية الرابعة في سورة الممتحنة تشيرُ إلى موضوعٍ خطيرٍ جداً في حياة المؤمن، موضوع الولاء والبراء، من أخص خصائص المؤمن أن يوالي أهل الإيمان وأن يتبرَّأ من أهل الكفر والعصيان، ما لم يوالِ وما لم يتبرَّأ تتداخل الأفكار، تتداخل المشارب، يختلط السلوك، دون أن يشعر يرى نفسه مع أهل الدنيا، مع المتفلّتين، فلابد من الوقاية، نبعٌ صافٍ، عذبٌ زلال، إن أردنا أن نحافظ على صفائه لا نسمح بالمصبات عليه، فإذا سمحنا بالمصبات عليه كانت مياهه مالحةً سوداء.

الولاء و البراء :

موضوع البراء والولاء، المؤمن يوالي أهل الإيمان، لا يقيم علاقة حميمة إلا مع أهل الإيمان، لا يرتاح إلا لأهل الإيمان، لا يتعامل إلا مع أهل الإيمان، لا يأكل طعامك إلا تقي، لا تُصاحب إلا مؤمناً، لأنك بأخيك تتقوى، عن طريق أخيك تزداد إيماناً، تزداد اطمئناناً، تزداد تألّقاً، يطمئنك وتطمئنه، يشجعك وتشجعه، يدعمك وتدعمه، يُصَبِّرُكَ وتُصَبِّرُه، يكشف لك بعض الحقائق وتكشف له، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة:2]

لو أن مؤمناً صاحب أهل العِصيان، لمال إلى الدنيا، كره طاعة الله، استمرأ المعصية، غفل عن ذكر الله، شيئاً فشيئاً هو معهم وعلى شاكلتهم، يشقى بشقائهم، وينحرف بانحرافهم، ويقلق بقلقهم، فلذلك المؤمن لا يوالي إلا مؤمناً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

(مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ)

[سورة المجادلة: 14]

من صالِح المؤمن أن يكون مع المؤمنين :

هنا في هذه الآية:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

[سورة الممتحنة: 6]

الأسوة هي القُدوة، هذه الأسوة في أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

(فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ)

[سورة الممتحنة: 6]

فنحن ما علاقتنا بهذه الآية؟ الإنسان إذا صاحب المؤمنين اقتبس من علمهم، إذا صاحب المؤمنين اقتبس من أخلاقهم، إذا صاحب المؤمنين قرَّبوه إلى الله عزَّ وجل، حَسَّنوا له الحسن، قبَّحوا له القبيح، شجَّعوه على الاقتراب من الجنة، أبعدوه عن النار، نوَّروا عقله، طمأنوا قلبه، أعانوه على طاعة الله، ثبَّطوا عزيمته على معصية الله، فلذلك من صالحك كمؤمن أن تكون مع المؤمنين، والدليل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة: 119]

أمر إلهي، وكل أمرٍ في القرآن الكريم ما لم تكن قرينة على عدم الوجوب هو واجب.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة: 119]

الحمية الاجتماعية من ألزم لوازم المؤمن :

أما لو جلست في أماكن أهل الفِسق والفجور، في متنزَّهاتهم، في مقاصفهم، لو قبلت سلوكهم، لو عذرتهم فيما هم فيه، لو أقمت علاقاتٍ حميمة معهم، لو سافرت معهم، لو تعاملت معهم تعاملاً اندماجياً، لو شاركتهم، لرأيت نفسك شيئاً فشيئاً تميلُ إليهم، وشيئاً فشيئاً تبتعد عن دينك، لأن هناك نقطة دقيقة جداً، أنت نقطة هنا مكان وهنا مكان، فكلما اقتربت من هذه النقطة ابتعدت حكماً عن هذه النقطة، كلما اقتربت من أهل الفسق والفجور ابتعدت حكماً عن أهل الإيمان، كلما اقتربت من المعصية ابتعدت عن الطاعة، فلذلك من خصائص الإيمان، من ألزم لوازم المؤمن أن يوالي المؤمنين، وأن يبتعد عن أهل الكفر والفسوق.

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفقًا)

[سورة الكهف: 16]

أي آوي إلى بيت الله، آوي إلى بيتك أحياناً، ابتعد عن مواطن الفِتَن، لا تصاحب إلا مؤمناً، لو صاحبت إنساناً متفلتاً لحدَّثك عن مغامراته وعن انحرافاته، ولعلك في ساعة ضعفٍ تتمنى أن تكون مكانه، لعلك في ساعة غفلةٍ تلتمس العُذْرَ بأن تكون معه، فلذلك الحمية الاجتماعية من ألزم لوازم المؤمن، هذا موضوعٌ فصَّل فيه العلماء اسمه: الولاء والبراء، أن توالي أهل الإيمان، وأن تتبرأ من أهل الكفر والعصيان.

خصومة المؤمن مع الكافر خصومة عقيدة و انحراف فقط :

أيها الأخوة الكرام، سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء، أنت في الصلاة تقول: اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آل سيدنا محمد كما صلَّيت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، الله عزَّ وجل جعل هذا النبي العظيم قدوةً لنا قال:

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ)

لكن أيها الأخوة، هناك نقطة دقيقة جداً: لا يمكن أن تكره الكافر والعاصي والفاجر لذاته، إنما تكرهه لعمله، والدليل أنه في اللحظة التي يتوب إلى الله ويصطلح معه هو أقرب الناس إليك، إن كانت هناك عداوةٌ، عداوة عقيدة، عداوة انحراف لا عداوةٌ شخصية، لأن المؤمن حينما يصطلح خصمه المنحرف مع الله يصبح أقرب الناس إليه.

ذكرت في الدرس الماضي أن عمر بن الخطاب الخليفة العظيم، الصحابي الجليل، عملاق الإسلام لما رأى عمير بن وهب متوشحاً سيفه قال: هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً، قيَّده بحمالة سيفه، وساقه إلى النبي وقال: " هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً "- القصة تعرفونها وذكرتها كثيراً- يقول عمر: دخل عمير على رسول الله والخنزير أحبّ إليّ منه، وخرج من عنده وهو أحب إلي من بعض أولادي "، لا توجد في الإسلام عداوة دائماً، هناك عداوة مؤقَّتة، هناك عداوة أساسها الانحراف، أساسها الكفر، أساسها التقصير، فلذلك:

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ)

لا تصاحب من لا ينهضك إلى الله حاله ولا يدلُّك على الله مقاله :

ليس شرطاً أن تقول لمن حولك من العصاة، والتائهين، والشاردين، والمنحرفين، والذي لا يصلون، ولا يأتمرون بأمر، ولا ينتهون عن نهي، ليس شرطاً أن تقول هذا الكلام ولكن انسحب، ابتعد عن

الفجور، عن أماكن الفجور، عمن يفجرون، عن المنحرفين، ابتعد واسلم بدينك، نحن في أمَسِّ الحاجة إلى حميةٍ اجتماعية من أجل أن نحافظ على سلامة عقيدتنا، وعلى صفائنا، وعلى استقامتنا، يجب أن تقيم علاقة مع المؤمنين، يجب أن تصحب المؤمنين.

فكل أخ من أخواننا الكرام في جاهليته قبل أن يهتدي إلى الله، له أصدقاء، له معارف، هؤلاء إن استطاع أن يؤثر فيهم ليبقى معهم، ذكرت في الدرس الماضي أن الضابط في هذا الأمر لعبة شدّ الحبل، إن أمكنك أن تشدَّهُم إليك ابقَ معهم وخذ بيدهم إلى الله واحداً واحداً، لأن الله يسأل العبد عن صحبة ساعة، أما إن شعرت أنهم أقوى منك ويمكن أن يشدُّوك إليهم فعندئذٍ ابتعد عنهم ولُذ بالمؤمنين، ولا تصاحب من لا ينهضك إلى الله حاله، ولا يدلُّك على الله مقاله.

((عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي والحاكم عن عمر]

حرص المؤمن على مجالس العلم لأنها مجالس الرحمة :

أخوتنا الكرام، الإنسان حينما يأتي بيتاً من بيوت الله، يأتي بنية صافية، بنية أن يفتح الله عليه، بنية أن يرحمه، بنية أن يطمئنه، أن يثبِّته، أن ينوَّرَ قلبه، أن يزداد علماً، أن يزداد قرباً، إذا أتيت بيتاً من بيوت الله، وحينما دخلت هذا البيت قلت:

((اللّهمَّ افتح لي أبواب رحمتك))

[أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي حميد وأبي أسيد]

فإن الله سبحانه وتعالى يستجيب لك، يطمئنك، يقول عليه الصلاة والسلام حينما سأله الصدِّيق رضي الله عنه ومعه حنظلة، سيدنا حنظلة صحابيٌ جليل رآه الصديق يبكي في الطريق قال: " مالك يا حنظلة؟ قال حنظلة: نافق حنظلة، قال: ولِمَ يا أخي؟ قال: نكون مع رسول الله ونحن والجنة كهاتين فإذا عافسنا الأهل ننسى، قال: يا أخي أنا كذلك، انطلق بنا إلى رسول الله فلما انطلقا إلى رسول الله وحدَّثاه الحديث قال: أما أنتم يا أخي فساعةٌ وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة ولزارتكم في بيوتكم".

معنى ذلك أنك وأنت في مجلس العلم تكون أقرب إلى الله من أي وقتٍ آخر، لذلك أنت بحاجة إلى شحن، حينما تأتي خطبة الجمعة، حينما تجلس في مجلس علم تشحن روحياً، تشحن فكرياً، تشحن نفسياً، تنطلق إلى عملٍ صالح، لو أن هذا الشحن لم يكن منتظماً لضعف مصباحك وتهت في طريقك، فلذلك حينما تأتي إلى بيت الله لا تريد إلا طلب العلم الملائكة تضع أجنحتها لك رضاً بما تصنع:

((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

[أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه]

لذلك المؤمن يحرص على مجالس العلم لأنها مجالس الرحمة، لأن في هذه المجالس تتنزَّل رحمة الله عزَّ وجل، في هذه المجالس تَغْشَى الناس السكينة، في هذه المجالس تحف الناس الملائكة، فأنت بعد المسجد في حفظ الله.

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ)

[سورة الرعد: 11]

هذا الحفظ من أمر الله، بأمرٍ من الله يحفظونه، لأن الناس هم في مساجدهم والله في حوائجهم، " كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك - لا تكلف نفسك أن تقول لي ماذا تريد، أعرف ماذا تريد- كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد ".

ليس من الحكمة أن يندمج الإنسان مع أهل الكفر و العصيان :

لذلك هذه الآية:

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ)

فهؤلاء المنحرفون، هؤلاء الفاسدون، هؤلاء التائهون، هؤلاء الشاردون، لو جلست معهم، وآنستهم، وأثنيت عليهم، وجاملتهم، لا يتوبون إلى الله، يقولون: فلان من أهل الإيمان هو معنا دائماً و لم يذكر شيئاً، أنت حينما تجلس معهم، وتقيم معهم علاقات حميمة، وتثني على ذكائهم، ولباقتهم، وفهمهم، وتتقرَّب إليهم نفاقاً، أنت تحول بهذا بينهم وبين أن يتوبوا إلى الله، أما حينما تقف موقفاً ذكياً، حينما تعتذر عن أن تجلس معهم، حينما تعتذر منهم، فهم يومئذ يبحثون عنك، فلذلك ليس من الحكمة أن تندمج مع أهل العصيان، أساساً لو أنَّك اندمجت معهم لجرّوك إليهم، إما باحتفالاتهم، أو بسهراتهم المختلطة، أو بما يشاهدونه من خلاعةٍ وانحطاط، تكون معهم، تمزح مزحهم، تأكل مما يأكلون، تختلط معهم، انسحبت إليهم وأنت لا تدري.

على الإنسان أن يقيم حاجزاً بينه وبين أهل الفسق والفجور :

لذلك:

(إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ)

ليس شرطاً أن تقولها بلسانك لا يوجد داع، انسحب، ابتعد.

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ)

[سورة الكهف: 16]

يجب أن تقيم حاجزاً بينك وبين أهل الفسق والفجور، أما إذا عادوا إلى الله، إذا تابوا إليه، إذا اصطلحوا معه، يجب أن تهبهم روحك، يجب أن تُعْطيهم كل ما عندك من ود، ومن صلة، ومن محبة، لأن كل عداوةٍ بين إنسانين عداوةٌ مؤقتة، لو أنهما اصطلحا مع الله لكانا أقرب إنسانين إلى بعضهما.

(إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ)

لأن أهل الكفر لا يعبدون الله، يعبدون ما دون الله، معبودهم شهوتهم، معبودهم هواهم، معبودهم الدِرهم والدينار، معبودهم فرجهم، معبودهم بطنهم:

((تَعِسَ عَبْدُ الخميصة))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

((تعِسَ عبدُ الدِّينار، وعَبْدُ الدِّرهم))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

يعبدون الشهوات، يخضعون لها، يذوبون أمامها، يؤلهونها، هي آلهتهم من دون الله عزَّ وجل.

(إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ)

تحرر المؤمن من أسر الشهوات يرفعه عند الله عز وجل :

لا شيء يرفع المؤمن كهذا التحرر من أسر الشهوة، الكافر، المنافق، العاصي، عبدٌ لشهوته، ذليلٌ أمامها، خاضعٌ لها، مثلاً ورد:

((من تزوَّجَ المرأة لجمالها أذلّه الله، من تزوَّجها لمالها أفقره الله، من تزوَّجها لنسبها زاده الله دناءةً، فعليك بذات الدين تربت يداك))

[ورد في الأثر]

فالإنسان حينما يعبد شهوته من دون الله يسقط من عين الله، لهم صغارٌ عند الله.

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

[سورة الكهف: 105]

أما حينما يتحرر من شهوته، ما الذي جعل يوسف عليه السلام حينما دعته امرأةٌ - امرأة العزيز- ذات منصبٍ وجمال قال: معاذ الله، إني أخاف الله رب العالمين.

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

[سورة يوسف: 23]

(إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ)

أي أن انسحابك من المجلس كأنك قلت:

(إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ)

دعوة مختلطة إن اعتذرت عنها، كأنك قلت:

(إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ)

دعوة إلى طعام يوزَّع فيه المشروب إن اعتذرت عن هذه الدعوة كأنك قلت:

(إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ)

دعوة إلى حفلة لا تُرْضي الله عزَّ وجل كأنك تقول:

(إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ)

فابتعادك عن مجلس فسقٍ، أو فجورٍ، أو انحرافٍ، أو كذبٍ، هذا الابتعاد هو نفسه كأنك تقول:

(إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ)

الكفر بالطاغوت أساس الإيمان بالله عز وجل :

لا يمكن أن تؤمن بالله إلا أن تكفر بالطاغوت.

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

[سورة البقرة: 256]

أي إذا كنت تعظم أهل الكفر، ترى ذكاءهم، إنجازاتهم، مخترعاتهم، مجتمعاتهم، أوضاعهم، رفاههم، بيوتهم، مركباتهم، تجارتهم، إذا كنت معجباً بها، ذائباً في تعظيمها، موالياً لهم، من هوي الكفرة حشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً، الإنسان أحياناً في غفلةٍ يعيش لحظته يقول لك: هذا البلد مريح، الأمور ميسَّرة، المركبات رخيصة، البيوت بالتقسيط، بلد كله أخضر مثلاً، وغفل عن الفسق والفجور، وعن أن أولاده لابد من أن ينحرفوا، وأنه لا يستطيع أن يردع ابنته عن صديقٍ لها ينام معها، ماذا يفعل؟ حينما تتقدم به العمر ويرى مصيره المشؤوم، يدخل على قلبه كآبة تنسيه الحليب الذي رضعه من ثدي أمه، إذا أردت إنفاذ أمرٍ فتدبر عاقبته، أخوةٌ كثيرون يحدِّثونني عن المآسي التي يعيشونها في بلاد الغرب، لا يستطيع أن يمنع ابنته من صديقٍ لها يعلم علم اليقين أنه يزني بها، فلا يقدر على ذلك، هكذا الحياة هناك، أما حينما تؤْثِرُ الله ورسوله، وتؤثر بلداً تقام فيه شعائر الدين، تؤثر بلداً تستطيع أن تقيم أمر الله فيه، فهذا هو العقل، وهذا هو الذكاء، من أقام مع المشركين برئت منه ذمة الله.

من يعتقد أن الصلاح والكمال في جهةٍ كافرة فالطريق إلى الله مسدود :

أقول لكم هذه المقولة: لو أن إنساناً سافر إلى بلدٍ غربي وتزوج من هناك، هناك متاعب لا تُحْصَى سوف تنتظره؛ من تربية أولاده، من فسوق أولاده، من انحرافهم، والحقيقة الأساسية أن الإنسان مهما بلغ من نجاح الدنيا يشقى بشقاء أولاده، كن أغنى الناس، كن أرقى الناس، كن أعلم الناس، كن أقوى الناس، يشقى الإنسان بشقاء أولاده لأنهم امتداده، لأنهم منه، فإن شقوا شقي بشقائهم، ذكرت هذا لأن الذي يوالي أهل الكفر والعصيان، هم ملء سمعه وبصره، يثني عليهم، على ذكائهم، على تقدمهم، هم يبنون مجدهم على أنقاض الناس، يبنون حياتهم على موت الناس، يبنون غناهم على إفقار الناس، يبنون أَمْنَهُم على إخافة الناس، هؤلاء وحوش، لذلك من نعم الله الكبرى أننا قبل خمسين عاماً أو قبل أربعين عاماً كان الغرب متألّقاً أمام عيون الناس، ولكنه الآن كشف على حقيقته، ظهرت وحشيَّته، ظهر حقده، ظهر تناقضه، هذا من نِعَمِ الله علينا أن حقيقة الغرب كشفت لنا تماماً، وما دمنا نعتقد الصلاح والكمال في جهةٍ كافرة فالطريق إلى الله مسدود.

الناس جميعاً كَشَفوا حقيقة الغرب وأزاحوا عن وجهه القناع الكاذب:

أما الآن:

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

[سورة البقرة: 256]

فمئات الألوف يموتون ظلماً ولا أحد يتحرك، بضعة أشخاص يقتلون بحادث تجتمع الدول كلها من أجل أن تندد بهذا الحادث، هذا مكيالٌ واحد؟ يكال كل شيءٍ بمكيالين، هذا الحقد، هذا الانحياز يظهر جلياً، لذلك من الإيجابيات لما يجري أخيراً أن كل الناس كَشَفوا حقيقة الغرب، أزاحوا عن وجهه القناع الكاذب:

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا)

[سورة البقرة: 256]

(كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)

هذا هو موقف المؤمن، ما دام هناك شرك، و نفاق، و انحراف..

على الإنسان أن يُبلّغ و على الله الباقي :

(وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)

قال: هذا وضع استثنائي.

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

[سورة التوبة: 114]

تَوَهَّم إبراهيم عليه السلام أو ظن أن أباه سيسلم، سيؤمن معه:

(فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

[سورة التوبة: 114]

(إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

سيدنا إبراهيم سَلَّمَ الأمر لله، أي أنت عليك أن تُبَلِّغ وعلى الله الباقي:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة البقرة: 272]

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة القصص: 56]

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الشورى: 52]

مضمون الدعوة حق، أما أن يحمل النبي عبء هداية الناس فهذا فوق طاقته، إنك لا تستطيع أن تهديهم لأنهم مخيَّرون، ولست مسؤولاً عن عدم هدايتهم لأنهم محاسبون، أما أنت مكلفٌ أن تبلغهم، وحينما تبلغهم تنتهي مهمتك.

أكبر جريمةٍ يرتكبها المسلم أن يُقصِّر أو يكذب أو يخلف الوعد :

أيها الأخوة، أما أخطر آيةٍ في هذه السورة هي هذه الآية:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

فالمسلم معروف أنه مسلم، عند الناس مسلم، محسوبٌ على المسلمين، هذا المسلم إذا أساء، إذا كذب، إذا احتال، إذا لم يَصْدُقْ، إذا غَشَّ الناس، إذا أَخْلَفَ وعده، إذا لم ينجز عهده، ماذا يقول الكافر؟ الدين

باطل، الدين ليس له أصل، الدين خرافة، الدين أفيون الشعوب، الدين ضلالات، الدين غيبيَّات، الدين حالة ضعف للإنسان، لأن الكافر ما رأى ذلك الإنسان العظيم، رأى إنساناً تافهاً، كاذباً، مُتناقضاً، دَجَّالاً، فما الذي حمل الكافر على كفره؟ ما الذي جعله كافراً؟ ما الذي ثبت كفره؟ سلوك هذا المسلم المُقَصِّر، لذلك أكبر جريمةٍ يرتكبها المسلم أو المؤمن أن يُقَصِّر، أو أن يكذب، أو أن يخلف الوعد، أو أن يحتال، أو أن تكون له شخصية ازدواجية، لذلك يعطي الكافر حجة يتمسك بها، يقول لك الكافر: هذا هو الإسلام، هذا دَجَل.

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

يا رب احفظنا عن أن نكون سبباً لكفر كافر، أنت محسوب على المسلمين، أنت مظنة صلاح، مظنة استقامة، مظنة صدق، مظنة وفاء، مظنة عَفاف، مظنة ُطهر، هكذا المؤمن، فلو رأى الكافر كذباً أو انحرافاً أو احتيالاً أو غشاً يصدر من إنسان يصلي أعطيته الدليل على أن الدين باطل، أعطيته مستمسكاً، يقول: هذه حقيقة الأديان إنها خرافة.

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

الناس يتعلمون بعيونهم لا بآذانهم :

إذا دعوت إلى الله بمضمونٍ سطحي، خُرافي، منامات، كرامات، شطحات، كلام سطحي، غير متماسك، متناقض، بأسلوب غير علمي، غير تربوي، غير سليم، أو دعوت إلى الله بمضمونٍ عميق وأسلوبٍ علمي لكن هذا المدعو اكتشف أنك لست صادقاً فيما تقول، أنت في واد ودعوتك في واد، إنَّك لا تطبِّق ما تقول، إنك تمتهن الدين، إنك تجعل الدين مطيةً للدنيا، هذا المدعو إن رأى ضحالةً، أو سذاجةً، أو خرافةً، أو ضَعفاً، أو تناقضاً، أو رأى أسلوباً غير علمي وغير تربوي، أو رأى عدم مصداقيةٍ في الدعوة، فرفض هذه الدعوة وتفلت منها واحتقرها قال: هذا الكافر لا يكون عند الله مبلَّغاً، ويقع إثم تفلته من منهج الله على من دعاه بهذه الطريقة، وكان الذي دعاه بهذه الطريقة سبب فتنته، وسبب انحرافه، فقبل أن تكذب وأنت المسلم، وأنت مظنة الهُدى والصلاح، وأنت مظنة المنهج الإلهي، قبل أن تكذب عُد للمليون لأن الآخرين إذا ضبطوا عليك كذبةً لم يصدقوك في شيء، ما الذي جعل النبي صادقاً عند الناس حينما جاءه الوحي؟ لأنهم قبل الرسالة ما جرَّبوا عليه كذباً قط، فأنت أحياناً لا تنتبه، أنت مُصلّ، تصلي في البيت، طُرِقَ الباب، فتح ابنك، قال: يا بابا فلان، تقول له: يا بني قل له أن أبي ليس موجوداً. هل عرفت ماذا فعلت؟ ارتكبت جريمة، لأنك علمته الكذب، ولأن هذا الطفل ربط بين صلاتك والكذب، الذي يصلي يكذب، فإذا رأى إنساناً لا يكذب ولا يصلي عَظَّمَهُ واحتقرك، قبل أن

تكذب عُدَّ للمليون، قبل أن تحتال، قبل أن تغش في البضاعة، قبل أن تخلف وعد، أنت على ثغرةٍ من ثُغَرِ الإسلام فلا يؤتين من قبلك، إيَّاك كل الذي تقوله يسقط في الأرض، الناس يتعلمون بعيونهم لا بآذانهم، لو ألقيت ألف محاضرة في الصدق وكذبت مرةً واحدة أهْدَرت كل هذه المحاضرات، نحن الآن أيها الأخوة لا نحتاج إلى فكر، الفكر موجود، الكتب تملأ البيوت، بالأشرطة كل شيء موجود، نحتاج إلى إنسان ملتزم، إنسان تشتد إليه العيون، إنسان يطبق ما يقول، لا تأخذه في الله لومة لائم، هذه هي المشكلة..

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

على المؤمن ألا يعطي الكافر حجة أن الإسلام دين فوضى و عدم انضباط :

لم نكن نحن سبباً في كفر الناس، يجدون تخلفاً، و عدم نظام، وفوضى، تجد المسلم فوضى، مواعيده غير صحيحة، كلامه غير صحيح، ليس منضبطاً، حساباته كلها غلط، يقول لك: اتركها لسيدك، توكل ساذج، عدم انضباط، عدم إتقان العمل، أخطاء فاحشة، تجد إنساناً كافراً؛ مواعيده دقيقة، صادق، الكفَّار ما الذي جعلهم يقيمون على كفرهم؟ احتقارهم للمسلمين، ما الذي جعلهم يعتزُّون بكفرهم؟ انحراف المسلمين أمامهم، فهؤلاء الذي في الغرب حينما يأتي إنسان- وهذا معروف- من بلاد إسلامية ويبحث عن الزنا، وعن الانحراف الأخلاقي، وعن الخمر، يلهث وراء شهواته كالخنزير، وهو ينتمي إلى بلاد إسلامية، أتعتقد أن أهل أوربا يعظمون إسلامنا؟ إطلاقاً، الكذب، والفجور، والجنس، والانحراف، والخمور، والمخدرات، أما حينما يرون إنساناً مستقيماً، صاحب عقيدة صحيحة، قوي الحُجَّة، منضبطاً، عفيفاً، فهذا الذي يشدُّهم إلى الدين، هذه أخطر آية في الدرس:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

لا نعطي الكافر حجة أنك أنت على حق ونحن على باطل، لا نعطيه حجة أن الدين باطل، الدين غير صحيح، نظام غير صالح للحياة، فلذلك الناس لا يعبؤون بما في الكتب، يعبؤون بما في المجتمع، كم من إنسان أسلم في بلاد الغرب فلما جاء إلى بلادنا صُعِقْ، هذا هو الدين؟ كان يقول بعضهم: الحمد لله الذي أسلمنا قبل أن نراكم، لو رأيناكم لما أسلمنا بالطبع..

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

لا تَعْطي الكافر حُجَّة، لا تخلف وعدك، فالنبي عليه الصلاة والسلام رأى أماً توهم ابنها أن في يدها تمرة قالت: تعال هاك، فقال عليه الصلاة والسلام: " ماذا أردت أن تعطيه؟ قالت: تمرة هكذا، قال: أما إنك لو لم تفعلي لكتبت عليكِ كذبة "، المؤمن لا يكذب:

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب))

[أخرجه الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهلي]

إنه إن كذب أو خان لم يبق مؤمناً، يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة.

الإسلام لا ينمو بالكلام ينمو بالأعمال :

أخ كريم ذهب إلى بلاد الغرب في دورة تدريبية، الذي لفت نظر الناس ورعه، أمانته، استقامته، يقسم بالله العظيم وهو صادق: أن الأسرة التي سكن فيها أسلمت كلها. كنا مرة في الحج رأينا رجلاً من أوروبا الغربية يطوف حول الكعبة، سألنا عنه فإذا هو من ألمانيا الغربية، ما الذي جعله يسلم؟ شاب من هذا القطر سكن عنده في البيت، وفي البيت فتاةٌ جميلة، تمنى أن يلمح والد الفتاة هذا المستأجر الطالب ينظر إلى ابنته، أبداً، فما هذا الإنسان؟ من جبلّة أخرى؟ من طبيعة أخرى؟ ناقشه، حاوره حتى أسلم، هل تصدق أن غض بصر شاب كان سبب إسلام شخص ألماني، الإسلام لا ينمو بالكلام، ينمو بالأعمال، يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة.

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

لا تعطي الكافر حجة أن ديننا باطل، لا تكذب، لا تغش، لا تحتال، لا تكن لك شخصية مزدوجة، كن واضحاً، الوضوح أكمل بكثير من الأسلوب المنحني، فكن واضحاً.

المؤمن حينما يقصر أو تزلّ قدمه يستحق تأديب الله له :

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

هناك معنى ثان: يا رب لا نكن عصاةً لك فتسلّط علينا الكفار فيفتنون في تعذيبنا، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 141]

فإذا جعل علينا لهم ألف سبيلٍ وسبيل فنحن إذاً مُقَصِّرون، فهؤلاء حينما يسيطرون على مؤمنين ضعاف ماذا يقولون؟ نحن على حق، ولو لم نكن كذلك لما كنا أقوى منكم، القوة تعطي وهم كبير جداً. المعنى الثاني لهذه الآية: أن المؤمن حينما يقصر، أو حينما يتأخَّر، أو حينما تزلُّ قدمه يستحق تأديب الله له، ماذا يكون؟ ربنا جلَّ جلاله يسلّط عليه كافراً يعذبه، أولاً: الكافر فتن في تعذيبه، فتن في النيل منه، والكافر حينما كان أقوى من المؤمن وقد سلّطه الله عليه يتوهم أنه على حق، يفتن الكافر مرتين،

المرة الأولى يتوهم أنه على حق بدليل أن الله سلّطه على المؤمن، لو كنت على حق لما كنت ضعيفاً أنا أقوى منك، لو كنت على حق لما مكنني الله منك، الإنسان حينما يُقصِّر يستحق تأديب الله..

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً)

[سورة القصص: 4-5]

الكافر يعتقد أنه مادام أقوى من المؤمن، ما دام مُسَلَّطاً عليه، مادام متمكناً منه، فهو على حق والمؤمن على باطل، اعتقد الكافر خطأ مرتين أنه بهذا التسليط على حق، وأن هذا المؤمن أمامه ذليل، أمامه مُحْتاج، أمامه متضعضع، فلو كنت على حق لما كنت هكذا، أنت أوهمت الكافر أنت حينما قصرت، وحينما عصيت، وحينما زلت القدم وتمكن الكافر منك أوهمته أنك على باطل، بدليل سيطرته وضعفك أمامه، إذاً فُتِنَ بك، رآك ضعيفاً فتمكن منك، فتوهم أنه على حق واحتقر حقك أنت، هذه الفتنة الثانية.

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

من استقام على أمر الله استحق نصره :

الأصل أن تستقيم على أمر الله حتى تستحق نصر الله، أن تستقيم على أمر الله حتى لا يستطيع كافرٌ أن يصل إليك، ولا أن يسلط عليك، ولا أن ينال منك، حتى يشعر أنه ضعيف أمامك، أنت قوي بطاعتك لله.

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

هذا الموضوع الأخير له ذيل، أنا أعلم علم اليقين أن أناساً كثيرين تركوا المساجد، تركوا حلقات العلم لإساءةٍ من صديقٍ لهم من روَّاد المسجد، يقول لك: هكذا فعل معي، كذب علي، خانني، غدر بي، هذا هو المسجد؟ هذا هو الحق؟ أناسٌ كثيرون أعرفهم والله سبب تركهم للمساجد، ولحلقات العلم، ولجماعات المؤمنين أن واحداً أساء إليهم في تعامل تجاري، في قرض لا يؤَّدى، في وعد لا يوفي به، فقالوا: ما هذه التربية؟ هكذا الإسلام؟ رأى معه حُجَّة، ترك المسجد ترفعاً، من سبب له هذه القطيعة مع الله؟ المسيء، المسيء حينما يسيء يرتكب جريمة وهو لا يشعر.

الكذب عار و جريمة :

أخواننا الكرام، دققوا في هذه المقولة: ألف تصرُّف ذكي، مخلص، حكيم يشد إنساناً إلى الحق، تصرف واحد أحمق يقطعه عن الحق، ألف تصرف ذكي حكيم مخلص يشدونك إلى الدين ؛ تصرف أحمق واحد متناقض فيه احتيال، فيه كذب، فيه غدر يقطعك عن الله وعن الدين، شيء خطير، فلذلك:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ)

[سورة يس: 12]

أنت أسأت من أجل أن تربح مئة ليرة زيادة، حلفت يميناً كاذباً أمامه، وكان سعرك أعلى من السوق كله، فرأى إنساناً في المسجد يغدره بالسعر، يضحك عليه ويكذب عليه، فترك المسجد، عندما تركه أصبح معه حجة يقول: كلهم كاذبون، وكلهم دجالون، فبدأ ينحرف، وبدأ يتفلت، الآن تفلته ومعاصيه كلها في صحيفة الذي حمله على ترك المسجد، وأنت لا تدري، كلها في صحيفة الذي حمله على ترك المسجد، من أجل مئتي ليرة، أو من أجل خمسمئة ليرة، ضَحَّيْتَ بأخٍ لك، أما إذا كنت مؤمناً إيماناً حقيقياً لا تضحي بأخيك ولا بمليون ليرة، أنت تربح إنساناً مؤمناً أفضل من أن تربح الدنيا كلها، فلذلك تجد في هذه الأيام الإنسان يقول: هذا من أخواننا نرفع السعر، بعد يومين تسأل عن السعر يجد أنه دفع بالمئة ثلاثين زيادة، لأنه استسلم، هذا من أخواننا، من رواد المسجد، معقول يكذب عليه؟ كذب عليه، أخذ سعراً غير معقول، ما هذا؟ أهذا هو الدين؟ هؤلاء هم المؤمنون؟ هذه معاملتهم؟ هذا غدرهم؟ ترك ومعه أمام الله حجة يقول: كلهم كاذبون، هذه مشكلة كبيرة جداً.

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

لا تسبب قطيعة إنسان عن الله، لا تسبب قطيعة لإنسان مع الله بسببك، لا تخيِّب ظن الناس بالدين، واحد من الصحابة أثناء الهجرة قبض المشركون عليه، فقال لهم: " والله لو أطلقتموني لن أحاربكم أبداً"، فصدقوه، وأطلقوا سراحه، ذكر هذا للنبي وسُرَّ سروراً عظيماً، بعد سنتين أو ثلاثة هناك غزوة فانخرط مع النبي، فلما رآه النبي قال له: "ارجع أنت عاهدتهم" الدين كله قيم، لو أن الصحابة الكرام فهموا الدين كما نفهمه نحن، نحن نفهمه لكن على أساس شعائر، صلوات، صوم، زينة، مولد، منشدين، طرَبْ، عزائم، ولائم، بطاقات دعوى، مكتبة فخمة، لكن لم نفهمه التزاماً، صدقاً، أمانة، عفة، الدنيا كلها تحت قدمك من أجل أن تَفي بوعدك، من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدَّثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كمل مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته، هذا الذي نسعى إليه، فلذلك لا تُخَيِّب ظن إنسان بالإسلام بسبب معاملتك، لا تخيِّب ظن إنسان بالدين من معاملتك، لا تبع دينك بعرض من الدنيا قليل، لا تكذب مهما كلف الأمر، لا تقول: الكذب ملح الرجال، فهذا كلام الشيطان، الكذب عار، جريمة، النبي كان إذا كشف من أحدٍ كذباً قاطعه:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الممتحنة 060 - الدرس (3-5): تفسير الآيات 6-9 الولاء والبراء والاتباع.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-08-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

إبراهيم عليه السلام والذين معه

أسوةٌ حسنة لمن يرجو الله و اليوم الآخر :
أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الممتحنة، ومع الآية السادسة وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

أيها الأخوة، هذه الآية تأكيدٌ لآيةٍ سابقة..

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

هذه الآيات، أو هذه الآية الطويلة التي أكَّدتها الآية التي بين أيدينا اليوم.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ)

في إبراهيم عليه السلام والذين معه أسوةٌ حسنة، أي قدوةٌ حسنة..

(لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

الولاء والبراء من لوازم الإيمان :

بيّنت لكم أيها الأخوة أن في حياة المؤمن شيئين أساسيَّين من لوازم الإيمان وهما: الولاء والبراء، فما لم يوالِ المؤمن المؤمنين، ما لم ينضم المؤمن إلى المؤمنين، ما لم يتعاون المؤمن مع المؤمنين، ما لم يحب المؤمن المؤمنين فلا ولاء له، وما لم يتبرَّأ من الكافرين، ما لم يبتعد عنهم، ما لم ينسلخ منهم، ما لم يُنْكِر عملهم فليس مؤمناً، لا تكون مؤمناً إلا بالولاء والبراء، أن توالي أولياء الله، وأن تبتعد عن أعداء الله.
لا أقول لك أن تكون هجومياً ولكن ابتعد عنهم، لماذا؟ لأن الماء الصافي العذب الزلال والماء الملوّث إذا اختلطا من المتضرر؟ الماء الصافي لأنه يتلوّث، أما الماء الملوّث فهو في الأصل ملوّث، يستفيد،

تخفُّ حدَّة تلوّثه، أما الخطورة على الماء الصافي، فالمؤمن ما لم يكن نقياً، بعيداً عن الشبهات، بعيداً عن مزالق الشهوات، ما لم يكن بعيداً عن مواطن المعصية، لا ينجو، لذلك لا مؤاثرة في الخير والخير كلُّه في المؤاثرة، أن تؤثر إنساناً لئلا يغضب، لئلا يحزن، على طاعة الله إنك لست مؤمناً، لا تؤثر أحداً في طاعة، أما حينما تكون مطيعاً لله فلك أن تؤثر الناس جميعاً بدنياك، إنَّك إن ضَحّيت بدنياك من أجل الآخرين فأنت تداريهم، والمداراة من أخلاق رسول الله، قال عليه الصلاة والسلام: "بُعِثت لمداراة الناس".

المدارة و المداهنة :

أما أن تبذل دينك من أجل الآخرين فأنت تداهنهم، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يُداهن..

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

[سورة القلم: 9]

لا تداهن لكن دارِ، رأس الحكمة مداراة الناس، بُعِثت لمداراة الناس. فالولاء والبراء، أي ممكن أن تنضوي في أي عمل، وأن تكون علاقتك مع أصحاب العمل علاقة محدودة بالعمل، أما العلاقات الحميمة، الزيارات المختلطة، الرحلات الطويلة، الشراكة الاندماجية مع أهل الدنيا فإنهم يلوِّثونك، فلذلك الولاء والبراء، لا بدَّ من أن توالي ولا بدَّ من أن تتبرَّأ، الولاء أن تعطي لله، وأن تمنع لله، وأن تصل لله، وأن تقطع لله، وأن تغضب لله، وأن ترضى لله، وأن تعفو لله، وأن تنتصر لله، هذا هو الولاء، والبراء أية جهةٍ متفلّتةٍ، غير منضبطةٍ، عاصيةٍ ينبغي أن تبتعد عنها لأنها تؤذيك من دون أن تؤذيها، هي لا تتأذّى، هكذا هي، أما هي فتؤذيك، إذا أخرجتك عن طاعتك حجبتك عن ربك، أنت كل قيمتك باتصالك بالله، كل ثمار الدين لا تقطفها إلا بالاتصال بالله، فإذا واليت أهل الدنيا وحملوك على معصيةٍ، أو على تقصيرٍ، أو على شبهةٍ، أو على مزلقٍ، إنهم حجبوك عن الله، حملوك على معصيةٍ فحجبوك عن الله، حينما تُحجَب عن الله فقدت كل ثمار الدين، هم في الأصل محجوبون، هم في الأصل منقطعون، لم يتأثّروا إطلاقاً، لكنهم جرَّوك إلى ما هم عليه، لذلك لابدَّ من البراء ولابدَّ من الولاء، لا يكمل إيمان عبدٍ حتى يحبّ لله، وحتى يبغض لله، وحتى يعطي لله، وحتى يمنع لله، فلذلك سيدنا إبراهيم موقفه سليم..

(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الشعراء: 75-77]

الأسوة الحسنة هي الدليل القطعي على واقعية هذا الدين :

أخواننا الكرام، أكثر المتفلتين، أكثر الساهين، أكثر الغافلين، ولاؤهم مرتبطٌ بمصالحهم، وبراؤهم مرتبطٌ بمصالحهم، يوالون أهل الكفر إن كانت هناك مصلحة بينهم وبينهم، ويتبرؤون من أهل الإيمان إن لم يكن منهم شيءٌ يعود عليهم بالخير، فلذلك أحد خصائص المؤمن أن يوالي وأن يتبرَّأ، أن يوالي المؤمنين وأن يتبرَّأ من الكافرين، الآية اليوم هي:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

الحقيقة الأسوة الحسنة هي الدليل القطعي على واقعية هذا الدين، لأن الدين أفكار، أما حينما ترى نبياً، إنساناً مثلك، بشراً مثلك، في أعلى مستوى أخلاقي فهو حجَّةٌ علينا، لأن الله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، إلا أن الناس اليوم ماذا يقولون؟ لمجرَّد أن تطلب منهم أن يقيموا شرع الله يقول لك: يا أخي أنا لست نبياً، من قال لك إنك نبيّ؟ ولا واحد بالمليار، ولا ذرَّة غبار على نعل أحد الأنبياء، من قال لك إنك نبيّ؟ ولكن حينما نقول: لابدَّ من أن نعطي حقنة لمريض، إنَّ أعلى طبيبٍ في الأرض يجب أن يعقّمها، وإن أدنى ممرض في الأرض يجب أن يعقّمها، توجد أشياء ثابتة..

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

[سورة هود: 112]

فأمور الاستقامة ليس لها علاقة بالنبوّة أو غير النبوّة، إن أطلقت البصر سلكت طريق الزنا، لأن كل خطوةٍ تقود إلى أختها، أخي أنا لست نبياً، من قال لك إنك نبي؟ إنك مأمورٌ أن تفعل ما يفعله الأنبياء، الأنبياء قدوة لنا..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ)

[سورة الأحزاب: 21]

فالنبي أيها الأخوة الكرام، أقلُّ مهمَّةٍ جاء بها التبليغ، لكن أكبر مهمَّةٍ جاء بها الأسوة.

النبي عليه الصلاة والسلام قدوةٌ لنا وأسوة :

أنت أمام قُرآن متحرِّك، الكون قرآنٌ صامت، و القرآن كون ناطق، أما النبي عليه الصلاة والسلام فقرآنٌ متحرِّك، فيجب أن نقتدي برسول الله، يجب أن نعرف سيرته، يجب أن نعرف سنَّته، لأن الله ما قبل أن ندَّعي حبَّه إلا بالدليل، والدليل اتباعه، نبينا عليه الصلاة والسلام قدوةٌ لنا وأسوة، وإبراهيم عليه السلام قدوةٌ لنا وأسوة..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ

الخطاب لنا..

(فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ)

أجمل تعقيب هذا التعقيب..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

كل الناس؟ لا..

(لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ)

تجد أهل الدنيا إذا دخلوا على رؤساء الدنيا، أي كبار التجَّار، كبار الصناعيين، تجده انتهى، ذاب تعظيماً لهم، لأن هدفه الدنيا، فإن رأى إنساناً في الدنيا متفوّقاً يكون هو قدوته، يشرب الخمر ليست مشكلة، لا يصلّي، إنه يريد أن يكون مثلهم، أنت لا تتخذ أسوة من بني البشر إلا في نطاق طموحاتك، إنسان طموحاته تجارية من أسوته الحسنة؟ التاجر الفلاني، إنسان طموحاته صناعية من أسوته الحسنة؟ الصناعي الفلان، إنسان طموحاته علميَّة من أسوته؟ الدكتور الفلاني، إنه يحمل بورد، يحمل أعلى شهادة في العالم، له ثمانون مؤلَّفاً، له شهرة واسعة، فأنت قل لي من أسوتك أقل لك من أنت، أنت تسعى لتقليد من؟ من هو الذي أمامك دائماً؟ أنت لك شخصية هي أنت، لك شخصيةٌ تكونها، وشخصيةٌ تكره أن تكونها، وشخصيةٌ تتمنّى أن تكونها، الشخصية التي تتمنَّى أن تكونها من هي؟ إذا كانت هذه الشخصية من أهل الدنيا فأنت من أهل الدنيا، إن كانت من أهل الفن الرخيص فأنت من أهل الفن الرخيص، إن كانت هذه الشخصية لاعب كرة فأنت في هذا الحقل.

المؤمن شرُفت نفسه بمعرفة الله عز وجل :

الله عزَّ وجل قال عن النبي الكريم:

(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى)

[سورة النجم: 7]

أنت في أي أُفُقْ؟ الأنبياء لهم أفق، المؤمنون لهم أفق، أولياء الله لهم أفق:

((إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها))

[أخرجه الطبراني عن حسين بن علي]

قل لي من قدوتك أقل لك من أنت، قل لي من أسوتك أقل لك من أنت، قد تجد إنساناً يركب سيارة فارهة يقدر ثمنها بأربعة وعشرين مليوناً، تجده ذاب، ليتني مثله، هكذا قال أهل الدنيا عندما خرج قارون بزينته..

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[سورة القصص:79]

الآن يقولون: هنيئاً له، إنه فوق الريح، يده تطول كل شيء، يلعب بالمال لعباً، إنه لو طحن المال وأكله لا ينتهي، يتكلَّم وهو ذائب، هذا من قدوته؟ أهل الدنيا..

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

[سورة القصص:79-80]

لن تكون مؤمناً إلا إذا كان الله ورسوله أحبَّ إليك مما سواهما :

إلى أين أنتم ذاهبون؟ صدِّقوني أيها الأخوة لن تكون مؤمناً إلا إذا كان الله ورسوله أحبَّ إليك مما سواهما، لن تكون مؤمناً إلا إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلَّم دائماً في مخيّلتك، كيف كان يعامل زوجاته؟ كيف كان يعامل أولاده؟ كيف كان يعامل إخوانَه؟ كيف كان يعامل جيرانه؟ كيف كان في بيته؟ كيف كان مع أصحابه؟ كيف كان يتنظَّف؟ كيف كان ينام؟ كان يضع يده تحت خدِّه الأيمن ويستلقي، كيف كان يدعو؟ كلَّما كنت مؤمناً جعلت النبي قدوةً لك، لذلك الآية دقيقة جداً، الأولى والثانية والثالثة، آية النبي:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ)

[سورة الأحزاب: 21]

إن كنت ترجو الدنيا وزينتها فلك قدوةٌ غير النبي عليه الصلاة والسلام، إن كنت ترجو مناصب الدنيا ورفعتَها لك قدوةٌ غير النبي عليه الصلاة والسلام، إن كنت ترجو ملاذّ الدنيا وشهواتها لك قدوةٌ غير قدوة النبي عليه الصلاة والسلام، تريد صحناً.. ساتلايت.. على الفور، أما إذا كان الله ورسوله أحبَّ إليك ممن سواهما، وكان النبي الكريم والصحابة الكرام وأولياء الله هم قدوتك فهنيئاً لك، لذلك الله عزَّ وجل يقرر ويقول:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

أي مثلاً دخلت إلى البيت فوجدت فيه مشكلة، عندما دخل النبي عليه الصلاة والسلام ورأى زوجته عائشة رضي الله عنها أصابها ما يُصيب النساء من الغيرة، فأمسكت طبقاً أرسلته السيدة صفية وكسرته، فقال عليه الصلاة والسلام: " غضِبَت أمكم غضِبَت أمكم"، لم يفعل شيئاً، هذه المشكلة امتصها، الآن أكثر الأزواج بعد أن يتزوّج يبحث عن العيوب التي في زوجته فيلقيها على مسامعها من أجل أن يهدم الحبَّ بينهما، ما هي العيوب في أقربائها يلقيها على مسامعها، النبي لم يفعل هذا، قالت له السيدة عائشة مرَّةً: كيف حبَّك لي؟ قال: " كعقدة الحبل ". عقدة متينة، فكانت تقول له من حينٍ لآخر:

كيف العقدة؟ فيقول: "على حالها ". أنت بإمكانك أن تقيم بيتك على أساس من الحب والوئام والود وأنت الرابح الأول، وبإمكانك بحمق وبسفه وبعدم حكمة أن تجعل بيتك جحيماً، هذا يقال وهذا يقال، فيمكنك الانتقاد لأتفه الأسباب، ويمكنك أن تتجاهل بعض الأخطاء فتعلو عند الله، فالقضية قضية قدوة.

من كان يرجو الله و اليوم الآخر فهو حكماً يقتدي برسول الله :

يجب أن تقرأ سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، النبي لم يتميز عن أصحابه أبداً، وإذا لم تتميز عمن حولك فأنت سيِّدهُم، وأنت أحبُّ الناس إليهم، نحن في شهر المولد فيجب أن نعرف سيرة النبي، ويجب أن نستنبط منها المواعظ والحكم، ويجب أن نجعله قدوة لنا وأسوة في كل شؤون حياته، لأنه الإنسان الكامل الذي حقَّق الكمال البشري كلَّه، يوجد إنسان واحد حقَّق الكمال البشري كلَّه وهو رسول الله، وما خلق الله بني البشر في الأصل إلا ليكونوا على شاكلة النبي، وليكون النبي قدوة لهم..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)

[سورة الأحزاب: 21]

فأنت لا يمكن أن تتخذ النبي وصحابته الكِرام قدوة لك إلا إذا كنت ترجو الله واليوم الآخر، لا يمكن أن تتخذ النبي أسوةً حسنةً وقدوةً لك إلا بشرط أن ترجو الله واليوم الآخر، لذلك هناك علاقة اسمها علاقة ترابطيّة، إن كنت ترجو الله واليوم الآخر فأنت حُكْمَاً تقتدي برسول الله، وإن كنت تقتدي برسول الله دائماً فأنت حُكْمَاً ترجو الله واليوم الآخر، أنا أطمئنك، كل واحد منَّا يتَّبع النبي في أقواله وأفعاله، وفي حركاته وسكناته، وفي إقامته وسفره، وفي سروره وحزنه، كل واحد منَّا يفعل ما يفعله النبي فهو حُكْمَاً وقطعاً ممن يرجو الله واليوم الآخر، وإذا كنت ترجو الله واليوم الآخر فأنت قطعاً تتخذ النبي أسوة لك، وهذا شيء أساسي.

المؤمن الصادق إذا قرأ شيئاً عن رسول الله أو عن صحابته تذوب نفسه إعظاماً لهم:

أنا قلت أن هناك شيئين أساسيين وهما: البراء والولاء، والقدوة الآن، توجد موضوعات كُبرى في الدين، هذه ركائز الإيمان، فلان مؤمن، فأنت إذا قلت: فلان مهندس هل هو لا يعلم ما المثلَّث؟ لا يعلم ما الخط المستقيم؟ لا يعلم تحمُّل الإسمنت؟ مستحيل لأن هذه بديهيات الهندسة، إذا قلت: إنسان يحمل لسانس في اللغة العربية هل من الممكن ألا يعلم ما حركة الفاعل؟ إذاً هو كذَّاب، حركة الفاعل لا تعرفها؟ إنسان يحمل لسانس في الرياضيات لا يعرف الضرب والجمع والتقسيم والطرح؟ هذا مستحيل، هذه بديهيات، بديهيات المؤمن الولاء والبراء، بديهيات المؤمن الأسوة الحسنة، من أسوتك؟ من قدوتك؟

تقلّد من؟ تتجه أنظارك إلى من؟ تعظّم من؟ تذوب أمام من؟ المؤمن الصادق إذا قرأ شيئاً عن رسول الله أو عن صحابته الكِرام تذوب نفسه إعظاماً لهؤلاء الرجال، أما أهل الدنيا فتذوب أنفسهم على لاعب الكرة الفلاني، الممثل الفلاني، المغنّي الفلاني، ذائبون في حبِّهم، قل لي بمن تقتدي أقل لك من أنت، هذه الآية الأولى..

من يكفر بالله فالله غني عنه :

(وَمَنْ يَتَوَلَّ)

يتولّى عن أن يكون النبي قدوة له، يتولّى أن يدير ظهره لهذه السنَّة، ولهذه السيرة، ولهذا الإنسان العظيم..

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله غنيٌّ عنكم..

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر]

(وَمَنْ يَتَوَلَّ)

يتولّى عن أي شيء؟ يتولّى عن أن يكون النبي صلى الله عليه وسلّم قدوةً له، الآية هنا يتولّى عن أن يكون إبراهيم عليه السلام ومن معه قدوة له في الولاء والبراء، إذاً يوالي الكفّار ويبتعد عن المؤمنين، إنه تولّى عن أن يكون هذا النبي العظيم قدوةً له، خيراً إن شاء الله؟..

الله عز وجل غني عنا لكن لا يعاملنا إلا معاملة نحمده عليها :

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

غنيٌّ عنك وعن ولائك وعن برائك، وغنيٌّ عن طاعتك، وغنيٌّ عن عملك، ومع أنه غنيٌّ عنك لا يُعاملك إلا معاملة تحمده عليها، هذا معنى غنيٌّ حميد، إذا كان هناك إنسان غني عن الآخر قد يسيء إليه، غنيٌّ عنك ولا يعاملك إلا معاملة تحمده عليها، ليس هو غنياً منتقماً، إنه غنيٌّ حميد، هو مستغن عنك، أحياناً الإنسان يخدمك لأن له علاقة معك، له مصلحة معك، أما إنسان يخدمك وليس له مصلحة معك أبداً فهذا موضوع كبير كثير، إنسان يقدّم لك كل شيء وهو غنيٌّ عنك فإن هذه بطولة، أكثر الناس بالحاسَّة السادسة مصلحته مع فلان، تجد في تصرفاته معه احتراماً، و إكراماً، ومداراة، ومودَّة، أما

متى تكون المودَّة في أعلى مستوياتها، المودَّة والإكرام؟ إذا كنت غنياً عنه، غنياً عنه وتقدِّم له كل شيء، هذه أخلاق الله عزَّ وجل..

(وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

غنيٌّ لكن لا يعاملنا - وهو غنيٌّ عنَّا- إلا معاملة نحمده عليها.

عداوة المؤمن عداوةٌ طارئة لا عداوةٌ أصيلة :

أيها الأخوة، مرَّة ثانية وقد ذكرت هذا في الدرس الماضي أنَّ عداوة المؤمن عداوةٌ طارئة لا عداوةٌ أصيلة، المؤمن الصادق إنساني وربَّاني، ربَّاني يستمد كل توجيهاته من الله، لا يوجد عنده مصدر آخر آمر، لا توجد تقاليد، ولا عادات، ولا لباقة، ولا أدبيّات، ولا اجتماعيات، فهذه كلُّها كلمات ما أنزل الله بها من سلطان، إنه يتحرَّك وفق توجيهات الله، لذلك في بعض الأحاديث:

((إذا لم تستح فاصنع ما شئت))

[أخرجه البخاري عن ابن مسعود]

هذا الحديث يُفهَم فهماً وله فهمٌ آخر، من بعض معاني هذا الحديث أي إذا كنت لا تستحي من الله في هذا العمل افعله ولا تعبأ بأحد، مثلاً لو إنسان له زوجة لا تُنجِب أو زوجة مريضة، وهو يستحي أن يتزوّج بأخرى، وهذا الشيء من حقَّه إلا أنه بدأ يمنة ويسرة، صار له علاقات، وصار له عشيقات، أما اجتماعياً فله زوجة واحدة، لا.. تزوج امرأةً ثانية وفق منهج الله وكن مستقيماً.

شيءٌ آخر: أي شيء إذا كان الله راضياً عنه افعله ولا تعبأ بأحد، إذا لم تستح من الله في هذا العمل إذا كان وفق منهج الله افعله ولا تعبأ بأحد، أما أن نعصي الله سرَّاً من أجل الحفاظ على مكانتنا أمام الناس فإن هذا شركٌ كبير، فلذلك ليس في حياة المؤمن عداوةٌ دائمة، عداوات المؤمن طارئة، المؤمن لا يكره أحداً، إن كره الكافر كره عمله فقط، فلا يوجد عنده حقد، فالحقد من صفات المقطوعين عن الله، الأحقاد الدفينة من صفات غير المؤمنين، الأحقاد الثابتة من صفات المتفلّتين، أما المؤمن فلا يحقد، أما النبي عليه الصلاة والسلام فيبكي لشقاء الكافرين:

((لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً))

[أخرجه الحاكم عن أبي الدرداء]

أي إذا أحد الأشخاص وَجَّه لك كلمة قاسية، أو دفعك بصدرك، وأُتيح لك أن تنال منه، إنك قد تفعل فيه الأفاعيل، أما أن يذهب النبي إلى الطائف، وأن يُكذَّب، وأن يُسْخَر منه، وأن يُضرَب، ثم يأتي جبريل ليقول له: لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، فيقول:

((بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

[متفق عليه عن عائشة]

دعا لهم واعتذر عنهم وتمنى أن ينجبوا أولاداً مؤمنين، هذه النبوة .

أنت عندك إمكانية أن تحبَّ الكافر؟ أن تحبَّه لأنه إنسان، وأن تكره عمله لأنه كافر، هذا حال المؤمن، لا يوجد عنده حقد..

المؤمن لا يحقد أبداً :

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ*وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

[سورة الشورى: 39-40]

إذا غلب على ظنِّك أن عفوك عنه يقرِّبه من الله، يعفو ويصفح ولا يحاسِب، لأن الحقد غير موجود، وهذا من أخصِّ خصائص المؤمنين. مثلاً إنسان يرتكب كل المعاصي جهاراً، رأيته في المسجد تائباً، إن لم تشعر إنه أقرب الناس إليك وأنك تتمنَّى أن تقدِّم له روحك فأنت لست مؤمناً، قبل يوم كان شارب خمر، منحرف الأخلاق، مغتصب أموالاً ليست له، فلمَّا رأيته تائباً منيباً إن لم تشعر أنه أقرب الناس إليك، إن لم تتمنّ أن تعطيه كل شيء فأنت لست مؤمناً، هكذا المؤمن، لهذا قال الله عزَّ وجل:

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

عِكْرِمَةُ بن أبي جهل من ألدِّ أعداء رسول الله، ناصبه العِداء عشرين عاماً، ولمَّا دخل النبي مكَّة أهْدَرَ دمه ولو تعلَّق بأستار الكعبة، ثم إنه جاء تائباً مُسْلِمَاً، فصار أقرب الناس إلى النبي، وفي بعض المعارك نزل عن فرسه ودخل بين صفوف الكفّار، فقال له سيدنا خالد:" ارأف بنا يا عكرمة، فقال له: دَعْك عنّي يا خالد لك مواقف مع رسول الله أنا أكفّر عن ذنوبي السابقة ".

إنسان عنده من الحقد ما لا سبيل إلى وصفه ويقول: " آه لولا أطفالٌ صغار أخشى عليهم العَنَتْ، ولولا ديون ركبتني لا أُطيق سدادها لذهبت وقتلت محمَّداً وأرحتكم منه "، هذا نفسه حينما أسلم قال عنه عمر: " دخل عمير والخنزير أحبَّ إليَّ منه وخرج من عنده وهو أحبُّ إليَّ من بعض أولادي "، هذا هو المؤمن إنه لا يحقد أبداً، يتألَّم من عمل الكافر، يتألَّم من الكذب، يتألَّم من أكل المال بغير حق، يتألَّم من الكبر، أما حينما تؤمن فانتهى الأمر..

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً)

بناءً على هذه الآية لا تيئس من هداية أحد.

الصُلْحَة بلمحة :

والله أيها الأخوة أُنَاسٌ كثيرون في عُمرِ هذه الدعوة.. هذه الدعوة عمرها عشرون عاماً.. أناسٌ كثيرون أكثر من عشرين أو ثلاثين إنساناً يقول بعضهم لي: أستاذ ليس هناك معصية تعرفها إلا ارتكبتها؛ شرب خمر، على زنا، على قِمار، على ارتياد نواد ليلية، على إنكار، ثم لمَّا تاب إلى الله توبة نصوحة صار كالملائكة، لا تيئس، لا تيئس من هداية أحد، المؤمن نفسه طويل، وحينما ترى إنساناً متفلّتاً بعيداً تائهاً شارداً قد عاد إلى صفِّ المؤمنين، وانضوى تحت لوائهم، وأحبَّهم وتاب إلى الله، يدخل على قلبك من السرور ما لا سبيل إلى وصفه، لا تيئس، عندي عشرات بل بضع عشرات من الحالات:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

[سورة الزمر: 53]

إنسان مسرف على نفسه في المعصية، الصُلْحَة بلمحة:

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

فأجمل شيء قاله النبي في هذا الموضوع، إنه قدَّم صورة إنسان يركب ناقته يقطع بها الصحارى، عليها زاده وشرابه، أراد أن يستريح قليلاً فجلس تحت ظلّ نخلةٍ ليستريح، فاستيقظ فلم ير الناقة، وهو في قلب الصحراء، أيقن بالهلاك، جلس يبكي ثم يبكي ثم يبكي إلى أن أدركه النُعاس فنام فأفاق فرأى الناقة، من شدَّة فرحه اختلَّ توازنه فقال: " يا رب أنا ربُّك وأنت عبدي "، الشاهد يقول عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

هذا وصف النبي.

كل إنسان مطلوب لرحمة الله عز وجل :

إذا قال العبد: يا ربِّ وهو راكع، قال: لبيك يا عبدي، إذا قال العبد: يا ربِّ وهو ساجد، قال: لبيك يا عبدي، أما إذا قال العبد: يا رب وهو عاصٍ، فقال الله له: لبيك، ثم لبيك، ثم لبيك، أي:

((....وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

هذا وصف النبي وهو حديثٌ صحيح، أي أن الله ينتظر منك بادرة، ينتظرك..

"يا داود لو يعلم المعرضون انتظاري لهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطَّعت أوصالهم من حبّي، ولماتوا شوقاً إليّ، يا داود هذه إرادتي بالمعرضين فكيف إرادتي بالمقبلين؟! ". أنت مطلوب، مطلوبٌ لرحمة الله، الله ينتظرك..

إلى متى وأنت في اللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

وجدناك مضطراً فقلنا لك ادعُنـا نُجبك، فهل أنت حقاً دعوتنـــا؟

دعوناك للـخيرات أعرضت نائياً فهل تلقى من يحسن لمثلك مثلنـا؟

فيا خجلي منه إذا هـو قال لي أيا عبدنـــا ما قرأت كتابنـــا ؟

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى؟ أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا ؟

***

تعصي الإله وأنت تظهر حبــه ذاك لـعمري في المقال بديعُ

لو كان حبك صادقاً لأطعتـــه إن الـــمحب لمن يحب مطيع

***

فهذه الآية الكريمة:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الحديد: 16]

إلى متى؟! لمَ لا تتوبوا توبة نصوحاً؟ لمَ لا تصطلحوا مع الله عزَّ وجل؟.

الحلم سيد الأخلاق :

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

كلمة والله قدير، الإنسان مُهَيَّأ للهدى، مصمَّم ليهتدي إلى الله، فطرته تدعوه إلى الهدى، عقله يدعوه إلى الهدى، واقعه يدعوه إلى الهدى، النقل الصحيح يدعوه إلى الهدى، أحياناً تنشأ مشكلة تضطرَّه إلى الهدى، فأنت لا تيئس مهما رأيت عداوةً،وانحرافاً، وبعداً وتفلُّتاً، واستخفافاً، واستهزاءً، كن حليماً، كاد الحليم أن يكونَ نبيَّاً، الحلم سيد الأخلاق.

على المؤمن ألا يفكِّر أن ينتقص من المؤمنين ولا أن يطعن بهم ولا أن يعاديهم :

يوجد شيءٌ آخر دقيق جداً..

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

فلو كان هناك إنسان غير ملتزم؛ لا يصلّي، لا يغضُّ بصره، لا يتحرَّى الحلال في دخله، لكنه لا يعادي المؤمنين، لا يُسَفِّههم، لا ينتقص منهم، لا يطعن فيهم، بل إنه يقول: والله أنتم أحسن منّي لكن أنا لا أقدر أن أمشي مثلكم، له موقف ود، موقف إكبار، موقف مسالم.. الحد الأدنى.. لا يفكِّر أن ينتقص من المؤمنين ولا أن يطعن بهم، ولا أن يعاديهم قال: هذا لابدَّ من أن تُحسِن إليه، من أن تصله.

توجد نقطة دقيقة جداً: مجموعة ممن يعملون في فنٍّ رخيص في بلد عربي تابوا إلى الله واستقاموا على أمره وصلح أمرهم، زميل لهم طرق بابهم فاستقبلوه، عاش معهم فرأى من إخلاصهم، من استقامتهم، من طهرهم، الإنسان التائب إنسان آخر، الحقيقة عندما يتوب الإنسان توبة نصوحة بالتعبير الدارج- قلبَ مئة وثمانين درجة- كان له ميول، كان له اهتمامات، كان له أصحاب، صار إنساناً آخر، فأنت إن كان لك صديق قديم، أنت هداك الله وتاب عليك، وقرَّبك وأكرمك، وفتَّح لك قلبك، ونوَّر لك عقلك، وتجلَّى على قلبك وأسعدك ووفَّقك، وزارك صديق قديم متفلّت، إذا لم تستقبله، وتكرمه، وتطلعه على حالك الجديد كيف تغريه بالهدى؟ إنسان لا يعاديك قال:

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ)

لا قاتلك، ولا هاجمك، ولا انتقدك، ولا سَفَّهك، ولا حقد عليك بل بالعكس قال لك: أنت أحسن منّي، أنا مقصِّر، أنا ليس لدي إمكانية لأكون مثلك، أرجو أن يتوب الله عليَّ، طبعاً هذا الإنسان غير ملتزم، هذا يجب أن تصله، أن تكرمه، أن تعينه على الشيطان، أن تكون عوناً له على الشيطان لا أن تكون عَوْنَاً للشيطان عليه، إذا جافيته وابتعدت عنه، خاصمته، وهاجمته، انتقدته، وبَّخته، صغَّرته أمام الناس، قلبته إلى عدو، هذا غلط، أما إذا كان يعاديك فهذا موضوع ثان، أما هذا فلا يعاديك..

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ)

حاجة الدعوة إلى الله إلى حكمة بالغة :

أحياناً يكون في البيت أخوان، أخ ملتزم وأخ متفلّت، متفلّت ولسانه مضبوط، فإذا بالملتزم يقول لأخيه: أنت فاسق، أنت كافر، أنت كذا، إنك زدته كفراً وفسوقاً وعصياناً، إنه محترمك ولك هيبة عنده، أنت تغاضى عن بعض أغلاطه، أحسن إليه، اجلس معه وآنسه، بيّن له، اخدمه أحياناً فتملك قلبه، لن يُفتَح العقل قبل القلب، إن فتحت قلبه بإحسانك أصغى إليك، فتح عقله لبيانك، فالدعوة تحتاج إلى حكمة بالغة، إنسان مؤنس، عفو، لطيف، حكيم، لا يرفض الناس، لا يستعلي عليهم، ليس فوقهم، لا يملي إملاءً بل

إنه يحاور حواراً، الحوار فيه كرامة، الإملاء فيه استعلاء، وفيه موقف متغطرس، كثير من المؤمنين وأنا أعرف هذا كثيراً عندما تاب رأى نفسه فوق الناس، وبدأ يعمل نفسه وصياً على الناس، يوزِّع ألقاباً، هذا فاسق، وهذا آخرته إلى جهنَّم، من أنت؟ أنت عليك أن تكون أخاً كريماً لكل الناس، الآية دقيقة جداً، المسلمون لا يطبِّقونها، المسلمون أحياناً يعادون أناساً مؤمنين مثلهم لا لشيء إلا لأنهم من جماعاتٍ أخرى، فكم هم متخلِّفون؟ لا لشيء إلا لأنهم من جماعاتٍ أخرى، وكأن الإسلام جماعاتٍ جماعات..

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ)

أن تكونوا لهم بررة، أن تحسنوا إليهم، وتقسطوا إليهم، أن تكونوا منصفين معهم..

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

إنسان يخطِّط لإطفاء نور الله، يخطِّط للإفساد بين المؤمنين، يخطِّط لتفلت المؤمنين من دينهم، يخطِّط لإضعاف المسلمين، هذا لا ينبغي أن تعطيه ولاءك، الآن أكثر شبابنا يذهب إلى البلاد الغربية كل علمه وثقافته وذكائه واختصاصه يضعه على طبقٍ من ذهب ليقدِّمه لأعداء الأمَّة، أين ولاؤك للدين؟ فتغريه بعض الأمور، تغريه حياة راقية بمفهوم العصر، يقول لك: بيت رخيص، مركبة رخيصة، بلاد خضراء، كل شيء موجود، علاقات واضحة جداً، يضع كل خبرته، وكل علمه، وكل إمكاناته لخدمة أعداء المسلمين، هؤلاء الذين يقاتلوكم ويخرجوكم من دياركم ينبغي ألا تواليهم، وألا تكون في خدمتهم.

المجتمع ثلاثة أصناف :

من الملاحظ أننا في الولاء والبراء لم نخرج عنهما من أول آية وهي قوله تعالى:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً)

فالمؤمن إذا كان راقياً في معاملاته، برقيه، وذكائه، وحكمته، وطيب نفسه، وكرمه يجلب هؤلاء الحياديين، يوجد في المجتمع ثلاثة أصناف: مجتمع مؤمن، ومجتمع كافر، وهناك فئة حيادية لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء إنهم مع شهواتهم، لكن لا يوجد عنده موقف معاد للمؤمنين، ولا يوجد عنده موقف معاد للكافرين، فحكمة المؤمن وذكاؤه وإنصافه وإحسانه تجعل هذا الحيادي ينضم للمؤمنين، وأحياناً حمق الإنسان المقصِّر وعدم دقَّته في كلامه يجعل هذا الإنسان ينضم لهؤلاء.

يوجد شخص حيادي، كل حكمتك يجب أن تكون من أجل أن تضمَّه إليك، أما إذا قيّمته تقييماً سيئاً وقسوت عليه في القول ونبذته انضمَّ للآخرين، للطرف الآخر، يوجد طرف لا يغيّر، هناك طرفٌ الكفر مترسِّخ فيه، هذا لا يغيّر، ويوجد مؤمن، نحن جهودنا كلّها مع الطرف الحيادي، هذا الذي هو لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، هذا إذا كنت أنت حكيماً، كاملاً، منطقياً، عميقاً في تفكيرك، لطيفاً في معاملتك، سخيّاً في إنفاقك تستطيع أن تجلب هذا الطرف- هذا الإنسان الحيادي- إليك.

الأمر و النهي في القرآن الكريم :

إذاً هناك نهيٌ وهناك عدم نهيٍ.. لا ينهاكم، إنما ينهاكم..

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ)

(إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

ظالمون لأنفسهم، إذاً نَخْلُصُ من هذا الدرس إلى أن من أخصِّ خصائص المؤمن الولاء والبراء والاتباع، أن تتبع النبي الكريم في أوامره، وأن تتبع عما عنه نهى، وأن تقلّده في سيرته، وأن توالي المؤمنين، وأن تتبرَّأ من الكافرين، وألا تكون سبباً في فتنة كافر، ألا تعطي الكافر حجَّةً فيكفر بسببك..

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

وكل ما في القرآن الكريم يجب أن تبعده عن مناسبة وروده وأن تعمِّمه على كل العصور والأمصار، فهذه نماذج متكررة، أحياناً الإنسان يقرأ القرآن بعقلية خاصَّة أن هذا كتاب الله حدَّثنا بشيء وقع في عهد النبي وانتهى الأمر، إنه قلبه إلى كتاب تاريخ، هذا كتابٌ أمرنا الله أن نقرأه وأن نتعبَّده به، ويمثل كل حالات المجتمع؛ يوجد مؤمن ملتزم، كافر مترسِّخ في كفره، ويوجد حيادي، هذا الحيادي بذكاء المؤمنين وحكمتهم وإكرامهم له وتواضعهم وإنصافهم يضمُّونه إليهم، وبتصرُّفات غير ملتزمة، بكبر واستعلاء، بألفاظ قاسية يحملونه على أن ينضمَّ للطرف الآخر، فكل واحد يجب أن يسعى لتقريب هؤلاء الذين بينَ بين إليه، بإحسانه، وإكرامه، ومنطقه، وتسامحه حتى ينتشر هذا الحق بين كل الخلق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الممتحنة 060 - الدرس (4-5): تفسير الآية 10
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-08-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

من لوازم معرفة الله أن تبحث عن أمره و نهيه و تخطب وده :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع من سورة الممتحنة، ومع الآية العاشرة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

الله جلَّ جلاله كما ذكرت لكم من قبل يخاطب عامة الناس بأصول الدين، ويخاطب المؤمنين بفروع الدين، أي يا من آمنتم بي، يا من أيقنتم بوجودي، أيقنتم بكمالي، أيقنتم بوحدانيتي، يا من عرفتم منهجي، افعلوا كذا وكذا، بعد أن تعرف الله ليس للمؤمن شغلٌ إلا أن يعرف أمره، عرفته عليك أن تتقرَّب إليه، الشيء العظيم يُقصَد، يبتغى، يخطب وده، فمن لوازم أن تعرف الله أن تخطب وده، من لوازم أن تعرف الله أن تبحث عن أمره ونهيه، من لوازم أن تعرف الله أن تتقرب إليه، فالحركة الطبيعية أن تعرف الله أولاً ثم تتقرب إليه ثانياً، ما الشيء السريع الفَعَّال في التقرب إليه؟ أن تطيعه..

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 31]

طاعة الله أكبر شيء يقرب الإنسان من ربه :

إذاً أكبر شيءٍ يقربك إليه طاعته، من هنا قال الله عزَّ وجل:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: 13]

أقربكم إلى الله أكرمكم عليه، أسعدكم به، أشدكم طاعةً له، لذلك أيها الأخوة لما سيدنا عمر قال لسيدنا سعد بن أبي وقاص: " يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له ".

وطاعة الله بين يديك مبذولة، من عظمة الله، ومن كرمه، ومن سعة فضله، أن كل إنسانٍ بإمكانه أن يتقرب إلى الله، لكن العظماء من بني البشر ما كل إنسانٍ بإمكانه أن يدخل عليهم، وهناك أشخاص لا يمكن أن يصلوا إليه، عظماء البشر، أما ربنا جلَّ جلاله فكل إنسانٍ بإمكانه أن يتقرَّب إليه، وأن يدخل

عليه، لأن العلاقة مع عباده الله جد، يا عبادي بطاعتي تتقربوا مني، فقط بالطاعة وحدها، والأمر معروف، فلا توجد أوامر غير معروفة لم يعط سرها لأحد.. لا..

((الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يدري كثير من الناس، أمن الحلال هي أم من الحرام، فمن تركها استبراءً لدينه وعرضه، فقد سلم، ومن واقع شيئاً منها يوشك أن يُواقع الحرام))

[رواه البخاري عن النعمان بن بشير]

المؤمن الصادق الذي عرف الله يَجِلُ قلبه ويقشعرُّ:

لذلك المؤمن الصادق الذي عرف الله، والذي عرف عظمته، والذي أيقن بكل خليةٍ في جسمه، وبكل قطرةٍ في دمه بوجوده، وكماله، ووحدانيته إذا قرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

يَجِلُ قلبه، ويقشعرُّ جلده، ويقول: سمعاً وطاعة يا رب، بل إن المؤمن في الصلاة حينما يقول:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

[سورة الفاتحة: 5-7]

يقرأ آياتٍ من كتاب الله، وكأن هذه الآيات هي الصراط المستقيم، هي الأمر الإلهي افعل ولا تفعل، معنى ذلك أن من لوازم معرفة الله أن تُسارع إلى طاعته، أن تبحث عن أمره ونهيه، أن تبحث عن شيءٍ يقرِّبُكَ إليه، طاعته أكبر شيءٍ يقربك إليه، الأعمال الصالحة ثاني أكبر شيءٍ يقربك إليه، دوام الوجهة إليه ثالث أكبر شيءٍ يقربك إليه، الإخلاص له، العمل على خدمة عباده، هذه كلها تقربك إلى الله عزَّ وجل، لذلك المؤمن ليستعد إذا قرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

ربنا عزَّ وجل يقول: يا من آمنتم بي ألم تؤمنوا بي؟ يا من آمنتم بي هذا أمري، أي تقربوا إلي بطاعتي، هذا أمري.

من شعر أنه في ظل الله فقد سعد في الدنيا و الآخرة :

لذلك أخواننا الكرام إذا قرأت القرآن ينبغي أن تقف مَلِيًّا عند قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

[سورة التحريم: 8]

قولوا للناس حُسْنَاً، غضوا أبصاركم، كونوا صادقين، لا شيء يسعد القلب كأن يشعر الإنسان أنه في ظل الله، وأنه في رضاه، وأن الله وليه يدافع عنه، ويوفقه، وينصره، ويقربه.

الأعمال بالنيات :

الحقيقة أيها الأخوة، أن صلح الحديبية قد تحدثنا عنه في العام الماضي بشكلٍ مفصل حينما وردت أحداث هذا الصلح في سورة محمدٍ وسورة الفتح، وقد ذكرت لكم تفاصيل هذا الصلح، فمن بنود هذا الصلح أنه إذا جاء أحدٌ من المشركين إلى النبي عليه الصلاة والسلام ينبغي أن يرَدّه النبي، أما إذا ذهب أحدٌ من المسلمين إلى المشركين فليس على قريش أن ترده إلى النبي، الصحابة الكرام رأوا في هذا الاتفاق ضعفاً في جانب المسلمين، لكن النبي أخبرهم أنه ينفّذ أمر الله، إلا أن هذا الأمر لا ينطبق على النساء، إذا جاء إنسانٌ أسلم من عند المشركين على النبي أن يرده، والحقيقة كانت هناك حكمة بالغة من أن النبي ردَّ كل من جاءه مسلماً من قِبَلِ المشركين، هؤلاء قطعوا الطريق على قريش وأقلقوها قلقاً شديداً، لذلك جاء وفدٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام يرجو رسول الله أن يقبلهم، والقصة طويلة ومعروفة عندكم، إلا أن هذا البند من اتفاقية محمد صلى الله عليه وسلم مع قريش لا ينطبق على المرأة، لأن المرأة تحت زوجها، هو يقودها، فإن لم يكن مسلماً قادها إلى النار، لذلك قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ)

قد تأتي امرأةٌ زوجها مشرك أو كافر إلى النبي عليه الصلاة والسلام، كان عليه الصلاة والسلام يستحلفُها: لعلها غاضبت زوجها فأرادت الهروب منه، لعلها أرادت المدينة، أرادت أرضاً بأرض، لعلها، لعلها، فإذا أقسمن بالله أنهُن ما جئن إلى المدينة إلا ابتغاء مرضاة الله ورسوله فكان عليه الصلاة والسلام يقبل منهن ذلك، إلا أن هذه الآية تعلمنا الشيء الكثير، المسلم بحسب محبته للحق، بحسب غيرته على الدين، بحسب حرصه على هداية الناس جميعاً، لو جاء رجل غير مسلم وقال له: أنا أسلمت. هذا المسلم طبيعيٌ جداً أن يفرح فرحاً شديداً وأن يعطيه روحه، ولكن لا ينبغي للمسلم أن يكون ساذجاً، هذا الذي أسلم لعله أسلم من أجل امرأةٍ يتزوَّجها، لذلك كان هناك رجل اسمه مهاجر أم قيس- سماه المسلمون مهاجر أم قيس لأنه أحب امرأةً اسمها أم قيس- هذه المرأة التي أحبها اشترطت عليه ليتزوجها أن يهاجر إلى المدينة، فهاجر لا مرضاةً لله ورسوله ولكن هاجر من أجل أن يتزوَّجها، فكان اسمه عند المسلمين مُهاجر أم قيس، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه))

[متفق عليه عن عمر بن الخطاب]

العمل الكثير والقليل ينفع مع الإخلاص :

أحياناً ينضم إنسان إلى مسجد يقول لك: أنا لي مصلحة في هذا الانضمام، أنا يثق الأخوة بي، يشترون من عندي، تزداد مبيعاتي، أربح، هذا الذي انضم إلى المسجد لم ينضم لله ورسوله، انضم إليه لدنيا يصيبها، أو لامرأةٍ ينكحها، أو لمصلحةٍ يحققها، فالإخلاص الإخلاص أيها الأخوة المؤمنون، الإخلاص الإخلاص لأن العمل الكثير والقليل ينفع مع الإخلاص، ولأن العمل الكثير والقليل لا ينفع من دون إخلاص، فكلمة:

(فَامْتَحِنُوهُنَّ)

يقول لك: أنا أسلمت، اسأله لماذا أسلمت؟ لا يوجد جواب، هذا الذي ينتقل من دين إلى دين، لابد أن في الدين الجديد أشياء كبيرة جداً، مقنعة جداً، ثمينة جداً، أين هذه الأدلة؟ أين هذه البراهين؟ أين هذه الحجج؟ لذلك المؤمن كيس فطنٌ حذر، " المؤمن ليس بالخب ولا الخب يخدعه "، يقول الإمام الشافعي: ما خدعني أحدٌ مرتين، مؤمن ساذج، بسيط، محدود، يضحكون عليه، هذا لا يليق بالمؤمن، فالمؤمن أحياناً يقول لك: أسلمت، لماذا أسلمت؟ المسلمون ضعاف، ومظاهر التخلُّف متفشية في بلادهم، لماذا أسلمت؟ لابد من أن تقنعني.

المؤمن كيس فطن حذر :

كأن هذه الآية ننطلق منها إلى حقيقةٍ عامة: لا تقبل من إنسان أن ينضم إليك بسذاجة، بلا دليل، بلا مبرر، بلا مسوِّغ، إنسان من فرنسا أعلن إسلامه، وضَجَّت له الدنيا، واستضافه المسلمون في شتى بقاعهم، وأقاموا له الاحتفالات، ورحَّبوا به، ودعوه لإلقاء محاضرات في الجامعات، وأشادوا به، وكتبوا المقالات تلو المقالات، ثم يفاجئنا قبل حين بمقابلةٍ في مجلةٍ يقول: " أنا لا أصلي، صلاتي تأملٌ في خلق الله، أنا لا أصوم صيامي تركٌ للمنكر، أنا أحتقر الفقهاء جميعاً كلهم أغبياء، أنا وأنا "، مقالة، فهذا الذي ضحك على أكثر الناس الله جلَّ جلاله يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ)

وقد روي أنه كان يشرب الخمر وما تركها، بل قال: إنني لست مسلماً، وهذه الدعوات التي تلقَّاها، وهذه المحاضرات التي ألقاها، وتلك الكتب التي ألَّفها، وهذه الضجة التي أحدثها، هكذا ببساطة، المؤمن كيسٌ فطنٌ حذر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ)

أشخاص كثيرون جاؤوا من فرنسا وقالوا: نحن أسلمنا، فلما سألناه لا تجد جواباً، ثم تبين أنه ليس مسلماً، جاء لمصلحة، المؤمن كيس فطن حذر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

[سورة النساء: 71]

سوء الظن عصمة :

الحزم سوء الظن، احترس من الناس بسوء الظن، سوء الظن عصمة، كان عليه الصلاة والسلام يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي بشره عن أحد، أنا أقول لك: كن لطيفاً، كن دمثاً، كن باشَّ الوجه، ولكن لا تكن ساذجاً، قد يأتي بمهمةٍ لا نعرفها نحن، قد يرسل بمهمة ليست في صالح المسلمين والعرب، لا تكن ساذجاً، قد يأتي مستطلعاً، قد يأتي ليكشف بعض الحقائق الخفيَّة، فلذلك أنا خرجت من هذه الآية المتعلقة بحدثٍ في حياة النبي إلى قاعدة عامة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ)

طبعاً يقول الله عزَّ وجل:

(اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ)

أي أن الله وحده ولا أحد سواه هو الذي يعلم الحقيقة، أنا أقول لكم هذه الحقيقة: إن تقييم الأشخاص من شأن الله تعالى، نحن لنا دلائل، نراه يصلي، نراه يغضُّ بصره، نراه لا يكذب، الصدق دليل، والصلاة دليل، وغض البصر دليل، هذه علامات، لكن الحقيقة الكاملة لا يعرفها إلا الله.

سيدنا الصديق لما ولى سيدنا عمر بعض الصحابة وَجِلوا، سيدنا عمر شديد، قالوا له: وليت علينا عمراً؟! فقال سيدنا الصديق: " أتخوفونني بالله، والله أقول له: يا رب لقد ولَّيت عليهم أرحمهم، قال: هذا علمي به فإن بدل وغيَّر فلا علم لي بالغيب ". انظر إلى التحفظ، هذا علمي به فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب.

الحقيقة الكاملة لا يعرفها إلا الله عز وجل فعلى الإنسان ألا ينخدع :

فأنا أردت من هذه الآية أن الإنسان لا ينخدع، فهناك حوادث كثيرة، إنسان جاء من بلد إلى بلد لا ليؤمن ولا ليسلم ولكن ليستطلع، ليكن عين قومٍ آخرين علينا، كن يقظاً، كل إنسان يجب أن يكون يقظاً على مصالح أمته، على مصالح وطنه، على مصالح المسلمين، أما هذه السذاجة والبساطة فلمجرَّد أن

قال: أنا مسلم. نصدقه! نرحب به أشد الترحيب!! نكشف له كل أوراقنا!! نطلعه على كل صغيرةٍ وكبيرة؟ لا..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ)

أنت لك الظاهر.

الفيصل والضابط بين أن يكون سوء الظن عصمة وبين أن يكون إثماً :

بالمناسبة متى يكون سوء الظن إثماً؟ قال تعالى:

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

ومتى يكون سوء الظن عصمة؟ النبي يقول: سوء الظن عصمة، وربنا عزَّ وجل يقول:

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

الفيصل بين المعنيين، أنه إذا كان هناك دلائل تثير الشك عندئذٍ يكون سوء الظن عصمة، دلائل تثير الشك، أما إذا كان هناك دلائل تثبت حسن النيَّة، فسوء الظن إثم، هناك دلائل تثبت حسن النية، لا يوجد أي شيء يثير الشك سوء الظن إثم..

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

أما هناك دلائل تثبت أن هذا الإسلام ليس صحيحاً، ما تكلم بشيءٍ يدعو أن يترك دينه لدينٍ آخر، إذا لم يكن هناك دلائل قوية يُعَدُّ سوء الظن عصمة، هذا هو الفيصل والضابط بين أن يكون سوء الظن عصمة، وبين أن يكون سوء الظن إثماً، قال تعالى:

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

سوء الظن عصمة، والحزم سوء الظن، واحترس من الناس بسوء الظن، وقال تعالى:

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

هناك دلائل مريبة: سوء الظن عصمة.. لا يوجد ولا دليل مريب سوء الظن إثم من الآثام..

المؤمن طفلٌ كبير يجمع بين طهر الأطفال و عقل الكبار :

(فَامْتَحِنُوهُنَّ)

أحياناً يأتي إلى المسجد لأول مرة وله طلبٌ كبير، تسأله: منذ متى أنت في المسجد؟ يقول لك: هذا أول درس. معنى ذلك أنه جاء لمصلحة، جاء لمساعدة، جاء لمكسب، هو في واد وأنت في واد، الدين كله في واد، وأنت في وادٍ آخر، لكنه جاء لمصلحة، فالمؤمن عليه أن يكون يقظاً حذراً، لا ساذجاً ولا بسيطاً من النوع الذي يمكن أن تنطلي عليه حركات أهل الدنيا، سيدنا عمر له هذه الكلمة الرائعة يقول: " لست بالخب ولا الخب يخدعني "، أي لست من الخبث بحيث أخدع، ولا من السذاجة بحيث أُخدع، هذا هو الموقف، ثم إن الإنسان لا يحترم في المجتمع إذا كان ساذجاً، بسيطاً، سهل المأخذ، سهل المَنال، يمكن أن تنطلي عليه الحقائق، يمكن أن يضلل، يمكن أن يقع في الإيهام، إذا وقع في الإيهام، وضُلل، وانطلت عليه الحقائق، وكان ساذجاً، وانطلت عليه بعض الأكاذيب لا يعد هذا الإنسان مَحَطَّ إعجابٍ وتكريمٍ من الناس، الناس يعجبون بالذكي، يعجبون من دون خبث، هناك ذكاء مع خبث، ذكاء شيطاني، ذكاء مع مخادعة، ذكاء مع أحابيل، نريد عقلاً مع الطيب، مع اليسر، مع الطهر، مع البساطة، هذا هو المؤمن، لذلك قالوا: المؤمن طفلٌ كبير، يجمع بين طهر الأطفال، وذاتية الأطفال، وبراءة الأطفال، وفطرة الأطفال وبين عقل الكبار، وإدراك الكبار، ويقظة الكبار، وحرص الكبار "، أما الحقيقة الساطعة:

(اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ)

وحده..

الحقيقة الكاملة لا يعرفها إلا الله :

الحقيقة الكاملة لا يعرفها إلا الله.. مثلاً: هذا شيء من السيرة مهم جداً، الوحي كما تعلمون جاء النبي عليه الصلاة والسلام مئات المرات، بل بضع مئات المرات لأمور صغيرةٍ جداً، فلما أرسل حاطب بن بلتعة كتاباً إلى قريش كيف علم النبي بذلك؟ الوحي، لما ذهب إلى خيبر ليفاوضهم وأزمعوا أن يقتلوه بصخرةٍ من أعلمه؟ الوحي، لما جاء عمير بن وهب قال لصفوان: " لولا ديون لا أطيق سدادها، وأطفالٌ أخشى عليهم العنت لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه. قال: امض لما شئت، أولادك هم أولادي، وديونك علي بلغت ما بلغت "، من الذي أعلم النبي بمقولة عمير؟ الوحي، بالسيرة هناك مئات الأمثلة عن أن الوحي نزل إلى النبي الكريم ليُعْلِمَهُ عن قضيةٍ من قضايا الدعوة، إلا أن الوحي مرةً لم ينزل، جاء قومٌ من بئر معونة طلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام سبعين قارئاً ليعلموا قومهم القرآن، والنبي صدَّقهم وأرسل معهم سبعين قارئاً وفي الطريق ذبحوهم، لماذا لم يُعلم الله عزٍّ وجل نبيه الكريم بهذا؟ ليكون هذا درس لألف عامٍ قادمة أن النبي عليه الصلاة والسلام بشر لا يعلم بذاته إلا أن يُعلمه الله

تعالى، ليكون هناك فرق بين مقام الألوهية ومقام النبوة، النبي بشر إن أعلمه الله علم، وإن لم يعلمه لا يعلم قال:

((إنما أنا بشر، أرضى كما يرْضى البشر، وأغْضَبُ كما يغضب البشر))

[أخرجه مسلم عن أنس بن مالك]

حديثٌ آخر، يقول عليه الصلاة والسلام:

((.....ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[البخاري ومسلم عن أم سلمة]

معنى ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يستطيع، قد يكون أحد الخصمين ألحن بالحجة فيقضي له والحق مع غيره قال: إذا فعلت هذا فإنما أقضي له بقطعة من النار، أراد النبي أن توَحِّد، أن تكون مخلصاً لله وحده، إذاً على وجه اليقين، الحقيقة الكاملة عند الله وحده.

نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر :

لذلك إذا كلف إنسان أن يزكي إنساناً ليقل: أعلمه تقياً، أعلمه ورعاً، أعلمه مؤدياً للصلوات، أعلمه دقيقاً في معاملته، نقياً في ذمَّته، والله أعلم، هذا علمي به والله أعلم، دائماً إذا أردت أن تقيِّم الأشخاص تحفظ، تحفظ بعبارة، قل: والله أعلم، فعلها الصديق مع عمر بن الخطاب، قال: " أتخوفونني بالله، أقول: يا رب لقد وليت عليهم أرحمهم، هذا علمي به فإذا بَدَّلَ وغَيَّر فلا علم لي بالغيب "، لذلك قال تعالى:

(اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ)

أنتم امتحنوهن بالدلائل الظاهرة، من هنا، نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، رأيته يصلي معنى هذا أنه مسلم، رأيته يعلن الشهادتين معنى هذا أنه مسلم، حج بيت الله الحرام معنى هذا أنه مسلم، يؤدي زكاة ماله معنى هذا أنه مسلم، زوجته محجبة معنى هذا أنه مسلم، ليس في بيته منكر معنى هذا أنه مسلم- هذا كله تمثيل- هذا ليس عملك، لو قال لك أحدهم: هذا كله تمثيل، نقول له: نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، إذا لم يكن هناك أدلة صار سوء ظن، وسوء الظن إثم، أما إذا كان هناك أدلة يصلي ودخله مشبوه، معنى هذا أن صلاته لغايةٍ في نفس يعقوب، قال:

(فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ)

لأن الرجل غير المرأة، الرجل آمر، مسيطر، الأمر بيده، له القوامة، فلو أن امرأته لم تكن كافرةً على شاكلته كانت مسلمة، ربما ضغط عليها، ربما أجبرها على معصية الله، لذلك لا يصح أن تكون مؤمنةٌ تحت كافر أبداً.

افتراق الدين يفرِّق بين الزوجين :

لذلك:

(فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ)

افتراق الدين يفرِّق بين الزوجين، ولا سيما إذا كانت امرأة لأنها مفقودة وليست قائدة، زوجها قيمٌ عليها، زوجها هو الذي يأمرها.

(لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآَتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا)

انظر إلى عدالة الإسلام، هذا الكافر الذي تزوَّج كافرةً ودفع لها مهراً، فإذا بهذه المرأة تسلم، ثم تنتقل إلى بلاد المسلمين، إلى دار الإسلام مهاجرةً وامتحنت فنجحت وانضمت إلى المسلمين، فهذا الكافر كافر لكنه أنفق على زوجته ثم فقد زوجته صار هناك ظلم.

الدين لا يقوم على الظلم أبداً :

أخواننا الكرام، بالمناسبة لا يمكن لدينٍ أن يقوم على ظلم أبداً، سيدنا رسول الله عندما أرسل عبد الله بن رواحة، أرسله ليأخذ من ثمار خيبر بحسب اتفاقٍ جرى بين النبي وبين أهل خيبر، أرادوا أن يرشوه، فتلطفوا معه- لو قدر المحصول بأقل من ثلاثين بالمئة أعطوه النصف فوفروا- فقال هذا الصحابي الجليل الشاعر عبد الله بن رواحة: " والله لقد جئتكم من عند أحبِّ الخلق إلي، وأنا أكرهكم كما أكره القردة والخنازير، ومع ذلك لا أحكم إلا بالحق، ولن أظلمكم ".

قال رجل لسيدنا عمر: " أتحبني؟ قال: لا والله لا أحبك، فقال له: هل يمنعك بغضك لي بأن تعطيني حقي؟ قال: لا والله حقك إليك "، لا تخف، هذا هو الإيمان.

إنسان هاجر إلى المدينة، في الطريق نصب له كمين من المشركين عاهدهم ألا يقاتلهم فأطلقوه، فلما قدم إلى النبي قصّ عليه ما جرى، فرح له النبي، وبعد سنواتٍ أزمع النبي أن يغزو المشركين، نسي هذا الصحابي وخرج مع النبي، قال:ارجع أنت ألم تعاهدهم؟ هذا دين، أي يجب أن تعامل الكافر بالعدل، والدليل:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ)

[سورة المائدة: 8]

أي يحملنكم:

(شَنَآَنُ قَوْمٍ)

[سورة المائدة: 8]

الشنآن هو البغض.

الإسلام دين العدل و الإنصاف :

من هم أعداء المؤمنين التقليديّون؟ الكفار، المشركون، المنافقون..

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا)

[سورة المائدة: 8]

إياكم أن تظلموا الكفار..

(اعْدِلُوا)

[سورة المائدة: 8]

أمر إلهي، مع هؤلاء، قال:

(هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

إن عدلتم مع هؤلاء يزدادون قرباً مني، ويزدادون قرباً منكم، ويزدادون قرباً من الحق، إذا المسلم كان منصفاً مع الكافر، أعطاه حقه بالتمام والكمال، من أدراك لعل إعطاءه حقه بالتمام والكمال يكون سبب إيمانه، من أدراك؟ من أدراك أن هذا الكافر حينما يرى مسلماً وقّافاً عند الحق، فصل العداوة والبغضاء عن الحقوق، يقول عليه الصلاة والسلام:

((اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب))

[متفق عليه عن عبد الله بن عباس]

اتقوا دعوة المظلوم فإن دعوته تصعد إلى الله كالشرارة ، هذا هو الإيمان، نحن لا يوجد عندنا إنسان مسلم نقول: هذا لا يوجد فيه دين اظلمه، كُلْ من ماله، لا تعبأ بحقّه، هذا ضد الإسلام يا أخي؟ لا..

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

هذا هو الإسلام، فهذا الصحابي الذي قال: " والله لن أظلمكم " قال زعماء خيبر: بهذا غلبتمونا.

من حق الزوج الكافر أن يسترجع مهر زوجته التي تركها لإسلامها :

الله عزَّ وجل لا ينصر إلا أهل الحق، ولو أن أهل الحق انحرفوا عنهم لخذلهم.

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ *ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)

[سورة الحاقة: 44-47]

يا رسول الله مَثِّل بهم كما مثلوا بعمك؟ قال: والله لا أمثل بهم فيمثل الله بي ولو كنت نبياً، هذا هو الدين، هل عندك استعداد أن تكون وقّافاً عند الأمر والنهي هكذا؟ لذلك هذا الكافر الذي كفر بالله وناصب المؤمنين العداء، زوجته هاجرت إلى دار الإسلام، هو تزوجها وأنفق عليها مهراً، الآن ظُلِم، لذلك قال تعالى:

(وَآَتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا)

[سورة الممتحنة: 10]

من حق هذا الزوج الكافر أن يسترجع مهر زوجته التي تركها.

من تركت زوجها الكافر وانتقلت إلى دار الإسلام يسمح لها أن تتزوج من مسلم :

(وَآَتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ)

[سورة الممتحنة: 10]

لك أن تتزوَّجها، هذه بلا زوج، تركت زوجها الكافر وانتقلت إلى دار الإسلام، نعوِّض على زوجها بالمهر الذي دفعه ليتزوج غيرها، ونسمح لها أن تتزوج من مسلم طبعاً:

(إِذَا آَتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

[سورة الممتحنة: 10]

والأجر هنا ما معناه؟ المهر فقط، لا كما يستنبط أنه شيءٌ آخر، الأجر هنا هو المهر.

(إِذَا آَتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

[سورة الممتحنة: 10]

من كفرت كفراً بواحاً على المسلم تطليقها :

الحكم الجديد الثاني:

(وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ)

[سورة الممتحنة: 10]

أي إذا امرأةٌ كفرت كفراً بواحاً، لا تمسك بعصمتها، لا تبقها عندك، لماذا؟ لأنها ستربِّي أولادك على الكفر، القضية لها مضاعفات، سوف تفسد عليك أسرتك.

(وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا)

[سورة الممتحنة: 10]

أي لك أن تطالب بتعويضٍ عما أنفقت على زوجتك الكافرة، وللزوج الكافر أن يطلب بتعويضٍ عما فقد من زوجته المؤمنة، هذا حق.

(ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

[سورة الممتحنة: 10]

الشريعة عدلٌ كلها رحمةٌ كلها مصلحةٌ كلها :

أيها الأخوة، يستنبط من هذه الآيات أن الولاء والبراء والإيمان والكفر شيء والحقوق المادية شيءٌ آخر، نوضح لكم ذلك: مؤمنة، كافرة، كافر، مؤمن شيء، وأن هذا الزوج الكافر الذي دفع مهر زوجته ثم تركته إلى ديار الإسلام يجب أن نعوِّضَ عليه ما أنفق على زوجته التي تركته، هذا هو حكم الله، من هنا قال بعض العلماء: " الشريعة عدلٌ كلها، الشريعة رحمةٌ كلها، الشريعة مصلحة كلها، فأية قضيةٍ خرجت من العدل إلى الجور، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن الرحمة إلى خلافها، فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل ".

الشريعة عدلٌ كلها، الشريعة رحمةٌ كلها، الشريعة مصلحةٌ كلها، زوج السيدة زينب صهر النبي عليه الصلاة والسلام بقي مشركاً، وجاء ليقاتل النبي وأصحابه، ووقع أسيراً، فلما رآه النبي قال: " والله ما ذممناه صهراً "، أما هنا فهو أسير، وهو في مجلسه يأتي أخوه من مكة المكرمة يحمل قلادةً أرسلتها السيدة زينب زوجته بنت النبي لتفدي زوجها من بين يدي النبي، فبكى النبي، وقال لأصحابه: " إن شئتم أطلقوا لها أسيرها "، انظر إلى هذا التواضع، وضع نفسه مع صحابته، إن شئتم أطلقتم لها أسيرها، أطلقه أصحاب النبي وعاد إلى زوجته، فلما نزلت هذه الآية، طلب منه أن يطلقها وأن يرسلها، وأرسلها إلى النبي..

(لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ)

ثم إن هذا الرجل تاجر بأموال قريش، ووقع أسيراً في الطريق إلى الشام بيد أصحاب النبي واقتادوه وبضاعته إلى المدينة، عرضوا عليه أن يسلم، فإذا أسلم كل هذه الأموال غنيمةٌ للمسلمين، ماذا قال أبو العاص؟ والله قال كلمة رائعة جداً، قال: " والله ما كنت لأبدأ إسلامي بهذا "، بيده أموال قريش، هو تاجر، ألقي القبض عليه، مشرك، وقع أسيراً، لو نطق بالشهادتين لصار مسلماً وهذه الأموال كلها غنائم قال: والله ما أبدأ إسلامي بهذا، ثم أمر النبي أن يطلق سراحه ثانيةً، وعاد إلى مكة، وأدَّى جميع الحقوق، وبعد ذلك أعلن إسلامه، وعاد إلى المدينة ليتزوَّج زينب ثانيةً، هذا هو الإسلام، أما أروع كلمة قالها: " والله ما كنت لأبدأ إسلامي بهذا "، بأكل أموال الناس..

الإسلام لا ينتشر إلا بالعدل :

لو أن أبا العاص حينما عرض عليه أصحاب النبي أن يسلم فأسلم وضم هذا المال كله إلى المسلمين، بربكم هؤلاء كفار مكة المشركون هل يصدّقون أنه أسلم حباً لله أم يتهمونه أنه أسلم ليأكل أموالهم؟ قال: والله ما أبدأ إسلامي بهذا، لذلك هذه الشريعة لا تقوم إلا على العدل، والعدل مع غير المسلمين، لأن الإسلام لا ينتشر إلا بالعدل، فإذا بني على الظلم الإسلام لا ينتشر.

سيدنا خالد لما أخذ الجزية من أهل حمص، ثم ارتأى أن يتركها لحكمةٍ عسكرية ماذا فعل؟ ردّ لهم الجزية، قال: أنا أخذتها لأحميكم، أما وقد انسحبت من أرضكم فلابد من ردها.

أهل سمرقند فتحت بلادهم ودخلها المسلمون وحكموها، ثم نمي إليهم أن دخول جيش المسلمين لم يكن وفق قواعد الدين، فأرسلوا سراً وفداً إلى عمر بن عبد العزيز يعرضون عليه أن بلدهم لم تفتح وفق قواعد الدين، قواعد الدين تقول: لابد من عرض الإسلام على هؤلاء، فإن قبلوه فهم منا ونحن منا، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، فإن رفضوه، يعرض عليهم دفع الجزية، أن يبقوا على دينهم السماوي وأن تؤخذ منهم الجزية نظير إعفائهم من الخدمة الإلزامية- بدل نقدي- لأن جيش المسلمين لا يمكن أن يكون فيه إنسان لا يؤمن بعقيدته، يبدو أن هذا الجيش الإسلامي قاتلهم مباشرةً دون أن يعرض عليهم هذا، هذا الوفد جاء سراً إلى عمر بن عبد العزيز وأطلعه على الخبر، هكذا تروي الكتب: أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كتب على قصاصة قصيرة لقائد الجيش " أن أخرج من سمرقند "، جيش عرمرم دخل مدينة، واحتلها، وأقام فيها، واستقر، وخضعت له بكل ما فيها، يمكن أن يخرج هذا الجيش بورقة صغيرة؟ لم يصدقوا ذلك، بل ظنوا أن هذا الخليفة العظيم يداعبهم، فلما وصلوا إلى قائد الجيش أعطوه الورقة، فَقَبَّلَهَا وأعطى أمراً بالانسحاب، قالوا: لا، لا ابق نحن أسلمنا. فهذا الدين الذي بورقةٍ قصيرة يأمر الخليفة جيشاً كبيراً أن ينسحب من بلدةٍ دخلها حرباً، أنتم على حق ونحن مسلمون حقاً وحقيقةً، هذا الدين، الدين يبنى على العدل، لا تنسوا هذه المقولة: " الشريعة عدلٌ كلها "، لو صليت مليون ركعة وتظلم الناس فلست مسلماً، لا الصلاة تنفعك، ولا الصيام ولا الصيام النفل، ولا ثماني عشرة عمرة، وثلاث عشرة حجة، لا يساوي شيئاً..

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

((ترك دانق من حرام خيرٌ من ثمانين حجة بعد حجةِ الإسلام))

[ورد في الأثر]

الدين منهج كامل :

لذلك أيها الأخوة، موضوع الدين موضوع كبير جداً، الدين منهج كامل، أهم ما فيه العدل، أهم ما فيه الرحمة، الإنصاف، أن تحل مشكلات الناس، لا أن تؤدي العبادات وأن تبني مجدك على أنقاضهم، لا أن تقوم بالعبادات وأن تخدعهم، لا أن تقومك بالعبادات وأن تضلّهم.. لا..

(وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآَتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

إذا نِلتُم من غنائم الكفار ولكم عند الكفار مبلغ لكم أن تقتطعوه من الغنائم قبل التوزيع، هناك مسلم له زوجة كافرة تركها لأنها كافرة، له عندها مهر، يمكن أن يأخذ المهر قبل توزيع الغنائم، هذا معنى الآية:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ)

هذه الآيات إن شاء الله نشرحها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الممتحنة 060 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 10-13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-08-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى لم يخاطب النبي باسمه إطلاقاً لأنه سيّد الأنبياء :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والأخير إن شاء الله تعالى من سورة الممتحنة، ومع الآية الحادية عشرة وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، نقف عند كلمات هذه الآية كلمةً كلمة، فالله سبحانه وتعالى لم يخاطب النبي باسمه إطلاقاً لأنه سيّد الأنبياء، قال:

(بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ)

[سورة الحديد: 27]

قال:

(يَا يَحْيَى)

[سورة مريم: 12]

(يَا نُوحُ)

[سورة هود: 46]

وليس في القرآن الكريم كلُّه قوله: يا محمَّد، لم يخاطب الله النبي صلى الله عليه وسلَّم باسمه إطلاقاً، خاطبه بصيغتين:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

[سورة التحريم: 9]

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

[سورة المائدة: 41]

أما ذكر اسمه خبراً، فقال:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ)

[سورة الفتح: 26]

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)

[سورة آل عمران: 144]

تعظيم النبي وتوقيره جزءٌ من الدين :

هذا مما يتميّز به النبي عليه الصلاة والسلام، ماذا نستنبط منه؟ أن تعظيم النبي وتوقيره جزءٌ من الدين، وجزءٌ من ديننا أيضاً أن نعرف نبيّنا، وأن نعرف مكانته ومقامه عند الله، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلّم قوله:

((سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا))

[أخرجه مسلم عن ابن عمر]

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أنا سيد ولد آدم ولا فخر))

[مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

ونحن أتباع النبي، نحن أتباع سيِّد الأنبياء والمرسلين، إلا أن العلماء لهم عند هذه التبعية رأيٌ دقيق هو أن الذين ينتمون إلى النبي عليه الصلاة والسلام ينتمون إليه على طريقتين؛ انتماء تبليغ، وانتماء استجابة، فكل إنسانٍ ولد من أبوين مسلمين بلغته السُنَّة، بلغه القرآن فهو من أمَّة التبليغ، أما الذي استجاب لله وللرسول إذا دعاه لما يحيه فهو من أمَّة الاستجابة، وكل الميزات التي ذكرها الله عزَّ وجل لأمَّة محمَّد إنما هي أمَّة الاستجابة لا أمَّة التبليغ، أي أن كل الميزات التي مُنِحَت لأمة النبي عليه الصلاة والسلام لمن يتَّبع النبي..

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة آل عمران: 31]

دليل محبة النبي الكريم اتباعه و تطبيق سنته :

دعوى المحبَّة لا تُقبَلُ إلا بالدليل، دليلها اتباع النبي عليه الصلاة والسلام، والإنسان دائماً يميل إلى الإعجاب بعقله وإيمانه ولا يرضى عن رزقه، هذا الإعجاب إعجاب موهوم، لا تظنَّن إنك على حق إن لم تُطبِّق سنَّة النبي، لا تتوهَّم أنك تحبُّ الله عزَّ وجل إن لم تتبع النبي، لا تظننَّ أنك من أمة محمدٍ عليه الصلاة والسلام ما لم تكن مستجيباً لأمر الله ونهيه، أما أمة التبليغ فمثلها مثل بقية الأمم..

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة الآية : 18]

هذه دعوى، يا سعدَ بن أبي وقَّاص، إذا قلنا: " يا سعدُ- على أنه مفرد عَلَم- لا يغرَّنك أنه قد قيل خال رسول الله، فالخلق كلُّهم عند الله سواسية ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له "..

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

الله تعالى خاطب النبي عليه الصلاة والسلام تشريفاً له بالنبوّة والرسالة :

حينما تعتقد أنه لا نسب، ولا عُزْوَةَ، ولا جماعة ترفعك إلى الله إلا طاعتك له عندئذٍ وضعت يدك على جوهر الدين، فلذلك هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

[سورة التحريم: 9]

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

[سورة المائدة: 67]

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ)

[سورة التحريم: 1]

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)

[سورة الأحزاب: 1]

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ)

إذاً خاطب الله النبي عليه الصلاة والسلام تشريفاً له بالنبوّة والرسالة، ولم يخاطبه باسمه كما خاطب بقية الأنبياء.

آياتٌ كثيرة يخاطب الله بها الأنبياء بأسمائهم :

وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرة يخاطب الله بها الأنبياء بأسمائهم..

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

[سورة مريم: 12]

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ)

[سورة المائدة: 166]

إذا كان الله سبحانه وتعالى يرفع قدر النبي إلى هذا المستوى..

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح: 1-4]

إذا كان الله تعالى رفع مقام نبيّه إلى أعلى مقام، فنحن من باب أولى أن نعظّمه، وأن نوقّره، وأن نصلي عليه.. صعد المنبر عليه الصلاة والسلام فقال: " آمين "، فصعد الدرجة الثانية فقال: "آمين "، فصعد

الدرجة الثالثة فقال: " آمين " وخطب ونزل، فلمَّا نزل سأله أصحابه: " يا رسول الله علامَ أمَّنت؟ " قال:

((جاءني جبريل فقال لي: رغِمِ أنف عبدٍ أدرك رمضان فلم يُغفر له، إن لم يُغفر له فمتى؟ فقلت: آمين، وجاءني في الثانية فقال: رغِمِ أنف عبدٍ أدرك والديه فلم يُدخلاه الجنَّة، فقلت: آمين، وجاءني في الثالثة وقال لي: رغِمِ أنف عبدٌ ذُكِرت عنده فلم يصلِّ عليّ، فقلت: آمين))

[الترمذي عن أبي هريرة]

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)

[سورة الأحزاب: 56]

جزءٌ من الدين أن نعرف النبي عليه الصلاة والسلام :

أي أن الله عزَّ وجل يتجلَّى على قلب النبي تجليّاً يفوق كل تجلّ، أنتم إذا أردتم تجلي الله عزَّ وجل فاذكروا النبي، اتصلوا به، إن قرأت سيرته ذكرته، وإن صلّيت عليه ذكرته، وإن ذكرت شمائله صليت عليه، العبرة أن نتعرَّف إلى هذا النبي الكريم، إن أخطر إنسانٍ في حياتنا هو رسول الله لأنه القدوة التي جعلها الله لنا أسوةً، إنه الإنسان المعصوم بمفرده من أن يخطئ في أقواله وأفعاله وإقراره وأحواله، فلذلك ينبغي أن نخصِّص وقتاً من وقتنا لمعرفة رسول الله، وأن نربِّي أبناءنا على حبِّ رسول الله، لا ينبغي أن نقول لهم: حِبُّوا رسول الله. لأن هذا كلامٌ لا معنى له، ينبغي أن نعلّمهم شمائله، رحمته، وعدله، محبَّته، إنصافه، إخلاصه، تواضعه، إذاً جزءٌ من الدين هو أن نعرف النبي عليه الصلاة والسلام..

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ)

[سورة المؤمنون: 69]

ينبغي أن نعرف الرسول، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

مقام النبي عدم الانقطاع عن الله إطلاقاً :

بالمناسبة النبوّة مقام والرسالة مقام، النبوة مقام معرفة، والرسالة مقام تبليغ، ما كل نبيٍّ برسول، أما كل رسولٍ فنبي، مرَّةً حينما مرَّ سيدنا الصدِّق في الطريق فرأى حنظلة يبكي فقال: " ما لك يا حنظلة؟ قال: نافق حنظلة، قال: لِمَ يا أخي؟ قال: لأننا نكون مع رسول الله ونحن والجنَّة كهاتين فإذا عافسنا

الأهل ننسى- سيدنا الصديق من شدَّة تواضعه قال: أنا كذلك يا أخي انطلق بنا إلى رسول الله "- كلَّماه، فقال عليه الصلاة والسلام.. الآن دققوا:

((أما نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا، أما أنتم يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم بها عندي، لصافحتكم الملائكة، ولزارتكم في بيوتكم))

[أخرجه مسلم عن حنظلة]

معنى ذلك أن مقام النبي عدم الانقطاع عن الله إطلاقاً، موصولٌ بالله دائماً، مقام المؤمنين ساعةٌ وساعة، الصدّيقون ثلاث وعشرون ساعة اتصال وساعة فتور، كلَّما قلت ساعات الاتصال زادت ساعات الفتور، لا أقول ساعات المعصية لأن المؤمن مستقيم.. إلا أنه ساعة إقبال وساعة فتور، ساعة وساعة، أما الأنبياء فاتصال دائم.

((أما نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا، أما أنتم يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم بها عندي، لصافحتكم الملائكة، ولزارتكم في بيوتكم))

[أخرجه مسلم عن حنظلة]

تنزل الرحمات على من كان في مجلس علم مع إخوةٍ مؤمنين :

يوجد استنباط آخر من هذا الحديث: أنك إذا كنت في مجلس علم مع إخوةٍ مؤمنين أطهار طيّبين مقبلين على الله عزَّ وجل فالرَّحمات تتنزَّل على المجلس لأنه:

((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

[أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

حفَّتهم الملائكة أي وفّقوا في أعمالهم، غشيتهم الرحمة أي شعروا بسعادةٍ لا توصف، نزلت عليهم السكينة أي الطمأنينة، سعادة، وطمأنينة، وتوفيق، هذا إذا جلست في بيتٍ من بيوت الله تدرس أو تتدارس كتاب الله، كما قال الله عزَّ وجل في الحديث القدسي:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحُق على المزُور أن يكرم الزائر))

[أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري]

العلم يحتاج إلى مداومة و مثابرة :

هناك ملاحظة أتمنَّى أن تكون واضحة لديكم: هناك أناسٌ يتعلَّمون العلم بشكلٍ عشوائي على الصُدَف، أي إنه حضرِ عقد قِران فيسمع كلمة من خطيب الحفل، هذه الكلمات وهذا الحضور المُتَقَطِّع هذا لا يصنع إيماناً، وأوضح مثل: لو أن إنساناً اقتنى مجلَّة طبيَّة، وقرأ مقالات طبيَّة، وله أصدقاء أطبَّاء هل يُصبحُ طبيباً؟ مستحيل، ما لم ينل الشهادة الثانوية بمجموع معيَّن، وما لم يدخل كليَّة الطب ويدرس في السنة الأولى علوم عامَّة؛ تشريح، وفيزيولوجيا، وعلم أمراض، وعلم أدوية، ثم يدرس سنتين أو ثلاثة تطبيقات عملية، لا يكون طبيباً، شهادة ثانوية بمجموع عال جداً، دراسة منهجية، كتب مقرَّرة، أساتذة كبار، امتحانات ليكون طبيباً، أما الثقافة العشوائية سمع خطبة في زمانه، حضر كتاباً فألقى الخطيب كلمة مؤثِّرة، حضر درس علم بزمانه، فهذا لا يصنع إيماناً، العلم يحتاج إلى مداومة، إلى مثابرة، إلى تراكم، القناعات إذا تراكمت ولَّدَتْ طاعات لله عزَّ وجل.

تقريباً ومن باب التوضيح افرض أن الشهوات وزنها خمسة كيلو- قوَّة- شهوة المرأة، شهوة المال، شهوة العلو في الأرض، هذه الشهوات قِوى فاعلة في الإنسان، وحضرت خطبة خمسة غرامات، الشهوات خمسة كيلو، خطبة ثانية عشرة غرامات، فليس من الممكن أن تستقيم حتى تصبح قناعاتك خمسة كيلو، تحرَّك الميزان، دخلت بصراع، أفعل لا أفعل، أفعل هذا، لا لن أفعل هذا، عندما تستوي قناعاتك مع شهواتك تدخل في الصراع الإيجابي، أما إذا كنت قد طلبت العلم طلباً كثيراً، وصار عندك قناعات عالية جداً، دخلت في الأعماق- أي لا تعصي الله لو قُطِّعْتَ إرباً إربا، لا تعصي الله ولو أُعطيت كل شيء- لو كانت الدروس طارئة وغير منتظمة، لقاءات غير محدَّدة، استماع نصف إصغاء، فهذا لا يصنع إيماناً قوياً يقف أمام الشهوات، الشهوات قِوى كبيرة جداً، مثلاً صخرة وزنها عشرة طن تسقط من السماء ما الذي يوقِفُها؟ هل يوقفها طبق ورق؟ لا، إنها أقوى من ذلك، فالقناعات هشَّة، مقاومة هشَّة، إيمان ضعيف، عدم يقين، هذا لا يحجز الإنسان عن شهواته، فلذلك العلم يحتاج إلى مداومة، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظنَّ أنه قد علِم فقد جهل..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

النبوَّة مقام معرفة أما الرسالة فمقام تبليغ :

النبوَّة مقام معرفة، أما الرسالة فمقام تبليغ، والنبي عليه الصلاة والسلام نبيٌّ، ورسولٌ، وسيّد الأنبياء، وسيد المرسلين، وسيد ولد آدم، وسيد المخلوقات أجمعين..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ)

تعلمون أنَّ إذا تفيد تحقُّق الوقوع، أما إنْ فتفيد احتمال الوقوع، والدليل قال تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

[سورة النصر: 1]

ما معنى إذا جاء نصر الله والفتح؟ أي أن نصر الله سيأتي لا محالة، مجيئه حَتْمِيٌّ، أما إذا قال الله عزَّ وجل:

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ)

[سورة الحجرات: 6]

فقد يأتي وقد لا يأتي، إن تفيد احتمال الوقوع بينما إذا تفيد تحقُّق الوقوع..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ)

يجب أن توازن بين امرأةٍ تابعةٍ لزوجها ولو كان كافراً، ولو كان فاسقاً، ولو كان منحرفاً، تقول: هكذا يريد زوجي ماذا أصنع أنا؟ وبين هذه النساء المؤمنات الطاهرات، اللواتي تركن أزواجهن والتحقن بالنبي عليه الصلاة والسلام.

استقلال المرأة في دينها و إيمانها عن زوجها :

أخوتنا الكرام، ينبغي أن تعلموا أن المرأة مساوية للرجل تماماً فيما يتعلّق بالدين، وهي مستقلّةٌ في إيمانها وفي دينها استقلالاً، وهي مساوية فيما يتعلّق بأمر إيمانها ودينها للرجل مساواة تامَّة، وهي مستقلّةٌ في أمر دينها وإيمانها عن زوجها، وأكبر دليل:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ)

[سورة التحريم 11]

الله جعل صدِّيقة عند أكفر كفَّار الأرض، قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

جعل زوجته صدِّيقة، وكان جبَّاراً طاغياً ومع ذلك لم يستطع أن يحملها على الكفر، لماذا أراد الله ذلك المثل؟ ليكون مثلاً للبشرية جمعاء، المرأة مستقلّةٌ في أمر دينها وإيمانها عن زوجها- لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق- هؤلاء النساء اللواتي تركن أزواجهن المشركين الكفَّار والتحقن بالنبي عليه الصلاة والسلام، فالمرأة حينما تقول: هكذا يريد زوجي، هذا كلام غير مقبول، وكم من زوجٍ كانت هدايته على يدِ زوجته، كم من زوجةٍ وقفت موقفاً حازماً أمام انحراف زوجها وفي النهاية حملته على طاعة الله،

فيجب أن نقضي على هذه التفرقة أن هذه امرأة، هذه نظرة جاهلية لأن الإسلام لم يفعل هذا، الإسلام عدَّ المرأة صنع الرجل، شقيقة الرجل، النساء شقائق الرجال، لها مهمَّة أخرى، بل إن امرأةً جاءت النبي عليه الصلاة والسلام قالت: " يا رسول الله ذهب الرجال بكل الخير، ماذا بقي لنا؟ قال عليه الصلاة والسلام: اعلمي أيتها المرأة - هذا كلام النبي ولا ينطق عن الهوى، ولا يجامل، ولا يحابي، إنه لا يتكلَّم إلا بالحق- قال: اعلمي أيتها المرأة وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعُّل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله ".

والجهاد كما تعلمون ذروة سنام الإسلام، أي إنَّ أعلى مرتبة في الإسلام الجهاد، والمرأة التي تُحسِنُ تبَعُّل زوجها كالمجاهدة في سبيل الله، هذا كلام النبي، وهذه امرأةٌ تركت زوجها لأنه كافر، ولأنه مشرك، والتحقت بالنبي عليه الصلاة والسلام، معنى ذلك أنها مستقلّةٌ في أمر دينها عن زوجها.

لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق :

مرَّة امرأة سألت أحد رجال الدين: إن زوجي يجبرني على أن أذهب معه إلى البحر، وأن أكون مع أصدقائه، قال لها هذا العالم: لا تطيعيه لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

لا تجد امرأة تقول: هكذا يريد زوجي، إذا أمركِ بالمعروف فعلى العين والرأس، أما إذا أمركِ بمعصية؛ أن تستقبلي أصدقاءه، أن تخرجي أمامهم، أن تكوني معه في انحرافاته، فلا تُعفَى المرأة من الحساب والعقاب إذا أطاعت زوجها في معصية، لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، سحرة فرعون قال لهم فرعون:

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)

[سورة طه: 71]

إلى آخر الآية.

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

[سورة طه: 72-73]

فالإنسان ينبغي ألا تأخذه في الله لومة لائم، ينبغي ألا يطيع مخلوقاً ويعصي الخالق.

ذكرت لكم مرَّةً كيف أن والي البصرة كان عنده الحسن البصري، وهو من كبار التابعين، وقد جاءه توجيهٌ من يزيد- الخليفة- وهذا التوجيه ربما لو نفَّذه لأغضب الله عزَّ وجل ورضي عنه يزيد، قال: ماذا أصنع؟ أخاف إن عصيت الأمر أن يغضب عليَّ يزيد، وأخاف إن أطعته أن يغضب عليَّ الله عزَّ وجل،

أجابه الحسن البصري إجابة تُكتَب بماء الذهب، قال: إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله.

وأنت قس على هذه القاعدة ألف موضوع، لا تُطِعْ مخلوقاً وتعصي الخالق، لأن الخالق يعصمك منه، لكن المخلوق لا يعصمك من الخالق، فما الذي يمنع الخلايا أن تنمو نمَّواً عشوائياً بلا سبب؟ شاب في مقتبل العمر في أي مكان في جسمه يمكن أن تنمو الخلايا نمّواً عشوائياً، هذا مرض ليس له دواء، ما الذي يمنع؟

مساواة المرأة للرجل في التكليف و التشريف و المسؤولية :

إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ)

المرأة مساويةٌ للرجل تماماً، مساوية للرجل تماماً في التكليف وفي التشريف وفي المسؤولية، لكن المرأة لها خصائص نفسية وجسمية واجتماعية، وللرجل خصائص نفسية وجسمية واجتماعية وعقلية، كل طرفٍ خصائصه كمالٌ في حَقّه، وقد ضربت على هذا أمثلة كثيرة ومنها: إن المركبة المُعَدَّة لنقل البضائع نقص مكان الركّاب كمالٌ فيها لأنها معدَّةٌ في الأصل لنقل البضائع، والمركبة المُعدَّة لنقل الركّاب نقص مكان البضائع كمالٌ فيها لأنها مُعدَّةٌ لنقل الركّاب، فما كل نقصٍ نقص، النقص هو الكمال، فالمرأة صُمِّمَت لتكون زوجة وأمّاً ترعى أولادها، فقد أعطاها الله من العاطفة الشيء الكثير، أعطاها القلب الكبير، أعطاها المشاعر المرهفة، أعطاها الحُبْ، أعطاها العطف، أعطاها الاهتمام، والرجل لأنه خُلِقَ ليكسب الرزق أعطاه الله ضعفاً في عواطفه ونماءً في عقله وملكاته، فصفات الرجل العقلية والجسمية والنفسية والاجتماعية كمالٌ فيه ومعينةٌ على أداء مهمَّته، وصفات المرأة الجسمية والعقلية والاجتماعية والنفسية كمالٌ فيها ومعينةٌ على أداء مهمَّتها، المرأة مساوية للرجل وأية نظرةٍ أخرى نظرة جاهلية الإسلام منها بريء.

فامرأةٌ جاءت النبي وهي تكره زوجها، قال: " لو تراجعيه ؟ فقالت له، ودققوا في قولها: " أتأمرني "، لأنه النبي، لو أمرها لنفَّذت، قال: " لا إنما أنا شفيع "، قالت له: " لا حاجة لي به "، فتركها على حرِّيتها. المرأة لها مكانة كبيرة جداً، وكلّما الإنسان ارتقى إيمانه يكرِّم المرأة، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام جعل الخيرية المطلقة في أن تكون خيّراً لأهلك، قال عليه الصلاة والسلام:

((خيرُكُم خيرُكُم لأهْلِهِ، وأنا خيرُكُم لأهْلِي))

[أخرجه الترمذي عن عائشة أم المؤمنين]

لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دينَ لمن لا عهد له :

إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ)

إلا أن النبي كان يمتحنها لعلَّها جاءت النبي كراهيةً لزوجها، لعلَّها شاءت أن تنتقل من مكانٍ إلى مكان، لعلَّها ولعلَّها، أما إذا أرادت بهجرتها الله والرسول والدار الآخرة فقد قبلها النبي وأكرمها أيما إكرام.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ)

يبايع فعل مضارع من بايَعَ، بايع أي تعاهد على أداء ما عليه، بايعته على كذا أي واثقته وعاهدته.. " ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دينَ لمن لا عهد له "، فالعهد هنا، هؤلاء المؤمنات بايَعْنَ رسول الله من دون أن يصافحهن، تقول السيدة عائشة: " والله ما مَسَّت يد النبي يدَ امرأةٍ منهن "، " إني لا أصافح النساء "، فالنبي قدوة، وأبعد الناس عن التأثُّر بالنساء هو رسول الله ومع ذلك ما مسَّت يده يد امرأةٍ قط، المبايعة إبرام العهد، عقد العهد على طاعة الله عزَّ وجل..

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: 10]

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أركان الدين :

الشيء المُلْفِتَ للنظر أن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية ذكر أركان الدين، ركن إيجابي وأركان سلبيَّة، فالإيجابي:

(أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا)

لأن الدين كلّه توحيد، والحقيقة أن الإنسان حينما يؤمن أن لهذا الكون خالقاً فهذا إيمان عادي جداً لا يقدِّم ولا يؤخِّر ولا يرفع، لو أن أهل الأرض جميعاً سألتهم إلا المكابرين، إلا قلَّة قليلة جداً جداً ممن ركبت رؤوسها، لو سألت أهل المشرق والمغرب: من خلق السموات والأرض؟ لقالوا: الله الذي خلقهن، حتى إن الذين يعبدون الأصنام يقولون:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

[سورة الزمر: 3]

فالإيمان بالله خالقاً هذا لا يقدِّم ولا يؤخِّر، هذا قاسم مشترك بين معظم البشر، ولكن الإيمان المعوّل عليه هو التوحيد، أن تؤمن أن الله خالق، هذا إيمان بالخالق، وفعَّال أي إله، أن تؤمن أنه في السماء إلهٌ وفي الأرض إله، وأن الأمر كلَّه بيد الله..

(بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[سورة يس: 83]

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: 2]

لن تستقيم على أمر الله إلا إذا آمنت به إلهاً فعَّالاً :

أن تؤمن أنه:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 26]

أن تؤمن أن الله:

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

[سورة الرعد: 41]

أن تؤمن:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

[سورة الرعد: 11]

أن تؤمن أنه:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

[سورة الأعراف: 54]

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

أنت لن تستقيم على أمره إلا إذا آمنت به إلهاً فعَّالاً، الأمور كلها بيده، أنت بشكل طبيعي في أي مكان أنت فيه تتجه وتعظِّم وتتقرَّب ممن تعتقد أن الأمر بيده، إنك تدخل إلى دائرة فيها مئة موظَّف، لا تبذل ماء وجهك ولا ترجو إلا لمن بيده حق التوقيع بالموافقة، مع الموافقة وقَّع لك، هذا الذي ترجوه، وهذا الذي تطرق بابه، وهذا الذي تسأله، وهذا الذي قد تتضعضع أمامه، أما أن تسأل حاجباً، أن تبذل ماء وجهك أمام موظَّف ليس في إمكانه أن يوقِّع لك فهذا نوع من الجنون، أنت إذا علمت أن الله بيده كل شيء، أدق شيء وأكبر شيء، سعة الشريان في قلبك بيد الله، يضيق ويتسع، فأي خلية في جسمك وأي قطرة في دمك بيد الله عزَّ وجل، ووسع الدائرة كل ما فوق ذلك ممن حولك، ممن فوقك، ممن تحتك،

الكون كله؛ السموات والأرض والمجرَّات، والأمطار والرياح، والرزق، والأقوياء والضعفاء كلُّهم بيد الله، إذا آمنت أن الله بيده الأمر كلُّه عندئذٍ تعبده وتتوكّل عليه، فلذلك جاء في الآية أن أعظم شيء في الإيمان..

(أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا)

أنت بحاجة ماسَّة إلى طبيب، فإذا اتجهت إلى المستشفى وجدت الطبيب، أما إذا اتجهت إلى طريقٍ معاكس ففقدت الطبيب، فالإنسان لا يمكن أن يرحمه الله إلا إذا وَحَّده، إذا أشرك انتهى.

من يتجه إلى الله عز وجل فكل شيء يُحل :

كنت أضرب أمثلة كثيرة: أنه من الممكن لي أن أركب القطار المتجه إلى حلب، ولي فيها مبلغٌ ضخمٌ جداً، يمكن أن أرتكب مجموعة مخالفات في القطار، أما القطار فيتجه نحو حلب، وسأصلها في الوقت المناسب، وسأقبض المبلغ، قد أجلس في قاطرة أو مقطورة من الدرجة الثالثة وبطاقتي من الدرجة الأولى، هذا خطأ، وقد أجلس بعكس اتجاه القطار فأصاب بالدوار، هذا خطأ ثان، وقد أجلس مع شبابٍ غير منضبطين فأنزعج من صحبتهم، هذا خطأ ثالث، وقد أتلوّى جوعاً ولا علم لي أن في القطار مطعماً، هذا خطأ رابع، أما القطار فيسير باتجاه حلب وسأقبض المبلغ، أما الخطأ الذي لا يغتفر فأن أركب قطار درعا، هذا الشرك.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

[سورة النساء: 84]

أنت حينما تتوجَّه إلى الله كل شيءٍ يُحَل، أما حينما تتوجَّه إلى غيره فلا شيء يُحَل أبداً، انتهى كل شيء، الطريق مسدود، عبد فقير ضعيف لئيم جاهل تتجه إليه، تمحضه ودَّك، تمحضه اهتمامك، تبذل ماء وجهك أمامه وهو ضعيفٌ مثلك، هذه هي المشكلة.

التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً :

لذلك:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا)

وَحَّدن الله، لا معبود بحقٍّ إلا الله، لا إله إلا الله، لا معطي ولا مانع إلا الله، لا معزَّ ولا مذلَّ إلا الله، لا خافض ولا رافع الله، لا قابض ولا باسط إلا الله، لا رازق إلا الله، لا حافظ إلا الله، إذا آمنت هكذا فهذا هو الإيمان، لذلك التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً من دون استثناء.

الناس يؤخذون من مأخذين؛ المال و المرأة :

إذاً أول شيء بالإيمان عدم الشرك، التوحيد.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء: 213]

(وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ)

شيء يلفت النظر السرقة والزنا، السرقة للمال، والزنا شهوة، شهوتان تُحَرِّكان العالم كله، شهوة المال، وشهوة المرأة، وحينما يعافى الإنسان من هاتين الشهوتين، وحينما يُحَصِّن نفسه من هاتين الشهوتين، فقد ملك تسعة أعشار دينه، نقطتا ضعفٍ في الإنسان هما: المال والمرأة، فإذا حصَّن نفسه منهما، يحصَّن موضوع المال بالكسب الحلال، ويحصَّن موضوع المرأة بغضِّ البصر والبعد عن كل المزالق؛ لا خلوة، ولا مشي في طريق موبوء، ولا صحبة الأراذل، ولا مطالعة أدب رخيص، ولا متابعة عمل فنّي رخيص، ولا إطلاق بصر، إذا حفظت نفسك من موضوع المال الحرام والمرأة الحرام أحرزت تسعة أعشار دينك، فالناس يؤخذون من مأخذين، الكبار الكُهول العريقون في جمع المال يؤخذون من كسب المال، والشباب يؤخذون من المرأة، فالشاب أكبر خطر عنده المرأة، والذي تزوّج وانتهى أمره وقَنِعَ بزوجته هذا عنده خطر ثان وهو كسب المال، لذلك لو أخذت مئة حكمٍ شرعي لا أبالغ إذا قلت إن تسعة أعشار الأحكام الشرعية متعلّقة بالمال والنساء، اقرأ القرآن كلّه، أحكام كسب المال وإنفاق المال، أحكام المرأة؛ زواج، طلاق، غض بصر، تسعة أعشار الأحكام الفقهية متعلقة بالمال والنساء، هنا الآية:

(عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ)

أنواع الشرك :

قبل أن نتابع هذا الموضوع:

(عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا)

يوجد شرك جلي، وشرك خفي، الجلي اذهب إلى الهند تجدهم يعبدون بوذا من دون الله، إله صنم كبير في كل معابدهم، هذا اسمه شرك جلي، أما في بلاد المسلمين فلا تجد الشرك الجلي، لكن تجد الشرك الخفي، أخوف ما أخاف على أمّتي الشرك الخفي، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً

ولكن شهوة خفيَّة وأعمالٌ لغير الله، الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحبَّ على جور، وأن تبغض على عدل.

إنسان مستقيم نصحك فغضبت منه، إنسان منحرف أعطاك مالاً كثيراً فأحببته، إن أحببت منحرفاً على ماله فقد أشركت، وإن أبغضت ناصحاً على صوابه فقد أشركت، في الحالة الأولى أشركت هذا الإنسان الذي أعطاك من ماله وهو منحرف فأحببته، في الحالة الثانية عندما رفضت النصيحة أشركت نفسك مع الله..

(عَلَى أنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا)

ولا شيء قليل أبداً، لهذا قال الله عزَّ وجل:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

(وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ)

طبعاً العين تزني وزناها النظر، الزنا مستويات- ألا يسرقن- ترك دانقٍ من حرام خيرٌ من ثمانين حجَّةً بعد الإسلام..

(وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ)

لا في بطونهن، ولا بعد ولادتهن.

الفتنة أشد من القتل :

هناك معنى آخر حينما قال الله عزَّ وجل:

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

[سورة البقرة:191]

قد يقتل الطفل في بطن أمِّه بالإجهاض، وقد يقتل بعد الولادة بالوأدِ، وقد يُقتَل الطفل حينما نبعده عن طريق الحق وندفعه إلى الباطل لأن الفتنة أشد من القتل..

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

[سورة التكوير:8-9]

الموءودة تدخل الجنَّة لأنها قُتِلت قبل التكليف، أما الفتاة الشابَّة التي أطلق أبوها لها العِنان فخرجت كما تشاء، والتقت بمن تشاء، وسهرت مع من تشاء، وانحرفت كما تشاء، فهذه الفتاة التي أطلقها أبوها ولم يؤدِّبها بأدب الإسلام، ولم يحملها على طاعة الواحد الديَّان، هذا الأب تُدْخِله قبلها إلى النار..

(وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ)

القتل في البطن إجهاض، وبعد الولادة وأد، وحينما يكبر الابن أو البنت ولا يوجِّهُهُ الأبُ أو الأمُ فينحرف انحرافاً خطيراً هذا أشدُّ من القتل لقوله تعالى:

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

[سورة البقرة:191]

(وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ)

المرأة في الجاهلية كانت تحمل ابناً وتنسبه لزوجها وهو ليس منه، تحمله بيديها.

(بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ)

أي الزنا.

معصية رسول الله مقيَّدة بالمعروف لأنه لا ينطق عن الهوى :

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

المعروف هو الشرع الإلهي، المعروف هو الدين، المعروف هو العمل الصالح، المعروف ما أقرَّته الفطرة، فالمعصية معصية رسول الله مقيَّدة بالمعروف لأنه.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم : 3-4]

أقواله تشريع، أفعاله تشريع، إقراره تشريع، أحواله تشريع.

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

المعصية في المعروف، أما لو أن النبي أكل طعاماً معيناً وأكل مؤمن طعاماً آخر فهذه ليست معصية في معروف، فقد تجد إنساناً قد يكون مزاجه أو جسمه لا يتناسب مع الطعام، قد لا يحتمل الدهن مثلاً، النبي أكل الدُهن، فإذا إنسان لم يأكل الدهن يكون قد عصى النبي؟ لا، المعصية هنا المقصود بها في معروف، فيما جاء به من الشرع الحكيم، فيما جاء به من السنَّة المطهَّرة، فيما جاء به من الإقرار، مما أقرَّه أصحابه عليه..

دين المرأة تابعٌ لها ومن اختيارها ومشيئتها مستقلَّةً عن مشيئة زوجها :

(فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أي أن المرأة:

((إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا : ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))

[مسند أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

طاعة زوجها ربع دينها، فهؤلاء المؤمنات بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلّم..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أرأيتم إلى تكريمٍ يفوق هذا التكريم؟ أرأيتم إلى أن المرأة صنو الرجل ؟ أرأيتم إلى أن دين المرأة تابعٌ لها ومن اختيارها، ومشيئتها مستقلّةٌ عن مشيئة زوجها.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

هذا اسمه في البلاغة رَدُّ العجْز على الصَدْر، الآية الأولى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ)

الفارق بين المؤمن و الكافر أن المؤمن يدخل الآخرة في حساباته و الكافر لا يدخلها :

يقول الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

لا تتولّى إنساناً غضب الله عليه، لا تقم معه علاقة، لا تمحضه ودَّك، لا تقم معه علاقةً حميمة، لا تزوِّجه لأنه من نوع آخر، من طينة أخرى، لا تُخالطه مخالطة حميمة.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أي أن الآخرة ليست في حساباتهم، الحقيقة يوجد فارق كبير جداً بين المؤمن والكافر، أبرز فارق بينهما أن المؤمن في كل حركةٍ وسكنةٍ، وعطاءٍ ومنعٍ، وغضبٍ ورضا، وصلةٍ وقطعٍ، في كل أحواله يُدخل الآخرة في حساباته، ماذا سأقول لله إن فعلت كذا؟ يسعى للآخرة، أما الكافر فالدنيا هي كل همِّه، مبلغ علمه، منتهى آماله، محطُّ رحاله، الدنيا هي كل شيء ولا شيء غير الدنيا.

يقين الكافر أن الذي يموت لا يعود :

لذلك قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ)

الآخرة ليست في حساباتهم، لا يريدونها، لا يرجون رحمة الله، لا يسعون إليها.

(كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ)

الذي يموت هل يعود إلى الدنيا؟ مستحيل، فالكافر توجد عنده يقينيات وأحد يقينيات الكفَّار أنه إذا مات الواحد منهم لا يرجع، انتهى، فكما أن هذا الكافر موقن أن الذي يموت لا يعود، كذلك هؤلاء الذين:

(غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ)

أن يرجعوا.

أيها الأخوة الكرام، هذه سورة الممتحنة فيها مبادئ كبيرة جداً متعلّقة بالإيمان، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع بها، وأن نعمل من خلال أحكامها وتوجيهاتها، لأن القرآن ما لم يُعمل به فلا يرقىَ بالإنسان إلى الله عزَّ وجل..

((وربَ تال للقرآن و القرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

((ما آمن بالقرآن من استحل محارمه))

[الترمذي عن صهيب]

وعلامة إيمانك أنك تسعى لتطبيق ما جاء في هذا الكتاب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصف 061 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1- 4

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-08-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الصف.

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَبّحَ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

سَبّحَ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

1 ـ معنى التسبيح:

(سَبّحَ) كما يقول العلماء: نَزّهَ ومَجّدَ، وبعض المفسرين يضيفون إلى التنزيه والتمجيد الخضوع، لأن الإنسان حينما يعظم الله عزّ وجل لابدّ من أن يخضع له، بل إن الخضوع له علامة تعظيمه، فمن عَظّمَهُ بلسانه، ولم يخضع لأمره فما عظّمه حقيقةً، فمعنى سبّح أي نزّهه عن كل نقص، ومجده، ونسب له كل كمال، ثم خضع له، هذا معنى: سَبّحَ بالمعنى الدقيق: نزه ومجد وخضع، بل إن الخضوع علامة التنزيه والتعظيم، فمن ادعى أنه يسبّح الله عزّ وجل، ولم يخضع لأمره ففي تسبيحه خلل، أو في تسبيحه كذب، لأن الله سبحانه وتعالى أهل التقوى وأهل المغفرة.

2 ـ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

أما السماوات والأرض فهو مصطلحٌ القرآني يعني الكون، والكون يعني ما سوى الله، وكل المخلوقات تُنَزّهُ، وتمجد، وتخضع لله عزّ وجل، أما الإنسان فقد أعطي حرية الاختيار:

(إِنّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: الآية 72)

الإنسان مخلوق مكرّم مخيّر:

الإنسان مخيّر، لذلك يخضع أو لا يخضع، وبقية المخلوقات خاضعةً حكماً لله عزّ وجل، أما الإنسان فقد أعطي حرية الاختيار، فلما قبل حمل الأمانة كرّمه الله عزّ وجل:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: الآية 13)

فالإنسان مخلوقٌ، والإنسان مخلوقٌ مكرّم، والإنسان مخلوقٌ مكلّف، مخلوق أوّل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

المخلوق المُكَرّم.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء)

إذا كان هناك ألف نوع من الورود والأزهار هذه لمن ؟ هذه لا تؤكل، ولكنها يستمتع بمنظرها وبرائحتها، لمَن خُلقت ؟ أنواع الفواكه التي لا تعد ولا تحصى لمن خُلقت ؟ هذه الأرض التي هي أمينة على كل حاجاتنا لمن خُلقت ؟ هذا معنى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

والإنسان هو المخلوق المُكلّف، لقوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

فكل ما في الكون بسماواته وأرضه يسبّح لله تسبيح تنزيه، وتسبيح تمجيد، وتسبيح خضوع إلا الإنسان، الذي هو سيّدُ المخلوقات، الذي سخرت له السماوات والأرض، هذا الإنسان أعطي حرية الاختيار، فإما أن يؤدي الأمانة التي حملها، وإما أن يخون الأمانة، وهو حينما قبل حمل الأمانة لم يكن ظلوما جهولا:

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب)

هل كان ظلوما جهولا بحمل الأمانة ؟ الجواب: لا، أما حينما حملها وخانها:

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

حينما قبلها لم يكن ظلوماً جهولاً، بل كان طموحاً، فلم خانها كان ظلوماً جهولاً.

أيها الإخوة الكرام، مما يلفت النظر في القرآن الكريم قوله تعالى:

(إنْ هُمْ)

الكفار.

(إلّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أضَلّ سَبِيلًا)

(سورة الفرقان: الآية 44)

إنْ هُمْ إلّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أضَلّ سَبِيلًا

لقد حار المفسرون في معنى قوله تعالى:

(إنْ هُمْ إلّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أضَلّ سَبِيلًا)

أي بهائم، يعيشون ليأكلوا، يأكلون ويتمتّعون كما تأكل الأنعام.

ما معنى قوله تعالى:

(بَلْ هُمْ أضَلّ سَبِيلًا)

لأن أشد الوحوش شراسة تنتهي وحشيته حينما يملأ بطنه، فإذا ملأ بطنه لا يعتدي على أحد، فقد تمر أمام الوحش الكاسر فيكون أضعف الحيوانات، حينما يكون شبعان لا يعتدي على أحد، أما الإنسان لو وفرت له كل حاجاته، حينما يبتعد عن الله عزّ وجل يستطيل على خلقه حتى يغدو الشر عنده هدفاً، فهذه القنبلة التي ألقيت على هيروشيما، وقتلت ثلاثمئة ألف إنسان في أربع ثوانٍ، هذه وحشيةٌ ما بعدها وحشية، الأسلحة الجرثومية، الأسلحة الكيماوية، الأسلحة النووية، الآن هناك أسلحة إذا ألقيت قنبلة على مدينة لا تقتل إلا البشر، وتبقى الأبنية كما هي، من أجل أن نأخذ المدينة غنيمة كما هي دون هدمِها، فحينما يبتعد الإنسان عن الله عزّ وجل يغدو شرّ مخلوقٍ على وجه الأرض.

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أوْلَئِكَ هُمْ شَرّ الْبَرِيّةِ)

لكن:

(إنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ أوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيّةِ)

(سورة البينة)

فالإنسان إما أن يكون فوق الملائكة المقرّبين، وإما أن يكون في أسفل السافلين.

(بَلْ هُمْ أضَلّ سَبِيلًا)

أي أن وحشية الإنسان تفوق أشدّ الوحوش شراسة، هذا إذا ابتعد عن الله.

ومعنى:

(بَلْ هُمْ أضَلّ سَبِيلًا)

أن الحيوان حينما يموت ينتهي عنده كل شيء، لا حساب ولا عذاب، ولكن الإنسان حينما يموت تبدأ متاعبه، فهو محاسبٌ عن كل كلمة، وعن كل حركة، وعن كل ابتسامة، وعن كل وصل، وعن كل قطْع، وعن كل غضب، وعن كل رضا، وعن كل عطاء، وعن كل منع، أضل من الحيوانات لأنهم مكلّفون وسيحاسبون، أضل من الحيوانات لأن وحشية الإنسان تفوق حاجاته التي يحتاجها.

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

3 ـ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

عزيزٌ ؛ لا يُنال جانبه، عزيزٌ فردٌ لا شريك له، عزيزٌ يستحيل أن تحيط به، عزيزٌ يحتاجه كل شيء في كل شيء، فردٌ لا شريك له، يحتاجه كل شيء في كل شيء، لا يحاطُ به، بعيدُ المَنَال.

حكيم ؛ كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق.

ليس هناك شر مطلق:

أيها الإخوة، دققوا فيما سأقول: الشر المطلق ؛ أي أن الشر للشر لا وجود له في الكون، بل إن الشر المطلق يتناقض مع وجود الله، إما أن تؤمن بأن لهذا الكون إلهاً رحيماً، حكيماً، عادلاً، وإما أن تؤمن بالشر المُطْلَق، الشر موجود، لكن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ))

[مسلم عن علي]

الشر ليس إيجابياً، فحينما تضع مادة سُكَّرِيَّة في محرّك سيارة يصيبه الخلل، وتحتاج إلى أن إصلاحه من جديد، وأن تدفع ثلاثين ألف ليرة لكمية سكر وضعت في المحرك، السكر مادة أساسية، مادة مفيدة جداً، ونحن في أمسّ الحاجة إليها، والمحرك مادة أساسية في حياتنا، من أين جاء الشر ؟ من سوء الاستعمال، النفط مادة أساسية، ضع قطرتين منه في الطعام، انتهى الطعام، وتلقيه في القمامة، النفط مادة أساسية، والطعام مادة أساسية، فالشر لا وجود له إلا بشكلٍ طارئ من سوء الاستعمال، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ))

إن مركبة صُنِعَتْ في أرقى معمل، وفيها كل وسائل الراحة، وفيها جمال، وفيها أناقة، فيها قوة ومتانة، أما حينما يقودها إنسان ثمل سكران، وينزل بها في الوادي، وتصبح بشكل لا يحتمل، هذا شر، مَن خلق

هذا الشر ؟ سوء استعمال، أن يقود إنسان سيارة وهو سكران، هذه هي النهاية، ولا يوجد معمل في الأرض يصنعها هكذا، المعامل تصنع سيارة جميلة متماسكة أنيقة.. أما حينما ترى السيارة قد تدهورت، ولها منظر لا يحتمل ليس هناك في العالم معمل صنعها بهذه الطريقة، حينما أسيء استخدامها كانت بهذا الشكل، فأصل الشر من مخالفة منهج الله، ومخالفة التعليمات.

أوضح مثلٍ: ثلاث مواد بيضاء مسحوقة، السكر والملح ومسحوق التنظيف، لو وضعت السُكّر في الطبخ فإنه لا يؤكل، لو وضعت الملح في الحلويات لم تُؤكل، لو وضعت مسحوق التنظيف فيهما فكلاهما لا يُؤكلان، هذه ثلاث مواد أساسية، إذاً من أين جاء الشر ؟ من سوء الاستعمال، من الجهل، وما من مصيبةٍ في الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، انتهى الأمر، هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام منزّهاً ربّه:

((وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ))

أما إذا قلت في عقائد المسلم: آمنت بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره و شره، معنى ذلك هذا هو الشر النسبي الذي نراه نحن شراً، وهو خيرٌ مطلق:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)

(سورة النور: الآية 11)

الشّرّ مُوظفٌ للخير:

الحقيقة أن كل شرٍ تتصوره شراً هو خيرٌ مطلق، لكن شر بالنسبة لإنسان محدود الأفُق، فلو ركِب مؤمنٌ مركبة تدهورت به فأصيب بجرح عميق في وسط جسمه، وكسر في حوضه، الطبيب يجري عملية جراحية لترميم الوسط، وهو يفتح البطن وصل إلى الكُلية، فرأى فيها ورماً خبيثاً في بدايته، وهذا الورم الخبيث لا يأخذ أبعاده إلا بعد عشر سنوات، وهو قاتل، أما في بداياته فعلاجه سهلٌ جداً، لأن الكُلية لو استئصل نصفها لبقي الإنسان حيّا، فيما يبدو أنه وقع حادث، أما حينما أردنا أن نضمِّدَ الجراح، وأن ننظف الجراح وصلنا إلى الكلية، فإذا فيها ورمٌ خبيث، استئصل، فنجا هذا الإنسان من هذا المرض القاتل، فهذا الحادث خير أم شر ؟ ظهر أنه خير، ويمكن أن تقيس هذا على كل المصائب، كإنسان عنده مزرعة يمكن أن يضمنها بخمسمئة ألف، أتاها يوم الحصاد فإذا هي خاويةٌ على عروشها:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(19)فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)

(سورة القلم)

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ(26)بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(27)قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ(28)قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

قال تعالى:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم: الآية 33)

بسبب هذه الخسارة الكبيرة رجعوا إلى الله، وتابوا إليه، واصطلحوا معه، فلما اصطلحوا معه عوّضهم عن خسارتهم أضعافاً مضاعفة، فهذا المحصول المدمّر خير أم شر ؟ إنه خير، يجب أن نؤمن أن الشر الذي يفعله الإنسان يوظِّفُهُ الله عزّ وجل للخير المطلق.

ذهبت امرأة لتفحص صدرها في مستشفى، الموظّف أهمل، فأعطى قريبها نتيجة امرأة ثانية مصابة بالسل، أليس هذا خطأ كبيرا ؟ أن تقدِّم لإنسان صحيح ما يفيد أنه مريض بمرض عضال ؟ هذه المرأة بقيت تبكي، وتبكي إلى أن هُدِيَتْ إلى أن تصطلح مع الله، وأن تتوب إليه، وأن تعود إليه، وأن تؤدي الصلوات، وأن تتحجّب، ثم تبيّن أن الخطأ من الموظف، وهي سليمة الصدر ليس فيها فيها شيء، فهذا الخطأ الذي فعله الموظّف خطأ وشر ؟ كيف وظفه الله عزّ وجل للخير ؟ كل أخطاء البشر توظّف للخير، لو سألتموني: ما الدليل ؟ قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام)

قال تعالى:

(إِنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص)

شرير..

(وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

هذا الشر ؛ شر فرعون وظفه الله عزّ وجل لخير المستضعفين:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ)

(سورة القصص)

فإذا رجعوا، واصطلحوا مكّناهم، وقوّيناهم على فرعون ليتوب ثانية على أيديهم.

(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

هذه سنة الله في خلقه.

" إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني ".

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(129))

بشكلٍ ملّخص: الشر المطلق لا وجود له في الكون، بل إن الشر المطلق يتناقض مع وجود الله.

الشرُّ النسبي والشر المطلق:

ما الشر المطلق ؟ النسبي أن تأتي بالمبضع، وأن تفتح البطن، وأن يخرج الدم غزيراً، وأن تغلق هذه الأوعية والشرايين، وأن تصل إلى الزائدة فتستأصلها، لأنه لابدّ من استئصالها، إن آلامها لا تحتمل، وتصبح عندئذٍ خطراً على حياة الإنسان، فتح البطن، وانهمار الدم، واستئصال الزائدة، شرٌ مطلقٌ أم نسبي ؟ نسبي، أما لو جاء إنسان، وبقر بطن إنسان بلا سبب، نقول: هذا الشر مطلق، بالمعنى التوضيحي، فحينما أفتح البطن لأستأصل ورماً خبيثاً، أو لأستأصل زائدةً ملتهبة، فتح البطن لا يسمى شراً، يسمى شرّا نسبيًا موظفًا للخير، أما حينما أفعل الشر للشر فهذا اسمه الشر المطلق، وهذا لا وجود له في الكون، لأنه يتناقض مع وجود الله، هكذا الإيمان، لذلك:

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران: الآية 154)

بعض المؤمنين يظن بالله غير الحق ظن الجاهلية، الله جلّ جلاله كماله مطلق:

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

هذا الكلام حول كلمة الحكيم، أي الشيء المناسب، في الوقت المناسب، بالقدر المناسب، بالأسلوب المناسب، ومعنى الحكيم: أن كل شيءٍ وقع لابدّ من أن يقع، ولو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله، من هنا قال بعض الأئمة: **" ليس في الإمكان أبدع مما كان "، أو " ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني "**، وحسن الظن بالله ثمن الجنة، ونحن في الدنيا، و فيها شر، وهذا الشر نسبي، وهذا الشر موظّف للخير، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

أيها الإخوة الكرام، لو أحصيت المؤمنين في الأرض، ولا أبالغ لوجدت تسعة أعشارهم اصطلحوا مع الله على إثر مصيبةٍ نزلت بهم، فهل تُعَدُّ المصيبة شراً ؟

أعرف رجلاً سمعت قصته في قطرٍ آخر، هو رجل متفلِّت، منغمس في المعاصي كلها، لم يُدْخِل الآخرة في حساباته إطلاقاً، عنده بنتٌ صغيرة أخذت جزءًا من عقله من شدة حبه لها، أصيبت بمرضٍ خبيثٍ في دمها، انقلبت حياته جحيماً، لم يدَعْ طبيباً إلا وعالجها على يديه، لم يدع بلداً إلا وذهب إليه، إلى أن اضطر إلى بيع بيته، والسفر إلى بلدٍ أجنبي بُغْيَة معالجتها، فجأةً خطر في باله لعل الله يشفيها لهم إذا تاب هو وزوجته، فاتفق مع زوجته على التوبة لله عزّ وجل، بدءا يصليان، وحجّب زوجته، واصطلحا مع الله، وهذا المرض تراجع شيئاً فشيئاً إلى أن عوفيت ابنته تماماً، فهذا الإنسان كان متفلتاً، كان شارداً، كان في طريق جهنم، كان هالكاً في الدنيا والآخرة، هذا المرض العُضال الذي أصاب ابنته

أعاده إلى الله، وحمله على التوبة، وجعله يصطلح مع الله، وذاق طعم القُرب، فهل يعد هذا المرض شراً مطلقاً أم شراً نسبياً ؟ شر نسبي.

فيا أيها الإخوة، حينما قال الله عزّ وجل تعقيباً على قصة أصحاب الجنة:

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ(28)قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

(سورة القلم)

قال تعالى:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم: الآية 33)

هذه طبيعته، وهذه بواعثه، وهذه أهدافه، العذاب من أجل الخير المُطْلَق، العذاب شرٌ نسبي من أجل الخير المطلق، لكن لو أن أبا شدّد على ابنه في سنيّ الدراسة، إلى أن نال أعلى الشهادات، وعاش حياةً كريمةً مريحةً ذات دخلٍ كبير، ألا يترحّم هذا الابن على أبيه ملايين المرات على أنه ضربه في سن الدراسة، وضيّق عليه، وألزمه البيت، وتابع دراسته، وهكذا، فلذلك الشر المطلق لا وجود له، والشر النسبي موظفٌ للخير المطلق، هذا معنى (حكيم).

إذاً:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

الآن الخطاب للمؤمنين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

(سورة الصف)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ

1 ـ البيان من خصائص الإنسان:

ذكرت لكم من قبل أن الجماد شيء يشغل حَيّزاً له وزن، وله طول وعرض وارتفاع، أبعاد ثلاثة، وله وزن، ويشغل حيزاً، هذا هو الجماد، أما النبات فهو شيءٌ له أبعاد ثلاثة، ويشغل حيزاً، لكنه ينمو، هذا هو الفرق الأول، الحيوان شيءٌ له أبعاد ثلاثة ووزن، وينمو، ويتحرّك، الإنسان شيءٌ يشغل حيزاً، وله أبعادٌ ثلاثة، وله وزن، وينمو، ويتحرّك، ويفكر، وينْطِق، الله عزّ وجل اختص الإنسان بالبيان، قال تعالى:

(الرَّحْمَنُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآَنَ(2)خَلَقَ الْإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

علّمه البيان.. ينطق، يعبر عن مشاعره، يعبر عن أفكاره، يعبر عن حاجاته، بلسانه أو بقلمه، ويستمع إلى أفكار الآخرين ومشاعرهم بأذنه، أو يبصرهم بعينه، يسمع أو يقرأ، ينطق أو يكتب، هذه هي اللغة.. القدرة على التعبير عن الأفكار والمشاعر تعبيراً شفهياً وكتابياً، والقدرة على فهم كلام الآخرين فهماً شفهياً وفهماً مكتوباً، هذه هي اللغة، هذه اللغة مما اختص الله بها بني البشر:

(الرَّحْمَنُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الْإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

تصوّر مجتمعا ليس فيه لغة، وأردنا أن نمنع التجول، كيف نوصِل لهم ذلك ؟ تحتاج لكل مواطن إلى شرطي يدفعه إلى البيت، أما البلاغ فيُلْقى في خمس ثوان لا تجد في البلاد إنساناً يمشي، أداة اتصال راقية جداً، أما اللغة المكتوبة فهي أرقى بكثير، اللغة المقروءة نستفيد منها في قراءاتنا، أما المكتوبة فتنقل الثقافة من جيل إلى جيل، فالإمام القُرْطُبي مات قبل ألف عام، وتفسيره بين أيدينا، والغزالي ألف كتابه إحياء علوم الدين، هو مات قبل أقلّ من ذلك، وكتابه الإحياء بين أيدنا، هؤلاء العلماء الكبار الذي تركوا آثارا كبيرة جداً، آثارهم بين أيدينا نستفيد منها، فبالكتابة تنتقل المعارف والثقافات من جيلٍ إلى جيل، وبالترجمة من تنتقل أمةٍ إلى أمة، وهناك كتب عالمية أُلِفَت باللغة الإنكليزية مترجمة إلى معظم لغات العالم، وتدرّس في كل الجامعات، لذلك قال الله عزّ وجل:

(الرَّحْمَنُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الْإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

2 ـ قد تكون اللغة أداة تدمير:

من أخص خصائص الإنسان اللغة، فما أصل اللغة ؟ أن تعبّر بها عن واقع، فإن لم تعبر بها عن واقع فقد خنت هذه الأمانة، كما لو أوهمت إنساناً بشيءٍ لا وجود له، هذا هو الكذب، فكما أن اللغة من أخص خصائص الإنسان، ومن أرقى وسائل البيان، في الوقت نفسه تنقلب اللغة إلى أبشع أداةٍ للتضليل، والغُرْمِ بالغُنْمِ، كما أنها ميزةٌ رائعة لبني الإنسان يتواصلون بها في أفكارهم، ومشاعرهم، وفي ثقافاتهم، ومعارفهم، في الوقت نفسه حينما لا تفعل ما لا تقول تكون أكبر ضالٍ مضلٍ في بني البشر، تقول شيئاً وتفعل غيره.

3 ـ الأنبياء جاءوا بالكلمة:

بماذا جاء الأنبياء ؟ الأنبياء جاءوا بالكلمة، الآن هناك حضارات مادية، يقولون لك: صواريخ، وأقمار صناعية، وقنابل عنقودية، وقنابل ذكية، وأسلحة كيماوية، وأسلحة جرثومية، وقنبلة نووية، وحاملات

نفط تحمل مليون طن، فالحضارة المادية جاءت بمنجزات مُذهِلة، نقلوا الصورة، ونقلوا الرسالة، ونقلوا عبر الأقمار الصناعية، وصار العالم كلّه قرية صغيرة، وطائرات عملاقة تحمل ستمئة وخمسين راكبا، أو سبعمئة راكب، وصار شيئا لا يكاد يُصدّق.

الأنبياء الذين هم رُسُل الله عزّ وجل بماذا جاءوا ؟ جاءوا بالكلمة، كلمةٌ أسعدت الأمم، كلمة نقلت رعاة الغنم فصاروا قادة الأمم، وأساس الكلمة الصدق، أن تعبّر عن واقع، فإن لم تُعَبّر عن واقع فقد أصبحت الكلمة ضالّة مضلّة، لذلك الآية دقيقة جداً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

4 ـ الكذب يتناقض مع هويّة الإنسان:

إن قلت عن شيءٍ فعلته في الماضي، ولم تفعله فهذا كَذِب، وإن قلت عن شيءٍ ستفعله في المستقبل، ولم تفعله فهذا إخْلاف، فالكذب في الماضي، والإخلاف في المستقبل، إن قلت كلاماً ينطبق على الواقع فهذا صدق إخباري، وإن قلت كلاماً فعلته في المستقبل فهذا صدقٌ إخلاصي، أي أنت قلت: أفعل كذا وفعلت كذا، أنت مخلصٌ لكلمتك، إذاً موضوع:

(لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

كما قال عليه الصلاة والسلام:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

الكذب يتناقض مع هويّة الإنسان، كَرّمه باللغة، واللغة ينبغي أن تعبّر عن واقع، أن تعبّر عن واقعٍ ماضٍ أو مستقبلٍ، فإن لم تعبّر عن ذلك فهو الكذب، وهو من أسوأ خصائص الإنسان.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

لذلك في الأرض آلاف الكُتّاب الأخلاقيين، وآلاف المصلحين الاجتماعيين، وآلاف المربين، وفي الأرض أنبياء أرسلهم الله للأمم، لماذا فعل لأنبياء ما يُشْبه المعجزات، ولم يفعل كل المصلحين ما فعله نبيٌّ واحد ؟ لأن النبي فعل ما قاله، ولا تجدُ مسافة بين أقواله وأفعاله..

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

1 ـ المقت:

المقت أيها الإخوة ليس هو البغضاء، إنه أشدُّ أنواع البغضاء، أي إذا لم يفعل الإنسان ما قاله بلسانه مَقَتَهُ الله أشد المقت، لأنه تعامل مع أوهام، كان من الممكن أن يتعامل مع وقائع، ومع أشياء دسمة، وأشياء نافعة، إنسان اكتفى أن يقول: أنا معي ألف مليون، وليس معه ثمن رغيف خبز، فرح بهذه الكلمات الفارغة، هذه لا تسمن ولا تغني من جوع، أما إذا عمل عملاً حقيقياً، وشَكّل ثروة كبيرة فإن هذا شيءٌ آخر، فالذي يتعامل مع الكلمات الفارغة الجوفاء الكاذبة المزوّرة، هذا إنسان وقع في وهمٍ كبير، وقع في وهمٍ أنه مؤمن، وهو ليس كذلك، هذا من أخطر ما يُصيب الإنسان ؛ أن يعيش في أفكار بعيدة عن الواقع، واقعه شيء وأفكاره شيءٌ آخر، وحينما يمتهن الإنسان الفِكر، ويتعامل مع القيم لفظاً، ويتعامل مع الخُلُق الكريم َعْرَضاً وبياناً، وهو ليس كذلك فإنه وقع في شرّ عمله، لذلك ربّنا عزّ وجل يَمْقُتُ هذا الإنسان أشدّ المقت..

(كَبُرَ)

من يقول هذا الكلام ؟ ربُنا.

(كَبُرَ)

2 ـ كَبُرَ مَقْتًا

لا تنسوا أن العظيم إذا وصف شيئاً بأنه عظيم فهو من العظمة ممّا لا يُوصف، فإذا قال لك طفل: معي مبلغ كبير، فإنك تقدِّر أن معه مئة ليرة، أما إذا قال لك أحد أكبر أغنياء العالم: أنا عندي ثروة عظيمة، فتقدِّرها بعشرات ألوف الملايين، طفل قال لك: معي مبلغ عظيم، وأحد أغنى أغنياء العالم قال لك: عندي ثروةٌ عظيمة، فإنك تفهم (العظيم) من طفل مئة ليرة، ومن هذا الثري بعشرات ألوف الملايين، فربنا عزّ وجل يقول:

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

" ابن آدم، عظ نفسك، فإن وعظتها فعظ غيرك، وإلا فاستح منّي ".

إيّاك أيها الداعية أن يخالف فعلُك قولَك:

أحد الدعاة نصح شخصا فقال له: **" احذر أن يراك المدعو على خلاف ما تدعوه "**، لأن أيّة دعوةٍ إلى أية فكرةٍ لا تنجح إلا إذا كان فيها مصداقية، وإذا فقد الإنسان المصداقية انتهى، وسقط في الوحل وتحت الأقدام، وقد يكون فصيحاً، وطليق اللسان، ومنطقياً، وأفكاره جيدة جداً، وعرضه رائع، وأدلّته قوية، أما إذا كشف المدعو أن هذا المتكلِم المتفقه الذي يعبّر عن أدقّ المشاعر والأفكار ليس في مستوى دعوته، لم يجد المصداقية في دعوته، سقط هذا المتكلم في الوحل، فكل إنسان يَدّعي الحق، لكن المحك هو العمل..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

إن الإنسان يحاسب نفسه، بل إن المؤمن قريب من الله عزّ وجل، وقد يشعر أحياناً إذا فعل شيئاً نهى عنه في حديث له، فكأن الله عزّ وجل يعاتبه ويقول: يا عبدي، هل أنت كذلك ؟! أنت الذي قلت للناس: افعلوا كذا وكذا، أنت كذلك ؟! ألا تستحي منّي ؟ لذلك يرى أهل النار يوم القيامة في النار إنساناً له شهرةٌ واسعة في حقل العلم، وقد بُقِرَ بطنه، وأخرجت أمعاؤه وأقتابه، فعن عثمان بن عفان قال سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ))

[متفق عليه]

أخطر شيء في الدعوة إلى الله أن تنقلب إلى حرفة مثل أية حرفة أخرى، هناك أساليب ومعلومات وأفكار، والإنسان يستقبل الناس، ويُقنِعهم، أما هو فبعيدٌ بعداً شديداً عما يدعو إليه، من هنا كان هذا الدعاء: **" اللهمّ إني أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علّمتني منّي، اللهمّ إني أعوذ بك أن أتزيّن للناس بشيءٍ يشينني عندك، اللهمّ إني أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك، اللهمّ إني أعوذ بك أن أكون عبرةً لأحدٍ من خلقك "**.

لا أكون عبرة، لا أتزيّن للناس بشيء يشينني عندك، لا أتكلّم كلام فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ(2)كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ(3) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ(4))

1 ـ نعم للوحدة لا للتفرقة:

نستنبط من هذه الآية أن الله يحبُنا أن نكون متعاونين، متكاتفين، أن نكون صفًا واحداً، ألاّ نكون متفرّقين متناحرين، متباغضين، متحاسدين، مختلفين، والشيء الذي يعصر القلب هو أن أعداءنا على خمسة بالمئة من القواسم المشتركة لكنهم يتعاونون، ونحن المسلمين على خمسة وتسعين بالمئة من القواسم المشتركة ولا نتعاون، وهذا أكبر ما يؤلم المسلمين، كتابنا واحد، نبيّنا واحد، سنّتنا واحدة، معتقداتنا واحدة، آلامنا واحدة، آمالنا واحدة، لغتنا واحدة، أهدافنا واحدة، مع ذلك لا نتعاون كما ينبغي، والأعداء الألِدّاء على خمسة بالمئة من نقاط الاشتراك ويتعاونون، والأمر الإلهي:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة: آية 2)

والآن لا يصلح أمر هذه الأمّة إلا بالتعاون، والتضامن، والتكاتف والتآزُر، ورحم الله الإمام الشافعي فإنه يقول: **" نتعاون فيما اتفقنا ويعذر بعضنا بعضاً في ما اختلفنا ".**

سمعت تعليقا من أخ كريم على هذه المقولة، قال لي: أنا أقترح.. طبعاً ليست منه، ولكن قرأها لعالمٍ جليل.. أن نقول: " نتعاون فيما اتفقنا، وينصح بعضنا بعضاً فيما اختلفنا "، نتعاون، ونتناصح بالحكمة والموعظة الحسنة، هذه الآية الكريمة:

(إنّ اللّهَ يُحِبُ الّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأنّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ)

2 ـ وجوب لزوم الجماعة:

يحبُنا الله أن نكون متعاونين غير مختلفين، متعاونين بكل مشاعرنا وقلوبنا.

لذلك قال النبي الكريم: عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((يَدُ اللّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ))

[الترمذي]

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النّاسُ، إِنّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِينَا فَقَالَ:

((عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنّ الشّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنْ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ))

[الترمذي]

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ، يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ، فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَالْعَامَّةِ وَالْمَسْجِدِ))

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَعْدِلُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ مِنْ صَلَاةِ الْفَذِّ))

[مسلم]

عن جُنْدَب بْن عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ))

[مسلم]

ليس من صلّى الفجر في وقته، بل في جماعة، في أقرب المساجد إليه.. فهو في ذمّة الله حتى يُمسي، ومن صلّى العشاء في جماعة فهو في ذمّة الله حتى يًصبح.

فما قولكم بالمؤمنين إذا كانوا في قتال، وفي خط المواجهة الأول، وفي ساعات الالتحام مع العدو، ودخل وقت الظهر، عليهم أن يصلّوا جماعة، في القرآن تفصيل لصلاة الجماعة في أثناء الحرب، فإذا كنا في أثناء الحرب ينبغي أن نُصلِّي جماعةً، فما القول في أيام السلم والطمأنينة ؟

الإنسان الذي لا يصلِّي جماعة، وليس له جماعةٌ ينضمُّ إليها يتعاون معها، يستقي من علمها، يهتدي بفتواها، إنه إنسان ضائع، الإنسان قوي مع أخوه، الأجانب يقولون: واحد زائد واحد يساوي ثلاثة، أحياناً رجلان اثنان ينتج عنهما أفكار أكثر من عشرة..

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

(سورة سبأ: آية 46)

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)

3 ـ النبي بيّن لنا سبيل التعاون وحذّرنا من سبل التفرقة:

لذلك كل ما من شأنه أن يقوي هذه العلاقة فقد أمر به النبي عليه الصلاة والسلام، فأمر بإفشاء السلام، وأمر بتلبية الدعوة، وأمر بعيادة المريض، وأمر بالتهنئة إذا أصابه خير، أمر بالتعزية، أمر بتشيّيع الجنازة، أمر بالعطف والإحسان، أمر بإكرام اليتيم، فكل ما من شأنه أن يقوي العلاقة بين المؤمنين أمر النبي به، وكل ما من شأنه أن يُبعِد فيما بينهم نهى النبي عنه، فنهى عن الغيبة لأنها تُمزّق المجتمع، ونهى عن النميمة، ونهى عن السخرية، ونهى عن المحاكاة والتقليد، ونهى عن اللمز والغمز، وكل ما من شأنه أن يُضْعِفَ العلاقة بين المؤمنين نهى النبي عنه.

لو جمعنا بعض الأحاديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ))

[مسلم]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))

[مسلم]

فهذه الأحاديث حوالي المائتين تقريباً، كل ما من شأنه أن يقوّي العلاقة بين المؤمنين أمر النبي به، كل ما من شأنه أن يضعِف العلاقة..

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

سيدنا عمر وسيدنا الصدّيق رضي الله عنهما بعد موت النبي عليه الصلاة والسلام صار هناك خلاف حول الخلافة، سيدنا الصديق قال لعمر رضي الله عنه: **<< يا عمر، مُدّ يدك لأبايعك، أبو بكر أقوى، وأفضل، وأقدم، فيما أذكر يقول سيدنا عمر: أي أرضٍ تقلّني، وأيّ سماءٍ تظلّني إذا كنت أميراً على قومٍ فيهم أبو بكر >>**.. هذه فوق طاقتي، لا أحتملها.. فقال له الصديق: **<< أنت أقوى منّي يا عمر، فقال له عمر: أنت أفضل مني، عندئذٍ قال عمر: قوّتي إلى فضلك >>.**

الحقيقة أن التعاون حضارة، والتنافس همجية، وهذا كلما ارتقى الإنسان.. فعلى مستوى البيع والشراء إذا تنافس الباعة فلا يربح الكل، الكل يفلّس.. التنافس هَمَجِيّة، أما التعاون فحضارة.

أيها الإخوة... حينما قال الله عزّ وجل:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة النور)

فوائد اجتماعية:

ماذا نستفيد من كلمة (جميعا) ؟ أي حينما يتوب المؤمنون جميعاً نقطف ثمار الإيمان جماعة، إذا كنت تعيش بين إخوة مؤمنين فيمكن أن تتعامل معهم كلهم براحة من دون خوف، وإذا لم يوجد فيهم إيمان واستقامة صار كل تعامل مع واحد منهم معركة، تخاف أن يقنصك، تخاف أن يغدر بك، كل شيء فيه لغم، كل شيء قد ينفجر أمامك، حياة الإنسان مع أناس بعيدين عن الله عزّ وجل حياة مخيفة جداً، أما وأنت بين إخوانك المؤمنين فإنهم لا يكذِبون، فلا تجد كذبا ولا غدرا ولا خيانة ولا إيذاء.. والمسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يسلمه ولا يحقره ولا يؤذيه ولا يكذِبه.. ومالك حرامٌ عليه، عرضك حرامٌ عليه، دمك حرامٌ عليه.

أنت تعيش بين مؤمنين طيّبين، عندما يكون الإنسان مع جماعة مؤمنة يرتاح، حتى لو تعاملوا فيما بينهم ماديّاً أحدهم لا يأخذ إلا حقّه، أما أهل الدنيا فيأخذون ما لهم، وما ليس لهم، الجماعة رحمة، كذلك أخوك المؤمن ينصحك وتنصحه، يأخذ بيدك وتأخذ بيده، يعطيك وتعطيه، إذا كان الجار العادي فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أتدرون ما حقُّ الجار ؟ إذا استعان بك أعنته، وإذا استنصرك نصرته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا أصابه خيرٌ هَنّأته، وإذا أصابته مصيبة عَزّيته، وإذا مرضَ عدته، وإذا مات شيّعته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فأهدِ له منها، فإن لم تفعل فأدخلها سرًا، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده، ولا تؤذِه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها))

[وردفي الأثر]

هذا الجار العادي، فحياة المؤمنين في سعادة كبيرة جداً، في تعاون، في صدق، في حب، أحياناً الإنسان يجلس مع إخوانه عشرة ساعات ولا يمل، توجد مليون نقطة مشتركة، أفكار مشتركة، مبادئ مشتركة، قِيَم مشتركة، أهداف مشتركة، أخلاق مشتركة، طُموحات مشتركة، آداب مشتركة، فلذلك قال النبي:

((الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[أحمد عن النعمان بن بشير]

وهناك مجتمعات أخرى تعينك على المعصية، وتشدُّك إلى الدنيا.

نختم الدرس بقول النبي عليه الصلاة والسلام، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[الترمذي]

انضم للمؤمنين تَسْعَد بهم، وكن مع المؤمنين لأن الله عزّ وجل أمرك بأمر قطعي الدلالة فقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

أي من أجل أن تستطيعوا أن تتقوا الله كونوا مع الصادقين، أنت بحاجة إلى بيئة مؤمنة، لأنه مهما تكن الأفكار دقيقة وعالية فإن البيئة لها أثر خطير جداً، فيجب أن تكون لك بيئة طيّبة، بيئة طاهرة، بيئة مؤمنة، بيئة راقية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف)

المؤمنون إذا ذهبوا في نُزهة فهي جنّة، يذكرون الله عزّ وجل، يتعاونون، لو جلسوا في جلسة حَفّتهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله في من عنده.

والمؤمن إذا سهر مع إخوانه يسعد بهم، وإذا سافر معهم يسعد بهم، وإذا شاركهم يسعد بهم، فلذلك:

((الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[أحمد عن النعمان بن بشير]

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

هذا كلّه مستنبط من قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)

عندما كان النبي الكريم في غزوة من الغزوات سأل عن أحد الصحابة، فغمز أحدهم أنه سرّه النظر إلى عطفيه، وسرُّه بستانه، فهو في ظلٍّ ظليل.. أي إنه آثر مصالحه الدنيوية على أن يغزو معك.. النبي سكت، فجاء رجل وقال: " والله يا رسول الله ما علمنا عنه إلا خيرا، والله يا رسول الله لقد تخلّف عنك أناسٌ لو علموا أنك تلقى عدّواً ما تخلّفوا عنك، وما نحن بأشد حباً لك منهم "، فتبسّم النبي، وسُرّ من هذا الموقف.

دافع عن أخيك، ولا تكن عونا للشيطان عليه، كن عوناً له على الشيطان، إذا أخطأ أخوك فاستره، ودافع عنه، النبي قال:

((التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرّة))

[ورد في الأثر]

يروى عن قاضٍ من كِبار القضاة دخلت عليه امرأةٌ، يبدو أنه ظهر منها صوت بَشِع، فتألّمت ألماً شديداً، وقالت لأختها: إنه سمعنا، عندما وصلت إليه قال لها: ما اسمك يا أختي ؟ فقالت له اسمها، فقال لها: لم أسمع، ارفعي صوتك، فرفعت، فقال لها: لم أسمع لأنني ضعيف السمع، فقالت لها: انظري إنه لم يسمعنا.

إن الإنسان كلّما ارتقى لا يكون قنّاصا، عيّابا، همّازا، لمّازا، يبحث عن العيوب، المؤمن يبحث عن الكمال، فكل واحد فيه كمال وفيه نقص، المؤمن الراقي يبحث عن النواحي الإيجابية، لذلك النبي لم يواجه أحد بما يكره، كان يقول على المنبر:

((مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا))

[مسلم عن أنس]

يكون الواحد قد فعلها فلم يسمّ أسماء..

مرّة كان أصحابه مدعّوين، وهو معهم فظهرت رائحة، أذّن العصر، فقاموا إلى الصلاة، هم جميعاً صلّوا الظهر، والآن أذّن العصر، فقال عليه الصلاة والسلام:

((كل من أكل لحم جزور فليتوضأ))

[ورد في الأثر]

الأكل كان لحم جزور، فقالوا: كلّنا أكلنا، فقال: كلكم يتوضّأ ".. من أجل أن يضيع هذا الذي انتقض وضوءه، لا تحمّروا الوجوه، هذا معنى:

(اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)

الآن تجد خلافات على مستوى أسرة واحدة، الإخوة متحاربون، الأصهار متحاربون، أولاد العم متحاربون، الشركاء متحاربون، ما هذه الحياة ؟ الشيطان دخل فيها، أما المؤمنون فهم متعاونين، متآزرون، متكاتفون، متضامنون، متناصحون..

((المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادُّون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم))

(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ(3)إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ)

في آية واحدة أو في آيتين الله عزّ وجل أعلمنا من يكره ومن يحبّ، يكره الذي يقول ما لا يفعل، ويحب المتعاون مع إخوانه المؤمنين، الذي يلتمس لهم العذر:

((التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرّة))

إن شاء الله في درسٍ قادم نتابع الآيات:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة الصف، ومع الآية الخامسة، وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

1 ـ تسلية الله للنبي بقصص الأنبياء السابقين:

أولاً: هذه الآية كما يقول بعض العلماء: فيها تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، فحينما آذى كفّار قريش النبي بتكذيبهم، وأعمالهم، وانحرافهم، وتأليب الناس عليه، والمكر عليه، وإخراجه من بلده، حينما بلغت قريشٌ في إيذاء النبي ما بلغت أراد الله سبحانه وتعالى أن يُسَلِّي النبي، وأن يخفِّف عنه حينما ذكر له أنّ موسى عليه السلام أوُذي كثيراً، وقد قال عليه الصلاة والسلام كما في حديث عَبْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسْمًا، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَغَضِبَ حَتَّى رَأَيْتُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ))

[متفق عليه]

من حكمة الله اختلاط المؤمن مع غيره للابتلاء:

والإنسان أحياناً حينما يرى سنّة الله في خلقه تخِفُّ عليه الأمور، وحينما يرى أن الدنيا دار ابتلاء، وليست دار نعيم، وأن الآخرة دار نعيم، حينما يرى أن الدعاة إلى الله، وأنّ المؤمنين قد يبتليهم الله بمن يعارضهم، ومن يكذِبهم، ومن يُؤلِّب الناس عليهم، ومن يريد أن يطفئ دعوتهم، حينما يستقرُّ في ذهن المؤمن أن الإنسان مبتلى، ون المؤمن مبتلى ليرقى عند الله.

قد ذكرت لكم من قبل أنه كان من الممكن أن يكون المؤمنون في قارّة والكفّار في قارّة، عندئذٍ لا مشكلة ولا ابتلاء، ولا حرب ولا كيد، ولا إخراج ولا تكذيب، ولكن شاءت حكمة الله أن يختلط هؤلاء مع هؤلاء ليبلوَ هؤلاء بهؤلاء، وهؤلاء بهؤلاء، ليرقى هؤلاء المؤمنون عند الله عزّ وجل بصبرهم وثباتهم وإصرارهم، ولتُكشَف طويّة هؤلاء من تكذيبهم وانحرافهم، واتّباع شهواتهم.

هذه الآية فيها بادئ ذي بدء تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، أي إنك يا محمد لم تُكذّب وحدك، ولا لم تُؤذ وحدك، ولكنها سنّة الله في أنبيائه وفي رسله، والإنسان لا يرقى عند الله عزّ وجل إلا بقدر تحمُّلِه، وقد ذكرت لكم من قبل أن الحزن خلاّق، وأن الإنسان حينما يجهد في نشر الحق، وحينما يتحمّل في نشره الغالي والرخيص، والنفس والنفيس لعلّ الله سبحانه وتعالى يتجلّى على قلبه برحمةٍ يُنسيه كل هذه المتاعب.

لا يدوم شيء إلا ثواب الطاعة وتبعات المعصية:

أيها الإخوة الأكارم، الطاعات وما تنطوي عليه من مَشَقّات تذهب مشقّاتها، ويبقى ثوابها، والمعاصي وما تنطوي عليه من لذات ومَسَرّات تذهب لذاتها ومسرّاتها، وتبقى تبعاتها وجزاؤها، كل شيءٍ ماض، ولا يدوم على حالٍ لها شانُ..

هي الأمور كما شاهدتها دولٌ   من سرّه زمنُ ساءَته أزمانُ

وهذه الدار لا تبقي على أحدٍ   ولا يدوم على حالٍ لها شانُ

***

كل شيءٍ زائل، إلا أن الطاعة يزول جهدها ويبقى ثوابها، والمعصية تزول لذّتها ويبقى إثمها..

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي)

2 ـ أشدُّ أنواع إيذاء الأنبياء تكذيبهم:

الإيذاء أنواع، لكن أشدُّ أنواع الإيذاء للأنبياء تكذيبهم، قد نفهم أن هناك نوعاً من الأذى ماديا للأنبياء، والحقيقة أن الأنبياء معصومون، والأنبياء في حرزٍ حريز، ولكن الأذى الشديد الذي يمكن أن ينال النبي هو تكذيبه، وتسفيه دعوته، وعدم الالتفات إليه، و هناك أذى من نوع آخر، لعلّ هذا ورد في بعض كتب التفسير، لكن أشدّ أنواع الأذى هو الذي خلّصهم، هو الذي جَهدَ عليه الصلاة والسلام لتخليصهم من فرعون..

قصة موسى مع فرعون تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام:

(قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا)

(سورة الأعراف: الآية 129)

أي أنهم سفّهوا فضله، عندما أنجاهم من فرعون الذي كان يذبّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم قالوا:

(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ)

(سورة الأعراف: الآية 138)

هذا فهم ثقيل، المفسِّرون يوردون مواقف عديدة جداً.

(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

(سورة المائدة: الآية 24)

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ)

(سورة طه)

هناك مواقف كثيرة لبني إسرائيل آذوا فيها النبي موسى عليه السلام، قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي)

إنْ في التكذيب، و إنْ في جحود الفضل، و إنْ في طلب آلهةٍ تعبدونهم من دون الله، هذا كلّه يؤذي النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)

وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

1 ـ بنو إسرائيل متيقِّنون من رسالة موسى عليه السلام:

(قد) حرف تحقيق، تعلمون علماً يقينياً أنني رسول الله، ومقتضى علمكم أن تعظِّموني وأن تطيعوني، فأنتم لا تعظِّموني ولا تطيعوني إذاً أنتم تؤذونني..

(وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)

2 ـ شرف الرسول من شرف المُرسِل:

أي أن شرف الرسول من شرف المُرسِل.

إذا أهان الإنسان سفيرًا فكأنه أهان دولة، وقد تنشب حروب بسبب إهانة سفير، لأن هذا السفير يُمَثِّل أمّة، فإذا أوذي النبي فهذا الأذى هو في الحقيقة أذّى لله ورسوله، أي يؤذون الله بإيذائهم لرسول الله، فلذلك الأنبياء يعظّمون و ينصرون..

قبيل معركة بدر عندما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

((ما ترون يا قوم ؟ قال سيدنا سعد بن معاذ: لعلّك تعنينا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال سيدنا سعد: لقد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، فامض على بركة الله، وسر بنا فو الذي بعثك بالحق لو خضت بنا البحر لخضناه معك، ما تخلّف منّا واحدٌ منّا، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، ودع ما شئت، وسالم من شئت، وحارب من شئت، فو الذي بعثك بالحق.. مرّةٌ ثانية.. للذي تأخذه من أموالنا أحبُّ إلينا من الذي تتركه لنا، فامض على بركة الله))

[السيرة النبوية بسند صحيح]

هذا موقف عظيم.

إن الصحابة الكرام بلغوا قمم المجد بتأييدهم للنبي، وبمعاونتهم له، ولذلك المؤمنون أيضاً حينما يتعاونون، حينما يؤيّد بعضهم بعض، حينما يتكاتفون ويتضامنون، حينما يلتمس بعضهم لبعضِ العذر، حينما لا يغمزون، ولا يلمزون فإنهم يرقون عند الله عزّ وجل، فهذه الآية:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)

3 ـ تعظيم الرسول وطاعته تعظيم لله وطاعة له:

أي مقتضى علمكم أن تعظِّموني، وأن تؤمنوا بي، وأن تطيعوني لا أن تعارضوني، ولا أن تكذّبوني، ولا أن تحيدوا عن أمري، لذلك هناك آيات كثيرة جداً تبيّن أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلّم هي عين طاعة الله، وأن إرضاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم هو عين إرضاء الله..

(مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

(سورة النساء: الآية 80)

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

(سورة المجادلة: الآية 13)

إذاً: هذه الآية تسليةٌ للنبي صلى الله عليه وسلّم، وتخفيفٌ عنه، وهي دعوةٌ للمؤمنين بشكلٍ خفي ألا تؤذوا رسول الله، ألا تؤذوه بتكذيبكم له، أو بمخالفتكم لأمره، لأن هناك تكذيبًا قوليًا وتكذيبًا عمليًا، فحينما تسفِّهون قوله فقد آذيتموه، وحينما تحيدون عن أمره فقد آذيتموه.

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)

(سورة الشورى: الآية 23)

إلا أن تتودّدوا إلى الله مودّةً تقرّبكم إليه، فالنبي الكريم يصل إلى منتهى آماله حينما يرى الناس مقبلين على الله، وعندما أطلّ على أصحابه قبل أن يموت رآهم في الصلاة خاشعين، ابتسم حتى بدت نواجذه، وقال:

((علماء حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء))

[تخريج أحاديث الإحياء]

هؤلاء العظماء ليس لهم من الدنيا شيء، لهم من الدنيا أن تُحقق رسالتهم، وأن ينهضوا بالناس، أما التافهون فيعيشون ليأكلوا، والأقلّ تفاهةً يأكلون ليعيشوا، أما المؤمن فيعيشُ ليعرف الله عزّ وجل، فهؤلاء الأنبياء العِظام حينما ينتشر الحق بين أقوامهم يسعدون، وحينما يكذّبون، وحينما يُخالفون فإنهم يتألّمون، فالأذى هنا أن تكذِّب النبي، أو أن تحيد عن أمره.

الداعية المخلص لا يرجو من الناس عطاءً:

المعنى المُخالِف: إرضاء رسول الله لا أن تعطيه مالاً، بل أن تكون في مستوى دعوته، وإذا كان الدعاة صادقين في ما يدعون فلا يطلبون من الناس شيئاً، إلا أن ينتشر الحقُّ بين الناس، وأن يسعد الناس بالله عزّ وجل، وأن يرقوا إليه، وأن تسمو نفوسهم، وأن يكون الإسلام مطبّقاً في كل الأسر، لذلك الصادق لا يريد على دعوته شيئاً، لا يريد إلا أن يُسعِد الناس، فإن سعدوا سعِد بإسعادهم، وإذا أردت أن تسعد فأسعِد الآخرين.

القرآن الكريم كتاب تربوي، لأن النبي عليه الصلاة والسلام أُوتي الفِطنَة، فأحياناً يمكن أن أقدِّم لك الحقائق بشكل قصّةٍ تاريخية، هذه الحقائق إخبار وتوجيه في وقتٍ واحد، فالنبي يُكَذّب، والنبي يؤذى، فلمّا قال الله عزّ وجل:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)

هذه تسلية للنبي، وهذا توجيةٌ للمؤمنين ؛ أن أيها المؤمنون إيّاكم أن تؤذوا رسولكم، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام قال تعالى في حقه:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: الآية 33)

أي إذا كانت سنّتك يا محمّد مطبّقة في بيوتهم، وفي أعمالهم، وفي حياتهم ما كان الله ليعذِّبهم، هم في بحبوحةٍ من عذاب الله حينما يطبّقون سنّتك، والله سبحانه وتعالى لم يقبل دعوى محبّته إلا بالدليل، ودليل دعوى محَبّته أن يطاع رسول الله، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران: الآية 31)

4 ـ تكذيبُ النبي إيذاءٌ له:

فلذلك المعنى المخالِف: إنك إن كذّبت النبي وحِدّت عن أمره آذيته، وإنّك صدّقت النبي وطبّقت سنّته فقد أرضيته، وإرضاء النبي إرضاءٌ لله عزّ وجل، لأن النبي دعوته تَشِفُّ عن الحقيقة الإلهية، ليس له ذاتٌ تحجبك عن الحقيقة الإلهية، كل أقواله وأفعاله وإقراره وأحواله إنما تبيّن كمال الله عزّ وجل، وما وعد به المؤمنين من جنّةٍ عرضها السماوات والأرض.

(لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)

أحياناً لو أن أباً يربّي ابنه على الجدِّ في الدراسة، لو أن صديقاً لابنه صرفه عن الدراسة، وزَهّده فيها، وحمله على أن يغيب عن مدرسته، أليس في هذا السلوك إيذاءٌ للأبِ ؟ قد يقول الأب لهذا الصديق المنحرف: لِمَ تؤذيني في ابني ؟ لأن الرحمة إذا ارتفع مستواها، الأذى الذي ينال الرحيم لا أن تنال من جسده، بل أن تنال من دعوته.

إياك أن تعارض الحق أو تكون في خندق الأعداء:

إذا أراد إنسان أن يُسَفِّه داعية، أو أراد أن يطعن في الداعي بلا سبب وبلا دليل أليس هذا إيذاء للحق ؟ شخصٌ يستفيد من إنسان، يعتقد فيه الصلاح، وهو مطبّقٌ للدين اعتقاداً منه أن هذا الذي يدعوه صادقٌ في ما يدعوه، ومستقيمٌ على أمر الله الذي يدعو إليه، فإذا أردت أن تكذب، وأن تسفّه، وأن تطعن، وأن تقلل من قيمة هذه الدعوة، أليس في هذا التقليل، وهذا التسفيه، وهذا الطعن تجريحٌ للدعوة، وإيذاءٌ لصاحب الدعوة ؟ فالإنسان يكون مع الحق، وليحذر أن يكون في خندقٍ مناهضٍ للحق، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

(سورة التحريم)

أي أيها الإنسان قبل أن تعارض الحق، وقبل أن تقف في خندقٍ يعاند الحق، وقبل أن تتمنّى إطفاء نور الله فكِّر ملياً أنك إذا فعلت هذا فإن الله سبحانه وتعالى وجبريل والملائكة والمؤمنين جميعاً سوف يكونون في مواجهتك، فالإنسان يحذر ألف مرّة أن يناهض الحق، لأن الحق ماضٍ إلى ما لا نهاية، الحق هو الله، فهل من الممكن لطفل صغير يجابه أكبر جيش في العالم ؟ إنه يُقتَل في ثانية، وهل يمكن لجيش صغير أن يجابه أكبر جيش ؟ فالإنسان عندما يفكِّر أن يعاند الحق، أو يطفئ نور الله عزّ وجل فهو يفعل المستحيل، لكنه لا يصيبه إلا سوء طَوِيَّتِهِ..

تُروى طرفة أن قوم إبراهيم عندما أضرموا ناراً عظيمة لإحراق هذا النبي الكريم، كانت ضفدعةٌ تملأُ فمها بالماء، وتطفئ به الحريق، وحشرةٌ أخرى كانت تنفُخُ في النار، لا الحشرة زادت من إيقاد النار، ولا الضفدعة أطفأت النار، ولكن..

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)

(سورة الإسراء: الآية 84)

إن الإنسان إذا عارض الحق فإن الحق ماضٍ، الحق لن يقف، وإذا أيّد الإنسانُ الحقّ فإن الحق ماضٍ لن يقف، إلا أن الذي أيّد يرقى عند الله، والذي عارض يسقط من عين الله، والحق هو الله، فلا تأييدك يزيد الحق تألّقاً وقوّةً، ولا المعارضة تضعفه، لأن الحق هو الله، فإنك إن أيّدت الحق ارتقيت عند الله، وإنك إن عارضته سقطت من عين الله.

هناك أشخاص.. سبحان الله ! يرى شابا مؤمنا، مستقيما، ورعا فيسفِّه له دينه، يقول له: هذا تزمُّت، يدعوه إلى التفلّت، يدعوه إلى عدم التقية، يدعوه إلى الاختلاط، يدعوه إلى عدم الشدّة في تطبيق أحكام الدين، هذا هو الشيطان بعينه، إذا اقترب الإنسان من الله، وجهد في طاعة الله عليك أن تُشَجِّعه، عليك أن تنصره، عليك أن تعينه على ما يبتغي، لا أن تثبّط من عزيمته، لا أن تضعف همّته، إنك إن ثبّطت عزيمته أو أضعفت همّته كنت في خندقٍ مع الشيطان في آنٍ واحد..

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

1 - الفاسق لا يهتدي:

هذا قانون، الفاسق لا يهتدي، لأن معصيته حجابٌ بينه وبين الله، وقضية الدين قضية خطيرة، الدين ليس قضية كتاب تقرأه فتفهمه، أو تؤدي فيه امتحانا، وانتهى الأمر، الدين التزام، الدين مبدأ، الدين تطبيق لهذا المبدأ، الدين مكارم أخلاق، فإذا كان الإنسان فاسقاً ففسقه حجابٌ بينه وبين الله..

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

لأن جبلّة الإنسان إذا انحرف، وعصى الله عزّ وجل يخجل بمعصيته، فيحجب نفسه عن الله، هذا سمّاه العلماء: **" تحصيل حاصل "**، فإذا لم يذهب الإنسان إلى الماء ليشرب مات عطشاً، وموته عطشا تحصيل حاصل لرفضه أن يشرب الماء، فلا نقول: فلان أماته العطش، هو حينما صرف نفسه عن نبع الماء مات عطشاً، هذا اسمه في علم الكلام تحصيل حاصل..

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

2 - الإضلال الجزائي مبنيٌ على ضلال اختياري:

الفاسق لا يهتدي إلى الله، لأن معصيته حجابٌ بينه وبين الله، وهذا حينما أزاغ قلبه عن الله.. إنسان مريض يتوجّه إلى المستشفى، فإذا غيّر جهته خَسِرَ العلاج.. هذا أيضاً تحصيل حاصل، لذلك أيُّ إضلالٍ جزائي، أيُّ إضلالٍ معزّوٍ إلى الله عزّ وجل فهو إضلالٌ جزائي مبنيٌ على ضلال اختياري، وأية إزاغةٍ معزوّةٍ إلى الله هي إزاغة جزائية مبنية على زيغ اختياري.

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

أي إنسان رفض الجامعة، حينما رفض دخول الجامعة خسر كل شيء ؛ خسر الميّزات، الشهادة، الدرجة العلمية، المكتبة، الاستثناءت، الميزات، أحياناً يكون الراتب الشهري، وأحياناً مدينة جامعية، كل هذه الميزات خسرها باختياره، لأنه زاغ عن الجامعة، فزاغت عنه ميّزاتها، والإنسان مخيّر، وأعماله من اختياره، فلذلك:

(فَلَمَّا زَاغُوا)

فلمّا انصرفوا عن الله عزّ وجل صُرِفَت عنهم الخيرات التي كانت تنتظرهم، انصرف عن المستشفى فخسِر المعالجة، انصرف عن الجامعة فخسِر العلم، هذا تحصيل حاصل، زاغت نفسه عن الله فخسِر

كل ما في الهدى من خيرات، خسِر رضوان الله، خسر توفيق الله، خسر حفظ الله، خسر تطمين الله له، خسر الآخرة، خسر الدنيا..

(فَلَمّا زَاغُوا)

3 ـ معنى الزيغ:

زاغ أي انحرف..

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)

(سورة النجم)

ما زاغ أي ما انحرف..

(فَلَمّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

زاغوا حينما فسقوا، لمّا فسقوا زاغوا.

(فَلَمّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

هذا تحصيل حاصل.

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ)

(سورة الصف: الآية 6)

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ)

هو ليس منهم، ليس من قومهم، وهنا دقّة بالغة في الآيات، قال:

(إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)

أحياناً أعداء الدين إذا أرادوا أن يجاملوا المؤمنين يضفون على الأنبياء العبقرية، والذكاء، والتفوّق، ويغفِلون النبوّة والوحي، وهذا شيء خطير جداً، هم يريدون النبي إنسانا متميزا، متفوقا، ذكيا جداً، عبقريا، أراد أن يوحِّد الأمّة، أراد أن يجمعها تحت لوائه، ويغفلون أنه نبيٌّ مرسل يوحى إليه، وأنه يتحرّك بأمر الله، هذا يغفلونه، فلذلك:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)

4 ـ لكل نبي معجزة تثبت نبوته:

عندما يكون النبي إنسانا حينما يأتي بمنهجٍ دقيقٍ فإنه يحدُّ من شهوات الناس، والناس ماذا سيقولون حينما يأتيهم منهج يحدُّ من حركتهم العشوائية، ومن انغماسهم بالشهوات ؟ إن ردّ فعلهم الطبيعي أن

يكذِّبوه، ويقولون: أنت كاذب، لست رسول الله، ماذا ينبغي أن يفعل هذا الرسول حتى يؤكِّد لهم أنه رسول الله ؟ ينبغي أن يأتي بالمعجزات التي يعجز عنها كل البشر، وينبغي أن يأتي بالمعجزات التي تفوّق فيها البشر، فقوم موسى وعيسى لهم تفوقٌ في شيئين، تفوقوا وعجزوا، قوم سيدنا عيسى تفوقوا في الطب، فكانت معجزته إحياء الموتى، وهذا فوق طاقة الطب، سيدنا موسى قومه تفوقوا في السحر، فجاء هو بشيءٍ يفوق السحر، العصا تصبح ثعباناً مبيناً تلقف ما يأفكون، سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام قومه بُلَغَاء، فصحاء، شعراء، فجاءهم بكلامٍ معجز، إلا أن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام باقيةٌ إلى يوم القيامة، معجزة عقلية بيانية، كلّما تقدَّم العلم كشف من إعجاز القرآن الشيء الكثير، معجزة باقية إلى يوم القيامة، بينما معجزات الأنبياء السابقين ظهرت لحين، وانتهت، وأصبحت خبراً يصدِّقه من يصدقه، ويكذبه من يكذبه..

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ)

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ

1 ـ الإنجيل يصدِّق التوراة:

أي أن الإنجيل يصدِّق التوراة.

(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

2 ـ الإنجيل بشّر بالنبي عليه الصلاة والسلام:

هذا بحث طويل، ففي بعض الأناجيل ورد اسم النبي عليه الصلاة والسلام.. فرقليط.. أي أحمد، وهذا في بعض الأناجيل، وفي بعضها الآخر مُحِي.

(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

3 ـ الفرق بين اسمي أحمد ومحمد:

الحقيقة أن أحمد ومحمدا بينهما فرقٌ دقيق:

أولاً: اسم فرقليط يشير إلى أحمد عندهم، وهذا من دقة القرآن الكريم.

أما المعنى الثاني: أن أحمد اسم تفضيل، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام أكثر الناس حمداً لله عزّ وجل، فهو اسم يبين النوع، بينما محمّد له معنيان، يبين كثرة حمده لله، ويبين أنه محمودٌ عند الله، وعند الخلق، وعند نفسه، فمحمد اسم فاعل مبالغ به مبالغة تكرار، ومبالغة كم، أو اسم مفعول مبالغ به مبالغة تكرار أو كمّ، أي محمد كثير الحمد، أو كثير المحمودية، أي يحمد الله كثيراً في كل أوقاته، في كل أحواله، في كل شؤونه.

الحمدُ يقابل النِّعم:

الحقيقة حينما تقرأ الفاتحة في القرآن الكريم، أو حينما تقرأ الفاتحة في الصلاة.. الحمد هذه أول كلمة.. الحمد يقابل النعم، والنعم بين يديكم ؛ نعمة البصر، نعمة السمع، نعمة الشم، نعمة النُطق، نعمة الحركة، نعمة سلامة الأجهزة، القلب، والرئتين، والمعدة والأمعاء، والكليتين، نعمة العظام، نعمة العضلات، نعمة العقل، نعمة الأعصاب، نعمة الطعام والشراب، نعمة الزوجة، نعمة الأولاد، النعم لا تُعَدُّ ولا تُحصى، بل إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة النحل: الآية 18)

النعمة واحدة، ولن تستطيعوا أن تعدّوا خيراتها ولا بركاتها، فإذا كنتم عاجزين عن أن تعدوا خيراتها وبركاتها، فلأن تكونوا عاجزين عن شكرها من باب أولى.

لا يكون الحمد إلا لله:

لمن الحمد ؟ عند المؤمن الحمد لله، وغير المؤمن الحمد لزيد، أو الحمد لعُبيد، أو الحمد لفلان، أو الحمد لعلاّن، أو الحمد للمال الذي أحوزه، يقول لك: الدراهم مراهم، أو الحمد للذكاء، أو الحمد لعشيرتي، أو الحمد لجماعتي، هذا هو الشِرك، أما عند المؤمن فالحمد لله.

المشكلة ليس في إثبات الحمد أو عدم إثباته، المشكلة إلى مَن يُعْزَى الحمد ؟ الحمد لله، لذلك المؤمن ينتقل من النعمة إلى المُنْعِم، والكافر يبقى في النعمة، الكفّار غارقون في النعم، ويستغلّون نعم الله أعلى استغلال، إلا أنهم لم ينتقلوا من النعمة إلى المنعم، إنهم وقعوا في النعمة، وحُبسوا فيها، ولم يجاوزوها إلى المنعم..

لذلك (أحمد) أعظم الناس حمداً، والحامد الأول في الكون، لأن أساس الكون مسخّر تسخيرين ؛ تسخير تعريف، وتسخير تكريم، تسخير التعريف ردُ فعله الإيمان، تسخير التكريم ردّ فعله الشكر، لذلك:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: لآية 174)

وهذا أصل الدين، الله عزّ وجل منحك نعمة الوجود، أنت موجود، لك اسم، منحك نعمة الإمداد ؛ فأمدّك بالماء والهواء، والطعام والشراب، والزوجة والأولاد، أمدّك بنعمة الهدى فأنت كلّك نعمة، والنعمة تحتاج إلى شيئين، النعمة تحتاج إلى شكر، وحينما تعلم أن الذي خلقك هو إلهٌ عظيم فهذا يحتاج إلى إيمان، فإنك إن آمنت وشكرت حققت الهدف الذي من أجله خُلِقت، فإذا آمنت وشكرت توقّف العلاج..

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

فـ (أحمد) سيد الحامدين، وأحمد الحامدين، ولا يوجد مخلوق على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة حمد الله حمداً كحمده، ونحن جميعاً نتفاوت في الحمد، فكلّما رأيت فضل الله كنت له أكثر حمداً، إذاً: الحمد متعلِّق بالرؤية، فإن رأيت فضل الله عليك تحمده حمداً كثيراً، وإذا أردتم الشيء الدقيق فإن المؤمن يحمد الله حمداً دائماً، وكان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النعمة مهما دقّت، فكأس من الماء تشربه الطريق سالك، لأنه لو لم يكن سالكاً لكنت بين الأطبّاء، والمستشفيات تحتاج إلى تمييل، إلى فتح مجرى، إلى عملية جراحية، أحياناً تقف بحصة في الحالب فتجعل حياة الإنسان جحيماً لا يُطاق، تحتاج إلى مستشفيات، وإلى تفتيت، وإلى تصوير، وإلى جراحة، فلذلك كانت تعظم عنده النعمة مهما دقّت.

إنسان يقضي حاجته بنفسه معزّزا مكرّما نظيفا، فإذا شُلّت أعضاؤه فإنّ أقرب الناس إليه يتمنّى موته، أولاده، زوجته، والدعاء الشهير هو: " الله يخفِّف عنه "، وإذا اختلّ عقل الإنسان فإن أقرب الناس إليه يسعى لإخراجه من البيت الذي اشتراه لهم، وإيداعه في مستشفى الأمراض العقلية.. وإذا افتقر الإنسان فقد ينقِّب في الحاويات ليأكل شيئاً لا يؤكل.

عندما يكون الإنسان مكتفيًا، أجهزته سليمة، والحقيقة أن الشيء المعجز ليس في الخلل، ولكن في السلامة، ففي خمسون مادّة، وكل مادّة لها نسب دقيقة، لو ارتفعت قليلاً اختل الجهاز الثاني، هذه الغدّة النخامية ملكة النظام الهرموني، وزنها نصف غرام، تفرز اثني عشر هرمونا، أحد الهرمونات يحقق توازن السوائل، لو اختل هذا الهرمون فإنك تحتاج إلى أن تشرب أكثر من مئة لتر في اليوم، وأن تطرحها، ولا يبقى لك عمل إلا أن تشرب، وأن تطرح، لو اختلّ هرمون واحد من اثني عشر هرموناً من غدّة وزنها نصف غرام نخامية، الإنسان خلقه معجز، فإذا استيقظ الإنسان صباحاً معافى، وكان

مطيعاً لله، فهذا نعمة لا تقدّر بثمن، لذلك عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنّمَا حِيزَتْ لَهُ الدّنْيَا))

[الترمذي]

إذاً: (أحمد) سيّد الحامدين، ومحمود أي محمودٌ عند الله، وعند الخلق، وعند نفسه.

أحياناً يكون الإنسان ذكيا جداً، فيحمده الناس، أما هو فيحتقر نفسه، لأنه يكذب عليهم، لأنه يستغلّهم دون أن يشعروا، فالبطولة أن تشعر أنك محمودٌ عند الناس، ومحمودٌ عند الله، ومحمودٌ عند نفسك، واحترام النفس شيء مهم جداً، وبعض الأشخاص ساقطون من عين أنفسهم محترمون عند الناس لأنهم أذكياء، ويوهمون الناس أنهم يعطون، لكنهم يستغِلون، فيسقطون من عين أنفسهم بينما ينتزعون إعجاب الآخرين، وهناك أشخاصٌ يحمدهم الناس، وهم عند الله ساقطون، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، فكان عليه الصلاة والسلام محمّداً، أي كثير المحمودية، أو كثير الحمد، فالفرق بين أحمد وبين محمّد فرق بين النوع والكم، أحمد نوعاً، ومحمد كمّاً.

الإنسان أحياناً يحمد الله إذا اشترى بيتا، أو تزوج، أو نال شهادة عُليا، أو اشترى مركبة، أو حقّق نجاحا في عمله، وهو في مليون نعمة كل يوم، كل يوم أنت مغمور بملايين النعم، فلو كنت يقظاً، ولو كنت ذاكراً لفضل الله عزّ وجل، ولو كانت رؤيتك صحيحة لحمدت الله مع كل نفَس، والذي يحمد الله عزّ وجل يزيده الله من فضله..

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنّكُمْ)

(سورة إبراهيم: الآية 7)

أي أنّ هذه النعمة لو حمدت الله عليها فلن تزول، بل ستزداد، لأن الله يقول:

(فَلَمّا جَاءَهُمْ بِالْبَيّنَاتِ)

(سورة الصف: الآية 6)

فَلَمّا جَاءَهُمْ بِالْبَيّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ

الدّالة على أنه رسول، ومِن هذه البينات إحياء الموتى، إخبارهم بما في بيوتهم..

(قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ(6)وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنْ افْتَرَى عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ

هذه (من أظلم) تقصم الظهر، أي أنه ليس في الأرض إنسانٌ أشدُّ ظلماً لنفسه ممن يُدعى إلى الحق، ثم يتهم الحق أنه باطل، وأنه سحر، وأنه كذب، وأنه دجل، وأنه غيبيّات، هذا الذي يُدعى إلى الحق، ثم يُسفِّه الحق ليس في الأرض كلِّها إنسانٌ أشدُّ ظلماً لنفسه منه..

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ)

جاءك الحق فقلت: هذا كذِب.

(وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

هؤلاء ظلموا أنفسهم قبل كل شيء..

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

(سورة الصف: الآية 8)

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ

1 ـ لا يمكن لأحد أن يطفئ نور الله:

الحقيقة: هل يمكن لإنسان أن يلغي نور الشمس مهما كان ذكياً ؟ هل يمكن أن يطفئ لهيب الشمس بفمه؟ إذا وقف رجل، ونفخ باتجاه الشمس هل تنطفئ ؟

(لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

الحق ماض، والإسلام شامخٌ كالجبال، وعندما ينصر الإنسانُ الإسلامَ فإنه يرتقي عند الله فقط، أما الإسلام فهو الإسلام، الإسلام منصور، لأنه دين الله.

2 ـ معنى: نور الله:

قال بعض العلماء: **" نور الله هنا أي محمدٌ عليه الصلاة والسلام ".**

لما انقطع عنه الوحي أربعين يوماً فرح الكفّار، وقالوا: لقد طُفئ نور الله.. انتهينا منه، وخلصنا منه..

ثم جاء الوحي مستمرا، فقال بعض العلماء: **" نور الله هو النبي عليه الصلاة والسلام ".**

وقال بعضهم: **" هو القرآن الكريم ".**

وقال بعضهم: **" هو الإسلام ".**

وقال بعضهم: **" هي الآيات الدّالة على عظمة الله ".**

لذلك إطفاء نور الله أي الطعن في القرآن، أو الطعن في النبي العدنان، يقولون لك: تزوّج تسع نسوة، ماذا يعني ذلك ؟ هذه لها بحث طويل، ولو قرأت هذا البحث لذابت نفسك تعظيماً لهذا النبي، فهناك من يطعن في النبي، يريد أن يُطفئ نور الله، هناك من يريد أن يطعن في القرآن فيقول لك: موضوعاته متنوعة ليس فيها منهجية، هناك من يقول ذلك، هناك من يطعن في الإسلام كمنهج وكنظام، هناك من يطعن في كل آيةٍ دالّةٍ على عظمة الله، وهناك من يحاول أن يُطفئ نور الشمس بفمه، وهذا مثل واضح جداً، لذلك " ما ضرّ السحاب وهي في السماء نبح الكلاب وهي في الأرض "، فلو تحوّل الناس جميعهاً إلى كنّاسين ليغبّروا على الإسلام ما غبّروا إلا على أنفسهم، لأن الإسلام دين الله، وما ضرّ البحر أن رماه غلامٌ بحجر، إذْ وقف طفل على ساحل البحر، وألقى حجر فيه، والبحر أربعة أخماس اليابسة، عمقه اثنا عشر كيلو متر، طفل ألقى فيه حجرا ماذا فعل ؟ ما فعل شيئاً، ما ضرّ السحاب نبح الكلاب، وما ضرّ البحر أن ألقى فيه غلامٌ بحجر، ولو تحوّل الناس إلى كنّاسين ليغبّروا على الإسلام ما غبّروا إلا على أنفسهم، ولا يوجد دين كاد له الكائدون، وخطط له أعداؤه كهذا الدين العظيم، والشيء الغريب أن هذا الدين كلّما أردت أن تطفئ نوره ازداد تألّقاً، والذي يريد أن يطفئ نور الله كمن يريد أن يطفئ النار بالزيت، وكلّما ألقى عليها الزيت ازدادت اشتعالاً، لذلك الأصل أن تكون مع الحق لا أن تكون ضدّ الحق.

دركات مَن عارض الأنبياء ودرجات المؤمنين بهم:

حينما جاءت الدعوة إلى النبي الذي عارضه وكذّبه قومه، أين هم الآن ؟ في مزبلة التاريخ، حينما قُتلوا في بدر سَمِعَ الْمُسْلِمُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُنَادِي عَلَى قَلِيبِ بَدْرٍ:

((يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا أُمَيَّةُ بْنَ خَلَفٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُنَادِي قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا ؟ قَالَ: مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا))

[متفق عليه]

الذين نصروه أين هم ؟ لهم لوحات الشرف ؛ سيدنا الصدّيق، سيدنا عمر، سيدنا عثمان، سيدنا علي، سيدنا سعد، سيدنا معاذ..

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ:

((يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ))

[أبو داود]

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَعَ أَبَوَيْهِ لِأَحَدٍ إِلَّا لِسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ:

((يَا سَعْدُ، ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي))

[متفق عليه]

وعَنْ عَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ:

((قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ))

[مسلم]

((أبو بكرٍ ما ساءني قط، فاعرفوا له ذلك))

[ورد في الأثر]

الذين أيدوه ونصروه أين هم ؟ في روضات الجنّات، في أعلى علّيين، في سجل الخالدين، والذين كذّبوه، وآذوه أين هم الآن ؟

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر)

أي ستة آلاف سنة × ثلاثمائة وستين يومًا × اثنين، والخير إلى الأمام..

(غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

الذين كذّبوه النبي، ألف وأربعمائة وستة عشر سنة × اثنين × ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً × اثنين.

(غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

إنّ أصحابه أيّدوه ونصروه وافتدوه بأرواحهم..

امرأةٌ تبحث عن رسول الله، رأت زوجها قد قُتِل في ساحة المعركة، ثم رأت أخاها قد قتِل، ثم رأت أباها، ثم رأت ابنها وهي تقول: " ما فعل رسول الله ؟ فلمّا رأته سليماً قالت: كل مصيبة بعدك هينةٌ يا رسول الله ".. لا توجد مشكلة.. هكذا كانوا الصحابة.

النبي تفقّد أحد الصحابة فقال: أين فلان ؟ لم يعرفوا عنه شيئاً، وهو سعد بن الربيع، ذهبوا إلى ساحة المعركة فرأوه في النزاع الأخير، قال الذي أرسله النبي: يا سعد لقد أمرني النبي أن أتفقدك فهل أنت مع الأحياء أم مع الأموات ؟ فقال له: " أنا مع الأموات.. أي انتهيت.. ولكن بلِّغ رسول الله مني السلام.. وهو في قمّة السعادة.. وقل له: جزاك الله عنّا خير ما جزى نبياً عن أمّته، وقل لأصحابه: يقول لكم سعدُ: لا عذر لكم إذا خُلِصَ إلى نبيكم وفيكم عينٌ تطرف "، و كما قال أبو سفيان: **" ما رأيت أحداً يحبُّ**

محمداً كحبّ أصحاب محمدٍ محمداً "، فالله عزّ وجل رفع شأنهم وأعطاهم قوّة، وجعلهم في الخالدين.
وكل إنسان في أي عصر يستطيع أن يكون مؤمنا، ويعين أهل الحق، ويكون داعية إلى الله، وأهم شيء إذا طبّقت الدين تكون أكبر داعية وأنت ساكت، أنت اسكت، وطبق الدين فقط، كن صادقاً، كن أميناً، يمكن بأي حرفة تكون، بأي مصلحة إذا كنت مطبّقاً لأوامر الدين تغدو علماً، تغدو حجّة، تغدو داعية وأنت صامت بعملك، الدين لا يحتاج إلى فلسفة كثيرة، بل يحتاج إلى تطبيق، يحتاج إلى تألّق في الدين لا من تشقيق المعاني، وتنميق الألفاظ، بل من صدق العمل، وصدق النيات، لذلك:

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

خاتمة:

اطمئنوا.

(وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ)

هذا دين الله فلا تقلقوا أبداً، مهما كثُر عليه أعداؤه، مهما أرادوا أن يطفئوه فإنه يزداد تألّقاً، فبعد سنواتٍ عدّة يصبح الإسلام الدين الثاني في أمريكا، وفي فرنسا قبل عام احتُفِل بتدشين الجامع رقم ألف، وهو الدين الثاني.
الحقيقة أن أناسا كثيرين بالملايين يدخلون في دين الله، لأنه لم يبق من الحق إلا دين الله عزّ وجل، كل شيء سقط وبقي هذا الدين شامخاً، فلذلك:

(وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ)

أي أن الإسلام ماضٍ، والدين حق، فإذا أعنت ودعيت، ونصرت وعاونت تكسب شرف، أما نصره لا يتعلّق بك، ولا على دعمك ولا تأييدك، الدين دين، والحق قائم، إنك إن نصرته اكتسبت شرف نصره، وإن لم تفعل كما كان الذين عارضوا الإسلام في مزبلة التاريخ، معروف مصير الإنسان أين هو لو عارض الدين..

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

تصوّر نور الشمس، نور الله أبلغ من نور الشمس، هذه الشمس التي تبعد عنّا مئة وستة وخمسين كيلو متر، بعض ألسنة اللهب فيها طوله مليون كيلو متر.. أي ألف ألف كيلو متر.. هل تستطيع وأنت على الأرض أن تتوجّه نحو الشمس، وتنفُخ فتنطفئ الشمس، فهذا المثل واضح جداً، الذي يحاول أن يطفئ نور الله بتخرّصاته وكذبه كمن يحاول أن يطفئ نور الشمس بنَفَسِهِ، وهذا مستحيل، إلا أنك إذا نصرت

الحق ودعمته، وكنت عوناً لأهل الحق اكتسبت شرفاً عظيماً أنت بحاجة لهذا الشرف، أما الحق فماضٍ إلى نهاياته..

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثالث والأخير من سورة الصف، ومع الآية العاشرة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة الصف)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

1 ـ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا

الخطاب موجّه للمؤمنين، أي يا من آمنتم بي، يا من آمنتم بي خالقاً، يا من آمنتم بي رباً، مسيراً، آمنتم بي موجوداً، كاملاً، واحداً، هذا هو المنهج، والارتباط دائماً هو أن الإنسان حينما يؤمن بالله يبحث عن طريقةٍ يتقرب فيها إليه، وما من شيءٍ يقربك من الله عزّ وجل إلا أن تطيعه.

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

مَن هو الوليّ ؟

التقرّب إلى الله بطاعته والتزام أمره، قال بعض العارفين بالله: **" ليس الولي الذي يمشي على وجه الماء، ولا الذي يطير في الهواء، ولكن الولي كل الولي الذي تجده عند الأمر والنهي "، " أن يراك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك "..**

التعريف البسيط الواضح للولي:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

إن آمنت بالله، واتقيت أن تعصيه، إن آمنت به، وأطعته فأنت وليٌ لله عزّ وجل، وإذا كنت ولياً لله حقاً فلا خوف عليك، ولا أنت تحزن، لا خوف عليك مما سيأتي، ولا تحزن عما مضى، لأن خطك البياني

صاعد صعودا مستمرا، حتى لو أن الإنسان إذا أصابته الوفاة، فالوفاة نقطة على خطٍ صاعد، والصعود مستمر.

العلاقة بين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

وبين ما بعد يا أيها الذين آمنوا: أنه إن كنت آمنت بالله فلا تبحث عن طريقةٍ تتقرب فيها إليه إلا بطاعته.

أحياناً أنت تؤمن بإنسان، فتتقرب إليه بطريقة لا ترضيه، بتمجيده دون أن تطيعه، بتعظيمه دون أن تطيعه، فإذا أردتم التقرُّب من الله عزَ وجل فلا سبيل إلى التقرُّب إليه إلا بطاعته، من هنا جاء قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

2 ـ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ

إلا أن هذا الآية فيها شيء لطيف، هذه الآية فيها:

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ)

(سورة الصف: الآية 10)

أولاً:

(هَلْ أَدُلُّكُمْ)

فيها استفهام، استفهام تشويقي، أتريد أن تكون في بحبوحة ؟ تقول له: نعم، أتريد أن تكون غنياً ؟ تقول له: نعم، وكلمة تجارة محببة، التجارة مظنة ربح، والتجارة مظنة غنى، والتجارة مظنة سعادة، والتجارة مظنة فوز، والتاجر له رأس مال، وله أرباح، فالله سبحانه وتعالى استخدم العبارة المحببة إلى معظم الناس.

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ)

شيء آخر، التجارة فيها رأس مال وفيها ربح، لكن التجارة المألوفة، الربح بالمائة عشرون أو ثلاثون، أربعون، خمسون، ستون، سبعون، لكن لا يوجد في الأرض تجارة تقدِّم فيها ليرة فتأخذ مليارا، هذه التجارة مع الله فقط، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ)

النِّعم مِن رأس مال تجارة المسلم:

رأس المال حياتك، رأس المال الصحة، رأس المال الفراغ، رأس المال نعمة الأمن، رأس المال نعمة الكفاية، عندك ما يكفيك، ما يكفيك فقط، حاجاتك مُغَطّاة، وعندك صحة، وعندك فراغ، وعندك أمن، لذلك لما قال ربنا عزّ وجل:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ (6) ثُمّ لَتَرَوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمّ لَتُسْأَلُنّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النّعِيمِ)

(سورة التكاثر)

العلماء قالوا: النَّعِيمِ هو الغنى، والنعيم هو الفراغ، والنَّعِيمِ هو الأمن، والنَّعِيمِ هي الصحة، هذه النِعَم التي أعطانا الله إياها في الدنيا لتكون رأس مالٍ لنا نتاجر به مع الله، فأنت لا تشكو من شيء فلست مضطراً لإجراء تحليل، ولا تخطيط، ولا أشعة معينة، ولا شيء من هذا القبيل، ولا زرع كلية، ولا زرع دَسَّام، ولا تغيير شريان، ولا سفر إلى الخارج، فالأجهزة تعمل بانتظام، الأعضاء سليمة، فهذه الصحة التي تتمتع بها ماذا فعلت بها ؟ للنوم، للتسلية، للسهرات، للكلام الفارغ، للقاءٍ لا يُرضي الله، للغيبة والنميمة ؟

(ثُمّ لَتُسْأَلُنّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النّعِيمِ)

(سورة التكاثر آية: 8)

رأس مالك الصحة، عندك فراغ، عندك عمل إلى الساعة الثانية ظهراً، تأكل طعام الغداء، وتنام قليلاً، ماذا تفعل بعد أن تستيقظ إلى الساعة الثانية عشرة ؟ هذا فراغ، يا ترى هل حضرت مجلس علم ؟ هل عُدتَ مريضاً ؟ هل زرت أخاً في الله ؟ هل رعيت يتيماً ؟ هل رعيت أرملة قريبة لك ؟ هل أمرت بالمعروف، نهيت عن المنكر ؟ هل درست باباً في الفقه ؟ هل تلوت القرآن ؟ هل تعلّمت تجويده ؟ هل تعلّمت معانيه ؟ هل علّمته للناس ؟ ماذا فعلت في وقت الفراغ، وفي الصحة، وفي الأمن، ولست ملاحقاً؟ فالملاحق لا ينام الليل، بل ينتقل من بيت إلى بيت، قلبه هواء، وأنت ليس عليك مذكرة بحث، ولست محكوما بجرم، بل أنت طليق آمن، عندك وقت فراغ، صحيح، عندك قوت يومك، هذه النعم الأربعة هي رأس مالك، كيف تاجرت بها ؟ لذلك:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

هذه الآية تُذَكِّرُنا بآية مشابهة، وهي قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

(سورة التوبة: الآية 111)

الله اشترى منك.

(بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة: آية 111)

والثمن هو الجنة، وهناك مشترٍ وهو الله جلّ جلاله، وبائع وهو أنت، وثمن وهو الجنة.

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة التوبة)

أيها الإخوة الكرام، هذه آية دقيقة جداً، ينبغي أن تتاجر مع الله، لأن تجارة الأرض ربحها قليل، وأمدها قصير، والنتائج مُحْزِنَة أحياناً، يقول لك أحدُهم: ثلاث سنوات ولم أربح شيئاً، أو ربحنا ربحا لا يوازي حاجتنا، ثم ربحنا، ثم أخذت منا ضرائب كثيرة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ)

أول ثمن، أو أول ربح.

(تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

3 ـ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ

لأن الحركة بلا منهج، الحركة بدافع الشهوات والغرائز، هذه الحركة تنتهي إلى عمل سيئ، والعمل السيئ ينتهي إلى عذاب، فأول ربح، أو أول دفعة من حساب الأرباح هي أن المؤمن الذي تاجر مع الله نجا من عذابٍ أليم.

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

الربح هو النجاة.

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران)

كلُّ شيء يبدو جليًا حين العرض على الله:

انظر إلى كلمة زحزح، الشيء ثقيل تزحزحه، أما الشيء الخفيف فتنقُلُهُ، النقل سهل، أما الطاولة الكبيرة والثقيلة جداً تزحزحها، لأن الزحزحة هذا فعل ثنائي مضعف، للشيء الثقيل.

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

أيها الإخوة الكرام، في الدنيا الأوراق متداخلة، والآن في أي حي تجد أناسًا كثيرين يسكنون البيوت، يأكلون ويشربون، ويتمتعون، وينامون، ويسافرون، ويتاجرون، ويربحون، ويقيمون الولائم والحفلات والأعراس، إلخ، بعضهم مؤمن، بعضهم منافق، بعضهم يعصي الله، بعضهم مؤمن بالآخرة، الأوراق متداخلة، أما حينما يُفْرَزُ الناس إلى فريقين مؤمنٍ وكافر، مستقيمٍ ومنحرف، طائعٍ وعاصٍ، محسن ومسيء، مخلص وخائن، حينما يفرزون، وحينما يتعذّب أهل النار بالنار، وحينما ينعم أهل الجنة بالجنة، قال عليه الصلاة والسلام لرجل:

((كيف أصبحت يا زيد ؟ قال: أصبحت مؤمناً ورب الكعبة، قال: إنّ لكل شيءٍ حقيقة، فما حقيقة إيمانك ؟ قال: أصبحت وكأني بأهل الجنة يتنعّمون، وبأهل النار يتصايحون، فقال عليه الصلاة والسلام: عبدٌ نور الله قلبه بالإيمان عرفت فالزم))

[ورد في الأثر]

إدراكه الدقيق والعميق نقله إلى المصير، فإذا رأيت إنسانا يسرق ويرتكب الجرائم، تقول: هذا نهايته إلى حبل المشنقة، هذا ليس علم غيب، ولكن علم بالقوانين، فهذا الصحابي الجليل رأى أهل الجنة في الجنة يتنعّمون، فشاب يحضر مجلس علم، يضبط جوارحه، يضبط عمله، ضبط لسانه، يصدق ولا يكذب، يتحرّى الحلال، ينفق ماله في طاعة الله، يبحث عن امرأةٍ صالحة ينجب منها أولاداً طيبين، هذا الشاب الذي يتحرّى الحلال هذا مصيره إلى الجنة، فكأني بأهل الجنة يتنعمون ؛ وإنسان من ملهى إلى ملهى، ومن معصية إلى معصية، ومن فجور إلى فجور، يأكل ما ليس له، يعتدي على الناس بلسانه، ينهش أعراضهم، هذا إلى النار مصيره، فلذلك ليست هناك تجارة على وجه الأرض تربح كالتجارة مع الله عزّ وجل.

إن الإنسان لما يطلب على عمله الصالح أجرا يكون قد أخذ أبخس الأجور، فإذا خدمت إنسانا، خدمت مؤمنا، علمته القرآن، علمته شيئا، وتقاضيت أجراً، هذا الأجر إذا قيس بما أعدّه الله لك فهو أبخس الأجر، فكلما كان إيمانك بالله أكثر تدخره عند الله عزّ وجل، فتجد المؤمن يبني حياته على العطاء، حياته كلها عطاء، لأنه يطمع برحمة الله، يرجو ما عند الله، المؤمنون يرجون رحمته، ويخافون عذابه.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص: الآية 61)

لو لاحظت إنسانا إيمانه بالآخرة ضعيف، أو إيمانه بالآخرة معدوم، لا يتحرك حركة بلا أجر، لا ينطق بكلمة بلا نسبة، بلا عمولة، بلا مكسب، أما المؤمن فيخدم الناس جميعاً، ويبتغي بخدمتهم وجه الله عزّ وجل، ويبتغي بخدمتهم القُرب من الله عزّ وجل.

محور درس اليوم: التجارة مع الله، رأس مالك الصحة، والأمن، والفراغ، والكفاية، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

الدنيا بحذافيرها، ولا تندم على شيءٍ فاتك من الدنيا، لأنك إذا أردت الخير بحذافيره فكن مع الله.

" ابن آدم اطلبني تجدني،ىفإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء ".

العمل الذي ينتهي عند الموت لا قيمة له:

هذه التجارة مع الله رأس مالها معروف، بقي على الإنسان يتحرك برأس ماله حركة ينتج عنها ربح فائض على رأس المال، فما قولك بإنسان ينفق من رأس ماله !! كالذي معه مليون ليرة يمكن بتجارة معقولة لرأس مال ينتج له مئة ألف مثلاً، أما لو بدأ ينفق من رأس ماله إلى أن انتهى ؟! لكن هذه الحالة أن تنفق من رأس مالك كيف نفهمها ؟ فالإنسان يعيش، ويأكل، وينام، دخل إلى مركز عمله، حقق ربحا، اشترى طعاما، لبس الثياب، ذهب في نزهة، أقام وليمة، هذا الوقت يستهلكه، هذا الذي ينفق الوقت استهلاكاً هو يأكل من رأس ماله، لأن رأس مالك هو الوقت، والوقت محدود، والإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، فما هي إلا أيام تمضي، سنوات تمضي، عقود تمضي، فإذا نعيه على الجدران، انتهى رأس ماله، استهلك عمره استهلاكا رخيصا، يقول لك: أكلنا وشربنا ولبسنا، وسكنا، وعمّرنا، وتاجرنا، وربحنا، وزوجنا أولادنا، ثم انتهى، فماذا فعلت للآخرة ؟ فهذا الذي يمضي الوقت في المباحات، دعك من المعاصي والآثم، أنا أتحدّث عن المباحات، لم تقترف معصية، إلا أن هذا الوقت استخدمته، وأمضيته فيما لا يعود عليك خيره بعد الموت، فالموت حد، وأيّ حركة في الأرض إن عملتها تنتهي عند الموت فهذه من الدنيا، وأي حركة إن استمرّت بعد الموت هذه للآخرة. لو تعلمت القرآن لِما بعد الموت، لو أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، لو علمت القرآن، لو ضبطت كل جوارحك، لما بعد الموت.

عندنا قاعدة: العمل الذي ينتهي عند الموت من الدنيا، ولا قيمة له مهما كان جليلاً، والعمل الذي يستمر أثره إلى ما بعد الموت هو من الآخرة، من هو الرابح ؟ هو الذي يعمل عملاً يستمر أثره إلى ما بعد الموت.

لذلك التجارة مع الله أن تنفق الوقت إنفاقاً استثمارياً، لا إنفاقاً استهلاكياً، أن تنفق الوقت بعملٍ يعود عليك خيره بعد انقضاء الزمن، وحينما يموت الإنسان ينتقل فجأةً من بيتٍ فخمٍ إلى حفرةٍ صغيرة، من

كل شيء إلى لا شيء، هذا لا شيء مبدئياً، أما ينتقل من كل شيء إلى المحاسبة على كل شيء، من هنا العلماء فرّقوا بين الرزق والكسب، الرزق ما انتفعت به فقط، والكسب ما كان في حوزتك، ولم تنتفع به، وسوف تحاسب عليه.

أيها الإخوة الكرام، لا تسمحوا للدنيا أن تستهلكم، لأن الله عزّ وجل قال:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

(سورة الفرقان: الآية 63)

أحياناً عمله يستهلكه، من عمل إلى عمل، من صفقة إلى صفقة، من تجارة إلى تجارة، جاءه خبر مؤلم جداً فأصابه بجلطة ومات، من تشعبت به الهموم لم يبال الله بأي أوديتها هلاك، تجده يموت بسبب تافه جداً، أما المؤمن الذي اقتطع من وقته الثمين وقتاً لمعرفة الله هو الذي يمشي على الأرض هوناً، لا يسمح للدنيا أن تستهلكه، لا يسمح لهموم المعاش أن تسحقه، لا يسمح لمتاعب الدنيا أن تصرفه عن الآخرة، إن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار، فلذلك العبد المؤمن يمشي على الأرض هوناً، يتأمّل، يفكر، وتجد شخصا مسحوقا بالهموم، الهموم كابوس سحقته حتى العَظْم، أما المؤمن فيعرف الله عزّ وجل، يرضى من الدنيا بالقليل، لكن يطمع في الآخرة بالكثير، ما هي التجارة ؟

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ)

رأس مالها عمركم، رأس مالها الوقت الذي أنتم فيه، ظرف أعمالكم، رأس مالها الصحة، رأس مالها الفراغ، رأس مالها الأمن، رأس مالها الكفاية، هذا رأس المال.

الربح الأولي:

(تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

هناك دفعة ثانية تأتي بعد قليل.

لكن ما هذه التجارة ؟ قال تعالى:

(تُؤْمِنُونَ باللّهِ)

(سورة الصف: الآية 11)

تُؤْمِنُونَ باللّهِ

1 ـ الإيمان مرتبة عالية:

بربكم، الإنسان ما فكر لحظة في حياته أن يؤمن بالله ؟ هذا الشيء الذي يأتيك عفو الخاطر. كنت أحضر عقد قِران، وسمعت كلمة من خطيب: حضرت خطبة الجمعة، ولحقت بالركعة الأخيرة،

هذا السلوك لا يصنع إيماناً، هل هناك إنسان في الأرض صار طبيبا من دون جامعة، من دون دوام، من دون قراءة، من دون متابعة، من دون مذاكرة، هذا مستحيل، مرتبة الإيمان مرتبة عالية جداً، وهناك مَن يدرس ثلاثا وثلاثين أو أربعين سنة، حتى يضاف لاسمه حرف الدال، دكتور، أحياناً ينسون أن يضعوها فينزعج أشد الانزعاج، يقولون له: الأستاذ فلان، فيقول: أنا دكتور، وليس أستاذا، كأنهم أهانوه، ثلاث وثلاثون دراسة لكي يضاف إليه حرف الدال، وهذه تنتهي عند الموت، أما لكي تكون مؤمنا فهذه مرتبة إلهية، هذه تنفعك إلى أبد الآبدين، هذه مرتبة أخلاقية، هذه مرتبة علمية، مرتبة جمالية، المؤمن أسعد الناس، والمؤمن عالم، وما اتخذ الله ولياً جاهلاً، والمؤمن أخلاقي، فاسعَ من أجل أن تسعى إلى مرتبةٍ تنفعك إلى أبد الآبدين، أما مرتبة الدنيا فيقولون لك: ثلاث وثلاثون سنة، سبع سنوات الدكتوراه، الأطروحة في ألف صفحة، ناقشوني فيها بسنة، من أجل أن يقال لك في الدنيا: دكتور، وعند الموت ينتهي كل شيء، أما كلمة مؤمن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

فهذه مرتبة قرآنية، هذه مرتبة يمنحها الله لعباده الصالحين، هذه مرتبة تنفعك بعد الموت إلى أبد الآبدين، ألا تحتاج إلى وقت ؟

يقول لك بعضهم: ليس عندي وقت، إذاً عندك وقت لأي شيء ؟ إذا لم يكن عندك وقت تعرف ربك فيه، ما عندك وقت لكي تعرف كلامه، تعرف منهجه، تعرف سنة رسوله، تعرف سير رسوله، تعرف أحكام الفقه، إذا لا وقت عندك لكي تعرف دينك.

((ابن عمر، دِينك، دينك، إنه لحمك ودمك))

[كنز العمال عن ابن عمر]

2 - الإيمان يحتاج إلى علم وجهد ومذاكرة:

كيف تنجو من عذاب الله ؟ كيف تعرف الحق من الباطل والخير من الشر ؟ وما ينبغي، وما لا ينبغي ؟ هل يمكن لإنسان أن يتقن شيئًا من دون جهد ؟ هل يمكن لإنسان لكي يلقي كلمة أمام ألف شخص، أو مئة شخص، ولا يكون متقنا للغة العربية ؟ يقول لك: إلى أن أخذنا الليسانس كذا سنة، وما مِن إنسان يصل إلى شيء إلا وقد بذل جهدا كبيرا، كيف قنع الناس في الإيمان بالسماع، سماع عشوائي، حضور عشوائي، تلقي عشوائي بلا تركيز، بلا متابعة، بلا تدقيق، بلا تأمُّل، فالله عزّ وجل قال:

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

هناك جلسات لابد أن تجلسها، جلسات تفكر، جلسات تأمل، جلسات مذاكرة، أن تجلس على ركبتيك في مجلس علم، أن تقرأ القرآن، أن تفهم القرآن، أن تعمل بالقرآن، أن تنطق بالقرآن، أن تفهم شرح النبي

الكريم لهذا القرآن، أن تعرف سننه، سيرته، أحكامه الشرعية، هذا وقت أساسي جداً، ولا شيء يعلو على هذا الهدف أبداً.

أحياناً إنسان مشغول جداً غارق في أعمال لا تنتهي، لا سمح الله ولا قدر يصاب بمرض، يحتاج إلى مداواة، إلى تصوير، إلى تحليل، إلى أن يستشير أطباء، أو إلى أن يسافر، تجده قد ترك كل أعماله، وجَمّد كل مواعيده، وألغى كل برامج أعماله، يقول لك: هذا جسم، عين، قلب، يترك كل أعماله من أجل الحفاظ على سلامة قلبه، أو على سلامة عينيه، أو على سلامة عضو من أعضائه الأساسية، فتجده قد ألغى كل مواعيده، ألغى كل برامج أعماله، ألغى كل لقاءاته، ومن أجل أن تحافظ على آخرتك التي لا تنقضي إلى أبد الآبدين ألا يحتاج أن تقتطع من وقتك وقتا لمعرفة الله ؟ فلا يكفي أن تحضر مجلس علم، يجب أن تتابع، يجب أن تذاكر الدرس.

الإنسان يتلقى أحياناً، وليس هناك امتحان، ولا مسؤولية، فينسى، أما لو أنك جلست بعد الدرس مع أهلك، مع أصدقائك، مع إخوانك، راجعت ماذا قيل في هذه الآيات حتى ترسخ، من أجل أن تملكها، أنت الآن لا تملكها، كل شيء تستمع إليه من دون جهد لا تملكه، وقد يحضر الإنسان ثلاثين سنة، ويسمع ثلاثين سنة دروسًا، يقول لك: والله لا أذكر شيئاً، والله دروس جميلة، وليس متذكرا منها شيئًا، لكن لو اضطر أن يتكلم كلمة، فليس عنده شيء ليقوله، أما لو راجع الدرس، يقرأ الآيات، يتذكر ماذا قيل في هذه الآيات، يكتب كلمتين، سمع حديثا كتبه، سمع آية كتبها، هذا عنده شيء يتكلم به، جلس في المجلس فتكلم كلاما أثر في الآخرين، شعر أنه عمل عملا، فالإيمان يحتاج إلى وقت، وإلى جهد، وإلى مركز علمي، وإلى منهل علمي، وإلى مصدر علمي، وإلى كتاب تقرأه، وإلى إنسان تذاكر معه، هذا معنى:

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

تجده يؤمن بالله، وليس في سلوكه ما يشير إلى ذلك، وإبليس يؤمن بالله، قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة ص)

لكنه هو إبليس، أنا أريد إيماناً بالله يرقى بك إليه، إيماناً بالله يحملك على طاعته، إيماناً بالله يسعدك بقربه، إيماناً بالله يبعدك عن معصيته، هذا الإيمان مطلوب.

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ

الآن هناك شيء ثان:

(وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)

(سورة الصف: الآية 11)

1 ـ مواطن المجاهدة:

المجاهدة فيها بذل جهد، صلاة الفجر في جماعة، غض البصر والنساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، والنفس تشتهي أن تنظر، وضبط لسان، وضبط دخل، الدخل مضبوط، أحياناً يأتيك المال وفيراً من طريقٍ حرام فتقول: معاذ الله إني أخاف الله رب العالمين، تؤْثر دخلاً قليلاً نظيفاً طاهراً حلالاً على دخلٍ كثيرٍ مشبوه، ففي هذا جهد، فالجنة لها ثمن باهظ، ولا تجد إنسانا ينام إلى الساعة الثانية عشرة فيستيقظ ومعه الدكتوراه، يقول لك: متنا، ولا يوجد إنسان يصبح تاجراً كبيراً وهو نائم، بل الناجحون في الحياة بذلوا جهدا كبير جداً، هذا في الدنيا، فكيف في الآخرة.

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

لابد من وقت لتطلب فيه العلم، تقتطع من وقتك وقتا ثمينا، والآن أكثر الناس يحضر درس علم إذا كان لديه وقت فراغ، والأصل وجود برنامج في الحياة، أما المؤمن فبالعكس، يبرمج حياته وفق مجالس العلم، هذا الوقت لله، درس الجمعة لله، درس الأحد لله، درس الاثنين لله، الخطبة، يبرمج حياته، مواعيده، لقاءاته، حتى نزهاته، يبرمجها وفق مجالس العلم، لأنه يطلب سلسلة، آية وراء آية، حديثا وراء حديث، موضوعا وراء موضوع.

أولاً:

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

هل عرفت رسول الله ؟ هل عرفت أمره ونهيه ؟ لما يقول ربنا لك:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: آية 7)

هل عرفت أمره ونهيه ؟ كيف تطبق هذه الآية إن لم تعرف أمره ونهيه ؟

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

يجب أن تؤمن بالله خالقاً، بالله رباً، بالله مسيّراً، بالله موجوداً، بالله واحداً، بالله كاملاً، أن تؤمن بأسمائه الحُسنى، وصفاته الفضلى.

هذه الآية دقيقة جداً إخواننا الكرام، تحتاج إلى وقت، إلى جهد، إلى مكان، إلى منهل علمي، إلى مصدر موثوق..

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة الصف: آية 11)

يجب أن تعرف الله، وأن تعرف رسول الله، لأنه أخبرك عن الله، وبيّن لك آيات الله، وبيّن لك أحكام الشرع، افعل ولا تفعل، والآن هناك جهد، وإيمان، وسماع، وتأمُّل، وتفكُّر، ودراسة، ومتابعة، ومذاكرة، ووقت، ومكان، ومعلِّم.

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ

2 ـ المجاهدة حركة تكليفية منتقضة للطبع:

الآن هناك حركة..

(وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ)

(سورة الصف: الآية 11)

دفع زكاة، وغض بصر، وصدق، وضبط لسان، وضبط جوارح، هذه هي المجاهدة، وأحكام التكليف دائماً تتناقض مع طبع الإنسان، فالطبع يدعوك إلى أن تنام، والتكليف يأمرك أن تستيقظ كي تصلي، والطبع يدعوك إلى أن تنظر، والتكليف يأمرك أن تغض البصر، والطبع يأمرك أن تتحدث عن قصص الناس، والتكليف يأمرك أن تسكت، فكل التكاليف تتناقض مع الطبع، وهذا من أجل أن ترقى. أحياناً التكليف يأمرك بأن تكسب الحلال، والحلال صعب وقليل، بينما الطبع يدعوك إلى أن تكسب الحرام الكثير، فجأةً تشتري بيتا فخما، ومركبة فخمة، وبيتا في المصيف، وتعمل، وتلبس أرقى اللبس، فتبدو أمام الناس عظيما، غنيا، لكن مِن دخل حرام، هذا الطبع يدعوك إلى ذلك، أما التكليف فيأمرك بتحري الحلال:

((من بات كالاً مِن طلب الحلال بات مغفوراً له))

[الجامع الصغير عن أنس، وفي سندع ضعف]

لما تخالف طبعك، وتتقي الله عزّ وجل فهذا السلوك يتوافق مع الفطرة، فترتاح، وتسعى.

الطبع بادئ ذي بدء يناقض التكليف، والتكليف يوافق الفطرة، فتجد المؤمن سعيدا، دخل الامتحان فنجح فيه، عندئذٍ يؤتيك الله الدنيا والآخرة معاً.

(وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)

(سورة الصف: آية 11)

3 ـ الجمع بين المجاهدة بالمال والنفس:

أحياناً الإنسان يجاهد بماله، فيعطي مئة ألف للجامع الفلاني، ومئتي ألف للمحل الفلاني، وللميتم خمسمئة ألف، شيء جميل، بارك الله بك، وكَثّرَ من أمثالك، ونفع بك، نقول له: الآن غض بصرك، يقول لك: هذه صعبة، والله لا أقدر عليها، هذه فوق طاقتي، معنى ذلك أنه ما جاهد بنفسه، لكنه جاهد بماله، ولم يجاهد بنفسه وهواه.

(وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)

العمل الصالح مقبول، وله عند الله شأن كبير، لكن ما أجمل أن يجمع الإنسان بين بذل المال وطاعة الله في النفس، قال تعالى:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة الصف)

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

إن رأيتم هذا هو الخير فأنتم علماء، وإلا فأنتم جُهَلاء، إن رأيتم التجارة مع الله هي أربح تجارة، إن رأيتم حمل النفس على طاعة الله هو العمل الصحيح، هو الخير المُطْلَق، إن رأيتم إن طاعة الله من يفعلها يفوز فوزاً عظيماً فهذا هو الذي يعلم، ومن رأى أن في معصية الله فوزاً فهو الذي يجهل، أنت بكل بساطة لو أن إنسانا يحمل أعلى شهادة في العالم يرى المغنم في المعصية فهو مدموغ بالغباء والجهل، وإنسان آخر يرى أن طاعة الله عزّ وجل هي الفوز العظيم، وأن القرش الحلال هو الشيء السليم، وأن ضبط الجوارح هو أعظم ما عند الله عزّ وجل، هذا هو العالم، لذلك:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

الآن ثمن آخر لهذه التجارة مع الله، أول ربح.

(تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

(سورة الصف: الآية 10)

التجارة:

من أثمان التجارة مع الله:

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(11)يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة الصف)

إذاً: نجاةٌ من عذابٍ أليم، ومغفرةٌ للذنوب جميعاً، ودخول جنةٍ عرضها السماوات والأرض فيها ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ

شيء آخر في الدنيا قبل الآخرة..

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الصف)

فصار الثمن مؤَجّلا ومُعَجّلاً، فالنصر في الدنيا ثمن معجل، وفتحٌ قريب، وفي الآخرة نجاةٌ من عذابٍ أليم، ومغفرة الذنوب، ودخول جنةٍ عرضها السماوات والأرض، هذا إذا كنتم:

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة الصف)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ)

(سورة الصف: الآية 14)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ

معنى: نصرة الله:

الله عزّ وجل غنيٌ عن أن ننصره، لكن نصرة دينه نصرٌ له، أن تنصر دينه، إذا طبّقت أمره نصرت دينه، إذا أمرت بالمعروف نصرت دينه، إذا أقمت الإسلام في بيتك نصرت دينه، إذا أقمته في عملك نصرت دينه، إذا تواصيتم بالحق نصرتم دينه.

(يَا أيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا كُونوا أنصَارَ اللّهِ كَمَا قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيّينَ مَنْ أنصَارِي إلى اللّهِ قالَ الْحَوَارِيُّونَ)

(سورة الصف: الآية 14)

فحسب السؤال:

(مَنْ أنصَارِي)

ينبغي أن يكون الجواب: نحن أنصارك، لكم الله قال:

(نَحْنُ أنصَارُ اللّهِ)

(سورة الصف: الآية 14)

لأنك إذا نصرت النبي نصرت الله، وإن خذلته وقعت في إثمٍ كبير، لأن الأنبياء والمرسلين والدعاة الصادقين ليس لهم نفسٌ يعملون لها، هم يبتغون وجه الله عزّ وجل، فلذلك:

(مَنْ أنصَارِي إلى اللّهِ قالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أنصَارُ اللّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ)

فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ

آمنت طائفة بسيدنا عيسى عليه السلام ونصرته، وكفرت به طائفة.

فَأيَّدْنَا الّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأصْبَحُوا ظاهِرِينَ

(فَأيّدْنَا الّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوّهِمْ فَأصْبَحُوا ظاهِرِينَ)

(سورة الصف)

محور الدرس:

إخواننا الكرام... محور هذا الدرس:

1 ـ المتاجرة مع الله:

أولاً: أن نتاجر مع الله، لأنها أربح تجارةٍ على الإطلاق، ورأس مالها بين أيدينا، والآن إذا قال لك واحد: هناك ربح طائل، ولكن لا يوجد معنا رأس مال، فأي مشروع يحتاج إلى خمسة أو ستة ملايين، عشرة ملايين، مئة مليون، فيه ربح، ولكن هل معك مئة مليون رأس مال ؟ لكن هنا يوجد رأس مال، ألا تعيش ؟ ألست سليماً معافى ؟ أليس لديك وقت فراغ ؟ هل أنت ملاحق ؟ لست ملاحقاً، بل تتمتع

بنعمة الأمن، ونعمة الصحة، ونعمة الفراغ، عندك قوت يومك فقط ؟ نعم، والصحة والفراغ، والأمن، هذا هو رأس مالك، وتعيش.

2 ـ الربح:

الربح: النجاة من عذابٍ أليم، ومغفرة الذنوب جميعاً، ودخول جنةٍ عرضها السماوات والأرض.

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ)

هذا كلام ربنا، كلام خالق الكون.

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ)

(سورة التوبة: الآية 111)

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء)

(فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة التوبة)

3 ـ نصرة الله:

شيء آخر، يجب أن تكون نصيراً لله عزّ وجل، فإن صلّيت نصرت الله، أذّنَ المؤذن فدخلت وصليت، شيء جميل جداً، كنت صادقاً، أمرت بالمعروف، نهيت عن المنكر.

توفي عالم في منطقة الزبداني، ولم يبق في كل هذه البلدة وما حولها إنسان إلا وخرج في جنازته، ماذا فعل ؟ هذا العالم أي إنسان أجرى عُرسا مختلطا يقاطعه مقاطعة تامة، إلى أن ألغى هذه البدعة في المنطقة، ذكروا لي عنه أشياء لطيفة جداً، كان صادقا ومخلصا مع الله عزّ وجل، فأنت انصر الحق، لا تجامل إنسانا منحرفا منحلا أخلاقياً، ولا تعظمه أمام الناس، ولا تمدحه.

أحياناً يكون لأحدنا أخ بعيد عن الدين بعدا كبيرا، لا يزال يثني عليه، وعلى لطفه، وعلى ذكائه، وعلى غناه الشيء الكثير، ضاع الناس، " إن الله ليغضب إذا مُدِحَ الفاسق "، انصر دين الله عزّ وجل، أقم حدود الله، أقم الإسلام في بيتك، وإذا نصرت رسول الله فقد نصرت الله..

(مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (14))

خاتمة:

أيها الإخوة الكرام هذه السورة مباركة، ويمكن أن تحفظ، وأن تتلى في الصلاة، والإنسان دائماً يذكر هذه التجارة، وكل يوم يحاسب نفسه حسابا دقيقا، ماذا فعلتُ من تجارتي مع الله ؟ فالرأس المال معك موجود، الرأس المال معك تملكه، صحتك وفراغك، وأمنك وكفايتك، ماذا تفعل بهذا الوقت ؟ ماذا تفعل بهذه الصحة ؟ هل صلّيت بها ؟ هناك إنسان يسترخي، يتمتع، يفعل ما لا يرضي الله، يستخدم صحته، وفراغه، ونعمة الأمن، وكفايته فيما لا يرضي الله عزّ وجل، فلذلك الإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، والإنسان زمن، والزمن إما أن ينفق استهلاكا، وإما أن ينفق استثمارا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجمعة 062 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1- 4

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-09-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الأول من سورة الجمعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ

1 ـ الفائدة من إيراد الجملة الفعلية: يُسَبِّحُ

أيها الإخوة التركيب نوعان، تركيبٌ اسمي، وتركيبٌ فعلي، التركيب الاسمي من خصائصه الثبات والاستمرار، والتركيب الفعلي من خصائصه الحدوث والانقطاع، إلا أن الفعل المضارع وحده يفيد الاستمرار، فقوله تعالى:

(يُسَبِّحُ)

أي تسبيحٌ دائم.

(يُسَبِّحُ)

2 ـ معنى التسبيح:

وقد تحدّثنا في درسٍ سابق عن معنى التسبيح، له معانٍ ثلاثة في كلمةٍ واحدة:

التسبيح هو التنزيه، فيجب أن تنزّه الله عن كل ما لا يليق به، ويجب أن نسبّح الله بأن ننزّهه عن كل ما لا يليق به، ويجب أن نمجّده بأن نصفه بالكمال الذي يليق به، ويجب أن نخضع له، فما دام منزّهاً عن كل نقص، متصّفاً بكل كمال فينبغي أن نخضع له، وعلامة صحّة التنزيه وصحّة التمجيد الخضوع، فإن لم نخضع فالتنزيه ليس صحيحاً، بل التنزيه شكلي، والتنزيه أجوف، غير صادق..

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

3 ـ الكون كله يسبح لله:

السماوات والأرض تعبيرٌ قرآنيٌّ عن الكون، الكون كلُّه يسبّح لله، إلا هذا الإنسان الغافل الذي سُخِّر الكون خصيصى له، الإنسان المخلوق المكرّم المكلّف الذي سخّر الله له الكون هو الغافل، لكن:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

(سورة الإسراء)

(الْمَلِكِ)

4 ـ الْمَلِكِ

المَلِك هو المالك، المالك هو الحاكم، المالك خلقاً، والمالك تصرفُاً، والمالك مصيراً، هو الذي خلق والأمر بيده وإليه المصير، هذه أوسع أنواع المُلك.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران: الآية 26)

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

5 ـ الْقُدُّوس

من القداسة، ومن التنزيه، ولا يُقال للشيء: مقدّس إلا إذا كان كاملاً، لأن النقص يتناقض مع التقديس، وأنت لا تقدِّس إنساناً إلا إذا ظننت فيه الكمال، أما إذا ظننت فيه النقص فلا تقدِّسه، بل تحتقره، فالتقديس يساوي الاتصاف بالكمال.

ولماذا جاءت:

(الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ)

الحكمة من ورود اسمي الْمَلِكِ والْقُدُّوس معًا:

كم من مخلوقٍ يملك، وليس كاملاً، وكم من مخلوقٍ يتَّصف بالكمال، لكنه لا يملك، ضعيف، فإما أن تجد مخلوقا كاملا، لكنَّه ضعيف لا يقوى على فعل شيء، وإما أن تجد مخلوقا قويا يفعل كل شيء، ولكنَّه ليس كاملاً، ولكن الله سبحانه وتعالى بقدر ما هو مالك، وقوي، وقاهر وجبّار، بقدر ما هو حليم، ورحيم، وكامل.

الحقيقة إن جمع صفات القوّة مع صفات الرحمة شيء من أروع ما يكون، فأنت مرتاح، الذي تعبده قوي، بيده كل شيء، بيده كل أعدائك، أحياناً الأعداء يتبجّحون بطائرات معينة، بوسائل حديثة جداً، إذا عبدت الله حقّ العبادة فالله مالك كل خلقه، ومَلِكْ، وإذا عبدّته حقّ العبادة فهو قدُّوس، وله كمال مطلق، ورحمة، ورأفة، وشفقة، وعلم، ولُطف، وعفو، ومغفرة، وحلم، هذا هو الله عزّ وجل..

(الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ)

بقدر ما هو قوي، مالك لناصية الخلق بقدر ما هو كامل يُحسِن إليهم، ويعفو عنهم، أما المخلوقون فقد تجد القوي غير الكامل، وقد تجد الكامل غير القوي، وكلاهما لا يعجبانك، القوي غير الكامل تحتقر أخلاقه، قد تؤْخَذ بقوته، لكن تحتقر لؤمه، أحياناً هؤلاء الأقوياء في بلاد الغرب الذين يتبجّحون بقوّتهم، لكنك تحتقر تناقضهم، تحتقر جحودهم، تحتقر قسوة قلوبهم، تحتقر ازدواجية المعايير التي يكيلون بها، تحتقر أنانيتهم، هم لشعوبهم، يبنون أمجاد شعوبهم على حساب شعوب الأرض، هم أقوياء جداً، يتملّكون ناصية العالم، لكن تحتقر لؤمهم، وقسوتهم، وانحيازهم، وعنصريّتهم، وقد تجد أناسًا طيّبين تحبُّ فيهم التواضع والأدب، والسماحة والعفو والكرم، لكنهم ضعفاء لا يفعلون شيئاً، فأنت لا ينتزع إعجابك إلا من جمع القوّة إلى الكمال..

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

6 ـ الْعَزِيزِ

الذي لا يُنال جانبه، العزيز الفرد لا مثيل له، العزيز الذي يحتاجه كل شيء في كل شيء.

(الْحَكِيمِ)

7 ـ الْحَكِيمِ

المتقِن لا ترى في خلقه من تفاوت، حكمته مطلقة، كل شيءٍ وقع وَقع لحكمةٍ مطلقة، ولو لم يقع لكان عدم الوقوع نقصاً في حكمة الله، ولو وقع على نحوٍ آخر لكان نقصاً في حكمة الله، فالله عزّ وجل ذكر أربعة صفات في هذه الآية فقال:

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

هذا هو الله المستحق للعبادة:

هذا هو ربنا، هذا الذي ينبغي أن نعبده، هذا الذي ينبغي أن نستعين به، هذا الذي ينبغي أن نفني العمر من أجله، هذا الذي ينبغي أن نمضي شبابنا في طاعته، هذا الذي ينبغي أن نضع إمكاناتنا ؛ عقلنا، ومالنا، وعضلاتنا، ووقتنا في خدمة عباده، هذا الذي ينبغي أن تكون له لا أن تكون لغيره، هذا الذي ينبغي أن تخلِصَ له، أن توحِّدَهُ، أن تعبده، أن تتفانى في خدمة عباده.

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

الجماد يعرف قيمة النبي عليه الصلاة والسلام:

هناك أشياء وردت في السيرة نحن ننقلها كما جاءت، لكن لها معنىً عميق:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ:

((أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ، فَسَكَتَ، فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ))

[أبو داود]

كان يقف على شجرةٍ يخطب عليها، فلّما صنع له أصحابه منبراً حَنَّت إليه الشجرة.. وهي جماد من خشب.. كان عليه الصلاة والسلام يضع يده عليها إكراماً لها في أثناء خطبته، وقف على المنبر وكان يضع يده على هذه الشجرة، فعن جَابِرِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ يَسْتَنِدُ إِلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا صُنِعَ الْمِنْبَرُ، وَاسْتَوَى عَلَيْهِ اضْطَرَبَتْ تِلْكَ السَّارِيَةُ كَحَنِينِ النَّاقَةِ، حَتَّى سَمِعَهَا أَهْلُ الْمَسْجِدِ، حَتَّى نَزَلَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاعْتَنَقَهَا فَسَكَتَتْ))

[أحمد]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ))

[مسلم]

الجمادات تعرف قيمة النبي صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، الأشجار، الحيوانات، أما أتباعه فهم غافلون عنه، غافلون عن كماله، غافلون عن رسالته، يَعْتَدُّون بزيدٍ أو عبيد، وفلان وعلاّن، وينسون نبيهّم عليه الصلاة والسلام، الذي هو سيد الخلق، وحبيب الحق.

هذه القصص ليست هي مناط كماله، كماله ليس له حد ؛ دعوته، شمائله، علمه، تربيته، أخلاقه، الوحي الذي جاء به، القدوة التي كان يجعلها نبراساً لنا، يجعل من هذا النبي هو المنقذ لأمته من بعده.

هذه الآية تتكرر في أكثر السور التي حولها، تسبيحٌ، تنزيهٌ، تمجيدٌ، خضوع، السماوات والأرض، الكون بأكمله لمن يسبّح ؟ لله.

(الْمَلِكِ الْقُدُّوس الْعَزِيز الْحَكِيم)

الفساد يأتي من الإنسان وحده:

الملك عنوان القوّة، والقدُّوس عنوان الكمال، فهو قويٌّ كامل، ذاتٌ كاملة، العزيز الذي لا يُنال جانبه، الحكيم المُتْقِن لصنعته، كل شيءٍ يقع في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب، وبالقدر المناسب، وبالطريقة المناسبة، وليس في الإمكان أبدع مما كان.

إذا كان هناك تساؤلات عما يجري في الكون من مشكلات، من حروب، من تسيُّب، هذا كلُّه بسبب أن هناك مخلوقاً هو الإنسان أُعطي حرّية الحركة، أودِعَت فيه الشهوات، أُعطي منهجاً دقيقاً، فخرج عن المنهج بشهوته وهواه ومصلحته، فالفساد لا يكون إلا من مخلوقٍ مخيّرٍ يشتهي خَرَجَ عن منهج الله، هذا هو المثل، وكل مخلوقٍ آخر كالجماد والحيوان والمَلَك الذي خلقه الله وسيّره هذا لا يفسُد أبداً.

أكبر دليل: خلية النحل، فيها نظامٌ معجز، فيها دقّةٌ متناهية، فيها نظام اجتماعي ليس في الأرض كلِها مجتمعٌ يرقى إلى مجتمع النحل ومجتمع النمل، السبب هو أن التكليف الاجتماعي الذي كلّفنا الله به تكليف، ومعنى تكليف أننا نفعل أو لا نفعل، أما النظام الاجتماعي في خلية النحل فهذا أمر تكويني، أي ألزمها به، عندما ألزم الله مجتمعا من الحشرات بنظام اجتماعي كان فيه الإعجاز..

(يُسَبّحُ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوس الْعَزِيز الْحَكِيم(1)هُوَ)

هو الله..

(هُوَ الّذِي بَعَثَ فِي الْأُمّيّينَ)

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ

معنى الأميّين:

المعنى الأول:

الأميّون هم الذين لا يقرءون ولا يكتبون، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

والأميّون في نظر اليهود هم الأمم الأخرى، هم خير أمّة، هم شعب الله المختار بزعمهم، وما سواهم أميّون، أي أمَمِيُّون، من الأمم الأخرى، فالنسبة في اللغة العربية إلى أمة أمي..

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ)

المعنى الأول أصح، هذه الأمّة أميّة لا تقرأ ولا تكتب.

عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ))

[البخاري]

لماذا اختار الله مكة مهبطا القرآن ورسوله الأمي وعاء للوحي ؟

فلماذا اختار الله هذا المكان الذي هو الصحراء، وذاك الزمان، وهذه الأمّة لينزّل عليها كتاباً معجزاً إلى آخر الدوران ؟ هذا سؤال وجيه.

الأميّة فينا نقص، لكنها في رسول الله عين الكمال، لأن رسول الله سيوحى إليه، فإذا أُوحي إليه وهو على ثقافةٍ واسعة، وهو على اطلاع واسع، وهو على هضمٍ لكل الثقافات المعاصرة، سوف يتكلّم، يا تُرى هل يتكلّم بما أُوحي إليه أم بما عنده من ثقافة عصره ؟ لتكون دعوته صافيةً صفاء الماء الطاهر العذب الزلال، لتكون دعوته بعيدةً عن كل مداخلاتٍ أرضية، لكن لحكمةٍ أرادها الله سبحانه وتعالى جعل النبي أميّاً:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

(سورة العنكبوت)

الله عزّ وجل اختار هذا الإنسان الكامل الأمّيّ ليكون أعلم علماء الأرض، أي عالمٍ يفتخر أن أستاذه فلان أو جامعته كذا، النبي يفتخر بأن الذي علّمه هو الله..

عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى كَلَامِ خَلْقِهِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[الدارمي]

نفس المثل: فضل كلام الله على كلام خلقه: ادخل إلى مكتبة كلّها كتب، كل هذه الكتب من تأليف بشر، فيها مصحف، هذا المصحف هو كلام خالق البشر، لذلك فضل هذا الكتاب.. المصحف على كل كتب الأرض كفضل الله على خلقه، وفضل علم النبي على علم علماء الأرض قاطبة من آدم إلى يوم القيامة كفضل الله على خلقه، أي عالمٍ علّم، هو عالم من بني البشر، يُخطئ ويصيب، وعلمه محدود، وله أبعاد ينتهي عندها، أما علم الله عزّ وجل فلا ينتهي، فالنبي أمّي، إلا أن الذي علّمه خالق السماوات والأرض، إذاً فهو فاق بعلمه علوم الأرض، لذلك:

يا أيها الأمي حسبك رتبة   في العلم أن دانت لك العلماء

***

تجد إنسانا يقرأ مجموعة أحاديث، يشرحها، يحلِّلها، يكشف أبعادها، فيحمل لقب دكتور في الحديث، أطروحته في الحديث، فصاحب هذا الحديث ما مرتبته ؟ إذا كان الذي درس مجموعة أحاديث، وشرحها، وحلّلها نال لقب دكتور، وهي أعلى مرتبة علمية، فهذا الذي قال هذه الأحاديث في كل شؤون الحياة..

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

ما مرتبته العلمية ؟

يا أيها الأمي حسبك رتبة   في العلم أن دانت لك العلماء

***

فالأمّية فيه هي عين الكمال، كما إذا كنّا نريد أن ننشئ مركزا علميا راقيا جداً، نختار أرض فلاة صخرية نظيفة، أما لو اخترنا أسواق المدينة حيث الضجيج، والازدحام، والقاذورات، والخلافات، والمشاحنات، فهذا المكان لا يصح لبناء معهد علمي راقٍ، فالوحي نزل على قلب إنسانٍ طاهر نقي، ونزل في أرضٍ خالية، لا فيها حضارات، ولا فيها تداخل حضارات، ومع الحضارات تزوير وكذب وبهتان، وفيها مداخلات، وأشياء لا تُحمَد عُقباها، أرض خالية، حتى العرب في صحرائهم كانوا على صفاءٍ معيّن، طبيعة البيئة تفرض على أصحابها نوعا معيّنا من الصفاء، فالله اختار هذه الصحراء، واختار هذه الأمّة الأمّية، واختار هذا النبي الأمّي ليكون رسوله إلى آخر الزمان، وليتنزّل على قلبه

القرآن، ولتصبح هذه الأمّة البسيطة الأمّية التي رَعَتْ الغنم قادةً للأمم، ولتعود قادةً للأمم فهذا منوطٌ بعودتها إلى الله، واصطلاحِها معه، أما إذا..

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

إذاً:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ)

أي في أمّةٍ أمّية، في بيئةٍ صافية، في بيئةٍ بعيدةٍ عن الحضارات، بعيدةٍ عن المُداخلات، بعيدةٍ عن تصادم الأفكار، في بيئةٍ صافية بعث فيها هذا النبي الأمّي.

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ)

رَسُولًا مِنْهُمْ

من جِبلّتهم، من طبيعتهم، من قومهم، من لغتهم، فلو أن النبي لم يكن منهم لم تقم الحجّة، لو أنه ليس من بني البشر لم تَقُم الحجّة، ولقلنا له: نحن بشر، يا رسول الله لو تعاني ما نعاني من شهوات لعذرتنا، نحن بشر لو تعاني ما نعاني من حاجات مادّية لعذرتنا، أنت لا تشعر بهذا، لكن النبي بشر، من بني البشر، يحسُّ بما نحس، يغضب ويرضى، يجوع ويعرق، ويخاف ويطمئن، لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيّد البشر..

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ)

من طبيعتهم، من خصائصهم، من جبلّتهم..

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ)

(سورة الأعراف: الآية 179)

لولا أن النفس واحدة لما كان هناك تفاوت، ونحن متى نقول: فلان الأول في جامعته ؟ لو أن هذا الطالب أُعطي الأسئلة قبل الامتحان بأسبوع، وأجاب إجاباتٍ تامّة، ونال علامات كاملة، وأقمنا له حفلاً عظيماً، لأنه نال الدرجة الأولى على كل طلّاب الجامعة، ألهذه الأولوية معنى ؟! هي شيء مضحك، لولا أنه طالب مثل جميع الطلاب، تجري عليه كل الأنظمة والقوانين، وفوجئ بالأسئلة، لكنّه أجاب عنها لأنه حَضّر جيداً لما سمحنا لأنفسنا أن نقول: هو الأول، كلمة هو الأول لأنه كغيره من الطلاب خضع لهذه المناهج، ولهذه الدراسات، وتلك الامتحانات، وتفوّق فيهما، أما لو أُعطي الأسئلة لم يعد الأول، صار النجاح نجاحًا مزوّرا، لم يعد الأول، لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر..

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ)

فاتني أن أقول لكم: لو أن النبي عليه الصلاة والسلام استوعب ثقافات عصره، سافر إلى الشرق وإلى الغرب، وقرأ الكتب، ودخل معاهد، وتتلمذ على أساتذة، ثم جاءه الوحي، صار لديه ثقافة مكتسبة، ووحي سماوي، الآن هو تكلّم، فإنه مع كل كلمةٍ يجب أن يُسأل: هذه من الوحي أم من عندك، الله عزّ وجل طمأننا فقال:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

كل كلامه في كل حياته وحيٌ يوحى، الوحي المتلو هو القرآن، وغير المتلو هو السُنَّة، فهو بين وحيين، وحيٌ متلو ووحيٌ غير متلو.

أما:

(الْأُمِّيِّينَ)

مرّة ثانية.. أي أن الله عزّ وجل أعلمُ حيث يجعل رسالته، ويبدو أن هذا العصر ليس مناسباً لنزول الوحي، لأن الأمور متداخلة جداً، لا يوجد صفاء، والشهوات مستعرة، وكثر التزوير، والكذب، والنفاق، أما الزمن الذي عاش فيه النبي فهو زمن جاهلي فيه خصائص، وبُعْدُ هذه الجزيرة عن الحضارات جعلها على نوع من الثقافة، وبُعد هذه الجزيرة عن تداخل الثقافات جعلها تُربة نقيّة لتلقي وحي السماء..

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ)

لحكمةٍ بالغة.

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

1 ـ ما هي الآيات ؟

الآيات جمع آية، وهي العلامة الدالة على عظمة الله، على وجوده، وعظمته، وكماله، ووحدانيته، والآيات أنواع ثلاثة: آياتٌ كونية، وآياتٌ تكوينية.. أفعال.. زلازل، فيضانات، حروب، جفاف، مطر، خيرات، هذه كلّها أفعال الله، آياته الكونية هي خلقه، آياته التكوينية أفعاله، آياته القرآنية كلامه، إلا أن المُرجّح هنا آياته الكونية..

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

من أجل أن يعرفوه، فإذا عرفوه واستقاموا على أمره اتصلوا به..

2 ـ وَيُزَكِّيهِمْ

(وَيُزَكِّيهِمْ)

فإذا تزكّوا..

3 ـ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

الآيات القرآنية.

(وَالْحِكْمَةَ)

السنّة النبوية.

4 ـ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

أيّة دعوةٍ إلى الله.. دققوا.. ينبغي أن تشتمل على التعريف بالله من خلال خلقه، وعلى تزكية النفس من خلال الاتصال به، وعلى معرفة كتابه.. كلامه.. وتفصيل أمره ونهيه.. السنّة.. فأية دعوةٍ إلى الله ينبغي أن تشتمل على آياته، والتزكية، والقرآن، والسنّة..

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

سرُّ مجيء التزكية قبل التعليم:

العلماء لفت نظرهم أن التزكية جاءت قبل تعليم الكتاب والحكمة، أي أن أول ثمرة من ثمار الإيمان التزكية، وهي إنسان كامل، إنسان لطيف، إنسان رحيم، إنسان مُنْصِف، إنسان ورع، إنسان عفيف النفس، هذه ثمار الإيمان، فما قيمة الإيمان كمعلومات ؟ مثله كمثل أي اختصاصٍ آخر، ماذا نستفيد من مؤمن مثقّف ثقافة عالية وهو مثلاً يكذب ؟ يأكل مالاً حراماً، يَتَكَبَّر، يحقد، أبطل كل صفات الإيمان، فالتزكية قبل:

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

التزكية، أوتينا الإيمان قبل القرآن.

إذاً:

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

الدالة على عظمته.

(وَيُزَكِّيهِمْ)

معنى التزكية:

يطهّر نفوسهم.

التزكية فيها معنيان: معنى التطهير، ومعنى التحلية بالكمال.

يزكيهم أي يطهرهم من العداوة، والبغضاء، والأثرة، وحبّ الذات، والجحود، والإنكار، والطعن، والحقد، كل هذه الصفات الذميمة التي تُسْقِطُ الإنسان من عين الناس هذه بالتزكية يشفى منها..

(وَيُزَكِّيهِمْ)

ومع التزكية السلبية هناك تزكية إيجابية، يحلّيهم بالكمال، فهذه النفس وعاء، كأن هناك مواد قذرة، مواد منفّرة فنظّفنا هذا الوعاء، وملأناه شراباً مُعطّراً، ملأناه شراباً مُمَسّكاً، ملأناه شيئاً نفيساً، عملية تطهير ثم تعطير، عملية تخلية ثم تحلية، عملية إزالة أدران ثم تزيين بالكمال.

كلمة يزكيهم أي أنه نجا من الحقد، من الكبر، من الجحود، من الحقد، من الدناءة.

(وَيُزَكِّيهِمْ)

حلّ محل الدناءة عفّة، حلّ محل الطمع تَرَفُّع، وتجمُّل، حلّ محل البخل كرم، حلّ محل الجبن شجاعة، حلّ محل التردد عزيمة قوية، هذا هو معنى يزكيهم، يطهرهم من صفاتهم الذميمة، ويحليهم بالكمال الإنساني، هذه أكبر ثمرة من ثمار الدين، وإذا لم يكن الإنسان مستقيمًا، وما كان منصفا، وما كان متواضعا، وما كان رحيما، وما كان أديبا، وما كان حييًّا، وما كان عفُوا، ما كان مترفعًا عن الدنايا فما قيمة إيمانه ؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا))

[الترمذي]

هذا هو الإيمان كلّه، هذا تعريف جامع مانع.. الإيمان حسن الخُلُق..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ))

[الترمذي]

الدعوة إلى الله تحتاج إلى تزكية للنفس وتعريفٍ بالله:

النبي عليه الصلاة والسلام أكبر مجتهد، أعظم قاضٍ، أعظم قائد، أعظم خطيب، أعلم عالم، لكن عندما أراد الله عزّ وجل أن يمدحه بماذا مدحه ؟ قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

كل البطولة بالأخلاق العالية، الأخلاق العالية هي نموذج من كمال الله عزّ وجل، هذا الإنسان موصول بالله معنى هذا أنه كامل، أو مقطوع عنه معنى هذا أنه ناقص..

أيها الإخوة... يزكيهم هذه شيء خطير جداً، لأن في القرآن الكريم على ما أظن أربع آيات.. آيتان أو ثلاث آيات:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

(سورة الأعلى)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(سورة الشمس)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

التزكية هي الهدف الأخير من خلق الإنسان، أي يزكي نفسه لتكون مؤهّلةً لجنّة الله.

ملخص الملخص: الإنسان في الدنيا يزكّي نفسه ليكون مؤهّلاً لجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، التزكية ثمن الجنّة، لذلك أية دعوةٍ إلى الله تُهمِل التزكية فهي دعوة عرجاء، هذه الدعوة الكاملة:

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

يعرّفهم بالله.

(وَيُزَكِّيهِمْ)

أي يطهّرهم، ثم:

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

أما إذا اقتصرنا على تعليم الكتاب والحكمة دون أن نعرف الله، ودون أن نزكّي أنفسنا ما أفلحنا، ليست هذه هي الدعوة، لأن الإنسان إذا عرف الكتاب والحكمة، ولم يعرف الله تفنّن في التَفَلّت من منهج الله، يضع قطعة ثوم في جيبه، ويأكلها يوم الجمعة، إذاً هو معفى من صلاة الجمعة، عَن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا فَلْيَعْتَزِلْنَا، أَوْ قَالَ فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا، وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ))

[متفق عليه]

النبي نهانا، فإذا لم يعرف الإنسان الله عزّ وجل، وما زكت نفسه فإنه يتفنّن في التفلّت من منهج الله، ويضحي بأثمن شيء لأتفه شيء، يبيع دينه بعرَضٍ من الدنيا قليل، يبحث عن المال من أي طريق، من أي وجهة، بأي ثمن دون أن يكون ورعاً، فلذلك الدعوة إلى الله تحتاج إلى تعريف بالله، وإلى تزكية النفس، وبعدها:

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

أما إذا اقتصرنا على تعليم الكتاب والحكمة، ولم نزكِّ أنفسنا فإننا لسنا مؤهّلين لجنّة الله، ومتى لم نزكّ أنفسنا معنى ذلك أننا لم نعرف ربنا، هذه دعوة، هذا منهج، هذا مبدأ، ركائز الدعوة إلى الله التعريف بالله من خلال خلقه، أو من خلال أمره، أو من خلال أفعاله، ثم تزكية النفس عن طريق الاتصال به، تطهيراً وتحلية، ثم:

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ)

القرآن..

(وَالْحِكْمَةَ)

في أوجه التفاسير هي السنّة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام بعثه الله عزّ وجل ليبيّن للناس ما نزّل إليه، هذه الدعوة إلى الله، تعريفٌ بالله، تزكيةٌ للنفس، معرفةٌ بالمنهج، معرفةٌ بتفاصيل المنهج، المنهج كعقيدة، وكعبادة، وكمعاملات، وكآداب، تأتي السنّة لتبيّن، مائتا حديث في البيوع، القرآن ذكر البيوع في آيةٍ واحدة، أي مع التراضي..

(وَأَحَلّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرّمَ الرّبَا)

(سورة البقرة: الآية 275)

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

1 ـ ضلال العرب في الجاهلية:

العرب قبل الإسلام كانوا في جاهلية.. قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي: " كنّا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام.. يعبدون صنماً من تمر فلمّا جاعوا أكلوه.. ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسئ الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف.. هذه هي الجاهلية:

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

(سورة الأحزاب: الآية 33)

ماذا تفيد كلمة الأولى ؟ أي هناك ثانية، جاهلية ما قبل الإسلام، وجاهلية ما بعد الإسلام ؛ الشهوات، والكسب الحرام، والانغماس في الملذّات حتى قمّة الرأس، هذه جاهلية ثانية..

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

2 ـ الضَّلَال عن الدين مُبين واضح:

ضلال واضح كالشمس، ولا تبتعد كثيراً، فأي أخ قبل أن يعرف الله، قبل أن يصطلح معه ينظر إلى حياته يجدها كلّها انحرافا، مزاحا رخيصا، نظرا إلى العورات، كذبا، كسب مال حرام، تناقضا وازدواجية، قلقا، دناءة، أما بعد أن عرف الله، وعرف منهجه طَهُرَت نفسه، وزكا عقله، وسما قلبه، وأصبحت ميوله راقية جداً، وصار له منهج يمشي عليه، فهذه الآية واضحة جداً..

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

والدليل: التق مع أحد أصدقائك الذين لم يسلكوا سلوكك سابقاً، اجلس معه ربع ساعة، واستمع إليه تعرف من أنت، حديث متناقض عن النساء أحياناً، الدنيا تملأ همّه، تملأ قلبه، مستعد أن يفعل كل شيء من أجل أهدافه الدنيئة، تراه إنسانا مهزوزا، متناقضا، خسيسا، فيه دناءة، ليس عنده التزام، مصلحته فوق كل شيء، مبادئه متغيرة، قناعته متبدِّلة، علاقاته كلّها مصلحية، قيمه مهزوزة، عش مع واحد تعرفه، ولم يسلك سلوكك..

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

نعمة العفّة، نعمة الورع، نعمة الاستقامة، نعمة وضوح الهدف، نعمة العقيدة الصحيحة، تعبد خالق الكون، هناك من يعبد بوذا، هناك من يعبد النار في آسيا، هناك من يعبد البقر، هناك من يعبد الجُرذان.. وعندي صور لمعابدهم، وفيها مئات الجرذان، يقدِّسونهم، يحترمونهم، يأكلون معهم.. هناك من يعبد موج البحر، هناك من يعبد الأعضاء التناسلية للرجال والنساء، وأنت تعبد الله خالق الكون، وأنت على منهج الله، على منهج مُعْجِز، مهما تطورت الحياة فلا يمكن أن يظهر شيء يناقض هذا المنهج، إنه من عند خالق الكون، من عند الصانع هذا المنهج، فلذلك:

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

منهج أساسه الاختلاط، هذا عينه على هذه، وهذه على هذا، وخلافات وطلاق، وتشتت أسر، لأنهم خالفوا منهج الله عزّ وجل.

أكاد أقول: أتحدّى أن تكون في الأرض مشكلةٌ كبيرة إلا ووراءها معصيةٌ كبيرة، وما من معصية إلا وراءها جهل، الجهل أعدى أعداء الإنسان.

فلذلك أيها الإخوة.

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ)

مدّ رجلٌ رجله وقال: من قال: أشرف منّي فليضربها، فقام إنسان وضربها، عشر سنوات من الحرب بين قبيلتين طحنت الأخضر واليابس بسبب ذلك، هذه هي الجاهلية..

بنت مثل الوردة يأخذها أبوها، ويحفر لها حفرة، ويضعها في الحفرة، وهي حيّة، ثم يردم عليها الرمل..

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

(سورة التكوير)

هذه هي الجاهلية، عشرة رجال على امرأة، تحمل فتختار أحدهم، وتقول: هذا الولد من هذا الرجل، فوضى جنسية غير معقولة..

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

الحجر يعبدونه، فجاء ثعلب وبال عليه، فكّر أحدُهم وقال:

أربٌ يبول الثعلبان برأسه لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب

***

معقول ؟ إله من تمر، لمّا جاعت ودّ أكلت ربّها، هذه هي الجاهلية، حروب طائشة، سفك دماء، فخر أجوف، الشاعر المعروف الذي قال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صممُ

الخيل والليل والبيداء تعرفني و السيف والرمح والقرطاسُ والقلمُ

* * *

هذا شعر، ولكن هذا ليس جاهلياً، خرج من بغداد إلى حلب، فظهر له أعداء في الطريق، فولّى هارباً، قال له غلامه: ألست القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

***

فقال له: قتلتني قتلك الله، فعاد وقاتل حتى قُتِل، ما هذه الجاهلية ؟

الإسلام رفع هذه الأمّة من رعاةٍ للغنم إلى قادةٍ للأمم، سيدنا عمر قال: **<< الحمد لله الذي أعزّنا بالإسلام، ومهما ابتغينا العزّة في غيره أذلّنا الله >>..**

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

ثم قال تعالى:

(وَآَخَرِينَ مِنْهُمْ)

(سورة الجمعة: الآية 3)

معنى: وَآَخَرِينَ مِنْهُمْ

وهذه الآية لها معنيان:

أي أمّةٌ لم تكن وقت نزول الوحي، جاءت بعدها، أو أمّةٌ غير هذه الأمّة، ما حولها، وهذه من بِشَارات القرآن الكريم أن الإسلام سَيَعُمُّ البُلدان وسيعمُّ الأزمان، أي اتسعت رقعته حتى شمل مليارا ومئتي مليون مسلم الآن، وحتى استمر ألف وأربعمائة عام، والإسلام يزداد شموخاً..

(وَآَخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3)ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ)

ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ

إنّ الإنسان إذا آتاه الله عزّ وجل شيئًا من العلم، و شيئًا من الحكمة، وأعانه على نفسه في طاعته، وذكر الله بلسانه، ودعا إليه فهذا هو الفضل العظيم الذي لا يفنى إلى أبد الآبدين، هذا هو العطاء الحقيقي. إن الله عزّ وجل أعطى المُلك لمن لا يحب، أعطاه لفرعون، وأعطاه لمن يحب، لسيدنا سليمان، أعطى المال لمن لا يحب، لقارون، وأعطاه لمن يحب، لسيدنا ابن عوف، ولكن الحكمة والعلم لم يعطهما إلا لمن يحبُّ حصراً..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص)

إذا سمح لك الله عزّ وجل أن تسمع الحق، وسمح لك أن تقتنع به، وسمح لك أن تطبّقه، وسمح لك أن تدعو إليه فإن هذا هو الفضل العظيم.

فضلُ الله أعظمُ من كل شيء في الدنيا:

لو كنت تملك أكبر شركة في العالم، وهناك شركات أرباحها تساوي ميزانيات دول، شركات ضخمة جداً، لو أنك تملك مثل هذه الشركات، وجاءك ملك الموت ليس لك منها شيء أبداً، أما إذا عرفت الله، وعرفت منهجه، وأطعته، ودعوت إليه، وسمح الله لك أن تكون سبباً في هداية خلقه فإن:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(72))

(سورة التوبة)

ذلك هو العطاء الكبير.

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

دققوا في هذه الآية:

(وَآخَرِينَ مِنْهُمْ)

نرجو الله عزّ وجل أن نكون من هؤلاء الآخرين، الآخرين أي أمّة أخرى، أو جيل آخر، أليس هناك شعوب غير عربية مسلمة ؟ إندونيسيا وحدها مئة وخمسون مليونا، إندونيسيا تعادل الأمة العربية بأكملها، ولم يأتهم سيف إلا التجّار فقط، والهند فيها سبعمئة وخمسون مليونا، نصفهم مسلمين، الباكستان، الأتراك..

(وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ)

أمّة أخرى، أو جيل آخر، فنحن إن شاء الله نكون بالمعنى الثاني، من الجيل الآخر..

(لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3)ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ)

أنت تتعرّف إلى الله من آياته، وأن تزكي نفسك، تطهرها من أدرانها، تحلّيها بالكمال، تعلمها الكتاب والحكمة..

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ)

فضله عميم، اختر هذا الفضل تنله، لكن له ثمن.

(وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

إذا استمع الإنسان إلى الحق.. دققوا أيها الإخوة لكم بشَارة:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال: الآية 23)

إذا سمح الله لك أن تستمع إلى الحق فقد علم فيك خيراً، بقي أن تطبّقه، وبقي:

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(151)فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة)

مثلما تعلّمت علِم، استمعت إلى درس انقله إلى زوجتك، استمعت إلى خطبة انقلها إلى إخوانك، لا تكن ساكتاً، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

[البخاري]

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(151)فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ

وإذا ذكرك الله عزّ وجل نِلتَ كل شيء، ذِكْرُ الله لك أعظم بكثير من ذكرك له، ذكرك له تنتفع وتُحفَظ، لكن ذكره لك يرفعك إلى أعلى علِيين..

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

هذا هو الفضل العظيم، العظيم يقول لك: هذا هو الفضل العظيم، لا تزهد بدرس، لا تزهد بمعرفة كتاب الله، لا تزهد بمعرفة سنّة النبي، لا تزهد في عمل صالح، لا تزهد في الدعوة إلى الله، لا تؤثر مصالحك المادّية على ذكر الله عزّ وجل، لأنه من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أُعطي السائلين.. هم في مساجدهم والله في حوائجهم.. من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين. هناك أخ له عمل صالح، له دعوة إلى الله، يخدم في دعوته، وفي تعليمه للقرآن، الله عزّ وجل أكرمه إكراما قبل أسبوعين أو ثلاثة، شيء لا يُصدّق، مستحيل أن يصل إلى هذا عن طريق الوسائل والوساطات، الله عزّ وجل سميع، بصير، عليم، كُن حيث يرضى عنك، ولا تفكِّر في شيء، **" كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يُصلِحُك ".. أعلم ما يَصلِحُك، لا تكلِّف خاطرك، قل لي ماذا تريد، كن لي كما أريد.. " أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد ".**

قانون التيسير والتعسير:

هذا قانون التيسير والتعسير، ولا شيء أصعب من التعسير، كلّما سلكت طريق تجده مسدودا، كلّما بحثت عن سبب فهو مغلق، فلا شيء أصعب في الحياة من التعسير، وفي الحديث:

((اللهمّ لا سهلَ إلا ما جعلته سهلاً))

[ابن حبان والحاكم عن أنس]

في عملك، في دراستك، في وظيفتك، في سفرك، أحياناً سفر يصبح قطعة من الجحيم لأسباب تافهة، وأحياناً يكون قطعة من النعيم، ولا شيء أكثر راحةً للنفس من التيسير.

القانون:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل)

آمن، أعطى، واتقى أن يعصي الله، وصدّق بالحسنى، بهذا الدين، آمن واستقام وعمل صالحاً..

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ)

امتنع.

(وَاسْتَغْنَى)

عن طاعة الله.

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

لأن من تشعّبت به الأمور لم يبالِ الله بأي أوديتها هلك، أي يذهب لسبب تافه، خبر مزعج يُحدِث له جلطة، فمات وانتهى، لسبب تافه جداً، في مكان تافه، بمناسبة تافهة، أما المؤمن فهو غالٍ على الله عزّ وجل، حياته مقدّسة، والنبي الكريم أقسم الله عزّ وجل بعمره فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر)

فالإنسان على قدر استقامته، وعلى قدر إخلاصه، على قدر محبّته، وعلى قدر معرفته، وعلى قدر دعوته إلى الله عزّ وجل يرتفع عند الله..

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1)وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(2)الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(3)وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

لابد للمؤمن أن يفرح بفضل الله عليه:

المؤمن كبير جداً عند الناس وعند الله، أما هو صغير جداً في نفسه، بنظر نفسه، إذاً:

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ)

هذا الفضل الحقيقي.

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: الآية 58)

افرح بهذه..

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ)

أن تعرفه، وأن تزكي نفسك، وأن تعرف كتابه، وأن تعرف سنّة رسوله.

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ)

من السابقين واللاحقين، العرب وغير العرب.

(وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3)ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ)

في درسٍ آخر من إن شاء الله نكمل تفسير الآية:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجمعة 062 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 5- 8

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-09-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة الجمعة، ومع الآية الخامسة، وهي قوله تعالى:

(سورة الجمعة)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

علاقة الآية بما قبلها:

قد يسأل سائل: ما علاقة هذه الآية بقوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(2)وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3)ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(4)مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الجمعة)

1 ـ الصحابة استجابوا لدعوة الرسول:

أيها الإخوة الكرام، حينما بُعِثَ النبي عليه الصلاة والسلام لهذه الأمة نبياً ورسولاً، بشيراً ونذيراً، أصحابه الكرام استجابوا له، وفهموا حقيقة دعوته، وطبّقوها، وتألّقوا، ودانت لهم الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، وخرجوا من جزيرتهم ونشروا الإسلام في الخافقين، هذه الدعوة المتألِّقة، هذه الدعوة السماوية، كيف يمكن أن تفرّغ من مضمونها ؟ كيف يمكن أن تتراجع ؟ كيف يمكن تزهو ؟

2 ـ موقف اليهود من دعوة الرسول كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا:

اليهود جاءتهم التوراة، حُمِّلوا التوراة، أي أُنْزِلَتْ على نبيّهم، نبيهم علمهم إيّاها، عرفوا أحكامها، ثم لم يحملوها، حُمِّلوها تعليماً وإرسالاً، ثم لم يحملوها تدبُّراً وتطبيقاً، فأكبر خطر ينتظر المسلمين هو أن يقرءوا النصوص، ولا يعملوا بها، أن يفهموا حقيقة الوحي ولا يطبّقوه، أن يكونوا أوعية لا وعاةً لهذا الدين العظيم، وهناك مفارقة عجيبة جداً هي أن الصحابة الكرام كانوا قلة لا يزيدون على عشرة آلاف

رجل، نُقِلتْ دعوتهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، بينما المسلمون اليوم يزيدون على مليون ومئتي مليون، ومع ذلك تروْنَهُم ليسوا كما ينبغي أن يكونوا.

في الحقيقة الخطر الكبير الذي ينتظر المسلمين هو أن يكون هذا الدين صورةً في حياتهم، ليس مطبقاً في حياتهم، الله جلّ جلاله يقول:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: الآية 33)

أجمع العلماء على أن النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن يرتحل إلى ربّه عذاب أمته بمخالفة سُنَّته، بل إن الله سبحانه وتعالى جعل علامة حبه اتباع سنة نبيه، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران: الآية 31)

أكبر خطر على المسلمين مشابهتهم لليهود أنهم حملوا التوراة، ثم لم يحملوها:

إذاً عندنا خطر كبير ؛ أن نقرأ القرآن ولا نعمل به، أن نقرأ السنة ونتزيّن بها ولا نطبّقها، أن تكون حياتنا في وادٍ والنصوص التي نقرأها كل يومٍ قراءةً تعبُّدية في وادٍ آخر، أن لا يكون هذا الدين مطبّقاً في حياتنا، أن نحيا حياةً على نمطٍ غربي، أن نُتاجر على النمط الغربي، أن نقيم علاقتنا الاجتماعية على نمطٍ غربي، دون أن يكون للدين دخلٌ في حياتنا، لكن الدين في المسجد، نصلي في المسجد، ونقرأ القرآن في المسجد، ونقيم شَعائِرَهُ دون أن نسمح للدين أن يدخل إلى حياتنا اليومية، كما أن اليهود حُمِّلوا التوراة، أنزلت عليهم التوراة، نبيهم الكريم سيدنا موسى علّمهم إيَّاها، إلى أنهم لم يحملوها، أي لم يطبّقوها، ماذا قالوا ؟

(قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

(سورة آل عمران: الآية 75)

أي هم أحرار في أن يسيئوا إلى الأقوام الآخرين، بل إن هذا يُعَدُّ جزءًا من دينهم.

(لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

كما ذكرت في الدرس الماضي، الأميون أي في الأمَمِيين، الأمم الأخرى، هم يتوهمون أنهم شعب الله المختار، وليس عليهم أن يسيئوا أو أن يغتصبوا، أو أن ينكِّلوا في بقية الأمم، هذا جزءٌ من عقيدتهم الفاسدة، لذلك حملوا التوراة ثم لم يحملوها، أي لم يطبقوها، فلذلك محك الإنسان الحقيقي لا ما يقوله لك، بل ما يفعله، وقد تجد أناساً ألسنتهم أحلى من العسل، وفعلهم أَمَرٌّ من الأسل.. أي الصبر.. ولئلا يتوهَّم الإنسان أن بكلامه الذكي ينتزع إعجاب الآخرين، وينجو عند الله، لا ينفعنا إلا أن نكون على منهج الله،

لا ملجأ من الله إلا إليه، فالإنسان يتكلم، وبكلامه إذا ذكياً يقلب الحق إلى باطل، والباطل إلى حق، يعتدي ويتهم الذي اعتدى عليه أنه هو السبب، يتجاوز الحدود، يتناقض ويقنع الناس بلسانه الذَرِبْ أنه على حق، هذا عقابه يوم القيامة قوله تعالى:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ)

(سورة يس: الآية 65)

لأنهم كاذبون.

(وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ)

(سورة يس: الآية 65)

أخطر شيء يصيب الدين أن يبقى طقوساً، حركاتٍ لا معنى لها، عباداتٍ جَوْفاء، أن يوصف عند الآخرين بأنه تراث، ثقافة، فلكلور، عادات، تقاليد، نماذج، رواسب الأباء والأجداد، الدين منهج، الدين سبب سعادة المجتمع، سبب انضباطه، فأكبر خطر يتهدد المسلمين هو الخطر الذي أهْلَكَ اليهود أنهم حملوا التوراة، ثم لم يحملوها، القرآن بين أيدينا نقرأه صباح مساء، أحكامه واضحةٌ وضوح الشمس، ومع ذلك لا تجدُ معظم المسلمين في مستوى هذا الكتاب، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((رُبّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((ما آمن بالقرآن من استحل محارمه))

[الطبراني في المعجم الكبير عن صهيب]

العبرة في تطبيق الدين:

العبرة لا أن تقرأ القرآن، العبرة أن تقرأه وأن تطبقه، العبرة لا أن تصلي في المسجد، العبرة أن يكون بيتك مسجداً، أن يكون بيتك منتظماً، ملتزماً، العبرة أن تربي أولادك وفق الشريعة الإسلامية، العبرة أن تأخذ بيد زوجتك إلى الله ورسوله، العبرة أن تتعامل مع الناس وفق منهج الله، العبرة أن يستوي عندك التِبْر والتراب في جنب الله عزّ وجل، والمال مهما عظم فهو تحت قدميك إذا كان سيحجبك عن الله عزّ وجل، هذا هو المؤمن.

النبي عليه الصلاة والسلام ربّى أصحاباً من هذا النموذج، لذلك كان الواحد منهم كألف، سيدنا عمر حينما أرسل إلى سيدنا سعدٍ دعماً.. استنجد به، أريد الإمداد، أريد جيشاً يَدْعَمُني.. أرسل له واحداً القعقاع بن عمرو، أيعقل أن يرسل الخليفة إلى قيادة جيشٍ في العراق دعماً رجلاً واحداً ؟!!

فيا أيها الإخوة الكرام، العلاقة بين هذه الآية وبين الآية التي سبقتها هو أن الله سبحانه وتعالى قال:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

وهذه الدعوة التي كانت محور الدرس الماضي، تلاوة الآيات الكونية، والاتصال بالله، والتزكية، التطهير من الأدران والتحلي بالكمال، ومعرفة الكتاب والسنة، هذه هي أركان الدعوة إلى الله، هذه الدعوة التي آتت أُكُلَها، وأيْنَعَت ثمارها في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، حتى استحق أصحابه أن يستخلفهم الله في الأرض، فاستخلفهم، وكانت كلمتهم هي العُليا، استخلفهم الله في الأرض، ومَكّنَ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمناً، لأنهم عبدوه، فإذا جاء بعد قوم النبي قومٌ ما عبدوا الله، بل عبدوا شهواتهم لم يستخلفهم في الأرض.

اصعد إلى جبل قاسيون، وانظر إلى سطوح المنازل تفهم كل شيء، لا تنظر إلى أشياء أخرى، أنظر إلى سطوح المنازل ماذا عليها ؟ تعرف ماذا في هذا البيت، انظر إلى النوافذ متألِّقة حتى الساعة الخامسة صباحاً، ماذا يفعل هؤلاء في الليل ؟ ثم يَعْتَبَ الناس على ربّهم لماذا لا ينصرهم ؟!

المشكلة حينما تنفصل الحياة عن الدين فيصبح الدين ثقافة، تراثا، كتبا في المكتبة، يصبح الدين أفكارا لا تقدِّم ولا تؤَخِّر، يصبح الدين عادات، فأحياناً إكراماً لشهر رمضان المبارك تُقام الحفلة الفلانية الراقصة، والملهى الفلاني يقدم أشياء إكراماً لرمضان المبارك، لم يعد هناك دين، انفصلت الحياة عن الدين، لذلك:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: الآية 33)

لن ينصرنا الله إلا إذا كنا كما يريد:

الإنسان أحياناً يستمع إلى ما يجري في العالم الإسلامي فيتألم أشد الألم، ولكن لو فتح القرآن ليفهم الحقيقة يرى قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: آية 11)

لنغير ما بأنفسنا حتى يغير الله ما بنا، لنفتح القرآن ونقرأ:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد: الآية 7)

فإن لم ننصر دينه في بيوتنا، إن لم ننصر دينه في أعمالنا، إن لم ننصر دينه في بناتنا، إن لم ننصر دينه في أولادنا، إن لم ننصر دينه في أفراحنا، إن لم ننصر دينه في أتراحنا فليس لنا عليه شيء.

دققوا في هذا الحديث الصحيح، عَنْ مُعَاذِ بْن جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ ؟ ـ أراد الله أن يطمئننا، أراد الله أن ينشئ لنا حقاً عليه ـ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

[متفق عليه]

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

الله عزّ وجل أنشأ هذا الحق على ذاته العَلِيّة.

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)

(سورة النساء)

فإذا كان لهم على المؤمنين ألف سبيلٍ وسبيل، ماذا يعني ذلك ؟ إذا كان للكافرين على المؤمنين ألف سبيلٍ وسبيل، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ))

[متفق عليه]

ما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أنهم تركوا دينهم، ولم ينصروا دينهم، ولم يطبّقوا شرع نبيهم، لذلك الله جلّ جلاله يعالجهم، ولعل في المعالجة خيراً لهم، لقوله تعالى:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

فلذلك المسلمون وقد تألّقت دعوة الإسلام في حياتهم، وقد قطفوا ثمارها في عهد النبي وعهد أصحابه الراشدين، ومن بعدهم التابعون، هذه الدعوة التي تألّقت أشد التألّق في صدر الإسلام، ما الخطر الذي ينتظرها ؟ الخطر الذي ينتظرها أن نُحَمّل القرآن إنزالاً وتعليماً، ثم لا نحمله تدبراً وتطبيقاً، فنكون كهؤلاء الذين وصفهم الله عزّ وجل:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

3 ـ معنى: أَسْفَارًا:

الأسفار جمع سِفْر، والسفر هو الكتاب، و السَفْرُ هو الكشف، سفرت العمامة عن الرأس أي كُشِفَت عن الرأس، سَفَرَ الحجاب عن الوجه أي كشف عن الوجه، فالسَفَر الكَشْف، أما السِفْر فهو الكتاب، به تكشف الحقائق.

لو أن دابة حُمِّلت كتاباً في الفَلك، وكتاباً في الرياضيات، وكتاباً في الفيزياء، وكتاباً في علم النفس، وكتاباً في علم الاجتماع، وكتاباً في التاريخ، وكتاباً في الجغرافيا، وكتاباً في الفلسفة، وسارت هذه الدابة وعلى ظهرها هذه الكتب مسافةً طويلة، ثم استوقفناها، وسألناها عن قانون التجاذب الحركي فإن الحمار يَنْهق.

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

شيء زَرِيّ، شيءٌ لا يحتمل، إنسان يقرأ القرآن ولا يعمل به، يقرأ القرآن وبناته كاسياتٌ عاريات، مائلاتٌ مميلات، ملعوناتٌ أينما ذهبن ؟ يقرأ الجلُ القرآن ودخله حرام، يقرأ القرآن وحياته اختلاط، يقرأ القرآن هو في وادٍ، والدين في وادٍ آخر.

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا)

4 ـ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا

حُمِّلوها أن القرآن أنزل على هذه الأمة، والنبي فصّله في سنته، سنته كلها تبيانٌ لما في هذا القرآن، معنا كتاب الله، ومعنا كتب السنة، تسعة كتبٍ صحيحة، السنة تزيد على ستمئة ألف حديث، الكتب الصحيحة التسعة تزيد على ستين ألف حديث، في هذه الأحاديث شرَحَ النبي القرآن، وهي متوافرةٌ بين أيدينا أينما ذهبت، الكتاب مع تفاسير مقروءة، وتفاسير مسموعة، وتفاسير مرئية، فالمكتبة الإسلامية عامرة إلى أقصى درجة، بل إنك لتجد أنه إذا أقيم معرض للكتاب الناس فيه زرافاتٍ ووحدانا، هناك إقبال على طلب العلم، فأين التطبيق ؟ أين الاستخلاف الذي وعدنا الله به ؟ أين التمكين الذي وعدنا الله به ؟ أين التطمين الذي وعدنا الله به ؟ أين النصر الذي وعدنا الله به ؟ أين معنى قوله تعالى:

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

أين قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: الآية 33)

لأن المسلمين أصابهم ما أصاب اليهود:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا)

حُمِّلوا القرآن ثم لم يحملوه.

(كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

1 ـ المسلمون يكذِّبون القرآن بلسان حالِهم لا بلسان مقالهم:

أيها الإخوة الكرام، لا أعتقد أن في العالم الإسلامي رجلاً واحداً يقول لك: القرآن ليس كلام الله، هذا قلّما تجد، حالات نادرة جداً، حالات تعد على أصابع اليدين، أن يقول لك قائل: هذا القرآن ليس كلام الله، لكنك تجد أن إنساناً يقرأ القرآن، ولا يعمل به، كيف تفسر إنسانا يقرأ القرآن ولا يعمل به ؟

2 ـ التكذيب العملي أخطر من التكذيب القولي:

إذا ذهبت إلى طبيب، وعالجك الطبيب، ووصف لك وصفة، وصافحت الطبيب، وأثنيت على علم الطبيب، وتشكرت الطبيب، ولم تشتر هذه الوصفة، وأنت متألم، ومعك مال، فعدم شرائك لهذه الوصفة تكذيبٌ لعلم الطبيب، تكذيبٌ ضمني، وهذا أعظم أنواع التكذيب، إنك إن كذبت بلسانك ناقشناك، وحاورناك، وأقنعناك، لكنك تقول: كلام الله، هذا القرآن تقول أنت: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا سبيل إلى محاورتك، أما إذا دخلت إلى بيتك لا تجد أثراً للقرآن في بيتك، ولا في خروج بناتك، ولا في تربية أولادك، ولا في كسب مالك، ولا في إنفاق مالك، إذاً: هذا الذي حصل..

(بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

فهذا الذي يطلق بصره في الحرام، يملأ عينيه من الحرام، ويقرأ قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: الآية 30)

ألا يكذب تكذيباً ضمنياً بهذه الآية ؟ إذًا:

(بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

هذا الذي يقرأ القرآن ؛ يقرأ قوله تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: الآية 276)

ويتعامل بالربا ألا يُكَذِّبُ هذه الآية ؟

هذا الذي يقرأ قوله تعالى:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ)

(سورة البقرة: الآية 188)

ويأكل أموال الناس بالباطل اغتصاباً، واحتيالاً، وغشاً، وتلاعباً، وتدليساً، وإخفاء عيبٍ، وتزوير جهةٍ صانعةٍ، هذا الذي يأكل أموال الناس بالباطل، ويقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة النساء: الآية 29)

ألا يكذِّب بهذه الآية ؟

إن أخطر أنواع التكذيب أن يكذِّبُ عملك لا أن يكذب لسانك، لأنه إن كَذّبَ عملك فلا أحد يكشفك، فأنت فيما تعلن مسلم، مؤمن، صادق، طاهر، لكن حينما تكون مع المؤمنين تندس بينهم، لا يعرف ما إذا كنت معهم أو ضدهم، لذلك قال تعالى:

(وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ)

(سورة الأحزاب: الآية 20)

لو قال: لو كانوا معكم فهذا موضوع ثان..

(وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ)

اندمجوا معكم، يصلوّن كما تصلون، يسبّحون كما تسبحون، يأتون المساجد كما تأتون، لكنهم لا يطبّقون، فهذا الذي يحضر مجلس العلم، ولا يلتزم بأوامر الدين، كيف يفكر ؟ كيف ينام ؟ كيف يستلقي على جنبه مساءً ؟ سمع الحق، أو أسمعه الله الحق، ما حجته عند الله عزّ وجل ؟ لمَ لا تطبق ؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3))

(سورة الصف)

هل يعقل أن يكون أصل العمل حراماً، وأصل كسب المال حراماً، وأصل هذه العلاقة محرّمة، ثم تتبرك بالعلماء، تدعوهم إلى بيتك لينطقوا بكلمات الحق وأنت تزهو بهم، أليس هذا نفاقاً ؟ أيها الإخوة الكرام، ليس من أشياء قليلة تَخَلّى الله عنا، هناك أسباب كبيرة جداً، ومع ذلك نحن نرجو رحمة الله، ونخشى عذابه، فالله عزّ وجل قال:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

الله جلّ جلاله إذا قنن فلا يُقنن عجزاً، لأنه:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

(سورة الحجر: الآية 21)

إلا أن الله إذا قنن، إذا قنن الدخول، إذا قنن الأمطار، إذا قنن المكاسب، إنما يقنن تأديباً.

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

أصحاب الجنة الذين انطلقوا إليها يتبخترون من أجل أن يصرموها مصبحين، ولا يستثنون حق الفقراء..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19)فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ(20)فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ(21)أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ(22)فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ(23)أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ(24)وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ(25)فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ(26)بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

(سورة القلم)

قصة أصحاب الجنة: دروس وعبر:

إنسان لا يؤدِّي زكاة ماله، عنده بستان يُضَمِّنُه كل عام بمليون ليرة، هَبَّتْ رياحٌ عاتية قبل أيام لم تبق له شيئاً، مَحَقَت الإنتاج كله، كله في الأرض، وبحجمٍ صغير، في منطقة مرتفعة، ولأنها مرتفعة يتأخر نمو التفاح فيها، يضمنه كل عام بمليون ليرة، ليس عنده شيء يُضَمِّنُهُ.

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

والسرعة ثمانون كيلو متر، لو كانت مئة وعشرين فهذه نكبة ثانية، لو كانت مئتين، هناك أعاصير بسرعة ثمانمئة كيلو متر تقتلع المدينة من جذرها، بثمانين كيلو متر لا تبقى شيء، ربنا عزّ وجل بعد أن حدثنا عن قصة أصحاب الجنة، قال:

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ(28)قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

(سورة القلم)

قال تعالى:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم)

أي يا عبادي كل أنواع العذاب الذي أسوقه لكم من هذا النوع، عذاب تأديب، عذاب معالجة.

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

المشكلة أن هذه الآية يُقاس عليها أن الذي حُمِّلوا القرآن ثم لم يحملوه.

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

عدم تطبيق أوامر الله تكذيبٌ عملي بها:

معنى ذلك أن كل أمرٍ بين يديك لا تُطبِّقُهُ هو تكذيبٌ به بنوعٍ أو بآخر، حينما لا تطبق أمر الله عزّ وجل أنت تكذبه، تكذيباً معلناً بلسانك، وهذا قلما يكون، أو تكذيباً سلوكياً ضِمْنِيًّا، وهذا أخطر أنواع التكذيب..

(بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

3 ـ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وانحرفوا عن جادة الصواب، ولم يعملوا بكتاب ربهم ولا بسنة نبيهم هم ظالمون.

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ

ثم يقول الله عزّ وجل:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الجمعة: آية 6)

1 ـ الدعوى باللسان سهلة يسيرةٌ:

الدعوى سهلة.

و كلٌ يدعي وصلاً بليلى

***

الدعوى سهلة، زعم اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة: آية 18)

هذه دعواهم..

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

إخواننا الكرام، كل إنسان بإمكانه أن يدّعي ما يشاء، أنت لك أن تقول: هذه الشام كلها ملكي، بكل أحيائها، وأبنيتها، وبيوتها، وأسواقها، لكن أين الدليل ؟ نريد الدليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، إذا أعفيتموني من الدليل أقول لكم: كل الشام ملكي، بكل بيوتها، وكل أبنيتها، وكل أسواقها التجارية، كلها ملكي، بلا دليل، لذلك القضية من دون دليل سهلة جداً، كلٌ يدعي أنه حبيب الله، وأنه مؤمن كبير، وأنه عالم جليل، هُناك أدِلّة.

لماذا ربنا عزّ وجل ما قبل من أي إنسان أن يدّعي حبه إلا بالدليل ؟ قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران: الآية31)

فهؤلاء الذين هادوا، قال تعالى لهم:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ)

إن زعمتم أنكم أحباب الله، أحبابه، الحبيب يشتاق إلى حبيبه، هذه بديهية، فالإنسان إذا أحَبَّ فتاةً، ونوى أن يتزوّجها يتمنّى أن يلتقي بها، وهناك شيء بسيط جداً من أبسط مبادئ الحب ؛ أن تتمنى أن تكون مع محبوبك، فإن زعمتم أنكم أحباب الله:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)

2 ـ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ

الحقيقة موضوع تمنّي الموت هذا كاشف دقيق جداً، فالذي يتمنى الموت هو الذي على صلةٍ طيبةٍ بربه، يتمنى لقاءه، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ))

[متفق عليه]

لو قرأتم تاريخ الصحابة الكرام لوجدتم أن في حياتهم قاسماً واحداً مشتركاً ؛ ألا وهو: أنه ما من صحابيٍ جليل إلا وكان في أسعد لحظات حياته عند دنوّ أجله.. واكربتاه يا أبت، قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه.. وهذه علامة صحة العمل.

إذا كان الإنسان لا يحتمل ذكر الموت، لا يحتمل منظر القبر، لا يحتمل مرضا خطيرا، لا يحتمل نعيًا، لا يحتمل أن يسمع قرآناً يُتْلى في تعزية، ينخلع قلبه، معنى هذا أن هذه مشكلة كبيرة جداً، وفي عمله

خلل كبير، هذا مصير كل حي، لذلك علامة صحّة العمل عدم الخوف من الموت، وعلامة سوء العمل الفزع من الموت، هذه آية قرآنية، ودليل قرآني:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)

هناك بعض القواعد: مثلاً: ما الذي يفرحك ؟ أن تأخذ المال أم أن تعطيه ؟ إذا كان يفرحك أن تأخذ المال فأنت من أهل الدنيا، أما إذا كان يفرحك أن تعطيه في سبيل الله فأنت من أهل الآخرة، إذا كان الموت يَخْلَع قلب الإنسان، أو لوازم الموت، أو مقدّمات الموت، ولا يطيق سماعها، ولا النظر إليها فهذه علامة غير مرضية، معنى ذلك أن العمل سيئ، أما إذا كان لقاء الله محبباً إليك فهذه علامةٌ طيبةٌ جداً، هذا مقياس قرآني، فكل واحد يعرف نفسه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ))

يَعْنِي الْمَوْتَ.

[الترمذي، النسائي، ابن ماجه، أحمد]

الإنسان يتصور أنه إذا مات أين سيدفن ؟ أين سَيُغَسّل ؟ ما مصير أهله بعده ؟ هذه خواطر مفيدة جداً، لأنها تضع الإنسان في حجمه الحقيقي، يا ترى دخله سليم ؟ كسبه سليم ؟ علاقاته سليمة ؟ إنفاقه سليم ؟ بيته إسلامي ؟ عمله إسلامي ؟ البضاعة التي يتعامل بها محرمة أم حلال، هذا كله يبدو بالموت، وفي التفكر في الموت:

وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الجمعة)

(يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ)

(سورة البقرة: الآية 96)

أعرف رجلا.. أو قرأت عنه أنه ما ركب طائرةً في حياته خشية الموت، ضبط طعامه وشرابه بشكل مذهل، وعاش عمراً مديداً، ثم مات، وهذا مصير كل حي، فلذلك موضوع الموت موضوع مركزي، وكلنا ميتون:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورة الزمر)

لابد من الاستعداد للموت:

لا يستطيع أحدٌ أن ينكر الموت، إلا أن الناس يتفاوتون في الاستعداد له، الاستعداد له بالتوبة، الاستعداد له بالعمل الصالح، الاستعداد له بالدعوة إلى الله، الاستعداد له بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الاستعداد له بإقامة الإسلام في البيت وفي العمل، بهذا نستعد للموت.

الموت أيها الإخوة له هدفان إيجابيان، لو أنك تركب مركبة على طريقٍ مستقيم، وعلى اليمين والشمال واديان سحيقان، ما الخطر الذي يتهدد هذه المركبة ؟ أن تنحرف إلى أحد الواديين، أو أن يحترق محركها فتقف، فإما الوقوف، وإما الانهيار، مهمة الموت في حياة المؤمن أنه يحول بينك وبين أن تعصي الله.. التفكر في الموت يحول بينك وبين أن تقف، يدفعك إلى الله، ويحميك من الانزلاق في المعاصي، لذلك النبي الكريم قال:

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ))

يَعْنِي الْمَوْتَ.

[الترمذي، النسائي، ابن ماجه، أحمد عن أبي هريرة]

إن الإنسان المؤمن يتفكر في الموت، ولا يخشى الموت، لأنه مصير كل إنسان، فهذا الذي يخاف الموت، ويبتعد عن كل مسبباته، وعن كل لوازمه، ولا يطيق سماعه، ولا سماع أوصافه هذا كالنعامة تغرس رأسها في الرمل والعدو لاحقٌ بها، فلذلك البطولة لا أن أبتعد عن ذكر الموت أن أفكِّر في الموت كثيراً، وأن أستقيم على أمر الله كثيراً، لذلك:

(وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

(سورة الجمعة)

لأنهم ظالمون لا يتمنونه، ظلموا أنفسهم، وظلموا غيرهم.

أما هذه الآية:

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

(سورة الجمعة: آية 8)

قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ

الموت مصير كل حي:

تصوّر إنسانا يخاف من عدوٍ شرس، فهو يركض والعدو وراءه، وكل يقينه أنه وراءه، ثم فوجئ به أمامه !!

حدثني شخص عن رجل أصيب بأزمة قلبية، فرأى الموت يأتيه من قلبه، فاعتنى عناية تفوق حد الخيال، الطعام المقنن، والرياضة، والعناية، والراحة التامّة، والبعد عن المشكلات، حسب تعليمات الطبيب، وهو لا ينتظر الموت إلا من قلبه، جاء صهره من بلدٍ نفطي، ومعه سيارة فخمة، أخذه إلى نزهة إلى منطقة الزبداني، وفي طريق العودة وقع حادثٌ أليم أودى بحياته، هو ينتظر الموت من أين ؟ من قلبه، فإذا هو بحادث لم يكن يتوقّعه:

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

تظنه وراء ظهرك، وأنت هاربٌ منه قد تفاجأ أنه أمامك.

من لم يمت بالسيف مات بغيره تنوّعت الأسباب والموت واحد

***

الموت مصير كل حي، الإنسان مهما أخذ الحيطة، كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

***

كل ابن أنثى وإن طـالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت يوما إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها مــحمول

***

خواطر الموت مفيدة جداً، أن هذا البيت بعد أن أموت سيبيعونه أم لا ؟ هذا مصير كل حي، هذا المحل بعد وفاة الإنسان ماذا سيكون مصيره ؟ الإنسان يفكر في الموت حتى يخفف تعلقه بالدنيا.

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ)

(سورة آل عمران: الآية 185)

الزحزحة أي شيء ثقيل جداً:

(وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران: الآية 185)

(قُلْ إِنّ الْمَوْتَ الّذِي تَفِرّونَ مِنْهُ فَإِنّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمّ تُرَدّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ فَيُنَبّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة الجمعة)

ثُمّ تُرَدّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ فَيُنَبّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

1 ـ لابد من التفكر فيما بعد الموت:

أي أن هذا الذي لا يفكر في الموت كما قلت قبل قليل: كالنعامة تماماً، فلابد من العودة إلى الله، ولابد من أن نحاسب على أعمالنا صغيرها وكبيرها..

(فَوَرَبّكَ لَنَسْأَلَنّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

أين قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرًا يَرَه)

(سورة الزلزلة)

هناك قصة رمزية: أن رجلا من كبار الأغنياء وافته المّنية، أولادهم من شدة خوفهم على مصيره في القبر دفعوا لأحد الفقراء المعدمين مبلغاً كبيراً جداً لينام معه أول ليلةٍ في قبره، لأنه قد ورد في بعض الأحاديث أن أصعب ليلة هي أول ليلة، يقول الله عزّ وجل لعبده:

" عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت "، فهذا الفقير الْمُعَدم يرتدي كيسًا من الخيش، ورابطه بحبل حول وسطه، فنزل في القبر.. وهذه قصة رمزية.. جاء الملكان، فرأيا اثنين.. شيء جديد.. تحرك، فقالوا لبعضهما: لنبدأ بالحي، أجلسوه وسألوه: من أين هذا الحبل ؟ فأجاب: والله أخذتها من بستان، فسألوه: كيف دخلت إلى البستان ؟ ضربوه، كيف دخلت إلى البستان ؟ هل استأذنت صاحبه ؟ هذا صباحاً خرج وهو يصيح ويستريح، ويقول: الله يعين أباكم..

موضوع الموت أمر كبير جداً، فراقب، احضر تعزية في بيت فخم، وانظر إلى أين مصير صاحبه اليوم ؟ بيت بمساحة أربعمئة متر، ثمنه خمسون مليونًا، أين مصير صاحبه اليوم مساءً ؟ في المقبرة، ماذا يوجد داخل القبر ؟ ظلام دامس، وحساب دقيق عن كل كلمة.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَقَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ، وَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا، كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

[الترمذي]

الآن أين هي كلمة قصيرة، يتكلمون في عرضها ولا يبالون، سهرة كلها غيبة ونميمة، أو مسلسلات منحطة، أو لعب بالنرد إلى الساعة الواحدة مساءً، وكسب مال حرام ونزهات مختلطة، المعاصي كلها موجودة، والموت مثل النعامة تماماً، لذلك: **" من عد غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت "**.

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

2 ـ إذا ذكر الموت في قليل إلا كثره، ولا في كثير إلا قلله:

لذلك النبي علّمنا أن نفكر بالموت كل يوم، ويا إخواننا الكرام الموت له ميزة، ما ذكر في كثيرٍ إلا قلله، واحد مات من مدة وترك ألفين مليون، في خلال ثانية صار خبرا على الجدران، انتهى، يا ترى في الكفن هل يوجد جيب ؟ هل يوضع دفتر شيكات في الكفن ؟ القبر خمس نجوم ؟ لا يوجد خمس نجوم، في الحياة خمس نجوم، فلذلك موضوع الموت أخطر ما فيه أن الإنسان بغفلة عنه أحياناً، أما إذا أكثر الإنسان من ذكره استقام على أمر الله.

الشيء الذي يلفت النظر أن الإنسان تنمو حياته درجة درجة، يقول لك: إلى أن أخذت هذا البيت خرجت عيوني بالطول والعرض، وبيت قبو، وشمالي، بعد ذلك قام بتوسعته، تنمو حياته درجة درجة، يأتي ملك الموت يخلِّصه كل ما يملك في ثانية واحدة، انتهى كل شيء، حتى مقتنياته الشخصية تؤخذ، فلا يوجد أحد إلا ولديه درج خاص له يضع فيه أشياء ومقتنيات، هذا بعد الموت كله يفتح ويؤخذ ويستهلك، وينتهي الأمر.

يا أيها الإخوة... التفكر بالموت من العبادة، فالموت ما ذكر في كثيرٍ إلا قلله، بالعكس، وما ذكر في كثيرٍ، إذا كانت حياة الإنسان خشنة، دخله محدود، لكنه مستقيم على أمر الله، هذا مَلِك..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

خاتمة:

إذا كانت حياة الإنسان خشنة، وكان مستقيمًا، وذكر الموت كثَّرَ الله أمله، وجعله في أعلى عليين، إذا كان في بحبوحة كبيرة جداً، لكن غير صحيحة، وذكر الموت هذا الشيء قل في عينه، فالفراعنة الموت كان مرعبًا بالنسبة لهم، يعتقدون وهماً أن حياة بعد الموت، فإذا ذهبت إلى أهراماتهم وجدت العجب العُجاب، مركبات، الآن هناك خبز في الأهرامات من ستة آلاف عام، وقطع لحم قديد من ستة آلاف عام، لأنهم يحبون الحياة، ويكرهون الموت اعتقدوا واهمين أن هناك حياةً بعد الموت، لذلك اعتنوا بها كثيراً، كل حضاراتهم في القبور موجودة، مركبات، الذهب الذي يزينون به أنفسهم بعد الموت لا يصدق، الفضة، التُحَف، المقتنيات، المركبات، الطعام، الشراب، الخبز، اللحم، الألبسة، الأحذية، كله موجود في القبر، لأن الإنسان يتمنى أن يعيش إلى أبد الآبدين، أما إذا عرف الله، وعرف منهجه كان الموت نقطة تحوّل من حياة إلى حياة.

تجد الطفل يعيش في رحم أمه تسعة أشهر، وحجم الرحم أعتقد سبعمئة وخمسون سنتيمترا، وبعد أن يولد يضعونه في غرفة كبيرة، ويأخذونه إلى حلب، واللاذقية، وإلى مصايف، وإلى أمريكا واليابان، و يصعد إلى القمر أيضاً، فالإنسان عندما يولد ينتقل من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، أما إذا مات المؤمن فينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، فلذلك عندما يعمل الإنسان للدار الآخرة يكون أعقل العقلاء، " أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً "، كل إنسان يحب، إلا أن المؤمن عرف كيف يختار من يحب، اختار الله، قال له: ماذا أبقيت يا أبا بكر ؟ أعطى كل ماله لرسول الله، ماذا أبقيت لك يا أبا بكر؟ قال: الله ورسوله.

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة الجمعة)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثالث والأخير من سورة الجمعة، ومع الآية التاسعة، وهي قوله تعالى:
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ

1 ـ صلاة وخطبة الجمعة فرضٌ وواجب عيني:

هناك بلادٍ أيها الإخوة ابتعدت عن الدين سنواتٍ طويلة تزيد على سبعة عقود، هذه البلاد فيها من التجهيل ما لا يوصَف، ذكر لي أحد الخطباء ذهب إلى هناك ليلقي خطبة، واجتمع آلافٌ مؤلّفة، وأكثر هؤلاء المصلِّين يشربون الخمر ضمن المسجد، وهم يستمعون إلى الخطبة، السبب هو أن صلاة الجمعة التي هي العبادة التعليمية كانت مفقودةً لسنواتٍ طويلة، ولعقودٍ طويلة.
ذكرت هذه القصّة بادئ ذي بدء لألفت النظر إلى خطورة صلاة الجمعة، فصلاة الجمعة أهمُّ ما فيها خطبة الجمعة، لأنها عبادةٌ تعليمية.

2 ـ صلاة الجمعة عبادة تعليمية:

إن المسلم فُرِض عليه أن يصلي الجمعة، وأن يستمع إلى خطبةٍ ما، فأي خطبةٍ لابدّ لها من آيةٍ تُشرَح، وحديثٍ شريفٍ يُشرَح، فمع تتالي الأسابيع والأشهر والسنوات يتعلّم المسلم شيئاً من دينه كثيراً، فربنا سبحانه وتعالى شرع صلاة الجمعة لتكون العبادة التعليمية الأسبوعية، لتكون الشِحنَة الروحية، لتكون المدد النَوْبِيّ لهذا الإنسان، فالخطاب موجّهٌ إلى الذين آمنوا..
إن القصة التي ذكرتها قبل قليل أخبرني بها الخطيب بنفسه فقال لي: والله آلاف مؤلّفة أمامي يستمعون إلى الخطبة، ويبكون، ويشربون من الخمر ما يشاءون، وهم في المسجد..
بماذا نفسّر هذه الظاهرة ؟ إنهم لا يعلمون، مُنِعوا من صلاة الجمعة سبعين عاماً، فصلاة الجمعة حينما شَرّعها الله عزّ وجل شرّعها لتكون عبادةً تعليمية، فأيّ خطيبٍ مهما قلّ شأنه لابدّ من شرح آية، شرح

حديث، حكمٍ فقهي، شيءٍ من سيرة رسول الله، ولا نعرف قيمة صلاة الجمعة لأننا نصليها والحمد لله، وبلادنا بلادٌ خَيّرة، وبلادنا تُقام فيها شعائر الله عزّ وجل، ونحن مرتاحون جداً، هذه نعمةٌ لا يعرفها إلا مَن فقدها، ومن البديهيات أن الخمر محرّمة، والزنا محرّم، والقتل محرّم، هذه بديهيات عرفناها من صلاة الجمعة..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

الخطاب موجّه إلى الذين آمنوا.

(إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

اليهود ادّعوا أنهم أحباب الله، أبناء الله وأحبابه، فردّ عليهم الله عزّ وجل:

(فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الجمعة)

أسقط هذه الدعوى، وافتخروا بأنّ عندهم التوراة، فردّ الله عليهم بقوله:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة)

وافتخروا بيوم السبت، فجاءت سورة الجمعة لتجعل من هذا اليوم يوم عيدا للمسلمين، وهناك أحاديث كثيرة جداً تؤكِّد أن خطبة الجمعة هي المقصودة من ذكر الله.

(فَاسْعَوْا)

3 ـ معنى فَاسْعَوْا: الإسراع وقصدُ وجه الله:

معنى فاسعوا أي اقصدوا، والسعي هو القصد، والسعي هو العمل.. هذا المعنى الثاني.. أي اقصد وجه الله بمجيئك إلى المسجد، واسع إلى هذه الصلاة، وهيئ نفسك بالاغتسال، والتطيُّب، ولبس الجديد يوم الجمعة، معنى السعي القصد والعمل، ثم تعال إلى المسجد مُسْرِعاً.

من معاني السعي الإسراع، واقصد وجه الله بصلاة الجمعة، وهيئ نفسك لهذه الصلاة الأسبوعية ذات الطابع التعليمي، ثم اسع إلى المسجد بِشَدّة قدميك معبّراً عن اهتمامك لهذه العبادة، هذا معنى:

(فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

4 ـ ذِكْرِ اللَّهِ هو خطبة الجمعة:

العلماء رَجّحوا أن ذكر الله المعني به الخطبة، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ، ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتْ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ))

[متفق عليه]

(فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

فالمقصود أن تأتي إلى المسجد مُبَكِّراً، وأن تهيّئ نفسك، وهناك أُناسٌ كثيرون يحمدون الله على أنه لحِق صلاة الجمعة، لحق بالركعة الأخيرة، مع أنه فاته الخير الكثير، فاتته خطبة الجمعة التي هي معقد الرجاء فيها، إذاً هنا:

((فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتْ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ))

قال تعالى:

(فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

في أكثر التفاسير رَجَّح المفسرون أن ذكر الله هي الخطبة، وحينما تستمع إلى ذكر الله تذكر الله، والخطيب يُذَكِّرك بالله، يذكِّرك بأمره ونهيه، يذكِّرك بحلاله وحرامه، يذكِّرك بما يرضيه وما لا يرضيه، يذكرك بالآخرة، يذكرك بحقيقة الحياة الدنيا، يذكرك بهويتك، بحقيقة الإنسان، الإنسان هو المخلوق المكلّف المكرّم، ويوَضّح لك حقيقة الحياة الدنيا التي جعلها الله:

((دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عُقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عِوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[كنز العمال، وقال: رواه الديلمي عن ابن عمر]

5 - يوم الجمعة عيد المسلمين:

وحينما افتخر اليهود بأنّ عيدهم يوم السبت جعل الله عزّ وجل هذا اليوم يوم عيد، فقد قال عليه الصلاة والسلام كما في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ هَذَا يَوْمُ عِيدٍ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ جَاءَ إِلَى الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ، وَإِنْ كَانَ طِيبٌ فَلْيَمَسّ مِنْهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالسِّوَاكِ))

[ابن ماجه، مالك]

أي ابتعدوا في هذا اليوم عن كل شيءٍ يفوح منه رائحةٌ كريهة، هذا يوم عيد، يوم اغتسال، يوم تطيُّب، يوم لبس الجديد، يوم استماع الخطبة، يوم التقائك مع إخوتك المؤمنين، فبقدر إيمانك وتعظيمك لله عزّ وجل تعظِّم شعائره، ويوم الجمعة من شعائر الله.

لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَوْمُ عِيدٍ، فَلَا تَجْعَلُوا يَوْمَ عِيدِكُمْ يَوْمَ صِيَامِكُمْ، إِلَّا أَنْ تَصُومُوا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ))

[أحمد]

النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن صيام الجمعة لأنه يوم عيد، يومٌ تلتقي فيه الأسرة، وتلتئم، تجتمع على ذكر الله، وأنا أعرف أسراً كثيرة كلُّ أمور البيت تُجْعَلُ قبل يوم الجمعة ؛ التنظيف والترتيب، لا ينبغي أن يكون هذا اليوم يوم ترتيب وتنظيف وغسيل، هذا يوم عيد، ينبغي أن يكون يوم عيدٍ لكل ما في هذه الكلمة من معنى، لأن النبي هكذا قال.

6 ـ يوم الجمعة فيه ساعة إجابة:

يا أيها الإخوة، النبي عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى يقول كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ:

((فِيهِ سَاعَةَ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيّاهُ))

[متفق عليه]

هذه ساعةٌ مباركة، في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم يكون قائماً يصلِّي يدعو الله عزّ وجل بأيّ دعاء إلا استجاب الله له، فمن كانت له عند الله حاجة فليكثر من صلاة النافلة يوم الجمعة، لأنك إذا وافقت هذه الساعة غفر الله لك، واستجاب دعوتك.

7 ـ الجمعة إلى الجمعة كفّارةٌ لما بينهما إذا اجتُنِبت الكبائر:

شيءٌ آخر رائعٌ جداً يثلِجُ القلب، هو أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الصّلَاةُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنّ مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

جئت إلى المسجد، وصلّيت الجمعة، إذا اجتنبت الكبائر فإن الصغائر تُغفَر لك فيما بين الجُمعتين، هذا من فضل الله وكرمه

((الصّلَاةُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنّ مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ))

لذلك ما قول الذين يصلون الجمعة فقط ؟ كيف نجيبهم ؟ نقول لهم: ترك الصلاة من أكبر الكبائر، ترك الصلوات الخمس من أكبر الكبائر، وصلاة يوم الجمعة وحدها لا تُكَفِّر الكبائر، يكفِّر الله بهنّ كل شيء ما لم تُجتنب الكبائر، إذا اجتنبَت الكبائر فهي تكفِّر، أما ترك الصلوات الخمس فمن أكبر الكبائر، بل إن من الكفر ترك الصلاة، دققوا في شدّة حِرْص النبي على أداء هذه الصلاة، فعن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال لقومٍ يتخلّفون عن الجمعة:

((لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلًا يُصَلِّي بِالنَّاسِ، ثُمّ أُحَرِّقَ عَلَى رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنْ الْجُمُعَةِ بُيُوتَهُمْ))

[مسلم]

أي أنّ النبي همّ أن يحرق بيت الذي يتخلّف عن صلاة الجمعة، فمعنى ذلك أنه ترك أمراً عظيماً جداً، وارتكب كبيرةً كبيرة.

عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَتَطَهَّرَ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، ثُمّ ادَّهَنَ، أَوْ مَسّ مِنْ طِيبٍ، ثُمّ رَاحَ فَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ اثْنَيْنِ، فَصَلَّى مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمّ إِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ أَنْصَتَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى))

[البخاري]

أي إذا جاء الإنسان إلى المسجد، وصلّى صلاة الجمعة مغتسلاً عليه السكينة والوقار، مُصْغِياً إلى الإمام وصلّى بخشوع، فإن هذه الصلاة تمحو له ما بين الجمعتين ما اجتَنَب المسلمُ الكبائر، فإذا اجتُنِبت الكبائر فهي كفّارةٌ من الجمعة إلى الجمعة.

وقال رجل من اليهود لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين لو نزلت علينا هذه الآية:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا)

(سورة المائدة: الآية 3)

لاتّخذناه عيداً، فقال له عمر رضي الله عنه: **<< إني أعلمُ أيّ يومٍ أنزلت هذه الآية، أنزلت يوم عرفة في يوم الجمعة >>.**

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَلَبِسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ، وَمَسّ مِنْ طِيبٍ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ، ثُمّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَلَمْ يَتَخَطّ أَعْنَاقَ النّاسِ، ثُمّ صَلّى مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، ثُمّ أَنْصَتَ إِذَا خَرَجَ إِمَامُهُ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ صَلَاتِهِ كَانَتْ كَفّارَةً لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ جُمُعَتِهِ الّتِي قَبْلَهَا))

[أبو داود]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((يَحْضُرُ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ: رَجُلٌ حَضَرَهَا يَلْغُو، وَهُوَ حَظُّهُ مِنْهَا، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا يَدْعُو، فَهُوَ رَجُلٌ دَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، إِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ، وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُ، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا بِإِنْصَاتٍ وَسُكُوتٍ، وَلَمْ يَتَخَطَّ رَقَبَةَ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا فَهِيَ كَفَّارَةٌ إِلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا))

[أبو داود]

تواعدوا يوم الجمعة أن يتقابلوا في الجامع، عندهم لقاء محاسبة، عقد صفقة، أين ؟ في الجامع يوم الجمعة، فهو إلى جانبه يتكلّم ويلغو، ويتحدّث في أمر الدنيا.. فقال:

((يَحْضُرُ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ: رَجُلٌ حَضَرَهَا يَلْغُو، وَهُوَ حَظُّهُ مِنْهَا، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا يَدْعُو، فَهُوَ رَجُلٌ دَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، إِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ، وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُ، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا بِإِنْصَاتٍ وَسُكُوتٍ، وَلَمْ يَتَخَطَّ رَقَبَةَ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا فَهِيَ كَفَّارَةٌ إِلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا))

معنى ذلك ليس القصد أن تلغو في أمر الدنيا، ولا القصد أن تدعو الله والخطيب يخطب، قصده أن تُنْصِت إليه، أن تعي ما يقول، أن تعقل ما يقول، أن تستفيد مما يقول، أن تُطبّق ما يقول كي تكون هذه العبادة تعليميةً كما أرادها الله عزّ وجل.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَأَحْسَنَ الْغُسْلَ، ثُمَّ لَبِسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ مَسَّ مِنْ دُهْنِ بَيْتِهِ مَا كُتِبَ أَوْ مِنْ طِيبِهِ، ثُمَّ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ اثْنَيْنِ كَفَّرَ اللَّهُ عَنْه مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ))

8 ـ الوعيد الشديد لتارك الجمعة:

عن ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ يُحَدِّثَانِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَهُوَ عَلَى أَعْوَادِ مِنْبَرِهِ:

((لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمْ الْجُمُعَاتِ ـ أي عن تركهم الجمعات ـ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَلَيَكُونُنَّ مِنْ الْغَافِلِينَ))

من ترك الجمعة ثلاث مرّاتٍ من غير عذرٍ نكتت نكتةٌ سوداء في قلبه ثم يكون الرّان وتلى قوله تعالى:

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة المطففين)

عَنْ أَبِي الْجَعْدِ الضَّمْرِيِّ، وَكَانَ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَهَاوُنًا بِهَا طُبِعَ عَلَى قَلْبِهِ))

[الترمذي، ابن ماجه]

أصبح قلبه غافلاً لا يعي على خير.

9 ـ التحذير من اللغو يوم الجمعة:

أيها الإخوة الكرام، ما من عبادةٍ ألحّ عليها النبي كصلاة الجمعة، وركّز عليها كهذه الصلاة، فعن أبي هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: أَنْصِتْ، وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَغَوْتَ))

قلت له: أنصت فإن هذه الكلمة تُعدُّ لغواً يوم الجمعة.

10 ـ استحباب لبس أحسن الثياب يوم الجمعة:

أيها الإخوة، فهذا شيءٍ قلّ جدا، فكان الإنسان يأتي إلى الجمعة بثياب البيت، بثياب النوم أحياناً، وهذا الشيء ألغِي والحمد لله، كنت أرى أناساً كثيرين بثياب التبذّل يدخلون إلى المسجد، فعَنْ عَائِشَةَ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَطَبَ النّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَرَأَى عَلَيْهِمْ ثِيَابَ النِّمَارِ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَا عَلَى أَحَدِكُمْ إِنْ وَجَدَ سَعَةً أَنْ يَتّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِجُمُعَتِهِ سِوَى ثَوْبَيْ مِهْنَتِهِ))

[أبو داود، ابن ماجه]

ثياب العمل دعها، ثياب النوم دعها، وتعال بثيابٍ حسنة إلى المسجد فهو بيت الله، والجمعة يوم عيد، وإنك تلتقي بإخوانك.

11 ـ النهي عن تخطي الرقاب يوم الجمعة:

عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْن بُسْرٍ صَاحِبِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ يَتَخَطّى رِقَابَ النّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالنّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَخْطُبُ، فَقَالَ لَهُ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((اجْلِسْ، فَقَدْ آذَيْتَ))

[أبو داود]

كان عليه الصلاة والسلام يجلس حيث ينتهي به المجلس.

عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْن عَمْرِو بْن الْعَاص عَنْ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّهُ قَالَ:

((مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَمَسّ مِنْ طِيبِ امْرَأَتِهِ إِنْ كَانَ لَهَا، وَلَبِسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ، ثُمّ لَمْ يَتَخَطّ رِقَابَ النّاسِ، وَلَمْ يَلْغُ عِنْدَ الْمَوْعِظَةِ كَانَتْ كَفّارَةً لِمَا بَيْنَهُمَا، وَمَنْ لَغَا، وَتَخَطّى رِقَابَ النّاسِ كَانَتْ لَهُ ظُهْرًا))

[أبو داود]

يبدو أن لصلاة الجمعة أجرًا عند الله كبيرا.

12 - النهي عن كل ما يجلب النوم في أثناء الخطبة:

عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أبيهِ:

((أنّ النّبيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ نَهَى عَنْ الْحِبْوَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ))

[الترمذي]

الإنسان يطوّق ركبتيه بيديه فيرتاح، ولكن من الممكن أن ينام، ويقاس عليها الاستناد إلى الحائط طبعاً من دون عذر، فلو كان بعذر فهذا موضوع ثانٍ، أما بلا عذر فإنها جلسة مريحة، فإذا نام ضيّع عليه خيراً كثيراً، فالنبي عليه الصلاة والسلام نهى عن الحُبْوَةِ يوم الجمعة.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَلْيَتَحَوَّلْ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ))

[الترمذي]

إذا كانت جلسة مريحة وكدت أن تنام انتقل إلى مجلسٍ آخر

13 - النهي عن جلوس المسلم مكان غيره يوم الجمعة:

عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ قَالَ:

((لَا يُقِيمَنّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، ثُمّ لِيُخَالِفْ إِلَى مَقْعَدِهِ فَيَقْعُدَ فِيهِ، وَلَكِنْ يَقُولُ: افْسَحُوا))

[مسلم]

من آداب صلاة الجمعة أن لا تجلس في مكان أخيك..

عن أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ الثَّقَفِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ غَسّلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، ثُمّ بَكّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنْ الْإِمَامِ فَاسْتَمَعَ، وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا))

[أبو داود]

أيها الإخوة، في الصِحاح التسعة أكثر من مئة وتسعين حديثاً عن صلاة الجمعة، معنى هذا أنها عبادة عند الله عظيمة جداً، إنها العبادة التعليمية الوحيدة، والإنسان يُشْحَن في هذه الصلاة شِحنة روحية لعلّها تُمدّه بنورٍ وطاقةٍ واندفاعٍ في أيام الأسبوع القادم..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

ذكر الله.. الخطبة..

(وَذَرُوا الْبَيْعَ)

14 - وجوب ترك البيع وتوابعه ساعة الجمعة:

لا يوجد نشاط محبّب للإنسان كالبيع والربح، هناك آلاف الأنشطة ؛ زيارات، علاقات، حل مشكلات، شراء حاجات، أما البيع ففيه ربح، وأعلى نشاط يُدخِل على قلب الإنسان الفرح هو البيع بربح عال، وهذا يجب أن تدعه:

(إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ)

طبعاً القرآن فيه إيجاز، البيع معه شراء، أنت تبيع، وآخر يشتري، فإذا قال الله:

(وَذَرُوا الْبَيْعَ)

أي ذروا معه الشراء، أي أن علاقات التجارة ينبغي أن تتوقف في أثناء صلاة الجمعة..

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

أي خيرٌ لكم من كسب المال الوفير، خيرٌ لكم من عقد صفقةٍ رابحة، خيرٌ لكم من بيع مُرْبح، إنك تعرف الله، تعرف حدوده، تعرف أمره ونهيه، تتقرّب إليه، لعلّ الله سبحانه وتعالى يتجلّى على قلبك في بيته وأنت في صلاة الجمعة، فلذلك المؤمن الصادق يحرص على صلاة الجمعة حرصاً لا حدود له، لأن النبي عليه الصلاة والسلام ألحّ على هذه الصلاة، وعلى حضور الخطبة، بل إنك إن أتيت إلى المسجد، وقد صعد الخطيب المنبر قعدت الملائكة يستمعون الخطبة، وكفّوا عن كتابة الأجر، فيجب أن تأتي في الساعة الأولى كأنك قرّبت بدنة، في الساعة الثانية بقرة، في الساعة الثالثة شاة، في الساعة الرابعة دجاجة، في الساعة الخامسة بيضة، فإذا صعد الخطيب المنبر، فما قولك بالذي يأتي مع الصلاة؟ أو يأتي في الركعة الثانية، ويقول: الحمد لله لقد صلّيت الجمعة، أدركت الركعة الأخيرة، الجمعة شُرعَت من أجل أن تعرف الله عزّ وجل من خلال الخطبة، قال:

(فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة الجمعة: الآية 10)

1 ـ إباحة الانصراف إلى أمور الدنيا بعد صلاة الجمعة:

هذا أمر إباحة، والإنسان إذا دخل بيت الله يقول كما علّمنا النبي عليه الصلاة والسلام:

فعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ أَوْ عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ))

[مسلم]

العلماء وقفوا وقفة متأنّية عند هذه الآية..

(فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ)

2 ـ هل هناك صلاةٌ بعد صلاة الجمعة ؟

أي لا صلاة ظهرٍ بعد الجمعة، هذه قضية إشكالية تحتاج إلى شرح طويل، لأن صلاة الجمعة تُجزِئ عن صلاة الظهر، أما لو فرضنا في قرية فيها ثلاثة مساجد، أحد هذه المساجد يتّسع لكل سُكّان القرية، ينبغي أن تُعقَد الجمعة في جامعٍ واحد من أجل وحدة الكلمة، ووحدة الصَف، أما إذا عُقِدت ثلاث صلوات فتقول: الجمعة لمن سبق، هذا حين يكون هناك جامعٌ يتّسِعُ لكل سكّان البلدة، أما دمشق فيها خمسة ملايين ونصف، وكل مساجدها لا تتسع لأكثر من خمسمائة ألف، إذاً: كل الصلوات في المدن الآن صحيحة ومقبولة، ولا داعي أن يُصَلّى الظهر بعد صلاة الجمعة، لقوله تعالى:

(فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ)

ليس هناك صلاة ثانية.

(فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ)

أي تفسّحوا، اخرجوا من المسجد، قال:

(وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ)

وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ

معنى: فضل الله:

بعضهم قال: من فضل الله أن تعمل، أن تكسِب قوت يومك.. بعضهم قال: من فضل الله أن تعمل عملاً صالحاً.. فأغلب الظن زيارة الأقارب، صلة الأرحام، عيادة المريض، تهنئة الجار، كل هذه النشاطات الاجتماعية التي شرعها النبي عليه الصلاة والسلام يمكن أن تكون عَقِبَ صلاة الجمعة، أو يوم الجمعة بعد الصلاة..

(فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ)

فلك أن تفهم:

(وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ)

الفضل المادي: لك أن تعمل، ولك أن تكسب رزقك، ولك أن تعمل الأعمال الصالحة التي هي أيضاً من فضل الله عزّ وجل، فالإنسان يضع برنامجا لزيارة أقاربه، صلة الرحِم، عيادة المريض، تهنئة المتزوِّج، تعزية المتوفّى، هناك أعمال النبي حضّ عليها، ورغَّب فيها، منها تلبية دعوة، تلبية وليمة، هذا كلّه يكون يوم الجمعة..

(فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا)

وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

قال العلماء: الذكر الكثير هنا يعني أن تذكر الله في كل أحوالك، كل شيءٍ يصلك بالله عزّ وجل فهو من ذكر الله..

(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(10)وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا)

(سورة الجمعة)

وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

سبب نزول هذه الآية:

ورد في السيرة أن بعضاً ممن حضر صلاة الجمعة مع رسول الله سمع قافلة محمّلة بأصناف البضائع، فخرج ليشتري، وترك النبي قائماً، فالله سبحانه وتعالى عاتب هؤلاء على هذا السلوك فقال:

(وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ)

هناك صلاة الجمعة، واستماع الخطبة، واتصال بالله، ومعرفة أحكامه وحدوده.

خَيْرٌ مِنْ اللَّهْوِ وَمِنْ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

(سورة الجمعة)

قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ اللَّهْوِ وَمِنْ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

هو الذي يرزق، فإذا خرجت كي تبيع أو تشتري، خرجت لقضاء حاجةٍ لك فهو الرزّاق، وهو الموفّق، وهو الناصر، وهو المؤيّد، وهو الذي يعطيك كل شيء..

(وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا)

قدّمت التجارة على اللهو، لأن التجارة أصلٌ في اللهو، أما الذي يدعُ صلاة الجمعة من أجل اللهو فإن إثمه كبيرٌ جداً مما لو تركها من أجل عملٍ يقتات منه، على كلٍ قُدّمت التجارة على اللهو، ثم قدّم اللهو على التجارة..

(وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ اللَّهْوِ وَمِنْ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المنافقون 063 - الدرس (1-2): تفسير الآيات 1 - 8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-10-11

بسم الله الرحمن الرحيم

النفاق أن تظهر شيئاً وأن تخفي شيئاً آخر :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأول من سورة المنافقون:

(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)

أيها الأخوة الكرام، النفاق أن تظهر شيئاً وأن تخفي شيئاً آخر، أن تقول ما لا تعتقد، وأن تُعَبِّر عما لا تشعر، الازدواجية في الإنسان، له شيء معلن، وشيء باطن، هذا منافق.

الحقيقة في بداية ظهور الإسلام لم يكن هناك منافقون، السبب أن الكفار يفعلون ما يشاؤون، ولا يخشون أحداً، يكفي أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما مرّ على عمَّار بن ياسر وهو يُعذب قال: " صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة ".

لم يستطع أن يفعل شيئاً، قالوا عنه: مجنون، وقالوا عنه: ساحر، وقالوا عنه: كذاب، وقالوا عنه: شاعر، وقالوا عنه: كاهن، فلك أن تقول عنه أي شيء وتنام مطمئناً في بيتك ولا شيء عليك، لذلك كان الذين آمنوا به قبل أن يهاجر إلى المدينة لهم عند الله شأنٌ كبير، هؤلاء آمنوا به صادقين، أما حينما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وصار للمؤمنين كِيان؛ فبإمكانهم أن يحاربوا، بإمكانهم أن يسالموا، بإمكانهم أن يعطوا، بإمكانهم أن يمنعوا، دخل أناسٌ كثرٌ في الإسلام خوفاً أو طمعاً، هذا الإيمان الشكلي المعلن الذي يخفي وراءه كفراً، هذا الوضع هو النفاق بعينه.

الكافر و المنافق :

ولكن الإنسان قد يكون كافراً في الأصل، قد يكون كافراً ابتداءً، ولمصلحته الدنيوية فقط أظهر الإسلام، وانضوى تحت لواء المسلمين، وصلى كما يصلون، وحَدَّثَ كما يحدثون، هذا عند الله كافر، بل هو أشد كفراً من الكافر، لهذا قال الله عزَّ وجل :

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّار)

[سورة المنافقون: 145]

هذا كافرٌ ابتداءً، ولا يقتنع بالدين، ولم يؤمن بالله ولا برسوله، ولم يؤمن بهذا الكتاب، إنما وَجد من مصلحته أن يُعْلِن إسلامه، وأن ينضوي تحت لواء المسلمين تحقيقاً لمصالحه، هذا أشد عند الله من الكافر، لأن الكافر تعرفه كافراً فلا تقلّدُهُ، أما هذا فإنه يصلي مع المسلمين، ويحضر مع المسلمين، ويفعل ما يفعله المسلمون، وهو من ألدِّ أعدائهم، فهذا خطره أشد، لذلك قد يكون الإسلام ورقةً رابحة في أيدي بعض الناس، إذا كان الإسلام عندك ورقة رابحة تستخدمها كما تشاء، فهذا نوعٌ من النفاق.

آية المنافق :

أيها الأخوة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

يُظهر ما لا يبطن، يقول ما لا يفعل، يتظاهر بما لا يعتقد، هذا النفاق خطرٌ على المسلمين، لأنهم معهم، لأن هؤلاء المنافقين مع المسلمين، في مساجدهم، في أسواقهم، وأذكياء جداً، فتحسبهم مؤمنين، وهم على خلاف ذلك، لذلك جاءت هذه السورة لتفضحهم، وخطورة المنافقين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أقل منها في عهودٍ بعده، لأن القرآن يفضحهم دائماً، مكشوفون، أما في عهودٍ بعدهم فقد تنطلي على إنسان حقيقة منافق ويظنه مؤمنًا، من هنا قال الله عزَّ وجل يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام: أن يا محمد إذا جاءك المنافقون، أولاً: لا يستطيع أحدٌ أن يَطّلِع على قلب إنسان و هذا من ستر الله عزَّ وجل، لكن الله يطلع، أما أن يطلع الإنسان بذاته على سرّ إنسانٍ فهذا مستحيل، هذا من سِتْرِ الله، والإنسان ما دام يخشى الله فهو في ستره، وفي حمايته، أما إذا أراد أن يؤذي المسلمين، وأن يوقع بينهم العداوة والبغضاء، وأن يكشف عوراتهم أمام أعدائهم، فعندئذٍ ربنا سبحانه وتعالى ينتقم منه أشد الانتقام، ويفضحه.

من أقرّ بحقيقة ولم يتخذ موقفاً بناءً على هذا الإقرار فهو لم يفعل شيئاً :

يقول الله عزَّ وجل مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم:

(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ)

والحقيقة هو رسول الله، ماذا فعلوا؟ شَهِدَ هؤلاء المنافقون أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله، والله جلَّ جلاله يقول:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ)

فأنت حينما تقر بحقيقة، ولا تتخذ موقفاً بناءً على هذا الإقرار فأنت لم تفعل شيئاً، فلو أن إنسانًا في أشد حالات العطش، وهو على وشك الموت، عرف أن هناك نبع ماء، ولم يتحرك إلى هذا النبع، ماذا نفعته هذه المعرفة؟ لم تنفعه شيئًا إطلاقاً، هذا سماه علماء المنطق تحصيل حاصل، فإذا قلت: الشمس ساطعة، وهي ساطعة، ماذا فعلت؟ إن قلت: ساطعة، فهي ساطعة، وإن قلت: ليست بساطعة، فهي ساطعة، ففي كلا الحالين إن جاءت كلمتك موافقةً للحقيقة لم تفعل شيئاً، وإن جاءت مخالفةً للحقيقة سقطت من أعين الناس، أما حينما تكون في أشد الحاجة إلى أشِعَّتها وتقول: هي ساطعة، وتعرض جسمك لأشعتها، فتشفى من بعض أمراضك، الآن أخذت موقفاً، فالمنافقون قالوا:

(نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ)

قالوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم قال :

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)

أنواع الصدق و الكذب :

لابدَّ من أن نقف وقفةً متأنِّية عند الكذب، أحياناً هناك واقع، إذا جاء الخبر عن هذا الواقع مطابقاً للواقع فأنت صادق، صادقٌ في أقوالك، وإذا جاء القول مخالفاً للواقع، جاء الخبر عن الواقع مخالفاً للواقع، فهذا قولٌ كاذب، صادق وكاذب، توافق الخبر مع الواقع صدق، عدم موافقة الخبر للواقع كذب، الآن أنت قلت شيئاً، فإذا جاء عملك مطابقاً لقولك فهذا صدق الأفعال، وإذا جاء مخالفاً لقولك فهذا كذب الأفعال، فهناك صدق الأقوال، وكذب الأقوال، وصدق الأفعال، وكذب الأفعال، بقي نوعان آخران، إذا قلت: إن هذا الإنسان هو رسول الله، فكلامك هذا صحيح مطابق للواقع، لكنك لا تعتقد أنه رسول الله، هذا كذب من نوع آخر، هذا كذب مع النفس، المنافق كاذبٌ مع نفسه، كل ما يقوله لا يعتقد به، كل ما يقوله لا يُصَدِّقُهُ، فإذا جاء خبرك مطابقاً للواقع فأنت صادق، إن لم يكن مطابقاً للواقع- لا سمح الله - فهو كاذب، إن جاء الفعل مطابقاً للقول كان هذا الفعل صادقاً، وإن جاء الفعل مخالفاً للقول كان الفعل كاذباً، لذلك الله عزَّ وجل يمدح الصادقين في القرآن الكريم بشيءٍ كثير، أي صدقٍ هذا؟ صدق الأفعال.

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

[سورة الأحزاب: 23]

جاءت أعمالهم مطابقة لأقوالهم، جاءت أفعالهم مُصَدِّقة لأقوالهم، إذاً هم صادقون، أما الذي جاءت أفعالهم مكذبة لأقوالهم فقد قالوا في معركة الأحزاب:

(وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

[سورة الأحزاب: 12]

أما هذه الآية فمن نوع ثالث، الذي قالوه حق: إنه رسول الله، كلمة حق، لكنهم لا يعتقدون بها، هم كذبوا على أنفسهم، كاذبون فيما بينهم وبين أنفسهم، لذلك أحياناً - لا سمح الله - قد تقول كلاماً غير صحيح لكنك تعتقده، نقول: فلانٌ صادقٌ مع نفسه، أما علاقة هذا القول مع الواقع فغير صحيحة، هذا القول في علاقته مع الواقع كذب، أما في علاقته مع القائل فصدق، هذا صادقٌ مع نفسه، وقد تقول كلاماً صحيحاً مطابقاً للواقع، لكنك لا تعتقده، نقول: هذا كاذبٌ مع نفسه، فهناك صدقٌ في الأقوال وكذبٌ في الأقوال، أي علاقة الخبر بالواقع، وهناك صدقٌ في الأفعال وكذبٌ في الأفعال، أي علاقة الواقع مع الخبر، وهناك صدقٌ مع النفس وكذبٌ مع النفس، قد تقول قولاً غير صحيح لا علاقة له بالواقع، لكنك تعتقد ذلك، أنت صادقٌ مع نفسك، وقد تقول حقاً وأنت لا تعتقد هذا الحق، فأنت كاذبٌ مع نفسك، ستة أنواع للكذب والصدق.

الكذب ينقض الإيمان والإيمان ينقض الكذب :

والحقيقة لو جمعنا الآيات القرآنية التي ورد فيها الصدق والكذب لوجدناها كثيرةً جداً، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي))

مطلقاً، إذا كنت صادقاً في أي شيء، صدقك يهديك إلى الصواب.

((إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

والمؤمن لا يكذب، لأن بين الكذب والإيمان تناقضاً، أي أن الكذب ينقض الإيمان، والإيمان ينقض الكذب، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

لمجرد أن يكذب المؤمن فليس مؤمناً.. انتهى.. المؤمن قد يقع في تقصيرات كثيرة لكنه لا يكذب، الكذب يتناقض مع إيمانه، لذلك تحترم إنسانًا صادقًا مُقصِّرًا، ولا تحترم إنسانًا كاذبًا مُدَّعِيًّا.

المنافق كاذبٌ مع نفسه وكاذبٌ مع الخلق وكاذبٌ مع الله :

أيها الأخوة الكرام، أن يأتي خبرك مطابقًا للواقع قضية سهلة جداً، لو أن الحرارة خمس وثلاثون، لو قلت: خمس وثلاثون، هذا كلام صدق، جاء الخبر مطابقاً للواقع، لو أن الحرارة خمس وأربعون، وأنت قلت: ثمان وثلاثون، هذا كذب، جاء الخبر مخالفاً للواقع، أما حينما تقول: أنا مؤمن، أنا مستقيم، أنا ورع، فعند الإغراء لا تبدو ورعاً، وعندما يعرض عليك مبلغٌ كبير تأخذه، ولا تعبأ بطريقة كسبه، الآن بالعكس، جاء الفعل مخالفاً للإدعاء، هذا كذب أعمال، أما حينما تكون في أَمَسِّ الحاجة إلى المال، ويأتيك مبلغٌ فيه شبهة فتقول: معاذ الله، الله الغني، نقول: جاء فعلك مطابقاً لقولك، صدق أقوالٍ، وكذب أقوال، وصدق أفعال، وكذب أفعال، أما حينما تقول كلاماً غير صحيح لكنك تعتقده فنقول: هذا صادقٌ مع نفسه، وحينما تقول كلاماً صحيحاً ولا تعتقده نقول: فلان كاذبٌ مع نفسه، والمنافق كاذبٌ مع نفسه، وكاذبٌ مع الخلق، وكاذبٌ مع الله.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

[سورة النساء: 142]

يكذب على الله أو يكذب مع الله.

اتخاذ المنافق الأيمان الكاذبة ليتّقي بها العقاب :

حينما يحاول أن يخدع الله عزَّ وجل:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

[سورة البقرة: 9]

(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)

هؤلاء إذاً كاذبون مع أنفسهم، لأن كلامهم صحيح، منافق يقول للنبي: يا رسول الله، أشهد إنَّك رسول الله، على العين والرأس، كلام صحيح، لكنه لا يعتقد أنه رسول الله، يرضيه بهذا، يُحَقِّق مصالحه، هو كاذبٌ مع نفسه..

(وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ*اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

يحلفون بالله أنهم صادقون، أنهم مؤمنون، أنهم أتقياء، أنهم ورعون، أنهم يحبون الله ورسوله، أنهم ما فعلوا هذا، ما قالوا هذا، يتخذون الإيمان درءًا لهم للعقوبة.

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

تترسوا بها، الجُنّة التِرْس، الإنسان أحياناً يستخدم الترس ليتقي الضربات، وهذا المنافق اتخذ الأيمان الكاذبة ليتّقي بها العقاب، يرتكب كلاماً في حقيقته كفر.

الإخلاص للمبدأ والتناصح :

مرةً أحد المنافقين المحسوب على رسول الله أنه من أصحابه، جاءت معركة تبوك، والصحابة الكرم بذلوا الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، وقدموا وأعدّوا، غلامٌ صغيرٌ مؤمنٌ كان هذا الرجل المنافق زوج أمه، فكل يوم يلقي الغلام على مسامع عمه ما فعله ابن عوفٍ، ما فعله سيدنا عثمان، ما فعله فلان من الصحابة في البذل والتضحية، فهذا لا يتحرك، ولا يقدم شيئاً، ولا يجهز نفسه للغزو، فلما ضَيَّقَ عليه ابن زوجته، قال هذا الرجل المحسوب من المؤمنين: والله لو كان محمد صادقاً فيما يقول لكنا شراً من الحُمُر، إذاً هو لا يعتقد أنه صادق، هذا الطفل الصغير نزلت عليه هذه الكلمة كالصاعقة تماماً، قال: والله يا عَمَّاه ما من رجلٍ أحب إلي بعد رسول الله منك، ولكنَّك قُلت الآن كلمة الكفر، وإني ذاهبٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام فتدبّرْ أمرك، قال للنبي ماذا قال عمه، استدعاه النبي:

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

أقسم بالله العظيم إن هذا الغلام كاذب، وما قال هذا إطلاقاً، فنظر النبي إلى وجه الغلام، فإذا هو محتقن بالدماء، صار يبكي، سمعه بأذنه، ثم يكذّبه أمام رسول الله، وما هي إلا لحظاتٌ حتى جاءه الوحي، فلما سُرِي عن النبي صلى الله عليه وسلم نزل قوله تعالى:

(وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ)

[سورة التوبة: 74]

فما كان من هذا الرجل المنافق إلا قال: لقد تبت يا رسول الله، لقد قلتها، وأنا أتوب إليك، وحسن إسلامه، وصار في عداد المؤمنين، أمسك النبي بأذن الغلام، وتبسَّم، وقال:

((يا غلام، صَدَّقَكَ ربك من فوق سبع سماوات))

فكانوا في عهد النبي يفتضحون.

الله عزَّ وجل لا تخفى عليه خافية :

إنسان آخر كان كافراً، وهو عُمير، وقد قال لصفوان بن أميَّة: والله لولا أطفالٌ أخشى عليهم العنت، وديون لا أطيق سدادها، لذهبت إلى محمدٍ وقتلته، وأرحتكم منه، فاتخذها صفوان مناسبة، قال: أما

ديونك فهي عليّ بلغت ما بلغت، وأما أولادك فهم أولادي، فامض لما أردت، سقى سيفه سماً، وركب ناقته، وتوجَّه إلى المدينة، ليقتل النبي عليه الصلاة والسلام، أما الغطاء الذي ذهب إلى المدينة من أجله فليفتدي أخاه، فلما رآه عمر في المدينة قال: هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً، قَيَّدَهُ بحَمَّالَة سيفه، وساقه إلى النبي، قال له النبي: دعه يا عمر، أطلقه، أطلقه، ابتعد عنه، فابتعد عنه، قال له: ادنُ مني يا عمير، فدنا منه، اجلس، جلس، قال له: عِمْتَ صباحاً يا محمد، قال له: قل: السلام عليكم، قال: لست بعيد عهدٍ بسلام الجاهلية، فهذا سلامنا، بغلظة، قال له: ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال له: جئت أفدي ابني فلانًا، قال له: وهذه السيف التي على عاتقك؟ قال: قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر؟ قال: ألم تقل لصفوان: لولا ديون ركبتني لا أطيق سدادها، وأطفالٌ أخاف عليهم العنت من بعدي، لذهبت وقتلت محمداً، وأرحتكم منه؟ فهَبَّ واقفاً، وقال: أشهد إنك لرسول الله، لأن هذا الذي دار بيني وبين صفوان لا يعلمه أحدٌ إلا الله، وأنت رسوله، وأسلم، أما صفوان فصار يقول لأهل مكة: انتظروا أخباراً سارة، وكان يخرج كل يوم إلى ظاهر مكة لينتظر الرُكْبَان تأتيه بالخبر السار، قتل النبي عليه الصلاة والسلام، ثم جاء الخبر غير السار أن عُمَيْراً قد أسلم، وحسن إسلامه، أي أن الله عزَّ وجل لا تخفى عليه خافية.

الحَلْف الكثير يُلْقي الشك :

أخواننا الكرام، كلمة: الأمر كله بيد الله، ولا تخفى عليه خافية، فما جدوى الكذب؟ ما جدوى النفاق؟ الأمر كله بيد الله، ولا تخفى عليه خافية، الله جلَّ جلاله لا تستطيع أن تخدعه، ونفسك التي بين جنبيك لا تستطيع أن تخدعها:

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ*انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ)

[سورة الأنعام: 23-24]

لذلك:

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

دائماً الحَلْف الكثير يُلْقي الشك، لمَ هذا الحلف؟

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

هم يظنون، اكذب، اكذب، إلى أن تُصَدَّق، هذا مع الله لا يصلح، ومع المؤمنين لا يصلح، اكذب، اكذب، اكذب، ولن تُصَدَّق، وسوف يفضحك الله عزَّ وجل.

مهمة المنافق أن يصدّ الناس عن سبيل الله :

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

صدّوا، فعل ماض، فاعله واو الجماعة، أين المفعول به؟ عندنا قاعدة في اللغة: أن الفعل إذا حذف مفعوله أطلق، العلماء قالوا في هذه الآية: صدوا أنفسهم عن سبيل الله بنفاقهم، أو صدوا غيرهم عن سبيل الله، المنافق دائماً يُشَكِّك، يطعن، يُزَيِّن المعصية، يُكَرِّه الطاعة، يخوّفك أن تطلب العلم، يخوفك أن تحضر مجلس علم، يخوفك أن تنفق مالك، يخوفك أن تلتزم، مهمة المنافق أن يصد الناس عن سبيل الله، لو كان مؤمناً لما صدهم عن سبيل الله، لأخذ بيدهم إلى الله ورسوله، لذلك الله عزَّ وجل قال:

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

صدوا أنفسهم أي أبعدوها عن طريق سعادتها، صدوا أنفسهم، أو صدوا غيرهم، أو صدوا أنفسهم وغيرهم معاً، أي أبعدوها عن طريق الحق، وعن جادَّة الصواب، وعن سبيل الهُدى، وعن سبيل السلامة والسعادة:

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

ترساً تترَّسوا بها..

(فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال: 36]

الإنسان حينما يستخدم وسائل لصدِّ الناس عن سبيل الله لا يدري أن الله مع هذا الدين، وأن مخلوقاً كائناً من كان لا يستطيع أن يطفئ نور الله، وأن إطفاء نور الله كمن ينفخ على الشمس ليطفئها، وهو على الأرض، ليقف إنسان، وليتأمَّل في الشمس، ولينفخ عليها هل تنطفئ؟ محاولات المنافقين لإطفاء نور الله كمحاولة إنسان أحمق يطفئ لهيب الشمس بنفخةٍ من فمه .

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

المنافقون أناس أذكياء يعبِّرون عن إيمانهم وتقواهم فالإنسان يغترّ بهم :

هؤلاء المنافقون أذكياء، وأصِحَّاء، قال تعالى:

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ)

يعتنون بصحتهم، وبهندامهم، وبحركاتهم، وسكناتهم، قال تعالى:

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ)

مثقَّفون، يتفلسفون، يشككون المعاني، يأتون بالأدلة، يعلّقون تعليقات لطيفة، يعبِّرون عن إيمانهم، وعن تقواهم، وعن ورعهم، وعن عقيدتهم، فالإنسان يغترّ بهم، قال سبحانه:

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

لأنهم ما عقلوا الحقيقة، ولا التفتوا إلى الله، ولا استقاموا على أمره، معنى هذا أنهم لم يعقلوا شيئاً، كيف قلنا في الدرس الماضي: لو أن دابةً وضعت عليها كتاباً في الرياضيات، والكيمياء، والفيزياء، والفلسفة، ثم سألتها، لا تزيد على أن تنهق، هذا المنافق يبحث عن مصالحه، عن المغانم، عن المكاسب، همُّه الدرهم والدينار، همه المُتعة، همه النساء، لكنه رأى الإسلام ورقة رابحة بيده فاستخدمها، هناك أناسٌ كثيرون يستخدمون الإسلام كورقةٍ رابحة في أيديهم، هذا صُنِّفَ في القرآن الكريم مع المنافقين.

المنافق حينما يخادع الناس يشعر بانهيار داخلي :

أحياناً إنسان مصلحته أن يصاحب أناسًا مؤمنين، يقول لك: أربح، أؤمِّن زبائن، يأتي إلى المسجد لا بنية طلب العلم، ولا بنية إرضاء الله عزَّ وجل، ولكن بنيةٍ محدودةٍ، وهي أن يُكَوِّن له من يشتري من عنده الحاجات، فهذا قصده مادي، المنافقون قال تعالى عنهم:

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ)

وصَفَهُمُ النبي في آخر الزمان بأن كلامهم أحلى من العسل، وأن فعلهم أمر من الصبر، فعل سيئ جداً، تكالب على المال، عداوةٌ وبغضاء، إيقاعٌ بين الناس، أنانيةٌ ما بعدها أنانية، ومع ذلك إذا أصغيت إلى أقوالهم تعجبك أقوالهم، قال:

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ)

لا تعقل شيئاً، كما قال الله عزَّ وجل يصف المنافقين في مكانٍ آخر :

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

[سورة البقرة:18]

هم حينما أظهروا شيئاً وأخفوا شيئاً اختل توازنهم، صار قلبهم فارغًا، قال:

(يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ)

لأنه مكشوف، ولأنه اختل توازنه الداخلي، وحينما نافق أظهر شيئاً، وأخفى شيئاً، شعر بفطرته أن الله غاضبٌ عليه، الإنسان حينما يخادع الناس يشعر بانهيار داخلي، أو يشعر باختلال توازن، هذا الوضع الداخلي المضطرب القلق يجعله يظن كل صيحةٍ عليه، فإذا كان مرتكباً جريمة مختفيًا وقاعدًا في البيت، لو طرق الباب في الساعة الحادية عشرة مساءً ينخلع قلبه من الخوف، ويقول لك: جاؤوا، قد يكون

الجار يريد رغيفًا من الخبز، طرق الجار الباب، والثاني ظن في نفسه أنهم جاؤوا، فالذي يرتكب جريمة المتخفي عن الأنظار كل حركةٍ، كل سكنةٍ، كل سؤالٍ، كل اتصالٍ هاتفي يظن أنهم جاؤوا ليأخذوه، الله عزَّ وجل وصف حالتهم وصفاً دقيقاً فقال:

(يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ)

من اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله ومن اشتكى إلى منافق فكأنما اشتكى على الله:

طبعاً هنا يوجد وقف:

(هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ)

لأن الإنسان يرتاح إلى المؤمن، يطمئن له، يبوح له بمكنوناته، يشكو له همومه، يكشف له عن بعض عيوبه وتقصيراته، أما المنافق فقنَّاص، إذا شكوت له اتخذ هذه الشكوى حجةً عليه، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام من توجيه الله له قال:

(هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ)

من اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، من اشتكى إلى منافقٍ أو كافرٍ فكأنما اشتكى على الله، قال:

(هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ)

سوء الظن عصمة :

الحقيقة أن الإنسان لا يُعَدُّ كَيِّساً، فَطِناً، حَذِرَاً إلا إذا تجاوز الظاهر، الإنسان الذي يؤخذ بالظاهر هذا يكون سطحي التفكير، سطحي الإدراك، سطحي الانفعال، كل إنسان يؤخذ بالظواهر سطحي في تفكيره، وفي إدراكه، وفي انفعاله، أما الإنسان العميق فهو الذي يتجاوز الظاهر إلى الباطن، والمؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((كيسٌ فطنٌ حذر))

[السيوطي في الجامع الصغير عن أنس بسند لا يصح]

قال:

(يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ)

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

[سورة النساء: 71]

أي أن مؤمنًا أموره مسيَّبة؟ ظنه حسن إلى درجة البلاهة؟ هناك ظن حسن يُعَبِّرُ أحياناً عن بلاهة الإنسان، كان عليه الصلاة والسلام يحذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوي بشره عن أحد، كان يقول:

((احترس من الناس بسوء الظن))

.. والحزم سوء الظن، وسوء الظن عصمة ، ولكن سوء الظن يكون مع الدليل، أما بلا دليل..

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

هناك ضابط، وكاشف، سوء الظن يعد إثماً إن لم يكن هناك دليلٌ عليه، ويعد حيطةً وحذراً وكَياسة إذا كان هناك ما يدلُّ عليه، إنسان تناقضت أقواله، إنسان كذب، ما دام كذب وتناقضت أقواله إذاً سوء الظن به عصمة، ما دام هناك كذب، ومراوغة، واحتيال، وإظهار ما لا يبطن، فأنت كشفته ما دام هناك دليل على كذبه، واحتياله، ومراوغته، أنت الآن يجب أن تسيء الظن به، لأن سوء الظن عصمة، أما إذا لم يكن هناك دليل إطلاقاً وأسأت الظن به فهذا إثم، قال تعالى:

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

المنافقون يرتكبون الكبائر و يصدون الناس عن سبيل الله عز وجل :

قال:

(هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

أي هؤلاء المنافقون يرتكبون الكبائر، يصدون الناس عن سبيل الله، يفعلون عكس الدُعاة، الداعية يقرب هو يُبَعِّد، الداعية يُحَبِّب هو يُنَفِّر، الداعية يقنع بالطاعة هو يقنع بالمعصية، المنافق ينفِّر ويُبَعِّد، ويقنع بالمعصية، أما المؤمن الداعية فيقرب ويحبِّب، ويقنع بالطاعة، وشتانَ بينهما.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

فهم لا يعبؤون لا برسول الله، ولا بمكانته عند الله، ولا بالنبوة، ولا بالرسالة، ولا بهذا الكتاب العظيم، يستخِّفون بالدين كله، بكل مظاهره، وكل أشكاله، وكل عناصره، وكل العاملين به، استخفافهم لا يخفونه.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

المعصية معصيتان؛ معصية ضعف ومعصية استكبار :

لذلك الإنسان حينما تغلبه نفسه، ويعصي الله، توبته سهلة، أما حينما يستكبر عن طاعة الله فتوبته صعبة جداً، المعصية معصيتان، معصية ضعف، ومعصية استكبار، وشتان بين المعصيتين، معصية الضعف صاحبها سريعاً ما يتوب، ويستغفر، ويؤوب، ويعود إلى الله، ويقبله الله، وينسي الملائكة والحفظة خطاياه وذنوبه، والصلحة بلمحة؛ أما الذي يعصي الله استكباراً فهذا بينه وبين التوبة مسافاتٌ شاسعة، والطريق إلى التوبة مغلق أو مسدود، لأنه عصى استكباراً، لأنه رَدَّ أمر الله عزَّ وجل، ولم تضعف نفسه، ضعف النفس شيء، ورد الأمر شيء، إبليس ردّ أمر الله، قال:

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة ص: 76]

(قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

[سورة الحجر: 33]

هذا معصية ردّ، معصية كبر، استكبر أن يخضع لأمر الله، يقول الله عزّ وجل هؤلاء المنافقون:

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)

فلماذا؟ قال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

كلامٌ واضحٌ كالشمس، الإنسان الفاسق لا يؤمن، ولا يتوب، ولا يُقبَل، ولا يُستَغفَر له:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

هذه كلمة من كلمات الله، قانون من قوانينه، سُنَّةٌ من سُنَنِهِ مع خلقه.

(وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

[سورة غافر: 6]

من أصرّ على معصيةٍ فقد أغلق الباب الذي يمكن أن ينفذ منه إلى الله :

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

أي إذا كان الإنسان مقيماً على معصية، ولا ينوي أن يتركها، وهي جزءٌ من حياته، ومقتنع بها، ولا يفكر في التوبة منها، ليعلم علم اليقين أن الطريق إلى الله مسدود، لأن الله لا يهدي القوم الفاسقين:

(وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)

[سورة غافر: 6]

الإنسان قد يخطئ، لكن لا ينوي أن يبقى على خطئه، قد يخطئ ولكن لا يصر على خطئه، قد يخطئ لكنه يستغفر، قد يخطئ ولكنه يندم، قد يخطئ ولكنه يتوب، قد يخطئ ويتبع الخطأ بحسنة لتَمْحُوها، أما أن يصر على خطئه.. فيقول: يا أخي هكذا نشأنا، هكذا نريد، هكذا العصر، هكذا الحياة، لابدَّ أن نفعل هذا، ماذا نفعل؟ إذا أصر الإنسان على معصيةٍ فقد أغلق الباب الذي يمكن أن ينفذ منه إلى الله، لذلك:

((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى ؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى))

[متفق عليه عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

فالذي يعصي الله أبى دخول الجنة، أبى رضوان الله، أبى هداية الله:

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَاسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

وفي درسٍ آخر إن شاء الله نتابع هذه السورة، التي هي سورة المنافقون، وقد يقول أحدكم لمَ لمْ يقل: سورة المنافقين، لأنها مضاف إليه، أسماء السوَر تبقى على صيغتها، نقول: على الحِكايَة، أي تبقى المنافقون، سورة المؤمنون، سورة المنافقون، هذه على الحِكاية، لا نُبَدِّل الصيغة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المنافقون 063 - الدرس (2-2): تفسير الآيات 9 -11

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-10-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أنواع الصدق :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والأخير من سورة المنافقون، ومع الآية التاسعة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

بعد أن حدَّثنا ربنا جلَّ جلاله عن المنافقين الذين يشهدون أن محمداً صلى الله عليه وسلَّم رسول الله، والله سبحانه وتعالى يشهد إنهم لكاذبون بهذه الشهادة، وقد بيّنت لكم من قبل أن الإنسان يَصْدُقُ في مطابقة الخبر مع الواقع، ويصدق في أن يأتي الفعل مطابقاً للخبر، الأول صدق الأخبار، والثاني صدق الأفعال، والثالث الصدق مع النفس، قد يكون صادقاً مع نفسه غير مطابقٍ للواقع، فهو كاذبٌ مع الحقيقة، لكنه صادقٌ مع نفسه، وقد يكون كاذباً مع نفسه، أما أن تأتي شهادته مطابقةً للواقع، فهذا النوع السادس، يشهدون أن محمداً صلى الله عليه وسلَّم رسول الله، لكنهم كاذبون في هذه الشهادة مع أنفسهم، وإن جاءت هذه الشهادة مطابقة للواقع.

المنافقون نافقوا لأن أموالهم وأولادهم شغلتهم عن ذكر الله :

بعد أن حدَّثنا الله جلَّ جلاله عن أحوال المنافقين، وعن مكرهم، وعن خِداعِهم، قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ)

ماذا نستنبط من ذلك؟ نستنبط من ذلك أن المنافقين نافقوا، لأن أموالهم وأولادهم شغلتهم عن ذكر الله:

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء : 142]

فكأن خِتام هذه السورة جاء مُطابقاً لمقدِّمتها، إذ كانت علَّة النفاق أنهم شُغِلوا بأموالهم وأولادهم عن ذكر الله فكذبوا، ونافقوا، وائتمروا، وانحرفوا.

الإنسان حينما يأتي إلى الدنيا له مهمَّة كبيرة فإذا شُغِل عنها فقد لهى بها :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

إن أردتم أن يرضى الله عنكم، إن أردتم أن تكونوا مؤمنين حقًّا، إن أردتم ألاّ تكونوا منافقين كهؤلاء:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

أولاً: لا تلهكم، أي لا تشغلكم، الإنسان حينما يأتي إلى الدنيا له مهمَّة كبيرة، فإذا شُغِل عنها فقد لهى بها، في آياتٌ أخرى تأتي آياتٌ كنوع:

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)

[سورة محمد: 36]

اللعب كما تعلمون أن تشتغِل بشيء، وبعد حين تراه صغيراً، كيف أن الطفل الصغير يلهو بالدُمى، فإذا كَبر يحتقر نفسه كيف كان يبكي من أجل ُدْمية، فالدنيا كلُّها لعبٌ، ومن خصائص اللعب أيضاً أنه كلّما انتقلت من مرحلةٍ إلى أخرى صغُرت في عينك المرحلة السابقة، يعجب الإنسان كيف أنه كان مهتمًّا بهذا الموضوع، فمن خصائص الدنيا أنها لعب، هذا خارج موضوع درسنا.

اللهو من خصائص الدنيا :

لكن من خصائص الدنيا أنها لهوٌ..

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)

[سورة محمد: 36]

اللهو أن تشتغل بالخسيس عن النفيس، أن تغوص في البحر لتخرج بالأصداف لا باللآلئ، أن تأتي إلى الدنيا، وأن تخرج منها دون أن تعرف سرَّ وجودك وغاية وجودك، فلذلك ورد في بعض الآثار القدسية: " أن عبدي خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقّي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك ".

الكافر مشغولٌ بما ضُمِن له و غافل عما كُلِف به :

أكثر ما يوضِّح هذه الآية مثل أنتزعه من واقع الحياة المدرسية: لو أن هناك مدرسة داخلية فيها مطبخٌ كبير، وفيها مهجعٌ مريح، وفيها مكتبة عامرة، وفيها قاعة مطالعات، و لهذا الطالب نظام دقيق جداً، يُمضي ساعاتٍ في سماع المحاضرات، وساعة في راحته، وساعاتٍ في المطالعة، والطَّعام يقدَّم له جاهزاً كاملاً دقيقاً في وقتٍ محدَّد، هو مكلَّفٌ أن يدرس، والكلُّ في خدمته، لو أن هذا الطالب ترك

الدراسة، ودخل إلى المطبخ ليطمئنَّ على صنع الطعام، وعن مراحل تهيئته، ماذا نقول عن هذا الطالب؟ إنه اشتغل عن مهمَّته الأساسية في هذه المدرسة الداخلية؛ في القراءة، والمذاكرة، والحفظ، وانتقل إلى ما لا يعنيه، وما ضمِن له، دائماً الكافر أو الذي تاه عن الله عزَّ وجل مشغولٌ بما ضمِن له، غافل عما كُلِف به.. مثلاً ربنا عزَّ وجل يقول:

(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الزخرف: 32]

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

[سورة الزمر: 36]

(فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)

[سورة الذاريات: 23]

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

[سورة الذاريات: 22]

الله جلَّ جلاله ضَمِنَ لنا الرزق، وأمرنا أن نعبده، أكثر الناس شُغِلوا بالرزق، وأهملوا عبادته، فبحقِّي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك.

الله عز وجل ضمن للإنسان ما يريد مع السعي ومع أخذ الأسباب :

الله عزَّ وجل يقول:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

[سورة الكهف: 103-104]

كطالب أرسله أبوه إلى بلدٍ غربي ليدرس، طمأنه، الآية الكريمة:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة الروم: 40]

فعل ماض:

(ثُمَّ رَزَقَكُمْ)

[سورة الروم: 40]

لم يقل: يرزقكم من أجل أن تطمئنّوا، لمجرَّد أن الله قد خلق الإنسان خلق له رزقه، وفي آيةٍ أخرى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

[سورة النجم: 39]

ليس لك إلا ما سعيت، فالسعي المطلوب يشْغَل عنه الإنسان التائه بالبحث عن الرزق المضمون، ضمن لك الرزق، ليس معنى هذا أن تمدَّ يدك صبيحة كلِّ يوم تحت الوسادة لتأخذ المال.. لا.. ضمن لك مع السعي، ومع أخذ الأسباب، أما أن تقلق، وأن تنسى ربَّك، وأن تنسى دينك، وأن تنسى آخرتك، وأن تقع في المعاصي والآثام من أجل الرزق، فهذا الذي لا يُرضي الله عزَّ وجل.

على الإنسان أن يسعى و على الله الباقي :

أيها الأخوة، كنت قد ضربتُ مثلاً يوضِّح هذه الآية: لو أنَّ بستاناً زُرِعَ فيه أشجار تفَّاح، بحسب النصوص الدينية هذه التفَّاحة التي على هذا الغُصن هي لفلان منذ أن خُلِقت، إلا أنَّ فلاناً مخيّر في طريقة أخذها، إما أن يشتريها بماله، وهذا طريق، وإما أن يتسوّلها، وإما أن يسرقها، وإما أن تقدَّم له هديّة، وإما أن تُقدَّم له ضيافة، أما هي فله، وأنت عليك أن تختار الطريق الصحيح لأخذها:

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتّى تستوفيّ رزقها، فاتَّقوا الله عباد الله وأجمِلوا في الطلب، ولا يحملنَّكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية، إن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته))

[البزار عن حذيفة، والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح]

فليس معنى ذلك أن الرزق مضمون، أي لا تسعى، لا، اسع، إن الله كتب عليكم السعيّ فاسعوا.. إلا أن سعيك وحده لا يخلِق الرزق، الرزق بتوفيق الله، الرزق بإكرام الله، أنت عليك أن تسعى، هناك حدٌّ أدنى ضُمِنَ لك.

استخدام الله عز وجل الرزق كأداة تأديب :

الله سبحانه وتعالى يستخدم الرزق كأداةٍ لتربيتك- نقطة جديدة- يستخدم الرزق كأداةٍ للتربية، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ))

[ابن ماجه عن ثوبان]

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً)

[سورة طه:132]

فالبيت الذي تؤدَّى فيه الصلوات، والأبُ الذي يأمر أهله بالصلاة، ويصطبر عليها هذا بيتٌ مرزوق:

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن: 16-17]

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الأعراف :96]

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

[سورة المائدة: 66]

قِسْ على ذلك القرآن الكريم، لو أنهم أقاموا القرآن الكريم لأكلوا من فوقهم، ومن تحت أرجلهم.

تقنين الله عز وجل تقنين تأديب لا تقنين عجز :

يجب أن نعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى حينما يُقَنِّنُ الأرزاق، لا يقنّنها عجزاً، بل يقنّنها تأديباً..

(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)

[سورة الحجر: 21]

أما الإنسان إذا قنَّن فتقنينه تقنين عجز، فالله سبحانه وتعالى حينما ضمِن الرزق ضمِنه من جهة، وجعله أداةً تأديبية من جهةٍ أخرى، فالأمانة غِنًى.

أسباب وفرة الرزق :

أحد أسباب وفرة الرزق أن تكون أميناً، وهناك مئات ألوف القصص عن أناسٍ تعفّفوا عن الحرام فآتاهم الله من الحلال المال والوفير..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا)

[سورة نوح:10-12]

فالاستغفار أحد أسباب وفرة الرزق، الأمانة أحد أسباب وفرة الرزق، الاستقامة على منهج الله أحد أسباب وفرة الرزق، صلة الرحم تزيد في الرزق، أن تَصِلَ رحِمَك، تتفقَّد أهلك، وترعى شؤونهم، توصلهم بمددٍ من عندك، تتفقَّد أحوالهم، تأخذ بيدهم إلى الله عزَّ وجل هذا من أسباب وفرة الرزق، صلة الرحم، الأمانة، الاستغفار، أن تأمر أهلك بالصلاة، إتقان العمل أحد أسباب وفرة الرزق..

((إن الله يحبُّ من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه))

[الجامع الصغير عن عائشة بسند صحيح]

الآن الصدقة أحد أسباب وفرة الرزق، استنزلوا الرزق بالصدقة.

الله سبحانه وتعالى ضمن للإنسان الرزق وحَرَّكه :

الله سبحانه وتعالى ضمن الرزق وحَرَّكه، ضمِنه من جهة من أجل ألاّ تقلق، كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً، من أجل أن تطمئن أن حياتك ورزقك بيدِ الله عزَّ وجل، والله سبحانه وتعالى لا يُعْقَلُ أن يأمرك أن تعبده وقد أوكل أمر حياتك ورزقك إلى أناسٍ آخرين، هذا شيء مستحيل، قال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

[سورة هود:123]

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك.

((وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ))

[الترمذي، أحمد عن ابن عباس]

هذا قانون قنَّنه الله، وانتهى الأمر، رُفِعَت الأقلام وجَفَّت الصُحُف، فالرزق مضمون من جهة، مِن أجل ماذا ؟ ضمن من أجل ألاّ تعبد غير الله، من أجل ألاّ تُشرك به، من أجل ألاّ تنافق، ألاّ تخنع، ألاّ تخضع، ألاّ تخاف، الرزق من عند الله، ليس من فلان أو علاّن، لو أن أهل الأرض خمسة آلاف مليون إنسان اجتمعوا على أن يقطعوا رزق الإنسان فإنهم لن يستطيعوا، ولو أنَّ خمسة آلاف مليون أرادوا أن يجعلوك غنياً فإنهم لن يستطيعوا، الرزق بيدِ الله، ضمِنه لك من أجل ألاّ تعبد غيره، ضمِنه لك من أجل ألاّ تُشرك به شيئاً، ضمنه لك من أجل ألاّ تعصي الله من أجل الرزق، ضمنه لك من أجل ألاّ تنافِق، أن تظنَّ أن فلاناً يعطيك أو يمنعك، وحَرَّكَهُ من أجل أن يؤدِّبك، حَرَّكَهُ من أجل أن يكون حاثًّا لك على طاعة الله، مثلاً:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

المنافق ظنَّ أن المال هو كل شيء فأشركَ نفسه أو أشرك غيره مع الله في موضوع الرزق، فألهي بماله أو بأولاده عن ذكر الله، فالشيء الدقيق هو أن الإنسان في هذه الحياة الدنيا حينما يدفع زكاة ماله ماذا ضَمِنْ؟ ضمن سلامة بقية المال، حينما يدفع زكاة ماله ضمن سلامة بقية المال.

((ما تلفَ مالٌ في برٍ أو بحرٍ إلا بحبس الزكاة))

[الجامع الصغير عن عمر، بسند ضعيف]

وحينما يؤدّي عبادة ربّه، حينما يؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها، وحينما يتقِن أداءها، وحينما يقتطع من وقته وقتاً لقراءة القرآن، وحينما يقتطع من وقته وقتاً لطلبِ العلم، وحينما يقتطع من وقته وقتاً

للأعمال الصالحة، للدعوة إلى الله، للأخذ بيد الناس إلى الله ورسوله هذا ماذا فعل؟ هذا أدَّى زكاة وقته، فإذا أدَّيت زكاة وقتك ضمن الله لك سلامة بقية وقتك، ليس هذا فحسب بل كما يقول العوام: طرح الله لك في وقتك البركة، ما معنى البركة؟ أنَّ الله سبحانه وتعالى يوفّقك إلى إنجازٍ كبير في وقتٍ قليل، وهذه أخصُّ خصائص المؤمن.

فإنك تعجب من هؤلاء الذين طلبوا العلم، وعلّموا الناس، كيف يتعاملون مع وقتهم؟ هناك علماء جمعوا مؤلّفاتهم، وقسَّموها على أيام حياتهم فإذا هم يكتبون في اليوم الواحد تسعين صفحة، هل بإمكانك أن تقرأ كل يوم عشر صفحات؟ تسعون صفحة كتابة، وهم شُغِلوا بأعمالٍ كثيرة.

أخَص خصائص المؤمن أن الله سبحانه وتعالى يبارك له في وقته :

أخَصُّ خصائص المؤمن أن الله سبحانه وتعالى يبارك له في وقته، فيسمح له أن يفعل الشيء الكثير في الوقت القليل، بينما ربنا عزَّ وجل يمكن أن يتلِف للإنسان وقته، يمكن أن يكلّفك بعملٍ شاق لا تنتفع منه إطلاقاً، يمكن أن يعمل التاجر سنة بأكملها.

إنسان عنده مزارع تفّاح في بعض المناطق في مدينة يبرود، ضَمانها في العام مليون ليرة، برياحٍ عاتيةٍ في ساعاتٍ قليلة أُتلِف المحصول كلُّه، إنه لا يؤدّي زكاة ماله، ربنا عزَّ وجل من أساليبه التربوية أنك إذا ضننت بوقتك عن أن تبذله في ذكر الله، طبعاً ذكر الله عزَّ وجل العلماء قالوا: الصلاة، وقالوا: تلاوة القرآن، وقالوا: الحج، وقالوا: العبادات، وقالوا: الطاعات، أي كل شيءٍ يسبب قربك من الله يجب أن تفعله ولا تبالي بالوقت لأنه مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وفي الأثر: "ابن آدم.. كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد ".

بطولة الإنسان أن ينظم وقته :

العِبرة أيها الأخوة أن تنظِّم وقتك، الوقت الذي لله دعه لله، الوقت الذي للأهل دعه للأهل، الوقت الذي للعمل دعه للعمل، أما أن تجعل عملك يطغى على دينك، وعلى طاعتك، وعلى صلواتك، وعلى طلبك للعلم، وعلى حضور مجالس العلم، فهذا ليس من الحكمة في شيء، ومن فعل هذا وقعت عليه هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ)

لا تنشغِلوا بـ:

(أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

عن صلواتكم، عن حجّكم، عن صومكم، عن أداء زكاة أموالكم، عن طلبكم للعلم، أما أوسع معنى عن طاعة الله، أي إذا آثرت حظك من الدنيا على طاعة الله فقد انطبقت عليك هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

هم الخاسرون، فالإنسان مثلاً لو أنه رأى ورقة بيضاء فاستعملها لكتابة كلماتٍ لا معنى لها، ثم مزّقها، وألقاها في سلّة المهملات، ثم اكتشف أن هذه في الوجه الآخر شيك بألف مليون، كان من الممكن أن يقبضه، وكان من الممكن أن يشتري به بيتاً فخماً، ومركبةً فارهةً، وأن يعيش حياةً هنيئة، هو غفل عن قيمتها، فاستعملها كورقة مسودَّة، ثم ألقاها في المهملات، هذه خسارة، جاء إلى الدنيا وغادرها، من أجل عشر سنوات استمتع بها بكسب الأموال الطائلة بطريقٍ مشروع أو غير مشروع، بالحلال أو الحرام، أكل، وشرب، وسافر، وتنزَّه، ثم جاءه ملك الموت، وهو صفر اليدين..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً :

أيها الأخوة الكرام، عاهد ربَّك أنه حينما تسمع صوت الآذان دع كل شيء، وقُمْ إلى الصلاة، من أجل ألاّ تنطبق عليك هذه الآية.

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: 45]

من تجارتكم، ذكر الله أكبر، أي أنك حينما تؤثر ما عند الله عزَّ وجل يجب أن تعلم علم اليقين أن الله سيمنحك الدنيا والآخرة، من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً.

(لَا تُلْهِكُمْ)

وقت مجلس العلم لا تؤثر عليه لقاء مع صديق، هذا وقت مجلس العلم، لا تؤثر عليه زيارةً تافهة لإنسان، هذا وقت مجلس العلم.

(لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً :

أحياناً لأتفه الأسباب يَدَع مجلس العلم، لأتفه الأسباب يُقصِّر في أداء الصلوات، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

أحياناً من أجل أن يضمن لأولاده مستقبلاً رائعاً يعصي الله، من أجل أن يضمن لأولاده مستقبلاً رائعاً يوقِعُهُم في الحرام، أو يقع هو في الحرام، لمجرَّد أن تؤثر المال أو الولد على طاعة الله، على معرفته، على التقرُّب إليه، فقد انطبقت عليك هذه الآية، وسبب نِفاق المنافقين، وانحراف المنافقين، وأن الله غضب عن المنافقين، أنهم آثروا دنياهم على آخرتهم، هكذا قال الله عزَّ وجل:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً)

[سورة الإنسان: 27]

يوم ثقيل.

الخسارة الكبرى أن يخسر الإنسان الآخرة :

نحن في أذهاننا أن الإنسان إذا فَقَدَ ثروته فقدْ خسر، إذا فَقَد ماله فقدْ خسر، إذا فَقَدَ بيته فقدْ خسر، أحياناً يكون البيت غالياً جداً، يقع تحت استملاكٍ، فيعطونه مبلغاً بسيطاً من المال لا يسمح له بشراء بيتٍ مقابلٍ له، أما الخسارة الحقيقية، الخسارة الكبرى فأن تخسر الآخرة، سيدنا عمر رضي الله عنه من أروع كلماته إذا أصابته مصيبةٌ: " الحمد لله-عجيب- الحمد لله إذ لم تكن في ديني- دينه سليم، المال يذهب ويأتي- الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها ".. الحل، قال تعالى:

(أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ)

[سورة البقرة: 254]

أي من قبل ذلك، الدنيا فيها أموال، وفيها أولاد، وفيها بيوت، وفيها مركبات، وفيها حدائق، وفيها بساتين، وفيها أماكن جميلة، وفيها متع، وفيها مباهج، والدنيا خضرةٌ نضرة، لكن لماذا أنت في الدنيا؟ الآية دقيقة، حينما يقول لك الله:

(لَا تُلْهِكُمْ)

اللهو كما تعلمون أن تشتغل بالخسيس عن النفيس، حينما قال الله عزَّ وجل:

(لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

ما النفيس في هذه الآية؟ ذكر الله، ما الخسيس؟ أن تلهو بالمال والأولاد.

المال إن لم يشغل الإنسان عن طاعة الله لم يعد شيئاً خسيساً :

الآن عندنا معنى ثالث، لو أن مالك لم يشغلك عن طاعة الله أبداً فإن هذا ليس من الخسيس، المال قِوام الحياة، المال يمكن أن تتقرَّب به إلى الله، إذا كانت عباداتك وطلبك للعلم والواجبات الدينية تؤدّيها

كاملة، ولك أعمال جليلة تكسب بها المال، فحبَّذا المال، كما قال سيدنا أبو ذر: " حبذا المال أصون به عرضي وأتقرَّب به إلى ربّي "، حبَّذا المال، معنى ذلك متى يكون المال شيئاً خسيساً؟ إذا شغلك عن طاعة الله، أما إذا لم يشغلك، من هنا قالوا: قد يكون المال في القلب، وقد يكون في اليدين، المؤمن ماله بين يديه، لكن قلبه مع الله، إذاً إن لم تلهُ بالمال فاسع إليه، فإنه قِوام الحياة، به ترقى إلى الله، به تتقرَّب إلى الله، به تنفقه في سبيل الله، ليس معنى ذلك أن المؤمن انزوى وتقوقع، وانسحب من الحياة وانهزم، وعاش في صومعة، وصار عبئاً على الناس..

النبي الكريم سأل أحد أصحابه، أحد الشبَّان في المسجد يصلّي قال له: من يطعِمك؟ وقت عمل وليس وقت صلاة، من يطعِمك؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك. أمسك بيد ابن مسعود وقال: إن هذه اليد يحبّها الله ورسوله.

معنى ذلك إن لم تلهُ عن ذكر الله، الصلوات تحافظ عليها، دروس العلم تحافظ عليها، تؤدّي كل واجباتك، فامش في مناكب الأرض، كن إنساناً متفوّقاً، ليكن لك عمل؛ دراسة، مهنة، حرفة، تجارة، صناعة، زراعة، انفع المسلمين، أنت في الدنيا من أجل أن تنفعهم:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ))

[مسلم و ابن ماجه و أحمد عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

من القوة أن تكسب المال الحلال، لا تكن عبئاً على أحد، ليكن الناس عبئاً عليك، اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى.

إذاً المعنى الثالث: لو أننا لم نشغل عن ذكر الله بالمال فإن المال لم يعد شيئاً خسيساً، صار قِوام الحياة، لو أننا ربّينا أولادنا ليكونوا صالحين من بعدنا، فإنه لم يعد شيئاً خسيساً، صارت تربية الأولاد من طاعة الله، العبرة ألا تنشغل بالخسيس عن النفيس، النفيس ذكر الله، فإن لم تُشغَل عنه حبَّذا تربية الأولاد، وحبَّذا إنجاب الأولاد، والولد الصالح أفضل كسب الرجل، أفضل كسب الرجل ولده، فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

ذكر الله أنفس ما في الدنيا :

المعنى الأول أن أنفس ما في الدنيا ذكر الله.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه:14]

لأن الصوم يسقط بالمرض أو السفر، والحج يسقط بالفقر، والشهادة تؤدَّى مرَّةً واحدة في العمر إذا أردت أن تكون كذلك، بقي ماذا؟ بقي الصلاة الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال، قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه:14]

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[سورة العنكبوت:45]

والعلماء قالوا: " أوسع معنى لهذه الآية طاعة الله، إذا انشغلت بولدٍ أو بمالٍ عن طاعة الله فقد وقعت تحت هذه الآية:

(لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ)

من للتبعيض..

على الإنسان أن ينفق مما رزقه الله عز وجل :

(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ)

لا تعني المال وحده، أوتيت علماً أنفقه، أوتيت مالاً أنفقه، أوتيت خبرةً أنفقها، أوتيت جاهاً أنفقه.. يقول لك محامٍ: إذا كان هناك أخ مظلوم لا يتحمَّل نفقة الوكالة، أنا أُدافع عنه، هذا ماذا فعل؟ هذا أنفق مما رزقه الله، مدرِّس رياضيات قال: أنا ممكن أن أدرِّس الطلاب الفقراء مجَّاناً لوجه الله، هذا أنفق مما رزقه الله، هذه قضية عامَّة، لا يوجد إنسان ليس لديه ميّزة في الأرض أبداً، لا يوجد واحد من الأخوة الحضور ليس لديه ميّزة، هذا بعلمه، إنسان يتقن تبليط الأرض، فيقول لك: أنا للمسجد جاهز، كثير من الأخوان قدَّموا خدمات أنا والله أشهد الله إنني أشكرهم عليها، قدَّموها لوجه الله، لبيت الله؛ هذا في الكهرباء، هذا في الطلاء، هذا في البلاط، يمكن للحرف كلّها أن تكون داخلة في هذه الآية:

(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ)

آتاك جاهاً انصر الضعيف، آتاك علماً أنفقه، آتاك خبرة علِّم الآخرين، آتاك مالاً أنفقه..

(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)

كان عليه الصلاة والسلام يمشي مع أصحابه، فرأوا قبراً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تَحْقِرون من تَنَفُّلِكُم))

[ورد في الأثر]

ركعتان سريعتان صلاّهم الإنسان لا فرض ولا سنّة، هكذا دخل إلى مسجد فصلى تحية مسجد، قال:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفُّلكم أحبُّ إليه من كل دنياكم))

الموت ينهي كل شيء :

ماذا يوجد في الدنيا؟ شركات أرباحها السنوية أكبر من ميزانيات دول، فيها قصور، فيها أماكن جميلة جداً، فيها نساء، فيها طعام طيِّب.. قال:

((هذا إلى ركعتين مما تحقرون من تنفُّلكم أحبُ إليه من كل دنياكم))

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الزخرف : 83]

الذي فيه يصعقون حينما تُكتشف الحقيقة، فهل يمكن للإنسان - للتقريب - أن يبيع بيته في المالكي، ومعمله، وسيارته، وكل ما يملك، ويشتري عملة أجنبية ليعيش في بلدٍ أجنبي في بحبوحةٍ كبيرة؟ يعيش من فوائد هذا المبلغ؟ يقول لك: في الشهر خمسة ملايين فوائد، ثم يُفاجأ أن هذه العملة كلّها مزوّرة، العملة التي باع بها بيته ومعمله ومركبته هذا خبر؟ يقول لك: جلطة، ويموت على الفور، فإنه لم يتحمَّل الخبر، هذه في الدنيا، إذا خسِر الإنسان كلَّ ماله في الدنيا قد يموت فجأةً، لأنه لا يتحمَّل، فكيف إذا اكتشف أنه خسِر الآخرة؟

(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط :

أيها الأخوة، حقيقةٌ ذكرتها كثيراً، ولكنني والله مضطر أن أعيدها عليكم، القضية في الإيمان قضية وقت، كل الحقائق التي جاء بها الأنبياء سوف يعرفها كل الناس عند الموت، كل الحقائق التي جاء بها الأنبياء جميعاً سوف يعرفها الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، تقيُّهم وفاجرهم، حتى ملحدهم عند الموت، فالقضية قضية وقت، من هذه الآية يستنبط هذا المعنى:

(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)

عند الموت:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق: 22]

فلو قال أستاذ: هناك امتحان آخر السنة، ولكن أحد الطلاّب تشكك، أما حينما يأتي آخر العام، ويدخل الطلاب قاعة الدرس، وتُطرَح الأسئلة، ولا يُحسِن الإجابة، فإن هذا الطالب آمن بأن هناك امتحان، لكنه لم ينجح، لكنَّه عرف ذلك بعد فوات الأوان، لم تنفعه هذه المعرفة.

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

[سورة النساء: 18]

لذلك خيارنا مع الإيمان خيار وقت، إما أن نعرف الحقيقة في الوقت المناسب فننتفع منها، وإما أن نعرفها حقّاً في وقتٍ غير مناسب، فنندم على تفريطنا، أما المعرفة فحاصلة لا محالة، لكن البطولة أن تعرفها في الوقت المناسب، الطالب أحياناً يقرأ الكتاب فيدخل الامتحان، يأتي السؤال فيجيب، نجح، أما إذا لم ينجح فإنه يذهب إلى البيت، فيفتح الكتاب، ويقرأ الجواب الصحيح، عرف الجواب الصحيح، ولكن متى عرفه؟ عرفه بعد انقضاء الامتحان، هل ينجِّح؟ مستحيل أن ينجِّح، فسيقدم اعتراضاً، ويقول: الآن عرفت الجواب، يقدِّم طلباً للوزارة أنه الآن عرف الجواب، بعدما جاء السؤال، ولم يعرف أن يكتب كلمة، رجع إلى البيت، وفتح الكتاب، ففهم الموضوع، فأرسل اعتراضاً أنه يجب أن تنجِّحوني، لأنني عرفت الجواب، ولكن بعد الامتحان، فهذا يوضع في مستشفى المجانين، فلابدَّ من أن نعرف الحق، إما الآن، أو بعد فوات الأوان.

المعرفة التي جاء بها الأنبياء عرفها فرعون عند الموت

الآن هناك منفعة، الآن هناك نجاة، الآن هناك سعادة، ما دام القلب ينبض، ما دام في العمر بقية، ما دام في العمر فسحة، الآن كل شيء يُحلّ، لكن المعرفة التي جاء بها الأنبياء من عرفها عند الموت؟ فرعون، فرعون نفسه الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

عرف الحقيقة، فقيل له:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

[سورة يونس: 91]

ما قيمة هذه المعرفة ؟

(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ)

قدَّم طلباً أنه أنا عرفت الجواب..

(وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

أي يعرف حقيقة العمل، حجم العمل، إخلاص العمل، مؤدَّى العمل، غاية العمل، مقدار التضحية في العمل، كلُّه يعلمه الله عزَّ وجل.

ضرورة معرفة الآية التالية لأنها أساسية في حياة كل إنسان :

هذه الآية أخواننا الكرام ينبغي أن تُحفَظ، وأن تُقرَأ، لأنها أساسية في حياتنا..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي)

أي أخِّرني...

(إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التغابن 064 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 1-4
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-11-01

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى التسبيح :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة التغابن:

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

التسبيح أيها الأخوة هو التنزيه عن كل ما لا يليق بالله عز وجل، لذلك الذين يظنون بالله ظنّ السوء عليهم دائرة السوء.

حسن الظن بالله ثمن الجنة :

أخواننا الكرام، الآية الكريمة قوله تعالى:

(وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ)

[سورة فصلت:23]

إذا ظننتم بالله غير الحق ظنّ الجاهلية، هذا الظن قد يكون سبب الهلاك، إذا ظننت أن الله سبحانه وتعالى أجبر الإنسان على معاصيه، ثم سيحاسبه على هذه المعاصي فهذا ظنّ السوء، حسن الظن بالله ثمن الجنة.

فكلمة يسبح فيها تنزيه، يجب أن تنزّه الله عن كل ما لا يليق به، يجب أن تنزّهه عن الظلم، يجب أن تنزّهه عن الجهل، قال تعالى:

(يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ)

[سورة الأنعام: 3]

يجب أن تنزّهه عن المثلية، قال تعالى:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة الشورى: 11]

فأي صفة لا تليق بالله عز وجل يجب أن تنزّهه عنها، وهذا فحوى التسبيح، التسبيح هو التنزيه، كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك.

من معاني التسبيح فضلاً عن التنزيه التمجيد، أن ترى رحمته، أن ترى قدرته، أن ترى غناه، أن ترى أسماءه الحسنى، أن تعرف الله من خلال أسمائه الحسنى، هذا من التسبيح.

التسبيح بالمعنى الحقيقي أن تنزّه الله وأن تمجده وأن تخضع له :

لماذا قال الله تعالى:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)

[سورة الكهف:46]

قال بعض المفسرين: الباقيات الصالحات هن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر، التسبيح بالمعنى الحقيقي أن تنزّه الله، وأن تمجده، والمعنى اللازم أن تخضع له، أن تنزّهه، وأن تمجده، وأن تخضع له، إذا سبحته، وحمدته، ووحدته، وكبرته، فقد عرفته، وإذا عرفته عرفت كل شيء، وإذا عرفته وصلت إلى كل شيء، وإذا عرفته جمعت المجد من كل أطرافه، وإذا عرفته حققت الهدف من وجودك.

هذا الكلمات العظيمة أحياناً تفرغ من مضمونها.. سبحان الله.. هذا ذكر، لو عرفنا معنى التسبيح! التسبيح خير لك من الدنيا وما فيها، إنك إن عرفت الله عرفت كل شيء، لكن التسبيح جانب منه تنزيه.

أحياناً يتصور الإنسان أن الله عز وجل يمكن أن يضع إنساناً في النار بعد أن يفني عمره في طاعته، لماذا؟ لأنه لا يسأل عما يفعل، من قال هذا الكلام لم يسبح الله عز وجل، أن يفني الإنسان عمره في طاعة الله، أن يفني شبابه كله، ثم يضعه في النار، لا لشيء إلا أنه لا يسأل عما يفعل، من قال هذا الكلام ما سبح الله أبداً، ولا عرف الله أبداً.

العقائد الفاسدة التي تسربت إلى المسلمين تتناقض مع كلام الله ومع أسمائه الحسنى :

آلاف العقائد الفاسدة التي تسربت إلى المسلمين، وكل هذه العقائد تتناقض مع كلام الله، ومع أسمائه الحسنى، ومع صفاته الفضلى، لو فهمت الآية الكريمة وهي:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس الآيات: 8]

على أن الله خلق في الإنسان الفجور، أنت ما سبحت الله، ولا نزهته عما لا يليق به، لو توهمت أن على الإنسان أن يفعل كل المعاصي والآثام، ثم النبي عليه الصلاة والسلام يشفع له، بهذا المعنى الساذج معنى الوساطة لا معنى الرقي، هذا المعنى الساذج للشفاعة إذا ظننته وأيقنت به فأنت لا تعرف الله، قال تعالى:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

[سورة الزمر: 19]

((يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا))

[مسلم، والترمذي عن أبي هريرة، واللفظ له]

إذا فهمت الحديث الشريف أنها قبضة في الجنة، ولا أبالي، وقبضة في النار، ولا أبالي، هكذا بشكل عشوائي، قبضة في النار، وقبضة في الجنة، فأنت لم تسبح الله عز وجل، ما سبحته ولا عرفته، أين قوله تعالى:

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

[سورة غافر: 17]

الآيات التالية تبين عدالة الله المطلقة :

أين قوله تعالى:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

أين قوله تعالى:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء:77]

أين قوله تعالى:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

[سورة الأنبياء:47]

كل هذه الآيات تبين عدالة مطلقة، تبين حساباً دقيقاً، فإذا توهمت غير ذلك فأنت لا تعرف الله، وأنت لم تسبح الله، ولم تنزّه الله عما لا يليق به، فلذلك حسن الظن بالله ثمن الجنة.

كل ذرة مخلوق يسبح الله عز وجل :

كلمة (يسبح) كلمة كبيرة جداً، تعني نزهته عما لا يليق به، ووصفته بكمالاته التي تليق به، ثم خضعت له.

ربنا عز وجل يخبرنا أن كل ما في السموات وما في الأرض-كلمة السموات والأرض مصطلح قرآني يعني الكون، والكون ما سوى الله- وكل ما سوى الله من خلائق كلها تسبح الله، يا ترى المخلوق على أي مستوى؟ في الأعم الأغلب على مستوى الذرة، السبب:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

[سورة الإسراء: 44]

إذاً الذرات تسبح بحمد الله، وقال تعالى:

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[سورة فصلت: 21]

فحوى هذه الآية يشير إلى أن الجلد كائنات، معنى هذا أن الجلد خلايا، وأن كل خلية كائن يسبح الله، وسوف يشهد ، معنى ذلك أنه على مستوى] لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا [على الإنسان جلده كل ذرة كائن يسبح الله عز وجل، رأس الدبوس كم ذرة فيه؟ ألوف الملايين من الذرات، الكون كم ذرة؟ كل ذرة مخلوق يسبح الله، إذاً معنى قول الله تعالى:

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

ينزهه، ويمجده، ويخضع له إلا الإنسان.

الإنسان الذي سخر له ما في السموات و الأرض هو وحده الغافل و الشارد :

هذا الإنسان المخلوق الأول الذي سخّر الله له ما في السموات والأرض، والذي كرّمه الله، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

المخلوق الأول المكلف والمكرم، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

هذا المخلوق الذي سخرت له السموات والأرض، والذي كرمه الله، والذي جعله خليفة له، والذي أمره أن يعمر الأرض، هذا المخلوق الأول وحده الغافل، هو وحده الشارد، هو وحده الشاذ.

الإنسان إن لم يسبح فقد شذّ عن كل المخلوقات التي هي في الأصل دونه :

هناك معنى دقيق في الآية:

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

طالب مثلاً- ولله المثل الأعلى- ولكن من باب التوضيح، طالب لم يؤدِّ واجبه الدراسي، قال له المعلم: كل الطلاب قد أدوا واجبهم إلا أنت، هذا توبيخ لهذا الطالب، كل الطلاب من دون استثناء قد أدّوا واجبهم المدرسي إلا أنت، في هذه الآية معنى أن الإنسان إن لم يسبح فقد شذّ عن كل المخلوقات التي هي في الأصل دونه.

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

ما معنى كلمة ما في السموات؟ أنا ذكرت لكم قبل مدة أن مركبة فضائية أرسلت إلى المشتري، وسارت بأقصى سرعة اخترعها الإنسان، أربعون ألف ميل في الساعة، هذه المركبة بقيت تمشي في الفضاء الخارجي ست سنوات، إلى أن وصلت لقرب المشتري، وعليها مرصد عملاق التقط أبعد مجرة اكتشفت حتى الآن، هذه المجرة تبعد عنا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، هذا الخبر أذيع قبل عام أو أكثر من إحدى محطات الأخبار العالمية، لو أردت أن تصل إلى نجم ملتهب يبعد عنا أربع سنوات ضوئية لاحتجت إلى خمسين مليون عام، هذا هو الكون، هذه معرفتنا به حتى الآن، الكون غير محدود بالنسبة إلينا، ولكن بالنسبة إلى الله فمحدود.

أعلى أنواع التكريم أن الكون كله مسخر للإنسان بنص القرآن الكريم :

هذا الكون أيها الأخوة عبّر عنه القرآن الكريم بكلمة السموات والأرض، كم مجرة؟ بعضهم قال: قريبًا من مليون مَليون مجرة، المجرة كم نجم فيها؟ قريبًا من مليون مَليون نجم، درب التبابنة مجرتنا مجرة متوسطة، شكلها مغزلي، المجموعة الشمسية نقطة في هذه المجرة، المجموعة الشمسية قطرها ثلاث عشرة ساعة ضوئية، الشمس ثماني دقائق، القمر ثانية، فكلمة غزو الفضاء تعني تخطوا ثانية ضوئية واحدة، أما أبعد مجرة فثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، ربنا عز وجل يقول:

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

كل يسبح، وينزه، ويمجد، ويخضع، في الآية معنى أن الإنسان إن لم يكن كذلك فهو شاذ، أيعقل أن كل ذرة في السموات والأرض تسبح الله عز وجل، وأنت أيها الإنسان المخلوق الأول لا تسبح؟ الآية الكريمة التي تقول:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

أنت أيها المخلوق الأول، وأنت المخلوق المكرم في شكلك، وقوامك، وصورتك، وزواجك، وفي كل شيء، و أعلى أنواع التكريم أن الكون كله مسخر لك بنص القرآن الكريم:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

أيعقل أيها الإنسان أن يسبح الكون كله وأنت لا تسبح؟! أينزه الكون كله وأنت لا تنزّه؟! أيمجد الكون كله وأنت لا تمجد؟! أيخضع الكون كله وأنت لا تخضع؟! أيعقل هذا؟!

الله عز وجل له الملك وله الحمد :

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ)

الملك واضح، والحمد واضح، لكن أحياناً أن تجمع الملك إلى الحمد، قد تجد من يملك ولا يحمد، وقد تجد من يحمد ولا يملك، الذي يملك ولا يحمد لا تحبه، لأنه ظالم، والذي يحمد ولا يملك لا ينفعك، لأنه ضعيف، أما الله عز وجل ففي الوقت نفسه له الملك وله الحمد، أنت لاحظ نفسك، لو أن دائرة تهملك لسألت من المدير؟ أول سؤال: من؟ الثاني: كيف هو؟ يهمك أولاً من هو، ثانياً ما أخلاقه، مستقيم ومنصف، تسأل من؟ ثم تسأل كيف؟.

لذلك قال بعضهم: الحمد لله على وجود الله، والحمد لله على ملك الله، والحمد لله على كمال الله، الإنسان إذا اعتقد لحظة واحدة أن أمره بغير يد الله فقد أشرك، إذا اعتقد للحظة واحدة أن حياته بغير يد الله فقد أشرك، إذا اعتقد أن رزقه بغير يد الله فقد أشرك، قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله بيده.

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ)

ملكية الله مطلقة خلقاً وتصرفاً ومصيراً :

ذكرت من قبل إذا قلت: الله له الملك، أو مالك الملك، أو بيده ملكوت كل شيء، فهذه الملكية المطلقة، أحياناً تملك أنت شيئاً لكن لا تملك مصيره، وفي القرآن الكريم آية دقيقة جداً، وهي قوله تعالى:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[سورة هود: 123]

فهو في عيشة مرضيّ عنها أم راضية؟ بعض المفسرين قال: الإنسان قد يرضى عن حياته، قد يرضى عن بيته، لأنه واسع، قد يرضى عن زوجته الصالحة، قد يرضى عن أولاده، هم أبرار، قد يرضى عن دخله هو كبير، قد يرضى عن مركبته هي حديثة، قد يرضى عمن حوله، لكن هل يستطيع أن يضمن

بقاء كل هؤلاء معه؟ إذا لم يضمن بقاء كل هؤلاء معه فهم إذاً بالتعبير المجازي ليسوا راضين عنه، أما الآية الكريمة فتعني أن هذه المعيشة في الجنة لن يخسرها، لن يغادرها إطلاقاً، ربنا عز وجل كنّى عن دوام حال أهل الجنة بأنهم في عيشة، هي راضية عنهم، وليس مرضي عنها فحسب.

في الدنيا الأمر خلاف ذلك، لأنه له الملك، لأن ملكية الله ملكية مطلقة، الله عز وجل يملك كل شيء خلقاً وتصرفاً ومصيراً، قد تمل، ولا تنتفع، وقد تنتفع ولا تملك، وقد تملك وتنتفع، ولكن مصير هذا المملوك ليس في يدك، فإما أن تفارقه بالموت، وإما أن يفارقك بالموت، الآن زوجان محبان بأعلى درجات المودة، هل يضمن أحدهما أن يبقى معه الآخر إلى أبد الآبدين؟ الزوجة التي يهيم بها الإنسان إما أن يتركها بالموت، وإما أن تتركه بالموت، أو بالطلاق، افرض المحبة إلى أعلى درجة، والوفاء كذلك، أنت لا تملك هذه الزوجة، تملكها ما سمح الله لها أن تبقى معك، إذاً ملكية الله مطلقة خلقاً وتصرفاً، قد تملك رقبة الشيء ولا تملك منفعته، مثال البيت المؤجر، قد تملك منفعته كمستأجر ولا تملك رقبته، وقد تملك رقبته ومنفعته، أن تسكن فيه وهو ملكك ولا تملك مصيره، إذاً ملكية الإنسان ليست مطلقة، وليست كافية، بل ملكية ناقصة، الإنسان مالك جسمه، يتحرك، ولكن هل تملك القلب؟ لا، هل تملك انتظام دقات القلب؟ لا، هل تملك بقاء الشرايين مفتوحة؟ لا، هل تملك الخلايا التي في الجسم ألا تنمو نمواً عشوائياً؟ لا، هل تملك ألا يتجمد الدم في بعض الشرايين وخاصة في الدماغ؟ لا، هل تملك سيولة الدم دائماً؟ لا، قد تكون في أعلى درجة في المجتمع، بمجرد أن تتجمد نقطة دم في أحد شرايين الدماغ تصاب بالشلل، أو بالعمى، أو بفقد الذاكرة، إذاً الله عز وجل قال:

(لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ)

مع أنه يملك ملكية مطلقة، لكنه لا يتصرف بما يملك إلا بما يحمد على تصرفه، مع أنه يملك ملكية مطلقة خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً، إلا أن تحمده حمداً مطلقاً على جميع تصرفاته، قال تعالى:

(وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أنِ الحَمْدُ لِلَّه رَبِّ العالَمِينَ)

[سورة يونس: 10]

الله عز وجل قدرته مطلقة :

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ)

يسبح كلمة كبيرة جداً، إذا سبحت الله فقد عرفته، إن نفيت عنه ما لا يليق به أن يتصف به، إن مجدته، ونسبت إليه الكمال الذي يليق به، إن خضعت له، فقد سبحته.

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قدرته مطلقة، لذلك الإنسان أحياناً مع البشر أتمنى ولكن ليس عندي إمكانيات، إلى هنا تقف إمكانيتي، أما إذا عرفت الله فليس عنده شيء مستحيل، أعظم مرض يشفيه الله عز وجل، لكن أنت مع الأشخاص هناك حدود، هناك سقف، كل إنسان له سقف، فوق كل قوي أقوى، وكل عالم فوقه أعلم، أنت إذا تعاملت مع البشر فألف سقف فوقك، أما إذا تعاملت مع خالق البشر، وهو على كل شيء قدير، فقدير على أن يخلق من الضعف قوة، ومن الفقر غنىً، ومن الشقاء سعادة، ومن الضياع وجداناً، ومن التشتت اجتماعاً، وهو على كل شيء قدير.

لو فرضنا في جلسة أحد الحاضرين من أقوى الأشخاص، تجد الأنظار كلها متجهة نحوه، كلها تعقد أبصارها عليه، كلها تشرئب أعناقها إليه، كلها تثني عليه، الإنسان يحب القوي، القوي يركن إليه، القوي يحمي، فكيف إذا كان الله خالق السموات والأرض هو ملاذك؟ هو ربك وإلهك؟ هو الذي تعبده؟

يقولون: الإنسان يتقوى بمن يعتمد عليه، هل يجوز مثلاً أن نعطي الطفل الصغير زكاة المال؟ الجواب: لا يجوز، إذا كان الطفل له أب غني العلماء قالوا: هو غني بأبيه، لو قست هذه النقطة في الفقه، المؤمن الصادق قوي بالله، عالم بالله، غني بالله، مادام هو مع الله فالله قوي، هو قوي بقوة الله، غني بغنى الله، عليم بعلم الله، رحيم برحمة الله، تخلقوا بأخلاق الله، إذا كنت مع الله كنت مع القوي الرحيم، الغني العليم.

أساس كل شيء الاختيار والاختيار من لوازمه الحياد :

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ)

هل في هذه الآية ما يشير ولو واحد بالمئة أن الله عز وجل هو الذي خلق الكافر كافراً؟ لكن الله عز وجل خلق الإنسان بطبيعة وخاصية تتيح له أن يؤمن كما تتيح له أن يكفر، لأن الإنسان في الأصل مخير، إذاً بإمكانه أن يؤمن كما بإمكانه ألا يؤمن، مادام أصل الإنسان مخلوقًا أول، مكرمًا، مكلفًا حمل الأمانة، والأمانة نفسه التي بين جنبيه، فأساس الثواب والعقاب الاختيار، أساس الجنة والنار الاختيار، أساس كل شيء الاختيار.

والاختيار من لوازمه الحياد، أما إذا لم يستعمل شيئاً إلا في وظيفة واحدة فليس بالإمكان أن تكتب في التعليمات أنه يستعمل في وظائف عديدة، مصمم أن يقدم لك خدمة واحدة، وهناك آلات مصممة أن تعمل على تيارين إذاً فيها اختيار، آلة مئة وعشرة لا تعمل في أي مكان، تعمل على تيار واحد فليس فيها اختيار أبداً، أما إذا كان بالإمكان أن تعمل على التيارين، فإنه يوجد مكان، يقول لك: إن أردت أن

تعملها على هذا التيار فافعل كذا، وافعل كذا، مادام في الإمكان أن تعمل على تيارين فهناك اختيار، من لوازم الاختيار الحياد، مادام الإنسان مخيرًا فطبيعته النفسية قابلة أن تؤمن وقابلة أن تكفر.

الحكمة من تقديم الكفر على الإيمان :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ)

ولكن لماذا قدم الكفر على الإيمان؟ لأن الكفار أكثر، قال تعالى:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة الأنعام: 116]

هناك شيء آخر، هذه النفس البشرية فيها قابلية الإيمان كما أن فيها قابلية الكفر، لذلك الإنسان مخير، مخير لأن فيه قابلية الإيمان والكفر، هذه العلاقة ترابطية، مخير لأنه يملك قابلية الإيمان والكفر معاً، إذاً هو مخير.

شيء آخر هو أن الإنسان أودع الله فيه قوة إدراكية، وأعطاه ميزاناً، وأنزل عليه ميزاناً، جعله بقابلية مزدوجة، وأودع فيه قوة إدراكية، وأعطاه ميزاناً ذاتياً، وأنزل عليه ميزاناً ثابتاً، الشرع هو الميزان الثابت،.والعقل الميزان الخاص،.والقوة الإدراكية هي العقل،.والإنسان في بنيته حيادي،.يؤمن أو لا يؤمن،.هذا معنى قول الله عز وجل:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ)

أن تضرب لنفسك الأمثلة الكثيرة، أدوات كثيرة تستعملها لوظيفتين، مادام هناك وظيفتين فينبغي أن يكون فيها مكان يشير إذا أردت هذه الوظيفة فافعل كذا، أما آلة تعمل على تيار واحد فليس فيها اختيار أبداً، وأي آلة تعمل على تيارين ترى فيها مكان على اليمين مئة و عشرة ، على اليسار مئتان و عشرون، لأنها تعمل على تيارين، كان هناك اختيار طبعاً، هذا مثل من الآلات.

الإنسان مخير وله طبيعة ازدواجية وأعطاه الله قوة إدراكية وميزانًا :

و[فَمِنْكُمْ]للتبعيض، أي بعضكم آثر الدنيا، وكذب برسالات السماء، وأعرض عن الله، فكان كافراً. مِن في قوله:

إذاً مجمل هذه الآية هو أن الله عز وجل هو الذي خلقكم، الإنسان وحده مع الجنّ، مخلوقان متميزان، أولاً: مكلفان ومكرمان، الإنسان سرّ وجوده أنه يفعل أفعالاً اختيارية هي ثمن الجنة، لأن الاختيار سرّ ثمن الجنة، فجعله الله عز وجل في قابلية مزدوجة، يؤمن أو يكفر.. يستقيم أو ينحرف.. يصدق أو

يكذب.. يخلص أو يخون.. ينطلق بدافع الشهوة أو بدافع المبدأ.. يرجو الدنيا أو الآخرة.. يرحم أو يقسو.. الإنسان في طبيعة اثنينية، أي طبيعة مزدوجة، هذه الطبيعة الاثنينية هي سعادته الأبدية، بإمكانه أن يؤمن أو لا يؤمن.. بإمكانه أن يتصل بالله أو لا يتصل، بإمكانه أن يحسن، وبإمكانه أن يسيء، أولاً: مخير، وله طبيعة ازدواجية، وثانياً: أعطاه الله قوة إدراكية، وثالثاً: أعطاه ميزانًا، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

[سورة الرحمن : 7]

ولئلا يختل ميزانه أعطاه ميزانًا ثابتًا وهو الشرع، فهناك ميزان ثابت مركزي، وميزان مع كل إنسان، وقوة إدراكية، واختيار، وطبيعة ازدواجية، يصدق أو يكذب.. يخلص أو يخون.. يؤمن أو يكفر.. يعطي أو يمنع.. ينصف أو يظلم، هذه هي الطبيعة.

الناس رجلان برّ تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله :

يبدو أن التقسيم القرآني لبني البشر ألغى الأعراق، والأنساب، وأصول الشعوب، كل هذه كلمات ما أنزل الله بها من سلطان، البشر سواسية كأسنان المشط، منكم مؤمن ومنكم كافر، فكل انتماءات البشر العرقية والمذهبية والانتماءات اللونية، الأصفر والأبيض، والغني، والدول الشمالية والغنية، والدول الفقيرة، كل هذه التقسيمات لم يعتمدها القرآن، قال:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ)

الناس رجلان، برّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، منكم مؤمن ومنكم كافر، هذا هو التقسيم لذلك لا يضاف للمؤمن ولا كلمة، ولا يضاف إلى الكافر ولا كلمة، الكافر كافر من أي بلد، من أي عرق، من أي نسب، من أي مصر، الكافر هو الكافر، قبل خمسة آلاف سنة الكافر يشبه كافراً معاصراً، والمؤمن هو المؤمن، والمستقيم هو المستقيم، وأينما ذهبت، وأينما حللت، هذا هو التقسيم القرآني:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ)

بالعكس، أنت مؤمن، لو ذهبت إلى بلدٍ بعيد، والتقيت بأخ مؤمن تشعر إذا كنت صادقاً في إيمانك أنه أقرب إليك من أخيك النسبي من أبيك وأمك المتفلت، هذه أكبر علامة من علامات الإيمان قد تلتقي بإنسان في أقصى الدنيا، لكن عرف الله، واستقام على أمره، تجده أقرب إليك من أقرب الناس إليك نسباً، لأن الله عز وجل قال:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ)

تلتقي مع المؤمن بمليون قاسم مشترك، وأقرب الناس إليك من أم وأب، وموررّثات واحدة، وبيئة واحدة، وعادات وتقاليد، كل هذه القواسم المشتركة قد تجعل إنسانًا يؤمن، وإنسانًا يكفر، فإذا كفر الكافر، وآمن المؤمن، كان بينهما هوة كبيرة جداً، بينما تلتقي مع أخيك بطرف الدنيا، إذا عرف الله، واستقام على أمره، هذا هو تقسيم القرآن الكريم.

العمل لا يمكن أن يُعرف حق المعرفة إلا من قِبل الله عز وجل :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

يعرف حقيقة العمل، وحجمه، وهدفه، وتضحياته، إلى آخره، العمل لا يمكن أن يعرف حق المعرفة إلا من قبل الله عز وجل، لك الظاهر قد يبدو لك عملاً طيبًا، ولكن وراءه نية خبيثة، قد يبدو لك عملاً هزيلاً، ولكنه عند الله عظيم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

والحقيقة، الله بما تعمل بصير، وأنت على نفسك بصير، لذلك لا يمكن أن تخدع الله، ولا أن تخدع نفسك، قال تعالى:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

[سورة النساء: 142]

وقال تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة: 14-15]

الإنسان خلق ليبقى إما في جنة يدوم نعيمها أو في نار لا ينفد عذابها :

ثم يقول الله عز وجل:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

هذه الآية وردت كثيراً في القرآن الكريم، الباء باء الملابسة، أي لابس خَلقها الحق، الحق الشيء الثابت المستقر، أما الباطل فالشيء الزائل.

أحيانا نبني جناحاً في معرض لأسبوعين فقط، قد يكون جداراً، أو قماشاً، أو كرتون، أو مواد رخيصة جداً، لأن هذا البناء بني ليهدم بعد أسبوعين، أما حينما تبني بناءً ليبقى إلى أبد الآبدين فإنك تعتني به

عناية كبيرة، من باب التقريب، كل شيء خلقه الله خلقه بالحق، أي خلق ليبقى إلى أبد الآبدين، لتبقى حقيقته، فأنت إنسان مخلوق بالحق، تذوق الموت ولا تموت:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

[سورة الزخرف: 77]

خلقت لتبقى إما في جنة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفد عذابها، لكن خلقت لتبقى، والكون خلق ليبقى، الحق الثبات، الديمومة، الاستقرار، ثم السمو لهدف نبيل، الدليل أن الله عز وجل قال:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

[سورة الأنبياء: 16]

واللعب هو العبث، فصار الحق نقيض الباطل، والعبث نقيض الاستقرار والدوام، ونقيض العبث الهدف النبيل، لأن العبث هدف غير نبيل.

الله عز وجل خلق البشر فأحسن صورهم :

إذاً خلق السموات والأرض بالحق، وأنتم يا بني البشر صوركم فأحسن صوركم، أنت منتصب القامة، أما غير مخلوق فيمشي على أربع، أنت تأكل اللب، ويأكل الحيوان القشر، طعامك منوع أنواعاً لا يعلم عددها إلا الله، أما الحيوان فطعامه واحد، أنت لك زوجة، وأولاد، وبيت تسكنه، أودع فيك العقل، فبالعقل ركبت الطائرة، وغصت في أعماق البحار، وارتديت أجمل الثياب، وسكنت في أفخر البيوت، أعطاك شيئًا ثمينًا هو أخطر ما في الكون، ألا وهو العقل، أعطاك العقل، وجعل لحياتك زوجة من نفسك على شاكلتك، إنسان تعلم كما تعلم، وتحب كما تحب، إذاً كرمك بالزوجة، والأولاد، والعقل، والطعام، والشراب، كم نوع من الأزهار في الأرض؟ مئات ألوف الأنواع، كلها تكريماً لك، إذاً:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

منتصب القامة، جعل هذا الجلد الجميل.. لولا هذا الجلد لكان الإنسان مخيفاً، أعطاك الحواس الخمسة، تسمع، وترى، وتلمس، وتنطق، أعطاك حاسة اللمس، والذوق، والسمع، والبصر، وهناك حواس أخرى.

(فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

هاتان الآيتان لنا عودة لهما إن شاء الله في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التغابن 064 - الدرس (2-6): تفسير الآيتان 5-6
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-11-08

بسم الله الرحمن الرحيم

من تتبع أفعال الله في خلقه استنبط قوانينه :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة التغابن، ومع الآية الخامسة، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، قبل أن نقف عند دقائق هذه الآية لا بدّ من حقيقة نلقي الضوء عليها، هذه الحقيقة هي أننا في العلوم نبحث عن القانون، والقانون هو العلاقة الثابتة بين متغيرين، هذه العلاقة الثابتة تفيدنا في معرفة المستقبل، أوضح مثل على ذلك: أننا إذا جئنا بعشرات المعادن، وسخّناها، فتمددت، استنبطنا قانوناً: أن المعادن تتمدد بالحرارة، فإذا أردنا أن ننشئ جسراً نقيم فواصل تمددٍ لئلا يتصدع الجسر، القانون أفادنا للمستقبل، نحن استقرأنا أحوال معادن كثيرة فوجدناها جميعها تتمدد بالحرارة، فقلنا: المعادن تتمدد بالحرارة، هذا القانون هو العلاقة الثابتة بين متغيرين يفيدنا في التنبؤ للمستقبل، لا نقيم بناءً إلا مع فواصل التمدد، لا نقيم جسراً إلا مع فواصل التمدد.

أيها الأخوة، الآن الإنسان يرى فعل الله بالناس، يستطيع الإنسان من خلال فعل الله بالناس أن يكتشف قوانين، مثلاً المال الحرام يذهب من حيث أتى، هناك مليون قصة تؤكد هذه الحقيقة، الذي يعفّ قبل الزواج يسعد بعد الزواج، والذي ينحرف قبل الزواج يشقى في الزواج، أنت إذا تتبعت أفعال الله في خلقه استنبطتَ تلك القوانين، وأنت مأمور بذلك.

فائدة قوانين الله عز وجل :

قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأنعام: 11]

إن تتبعت أفعال الله في خلقه استنبطت عشرات القوانين، هذه القوانين ما فائدتها؟ أنها تفيدك في المستقبل، فإذا علمت أنه من أعرض عن ذكر الله فإن له معيشة ضنكاً، هناك آلاف القصص، كل إنسان أعرض عن ذكر الله سيذوق المعيشة الضنك، وكل إنسان آمن بالله، واستقام على أمره فله قانون، وهو قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

نحن نريد من هذه الآيات أن نعرف أنّ أيّ إنسان انحرف عن منهج الله.. كفر بالله.. كفر بكتابه.. لم يعبأ بمنهج الله، هذا الإنسان سوف يدفع الثمن باهظاً.

الإنسان إما أن يقرأ في كتاب الله أو ينظر في أفعاله :

إذا نظرنا في منهج الله كيف يعامل عباده لاستنبطنا قوانين، وإذا قرأت القرآن لوجدت هذه القوانين، إما أن تستنبطها من أفعال الله، وإما أن تعرفها من كلام الله:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

هذا قانون، تحب أن ترى المرابين ما مصيرهم؟ دقق، وابحث، وانظر، تحب أن ترى المتصدقين ما مصيرهم؟ سلامة، وسعادة، وغنًى، والذين يعملون في كسب المال حراماً هم في شقاء، ودمار، هم وأموالهم.

فأنت إما أن تنظر، وإما أن تقرأ، إما أن تقرأ في كلام الله القوانين التي يتعامل بها مع خلقه، وإما أن تنظر في أفعال الله فتستنبط هذه القوانين.

مثلاً: طالب جلس في الصف ما سمع أي تعليمات من أستاذه، لكنه رأى أن الأستاذ يعاقب كل من لم يكتب الوظيفة، والذي كتبها يكافئه، من خلال عشرين حالة يستنبط قانوناً أن هذا الأستاذ يحب المجتهد، ويكره الكسول، ثم يكافئ المجتهد، ويعاقب الكسول، فإنك إما أن تنظر في أفعال الله فتستنبط من معاملته لعباده قوانين تهديك في علاقتك مع الله، وإما أن تقرأ كلامه فتقرأ القوانين التي ذكرها في كتابه الكريم فتستفيد منها في علاقتك مع الله.

قوانين الله عز وجل تطبق على المجموع وعلى الأفراد :

هذه المقدمة تفسر قول الله عز وجل:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ)

يا كفار مكة، طبعاً قد تتجه الآية إلى أشخاص معينين، لكن خصوص المناسبة لا يلغي عموم اللفظ.

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ)

هذا التاريخ أمامك، اقرأ تاريخ الأمم والشعوب، هل هناك أمة تفلتت، وانحرفت، وطغت، وبغت، إلا وانتهت إلى الدمار، والتحلل، والتفكك، والانهيار الاجتماعي والاقتصادي؟ أبداً، هذا قانون لله عز وجل

يطبق على المجموع، وعلى الأفراد، فالإنسان الوحيد إذا انحرف عن منهج الله فلا بدّ من عقاب، ومن تربية، ومن تذكير، لا بدّ من صدمة كي يصحو بها، والمجموع إذا انحرفوا:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل الآية : 112]

الإنسان إما أن يؤمن بالله وعدالته وإما ألا يؤمن به :

إذاً الإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أمَرَنِي رَبِّي بِتِسْعٍ : خَشْيَةِ الله في السِّرِّ والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصِلَ مَنْ قطعَنِي، وأعطي مَنْ حَرَمَنِي، وأعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنِي، وأن يكون صَمْتي فِكْرا، ونُطْقِي ذِكْرا، ونظري عبرة))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

انظر هل تفلت واحد من الناس من منهج الله ولم يعاقب؟ هل كسب واحد من الناس المال الحرام ولم يدمر؟ هل تفلت واحد من الناس في علاقته مع النساء ولم يشق في زواجه؟ أبداً، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

بل إنه يستحيل عند الله، إما أن تؤمن بالله وعدالته، وإما ألا تؤمن به، ولا بعدالته، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

الكفر موقف وسلوك :

الآن ربنا عز وجل يقول:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ)

معنى كفروا أيْ أعرضوا عن الله عز وجل، معنى كفروا كذبوا، إما أن توسع الدائرة أي كذبوا بوجود الله، أو كذبوا بأسمائه الحسنى، وكذبوا رحمته، وكذبوا عدله، وكذبوا تشريعه، أو كذبوا رسالة رسوله وبعثة الأنبياء، أو كذبوا قرآنه، هذا التكذيب يضيق ويتسع، يتسع حتى يشمل كل شيء، ويضيق حتى يبقى محدوداً بشيء، على كل حال كذبوا.

الحقيقة أن الكفر في شيئين، هناك موقف، وهناك سلوك، الموقف تكذيب، أما السلوك فإعراض عن الله عز وجل، أحياناً طالب في صف، الأستاذ أمامه ملء السمع والبصر، لكنه لا يعبأ بدرسه، يتشاغل بورق وألعاب لينشغل عن درس الأستاذ، هو لا يكفر بوجوده، بل يكفر بقيمة علمه، فالكفر أنواع، لمجرد أن ترد آية ربنا عز وجل حينما يقول:

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

[سورة البقرة: 221]

ويبحث إنسان عن امرأة جميلة لا يعبأ بدينها أبداً، هذا الإنسان كذب كلام الله، قال الله عز وجل:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

لو أن إنساناً أكل الربا، ولم يعبأ بهذه الآية، معنى ذلك أنه كفر بهذه الآية وكذبها، فالتكذيب والكفر يلتقيان.

أخطر شيء في حياة الإنسان أن يكفر بالله عز وجل :

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ)

كل إنسان كفر ذاق وبال أمره، الوبال التبعة.. الشيء الثقيل الذي يكون بسبب أمرٍ من الأمور، مثلاً إنسان خالف الأنظمة الاقتصادية، يحكم عليه بعشرين سنة، العشرون سنة وبال أمره، إنسان أهمل صحته، عانى من مرض عضال، المرض العضال وبال أمره، إنسان أهمل تربية أولاده، فانحرفوا، حينما كبروا ذاق وبال أمر انحرافهم، إنسان مدّ يده إلى الحرام، فكشف، وسيق إلى السجن، وأمضى فيه سنوات عدة، هذا ذاق وبال أمره.

الوبال الشيء الثقيل الذي هو بسبب انحراف خطير، هذا هو الوبال، وهل من شيء أخطر من أن يكفر الإنسان بالله عز وجل؟

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ)

إذاً هؤلاء الذين كذبوا كلام الله، وحاربوا النبي عليه الصلاة والسلام، أين هم الآن؟ أبو جهل، وأبو لهب، وصفوان بن أمية، أين هم الآن؟ في مزبلة التاريخ، أما الذين صدقوه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، فهم في أعلى عليين، وهذا التاريخ بين أيديكم، تاريخ الأمم والشعوب، أي فرد، أو أي جماعة، أو أي أمة استقامت على منهج الله وصلت إلى الخافقين.

ذهب إنسان إلى فيينا، ورأى في متحفها صورة زيتية لطيفة جداً، الجنود المسلمون الذين فتحوها يشترون العنب من فتيات فيينا، ويغضون أبصارهم عنهن، يدفعون الثمن ووجوههم إلى الجهة المقابلة،

هكذا فتحت فيينا من قِبَل المسلمين، والمسلمون حينما وصلوا قرب باريس باستقامتهم والتزامهم، أما حينما تفلتوا، وانصرفوا إلى اللهو والمجون والجواري والموشحات والخمور، قالت امرأة لأخرى حين خرجوا من الأندلس:

ابكِ مثل النساء ملكاً مُضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

***

من رحمة الله بنا أن الله يذيقنا وبال أمرنا :

الله عز وجل له قوانين، حينما استقمنا على أمر الله وصلنا إلى أطراف الدنيا، فلما تفلتنا من منهج الله عز وجل ضعفت كلمتنا، هذا الذي نريد أن نقرره، هناك قوانين يمكن أن نستنبطها، إما من أفعال الله، وإما من كلام الله، وسيان بين أن تستنبط آلاف القوانين من أفعال الله بالتأمل و التتبع والبحث والدرس، أو لك أن تأخذها جاهزة من كلام الله عز وجل.

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ)

وإنّ لكل سيئة عقاباً، لما قال ربنا عز وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم: 41]

الحقيقة من رحمة الله لنا أن الله يذيقنا وبال أمرنا، لماذا؟ كي نتوب، وكي نرجع قبل فوات الأوان، لو أن الله سبحانه وتعالى لا يذيقنا وبال أمرنا نسترسل في المعاصي والآثام، إلى أن يأتينا ملك الموت، ونحن هلكى، لكن هذه المتابعات، وهذه الشدائد، وهذا الوبال إلى الآن العالم يعاني من مرض الإيدز، هذا الموضوع عالجته مرات عديدة، كلما عدت إلى موضوع سابق وجدت الرقم مضحكاً، أول ما عالجته كان بالألوف، آخر معالجة كانت خمساً وثلاثين مليون مصاب، في عام ألفين كان هناك مئة وعشرين مليون مصاب، والعدد يتفاقم بسلسلة، كانوا يقولون: بسلسلة حسابية، وهناك سلسلة هندسية، والآن بسلسلة انفجارية:

(فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ)

طبعاً هناك تراجع للفساد، شيء ثابت في العالم كله، في بلدٍ من البلاد ثلاث عشرة محطة إباحية، الآن ثلاث فقط، لأنهم ذاقوا وبال أمرهم، فتراجعوا، من حكمة الله البالغة، ومن نعمه الباطنة غير الظاهرة أنه يذيق الإنسان وبال أمره ليتوب، يأكل مالاً حراماً فيدمر بعض ماله، فيتوب، فيستقيم على أمر الله، فينجو، لولا أن الله أذاقه وبال أمره لما استقام على أمر الله، ولما تاب.

من ذاق وبال أمره و لم يتب إلى الله انتهى أمره :

إذاً كما قال الله تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

الظاهرة الخيرات التي نراها، والباطنة المصائب التي تعد سبب رجوعنا إلى الله عز وجل، فالآية الكريمة:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ)

إذا ذاقوا وبال أمرهم ولم يتوبوا انتهى الأمر:

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

في الآخرة، ذاقوا وبال أمرهم في الدنيا، ولهم عذاب أليم في الآخرة، أما إذا استقمت على أمر الله أذاقك الله نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، وجعل نعم الآخرة متصلة بنعم الدنيا، ليس على الله بعزيز أن تذوق نعم الدنيا مع نعم الآخرة، أن تعيش حياة هانئة، ويأتي الموت فتنتقل إلى جنة عرضها السموات والأرض، ليس ذلك على الله بعزيز، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء: 147]

الله عز وجل لا ينتفع بعذابنا، بل يعذبنا ليرحمنا.

الخسارة الحقيقية أن تخسر الآخرة :

لذلك النقطة الدقيقة أن علماء التوحيد رفضوا أن تقول: الله ضّار، هو ضّار لكنه الضّار النافع، يضّر لينفع، الله عز وجل يذل، لكن لا ينبغي أن تقول: هو المذل، تقول: يذل ليعزّ، الله جل جلاله يخفض، لكن ليرفع، يقبض ليبسط، يأخذ ليعطي، لذلك الإنسان يجب أن يفقه حقيقة أفعال الله حتى يحبّه، وحتى يتعامل معه بصدق وإخلاص:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

إن لم يتوبوا، هناك إنسان مستقيم في الدنيا مطمئن بها، يأتيه ملك الموت، ينتقل إلى عالم البرزخ، وقبره كأنه روضة من رياض الجنة، فإذا جاء يوم القيامة دخل الجنة، فحياته سلسلة مسرات، وهناك إنسان يعاني شقاء الدنيا والآخرة، شقاء الدنيا، وعذاب القبر، ولهيب النار، لأنه تاه عن الله عز وجل،

وخرج عن منهجه، هذا الموضوع خطير، موضوع سعادة الأبد، هناك قضايا لو خسرتها تعوض، أو لا تعبأ بفقدانها، لكن ثمة أشياء أساسية، لذلك قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

[سورة الزمر: 15]

الخسارة الحقيقية أن تخسر الآخرة، الشيء الدقيق سوف أضعه بين أيديكم لو أنك تريد أن تسافر من دمشق إلى حلب، هناك عدة سيارات، اخترت أسوأ سيارة، تتألم ألماً شديداً وقت السفر، أما حينما تصل فينتهي الموضوع، فأنت لا تندم على شيء طارئ فاتك، بعد أن وصلت انتهت المشكلة، انزعجت أم لم تنزعج، القضية انتهت، ووصلت إلى حلب، أما حينما يفوتك شيء أبدي فهذا هو الذي يسحق الإنسان، الشيء الطارئ لا قيمة له.

الدنيا كلها هي أصغر من أن تكون عطاء لله :

بالمناسبة الدنيا كلها بكل ما فيها من خيرات، وبأموالها الطائلة، بعزها، بجاهها، ببيوتها الفخمة، بمركباتها الفارهة، بأراضيها، بمزارعها، بكل ما فيها من جمال، من نساء وأولاد، من الأموال الطائلة، الدنيا كلها هي أصغر من أن تكون عطاء لله، السبب: لأنها مؤقتة، هي أصغر وأحقر من أن تكون عطاء لله، وهي أصغر وأحقر أن تكون عقاباً للكافرين، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

بكى عمر بن الخطاب يوماً لأنه يرى النبي عليه الصلاة والسلام ينام على الحصير، وقد أثر في خده الشريف، سيد العالمين.. سيد ولد آدم.. حبيب الله.. سيد الرسل بلا وسادة، ولا فراش مريح، قال عمر:

((رسول الله ينام على الحصير وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير؟! قال: يا عمر أفي شك أنت؟ إنما هي نبوة، وليست ملكاً، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة))

[الأدب المفرد للبخاري، والجامع الصغير للسيوطي عن عمر بسند صحيح]

هذا نبي الله غرفته صغيرة، وبيته صغير، حياته خشنة، وكان يقول كما في الحديث عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِيناً، وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[الترمذي عَنْ أَنَسٍ ابن ماجه بإسناد صحيح]

كان عليه الصلاة والسلام متواضعاً، كان إذا دخل عليه الغريب قال: أيّكم محمد؟ ليس له مقعد خاص، ولا جلسة معينة، كان مع أصحابه، أيّكم محمد؟ مرة قال له صحابي: ذلك الوضيء، ومرة قال له النبي: أنا، قد أصبت، ليس له شيء متميز، قال:

((اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِيناً، وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

بشارات ذكرها النبي الكريم لعدي بن حاتم :

جاءه عدي بن حاتم، وكان ملكاً، التقى به، ورحب به، وأخذه إلى بيته، يقول عدي ابن حاتم: أنا أعلم أنه ملك فلما استوقفته امرأة ضعيفة وقف معها طويلاً يكلمها في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك، ما هكذا شأن الملوك، ثم دخلت إلى بيته، فقذف إليّ وسادة من أدم جلد محشوة ليفاً، قال: اجلس عليها، قلت: بل أنت، قال: بل أنت، قال: فجلست عليها، وجلس هو على الأرض، ليس له وسادتان، عنده واحدة، في بعض البيوت عشرة أطقم أرائك، أربعمئة متر، كل غرفة نوع، هذه شرقي، وهذه غربي، هذه مدّ عربي، هذا أمريكي، ليس عنده غير وسادة واحدة من أدم محشوة ليفاً، فقلت: والله ما هذا بأمر ملك، قال: إيه يا عدي ابن حاتم.

ذكر له أشياء كثيرة، ولكن استوقفني في هذه القصة ثلاث عبارات، قال: أولاً: لعله يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم.. أصحابي فقراء.. وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، تأتي الدنيا وهي راغمة، أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه.

ثانياً: ولعله يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، المسلمون ضعفاء فقراء ومستضعفين، قال تعالى:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)

[سورة القصص: 5]

قد لا يكون لك شأن عند الناس، شخص عادي جداً، بوظيفة عادية جداً، ودكان صغيرة، بدخل صغير، وبيت خشن ضيق، وقد تكون عند الله كبيراً، وقد تكون عَلماً في السماء، وقد قال عليه الصلاة والسلام لأحد أصحابه الفقراء: "أهلاً بمن خبرني بقدومه جبريل، قال: أو مثلي، قال: نعم يا أخي، في الأرض خامل، لكنك في السماء علم"، ولعله يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، المسلمون فقراء، وضعاف، والله ليوشكن أن تسمع القصور البابلية قد فتحت لهم.

ثالثاً: ولعله يا عدي إنما منعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم، العالم كله ضد الإسلام أينما ذهبت، وايم الله لتوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج هذا البيت على بعيرها لا تخاف، ولقد عاش عدي حتى رأى كل هذا البشارات بعينه.

ما من حدث من أحداث الحياة إلا وله دلالة كبيرة :

إذا مشيت أنت مع الله عز وجل فالله كبير، كل شيء بيده، لكن يريد أن يمتحن صِدقك، يريدك أن تطيعه دون أن تطمع بنواله في الدنيا، أطعه وكفى، لا تنظر إلى نواله في الدنيا، اجعل همك أن تطيعه، والله عز وجل هو يتولى أمرك، إذاً:

(فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أخواننا الكرام، لا تمر على الأحداث مرور الكرام، ما من حدث وإلا له معنى كبير ومعنى خطير، ما من حدث من أحداث الحياة، ما من فعل من أفعال الله إلا وله دلالة كبيرة، تأمل، تبصر، كما تدين تدان، البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، فالإنسان عندما يتعظ من أفعال الله- هذا إذا كان ينظر- أو يتعظ من قوانينه في القرآن ينجو، أما من لا يقرأ القرآن، ولا يتعظ، ولا ينظر إلى أفعال الله، فأنى له أن يفهم؟!

قرية على الساحل الأطلسي، كل أنواع المعاصي والآثام المقبولة وغير المقبولة، طبعاً كلها غير مقبولة، لكن هناك شيء غير معقول، ترتكب في هذه المدينة، وهي من أجمل المدن على الساحل الأطلسي، وفيها فنادق من أرقى مستوى، أصابها زلزال دمرت على آخرها خلال ثلاث دقائق، أكبر فندق كانت تجري فيه المعاصي والآثام، هذا الفندق ثلاثون طابقاً، غاص كله في الأرض، وبقي الطابق الأخير، ولوحته الشهيرة، وكأن هذه اللوحة شاهدة دفنه، الحدث هذا يفسر تفسيراً أرضياً، أن هناك زلزال، أي القشرة الأرضية اهتزت، واضطربت، وهناك تفسير إلهي، أنهم ذاقوا وبال أمرهم.

مرض الإيدز، هذا أليس وبال الفسق والفجور؟ قد لا تصدقون أن هناك ألوف المليارات تنفق على البحث عن مصل مضادٍ له.

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

من نِعم الله الكبرى أن تفهم على الله أفعاله :

الآن هذا العذاب الأليم بلا تعليل لا ينفعنا، لو أن أباً ضرب ابنه، ولم يهمس ببنت شفة، الابن لا يعلم، لماذا ضربتني؟ ماذا فعلت؟ لكن ربنا عز وجل برحمته وحكمته وربوبيته إذا ساق عذاباً لإنسان يعلمه بشكل أو بآخر، أحياناً يسوق العذاب موافقاً للذنب، فالمسرف يدمر الله له ماله، والذي يعتدي على أعراض الآخرين يُعتدَى على عرضه، والمتكبر يهان، هناك نماذج كثيرة جداً لمصائب جاءت موافقة للذنوب، فهذا تعريف من الله.

أذكر إنساناً زكاة ماله تقدر بإحدى عشرة ألفاً و ثلاثمئة و خمسين، زوجته ضغطت عليه، على أن ينفق هذا المبلغ في إصلاح البيت، وتجديد أثاثه، فيبدو أنه استجاب لها، ولم يعبأ بدفع الزكاة، عنده مركبة

أصيبت بحادث، كانت كلفة التصليح إحدى عشرة ألفاً و ثلاثمئة و خمسين بالضبط، توافق المبلغين رسالة من الله.

شخص يمضي أغلب أوقاته في الصيف في التجول بالطرقات المزدحمة بالنساء، هذه متعته الوحيدة، عنده خمس بنات متزوجات، متعته الوحيدة أن يغدو في الطرقات المزدحمة ليمتع عينيه بالنساء الكاسيات العاريات، أصيب بمرض نادر جداً، اسمه ارتخاء الجفون، لا يستطيع أن يرى إلا إذا أمسك جفنه بيده وفتحه، هذا واضح وضوحاً شديداً أن هذا المرض بسبب هذه المعصية، والشرح يطول، وفهمكم يكفي .

كل ذنب له عقاب من جنسه، إنسان أصيب بمرض خبيث في العضو الذي عصى الله به.

فالحالة الأولى أن الله سبحانه وتعالى إذا ساق مصيبة يسوقها من جنس الذنب الذي اقترفه الإنسان، فهذا شرح من الله عز وجل لهذا الإنسان، هذه حالة .

الحالة الثانية: أن الله يلقي في روعه، قال تعالى:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

[سورة التغابن: 11]

إلى حكمتها، لعلتها، فالإنسان يشعر دون جهد أن هذه المصيبة من أجل كذا، يقول: فهمت.

أحد الأخوة الأكارم جاءه شخص ليشتري حاجة من حاجات معمله، هو يبيع بأعداد هائلة، رأى أن هذه الصفقة مزرية، فقال له: لا أبيع مفرقاً، فخرج هذا المشتري كسيف القلب، يقول لي هذا الأخ: ما دخل ثلاثين يوماً زبون إلى محلي، فهم على الله، هذه مقابل هذه، من نِعم الله الكبرى أن تفهم على الله أفعاله، فإما أن تفهم على الله أفعاله، وإما أن يأتي العقاب مشابهاً للذنب، وإما أن يلقي الله في روعك، وإما أن يسخر من يخبرك أن هذا الذنب عقابه كذا.

الرسول من بني البشر تجري عليه كل خصائص البشر ليكون حجة على البشر :

الآن ربنا قال:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

ذنبه هؤلاء قال :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

الأنبياء معهم الكتب، والأدلة، والبراهين، والعلامات الدالة على وجود الله، وعلى عظمته .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا)

كفروا بنبوة الأنبياء، توهموا أنه لا يليق بإنسان أن يكون رسولاً، لكن لو جاءك ملك رسول، وقال لك: غض بصرك عن النساء، تقول: هذا ملك، ونحن بشر، يجب أن يكون الرسول من بني البشر تجري عليه كل خصائص البشر، وليكون حجة على البشر، لا يمكن إلا أن يكون النبي والرسول بشراً من أجل أن يرسخ المبادئ التي جاء بها، أنت كمبادئ نظرية سهلة، لكن ما الذي يمنعك من تطبيقها؟ الدوافع الكامنة في نفسك، فإذا رأيت بشراً مثلك يطبقها فهو حجة عليك، لذلك قال تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا)

كفروا بنبوة الأنبياء، وكفروا برسالة الرسل:

(وَتَوَلَّوْا)

الله عز وجل غني عن عباده كلهم :

طبعاً الكفر تكذيب وإعراض، لم يعبأ بالصلاة، ولا بالزكاة، ولا بالحج، و لا بالصيام، ولم يعبأ بتعلم العلم ولا تعليمه، ولا بالقرآن وتفسيره، ولا بالحديث:

(وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ)

الله عز وجل غني عن عباده كلهم:

((... يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً...))

[رواه سلم عن أبي ذرّ رضي الله عنه]

(ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

غني عنّا، لكن لا يعاملنا إلا بما يحمد عليه، قد تستغني عن إنسان فتهمله، قد تستغني عنه فلا تنصحه، قد تستغني عنه فلا تؤدبه، قد تستغني عنه فلا تعطيه، لكن الله سبحانه وتعالى مع أنه غني عنّا فلا يعاملنا إلا بما نحمد عليه، لذلك ورد في الأثر: "يا داود، لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إليّ، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين؟".

لذلك قالوا: " إذا قال العبد: يا رب وهو راكع قال الله: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا رب وهو ساجد قال الله: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا رب وهو عاصٍ قال: لبيك.. لبيك.. لبيك".

الله عز وجل مع أنه استغنى عن الناس لا ينساهم بل يؤدبهم ويعالجهم :

ربنا ينتظرنا، إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى مناد في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله، وأنت حينما تتوب إلى الله يفرح الله، والدليل:

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[ذكره السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

وحينما تتوب إلى الله، وتصطلح معه، كيف أن البدوي الذي فقد ناقته، فأيقن بالهلاك، فجلس يبكي حتى أدركه النعاس، فاستيقظ فرأى الناقة أمامه، من شدة فرحه اختل توازنه قال: يا رب، أنت عبدي وأنا ربك، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((للَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ))

[متفق عليه واللفظ لمسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه]

أما إذا أصرّ الإنسان:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ)

ولكن الله مع أنه استغنى عنهم لا ينساهم، بل يؤدبهم، ويعالجهم، ويسوق إليهم الشدائد:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ)

غني عنّا، ويحمد على أفعاله كلها، وفي درس آخر نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التغابن 064 - الدرس (3-6): تفسير الآيتان7-8

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-11-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أهم أركان الإيمان الإيمان باليوم الآخر :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث من سورة التغابن، ومع الآية السابعة وهي قوله تعالى:

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

أيها الأخوة الكرام، أحد أكبر وأهم أركان الإيمان الإيمانُ باليوم الآخر، والله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة قرن الإيمان بالله بالإيمان باليوم الآخر، فحينما يعتقد الإنسان أن الدنيا هي كل شيء، وأن السعيد فيها من كان غنياً، وصحيح الجسم، وعالي الشأن، وأن من فقد هذه المقومات عاش في شقاء، وأن الموت نهاية كل شيء، ولا شيء بعد الموت، فهذا المنطق يقتضي أن تنكب على الشهوات فتعبّ منها، هذا المنطق يقتضي أن تؤمِّن المال من أي طريق، لأنه مادة الشهوات، هذا المنطق يقتضي أن تفعل كل شيء بغير حساب، ودون تأمل، وتبصر.

لذلك ربنا سبحانه وتعالى يبين لنا أن الكفر وما يتبعه من انحراف خطير بسبب أن الكافر توهم أنه لن يبعث، فمادام الإنسان يعمل عملاً، ولا يسأل عنه، لا على نتائجه الإيجابية، ولا السلبية، فمستحيل أن ينضبط، إن رأيت إنساناً لا ينضبط فاعلم علم اليقين أن اليوم الآخر لم يدخله في حساباته إطلاقاً، وترى أناساً كثيرين لهم انتماء إلى الإسلام بشكل أو بآخر، يرون أنهم إذا كسبوا مالاً حراماً فقد حققوا شيئاً ثميناً، ويغيب عنهم أن الله سيحاسبهم، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

من لم يدخل مراقبة الله في حساباته فقد كفر باليوم الآخر :

هؤلاء الذين كفروا.. كفروا بماذا؟ كفروا باليوم الآخر، الدنيا كلها أكبر همهم ومبلغ علمهم، الدنيا هي كسبهم الوحيد، لذلك معهم الحق، انطلاقاً من تصوراتهم الموهومة أن ينكبوا على الدنيا بكل ما أوتوا من قوة، بحسب تصوراتهم عليهم أن ينغمسوا في كل الملذات، لأنها جنتهم الوحيدة، الإنسان حينما ينحرف، ويتحرك حركة عشوائية، وحينما يبحث عن المال بأي طريق، وحينما لا يعبأ بمنهج، ولا دستور، ولا نظام، ولا قانون، وحينما لا يدخل مراقبة الله في حساباته يكون قد كفر باليوم الآخر.

لا يمكن أن تجد إنساناً يؤمن باليوم الآخر ثم ينحرف، حساب دقيق، فكلمة زعم هذه مطية الكذب، كلمة زعم قبل أن نقرأ ما بعدها تعني الكذب:

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا)

هل معهم الدليل؟ الإنسان أحياناً يؤمن بأفكار دون دليل، لكنها تطمئنه طمأنة ظاهرية، إذا اعتقد أنه ليس هناك بعثاً، ولا نشوراً، ولا حساباً، ولا عذاباً، يتحرك حركة عشوائية كما يحلو له، أما إذا أيقن أن هناك حساباً دقيقاً فلا يمكن أن يتحرك هكذا.

إذاً... هؤلاء الذين كفروا، أو كذبوا، إما أن الكفر كفر بكل شيء، أو ببعض الأشياء، إلا أن معظم أهل الأرض لو سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن: الله، هم يعتقدون أن الله هو الذي خلق السموات والأرض، ولكن لا يعتقدون أنه معهم، أنه في السماء إله، وفي الأرض إله، لا يعتقدون أنه مسير لشؤونهم كلها، أنه سيحاسبهم على أعمالهم كلها.

من يعلم أن الله يعلم ويحاسب ويعاقب يجد نفسه مستقيماً على أمره :

أيها الأخوة، من المناسب هنا أن نذكر آية لها علاقة مسيسة بهذه الآية، وهي قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: 12]

ربنا سبحانه وتعالى اختار من أسمائه اسمين، اسم العليم والقدير، أنت متى تستقيم؟ إذا أيقنت أنه يعلم ما تفعل، وأنك بقبضته، وسوف يحاسبك، وهو قادر على أن يحاسبك أشد الحساب، لو أردنا أن نكون واقعيين، أنت مع إنسان أقوى منك لا تستطيع أن تتفلت من ضبطه، ولا من علمه، ولا من عقابه، لا بدّ من أن تطيعه، تطيع إنساناً من جلدتك، لكنه أقوى منك، بإمكانه أن يضبط حركتك، وبإمكانه أن يعاقبك، إذاً تطيعه.

فالنقطة هنا متى يعصي الإنسان ربه؟ الإنسان يعصي ربه إذا ظنّ أن علم الله لا يطوله، أو ظنّ أن قدرة الله لا تطوله، أما يكفي أن تؤمن بثلاث كلمات: إنه يعلم، وسيحاسب، ويعاقب، وهو قدير على أن يفعل بك كل شيء، لمجرد أن تؤمن أنه يعلم، ويحاسب، ويعاقب، وأنك في قبضته تجد نفسك مستقيماً على أمره.

من كان عمله موافقاً للمنهج الإلهي فلا يعبأ بالناس :

فيا أيها الأخوة الكرام، هذا سؤال دقيق، إن رأيت انحرافاً في سلوكك - لا قدّر الله- أو تهاوناً في كسب مالك، أو تهاوناً في إنفاق المال، أو عدم انضباط في علاقاتك الاجتماعية، فاعلم علم اليقين أن هذا من نقص إيمانك، إما بعلم الله أو بقدرته، أما إذا أيقنت أن الله قدير، وأنه سيحاسب، ويعاقب لا يمكن أن تتفلت من قبضته، لذلك يقول الله عز وجل:

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا)

كلمة (زعم) تعني أن هذا ادعاء كاذب، وأنهم لن يبعثوا، وأن هذه حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وهل تصدقون أن أربعة أخماس أهل الأرض يعتقدون ذلك جميعاً، ولا شيء غيره، لذلك يعملون فيها عمل الجبابرة من أجل أن يستمتعوا بها، لأنها جنتهم الوحيدة، والموت عندهم نهاية كل شيء، اذهب إلى قارات الأرض الخمسة تجد معظم الناس هذه عقيدتهم، لذلك يتفلتون، فتأتيهم الأمراض، والانحرافات، والجرائم، واغتصاب الأموال، والعدوان على قدم وساق، لأنهم لا يعتقدون أن هناك إله سيحاسبهم، أما المؤمن - والله الذي لا إله إلا هو - قبل أن ينطق بكلمة، وقبل أن يقف موقفاً، وقبل أن يصل إنساناً، وقبل أن يقطع إنساناً، وقبل أن يعطي إنساناً، وقبل أن يمنع إنساناً، وقبل أن يغضب، وقبل أن يرضى، وقبل أن يتحرك، وقبل أن يسافر، وقبل أن يتاجر، وقبل أن يسكن، وقبل أن يتزوج يطرح على نفسه هذا السؤال: ماذا أجيب الله يوم القيامة عن هذا التصرف؟ هيئْ لله جواباً، وافعل ما تشاء، إذا لم تستح من الله فافعل ما تشاء، إذا كان عملك موافقاً للمنهج الإلهي، إذا كان عملك يرضي الله عز وجل، فلا تعبأ بالناس، لا يعبأ بالناس إلا ضعاف العقول والدهماء من الناس، لكن العباقرة المؤمنين لا يعبؤون إلا بخالقهم، فقد يقفون موقفاً يسبب لهم متاعب كثيرة، لكن أرضوا بذلك خالقهم.

المؤمن الصادق لا يشغله شيء إلا أن يتعرف إلى منهج الله :

إذاً:

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي)

يقول الله عز وجل: يا محمد، قل لهم، وأقسم لهم بربك، طبعاً الإنسان متى يقسم؟ لو أن إنساناً قال لك: كم الساعة الآن؟ هل يعقل أن تقول: والله العظيم الساعة السابعة، هو ما كذبك؟ تقسم له إذا كذبك، إذا سألك إنسان سؤالاً طبيعيّاً فليس من البلاغة أن تقسم له، أما حينما تقسم له فمعنى ذلك أنك تكذب، فهؤلاء لأنهم يكذبون اليوم الآخر، وأن الله سيبعثهم من قبورهم، وأنه سيحاسبهم حساباً دقيقاً، فقد أقسموا.

تروي بعض الآثار أن الأغنياء يحشرون يوم القيامة أربع فرق، فريقاً جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام، يقال: خذوه إلى النار، حسابه سريع جداً، وفريقاً جمع المال من حلال، وأنفقه في حرام، يقال: خذوه إلى النار، وفريقاً جمع المال من حرام، وأنفقه في حلال، يقال: خذوه إلى النار، أما الذي جمع ماله من حلال، وأنفقه في حلال فيسأل: هل تاه بماله على عباد الله؟ هل ترك فرض صلاة؟ هل قصّر في طاعة الله؟ هل قال جيرانه: يا رب أغنيته وهو بين ظهرانينا فقصّر في حقنا؟ ومن بلاغة النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: تركته ومازال يسأل ويسأل.

أخواننا الكرام... لو أن الواحد منّا قبل أن يفعل شيئاً تصور أنه بين يدي الله عز وجل، لماذا فعلت كذا؟ لماذا اغتصبت هذا المال؟ لماذا أخرجت شريكك من هذه الشركة؟ لماذا طلقت فلانة؟ إذا تصورت أن الله سيسألك عن كل شيء هيئ الجواب، وافعل فعلاً مغطًّى بجواب يقبله الله، فلذلك المؤمن في مثل هذا الموضوع وقاف عند كتاب الله، المؤمن الصادق لا يشغله شيء إلا أن يتعرف إلى منهج الله، إلى الأمر والنهي، ماذا يرضي الله وماذا يغضبه؟ ما الحلال والحرام؟ ما الحق وما الباطل؟ ما الخير وما الشر؟ ماذا يمكن أن يكون وما لا يمكن أن يكون؟ بعد أن يعرف المؤمن ربه لا شيء يشغله إلا معرفة الأمر والنهي، لأنه الآن سيتحرك.

الإيمان الكامل إيمان يتبعه طاعة لأوامر الله عز وجل :

هناك نقطة مهمة جداً الله جل جلاله ذكرها كثيراً، أنت حينما تؤمن بالله تظن أن هذا الإيمان هو نهاية المطاف، تأتي بآيات قرآنية، تأتي بأحاديث، تأتي بحوادث كونية تؤكد أنك مؤمن، لا، هذا ليس نهاية المطاف، إنه بداية المطاف، بعد أن آمنت بالله ماذا فعلت؟ لأن الله عز وجل يقول:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

[سورة الكهف: 110]

الآن أنت إذا آمنت أن الله إله واحد، ماذا عليك أن تفعل؟ لو أنك آمنتَ أن الله موجود، هو موجود، لو أنك آمنت أن الله واحد، هو واحد، لو أنك آمنت أن الله كامل، هو كامل، لو أنك آمنت أن القرآن كلامه، هو كلامه، لو أنك آمنت أن الإسلام حق، الإسلام حق فعلاً، أي شيء آمنت به، ولم يتبع هذا الإيمان حركة وموقفاً وانصياعاً وطاعة فلا قيمة له، لأن إبليس قال:

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة ص: 82]

(أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة: 54]

يصلون، وينفقون، وهم عند الله كافرون، إذاً هذه النقطة الأساسية أن الإنسان قد يقرأ كثيراً، قد يستمع إلى أشرطة، قد يستمع إلى دروس علم، إذا كان في بيته هوَ هو، في عمله هو هُو، في علاقاته، وفي كسبه للمال وإنفاقه، في أوقات فراغه، في أفراحه وأتراحه، في علاقاته الاجتماعية لا يأتمر بما أمر الله، ولا ينتهي عما نهى الله عنه، لكنه مغرم بدروس العلم، ومعرفة الحق، هذا الإيمان سماه بعض العلماء إيماناً إبليسيّاً، لا يقدم ولا يؤخر.

التطبيق هو الذي يصل الإنسان بالله و يجعله يتألق :

من أجل أن تكسبوا أوقاتكم، من أجل أن تتحركوا حركة صحيحة لا بدّ من أن تطبقوا، فلذلك قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 110]

آمنت أن الله موجود، ألا تحب أن تلتقي به؟ ألا تحب أن تصل إليه؟ ألا تحب أن تكسب رضاه؟ ألا تحب أن يحبك الله؟ ألا تحب أن يشملك الله برحمته وعنايته وتوفيقه؟ ألا تحب أن تسعد بقربه؟ عليك أن تطيعه، من هنا كانت الطاعة هي الفوز، قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 71]

لا تقيّم نفسك لا في ضوء أفكارك، ولا في ضوء كتبك، ولا في ضوء طلاقة لسانك في الإسلام، لا تقيّم نفسك إلا من خلال مدى تطبيقك لما جاء في الكتاب والسنة، التطبيق هو الذي يرفعك.. التطبيق هو الذي يصلك بالله.. التطبيق هو الذي ينعشك.. التطبيق هو الذي يجعلك تتألق، إذاً:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 110]

القلب معقد الآمال :

قال لي كثيرٌ من الأخوة: أشكو من فتور في قلبي، أشكو من ضعف في صلاتي، أشكو من جفوة في قراءتي للقرآن، أقرأ فلا أشعر بشيء، أصلي فلا أشعر بشيء، أذكر الله فلا أشعر بشيء، إن لم تشعر بشيء لا في صلاتك، ولا في ذكرك، ولا في تلاوتك، فهناك مشكلة كبيرة، معنى ذلك أن هناك حجاب

بينك وبين الله، هذا الحجاب بسبب معصية، أو مخالفة، أو سوء ظن بالله، أو انحراف، أو تعلق بالدنيا، فالإنسان يجب أن يكون حكيم نفسه، وطبيب قلبه، والقلب هو معقد الآمال، لقول الله عز وجل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء:88-89]

بطولة الإنسان أن يتعامل مع الواقع :

إذاً:

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا)

هذا زعمهم، إذا نفى إنسان الامتحان فهل نفي الامتحان يلغي الامتحان؟ لا، في العلوم شيء دقيق هو قانون السقوط، سقوط الأجسام له قانون، لو أن الإنسان أراد أن يهبط من الطائرة، إما أن يحترم قانون السقوط، فيتخذ مظلة يهبط بها، فيغدو سالماً في الأرض، وإما أن يحتقر هذا القانون، فلا يستخدم هذه المظلة، فيلقي بجسمه من الطائرة فيأتي ميتاً، وحين لم يحترم هذا القانون، أو كذب به، فهل معنى ذلك أن هذا القانون توقفت قواعده؟ لا، القانون مطبق تطبيقاً حتمياً، أعجبك أم لم يعجبك، آمنت به أم لم تؤمن، فرحت به أم لم تفرح، القانون مطبق.

إذا زعم إنسان أن ليس هناك جنة ولا نار هل بهذا الزعم ألغى الجنة والنار؟ لا والله، الجنة موجودة، والنار موجودة.

أعرف رجلاً أسرف على نفسه بالشهوات إسرافاً غير معقول، وكان في الثامنة والثلاثين من عمره، أصيب بمرض خبيث في دمه، حينما جاءه المرض ظنه عارضاً، وهو مرح جداً، ويستقدم إلى بيته ما لا يرضي الله عز وجل، فحينما علم أنه مصاب بهذا المرض الخبيث، وأن بينه وبين الموت زمناً قصيراً بدأ يصاب بنوبات هستيرية، يقول: لا أريد أن أموت، فلما جاءه ملك الموت صرخ بصوت ما بقي في البناء كله إنسان إلا وسمع الصوت.

إذا أنكر إنسان الآخرة هل معنى ذلك أنه ألغى الآخرة؟ إذا أنكر الموت هل معنى ذلك أنه ألغى الموت؟ شيء مستحيل، فالبطولة أن تتعامل مع الواقع.. أن تتعامل مع قوانين الله، البطولة ألا تندم، لأن الندم تفسيره أنك لم تُعمِل عقلك، فالإنسان عندما يتحرك حركة خاطئة سيندم، وهذا الندم دليل أنه لم يستخدم عقله، إذاً يقول الله عز وجل:

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ)

الموت ليس نهاية الحي لأن حياة الإنسان أبدية :

نحن جميعاً سوف نموت، شئنا أم أبينا، وسوف ندخل القبر، وسوف نبعث من القبور، لأن الموت ليس نهاية الحي، حياة الإنسان أبدية، والقبر ليس آخر بيوته، القبر يزوره زيارة، والدليل أن الله عز وجل يقول:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ*حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ)

[سورة التكاثر: 1-2]

لماذا قال:

(زُرْتُمْ)

؟ لأن الإنسان يزور القبر، ثم يخرج منه ليبعث حياً، ليحاسب عن كل أعماله صغيرها وكبيرها، أحياناً يطلق الإنسان لابنته العنان، تتحرك كما تشاء، وترتدي أي ثياب، لا يمنعها إن أبدت مفاتنها للناس، بل يطرب لذلك، قد تأتي يوم القيامة تقول: يا رب، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي.

إذا أيقن الإنسان أنه سيحاسب، والله لخرج من جلده خوفاً، لو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت لما أكلتم طعاماً عن شهوة، ولا دخلتم بيتاً تستظلون به، ولذهبتم إلى الصعدات تبكون على أنفسكم.

أحياناً يقال لإنسان: تعال الخميس راجعنا، لا ينام الليل، لأنه يتوقع ألف سؤال وألف مشكلة، فكيف إذا دعاك الله عز وجل الواحد الديان ليسألك عن كل شيء؟

الذكي من أطاع الله عز وجل :

أخواننا الكرام، لا أتمنى على الله من هذا الدرس إلا فكرة واحدة، أنه قبل أن تتحرك، وتصل وتقطع، وقبل أن تعمل أي شيء، فكر بماذا تجيب الله يوم القيامة عن هذا العمل؟ إذا أخطأ إنسان معك في الحساب، هل تفرح؟ إن فرحت فلا تعرف الله، يجب أن تؤدي له الحساب، أناس كثيرون يرون أن كسب المال الحرام ذكاء، إنسان بموقع دقيق يبتز أموال الناس، يرى نفسه ذكياً، عاش في بحبوحة، وأتى لأهله بأطيب الطعام، وبأجمل اللباس، سكن أجمل بيت، لأنه قوي، واستطاع بقوته أن يبتز أموال الناس، وأن يخيفهم، يظن نفسه أنه ذكي، وأنه عاقل.. لا، ما دام هناك بعث ونشور، وحساب وعذاب، وجنة ونار، الذكي من أطاع الله، كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله.

من اليسير على الله أن يسجل على الإنسان كل أعماله وحركاته وسكناته :

(قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ)

تبعثنّ من قبوركم:

(قالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

[سورة يس: 123]

(ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

شيء يحير، الإنسان الآن وصل إلى أشياء مذهلة بعقله، يمكن أن يضع خمسين ألف كتاب في قرص، ويقرأ مليوني حرف في ثانية، من اليسير على الله أن يسجل عليك كل أعمالك وحركاتك وسكناتك:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)

[سورة الإسراء: 14]

الله عز وجل قدراته مطلقة ليس له حدود :

أنت في الدنيا لك سرّ وعلانية، لك باطن ولك ظاهر، لك خلوة ولك جلوة، لك بيت تأوي إليه، تفعل ما تشاء، أما إذا خرجت من البيت فتظهر بأجمل مظهر، لكن الله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية لا في السموات ولا في الأرض، فهذا النبأ هو عملك الحقيقي، خلفيته، أهدافه، بواعثه، حجمه، نواياه المنطوية تحته، هذا كله عند الله عز وجل:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

[سورة الإسراء :17]

يمكن أن تعمل عملاً صالحاً، وهو عند الله ليس بصالح، يمكن أن تعمل عملاً صالحاً في ظاهره، وفي نيتك أن تنتزع إعجاب الآخرين:

((إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ، لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

(ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

فعلت كذا بنية كذا، بالباعث الفلاني، بالهدف الفلاني، بالحجم الفلاني، بالخلفية الفلانية، تحليل دقيق جداً لعمل الإنسان.

(ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

الله عز وجل قال عن نفسه: إنه سريع الحساب، أحيانا يمكن أن يقرأ الإنسان في بعض الحواسيب المركزية أربعمئة مليون حرف في ثانية، إذا كانت هذه سرعة حاسب الإنسان فكيف بالله عز وجل؟ لا يوجد زمن إطلاقاً، كن فيكون، لأن الله عز وجل قدراته مطلقة، مطلق في قدرته، مطلق في علمه، ليس له حدود، الإنسان له حدود.

الإيمان المنجي هو الإيمان الذي يحمل الإنسان على طاعة الله :

إذاً:

(وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ* فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

آمن بالله الإيمان الصحيح، الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله لا فائدة منه، هذا إيمان إبليس، الإيمان الذي يجعلك تغض بصرك عن محارم الله هو الإيمان الذي أراده الله، الإيمان الذي يجعلك تقول: أين الله؟ قال: بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب، قال: والله إني لأشد الحاجة لثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت، أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟

الإيمان الذي ينجيك هو الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، هذا كلام مختصر ودقيق:

((من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل وما حقها؟ قال: أن تحجبه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم]

(وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ* فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

آمنوا بالله من خلال آياته الكونية.. من خلال آياته القرآنية.. من خلال آياته التكوينية، وآمنوا برسوله من خلال سنته القولية، والفعلية، والإقرارية، إذا آمنت بالله من خلال كتابه، وآمنت بالله من خلال خلقه، وآمنت بالله من خلال أفعاله، وآمنت بالنبي عليه الصلاة والسلام من خلال سنته القولية والعملية والإقرارية، وحملك هذا الإيمان على طاعة الله فهذا هو الإيمان الذي يريده الله عز وجل.

الله عز وجل خلق الكون و نوره بالقرآن :

(وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا)

أي بهذا الكتاب، لأن الله عز وجل قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: 12]

إذاً

(وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا)

أي هذا القرآن:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة الأنعام: 1]

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

[سورة الكهف: 1]

الكتاب يعادل الكون، الكون خلقه وهذا كلامه، خلق الكون، ونوّره بهذا النور..

معرفة حقيقة الدنيا و حقيقة الإنسان :

بهذا الكتاب الذي فيه إيضاح لكل شيء، في هذا الكتاب فلسفة الوجود.. في هذا الكتاب فلسفة الحياة وحقيقتها.. في هذا الكتاب فلسفة الإنسان، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون: 115]

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: 19]

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

[سورة النجم:39]

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر: 2]

ينبغي أن تعرف حقيقة الإنسان من خلال هذا الكتاب، لأنه نور، وأن تعرف حقيقة الدنيا:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ)

[سورة الحديد: 20]

الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف :

إن الحياة دار ابتلاء، الحياة دار انقطاع، الحياة دار تكليف، الحياة دار عمل، الحياة دار سعي، الحياة دار معرفة الله، الحياة مكان للعمل الصالح، هذه حقيقة الحياة، أكثر الناس يتوهمون أن الحياة شيء آخر، لا بد أن تعيش في بحبوحة، تتنعم، تأكل، تشرب، تستعلي على الناس، تعيش بأجمل بيت، تركب أفخم سيارة، هذا هدف الناس، لأنهم ما عرفوا حقيقة الحياة الدنيا.

إذا جلس طالب في الامتحان، أو جلس في مدرسته، همه مكان قريب من النافذة ليتسلى، همه مجلة يتسلى بها أثناء إلقاء الدرس، همه طعام يأكله أثناء إلقاء الدرس، همه أن يضطجع لينام في أثناء إلقاء الدرس، هل عرف حقيقة المدرسة؟ ما فهم حقيقة المدرسة، دخل الامتحان يكتب خطوطاً للتسلية على ورق الامتحان، دون أن يقرأ الأسئلة، معنى ذلك أنه ما عرف حقيقة الامتحان.

فالمشكلة أن الناس يجعلون الدنيا دار نعيم لا دار عمل، الدنيا دار عمل، والآخرة دار نعيم ودار جزاء، الدنيا دار تكليف، والآخرة دار تشريف، الدنيا دار سعي، والآخرة دار مكافأة.

الخبرة أعمق من العلم :

أنت من خلال النور تعرف حقيقة الكون:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

تعرف حقيقة الإنسان، تعرف حقيقة الحياة الدنيا، هذا الذي سماه الله نوراً.

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

هنا:

(بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

الخبرة أعمق من العلم، يعلم الله ما كان، وما يكون، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، لأنه خبير.

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)

معنى التغابن :

أيها الأخوة، هذه السورة سميت سورة التغابن، لأن أحد أسماء يوم القيامة هو التغابن، الإنسان يكتشف أنه مغبون، إذا باع الإنسان بيتاً؛ قيمته ثلاثون مليوناً، باعه بثلاثة ملايين، كان مسافراً عشر سنوات، وعاد، ودخل عليه إنسان، عرض عليه ثلاثة ملايين، وجده مبلغاً كبيراً، فباعه، وكتب عقداً، وطوّب، ثم اكتشف أن البيت ثمنه ثلاثون مليوناً، ألا يتألم أشدّ الألم؟ في الدنيا هذا اسمه الغبن، أن تعطي شيئاً ثميناً بشيء بخس، أو أن تشتري شيئاً سخيفاً بثمن باهظ، البائع قد يكون مغبوناً، والمشتري مغبون.

ربنا عز وجل أراد الدنيا قضية مبادلة و معاوضة، فالإنسان ضحى بالدنيا من أجل الآخرة.. آثر الآخرة على الدنيا، اشتروا الضلالة بالهدى، فالكافر اشترى الدنيا، وباع الآخرة، أما المؤمن فضحى بالدنيا، وسعى للآخرة، فهذا اليوم يوم التغابن كل الناس يحسون بالغبن، إلا أن الكافر يحس بغبن كبير، أما المؤمن فيتمنى لو لم ينفق من عمره ساعة إلا في ذكر الله، وطاعته، والعمل الصالح، الغبن أن تكون في غرفة، وبإمكانك أن تأخذ منها كل شيء ثمين، وأخذت الشيء الخسيس:

(ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)

أي الناس يغبن بعضهم بعضاً، المؤمن يشعر بالغبن، لأنه ضاع من وقته بعض الوقت لم يكن في ذكر الله، ولا في طاعته، مع أنه نجا، ودخل الجنة، لكن لا يندم المؤمن على شيء فاته من الدنيا إلا ساعة مرت عليه لم يذكر الله فيها، هذا أكبر ندمه، الكافر ضيع الآخرة من أجل الدنيا.

الغبن أن تبيع الشيء الثمين بالسعر البخس :

والحقيقة أن الغبن لا يحتمل، من أشد أنواع الشعور الممتد أن تشعر أنك مغبون، أحيانا الزوج يشعر أنه مغبون مع هذه الزوجة، كان بإمكانه أن يأخذ أفضل منها بكثير، والزوجة تشعر أنها مغبونة مع زوجها، و أحياناً التاجر يشعر أنه مغبون مع شريكه، والبائع كذلك، والشاري كذلك، فالغبن هو أن تبيع الشيء الثمين بالسعر البخس، أو أن تشتري الشيء الخسيس بالثمن الباهظ، والآخرة تجارة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)

[سورة الصف: 10-11]

من أنفق ماله و صحته و حياته و فراغه في طاعة الله فقد ربح الدنيا و الآخرة :

رأسمالك حياتك، وفراغك، وصحتك، ومالك، فإذا أنفقت المال والحياة والصحة والفراغ في طاعة الله كسبت السلامة في الدنيا، والجنة في الآخرة، هذه هي التجارة الرابحة، قال تعالى:

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

هذا طريق النجاة، ومن يؤمن بالله الإيمان الصحيح، ويعمل صالحاً، مؤكداً إيمانه الصحيح يكفِّر عنه سيئاته، أي أن ماضيه مغطًّى بالمغفرة:

(وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

الفوز العظيم أن تؤمن إيماناً صحيحاً وأن تعمل صالحاً كي تفوز بالجنة :

بعد هذا البيان الإلهي وهو:

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

مقياس الفوز عندك ماذا؟ لو سألت آلاف الأشخاص: ما مقياس الفوز عندكم؟ قد يقول لك الحقيقة: المال.. الغنى.. الصحة..العلو في الأرض، لكن الله في هذا القرآن الكريم يقول: الفوز العظيم أن تؤمن إيماناً صحيحاً، وأن تعمل صالحاً كي تفوز بالجنة.

(ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[سورة البقرة: 39]

أصبح هناك وضوحاً تاماً، يوم التغابن يوم الحساب، ما من إنسان إلا ويصاب بالغبن، حتى المؤمن يتمنى لو لم يتهاون ثانية من عمره، أما غبن الكافر فكبير، لأنه في النار، المؤمن في الجنة، لكن يتمنى أن يكون في أرقى درجاتها، كيف ضيع هذه السهرة؟ كيف ضيع هذا الوقت؟ كيف أنه لم يحافظ على ما أمره الله تماماً، يشعر بالغبن أحياناً، أما الكافر فيشعر بغبن شديد جداً.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التغابن 064 - الدرس (4-6): تفسير الآيات 9-13

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-11-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

الدنيا ساعة من جعلها طاعة كسب الأبد :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع من سورة التغابن، ومع الآية التاسعة وهي قوله تعالى:

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)

ذكرت في الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)

[سورة الصف : 10-11]

فربنا سبحانه وتعالى عدّ الإيمان به وطاعته والتقرب إليه كل هذا تجارة رابحة، لكن الربح كبير جداً، فرأسمالك حياتك وشبابك وفراغك، هذا الذي أعطاك عمراً وقوة وشباباً وفراغاً وطمأنينةً، هذه رأسمالك، فإذا وظفت هذا الرأسمال في طاعة الله ومعرفته والعمل له كسبت سلامة الدنيا وسعادتها، وسعادة الأبد إلى أبد الآبدين.

فالربح كبير جداً، نحن في الدنيا الربح بالمئة عشرة أو عشرون، أما ثلاثمئة فلا يصدق هذا الربح، والله لا أبالغ لو قلت: ربح الإنسان مع الله وحده من رأسماله يعادل مليارات، لأن الله عز وجل يقول:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة السجدة: 17]

الدنيا محدودة، والعمر محدود، وفي النهاية الإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، الدنيا ساعة لو جعلها طاعة لكسب الأبد.

من تاجر مع الله كسب الدنيا و الآخرة :

الذي يتاجر مع الله يقدم رأسماله في طاعة الله فيكسب الدنيا والآخرة، هذا المعنى نفسه ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة أخرى قال:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ)

[سورة المائدة: 111]

يمكن أن تدفع ليرة وتأخذ ملياراً، يمكن أن تدفع ليرة وتأخذ مليون مليار.. مليار مَليار شيء لا يصدق، أما الكفار والمنافقون:

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

[سورة البقرة: 16]

فما ربحت تجارتهم، كأن الله سبحانه وتعالى يجعل علاقتك به نوعاً من التجارة تقدم له شيئاً ويعطيك أشياء:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: 245]

أيّ عمل صالح في الأرض هو إقراض لله عز وجل :

أيّ عمل صالح في الأرض هو إقراض لله عز وجل، وسوف تكافأ عليه يوم القيامة، وفي الحديث قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

فلأنّ أهل مكة كانوا تجاراً فالله سبحانه وتعالى يخاطبهم على قدر عقولهم، أي أيها المؤمن إذا تاجرت مع الله تربح ربحاً مجزياً، وإن أردت الدنيا وضيعت الآخرة، إن اشتريت الضلالة بالهدى تشتري العذاب بالمغفرة، إن اشتريت الدنيا وبعت الآخرة اخترت الخسيس وتركت النفيس، فربنا عز وجل يقول:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: 38]

هذا الذي آثر الدنيا على الآخرة.. آثر القليل على الكثير.. وآثر الخسيس على النفيس.. وآثر الذي يفنى على الذي يبقى.. وآثر دنيا محدودة مشغولة بالمتاعب على جنة كلها مسرات وسعادة، فالإنسان كلما رجح عقله ازداد حبه لله عز وجل، أرجحكم عقلاً أشدكم حباً لله.

من آثر الدنيا على الآخرة فعقله ضعيف :

قلت لكم مرة: لو أن إنسانًا خُيِّر بين ثلاثة أشياء، بين قطعة ألماس ثمنها خمسة ملايين، وكأس فضي ثمنه ألف ليرة، وقارورة زجاج وطنية ثمنها عشرون ليرة، قلنا لك: اختر من هذه الأشياء واحدة، فالذي

يختار أكبر حجم وأبخس ثمن هناك ضعف في عقله، أنا أقول: أنا أعرف من اختيارك رجاحة عقلك، فالذي آثر الدنيا عقله ضعيف، آيات كثيرة تشير إلى هذا المعنى ربنا عز وجل يقول:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: 77]

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً* نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ)

[سورة الإنسان: 27 - 28]

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

[سورة الزخرف: 83]

هذا قرار خطير، تختار الدنيا أم تختار الآخرة؟ هذا قرار مصيري، لا بدّ من أن تتخذ موقفاً واضحاً، ربنا عز وجل يقول:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: 77]

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط إذا غمس في البحر مِن مائه))

[الجامع الصغير عن المستورد بن شداد بسند صحيح]

ليس في الدنيا تغابن بل التغابن في الآخرة :

آيات كثيرة وأحاديث كثيرة تفيد في أن علاقتك مع الله بشكل أو بآخر هي علاقة تجارية، تقدم شيئاً وتأخذ أشياء كثيرة، فمن آثر الدنيا على الآخرة فقد وقع في خسارة محققة، هذه الخسارة سمّاها الله يوم القيامة التغابن، غبن، كما لو أنك بعت بيتاً قيمته عشرة ملايين بمليون واحد، يتألم البائع أشد الألم، كما أنك لو اشتريت شيئاً بعشرة ملايين وثمنه مليوناً، هذا هو الغبن، الشعور بالخسارة الكبيرة، فربنا عز وجل يقول:

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)

قال بعض العلماء: التغابن ليس في أمور الدنيا، فالذي نال مالاً كثيراً، والذي نال مالاً قليلاً، والذي عاش بصحة عالية، والذي عاش بصحة متدنية، والذي عاش بحظ كثير أو قليل سواء، لأن الدنيا فانية فالتغابن فيها لا يقع.

مثلاً: إنسان مات في سن مبكرة، نقول نحن: مسكين، لم يعش طويلاً، لكن لو عشت عمراً مديداً سوف تموت، ألقيت قنبلة على هيروشيما قتلت ثلاثة آلاف شخص في ثوان معدودة، إذاً بعد مئة عام لو لم تُلق هذه القنبلة هل بقي أحد من هؤلاء يعيش؟ لا..

فأجمل ما في هذه الآية أن العلماء يقولون: ليس هناك تغابن في الدنيا، إنسان سكن أفخم البيوت، والثاني سكن كوخًا، الموت ينهي غنى الغني وفقر الفقير، يلغي قوة القوي وضعف الضعيف، يلغي صحة الصحيح ومرض المريض، يلغي ذكاء الذكي وغباء الغبي، يلغي كل شيء، فليس هناك معنى إطلاقاً أن يكون التغابن في الدنيا، التغابن في الآخرة، مع أن التغابن في الدنيا مؤلم أشد الألم، فرضاً يقول لك إنسان: هذه الأرض بعتها بعشرة آلاف ليرة، الآن ثمنها اثنا عشر مليونًا، يتألم أشد الألم. مثلاً باع بيتًا بثمن خسيس، ثم فوجئ أن سعره عشرون ضعفاً، زهد في أرض أمامها طريق، فارتفع سعرها أضعافاً، يتألم، مع أن هذا الألم مؤقت، ومع أن المكسب مؤقت، وهناك ألم، فكيف لو ضاعت الآخرة كلها؟ قال تعالى:

(ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)

من غفل عن الله عز وجل غبن نفسه أشد الغبن :

الإنسان يجد نفسه مغبونًا أشد الغبن حينما يغفل عن الله عز وجل، هناك حقيقة ثانية، هكذا قال بعض العلماء نقلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن الله سبحانه وتعالى يطلع المؤمن على مكانه في النار لو لم يؤمن فتزداد سعادته في الجنة، ويطلع الكافر على مكانه في الجنة فتزداد حسرته في الآخرة، الإنسان يساق إلى النار، أيها الإنسان لو أنك عرفت الله في الدنيا، وآمنت به، وأطعت أمره، وتقربت إليه، وعبدته فهذا مكانك في الجنة، فتزداد حسرته .

والثاني: المؤمن يرى مكانه في النار لو لم يؤمن، وأوضح مثلٍ: شريكان يعملان معاً، أحدهما اقترح على الآخر أن يعملا في تجارة محرمة، لأن أرباحها كبيرة جداً، الشريك الثاني رفض هذا الاقتراح، فلما رفض هذا الاقتراح فضت الشركة، وذهب كل إلى حال سبيله، هذا الذي اختار الطريق الممنوع ربح أرباحاً طائلة، ثم وقع في قبضة العدالة، وسيق إلى السجن، وحكم عليه بالسجن مدة ثلاثين عاماً، لو فرضنا في قضية المخدرات، الذي لم يختر الطريق الوعر ذهب ليزوره، رأى مكانه في السجن، ونوع طعامه، وضعفه، فهذا الذي زاره في السجن يزداد شعوراً بالسعادة حينما يفخر بقراره المصيري، وهذا الذي هو في السجن يرى شريكه طليقاً حراً يعمل بطلاقة بين أهله وأولاده فيزداد حسرة. فحينما يرى المؤمن مكانه في النار لو لم يؤمن، وحينما يرى الكافر مكانه في الجنة لو آمن، الكافر يزداد حسرة، ويشعر بالغبن الفادح، والمؤمن تزداد سعادته، ويشعر بالرضا، إلا أن المؤمن لو دخل الجنة يتمنى لو أنه في الدنيا لم يضيع دقيقة واحدة، ولو أن كل دقيقة عاشها في الدنيا استغلها في طاعة الله، وفي العمل الصالح، وفي الدعوة إلى الله، لكانت سعادته أكبر.

أحياناً يعمل الإنسان في تجارة رابحة جداً، يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، استوردنا مئة طن فربحنا أرباحاً طائلة، لو استوردنا مئتي طن فالسوق تطلب كميات كبيرة جداً، والاستيراد سهل، والأرباح طائلة، فالذي ربح أرباحًا طائلة يتمنى لو أنه ضاعف الكمية ليزداد ربحه.

فالله سبحانه وتعالى سمى ذلك اليوم يومَ التغابن، أي كلٌّ يغبن نفسه، إلا أن الكافر غبنه شديد جداً، والمسافة بين الشقاء الأبدي والسعادة الأبدية مسافة كبيرة، أما المؤمن المقتصد فيشعر بالغبن، ليتني كنت من السابقين.. ليتني أنفقت كل مالي في سبيل الله، هو أنفق الزكاة فقط.. ليتني أنفقت فوق الزكاة أضعافًا مضاعفة.. ليتني حفظت كتاب الله كله، ودرسته كله.. ليتني أنفقت مالاً على مشروعات خيرية تكون لي ذخراً يوم القيامة.

التغابن في الدنيا لا يحتمل فكيف بخسارة الآخرة ؟؟

إذاً يقول الله عز وجل:

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)

أخواننا الكرام، كلكم يعلم هذه الحقيقة، الشعور بالغبن مملٌّ جداً، كإنسان يبيع بيتاً بعشر ثمنه، تستغل سذاجته، ويوقع، ويفرغ البيت، وينتهي الأمر، ولا عودة من هذا القرار، يتألم أشد الألم، وهناك قصص كثيرة، هناك أشخاص كثيرون أصابتهم أزمة قلبية، وفقدوا حياتهم لشعورهم بالغبن الفادح، أحيانا خسارة مؤلمة فيموت فوراً، مئات القصص سمعتها عن إنسان مات فجأة بسكتة قلبية، لأنه تلقى نبأ لا يحتمله، نبأ خسارة، احترق المعمل فمات، كلفوه ضريبة فوق طاقته فمات فوراً، فلذلك التغابن في الدنيا لا يحتمل، فكيف أن يخسر الإنسان حياة الأبد؟ جنة عرضها السموات والأرض ؟!

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها :

التغابن فيه معنى المشاركة، أي كل يشعر بغبن الآخر، أما أهل الإيمان فيتمنون أن يكونوا في أعلى مستوى، أو لعل هذا التمني في أول الحساب، فإذا دخلوا إلى الجنة، واستقروا فيها سعدوا سعادة لا يعرفها الذين معهم:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا)

دائماً كتاب الله عز وجل يطمئن، أيها المؤمن لا تفكر في الماضي.

سأل أستاذ علم نفس في جامعة طلابه: هل جربتم نشر الخشب؟ قالوا: نعم، ثم سأل: هل جربتم نشر النشارة؟ قالوا: لا.. مستحيل، النشارة لا تنشر، قال: كذلك الذي يفكر في الماضي، الماضي مضيعة للوقت، ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها، الماضي مضى فاطوِ الصفحة.. أغلق هذا الملف، كأن لم يكن، لأن الحديث عن الماضي لا يجدي أبداً، امدح ماضيك أو ذمّه، الساعة التي مضت لا تعود، وختم بها العمل، والمستقبل لا تملكه، إذاً لك الساعة التي أنت فيها، هذا الإنسان العملي، وهناك إنسان حالم، يعيش في مستقبل موهوم، هذا الذي اضطجع تحت قدر عسل، وقال: سوف أبيع هذا العسل، وسوف أشتري الأنعام، وسوف أصبح غنياً، وسوف أتزوج، وسوف أنجب، وسوف أؤدب أطفالي، ورفع عصاه، وضرب القدر، فانكسر القدر، وسال العسل، وضاعت كل أحلامه.

هناك إنسان حالم، يعيش مستقبلا فارغاً، وهناك إنسان يجتر الماضي، يحدثك عشرين ساعة عن الماضي، الماضي مضى، الآن قل: البيت كان بثلاثة آلاف، هل ينفع هذا الكلام؟ ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها، فالحديث عن الماضي مضيعة للوقت، والأحلام الفارغة قد لا تصلها، إنسان توفي أحد أقربائه، هذا القريب ترك ألف مليون، نصيبه وحده تسعون مليونًا، ترك دكانه، وانطلق ليتابع إجراءات الإرث، ستة أشهر وهو يبحث من دائرة إلى دائرة، إلى براءة الذمة، إلى حصر الإرث، وافته المنية، وهو في الحمام قبل أن يقبض قرشاً واحداً، المؤمل غيب، ماذا تملك؟ لك الساعة التي أنت فيها، في هذه الساعة تب إلى الله.. في هذه الساعة اعمل صالحاً.. في هذه الساعة اتّق الله.. في هذه الساعة تعلم القرآن.. في هذه الساعة مر بالمعروف و انهَ عن المنكر، لك الساعة التي أنت فيها، أنت لا تملك إلا هذه الساعة.

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا)

الماضي مغطى بالمغفرة :

الماضي مغطى بالمغفرة، لا تجعل الماضي عقبة، وفي الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

((يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

الصلحة بلمحة، لو أنك تعرف أن الله يفرح بتوبتك.. لو عرفت أن الله سبحانه وتعالى ينتظر توبتك.. لو عرفت أنك عند الله سبحانه وتعالى مطلوب، مهما يكن هذا الإنسان هو مطلوب عند الله برحمته:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة الأعراف: 156]

أحد الصالحين قال: يا رب نحن شيء ورحمتك وسعت كل شيء فارحمنا.

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

المتفوق من يبحث عن رحمة الله في مكانها لا في الدنيا وزخارفها :

العجب العجاب من إنسان متردد، من إنسان لم ينطلق، من إنسان حائر، من إنسان يستهلك الوقت استهلاكاً رخيصاً، من إنسان لم يعرف سرّ وجوده، ولا غاية وجوده، هذا شيء يدعو إلى العجب. كل إنسان يحب التفوق، يحب الفوز والفلاح والنجاح، المشكلة كما قلت في الخطبة اليوم: الإنسان حينما يبحث عن اللؤلؤ في الصحراء هو يبحث عن كنز، لكن هذا الكنز الذي هو اللؤلؤ لن تجده في الصحراء، هو في البحار، فينبغي أن تبحث عن رحمة الله في مكانها، لا في الدنيا وزخارفها، بل في حقيقتها، وهي أن تعرف الله فيها .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

الناس رجلان؛ برّ تقي وفاجر شقي :

في النهاية نحن نعد تقسيمات كبيرة جداً بحسب ألواننا، وأعراقنا، وأجناسنا، وبيئتنا، وثقافتنا، بحسب دخلنا، وأعمالنا، آلاف مؤلفة، كل إنسان نسيج وحده، لكن مصير البشرية جمعاء إلى صنفين، مؤمن وكافر، الناس رجلان، برّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هيّن على الله، فالإنسان إن لم يكن مع الحق فهو مع الباطل، وهذه حقيقة خطيرة، أحياناً الإنسان يتساهل، الآية الكريمة:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

هناك خطان لا ثالث لهما، إن لم تكن على أحدهما فأنت على الثاني قطعاً، والحق لا يتعدد، لأنه لا يوجد حقان، إن لم تكن على الحق فأنت على الباطل:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ* وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، في الحياة الدنيا أصحاب الدخل الكبير، وأصحاب الدخل القليل، وهناك ما بينهما، في الحياة وسط.. هناك غنى، وفقر، و وسط، هناك مرض

عضال، و هناك صحة تامة، و هناك أمراض خفيفة محتملة، معه سكر، الحمية تفيده، هذا في الدنيا، أيها الأخوة، أما الآخرة فلا يوجد فيها شيء من هذا، فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، إن لم نكن على الحق فنحن على الباطل، إن لم تكن مستقيماً فأنت منحرف، إن لم يكن دخلك حلالاً فهو حرام، إن لم تكن مع الله فأنت مع الشيطان.

من فهم حكمة المصيبة قبلها :

الآن الآية الكريمة:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

الحقيقة أن الحياة الدنيا مشحونة بالمصائب لحكمة بالغة أرادها الله، المشكلة ليست في المصيبة، المشكلة في تفصيل هذه المصيبة، فعندما يجلس إنسان عند طبيب أسنان، وهذا الطبيب قد لا يناسب المريض أن يعطيه مخدراً لأسباب صحية، فحينما يحفر ضرسه، وفيه عصب حساس جداً يتألم ألماً لا يحتمل لماذا يصبر المريض؟ لأنه يعلم أن هذا لصالحه.

فإذا فهم الإنسان حكمة المصيبة قبلها، أما إذا لم يفهم حكمتها فسحقته المصيبة، فهناك مصائب لكن بين أن تفهمها علاجاً، وبين أن تفهمها انتقاماً، بين أن تفهمها يداً عادلة حكيمة، وبين أن تفهم المصائب خبط عشواء تصيب أو لا تصيب، بين أن تفهم عن الله عدالته، وبين أن تتوهم أن هناك حظوظاً بلا مبررات، فربنا عز وجل يطمئننا فيقول:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

ذكرت هذا كثيراً جداً، كلمة:

(مِنْ مُصِيبَةٍ)

هذه (من) تفيد في اللغة العربية استغراق أفراد النوع مهما دقت، فإذا قال لك شخص: هل عندك رغبة أن نعمل عملاً تجارياً معاً؟ تقول له: ما المشروع؟ يقول لك: نفتح مثلاً معهداً تعليميًّا، أو تجارة، أو استيراداً، تقول: كم يكلف هذا المشروع؟ يقول لك: خمسة ملايين، أنت معك مليون واحد، يريد النصف، تقول: ما عندي مال لهذا المشروع، هذه الكلمة تعني أنه ليس معك ثلاثة ملايين، نصف التكلفة، لكن معك مليوناً، كلمة ما عندي مال لا تعني أنك لا تملك مليونًا، لكن تعني أنك لا تملك المال الكافي لهذا المشروع، الآن دقق، لو قلت لهذا الذي عرض عليك المشروع: ما عندي من مال، أي ليس معك ولا ليرة واحدة، لأن من تفيد استغراق أفراد النوع.

أيّ مصيبة مهما كانت في جميع شؤون الحياة لا تكون إلا بإذن الله :

الآن طبق هذه القاعدة - (من) لاستغراق أفراد النوع - في هذه الآية:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ)

مسمار في باب لم تنتبه إليه، فخدش جلدك خدشًا بسيطًا، هذه مصيبة، إنسان سمع بوق سيارة فجأة، ارتعب ثانية، وانتهى الأمر، ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر،

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ)

أيّ مصيبة مهما كانت، في جميع شؤون الحياة:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

(بِإِذْنِ اللَّهِ)

أي أذن الله أن تكون، ومعنى أذن أن تكون هذه المصيبة المؤلمة ما الذي سمح لها أن تصل إليك؟ تصور إنسانًا يمسك بيده زمام وحش، وإنسانًا يقف في مكان ما، فإذا أرخينا زمام هذا الوحش وصل إلى ذاك الإنسان، وإذا شددنا الزمام ابتعد عنه.

ما معنى أن يأذن الله لمصيبة أن تقع؟ أي سمح لها أن تصل إليك، إذاً من الذي سمح لها؟ رب كريم.. خالق عظيم.. عليم حكيم كريم.. عادل.

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

من تنكشف له الحكمة من المصيبة تنقلب المصيبة عنده إلى نعمة :

الله عز وجل حينما يأذن أي سمح للسبب أن يفعل فعله، لو فرضنا ناراً، الله عز وجل أودع فيها قوة الإحراق.. متى يأذن الله للنار أن تحرق؟ عندما يجمع بين هذا الشيء الذي أذن له أن يحرق وبين النار، الجمع هو الإذن، أحياناً النار لا تؤثر كما حصل مع سيدنا إبراهيم عليه السلام الله، لم يأذن لها أن تحرق.

الله جل جلاله أذن لهذا الدواء أن يفعل فعله، أو لم يأذن، لم يأذن الله له أن يفعل فعله، فالمريض لم يشف، أحياناً أذن الله لهذه الشظية أن تصل إلى فلان، فأصيب بجراح، أو لم يأذن له، أذن لهذه النقطة من الدم المتجمدة أن تصل إلى مركز الذاكرة في الدماغ ففقد ذاكرته، هذه مصيبة.. من أذن لهذه الخثرة أن تصل إلى الدماغ؟ الله جل جلاله.

فأنت لمجرد أن توقن أن كل مصيبة وقعت أذن الله بها، وأن الله عز وجل كريم، ورحيم، وعادل، وغني، ومربٍّ، إذا انكشفت لك الحكمة في المصيبة انقلبت المصيبة إلى نعمة.

شخص يسير في السوق، تلقى ضرباً على رقبته شديداً، فغلى دمه، والتفت ليبطش بالضارب، فإذا عقرب على الأرض، كان هذا الإنسان قد نفضه عن رقبته.. كيف في ثانية واحدة ينقلب حمقه إلى رضاً وشكراً! وهناك أمثلة كثيرة، يتبدل ضيق الإنسان وألمه في ثانية إلى شكر.

وأنا أعتقد أن في حياة كل واحد من أخواننا الكرام شيئًا ظاهره مؤلم جداً، بعد حين تكشف عن خير كبير، فشكر الله.

مرة قلت لكم: لي قريبة فحصت نفسها في مستشفى، فكانت النتيجة مؤلمة جداً، مرض في الصدر خبيث، فانزوت في غرفتها، وجعلت تبكي، المرض مُعدٍ، عزلت عن أخواتها، وأكلت وحدها، اسودت الدنيا في عينيها، وتألمت أشد الألم، ويئست أشد اليأس، ثم خطر لها أن تتوب إلى الله، فتابت، وصلّت، وتحجبت، وقرأت القرآن، واتجهت إلى الله، ثم فوجئت أن هذه النتيجة لم تكن لها، أعطيت لها بالخطأ، إذاً هذه الأيام المؤلمة التي أمضتها هذه الفتاة تحت شبح هذا المرض الخطير، بهذا الشبح الخطير نقلها الله عز وجل من التفلت إلى التوبة، ومن الجهل إلى العلم، ومن الضياع إلى الوجدان، بعد حين حينما ترقى في معرفة الله، وتتصل بالله، ألا تشكر الله على هذه الأزمة التي ألمت بها؟

من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر :

صدقوني أيها الأخوة، كل واحد منا صادق مع الله حينما يكشف الله له حكمة المصيبة التي ألمت به يذوب مثل الشمعة شكراً لله على هذه المصيبة، لعله في أولها يتألم، لعله وهو فيها يتألم، أما حينما يعرف نتائجها فيشكر الله عليها.

أعرف شخصًا متفلّتاً هو وزوجته أشد التفلت.. عقيدته فاسدة أشد الفساد.. ليس عنده شيء اسمه حلال ولا حرام، ولا آخرة، يعيش لحظته، له فتاة يموت في حبها، أصيبت بمرض عضال في جسمها، لم يدَع طبيباً حتى اضطر إلى أن يبيع بيته، ثم جاءه إلهام الملك أن أيها الإنسان تب إلى الله أنت وزوجتك، لعل الله يشفيها فتاب، وبعد حين تراجع المرض شيئاً فشيئاً، ودعيتُ إلى إلقاء كلمة في عقد قران هذه الفتاة، قلت له: هيَ هِي، فقال لي: هي هِي، عاد هو وزوجته إلى الله، وتابا، وأقبلا، وصلح إيمانهما، وسعدا في الدنيا، وهذا المرض جاء كالضيف، ثم خرج، جاء وهما متفلتان، وخرج وهما تائبان، فإذا تذكرا هذا المرض ألا يشكران الله على أن ساق لابنتهما هذا المرض؟ والبنت شفيت، وتزوجت، وهي الآن قرة عين أبيها، هكذا أفعال الله.

أيها الأخوة الكرام، المصيبة الحقيقية ألا تؤثر المصيبة في الإنسان، هذه أكبر مصيبة، حينما يصاب الإنسان بمصيبة، ولا يتأثر بها، ولا يفسرها تفسيراً تربوياً إلهياً فهو في أكبر مصيبة، من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر.

المصيبة عدل ورحمة وحكمة :

إلا أن النقطة الرئيسة في هذه الآية:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

والله لو وقفت عند هذه الكلمة:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

أي أن الله سمح بها، العليم سمح.. الرب الحكيم سمح.. العادل سمح، معنى ذلك أن المصيبة فيها عدل ورحمة وحكمة، هكذا المعنى، إذا قلت: فلان الطبيب وصف الدواء، معنى ذلك أنه دواء مناسب جداً، إذا قلت: أستاذ الرياضيات في الجامعة قال كذا، يعني أن كلامه صحيح، فحينما يقول الله عز وجل:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

أي أن أسماء الله الحسنى كلها في هذه المصيبة، وربنا عز وجل ذكر في القرآن الكريم قصة أصحاب السفينة التي خرقت سفينتهم، شيء مؤلم جداً، سفينة جديدة تخرق، فلما علم بعد حين أنها نجت من المصادرة انقلبت من مصيبة إلى عمل طيب.

وأصحاب الجنة الذين أقسموا ألا يعطوا الفقير، فلما طاف على جنتهم طائف أذهب محصولهم، تألموا ألماً شديداً، فلما كانت هذه المصيبة سبب هدايتهم عندئذ سعدوا أعظم السعادة، ربنا عز وجل علّق على هذه القصة في سورة القلم قال:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[سورة القلم: 33]

أي يا عبادي، كل أنواع العذاب الذي أسوقه لعبادي في الدنيا من هذا النوع، اجعل هذه القصة مثلاً وقس عليها كل قصة:

كن عن همومك معرضاً   و كِلِ الأمور إلى القضا

و أبشر بخير عاجـل   تنسى به ما قد مضـى

ولرُبّ أمر مسخط لـك   في عواقبه رضــا

ولربما ضاق المضـيق   ولربما اتسع الفضــا

الله يفعل ما يشــاء   فلا تكن معترضــا

الله عودك الجمـــيل   فقس على ما قد مـضى

****

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ)

المصائب هي النعم الباطنة :

الآن:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ)

أي أن الذي ساق المصيبة هو إله رحيم، ورب كريم، وأحكم الحاكمين، وهو إله عادل، يربينا، عنده خزائن كل شيء، يفقر الإنسان، لا لأن الله لا يستطيع أن يطعمه، لكن ليؤدبه:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

إلى حكمة هذه المصيبة، وإذا ظهرت الحكمة انقلبت المصيبة إلى رحمة.. انقلبت إلى نعمة، قال تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

المصائب هي النعم الباطنة، إذا انكشفت لك حكمة المصيبة انقلبت إلى رحمة، أو إلى نعمة.

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

المصيبة إن كانت تأديباً يترك الإنسان الذنب وإن كانت ترقية يصبر :

هناك معنى ثانٍ، وهو ثمين جداً، أن من يستقيم على أمر الله لماذا المصيبة؟ قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

أي إن أردت ألا تكون مصيبة فآمن بالله، واستقم على أمره، واهتدِ إلى رضوانه، إذا آمنت أن الله رب العالمين، وهو أرحم الراحمين، وهو أحكم الحاكمين، هداك إلى حكمتها، فإذا هداك إلى حكمتها انقلبت هذه المصيبة إلى رحمة، نعمة باطنة، أما لو أن هذه المصيبة مصيبة ردع فتبت، واستقمت على الأمر، وانتهى كل شيء، فإما أن يكشف لك أنها ترقى بك، أو أنها تأديب لك، إن كانت تأديباً تركت الذنب، وإن كانت ترقية صبرت.

المعنى الثاني:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

إلى طاعته، وإلى الفوز برضوانه، وإلى العمل بشرعه، عندئذ لا يستحق المصيبة، ولا يحتاجها إطلاقاً:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

المؤمن يفهم المصيبة أنها نعمة باطنة وتأديب وابتلاء :

أيها الأخوة، مرة ثالثة، ورابعة، وخامسة: فلسفة المصائب جزء من عقيدة المسلم، الكافر كالناقة عقَلها أهلُها، لا تدري لم عُقِلتْ؟ ولا لم أُطلقت؟ الآن أكثر الناس يفسرون المصائب بأن الدهر يوم لك ويوم عليك، فلان ليس له حظ.. فلان القدر له بالمرصاد، كلام ليس له معنى.. كلام فيه كفر.. كلام فيه نقض لرحمة الله، أما المؤمن فيفهم المصيبة على النحو الذي أراد الله عز وجل.. يفهمها نعمة باطنةً.. يفهمها تأديباً.. يفهمها ابتلاءً.. يفهمها ترقيةً.. يفهمها محبةً.

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التغابن 064 - الدرس (5-6): تفسير الآيات 12-14

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-11-29

بسم الله الرحمن الرحيم

طاعة رسول الله عين طاعة الله وطاعة الله عين طاعة رسول الله :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس وربما الأخير، ومع الآية الثانية عشرة، يقول الله عز وجل:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

الحقيقة أن هذه الآية تعد أصلاً في وجوب طاعة رسول الله مع طاعة الله، لأن الله عز وجل أنزل القرآن على النبي عليه الصلاة والسلام، وأمره أن يبّين، ويفصّل، قال تعالى:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

فمن استنكف عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو يستنكف عن طاعة الله، ويقول الله عز وجل:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

[سورة النساء: 80]

طاعة رسول الله عين طاعة الله، وطاعة الله عين طاعة رسول الله، وإرضاء رسول الله عين إرضاء الله، وإرضاء الله عين إرضاء رسول الله:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

[سورة التوبة: 62]

بضمير المفرد الغائب:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

[سورة ا النساء: 65]

(فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة ا النور: 63]

إذاً الله جل جلاله أمرنا أن نطيع رسوله، وطاعة رسول الله طاعة لله عز وجل.

النبي الكريم عصمه الله عز وجل من أن يخطئ في أقواله وأفعاله وإقراره :

وفي آية أخرى:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)

[سورة ا النساء: 59]

أولي الأمر هم العلماء والأمراء، فإن تنازعتم في شيء مع علمائكم وأمرائكم فردوه إلى الله في كتابه، وإلى الرسول في سنته، قال عليه الصلاة والسلام:

((تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ))

[الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

((وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ...))

[أحمد عَن العِرْبَاض بْن سَارِيَةَ]

النبي صلى الله عليه وسلم عصمه الله عز وجل من أن يخطئ في أقواله، وأفعاله، وإقراره، وأحواله، وأمرنا أن نطيعه، ولولا أنه معصوم لكان في أمر الله لطاعته أمراً بمعصية، لكن الله عز وجل عصمه، وأمرنا أن نطيعه، لأنه معصوم ولأنه يوحى إليه.

أي دعوة إلى نبذ السنة هي دعوة إلى نبذ الدين :

إذاً.. هناك دعوة للاكتفاء بالقرآن الكريم، و نبذ السنة، وعدّ السنة فهماً مرحلياً فهمه النبي صلى الله عليه وسلم، وانتهت هذه المرحلة، ينبغي أن نفهم القرآن فهماً آخر، هذه دعوة مغرضة، لأنهم لم يستطيعوا مواجهة الإسلام مواجهة صريحة، فسلكوا طرائق ملتوية لتفجير الإسلام من داخله، فأي دعوة إلى نبذ السنة هي دعوة إلى نبذ الدين، لأن الله عز وجل يقول:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

يجب أن تطيع الله في قرآنه، وأن تطيع النبي في سنته، السنة مبينة ومفصلة، تقيد المطلق، وتخصص العام، توضح المجمل وتفصّله، فالسنة مصدرٌ ثانٍ للشريعة الإسلامية، وعلماء الأصول قالوا: "هناك وحي متلو هو القرآن الكريم، ووحي غير متلو هو السنة المطهرة"، بل إن الله جلّ جلاله أراد أن يثبت محبته بطاعة رسوله قال:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

[سورة آل عمران: 31]

إذاً الدعوة التي تقوم على الاكتفاء بالقرآن الكريم هذه دعوة باطلة مخالفة لنص القرآن الكريم، لأن الله يأمرنا أن نأخذ ما أمرنا الرسول، وأن نترك ما نهانا فقال:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

بعضهم فهم هذه الآية على أن ما أتاكم من غنائم فخذوها، كلمة نهاكم تشعر أن الإيتاء هو الأمر، وليس الغنيمة، أمركم ونهاكم، أتاكم وأمركم:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

بل إن الذين يخالفون عن أمره توعدهم الله عز وجل بعذاب في الآخرة، بل إن طاعة رسول الله هي عين طاعة الله.

النبي حجم مهمته كقدوة أكبر بكثير من حجم مهمته كمبلّغ :

النبي عليه الصلاة والسلام فضلاً عن أنه مبلغ هو قدوة، بل إن حجم مهمته كقدوة أكبر بكثير من حجم مهمته كمبلغ، لأن الإنسان لا يقبل منهجاً إلا بمَثَلٍ مطبق لهذا المنهج .

أنت يمكن أن تذهب إلى طبيب، وتعتقد اعتقاداً جازماً أن هذا الطبيب ليس مستقيماً على أمر الله، بل إنه متفلت منه، لكن اختصاصه من أعلى مستوى، أنت تسلّمه نفسك، ولا تلقي بالاً إلى فسقه أو فجوره، هذا يمكن أن يكون في الطب، أو الهندسة، إلا في الدين، لا يمكن أن تقبل عالماً غير مطبق لما يقول، حينما لا يطبق ما يقول تسقط قيمة علمه، وتسقط أسوته، فالنبي عليه الصلاة والسلام حجة على الناس جميعاً، لأنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر، انتصر على نفسه، وكان سيد البشر:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أوامر النبي ونواهيه ليست من خبراته و لا من تجاربه إنما هي وحي يوحى :

أيها الأخوة، حينما تعتقد أن النبي إنسان عبقري، وإنسان ذكي جداً، وإنسان استوعب ثقافة عصره، واستطاع أن يجمع العرب، وأن يوجههم لهدف واحد فأنت بهذا لا تدري أنك تتابع المستشرقين الذين ينفون عن النبي نبوته ووحيه، أوامره ونواهيه ليست من خبراته، وليست من ذكائه، وليست حصيلة تجاربه، إنما هي وحي يوحى.

قضية دقيقة، أعداء الإسلام ينفذون إلى الإسلام من باب أن النبي عبقري، وأنه أكبر مصلح اجتماعي استوعب معطيات العصر، وجمع الناس، واستمال قلوبهم، ووجههم إلى هدف واحد، هذا كلام مرفوض، النبي عليه الصلاة والسلام نبي مرسل، ويوحى إليه، وما نطق كلمة من ثقافته، ولا من معطياته، ولا من خبرته، فالذي قاله النبي حق لا محالة فيه، حتى في شؤون الدنيا، وكلما تقدم العلم التقى مع أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، فلذلك ليحذر أحدنا أن ينساق وراء من يمجدون النبي، ويضفون عليه العبقرية والقوة في شخصيته، هؤلاء لا يريدون أنه نبي، هو نبي مرسل، يبلغ الناس ما أوحي إليه، يعطي ما يأخذه من ربه، كلامه تشريع.. أعماله تشريع.. إقراره تشريع.. أحواله تشريع.. صفاته تشريع، عصمه الله من أن يخطئ في أقواله وأفعاله، وإقراره وصفاته، أمرنا أن نأخذ عنه كل أوامره، وأن ننتهي عمّا نهانا، جعله الله لنا قدوة وأسوة، فقال:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)

[سورة الأحزاب: 21]

فالنبي عليه الصلاة والسلام له مهمتان: مهمة التبليغ، ومهمة القدوة والأسوة، بل إن قوة تأثيره صلى الله عليه وسلم في المؤمنين لا لأنه بلغهم بل لأنه كان أسوة لهم، ما قال شيئاً إلا طبقه.

النبي الكريم انتزع إعجاب أصحابه من خلال تطبيقه لما يأمرهم به :

النبي عليه الصلاة والسلام انتزع إعجاب أصحابه من خلال تطبيقه لما يأمرهم به، كان إذا أمرهم بأمر كان أولّ من ائتمر به، وإذا نهاهم عن أمر كان أولّ من ينتهي، كان قدوة كاملة.

مرة جاءه صحابي جليل مهاجر، استطاع هذا الصحابي أن يَعِدَ الذين اعترضوا على هجرته ألاّ يقاتلهم، وانضم هذا الصحابي إلى النبي، وعاش في المدينة، وبعد حين كانت غزوة بين المسلمين والكفار، فإذا بهذا الصحابي الجليل يندفع ليغزو مع رسول الله، يقول له النبي عليه الصلاة والسلام:

ارجع، ألم تعاهدهم؟

الشيء الذي يلفت النظر، والشيء الذي ينتزع الإعجاب أن أصحابه الكرام رأوا كل فضائله رأيّ العين، رأوا تواضعه، وورعه، وجهده، ورحمته، تعلقوا به لا لأن أقواله مقنعة فحسب، بل لأنهم رأوا قرآناً يمشي، السيدة عائشة رضي الله عنها سئلت عن خلق النبي عليه الصلاة والسلام قالت:

((كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ))

[مسلم عن عائشة]

بعضهم قال: القرآن كون ناطق، والكون قرآن صامت، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي.

كان مع أصحابه، وأرادوا أن يعالجوا شاة، قال بعضهم: عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليّ سلخها، وقال

الثالث: عليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: عليّ جمع الحطب، واختار أصعب مهمة، قيل له: يا رسول الله نكفيك هذه المهمة؟ فقال: أعلم أنكم تكفونني ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً عن خَلْقه .

((دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ، قَالَ: فَجَلَسْتُ، فَإِذَا عَلَيْهِ إِزَارٌ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، وَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَقَرَظٍ فِي نَاحِيَةٍ فِي الْغُرْفَةِ، وَإِذَا إِهَابٌ مُعَلَّقٌ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَالِي لَا أَبْكِي، وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَلِكَ كِسْرَى وَقَيْصَرُ فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ؟ قَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمْ الدُّنْيَا؟ قُلْتُ: بَلَى))

[ابن ماجه عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ]

كان يأكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد.

النبي عليه الصلاة والسلام أسوة لنا ذاق طعم :

1 ـ القهر :

كان عليه الصلاة والسلام قدوة وأسوة، ذاق القهر في الطائف فقال:

((إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى لكن عافيتك لي أوسع))

[الجامع الصغير عن عبد الله بن جعفر بسند ضعيف]

2 ـ النصر :

وذاق النصر في مكة، فحنى رأسه تواضعاً لله عز وجل، حتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله، وشكراً على نعمة الفتح.

ذاق ألم الجوع، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[الترمذي وابن ماجه عَنْ أنَسٍ]

3 ـ الجوع :

ذاق طعم الجوع، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ:

((يَا عَائِشَةُ هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ...))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

4 ـ الغنى :

وذاق الغنى، فقيل له: لمن هذا الوادي؟.. واد من غنم.. قال: هو لك، قال: أتهزأ بي؟ قال: لا والله، إنما هو لك، قال: أشهد أنك رسول الله، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر .

5 ـ موت الولد :

ذاق موت الولد، وموت الولد صعب جداً ذرفت عيناه قيل له: أتبكي يا رسول الله؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[البخاري عن أنس]

6 ـ الانتزاع من بلده :

ذاق الانتزاع من بلده، والإنسان قوي في بلده، في بيته، في عمله، انتزع من وسط مكة، فقال: "اللهم إني خرجت من أحبّ البلاد إليّ فأسكني أحبّ البلاد إليك".

دخل إلى المدينة غريباً، سكنها، وأحبّ الأنصار وأحبّوه، ذاق الهجرة، ذاق موت الولد، ذاق أن يقال عن زوجته السيدة عائشة ما قيل في حديث الإفك، ومع ذلك كان صابراً، وانتظر الوحي أربعين يوماً حتى نزلت براءة السيدة عائشة، وفي هذه الأيام كيف كان حاله؟ ماذا يقول والناس كلهم يتحدثون عن زوجته أنها قد زلت قدمها ويعرفها طاهرة عفيفة؟ هذه محنة ذاقها النبي عليه الصلاة والسلام، ذاق محنة تزويج البنات، زوج ابنته زينب لأبي العاصي، رآه أسيراً مع الأسرى، جاء ليقاتله، وهو صهره، فأثنى عليه أنه صهر ممتاز، وقال: والله ما ذممناه صهراً.

لأنه ذاق كل شيء جعله الله أسوة لنا، لو أنه ذاق الغنى، ولم يذق الفقر، وأمَرَ الفقراء بالصبر لما صدقه الفقراء، ولكن جاع مثلهم، وتمنى المال مثلهم، هذا هو النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

ثقة النبي الكريم بالله عز وجل :

سار النبي صلى الله عليه وسلم في مضائق صعبة جداً، حينما ائتمروا على قتله في مكة، حينما أخرجوه من مكة، حينما أهدر دمه، حينما وضعوا مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، محنة الهجرة محنة عصيبة، إنسان مهدور دمه، وملاحق، أي إنسان ألقى القبض عليه نال مئة ناقة، تبعه سراقة، وغاصت قدما الخيل في الرمال مرة أو مرتين أو ثلاثاً، حتى شعر أن هذا الإنسان ممنوع منه، فقال الرسول: كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى؟ ما هذه الثقة بالله عز وجل؟ يا رسول الله، أنت ملاحق ومهدور الدم تَعِدُ سراقة بأن يلبس سواري كسرى؟! ما هذه الثقة بنصر الله لك؟! معنى ذلك أنه سيصل إلى المدينة سالماً، وسيؤسس دولة عظمى، وستحارب الفرس والروم، وسيأتي قواده من بعده بتاج كسرى، وسيلبس سراقة سواري كسرى، في عهد عمر جاءت الغنائم، فإذا فيها تاج كسرى وقميصه وسواريه، قال سيدنا عمر: أين سراقة؟ استدعى سراقة، وألبسه سواري كسرى، وقال: بخ بَخ، أعرابي من بني مدلج يلبس سواري كسرى، تحققت النبوة .

التقى بعَدِيّ فقال: لعله يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم؟ - الصحابة كانوا فقراء جداً - فو الذي نفس محمد بيده ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، سيدنا سعد فيما أذكر، أو سيدنا معاذ أرسله عمر رضي الله عنهم إلى اليمن، فبعث إليه بنصف الزكاة، وقال: والله ما وجدت أحداً في الأعوام القادمة بعث إليّ الزكاة؟ قال: والله ما وجدت أحداً يأخذها مني. ولعل إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها لا تخاف .

ولعل إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم، كما هي الحال الآن، فو الذي نفس محمد بيده ليوشك أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم.

دليل محبتنا لله هو طاعتنا لرسوله :

أيها الأخوة، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، لأن خلاصنا بطاعة رسولنا، وبالصلح مع ربنا، خلاصنا بالسير على منهج الله ومنهج رسوله، بل يجب أن نعلم علم اليقين أن دليل محبتنا لله هو طاعتنا لرسوله:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة آل عمران: 31]

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ)

الإنسان مخير، بإمكانه أن يطيع الله ورسوله وبإمكانه أن يعصيهما، هو مخير.

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

الله عز وجل قال له:

(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

[سورة الغاشية: 22]

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة البقرة: 272]

الإنسان مخير :

الإنسان مخير، الذي يشاء الهدى يهتدي، والذي يشاء الضلالة يضل، فلست مسؤولاً عن هدايتهم، وإنما عليك أن تبلغ فقط، وانتهت مهمتك، لكنهم مخيرون، إما أن يستجيبوا، وإما ألا يستجيبوا، والآية الكريمة تقول:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

أليس في هذه الآية تكريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ إنهم إذا استجابوا لك استجابوا لله، إن طاعتهم لك طاعة لي.

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

الإنسان مبلّغ، وأقيمت عليه الحجة بهذا الإبلاغ، بقي أن يستجيب.

مراحل السير إلى الله عز وجل :

ذكرت لكم في دروس سابقة أن الإنسان يمر بثلاث مراحل في سيره إلى الله، الإنسان يدعى إلى الله دعوة بيانية بالكلام، يسمع خطبة أو درساً أو شريطًا، أو يقرأ كتاباً، هذه دعوة بيانية، ينبغي أن يستجيب لله وللرسول، فإن لم يستجب يدخل في مرحلة أخرى، مرحلة التأديب التربوي، تساق إليه الشدائد من أجل أن يصطلح مع الله.. من أجل أن يساق إلى باب الله.. من أجل أن يصحو من غفلته.. من أجل أن يردع نفسه عن سهوته، الأولى إذا دخل في مرحلة التأديب التربوي أن يتوب إلى الله، فإن لم يتب دخل في المرحلة الثالثة قبل الأخيرة، المرحلة الثالثة يكرم إكراماً استدراجياً:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام: 44]

الأولى مع هذا التأديب الاستدراجي أن يتوب ويشكر، الأولى مع الدعوة البيانية أن يستجيب ويؤمن، ومع التأديب التربوي أن يتوب ويؤمن، ومع الإكرام الاستدراجي أن يشكر ويؤمن، فإن لم يؤمن لا بالدعوة البيانية ولا بالتأديب التربوي ولا بالإكرام الاستدراجي فلا بدّ من القصم، عندئذ يقصمه الله عز وجل، وينتهي الأمر:

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

من دعي إلى الخير و استجاب لله فهو الرابح الأول :

إذا دعي الإنسان إلى الخير، وتولى مَن يضر؟ يضر نفسه، إذا صنعت الأم طعاماً نفيساً جداً ودعت أولادها ليأكلوا من هذا الطعام، وأحد أولادها ركب رأسه فاستنكف عن تناول الطعام أضرّ من؟ أضرّ نفسه:

(فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

[سورة يونس: 108]

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

[سورة محمد: 38]

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)

[سورة الحجرات: 17]

إذا أصغيت إلى الحق وإن استجبت له فأنت الرابح الأول، لا تمنّ على الله هذا الإسلام، بل الله يمنّ عليك أن أسمعك الحق:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال: 23]

هذه بشارة لنا جميعاً.

من أسمعه الله الحق فهو من المهتدين و المقربين :

إذا استمعنا إلى الحق فلعل الله علم فينا خيراً، هناك مئات الملايين يعبدون البقر، هناك من يعبد الجرذان، هناك من يعبد موج البحر، هناك من يعبد النار، هناك من يعبد الشمس، هناك من يعبد آلهة من بني البشر، يعبدونهم من دون الله، إذا أسمعك الله الحق، وأذن لك أن تعبده فأنت من المهتدين، وأنت من المقربين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: 38]

لأنه يحبكم، ولأنه يربيكم، ولأنه رحيم بكم، ولأنه حريص على سعادتكم:

(إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا)

[سورة التوبة: 39]

الله مع الإنسان في كل مكان يعلم ما يفعل :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

الله لا إله إلا هو، أينما ذهبتم لو أطعتم غير الله كان مصيركم إليه، وأمركم بيده، ورزقكم بيده، وحياتكم بيده، وشؤون حياتكم كلها بيده، لا مسيّر، ولا خافض ولا رافع، ولا معطي ولا مانع، ولا معين إلا الله، إذا تولى إنسان عن الله إلى أين سيذهب؟ الله معك في كل مكان يعلم ما تفعل.

الإنسان أحياناً يترك بلداً، ويذهب إلى بلد آخر، القائمون في البلد الذي تركه لا سلطان لهم على البلد الثاني، لذلك يسمونه لاجئًا، يحتمي بالبلد الثاني، أما أنت فمع الله، هل تستطيع أن تفر من ملكه؟ لا ملجأ منه إلا إليه.

سأل رجل أحد العارفين بالله، قال: أريد أن أعصي الله، قال: اعصه إذا توافرت خمس خصال، قال: ما هي؟ قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تسكن أرضه، قال: وأين أسكن إذاً؟ قال: تسكن أرضه وتعصيه؟! قال: هات الثانية، قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تأكل من رزقه، قال: آكل ماذا؟ قال: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه؟! قال له هات الثالثة، قال: إذا أردت أن تعصيه فاعصه في مكان لا يراك فيه، قال: هو معي أينما ذهبت، قال: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه، وهو يراك؟! عجبت لك، قال: هات الرابعة، قال: إذا أردت أن تعصيه وجاء ملك الموت فلا تذهب معه، قال: لا أستطيع، قال: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه، وهو يراك، ولا تستطيع أن تعارض ملك الموت إذا جاء ليأخذك؟! قال: هات الخامسة، قال: إذا جاءك الزبانية ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم، قال: لا أستطيع، قال: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه، وهو يراك، ولن تستطيع أن تمتنع لا عن ملك الموت ولا عن زبانية جهنم، وتبقى تعصيه؟! فقال الرجل: كفيت.

ليس هناك جهة تنتقل من مكان إلى مكان من دون أن يراك، أنت في قبضته، لو أنك توليت عنه فرزقك وصحتك وقلبك وكل شيء في يده، هل تملك أن هذه الخلايا لا تورم ورمًا خبيثًا؟ من منّا يملك ذلك .

من ازداد توحيداً ازداد إيماناً وثقة بالله عز وجل :

الله لا إله إلا هو، هذا هو التوحيد، الدين كله توحيد، ألاّ ترى مع الله أحداً، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، حياتك، ورزقك، وأهلك، وتوفيقك، وإخفاقك بيده، وكلما ازددت توحيداً ازددت إيماناً وثقة بالله عز وجل.

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ)

إلى أين أنتم ذاهبون؟ أنتم في قبضة الله، هل تستطيعون أن تتفلتوا من قبضته؟ هل تستطيعون أن تتلافوا قضاءه وقدره؟ هل تستطيعون أن تنجوا من عقابه؟

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

ومادام الله هو كل شيء، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، هو السميع البصير، العزيز المتين، إذًا:

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

ما من عبد يعتصم بي من دون عبادي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السموات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه، شتان بين من يعتصم بالله، ومن يعتصم بأحد من خَلقه.. وشتان بين من يجعل كل همّه إرضاء الله عز وجل و بين من يجعل كل همّه إرضاء فلان أو علان، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

أنواع الخوف :

مرّ بنا اليوم في الخطبة أن هناك خوفان: خوف إيجابي وخوف سلبي، الخوف الإيجابي أن تخاف من الله، فإذا خفت من الله وحده أمّنك، تخاف لتأمن، والخوف السلبي أن تخاف من غير الله، فإذا خفت من غير الله اضطربت، وانقلبت حياتك إلى شقاء.

الله لا إله إلا هو، بيده كل شيء، فالأولى لكم:

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

لكن غير المؤمن لا يستطيع أن يتوكل على الله، أما المؤمن فبإيمانه واستقامته وطلب رضوان الله عز وجل بإمكانه أن يتوكل على الله، يا أبا الدرداء احترق محلك؟ قال: ما كان الله ليفعل، قالوا: احترق

محلك، قال: اذهبوا وتأكدوا لم يحترق محلي، فلما ذهبوا إلى محله وجدوا دكان جاره قد احترقت، فلما عادوا إليه قال: أعلم ذلك.

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

من كان مع الله كان الله معه :

الحسن البصري، وقد ذكرت ذلك في الخطبة اليوم أدى أمانة العلم، فأغضب الحجاج، فأمر بقتله، فجيء بالسياف، ومدّ النطع - رداء ليحفظ المكان من دماء المقتول - واستدعي الحسن البصري ليقتل، فلما دخل عرف ماذا ينتظره، فحرك شفتيه بكلمات لم يفهمها أحد، فما كان من الحجاج إلا أن وقف له، واستقبله، وقربه من سريره، وأجلسه على سريره، وقال: يا أبا سعيد، أنت سيد العلماء، وعطره، واستفتاه، وأكرمه، وودعه، أما الرجلان اللذان لم يفهما ما حصل فهما السياف الذي استدعي ليقتله، والحاجب، تبعه الحاجب فقال: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لغير ما فعل بك، فماذا قلت قبل أن تدخل؟ قال: قلت يا مؤنسي في وحشتي.. يا ملاذي عند كربتي، اجعل نقمته عليّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

أنت بيد الله عز وجل، والحجاج بيد الله، وكل شيء بيد الله، فإذا كنت مع الله فمن عليك؟ وإذا لم تكن مع الله فمن معك ؟

عموم القصد في الآية التالية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

طبعاً (مِن) للتبعيض أي إن بعض أزواجكم، وإن بعض أولادكم عدوٌّ لكم، قال بعض العلماء: ليست عداوة حال، وإنما عداوة مآل.

فرضاً أنت لك شريك أشار عليك أن تتاجر ببضاعة ممنوعة قانونياً، وأغراك بربح وفير، ومنّاك الأماني العريضة، فصدقته، وأحببته، وسمعت نصيحته، فلما وقعت في قبضة العدالة رأيته عدواً لك، متى رأيته عدواً لك؟ بعد أن وقعت في قبضة العدالة.

فالإنسان يحب زوجته، ويحب أولاده، ولكن حينما تقول البنت يوم القيامة: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، لأنه ما علمني، وما حفظني، وما عرفني بك، أطلق لي العنان، خرجت كما أريد، زلت قدمي فلم يحاسبني، لم يعترض على خروجي، ولا على طريقة خروجي، ولا على ثيابي، ولا على صلاتي، ولا على ديني، طبعاً هو في الدنيا عليه ضغط من زوجته ليغير هذا البيت، ويطليه، إلى آخره،

وليس معه دخل، فاضطر إلى كسب المال الحرام ليرضي زوجته، يوم القيامة حينما يرى أنه في قبضة الله، وسيواجه عذاب النار يرى أن أعدى أعدائه زوجته التي استجاب لها، وعصى الله من أجلها، لذلك كانت الصحابية الجليلة تقول: يا فلان، اتق الله بنا، نحن بك، إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا، نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام.

المرأة المسلمة لا تحمل زوجها فوق ما يطيق، لا تكلفه ما لا يطيق، المرأة من شأنها أنها تحب المظاهر، فإذا دفعت زوجها لكسب مال حرام كانت عدوة له:

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عدُوًّا لَكُمْ)

هذا عموم القصد في الآية.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق :

أما خصوص السبب فكان بعض المؤمنين في مكة المكرمة أرادوا أن يهاجروا مع رسول الله، لكن أزواجهم وأولادهم حالوا بينهم وبين الهجرة، أين ستتركنا؟ عندك هنا بيت وتجارة، فهؤلاء الأزواج والأولاد حملوا أزواجهم على ترك الهجرة مع رسول الله، فخسروا خسارة كبيرة جداً، فهؤلاء يوم القيامة تتضح عداوتهم، إنما هي عداوة مآل، وليست عداوة حال، فكل زوج يطيع زوجته ويعصي الله.. يرضي زوجته بسخط الله.. يعطيها رغباتها على حساب طاعته لله.. أو يرضي أولاده على حساب طاعته لله فسيرى زوجته وأولاده أعداء ألداء له يوم القيامة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

قالت له: يا فلان أعطني.. افعل كذا، افعل كما يفعل فلان، قال: يا أمَة، إن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك، هكذا وقف أحد الصحابة.

صحابي آخر قالت له أمه: إما أن تكفر بمحمد، وإما أن أدع الطعام حتى أموت، قال يا أمي: لو أن لك مئة نفس فخرجت واحدة وَاحدة ما كفرت بمحمد، فكلي إن شئت أو لا تأكلي.

الحق ليس فيه مساومة، الحق ليس فيه رضا وغضب، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

[سورة لقمان: 15]

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف:28]

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

أحيانا الإنسان يجد معارضة من بيته، من زوجته، من أولاده، من أقرب الناس إليه، المؤمن الصادق لا يعبأ:

(قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

[سورة الأنعام: 91]

حياة المؤمن مبادئ وقيم ومُثل عليه أن يحافظ عليها :

الله ربي.. الله قصدي، لا إله سواه، المؤمن عنده مواقف قوية.. عنده مواقف مبدئية.. عنده قضايا لا تقبل المساومة، ماذا يريد فتًى من فتيان قريش؟ لو أردت ملكاً لملكناك علينا، لو أردت الجمال لزوجناك أجمل نسائنا، لو أردت المال لجعلناك أغنانا، قال:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية لابن هشام]

يوجد في حياة المؤمن مبادئ وقيم ومُثل، والأهم منهج، يناور بما هو مباح، يتساهل بما هو مقبول ومشروع، ولكن عنده خطوط حمر لا يتجاوزها.

المؤمن كيّس فطن حذر :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

دقة الآية بكلمة (من)، ليس كل الزوجات أعداء لأزواجهم، (إن من) أي بعض الزوجات المتعلقات بالدنيا.. الراغبات في المظاهر، هؤلاء يدفعن أزواجهن إلى أن يعطيهن شيئاً من الدنيا تفوق طاقته، يحملنه على معصية الله، يدفعنه إلى أكل المال الحرام.

أنا أعرف رجلا شابًّا في مقتبل الحياة يعمل في محل جملة، فاكتشف صاحب المحل نقصاً في الغلة والبضاعة، أرسل له في غيبته من يشتري منه حاجة، وسأل هذا الموظف حينما قدِم هل جاء أحد؟ فقال: لا، أمر هذا الذي اشترى الحاجة أن يرجعها بوجوده، فلما أرجعها كشفت خيانته، ففصله من عمله، فصار يتوسل إليه أن يبقيه في عمله، واعتذر بأن زوجته طلباتها كثيرة لا يقوى على تلبيتها، فسلك هذا السلوك.. خسر سمعته وعمله لأنه استجاب لزوجته.

الله جل جلاله ما كلف المؤمن ما لا يطيق، أمرك النبي عليه الصلاة والسلام أن تطعم أهلك مما تأكل، وأن تلبسهم مما تلبس فقط، ما كلفك ما لا تطيق، لذلك الطلبات التي لا تستطيعها، والتي لا تتحقق إلا بالدخل الحرام اركلها بقدمك، ولا تعبأ، واللهُ في عون العبد إذا كان مع الله عز وجل.

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

المؤمن كيّس فطن حذر، قال تعالى:

(وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا)

أي طلبتْ شيئًا لا تقوى على تأمينه، لا ينبغي أن تحقد عليها، هي أرادت أن تسرك في الدنيا، لكن هذا لا يتيسر إلا بدخل حرام، فلا تعبأ بطلبها.

على الإنسان أن يكون صريحاً حتى لا يتحمل من الأعباء ما لا يطيق :

الحقيقة أن الآية لها خصوص سبب وعموم قصد، خصوص السبب بعض نساء المؤمنين في مكة منعن أزواجهن من الهجرة مع رسول الله، وفوّتن عليهم خيراً كثيراً، فلما علم أزواجهن ما ناله أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الذين هاجروا معه تألموا ألماً شديداً، وحقدوا على أهليهم وأولادهم، فقال الله عز وجل:

(وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أنت مادمتَ لم تنفذ فلا تعبأ بهذه الأقوال، طبعاً هذه المشكلة يعاني منها أكثر المسلمين، المرأة تظن الرجل على كل شيء قدير، هو لا يملك شيئاً، قد يدبر مصروفه بصعوبة بالغة جداً، تظن أن معه الشيء الكثير، والإنسان إذا صارح أهله بإمكاناته أولى من أن يخفي عليهم حجمه المالي، تظن أن معه المال الوفير، وهو ليس معه، فالأولى أن يكون صريحاً حتى لا يتحمل من الأعباء ما لا يطيق.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

من يمنعك من العمل الصالح لا ينفعك يوم القيامة :

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)

[سورة الكهف: 46]

الباقيات الصالحات الأعمال الصالحة، النبي عليه الصلاة والسلام جاءته شاة فوزع معظمها، ولم يبقَ إلا كتفها:

((أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

كتفها الذي سنأكله هو الذي لم يبقَ، فلذلك الإنسان يجب أن يعمل صالحاً، ولا يلتفت إلى أحد، ولا يستأذن أحداً، ولا يطلب رضاء أحد، لأن الذي يمنعك من العمل الصالح لا ينفعك يوم القيامة.

شاب عليه زكاة مال محدد، فزوجته عملت على إقناعه بعدم دفع الزكاة، وأن تنفق على إصلاح البيت، بعد ضغط شديد استجاب لها، ولم يدفع زكاة ماله، وأنفق هذا المال على طلاء البيت، ثم فوجئ أن سيارته ضربت، الشيء اللطيف أنّ إصلاحها كلف تماماً ما يساوي الزكاة التي لم يدفعها، حق الله أحق أن يؤدى، افعل الخير ولا تعبأ بأحد.

كل شيء تنفقه في سبيل الله يخلفه الله عز وجل :

ثماني آيات في كتاب الله عز وجل تؤكد أن كل شيء تنفقه في سبيل الله يخلفه الله عز وجل، وأن كل شيء تنفقه يعلمه الله، أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، عبدي أنفق أُنفق عليك.

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)

الإنسان يمتحن بالمال، قد يقول قائل: والله لو أن الله أغناني لأنفقنّ على الفقراء والمساكين، وسأبني مسجداً، وميتماً، ومستوصفاً، وسوف أدخل الفرحة على قلوب الناس، فإذا اغتنى أراد أن ينفق المال على متاعه، وعلى رفاهته، وعلى مآربه الدنيوية، هذا المال كان فتنة له فرسب.

أما الذي يؤتيه الله مالاً فينجح فهو الفائز، قال لي أحدهم: أنهيت الخدمة الإلزامية، ولا أملك من الدنيا قرشاً واحداً، أخذت من أختي ثمن سوارها، واشتريت بها بطاقة طائرة إلى الخليج- هذه قصة قديمة جداً- قال لي: والله وأنا في الطائرة خطر لي ولم أهمس ببنت شفه أن الله إذا أكرمني سأبني له مسجداً، بعد عشرين عاماً عاد إلى بلده، وبنى مسجداً، وصليت في المسجد، وذكر لي صاحبه هذا قصته مع الله عز وجل.

هناك إنسان يطلب المال من الله، الله يعطيه مالاً، ويحقق هو كل وعوده لله، بعضهم سأل النبي الغنى، وهي رواية ضعيفة فقال: "قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تؤدي شكره، ألح عليه فدعا الله له بالغنى فاغتنى، أرسل له من يأخذ زكاة ماله فقال: قل لصاحبك ليس في الإسلام زكاة، لم تقل: قل لرسول الله،

بل قل لصاحبك، هؤلاء الذين وعدوا الله أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله، ثم أخلفوا ما وعدوا الله عز وجل، فأخلفهم، وأعقبهم في قلوبهم نفاقاً إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه.

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)

امتحان الإنسان بالولد و المال :

أحياناً الإنسان يقول لك: هذا الابن سأخرجه عالماً، يأخذ مجموعاً عاليًا كبيرًا، لا نريد، الطب أحسن، كنت تريده عالماً داعياً إلى الله عز وجل، وبإمكانه أن يدخل المعاهد الشرعية والكليات، أراده طبيباً، ولم يرده عالماً.. أراده لوجاهته، ولم يرده لدعوة الله عز وجل، إذا لم يربِّ الإنسان أولاده أن يكونوا دعاة ماذا يفعل؟ قال تعالى:

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

لو أنك أنفقت مالك في سبيل الله.. لو قدمت مالك أمامك لسرك اللحاق به، أما إذا أنفقته على مباهج الدنيا ثم جاء ملك الموت فوالله إن نزع الروح أمر صعب جداً.

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)

أي تمتحنون بهما، أنت ممتحن بالمال إن أوتيته، وبالمال إن حرمته، ممتحن بالولد إن رُزقته، وبالولد إن حرمته.

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التغابن 064 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 15-18
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-12-06

بسم الله الرحمن الرحيم

الشهوات دوافع حيادية يمكن أن توظف في الخير كما يمكن أن توظف في الشر :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والأخير من سورة التغابن، ومع الآية الخامسة عشرة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

من أجل أن نفهم معنى هذه الآية لا بدّ من مقدمة، هذه المقدمة هي أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان الشهوات، الشهوات سلّم نرقى بها، أو دركات نهوي بها، فهي حيادية، يمكن أن ترقى بك إلى الله، لأنك تشتهي النساء، ولأنك تشتهي المال، ولأنك تشتهي العلو في الأرض، ويمكن أن تكون هذه الشهوات نفسها دركات تهوي بها إلى النار، إنها دوافع حيادية، يمكن أن توظف في الخير كما يمكن أن توظف في الشر .

لذلك خلق الله الإنسان لجنة عرضها السموات والأرض.. خلق الله الإنسان ليسعد إلى أبد الآبدين في جنة يدوم نعيمها، وما هذه الحياة الدنيا إلا إعداد لهذه الجنة.. كيف يكون الإعداد؟ يكون الإعداد بأن الله سبحانه وتعالى أودع فينا الشهوات، ورسم لهذه الشهوات قنوات نظيفة تتحرك خلالها، فإن سلكنا في هذه الشهوات تلك القنوات سعدنا في الدنيا والآخرة، وإن مارسنا هذه الشهوات بعيداً عن تلك القنوات خارج المنهج الإلهي شقينا في الدنيا بهذه الشهوات، وكانت هذه الشهوات سبب في شقائنا الأبدي يوم القيامة.

إذاً أصل الحياة الدنيا أن الله امتحنك بشهوات، وجعل لها قنوات نظيفة، وجعل لك منهجاً تسير عليه، من هنا قال الله عز وجل:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات: 40-41]

البشر عند الله زمرتان لا ثالث لهما :

الشيء الطبيعي أن تشتهي، والشيء الكامل جداً أن تضبط هذه الشهوة، يكاد البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، ينقسمون إلى زمرتين لا ثالث لهما: إنسان عرف الله،

وعرف منهجه، وانضبط بهذا المنهج، وأحسن إلى الخلق، فسعد في الدنيا والآخرة، وإنسان غفل عن ربه، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه فشقي في الدنيا والآخرة، إذاً أصل الحياة الدنيا أنك ممتحن فيها بشهوات.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ *وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

[سورة العنكبوت: 2-3]

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

[سورة الكهف: 7]

طبيعة الحياة الدنيا قائمة على الابتلاء :

الإنسان بماذا يفتن؟ بالذي يحبه، لا أحد يفتن بحاوية، لكنه يفتن بامرأة، لا أحد يفتن بتراب الأرض، ولكن يفتن بمال الأرض، لا أحد يفتن بالعذاب، ولكن يفتن بالرخاء، فيجب أن نعلم علم اليقين أننا في الحياة الدنيا ممتحنون، طبيعة الحياة الدنيا قائمة على الابتلاء، تفتن بالمال، والصحة، والقوة، والأولاد، والزوجة، هل أخذت بيدها إلى الله أم قضيت وطرك منها وتركتها وشأنها تعيث فساداً في الأرض؟ تفتن بالأولاد، هل عرفتهم بربهم؟ هل حملتهم على طاعته؟ هل راقبتهم أم تركتهم فكانوا سبب الشقاء؟ تفتن بالمال، هل كسبته من حلال وأنفقته في حلال؟ وهل أعانك على طاعة الله؟ هل كفيت به نفسك وأهلك وأقرباءك؟ هل تقربت به إلى الله وكان أداة معرفة الله؟ تفتن بالصحة، هل استخدمت هذه الصحة الطيبة في الاسترخاء والاستجمام واللعب أم استخدمتها في طاعة الله ونشر الحق؟ تفتن بالقوة، هل استعملت هذه القوة لإنصاف الضعيف أم للعلو في الأرض وإرهاب الناس أم جعلتها قوة في سبيل الخير؟

أيها الأخوة الكرام، لأن الله سبحانه وتعالى أودع فينا:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران: 14]

لأن هذه الأشياء في الأصل حببت إلى قلوبنا، أودعت فينا، ورثت في كياننا، وهي سبب سعادتنا في الآخرة.

الشهوات حيادية :

تصور مخلوقًا لا يشتهي، ولا يحب، ولا يكره.. لا يأكل، ولا يشرب، ولا يقترب من امرأة، هذا الإنسان كيف يرقى إلى الله؟ لا سبيل له، هذه الطاولة لا تتحرك، ولا تشتكي، ولا تجوع، ولا تتألم، ولا تشتهي أنثاها، فكيف ترقى إلى الله؟

الإنسان أودع فيه الشهوات.. الإنسان ركّب من عقل وشهوة، ركّب الملك من عقل بلا شهوة، وركّب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركّب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته كان فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله كان دون الحيوان.

إذاً لو لا هذه الشهوات لما ارتقينا إلى رب السموات والأرض، هي وقود في المركبة، فما قيمة المركبة بلا وقود؟ لا تتحرك.. لا تؤدي وظيفتها.. لا تنقلك من مكان إلى مكان، لكن هذا الوقود سائل فيه قوة الانفجار، لو أن هذا السائل وضع في خزان محكم، وسال في أنبوب محكم، وانفجر في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب، ولدّ حركة مناسبة نقلتك أنت وأهلك إلى بلد جميل، أو نقلت البضاعة إلى مبتغاها، أمّا إذا خرج هذا الوقود السائل عن مساره، واحترق أحرق أصحابه.

الشهوات حيادية، سلّم أو دركات نسعد بها أو نشقى بها، المرء يمكن أن يتزوج من امرأة صالحة، تسرك إذا نظرت إليها، وتطيعك إن أمرتها، وتحفظك إن غبت عنها، يمكن أن تؤسس أسرة تسعد بها طوال حياتك، ويكون بيتك سكناً ترتاح فيه.. تستعيد نشاطك في اليوم التالي، ويمكن أن تنجب ذرية صالحة تكون لك صدقة جارية إلى يوم القيامة، قال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ، إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

ويمكن أن ينحرف الإنسان، فيقضي وطره بطريق محرم، فيشقى في الدنيا، ويشقى في الآخرة، والذي يشغل العالم اليوم هو هذا المرض الفتاك الذي يفتك بسبعة وثلاثين مليوناً، وفي عام ألفين سوف يفتك بمئة وعشرين مليوناً، وسوف يكون هذا المرض أكبر مصيبة تصيب البشرية الآن، لأنها انحرفت عن جادة الصواب.

أصل الجنة أن تخاف مقام ربك فيما أودعه فيك من شهوات :

أيها الأخوة الكرام، العالم الآن عاد مقهوراً إلى الإسلام، لا تعبداً، ولكن قهراً، وشتان بين من يدع الزنى خوفاً من الله وابتغاء مرضاته وطلباً للجنة، وبين من يدع الزنى خوف مرض الإيدز، فرق كبير جداً بين الاثنين، فلذلك أصل الجنة أن تخاف مقام ربك فيما أودعه فيك من شهوات:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات: 40-41]

الأصل أن هناك دوافع وشهوات تضبطها، لذلك الحديث الصحيح قال عليه الصلاة والسلام:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي عن شداد بن أوس]

فالله سبحانه وتعالى قال:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)

[سورة الكهف:46]

أجمل ما في الدنيا المال والبنون، إذاً نحن ممتحنون بالمال والبنين.

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

الإنسان ممتحن في العطاء و الحرمان :

معنى (فتنة) أنكم تمتحنون بها، والحقيقة أن الإنسان يمتحن في الدنيا، فما هي مواد امتحانه؟ كل الحظوظ التي آتاه الله إياها، أنت ممتحن فيما أعطاك الله، وممتحن فيما حرمك الله، هناك امتحان إيجابي، وامتحان سلبي، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ))

[الترمذي عن عبد الله بن يزيد الخطمي]

أنت ممتحن إن جاءك المال، وممتحن إن حرمت المال، أنت ممتحن إذا كنت متزوجاً، وممتحن إذا كنت عازباً، الزواج له تفاصيل امتحان، والعزوبية لها تفاصيل امتحان، أنت ممتحن إذا رزقت أولاداً، وأنت ممتحن إذا حرمت الأولاد، إن رزقت شيئاً فليكن موظفاً في طاعة الله، وإن حرمت شيئاً فليكن الفراغ الذي سيخلفه من حرمانه موظفاً في طاعة الله.

الإنسان حينما يقلّ ماله ينشأ عنده وقت فراغ كبير، أما حينما يكون المال وفيراً ينشغل بهذا المال، لأن إدارة المال تحتاج إلى شغل كبير، إن فقدت المال فالفراغ الذي يخلفه فقد المال يجب أن يوظف في طاعة الله.

من يستجيب لنداء أهله وأولاده وأمواله ويقعد مع القاعدين يفوته خير كثير :

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(إنما) أداة قصر، بالمال تفتن، وبالأولاد تفتن، هذه الآية لها خصوصية مناسبة، ولها عموم لفظ، عمومية لفظها هي تدور مع الإنسان أينما دار إلى نهاية الدوران، أما خصوصية السبب فإن بعض أصحاب رسول الله هاجر معه، وسعد في هجرته، وبعض الأصحاب حملهم أهلهم على عدم الهجرة، ففاتهم خير كثير من صحبة النبي عليه الصلاة والسلام، هناك صحابي كان يرعى غنيمات له خارج المدينة، وكان حريصاً على غنيماته حرصاً شديداً، وكان يؤثر أن يبقى إلى جانب غنيماته، وأن يسمع من أصحابه إلى أقوال النبي عليه الصلاة والسلام، ثم حدثته نفسه يوماً أن يتابع النبي، وأن يهاجر إليه، فكان هذا الصحابي أعلم الصحابة بالقراءات، وكان فاتحاً لدمشق ومصر، وفاتحاً لبعض الجزر في المتوسط، وقد ترك عطاء لا يقدر بثمن، لو أنه لزم غنيماته أين كان؟ وحينما لزم النبي عليه الصلاة والسلام أين صار؟

أحيانا الأهل يعيقون حركة الإنسان إلى الله، لهم مطالب كثيرة.. لهم رغبات كثيرة، ويثبطون عزيمة الرجل أحياناً، فالذي يستجيب لنداء أهله وأولاده وأمواله، ويقعد مع القاعدين يفوته خير كثير، والذي ينطلق إلى الله ورسوله عندئذ يكافئه الله عز وجل، لأن الذين عارضوه في هذه الانطلاقة سيلقون ثمارها أول ما يلقون، وسوف يشجعونه بعد حين، فمن أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى الله الناس عنه، ومن أسخط الله برضى الناس سخط الله عنه، وأسخط عنه الناس.

دائماً وأبداً هذه المقولة: من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً.

أول ما يسأل عنه المرء يوم القيامة الصلاة ثم يحاسب عن ماله :

(إنما) أداة قصر وحصر، قلت لكم من قبل: ورد في الأثر أن الأغنياء يوم القيامة يجمعون أربع فرق، فريقًا جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام، فيقال: خذوه إلى النار، وفريقًا جمع المال من حلال، وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، وفريقًا جمع المال من حرام، وأنفقه في حلال فيقال: خذوه إلى النار، بقي الذي جمعه من حلال، وأنفقه في حلال، هذا الذي سيحاسب، قال: قفوه، فسألوه: هل تاه بماله

على خلق الله؟ هل قصّر فيمن حوله؟ فقالوا: يا رب أغنيته فقصّر في حقنا؟ يقول عليه الصلاة والسلام: فما زال يسأل ويسأل.

لذلك أول ما يسأل عنه المرء يوم القيامة الصلاة، ثم يحاسب عن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ وَضَعَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟))

[الترمذي عن أبي برزة، والدارمي عن معاذ]

ثلاث فقرات عليها سؤال واحد إلا المال فعليه سؤالان، من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟

الكسب و الرزق :

وفي هذه المناسبة يجب أن نفرق دائماً بين الكسب وبين الرزق، المال الذي لا تنتفع به، ولكن تحاسب عليه هو كسب لا رزق، أما المال الذي تنتفع به، وتستهلكه مباشرة فهو الرزق، الطعام الذي أكلته فقط هو الرزق، والثوب الذي لبسته فقط هو الرزق، والبيت الذي تسكنه فقط هو الرزق، والفراش الذي تنام عليه هو الرزق، ولكن الكسب هو الذي لا تنتفع به، أما إذا أنفقت من الكسب في سبيل الله فهذا أعلى درجات الانتفاع، لذلك عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الشِّخِّيرِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ [صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْرَأُ: أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ]، قَالَ:

((يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ؟ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ؟ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟))

[مسلم عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ]

المال قسمان: قسم لك ما له (ما مصدرية)، وقسم ليس لك ما له (ما نافية)، قسم لك، وقسم ليس لك، فالذي لك صنفان، صنف يزول ويفنى، وصنف يبقى، الذي يبقى هو العمل الصالح والمال الذي تنفقه في سبيل الله، والذي يفنى هو الذي أكلته فأفنيته، ولبسته فأبليته، أما القسم الباقي فهو الذي تصدقت به فأبقيته:

((أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

من آثر مرضاة الله على حظوظ نفسه فله أجر عظيم :

إذا آثر الإنسان مرضاة الله على حظوظ نفسه.. إذا استجاب لله، ولم يستجب للمعوقين، ولم يستجب للمثبطين من أهله.. إذا استجاب لله ولم يستجب للضغوط الداخلية التي تحول بينه وبين التقدم والعمل الصالح قال تعالى:

(وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

لذلك قال بعض أصحاب رسول الله لزوجته التي تريد أن تحمله فوق طاقته: " اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الدنيا لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أفضل من أضحي بهن من أجلك".

لا ينبغي للإنسان أن يستجيب لغير الله لأن الله عز وجل يقول:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

[سورة الكهف: 28]

أي لو تحملت الضغوط، وأنفقت في سبيل الله.. لو تحملت الضغوط، ووجهت الأولاد الوجهة الصحيحة، هناك وجهة غير صحيحة، هناك وجهة يريد الأب أن يرفع رأسه في المجتمع من أجل أولاده، قد لا يعنى بأخلاقهم، ولا بدينهم، ولا باستقامتهم، ولا بآخرتهم، لكن يعنيه أن يقول: ابني فلان كذا.. حجمه المالي كذا.. شهاداته كذا وكذا، آباء كثيرون مسلمون لا يعتنون كثيراً بدين أولادهم، يحرصون على دنيا أبنائهم حرصاً شديداً، بينما لا يحرصون على دين أولادهم الحرص الحقيقي، فلذلك الابن كما جاء في الحديث عَنْ يَعْلَى الْعَامِرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَسْعَيَانِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ، وَقَالَ:

((إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ))

[ابن ماجه عَنْ يَعْلَى العَامِرِيِّ]

من يؤثر طاعة الله على هوى نفسه وعلى مرضاة أهله فله أجر عظيم :

النبي عليه الصلاة والسلام تزوج وله أولاد، لكنه وفق منهج الله، فليس معنى ذلك أن تكون بلا زوجة ولا ولد، المعنى أن تتزوج، وتنجب أولاداً، وأن تبقى وفق منهج الله عز وجل:

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

تفتنون بها، لهذه الكلمة معنيان: الأول: أنها أداة امتحان لكم، فإما أن تنجحوا، وإما أن ترسبوا، إما أن تنجحوا وتنتصروا على أنفسكم، وتنتصروا لدينكم، وإما أن تضعفوا، وتسقطوا، فتنهزموا أمام أنفسكم،

لهذا الذي يرضي زوجته في معصية الله، وهذا الذي يرضي أولاده في معاصي الله، هذا سقط في الامتحان، لأنه آثر سلامته في البيت على إقامة الحق، هذا الذي يثأر ويغضب أشد الغضب إن لم تلبّ حاجاته في البيت، بينما لا يتحرك له شعور إن رأى ابنته تتبذل في ثيابها، وهي خارج البيت، إن لم تلبّ حاجاته أقام الدنيا ولم يقعدها، ولا يتأثر أبداً إن رأى ابنته تثير الفتن في الطرقات، بل لعله يعجبه ذلك، هذه هي المشكلة، فالذي لا يستجيب للضغوط، ويؤثر طاعة الله على هوى نفسه وعلى مرضاة أهله فله أجر عظيم، قال تعالى:

(وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

على الإنسان أن يطيع الله فلا يعصيه ويشكره فلا يكفره :

طبعاً كما قال الله تعالى:

(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

[سورة الفرقان: 52]

أن تتعلم القرآن، وتعلمه، وأن تحمل الناس على التمسك به هذا من أعظم الجهاد:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ)

مادامت الأموال والأولاد فتنة، ومادام الإنسان ممتحناً في الدنيا، وما دامت الدنيا فانية، وهي إعداد للآخرة، إذاً ماذا ينبغي أن نفعل؟

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

وفي آية أخرى:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: 102]

كيف نجمع بين الآيتين؟ اتقوا الله حق تقاته أن تطيعه فلا تعصيه، وأن تشكره فلا تكفره، وأن تخلص له إخلاصاً شديداً، وأن تذكره فلا تنساه، هذا معنى قول الله عز وجل:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: 102]

كل شيء فيه ترك حدّي وكل شيء فيه بذل نسبي :

وأما قول الله:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

هنا معنى دقيق جداً، في الإسلام تكاليف، بعضها تأمر أن تدع، وبعضها تأمر أن تعطي، في مجال الاستقامةِ الاستقامةُ حدية، لا تحتمل التفاوت، نقول لك: أعطِ ما تستطيع، فهذا يعطي ألفاً، وهذا يعطي ألفين، وهذا يعطي مليونًا، اتق النار ولو بشق تمرة، الترك حدي، ليس فيه حالة وسط، هناك أمور لا بد من أن تنتهي عنها، وإلا فأنت محجوب، وهناك أوامر للبذل والعطاء، وخدمة الناس، هذه وفق استطاعتك، فالشيء المتعلق بالترك حدي، الوضع لا يحتمل تفاوتاً، مثلاً: مستودع فيه إحكام، وفيه إملاء، الإحكام حدي، إذا قلت: هذا المستودع محكم، أي أنه محكم، لو وضعت فيه كذا لتراً من الماء، أو من الوقود السائل تبقى هذه الكمية ثابتة دون أن تنقص، الإحكام ليس فيه حل وسط، أما إملاؤه فقد تضع فيه مئة لتر أو خمسمئة لتر حسب إمكانيتك، إملاء المستودع نسبي متفاوت، أما إحكامه فحدّي، فالاستقامة لا تحتمل النسبية:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

[سورة هود: 112]

إن الله أمر المسلمين بما أمر به المرسلين هذا في الاستقامة، أمركم بأشياء ونهاكم عن أشياء، فالذي نهاكم عنه فدعوه، والذي أمركم به فافعلوا منه ما استطعتم، في العطاء، وإنفاق المال ما استطعتم، في بذل الجهد ما استطعتم، في إنفاق العلم ما استطعتم:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة: 286]

أما في ترك المنكر.. ترك الكذب.. ترك الخيانة.. ترك أكل المال الحرام، كل شيء فيه ترك حدّي، وكل شيء فيه بذل نسبي، إذاً:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: 102]

أن تطيعه فلا تعصيه، وأن تشكره فلا تكفره، وأن تذكره فلا تنساه، أما:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

فأيّ إنسان له دخل أنفق من هذا الدخل على أهله وأولاده، ومن حوله، وفاض عنده بقية فأنفقها في سبيل الله، فالإنفاق نسبي بحسب الوسع والإمكان والطاقة، وبحسب الاندفاع إلى الله، فلذلك نوفق بين الآيتين بالشكل التالي: اتقوا الله حق تقاته فيما يتعلق بالنهي، واتقوا الله ما استطعتم فيما يتعلق بالعطاء، أنت تتقي النار بشيئين، بترك المعاصي، وفعل الخيرات، ترك المعاصي حدي، فعل الخيرات نسبي.

أعظم شيء الاستقامة على أمر الله عز وجل :

لذلك أصحاب النبي كما قال عليه الصلاة والسلام: لو تركوا العشرة لهلكوا في العطاء، والذين يأتون في آخر الزمان القابض على دينه كالقابض على الجمر، لو تركوا العشرة لنجوا، لأن هذا الذي روت عنه الكتب، والله أعلم بصحة الرواية سيدنا عبد الله بن رواحة حينما تردد في القتال ثلاثين ثانية، قال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صَلِيت

إن تفعلي فعلهما رضيت و إن توليت فقد شقيـتِ

***

قال النبي عليه الصلاة والسلام: ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله، فقاتل حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه، لأنه تردد، لو تركتم عشر العشر لهلكتم، هذا في العطاء، لأن معهم رسول الله، والوحي بين ظهرانيهم، وقد رأوا المعجزات، وأحبابه الذين يأتون في آخر الزمان، أعظم شيء أن تستقيم على أمر الله، فإن استقاموا نجوا، وبعد الاستقامة مهما أعطوا يرقى بهم هذا العطاء، فالنسبية في العطاء لا في الاستقامة، الاستقامة حدية، والعطاء نسبي.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

هذا المعنى الأول.

على الإنسان أن يبذل كل جهده لا بعضه :

والمعنى الثاني: أي ابذلوا كل الجهد المتاح:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

لعل نبرة الكلمة توضح المعنى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

أو فرق كبير بين المعنيين، المعنى الأول: بذل بعض الجهد، والمعنى الثاني: بذل كل الجهد، كل شيء متاح أمامكم افعلوه، أغلب الظن أن الآية تحتمل المعنى الثاني، لا تشير الآية إلى بذل بعض الجهد، بل إلى كل الجهد.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

أي ما وسعتكم الاستقامة، إنسان نقول له: امش ما استطعت، يمشي، ويستريح؟ لا.. ولكن يمشي حتى يدركه الإعياء إلى أن يقع، هذا معنى ما استطعتم، إنسان مشى أمتاراً، وقال: هذه استطاعتي، هذا لم

يفهم معنى الكلمة، امش ما استطعت، مشى خمسة أمتار، وارتاح، أما القصد أن تقع مغشياً عليك، من هنا قال بعض أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم: " والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي ".

يجب أن تضبط الوقت، يجب أن تعد الوقت أثمن شيء تملكه، يجب أن تعد نفسك وقتاً، أنت بضعة أيام، ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا بن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد.

ورد في الأثر: ألا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله علماً، ولا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله قرباً.

لو حققت نجاحات كبيرة في الحياة، النجاح الحقيقي أن تزداد مع الأيام معرفة بالله، وأن تزداد مع الأيام قرباً منه.

العلم هو أثمن شيء في حياة المؤمن :

لذلك:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا)

أي تفهموا، لذلك العلم هو أثمن شيء في حياة المؤمن، أنت حينما تتعلم كلام الله عز وجل، أو تفهم كلام الله فأنت تحقق ذاتك في أعلى درجة، أنت مخلوق كي تعلم:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ)

[سورة الطلاق: 12]

الله عز وزجل ميزّ الإنسان بالقوة الإدراكية، فإذا عطّلها هبط إلى مستوى الحيوان:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن: 1-4]

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: 113]

العلم أعظم نشاط يليق بالإنسان :

العلم أعظم نشاط يليق بالإنسان، الإنسان له حاجات عليا، وله حاجات سفلى، الحاجات السفلى أن يأكل، ويشرب، ويتزوج، وحاجاته العليا أن يعلم، فالذي يؤكد في الإنسان إنسانيته طلبه للعلم، أنت حينما تأتي إلى بيت من بيوت الله لتعرف كلام الله فأنت تلبي حاجاتك العليا، وتفكيرك المرتفع، أنت تحقق إنسانيتك.. أنت تؤكد ذاتك في الطريق الصحيح:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

[سورة ق : 37]

لماذا هنا (أو)؟ للتخيير، أي إما أن تتعرف إلى الحق سماعاً، وإما أن تتعرف إليه تأملاً، إما أن تأكل طعاماً جاهزاً، وإما أن تطبخ طعاماً بيديك، فإما أن تتفكر، وإما أن تستمع، والاستماع أغلب الظن مضمون، تأكل الطعام جاهزاً من طبّاخ ماهر، أما حينما تطبخ فأنت من غير رقيب، ومن غير موازين فقد تخطئ، وقد تصيب، لذلك يجب على الإنسان أن يتلقى العلم ممن يثق بدينه وورعه، والإمام الشاطبي في كتاب الموافقات في بعض المقدمات يؤكد أن العلم لا يطلب إلا من الرجال، ومن لم يأخذ هذا العلم من الرجال فهو ينتقل من محال إلى محال، لأن من دون رجال تكون مزلة الأقدام، قد يقع تحت يديك كتاب فيه خلط كبير، وفيه باطل شديد، أين الميزان الذي يكشف لك الخطأ من الصواب؟

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا)

على الإنسان أن يكون مع جماعة المؤمنين :

أيها الأخوة، وفي الآية الأخرى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة: 119]

أي لا تستطيعوا أن تتقوا الله إلا إذا كنتم مع الصادقين.

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

[سورة الكهف: 28]

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[أحمد عن النعمان بن بشير]

وقال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

[سورة المائدة: 35]

من الوسائل أن تطلب العلم، من الوسائل أن تكون مع جماعة المؤمنين .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا)

الله جل جلاله أعطى السمع بمعنى التطبيق :

اليهود سمعوا وعصوا، وقالوا:

(سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

[سورة البقرة: 93]

لذلك من لم يطع لم يسمع، الله جل جلاله أعطى السمع بمعنى التطبيق، واسمعوا وأطيعوا، الطاعة فيما أمر، والإنفاق هو البذل.

(وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ)

فاتقوا الله ما استطعتم، واسمعوا، واعقلوا، وتفهموا، واطلبوا العلم، وتعرّفوا إلى الحق، دققوا في كلام الله، تدبّروا في آياته، وانظروا عجيب خَلقه، انظروا في أفعال الله عز وجل، واسمعوا وأطيعوا.. اقلبوا معرفتكم إلى تطبيق، ترجموا فهمكم إلى عمل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

[سورة الصف: 2-3]

العمل الصالح طابعه حركي أما الاستقامة فطابعها سلبي :

أيها الأخوة الكرام،

(وَأَنْفِقُوا)

الاستقامة تزيل كل العقبات التي أمامك في طريقك إلى الله، بقيت الحركة، الطريق سالك، لأن باستقامتك أزلت كل العقبات، وبعملك الصالح وصلت إلى رب السموات والأرض، فالعمل الصالح طابعه حركي، أما الاستقامة فطابعها تمهيد الطريق، طابعها سلبي، ما كذبت، ولا غششت، ولا أكلت مالاً حراماً، فأنت مستقيم، إذاً الطريق إلى الله سالك، بقي أن تتحرك على هذا الطريق بالعمل الصالح.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

من ينفق في سبيل الله يضاعفه الله له أضعافاً كثيرة :

الحقيقة شح النفس مرض، الإنسان حينما يضنّ على نفسه بتعريفها بربها.. يضنّ على نفسه بحملها على طاعته.. يضنّ على نفسه أن تفعل الخيرات.. يبقيها جاهلة عاصية بخيلة، هذا الذي يوق شح نفسه مِن أفلح الفالحين، أما الذي يقع ضحية شح نفسه فهو من الهالكين.

شر الناس من يعيش فقيراً ليموت غنياً، شحيح يحرم نفسه كل خير، أندم الناس غني دخل ورثته بماله الجنة، ودخل هو بماله النار، جمع مالاً وفيراً، وورثه لأولاده، فاستقاموا على أمر الله بهذا المال، فدخلوا الجنة، ودخل هو النار بكسبه.

وقد سئل أحد الشباب، وقد ذهب إلى ملهى: إلى أين أنت ذاهب؟ فقال: لأشرب الخمر على روح والدي، خلّف له ثروة طائلة، ولم يعرفه بالله عز وجل، فأندم الناس من دخل ورثته بماله الجنة، ودخل هو بماله النار، ورد في بعض الأثر أن: "روح الميت ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، وأنفقته في الحلّ وغيره، فالهناء لكم، والتبعة عليّ ".

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

حينما ينفق الإنسان الله جل جلاله يضاعفه له أضعافاً كثيرة، وهذه الحقيقة يعرفها المنفقون. أخ كريم ذكر لي أنه دفع لقريب له وهو على المغسَل دَينه، وقد زاد على مئة وثلاثين ألف ليرة، وفي اليوم التالي حقق ربحاً في يوم واحد ما يعادل هذا المبلغ على غير العادة والمألوف.

من يسعد بالأخذ فهو من أهل الدنيا و من يسعد بالعطاء فهو من أهل الآخرة :

الله عز وجل إذا أحبّ عبداً خلق الفضل، ونسبه إليه، الله عز وجل يعوض المال أضعافاً مضاعفة، أنفق بلالاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، أنفق أُنفق عليك .

حدثني أخ في جيبه مبلغ من المال، سأله سائل، وهذا المال يلبي حاجته، تردد، وقع في قلبه: متى قطعناك من المال؟

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

ذلك الكرماء شيء والأريحيون شيء آخر، من هو الأريحي؟ هو الذي يسعده العطاء، بل إن بعض العلماء يقول: إذا أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة فانظر ما الذي يسعدك، أن تأخذ أم أن تعطي؟ فالذي يسعد بالأخذ فهو من أهل الدنيا، والذي يسعد بالإعطاء فهو من أهل الآخرة، إلا أن فريقاً من أهل الآخرة يسعدون بالأخذ ليعطوا، فسعادتهم بالأخذ سبب لعطائهم، هم إذاً من أهل الآخرة.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

أيّ عمل صالح مهما كبر أو صغر إقراض لله عز وجل :

الآن أيها الأخوة، هذه الآية الأخيرة لو تدبرناها لاقشعرت جلودنا، الله جل جلاله الغني الكريم، الذي إذا أراد شيئاً يقول له: كن فيكون.. عنده خزائن الأرض، هو يطلب إليك أن تقرضه، أي عمل صالح تقدمه لمخلوق من مخلوقاته، ولو أن تصغي الإناء لهرة.. لو أنقذت نملة من الغرق.. لو أطعمت حيواناً أعجماً.. لو أنقذت إنساناً من ورطة.. لو أعطيت فقيراً.. لو أعنت إنساناً على حمل حوائجه على دابته، أيّ عمل صالح مهما كبر أو صغر فهو في حقيقته إقراض لله عز وجل.

(إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ)

لذلك الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، المؤمن دائماً يقف إذا سأل.. إذا عرض عليه عمل صالح.. إذا طلب منه أن يقدم شيئاً من خبرة، من مال، من علم، من جهد، من أي شيء، لا يرى السائل، بل يرى الله يسأله.

و اللَّه عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

((يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

(إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ)

إذا عملت عملاً لوجه الله فالله عز وجل سيعطيك عليه أضعافاً مضاعفة، يجب أن تعد أيها المؤمن أن كل عمل صالح مهما كان نوعه، ومهما كانت جهته، ومهما تكن طبيعته، إنما هو إقراض لله عز وجل.

(إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

الله جل جلاله يسترضى بالعمل الصالح :

رب العزة في سمائه، ورب العالمين، وخالق السموات والأرض يقول لك: يا عبدي أقرضني لأكافئك أضعافاً مضاعفة، اتّجر مع كي تربح عليّ، اتّجر مع الله.

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ*تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ*يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ*وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الصف: 10-13]

صنائع المعروف تقي مصارع السوء، الله جل جلاله يسترضى بالعمل الصالح، صدقة السرّ تطفي غضب الرب، باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها.

(إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ)

الإنسان كلما ارتقى إيمانه يصبح مصدر خير وأمن وعطاء :

إذا أعطيت قطعة سكر لطفل مع أبيه فهذه الهدية في حقيقتها لمن؟ والله ليست للطفل، ولكن للأب، أنت تقربت للأب عن طريق الطفل، وبإمكانك أن تتقرب إلى الله بخدمة عباده، قلت مرة: إنّ الطبيب المؤمن لا يوصّى، كيف يوصّى؟ بين يديه عبد من عباد الله، هل يبتز ماله أو يكبر عليه الوهم؟ لا يستطيع، لأن بين يديه عبدًا من عباد الله، والإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، إذا أخفت إنسانًا بغير حق، أو أكلت ماله بغير حق فأنت ملعون عند الله عز وجل.

فالإنسان كلما ارتقى إيمانه يصبح مصدر خير، ومصدر أمن، ومصدر عطاء.

(إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ)

تقدم لإنسان معروفًا، أو تخدم له ابنه يشكرك شكراً تعجز عن وصفه، ويقول لك: لا أنساه حتى الموت، لأنك خدمتَ ابنه.

الله عز وجل كل شيء غاب عنك يعلمه وكل شيء حاضر يعلمه :

أخواننا الكرام يعلمون أولادنا الصغار، أحد الأباء دعاهم مرتين تعبيراً عن شكره، إنسان يكّرم معلّم ابنه، فربنا سبحانه وتعالى الذي يخدم خلقه، ويبث فيهم الخيرات والفضائل، ويعرفهم بربهم، ويحملهم على طاعته، ويحل مشكلاتهم، يعطي فقيرهم، ويأخذ بيد أخرقهم، هذا ماذا يقدم اللهُ سبحانه وتعالى له يوم القيامة؟

(إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ* عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

كل شيء غاب عنك يعلمه، وكل شيء حاضر يعلمه، العزيز المتفرد في تصرفه، الذي لا ينال جانبه، الحكيم، أي أن كل أفعاله تتعلق بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة تعني أن الشيء الذي وقع لو وقع على خلاف ما وقع لكان نقصاً في الحكمة، ولكان الله ملوماً على ذلك.

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطلاق 065 - الدرس (1-6): تفسير الآية 1

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-12-13

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة التالية تتحدث عن أمر الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأول من سورة الطلاق:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

أيها الأخوة، الدين عقائد وعبادات، معرفة بالله، ومعرفة بأمره، فهذه السورة تتحدث عن أمر الله عزَّ وجل، هناك سورٍ كثيرة وآياتٍ كثيرة تتحدث عن الله، عن عظمته، عن خلقه، عن قوته، عن غِناه، عن رحمته، وهذه السورة تتحدث عن أمره، فأنت بالكون تعرفه، وبأمره تعبده، كيف تعبده إن لم تعرف أمره؟ والقرآن الكريم في الأعم الأغلب مكيٌّ ومدني، فالمكي يعرفنا بالله، والمدني يعرفنا بأمره.

الإنسان هو المخلوق الأول رتبة و المكلف و المكرم :

الإنسان كما تعلمون كائنٌ مخيَّر، مكلَّف:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

مكرَّم، أما أنه مكلف:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

أما وأنه هو المخلوق المكلف الأول:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية : 72]

هو المخلوق الأول رتبة، كُلِّفَ أن يزكي نفسه، وأن يؤهِّلها لجنة ربه إلى أبد الآبدين.

لوازم التكليف :

وفي الدنيا من لوازم التكليف أن الله منحه الكون، وسخره له:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ)

[سورة الجاثية: 13]

ومن لوازم التكليف أنه أودع فيه الشهوات:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران: 14]

ومن لوازم التكليف أنه منحه حرية الاختيار:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

[سورة الإنسان : 3]

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

[سورة فصلت: 17]

من لوازم التكليف أن الله سخَّر للإنسان الشيء، وأودع فيه الشهوات ليرقى بها، ومنحه حرية الاختيار، ووهبه العقل ليكون أداةً لمعرفة الله، ثم إن الله سبحانه وتعالى أنزل عليه الشرع، أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم هذا القرآن، وهو الشرع الحكيم، إذاً: لأن الله خلقنا لجنةٍ عرضها السموات والأرض، ولأننا بالكون نعرفه وبالشرع نعبده، ولأنه أودع فينا الشهوات، لنرقى بها شاكرين وصابرين إلى رب الأرض والسموات كانت هذه السورة.

الشهوات الكبرى ثلاث :

الشهوات الكبرى ثلاث؛ إنك تشتهي الطعام من أجل أن تبقى حياً، من أجل بقاء الفرد، وقد تشتهي المرأة من أجل أن يبقى الجنس، الجنس البشري، وقد تشتهي العلو في الأرض من أجل بقاء الذِكر، ثلاثة دوافع أساسيَّة ؛ دافع الطعام، ودافع الجنس، ودافع العلو في الأرض، لدافع الطعام آياتٌ كثيرةٌ جداً وأحاديث كثيرةٌ جداً بيَّن الله عز وجل وبيّن النبي عليه الصلاة والسلام من خلال فهمه لكتاب الله كيف نكسب الرزق، كيف يكون الطعام طيِّباً: " يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة "، كيف يكون الكسب الحلال؟ كيف يكون الكسب المشروع؟

ومن خلال آيات النساء، كيف تتزوج، كيف تطلق، كيف تعامل بالمعروف، كيف تغض البصر، تفاصيل كثيرة جداً، في علاقة الإنسان بالمال، وفي علاقة الإنسان بالمرأة، وفي علاقة الإنسان بالآخرين، حرَّم الغيبة، وحرَّم النميمة، وحرم السخرية، وحرم المحاكاة، وأمرك أن تلبِّي الدعوة، وأن تعود المريض، وأن تعين الضعيف، فأحكام متعلقة بكسب المال، وأحكام متعلقة بالمرأة- أحكام الطلاق- وأحكام متعلقة بحسن علاقتك مع من حولك.

لكرامة النبي على الله لم يخاطبه باسمه بل خاطبه بمقام النبوة أو مقام الرسالة :

درس اليوم متعلق بأحكام تعبدية في موضوع المرأة، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

وكما تعلمون النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق، وحبيب الحق، وله عند الله شأنٌ كبير، فلذلك لم يخاطبه باسمه إطلاقاً في القرآن الكريم، مع أنه خاطب غيره من الأنبياء فقال:

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

[سورة مريم: 12]

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي)

[سورة الأعراف: 144]

(يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

[سورة المائدة: 116]

لكن الله سبحانه وتعالى لم يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام إلا بصيغتين:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

و:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

[سورة المائدة: 41]

فلكرامة النبي عليه الصلاة والسلام على الله، ولأنه سيد الخلق، وحبيب الحق يخاطبه بمقام النبوة، أو مقام الرسالة..

الخطاب موجهٌ للنبي لأنه هو المبلِّغ وهو سيد الخلق :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ)

أي إذا أراد أصحابك وأتباعك، إذا أراد المؤمنون بك، إذا أراد المسلمون إلى يوم القيامة أن يطلّقوا النساء فليفعلوا ذلك، الخطاب موجهٌ للنبي لأنه هو المبلِّغ، وهو سيد الخلق، وهو أرحم بنا من أنفسنا:

(إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ)

شرائع الزواج :

الزواج في الإسلام له شرائعُ دقيقة، أولاً: الله جلَّ جلاله قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

فالمرأة جعلها الله سكناً للزوج، لأنه يكمل فيها نقصه، والزوج جعله الله سكناً للمرأة، لأنها تكمل فيه نقصها، الرجل له خصائص عقلية وجسمية، واجتماعية ونفسية، هي كمالٌ فيه، وكمالٌ في مهمته التي أنيطت به، والمرأة لها خصائص جسمية وعقلية، ونفسية واجتماعية، هي كمالٌ فيها، لعل جانب العاطفة يرجح عند المرأة، ولعل جانب العقل يرجح عند الرجل، فالرجل يكَمِّل بزوجته نقصه، فيسكن إليها، يجد في دفء عاطفتها الشيء الكثير، وهي تجد في عقله وبعد نظره وحزمه وقوَّته الشيء الكثير، لذلك ومن آياته الدالة على عظمته:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت: 37]

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الروم: 22]

المودة والرحمة كلمتان دقيقتان :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

المودة هذا السلوك المحبَّب الذي يشفُّ عن الحب العميق، أما الرحمة فهذا السلوك الأخلاقي، لو أن الإنسان انقطعت مصلحته من زوجته، إذا ذهب الود تبقى الرحمة، ولو أن امرأةً انقطعت أسباب مصلحتها من زوجها لكبرٍ أصابه، أو لفقرٍ طارئٍ ألمّ به، ماذا يبقى؟ الرحمة، فكلمة المودة والرحمة كلمتان دقيقتان.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة الروم: 21]

((إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ))

[الترمذي عن عائشة]

تعرف الله كما تعرف، وتحبه كما تحب، وترضيه كما تُرضيه، وتتقرب إليه كما تتقرب أنت إليه، وترقى عند الله كما أنت ترقى عنده، ولا فرق إطلاقاً بين المرأة والرجل في شؤون الإسلام والإيمان والدين، بل إنها مكلفة بالإيمان كما هو مكلف، ومكلفة بأركان الإسلام كما هو مكلف، مكلفة بالإيمان، ومكلفة بالإسلام، ومسؤولة عن كل تصرفاتها.

استقلال المرأة في شأن دينها عن زوجها :

وأريد أن أضع بين أيديكم هذه الحقيقة: المرأة مستقلة في شأن دينها عن زوجها، ولا تقبل حُجَّتها يوم القيامة أن هذا الذي فعلته يرضي زوجي، أو أمرني به زوجي، لأن الله جعل مثلاً صارخاً، جعل امرأة فرعون صِدِّيقَة النساء، زوجة أكفر كُفَّار الأرض، ولم يستطع أن يثنيها عن دينها:

(إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة التحريم : 11]

فأية امرأةٍ تقول إلى يوم القيامة: أنا أفعل هذه المعصية تنفيذاً لأمر زوجي، هكذا يريد، في رقبته إن شاء الله، هذا كلامٌ غير مسموع، فعَنْ عَلِيٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[أحمد عن عَلِيٍّ]

والمؤمن يقول كلمة (لا) بملء فمه، لأنه كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنْ اكْتُبِي إِلَيَّ كِتَابًا تُوصِينِي فِيهِ، وَلَا تُكْثِرِي عَلَيَّ، فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى مُعَاوِيَةَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ))

[الترمذي عن عائشة]

إذاً المرأة صنو الرجل، والنساء شقائق الرجال، والمرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف، والتشريف، والمسؤولية.

للمرأة خصائص عقلية وجسمية ونفسية واجتماعية تختلف عن الرجل :

لكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: 36]

لها خصائص عقلية وجسمية، ونفسية واجتماعية، هي كمالٌ فيها، وله خصائص جسمية وعقلية، ونفسية واجتماعية هي كمالٌ فيه، فما زاد من عاطفتها، وقلَّ من بعد إدراكها، وحزم تصرفاتها كمالٌ فيها، وما زاد من عقله، وبعد إدراكه، واهتمامه بالقضايا الكبرى، وما نقص من عاطفته وأحاسيسه كمالٌ فيه.

جاءت امرأةٌ تشكو إلى رسول الله، قد سمعها الله من فوق سبع سموات، فعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ تَقُولُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ[حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ:))]قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ

[ابن ماجه عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ]

هناك أدوار رسمها الله عزَّ وجل للرجال والنساء، فإذا تشبَّهت المرأة بالرجل، أو تشبه الرجل بالمرأة فقد فسدت الحياة .

العلاقة بين الزوجين هي أقدس علاقةٍ على الإطلاق :

الآن هذه العلاقة بين الزوجين هي أقدس علاقةٍ على الإطلاق، قال تعالى:

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

[سورة النساء : 21]

الميثاق الغليظ الخطير المُقدَّس هو عقد الزواج، أقدس عقدٍ تبرمه في حياتك هو عقد زواجك مع امرأةٍ، جعلتها شريكة حياتك، ينبغي أن نسير عليه، ليس في الإسلام سفاحٌ إطلاقاً، ليس فيه إلا زواج، الله جلَّ جلاله يقول:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

[سورة النور: 26]

أي أنه ينبغي أن يكون الطيِّبون للطيبات، أي يا عبادي احرصوا أن يكون الطيبون للطيبات، هذا أمرٌ تكليفي، وليس أمراً تكوينياً، أي ينبغي، أي احرصوا، أي اجعلوا همَّكم أن يكون الطيبون للطيبات، وهذه مسؤولية الأب والأم، ومسؤولية الفتاة، ومسؤولية أبيها وأمها، الأب والأم للزوج، والأب والأم للزوجة مسؤوليتهم جميعاً أن يكون الطيبون للطيبات، لأن هذه شركةٌ عميقة جداً، وهي دائمة مدى الحياة، فإن

لم يكن هناك توافقاً عقلياً، وثقافياً، واجتماعياً، وخلقياً، ودينياً، أصبحت الحياة جحيماً لا يطاق، لذلك الأصل أن الإنسان يتزوج ليبقى مع زوجته إلى نهاية الحياة، هذا هو الأصل.

الطلاق بالنسبة للحياة الزوجية صَمَّام الأمان :

لو حصل خطأ في اختيار الزوج، أو لو حصل خطأ في اختيار الزوجة، أو لو حصل تباين في الطباع، أو تناقض في المصالح، أو لو حصل شيء أدَّى إلى فساد العلاقة بينهما، حينما تستحيل هذه العلاقة فتكون جحيماً لا يطاق شُرِعَ الطلاق، هذا الإناء، هذا الوعاء من البخار المحكم الإغلاق، هذا الوعاء له متنفَّس، فإذا ارتفع الضغط إلى درجة كاد الوعاء أن ينفجر فهناك صمام أمام، هذا الصمام يسيخ، ويخرج البخار، ونتلافى انفجار هذا الوعاء، الطلاق بالنسبة للحياة الزوجية صَمَّام الأمان، فهو أهون الشرَّين، لو أن الزوج بقي مع زوجته في جحيمٍ لا يطاق، هو في وادٍ، وهي في واد، هو في طريق، وهي في طريق، لا يحبها ولا تحبه، كلٌ منهما عدوٌ للآخر، نقول: هذا الزواج انحلاله أفضل من استمراره، لذلك يُعَدُّ الطلاق صمام أمان، فأكاد أقول: أنت في دائرة لو أنها كانت محكمة الإغلاق لشعرت بالضيق، فلو كانت مفتوحة فهناك متنفس، لكنك لو أردت أن تخرج من هذا المتنفس لرأيته مغلقاً ثانية، من هنا أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ، ولكن إذا كان ضرورةً لابدَّ منها، قلت لكم: لماذا نطلّق؟ لأن الله عزَّ وجل أمرنا أن نجمع بين الطيبين والطيبات..

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

[سورة النور: 26]

فلو أن الأب لجهله طمع بمال خاطب ابنته، فزوجه إياها ثم اكتشف أن المال لا يسعد ابنته، بل إن المال كان وبالاً عليه وعليها، والحياة أصبحت لا تُطاق، والطريق مسدود، فلابد من الطلاق، فحينما يسيء الإنسان اختيار زوج ابنته، أو حينما تسيء الفتاة اختيار زوجها، توافق أو لا توافق، يكون الطلاق هو صمام الأمان، هذا شرع الله عزَّ وجل، هذا الشرع ليس لواحدٍ لا يفكر بالطلاق، هذا الشرع يتَّسع لعامة المسلمين، هناك حالات كثيرة جداً، الحياة مستحيلةٌ بين هذين الزوجين، والشر الناتج عن استمرارها أكبر بكثير من انحلال هذه العلاقة، لذلك شرع الله الطلاق، لكن كما قلت: صمام أمان لوعاءٍ بخاري، لولا هذا الصمام لكان هناك الانفجار.

أخطر مؤسسة في الشرع هي الأسرة :

لذلك في بعض الأديان التي لا تجيز الطلاق تجد أن للزوج عشرات العشيقات، هو في بيت، وهي في بيت، ولا يلتقيان، فلما سُمِحَ بالطلاق تقدم في يومٍ واحد أكثر من مليون طلب لفك العلاقة الزوجية غير الناجحة بين الأزواج، هذا الإسلام نظام الله عزَّ وجل، شرع الله، شرع فيه الطلاق ليكون صمام أمان لهذه المؤسسة، أخطر مؤسسة في الشرع هي الأسرة، لأن الأسرة هي الخلية، ومن هذه الخلايا يتكون المجتمع، فإذا كانت سليمة سلم المجتمع، وإن كانت منهارةً انهار المجتمع، لذلك المجتمعات الراقية متماسكة، لأن أسرها متماسكة، والمجتمعات المنهارة أُلْغِيَتْ فيها الأسرة، لذلك أحد رؤساء الجمهوريات في أمريكا الحالي الذي انتخب مرتين، يقول: إن أربعة أخطار تهدد مجتمعنا، أحد هذه الأخطار: تفكك الأسرة، وانحلال الأخلاق، والمخدرات، والجريمة.

انحلال الأسرة أو تفككها شيءٌ خطيرٌ جداً، يصيب المجتمع بالشلل، لذلك لا تعجب إن رأيت سورةً بأكملها عن الطلاق، إن رأيت أطول سورةٍ في القرآن الكريم جُلُّها في موضوع الطلاق، لأن الإنسان كما قلت لكم: أودعت فيه الشهوات، حب المال منظمٌ بأحكام، كسبه، وإنفاقه، وتملُّكه، وحب النساء منظمٌ بأحكام الخطبة والزواج، والنكاح والطلاق، والرغبة الثالثة العلو في الأرض، هذه الرغبة منظمة أيضاً بأحكام الغيبة والنميمة، والتواضع والإحسان، والعدل والإنصاف، وما شاكل ذلك.

خط الدرس اليوم في العبادات التعاملية :

إذاً خط الدرس اليوم ليس في العقائد، بل في العبادات، وليس في العبادات الشعائرية، بل في العبادات التعاملية، وأخص هذه العبادات كيف تعامل زوجتك؟ طبعاً كيف تختارها؟ هذا موضوع آخر، كيف تختارها؟ من تزوج المرأة لجمالها فقط أذله الله، ومن تزوجها لمالها أفقرها الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءةً، فعليك بذات الدين تربت يداك، عَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ ؟ قَالَ: إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[الترمذي عَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ]

و من ترك التزويج مخافة العالة فليس منا، وما شكا أحدٌ إلى النبي ضيق ذات يده إلا قال له: اذهب فتزوج، لأن الذي يُزمع الزواج مرزوقٌ من قِبل الله عزَّ وجل، وما من حديثٍ تقشعر له الأبدان كقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ، الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

من طلب العفاف أعانه الله عز وجل على ذلك :

اسمعوا أيها الشباب: حق المسلم على الله، أنشأ الله لك حقاً عليه، أنك إذا أردت العفاف، أردت ألا تقع في الفاحشة، أردت شرع الله وسنة نبيه فحق الله أن يعينك إذا طلبتَ العفاف، الآن لابدَّ من الطلاق، كيف نطلق؟

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

هذا كله تقديم لأحكام الطلاق :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ)

فقد ينشأ بين الزوجين اختلاف وجهات نظر حاد، قد يكون الزوج في وادٍ والزوجة في وادٍ، قد تستحيل الحياة بين الزوجين، قد تجد المرأة أنها لو طُلِّقتْ لسعدت، وقد يجد الزوج أنه لو طَلَّقَ زوجته لسعد بفراقها.

شخص قال.. هكذا يروى: إن رجلاً له زوجة سيِّئة جداً، فقيل له: طلقها، كان ورعاً إلى درجة أنه قال: والله لا أطلقها فأغش بها المسلمين، قد تستحيل الحياة بين الزوجين، قال الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ)

أي هناك أحكام للطلاق.

لا يجوز أن تطلق المرأة في حيض لأسبابٍ نفسية :

الآن أقف وقفة متأنية قبل أن أتابع هذه الأحكام، الإنسان أحياناً يتخذ قرارًا مبنيًّا على حقائق، والحقائق ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، لكن في الأعم الأغلب يتخذ الإنسان قراراً مبنيًّا على شعور، والشعور متقلّب، الشعور متبدِّل، الشعور متناقص، أو أن الشعور متنامٍ، الحال يتبدل، سُمِّي الحال حالاً لأنه يحول، لا يثبت، لو أن إنساناً طلق امرأته ليس بناءً على قناعةٍ ثابتة، أو حسابٍ دقيق، أو حقائق ساطعة، بل بناءٍ على ساعة غضبٍ شديد، أو على موجة كراهيةٍ طارئة، كيف يعلمنا ربنا جلَّ جلاله أن هذا القرار غير صحيح؟ هذا القرار متسرِّع، هذه شريكة حياتك، هذه أم أولادك، هذه إن تركتها ضاع الأولاد، لذلك علّمنا أنك إذا أردت أن تطلق فطلق في حالين، إياك أن تطلق في حيض، فالطلاق في الحيض عند

بعض العلماء لا يقع يعلمنا، وعند بعضهم يقع يعلمنا، ولكنه طلاقٌ بِدْعيّ مخالفٌ للسنة، وإذا طلقت فطلقها في طُهْرٍ لم تلامسها فيه، لم تقاربها فيه، فكلمة:

(لِعِدَّتِهِنَّ)

هذه اللام تعني:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ)

[سورة الحشر: 2]

أي في أول الحشر، هذه اللام تعني في اللغة (في)، أي: يا أيها الذين آمنوا إذا طلقتم النساء فطلقوهن في عدتهن، أي مستقبلات عِدَّتَهُن، أي لا يجوز أن تطلق المرأة في حيض لأسبابٍ نفسية، لعلك كرهتها في هذه الفترة بالذات، ولا يجوز أن تطلقها في طهرٍ لامستها فيه، أو اتصلت بها فيه، فلأن هذا الطهر صار مظنة حمل، فننتظر إلى أن تحيض مرةً ثانية فتطول العدة.

الإنسان يطلق امرأته في طهرٍ لم يمسها فيه وتبقى في بيته ولها أن تتزيَّن :

لذلك:

(لِعِدَّتِهِنَّ)

أي في وقتٍ تستقبل فيه عِدَّتَهُن، هذا هو أول معنى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ)

أي في عدة، الإنسان يطلق امرأته في طهرٍ لم يمسها فيه، وتبقى في بيته، ولها أن تتزيَّن، ولها أن تبدو أمامه بأجمل زينة، وتأكل معه، وتفعل كل شيء، إلا أنه لا يقاربها، فإذا كان القرار مبنيًّا على ساعة كراهية، على كراهية طارئة، قرار غير مدروس، غير معقول، الشعور من خصائصه التناقص، فاليوم كنتَ في غضبٍ كالمِرجل، إذا كانت الحرارة مئة فثاني يوم الحرارة تقدر بتسعين، ثمانين، سبعين، عشرة أيام صارت الحرارة صفرًا، صار هادئاً، فلو أنه طلّقها طلاقاً مبتوتاً فيه، لو أنه طلقها ثلاث تطليقات مرةً واحدة، طلقها طلاقاً بدعياً مخالفاً للسنة، عندئذٍ لا سبيل له لإرجاعها، أما إذا طلقها وفق منهج الله، طلقها في طهرٍ لم يقاربها فيه، وبقيت في بيته ثلاثة قروء، أي ثلاثة أطهار، فالمرأة يمر عليها وقتٌ هي طاهرةٌ من الحيض، ووقتٌ هي حائضة، الطهر يسمى قُرءاً، والحيض يسمى قُرءاً، هنا القرء هو الطهر.

(فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ)

تنتظر أول طهر، قد تكون مدته اثنتين وعشرين ليلةً، على كلٍّ، أول طهر، ثم حاضت، ثم طَهُرَتْ، ثاني طهر، ثم حاضت، ثم طهرت، الثالث، أكبر قضية بين الزوجين إن لم تكن عميقة تتلاشى بعد أيام،

فكأن الله سبحانه وتعالى أراد لهذا الطلاق المتسرع، غير المبني على حقيقة، غير المبني على دراسة، في ساعة غضب، في ساعة كراهية، بسبب طارئ أراد أن ينتهي هذا الطلاق إلى رجعة، لذلك إذا طلّق الزوج زوجته في طهرٍ لم يقاربها فيه فله أن يراجعها بكلمةٍ ينطق به فمه، أو بلمسةٍ بيده، وانتهى الأمر، عادت إليه كما كانت، ولا شيء عليها، لا مهر، ولا عقد، ولا شيء من هذا القبيل.

من طلق زوجته و لم يعيدها قبل انقضاء العدة ملكت نفسها وبإمكانه ثانية أن يعقد عليها :

لو أن العدة مضت، مضت الأطهار الثلاث، ولم يراجعها ملكت نفسها، لكن بإمكانه أن يعود خاطباً من جديد، أن يعقد عليها عقداً، وتعود إليه زوجةً، وكأن شيئاً لم يكن، ولكن حسبت طلقة، أي أنه استنفد فرصة من فرص الطلاق .

لو أنه طلقها مرةً ثانية نعود إلى الترتيب السابق، تبقى في بيته، وتتزين له، ويأكل معها، وتأكل معه، ولا شيءٍ يمنع بينهما إلا اللقاء الزوجي، فإن كان هذا الموضوع صغيراً تلاشى، وتلاشى حتى انتهى إلى المراجعة، يراجعها قولاً أو عملاً، وانتهى الأمر، فإن لم يراجعها، ومضت هذه الأطهار الثلاث ملكت نفسها، وبإمكانه ثانيةً أن يعقد عليها عقداً ثانياً، من دون أن يحتاج إلى شيء، وتعود زوجته كما كانت، الله جلَّ جلاله يقول:

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ)

[سورة البقرة: 229]

أول مرة ثلاثة قروء، والمرة الثانية ثلاثة قروء، فإذا طلّقها ثالثةً في طهرٍ لم يجامعها فيه ملكت نفسها، وبانت عنه بينونةً كبرى، ولا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره نكاحاً طبيعياً عادياً على التأبيد، فإذا طلقها الزوج الثاني طلاقاً طبيعياً فله أن يتزوجها مرةً ثالثة.

التشريع الإلهي للطلاق :

أيها الأخوة، إن كانت العلة بها الزوج الثاني سيطلقها، عندها تدرك أن العلّة منها لا منه، لعلها ترجع إليه خاضعة طائعة، وإن كانت العلّة منه، الزوج الثاني لم يطلقها خسرها نهائياً، هذا هو التشريع الإلهي، تصور إنسانًا لمشكلة واحدة انتظر تقريباً ستة أشهر، ستة أشهر وهي في بيته، ومتزينة، وبإمكانه أن يقترب منها، وما اقترب، معنى ذلك أن ثمة مشكلة كبيرة جداً، إذا طلّق الإنسان امرأةً وهي في بيته، وبإمكانها أن تتزين له، وهو في حاجةٍ إليها، ولم يقترب منها في كل هذه الفترة، في ستة أشهر، معنى ذلك أن هذا القرار مبني على دراسة، على حقائق، لا على مشاعر، المشكلة أن هذا القرار

أساسه حقائق أم مشاعر؟ بالحقائق يستمر الزواج، يطلق، ويستمر، أول قرء، والثاني، والثالث، وطلاق ثان، وأول قرء، والثاني، والثالث، وطلاق ثالث، وبينونة كُبرى، لو أنها تزَّوجت، والزوج طلقها، ولم تكن في نفسه لا يتزوجها، هذا هو النظام الإلهي، هذا هو التشريع.

فلو طُبِّق هذا التشريع، صدقوني أيها الأخوة أن بين كل مئة حالة طلاق لا تنعقد حالة واحدة، أما من أول كلمة الطلاق بالثلاث، يقول لها: كلما حللك شيخ يحرمك عشرة، ما هذا؟ أيرتكب أحدكم أحموقته، ويقول: يا بن عباس، يا بن عباس، هذه أحموقة، هذه أم أولادك، هذه شريكة حياتك، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ))

[مسلم عن أبي هريرة]

وأنت لست كاملاً إن توهَّمت أنها ليست كاملة، وأنت لست كاملاً، طرق أحدهم باب سيدنا عمر ليشكو إليه زوجته، فسمع صياحاً في بيت عمر، فولّى هارباً، فلما طُرِقَ الباب، وفتح سيدنا عمر لم يجد أحداً، ثم رأى إنسانًا يعدو، قال له: يا أخا العرب، تعال، ما الذي أقدمك؟ قال له: جئتك أشكو مما أنت منه تشكو، قال له: يا أخا العرب، إنها أم أولادنا، تطهو لنا الطعام، تغسل لنا الثياب، لنترَفَّقْ بها، إذاً الله جلَّ جلاله لا يحبُّ الطلاق، هو أبغض الحلال إلى الله.

الطلاق أخطر قرار يتخذه الإنسان :

المقدمة أن هذا القرار الخطير، وهذا أخطر قرار، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن المرأة خُلِقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها و بها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسْرها طلاقها))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

وفي رواية:

((فدَارِها تعشْ بها))

[الجامع الصغير عن سمرة]

الحياة لا تحتمل هذه المشاحنة، فلذلك هذه طريقة الإسلام في الطلاق، أول قرء، ثاني قرء، ثالث قرء، طلقة واحدة، أول قرء، ثاني قرء، ثالث قرء، طلقة ثانية، الطلقة الثالثة بينونة كبرى، فإن تزوَّجت زواجاً طبيعياً على التأبيد، ثم طلّقت فلك الحق أن تُرْجِعُها، لذلك تكاد تكون تسعون بالمئة من حالات الطلاق بين المسلمين طلاقًا بدعيًّاً غير شرعي، ولو طبق المسلمون هذا النظام، وهذا المنهج الدقيق لما

انتهى طلاقٌ إلى فراق أبداً، لالتأمت البيوت، وعاد الأزواج إلى سابق عهدهم، ولكن الشيطان أحياناً ينفُخ في الزوج، فيطلق امرأته في ساعة غضب، فيهدم بيده بنيانه.

على الإنسان أن يبحث ملياً عن زوجةٍ صالحة لئلا يحتاج إلى تطليقها :

أيها الأخوة الكرام، أما ما ورد في السُنَّة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن حديث ابن عمر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق))

[أبو داود عن ابن عمر]

وعن علي كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: تزوجوا، ولا تطلقوا، فكيف نوفّق بين هذا الحديث الذي رواه سيدنا علي رضي الله عنه وبين قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ)

القرآن أباح الطلاق، زوجوا، ولا تطلقوا، فإن الطلاق يهتزُّ منه العرش، بعض العلماء فسر هذا الحديث ووفقه مع القرآن الكريم، أي ابحث ملياً عن زوجةٍ صالحة، تزوج امرأةً بعد بحثٍ طويل لئلا تحتاج إلى تطليقها، تزوج امرأةً لا تحتاج إلى تطليقها، هذا هو معنى الحديث، أي ابتعد عن أسباب الطلاق، لو كان الزواج متسرعاً فقد تحتاج إلى أن تطلق، لو كان الزواج مبنيًّا على مصلحة لا على رغبة صادقة فقد تحتاج إلى أن تطلق، لو أن الزواج مبني على طمع فقد تحتاج إلى أن تطلق، لو كان الزواج مبنيًّا على حب للدنيا من أجل أن ترقى عند أبيها، ولم تجد هذا فقد تحتاج إلى أن تطلق، فأيُّ زواج لا يكون صافياً خالصاً لله عزَّ وجل قد تحتاج إلى أن تطلق، تزوجوا، ولا تطلقوا، أي لا تتزوج امرأةً يمكن أن تحتاج إلى تطليقها، أي ابحث ملياً..

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

[سورة النور: 26]

أمر تكليفي.. مرة ثانية.. لو فهمناه أمراً تكوينياً سنجد عندنا إشكالاً كبيرًا، ألا تجد إنساناً صالحاً عنده زوجة سيئة؟ ألا تجد امرأةً وليّة عندها زوج سيئ؟ ممكن، الآية ليست حكماً، ولكنها تكليف، أي ينبغي أن يكون الطيبون للطيبات، فلذلك:

((تزوجوا، ولا تطلقوا، فإن الطلاق يهتز منه العرش))

[الديلمي عن علي]

الله عزَّ وجل لا يحب الذوَّاقين ولا الذوَّاقات :

لا تطلّقوا النساء إلا من ريبة، شككت في إخلاصها لك، شعرت أنها تخونك، عندها تطلق، لا تطلقوا النساء إلا من ريبة، فإن الله عزَّ وجل لا يحب الذوَّاقين ولا الذوَّاقات، لا تشكو من أخلاقها، ولا من حسن إدارة بيتها، ولا من تربية أولادها، يقول لك: كبرت علي، فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات، لا تطلقوا النساء إلا من ريبة، فإن الله عزَّ وجل لا يحب الذواقين ولا الذواقات، هذه شريكة العمر، وليست متعة آنية، أما الحديث الذي ينبغي أن يكون واضحاً عندكم فهو عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((ما حلف بالطلاق مؤمن ولا استحلف به إلا منافق))

[ابن عساكر وابن النجار عن أنس]

وتقريباً: إذا سئل العالم ألف سؤال، فتسعمئة سؤال عن الطلاق، طلق لجهل، لأتفه الأسباب، طلاق مزاجي، طلاق عشوائي، طلاق مبني على ساعة غضب، بلا دراسة، بلا دقة، بعد أن يطلّق الآن عليه أي يتسكّع على أبواب المُفتين، بيْنَ مفتٍ يجيز له أن يراجعها، و مفتٍ آخر يمنعه أن يراجعها، مفتٍ يطرده، و مفتٍ يستقبله، مفتٍ يتساهل، و مفتٍ يتشدد، أنت كنت في غنى عن كل هذا، والأصح من ذلك أن الطلاق بيدك وأنت السيِّد، وأنت المُقرر، فإذا قلت لها: إن ذهبت إلى بيت أختك فأنت طالق، أصبح بيدها الطلاق، انتزعت منك هذه السلطة، وبدأت تهددك: سأذهب، أصبح الأمر بيدها، كان أمرها بيدك فصار أمرك بيدها، فلذلك:

((ما حلف بالطلاق مؤمن ولا استحلف به إلا منافق))

[ابن عساكر وابن النجار عن أنس]

لا تطلقوا النساء إلا من ريبة، أي في أمر يمسّ سمعة الأسرة، في أمر يمسّ تربية الأولاد، لأن هذه المرأة التي توفي زوجها، وهي شابة، قال عنها النبي عليه الصلاة والسلام:

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا، فإذا امرأةٌ تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي، قلت: من هذه يا جبريل ؟ قال: هي امرأةٌ مات زوجها، وترك لها أولاداً، فأبت الزواج من أجلهن))

[ورد في الأثر]

أقدس عملٍ على الإطلاق تربية الأولاد :

لو كان هناك مشكلة بين الزوجين من أجل الأولاد فيجب أن يضع الزوج حظوظه من الدنيا تحت قدمه، ويجب أن تضع الزوجة حظوظها من الدنيا تحت قدمها من أجل تربية الأولاد، لأن أقدس عملٍ على الإطلاق تربية الأولاد، فالطلاق ماذا يؤدي؟ إلى تشتت الأولاد، وإلى تشردهم، أنا أعرف رجلاً

طلّق امرأته، ثم اكتشف أن ابنته الصغيرة التي أودعها في بيت جدها سقطت في الرذيلة، ما شعور هذا الأب وقد خسر ابنته، وابنه الثاني هرب، ولا يعلم أين هو؟ فالإنسان حينما يتزوج، لو نشأ خلاف بين الزوجين فيجب أن يضع حظوظ نفسه تحت قدمه رعاية لأولاده، لأن هذه التي في البيت هي أمهم، مهما كانت سيئة فهي أمهم، وهي أفضل ألف مرة من امرأةٍ غريبة تقسو عليهم.

الحديث الآخر:

((يا معاذ، ما خلق الله شيئاً على وجه الأرض أحب إليه من العتاق، ولا خلق الله شيئاً على وجه الأرض أبغض من الطلاق، فإذا قال الرجل لمملوكه: أنت حرٌ إن شاء الله، فهو حرٌ، ولا استثناء، وإذا قال الرجل لامرأته: أنت طالقٌ إن شاء الله، فله استثناؤه، ولا طلاق عليه))

[الدار قطني عن معاذ]

لأن الطلاق لا يحبه الله، والعتاق يحبه الله عزَّ وجل.

الطلاق على أربعة أوجه :

شيءٌ آخر، عن ابن عباسٌ قال:

((الطلاق على أربعة أوجه، وجهان حلالان، ووجهان حرامان، فأما الحلال أن يطلقها طاهراً عن غير جماع، وأن يطلقها حاملاً مستبيناً حملها، وأما الطلاق الحرام فأن يطلقها وهي حائض، أو أن يطلقها حين يجامعها، لا تدري أشتمل الرحم على ولدٍ أم لا))

[الدار قطني عن ابن عباس]

وقال بعض العلماء: من طلق في طهرٍ لم يجامع فيه نفذ طلاقه، وأصاب السنة، وإن طلّقها حائضاً نفذ طلاقه، وأخطأ السنة، أما سعيد بن المسيِّب فيقول: "لا يقع الطلاق في الحيض، لأنه خلاف السنة".

وعَنْ سَالِمٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ:

((أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، فَذَكَرَ عُمَرُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَغَيَّظَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: لِيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ فَتَطْهُرَ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ))

[متفق عليه عَنْ سَالِمٍ]

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ)

أي طلقوهن في طهرٍ لم تجامعهُن فيه.

(وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ)

الأمر موجَّه للأزواج حتى يعرف متى تنتهي العدة، متى يدفع النفقة، متى يمسك، متى يخرج.. إلخ، وفي درسٍ قادم إن شاء الله نتابع هذا الموضوع .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطلاق 065 - الدرس (2-6): تفسير الآية 1

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-12-20

بسم الله الرحمن الرحيم

التقيد بمنهج الله في علاقة الإنسان بزوجته :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة الطلاق، ومع الآية الأولى وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

أما قوله تعالى في هذه الآية:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ)

أي اتقوا أن تعصوه، واتقوا أن تخالفوا أمره، واتقوا أن تقعوا تحت سخطه، واتقوا ألاّ تأخذوا بهذا المنهج القويم في علاقتكم بأزواجكم.

أي خلافٍ بين الزوجين إذا انتهى إلى طلاقٍ رجعي فبقاء الزوجة في بيت زوجها أفضل :

من دقائق هذا التوجيه الإلهي:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

من حقّها عليك ألاّ تخرجها من البيت إذا طلّقتها، ومن حقك عليها ألاّ تخرج من دون إذنك بعد الطلاق، من حقها عليك ألاّ تخرجها، ومن حقك عليها ألاّ تخرج، وهذا تشريع الحكيم الخبير، لأن أي خلافٍ بين الزوجين إذا انتهى إلى طلاقٍ رجعي فبقاء الزوجة في بيت زوجها مما يقلل من قيمة هذا الخلاف، ومما يجعله يتضاءل إلى أن ينعدم، والرجعة ميسورة، وبيد الزوج لفظاً أو سلوكاً، أما إذا خرجت من بيت زوجها فإن أي خلافٍ مهما بدا لك صغيراً يتفاقم، السبب أنها وهي عند بيت أهلها تأتيها المُغَذّيات، تأتيها التوجيهات، تأتيها التحدّيات من أخواتها، من أمها، من أبيها، من خالاتها، ومن عمّاتها، هُنّ لا يعشن مشكلتها، يشرن عليها أن تعانده، يشرن عليها أن تستكبر عليه، يُشرن عليها ألاّ تعبأ به، بل يشرن عليها أن تربّيه، فيكبر رأسها، ويزداد انحرافها، وهو حينما يراها لا تتصّل به، ولا تعبأ به، ولا تعود إلى البيت، وتهمل أمره، هو أيضاً يحقد عليها، فلمجرَّد أن تخرجها من البيت أو أن تخرج، إن أخرجتها

فقد تجاوزت حقوقها، من حقّها ألاّ تخرجها، وإن خرجت فمن حقك ألاّ تخرج، إن خرجت فقد أساءت، وضيَّعت حق زوجها وأولادها، وإن أخرجتها فقد أسأت إليها، وأضعت حقها في بقائها في بيتها، هذا التوجيه الإلهي رافقه تشديد، ما هو هذا التشديد؟ هو قوله تعالى:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ)

هذه النون نون النسوة، أضيفت إلى البيوت التي تسكن فيها النساء، وكأن البيت الذي تسكنه الزوجة أضيف إليها لا إضافة تملكٍ، بل إضافة تشبُّث، أي أيتها المرأة تشبَّثي في بيتك، ولا تخرجي منه، إن خرجت منه أسأتِ إلى زوجك، إن خرجتِ منه تفاقم الأمر، بالتعبير الجديد.. تفجَّر الأمر.. مشكلة إما أن تحاصرها، وإما أن تحتويها، وإما أن تصغِّرها وتحجِّمها، وإما أن تتفاقم، وأن تكبر إلى أن تنفجر.

من طبق التوجيهات الإلهية في الزواج تضاءلت المشكلات الزوجية إلى العُشر :

أيها الأخوة الكرام، يستنبط من هذا التوجيه الحكيم أن المرأة إذا خرجت من بيتها إلى بيت أهلها من دون إذن زوجها عقب طلاقٍ رجعي، إذا خرجت فقد ضيّعت حقّ زوجها وأولادها، وقد عَصَتْ ربَّها، وقد أساءت إلى أسرتها، وعقابها أن هذه المشكلة التي بينها وبين زوجها تتفاقم، تزيد إلى أن تنتهي بالطلاق الحقيقي، وكم من امرأةٍ خرجت من بيت زوجها إلى بيت أهلها، ولم ترجع أبداً، جاء دور الشيطان ينفخ فيها، وينفخ فيه، يقول لها: لم يتّصل بك، لم يأت لزيارتكِ، لم يسأل عنكِ، ويقول له: لم تتصل بك، ولم تعُد إلى البيت، ولم تعبأ بك، حينما تخرج الزوجة من بيت زوجها إلى بيت أهلها عقب طلاقٍ رجعي من دون إذن زوجها أساءت، وفجَّرت الموقف بيدها، وإن أخرجها من بيته عنوةً، وقسوةً، وإكراهاً أيضاً فقد حملها على أن تزيد المشكلة سوءاً، لو أن الأزواج والزوجات طبَّقوا جميعاً هذا التوجيه الإلهي الكريم لتضاءلت قضايا المشكلات الزوجية إلى العُشر، هذا كلام خالق الكون، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يحملها على البقاء في البيت، وكأنه بيتك..

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ)

لم يقل: من البيوت، لم يقل: لا تخرجوهن من بيوتكم، البيت للزوج، وهو مسجلٌ باسم الزوج، وهو مالكه، هو الذي يبيعه، والقرآن الكريم نسبه إلى الزوجة فقال:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ)

أي أيها الزوج، وإن كان البيت لكَ في السجلاّت الرسمية هو لها في حق التشبّث به، ويا أيتها الزوجة، ولو أنكِ لا تملكين هذا البيت فإنما هو بيتك في نص القرآن الكريم لا نسبة ملكية، بل نسبة تشبُّث،

الخلاصة أن كل خلافٍ زوجي يتضاءل إذا بقيت المرأة في بيت زوجها، وإن كل خلافٍ زوجي يتفاقم إذا خرجت من بيت زوجها.

قرار الطلاق قلّما يبنى على محاكمة منطقية :

وقد ذكرت لكم من قبل أن قرار الطلاق قلّما يبنى على محاكمة منطقية، قلّما يبنى على ضرورة، أغلب ما يبنى على انفعال، والانفعال مؤقت، الانفعال لا يدوم، الانفعال يتناقص، الانفعال يتلاشى بعد حين، فالله سبحانه وتعالى لئلا يكون فرقة بين الزوجين، لئلا يُشَرَّد الأولاد، لئلا تنهدم الأسرة، لئلا تُدمَّر الحياة في هذا البيت جعل الطلاق بهذه الطريقة.

إذاً روعة تنفيذ أمر الله في هذه الفقرة، طلقتها طلاقاً سُنِّياً، تطليقةً واحدةً في طهرٍ لم تمسَّها فيه، هذا الطلاق السُنِّي، طبعاً لو طلقتها في حيض فهذا طلاقٌ بدعي، لو طلقتها في طهرٍ مسستها فيه فهذا طلاقٌ بدعي، لو طلقتها طلاقاً سنياً وفق السنة الشريفة في طهرٍ لم تمسها فيه، إلا أنك أخرجتها من بيتك إلى بيت أهلها من أجل أن تبتعد عنك فأنت عَطَّلْتَ حكمة أمر الله عزَّ وجل، أرادها الله أن تبقى إلى جانبك، أراد الله أن تنسى بعد يومين أو ثلاثة هذه المشكلة، أرادها أن تتضاءل، وأنت حينما أخرجتها من بيت أهلها أردتها أن تتفاقم.

نسبة البيت إلى الزوجة ليس نسبة تملّك بل نسبة تشبُّث :

أعيد وأكرِّر: أي خلافٍ بين الزوجين مهما كان كبيراً يتضاءل، ويتلاشى بعد حين إذا بقيت الزوجة في بيت زوجها، وأي خلافٍ بين الزوجين مهما كان صغيراً يتفاقم، وقد ينتهي إلى الطلاق إذا خرجت من بيت زوجها إلى بيت أهلها، خروجها من بيت زوجها إلى بيت أهلها من دون إذن زوجها تَضْييعٌ لحق زوجها، وإخراجها من بيت زوجها إلى بيت أهلها مكرهة تضييعٌ لحقّها، من حقّها أن تبقى في بيت زوجها، ومن حقّه أن تبقى له، وهي مطلّقة، لأن هذا الطلاق في الأعمِّ الأغلب ينتهي إلى المراجعة لو طُبِقَت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، هذا كلامٌ ليس للاستمتاع، ولا لأخذ العلم، ولكن للتطبيق.

فكثيراً ما يأتي أخوةٌ كرام طلّقوا زوجاتهم طلاقاً وَفْقَ السنَّة، ولكن طردوهنّ إلى بيت أهلهن، وبهذا الطرد يتفاقم الأمر، وقد ينتهي إلى الطلاق، هذا توجيه الله عزَّ وجل، ولا أدل على هذا التوجيه القويم من أن هذا البيت ينبغي أن تتشبَّث به الزوجة، وكأنه بيتها، وهذا البيت الذي هو لك أيها الزوج ينبغي أن تتحرَّج أن تخرجها منه، ولو كان بيتك، إنه في كتاب الله بيتها، وإنه في كتاب الله منسوبٌ إليها، لا أقول: نسبة تملُّك بل أقول: نسبة تشبُّث.

المرأة تؤكد ذاتها وتظهر عبقريتها و كفاءتها في بيتها :

هناك معنى آخر، وهو أنه حينما نسب الله هذا البيت الذي تسكنه أنت وزوجتك إلى زوجتك، أضافه إليها مِنْ[، بعض العلماء استنبط أن الزواج عند الرجل أحد فصول حياته،]بُيُوتِهِنَّ له فصلٌ في علاقته مع ربِّه، وله فصلٌ في علاقته مع من حوله، وله فصلٌ في عمله، وله فصلٌ في تأكيد ذاته، وأحد فصول حياته زواجه، فإن لم تظهر كفاءة الزوج، ولم تظهر عبقرية الزوج في بيته ظهرت خارج البيت، إن لم تظهر في بيته ظهرت في عمله، إن لم تظهر في بيته ظهرت في إنجازه، في قوة شخصيته، في دقَّة صنعته، في براعة حرفته، في رواج تجارته، في نماء مزروعاته، الرجل يستطيع أن يؤكّد ذاته في حقولٍ كثيرة، أحدها عمله، أحدها علاقاته، أحدها علاقته مع ربِّه، أما الزوجة يعَدُّ الزواج بالنسبة إليها كل فصول حياتها، فإذا نجحت في أن يتزوَّجها رجلٌ كفء لها فقد نجحت في الحياة، وإن لم تنجح فقد أخفقت، لذلك في أي مكانٍ تؤكد الزوجة ذاتها، وتظهر عبقريتها، وتظهر كفاءتها، وتظهر قوة شخصيتها، وتظهر براعتها، وتظهر حسن تدبيرها؟ في بيتها، فإذا منعها الزوج من حقّها الطبيعي في أن تكون مسؤولة عن بيت زوجها فقد حرمها كل فصول حياتها، لذلك هذا معنى آخر ذكره بعض العلماء في عِلّة نسبة البيت إلى الزوجة، فأنت حقق شخصيتك وكفاءتك خارج البيت، ودعها هي لتحقق إمكاناتها، وحسن إدارتها، وذوقها داخل البيت، طبعاً في حدود المستطاع، لأنكِ أيتها الزوجة إن أردتِ أن تطاعي فائمري بما يُستطاع، وهذه حكمةٌ بليغة: " إذا أردت إن تُطاع فائمر بما يُستطاع ".

من لم يطبق الآية التالية فقد عطّل حكمة الطلاق :

إذاً أول نسبةٍ للبيت إلى الزوجة نسبة تشبُّث، لا تخرج، ارفضي أن تخرجي، وأنت أيها الزوج لا تخرجها، إياك أن تخرجها كي تعود إليك، ولا تخرجي كي تعودي إليه، لا تخرجها كي تعود إليك، ولا تخرجي أيتها الزوجة كي يعود إليكِ، أما إذا خرجتِ أو أخرجتها فإن أصغر قضيةٍ بينك وبينها تتفاقم، وتتفجَّر، وتنتهي إلى الطلاق، أما إذا بقيت في بيت زوجها فإن أكبر مشكلةٍ بينك وبينها تتلاشى، وتنتهي إلى الوفاق.

إذاً أيها الأخوة، هذا كلامٌ للتطبيق، لا لأخذ العلم، ولا للمتعة المجرَّدة، ولا للترنّم بكتاب الله، هذا توجيه ربنا لنا، حافظ على تطبيق هذه الآية، بل إن الزوج.. كما قلت قبل قليل.. لو طلَّقَ امرأته طلاقاً سنياً راعى فيه كل الشروط، ولم يطبِّق هذا البند من هذه الآية، في قوله تعالى:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

فقد عطّل حكمة الطلاق، ولم يكن الطلاق عندئذٍ سنّياً، بل كان بدعياً، وهذه الحقيقة لها ألف شاهدٍ وشاهد، ولها ألف دليلٍ ودليل، وعليها ألف قصّةٍ وقصّة، عمَّتها من جهة، وخالتُها من جهة، وأختها من جهة، وأخوها من جهة، وأبوها من جهة، وأمها من جهة، كلُّهم من جهة يوغرن صدرها على زوجها، وبالمقابل أمه وأبوه، وإخوته وأخواته، وعمَّاته وخالاته يوغرن صدره على زوجته، هم يعودون إلى بيوتهم مطمئنين، والنساء يعدن إلى أزواجهن مطمئنات، وتبقي أنت وحدك في البيت تتلوّى، وتبقى هي وحدها تتلوّى، وهؤلاء الذين أوغروا صدوركما، وما نفعوكما، لذلك اقبل نصيحة الله عزَّ وجل، لا تخرجها من البيت، ويا أيتها الزوجة لا تخرجي من البيت..

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

لا يحلف بالطلاق إلا من استخفَّ بهذا العقد الغليظ :

أنا أشعر بألمٍ شديد حينما أجد إنساناً يطلب العلم، يحضر الدروس، يرتاد المساجد، محسوبٌ على المسلمين، محسوبٌ على الأتقياء، يُخالف أمر الله في علاقته بزوجته.. كما قلت لكم: عن ابن عبَّاسٍ جاءه رجل، وقد حلف يمين طلاقٍ، قال: " أيرتكب أحدكم أحموقته، ويقول: يا بن عبَّاس، يا بن عبَّاس!!".

أي لو أن غضباً شديداً بين الزوجين افعل كل شيءٍ إلا الطلاق، لو فعلت كل شيءٍ بيدك إصلاحه، أما إذا وقعت منك كلمة الطلاق فالآن صار هناك قواعد شرعية لا يجوز أن تخالفها، وإلا كان الزنا بينك وبينها، القضية كبيرةٌ جداً، لذلك لا يحلف بالطلاق، ولا يستحلف به إلا منافق، لا يحلف بالطلاق إلا من لم يعرف حقَّ الزوجة، ولا حقَّ الزوج، إلا من استخفَّ بهذا العقد الغليظ، بهذا الميثاق الغليظ الذي كان بين الزوجين، وأنا لا أكتمكم في أن أقول: إن أوثق ميثاقٍ بين شخصين على الإطلاق هو عقد الزواج، هذا العقد يبيح لك من المرأة ما لا يستطيع أبوها، ولا أخوها، ولا عمُّها، ولا خالها، ولا أمُّها أن ترى منها شيئاً، وهذا العقد يبيح للزوجة أن ترى منه ما لا يستطيع أحدٌ أن يرى منه..

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

[سورة النساء: 21]

هذا الميثاق الغليظ هو عقد الزواج.

الفاحشة هي الخيانة والبذاءة والسرقة وهذه حالات نادرة :

أيها الأخوة الكرام:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا)

هناك استثناء..

(إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ)

إلا أن تقع الفاحشة في البيت، إلا أن تقع الخيانة في البيت، هكذا فسَّر بعض العلماء الفاحشة، وفسروها أيضاً ببذاءة اللسان، لو أن هذه الزوجة سليطة اللسان، تُصيب بلسانها المقذع كل من في البيت، ولعلَّ هذا اللسان المقذع ينتهي إلى مشاجراتٍ، وإلى تفجُّراتٍ، في هذه الحالة ينبغي أن تخرجها من البيت حسماً للشر، وحسماً لتفاقمه .

(إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ)

أو أن تأخذ من البيت ما ليس لها، وقعت الخصومة، وبدأت تأخذ ما ليس لها سرقة، أو بذاءةً، أو خيانة، فُسِّرت الفاحشة بالخيانة، وبالبذاءة، وبالسرقة، وهذه حالات نادرة جداً، أي قلَّما ترافق حالة طلاق، لكن الاستثناء له حكمه.

الطائع في ظل الله ومشمولٌ برعايته :

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ)

ما دمت لم تتعدَّ حدود الله فأنت في ظلِّ الله، ما دمت لم تتعدَّ حدود الله فأنت مشمول برعاية الله. أيها الأخوة، الطائع في ظل الله، مشمولٌ برعاية الله، وحفظ الله، وتوفيق الله، الله يسدد خُطاه، ينير له الطريق، يوفِّقه، يحفظه، يدافع عنه، أنت حينما تقيم حدود الله يوفق الله بينك وبين زوجتك.

أكبر مهمَّات الشيطان التفرقة بين المرء وزوجته :

دائماً أيها الأخوة القاعدة: أن الشيطان من أولى مهمَّاته أن يفرِّق بين المرء وأهله، أي إن أحد أكبر مهمَّات الشيطان أن يفرِّق بين المرء وزوجته، فالشيطان ماذا يفعل؟ إنه يوسوس للزوج أن يخرج عن منهج الله، ويوسوس للزوجة أن تخرج عن منهج الله، وحينما يبنى زواجٌ على معصية الله عندئذٍ تنشأ الكراهية والحقد والبغضاء، المودة أساسها أن تقيم منهج الله في بيتك، ما من بيتٍ يُبنى على طاعة الله

إلا ويتولّى الله التوفيق بين الزوجين، وما من بيتٍ يبنى على معصية الله إلا ويتولّى الشيطان التفريق بينهما..

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ)

كيف أن تياراً كهربائياً شدَّته ثمانية آلاف فولط، لو أن الإنسان اقترب منه إلى أقلّ من ستة أمتار يجذبه التيار، ويجعله قطعة من الفحم في ثوانٍ معدودات، ماذا نقول للمواطنين حيال هذا التيار؟ نقول: احذروا أن تمسُّوه أم احذروا أن تقتربوا منه؟ احذروا أن تقتربوا منه، وكلّما كنت ورعاً جعلت بينك وبين حدود الله هامش أمان، لذلك المؤمن لا يستخدم الطلاق، ولا حرف الطاء، ولا حرف اللام، ولا حرف القاف إلا في حالات نادرة جداً، لا تُطلّق المرأة إلا من ريبة، أما أن تجعل من الطلاق سلاحاً مشهوراً على الزوجة، يُذهِب عنها طمأنينتها ويقلقها، وتكون في دوامةٍ من الفراق فهذا ليس من تشريع الله عزَّ وجل..

على الإنسان أن يجعل هامش أمان بينه و بين حدود الله :

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)

حدود الله لا تقترب منها، اجعل بينك وبينها هامش أمان، حدود الله إذا تجاوزتها خرجت من مظلّة الله عزَّ وجل، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((سَبعة يظلّهم الله تحت ظلّه يوم لا ظلَّ إلا ظلّه))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

أنا يهمني من هذا الحديث:

((يظلّهم الله تحت ظلّه يوم لا ظلَّ إلا ظلّه))

أنت إذا كنت في طاعة الله فأنت تحت ظلِّ الله، ومعنى ظل الله أي رعايته، وتوفيقه، وتأييده، وحفظه، ونصره، والدفاع عنك ما دمت في طاعة الله، وهذا أمر الزواج أمرٌ خطير، فهو أخطر حدثٍ في حياتك، بل إن أخطر علاقةٍ على الإطلاق هي علاقتك بزوجتك، فإذا كنت مع الله تولّى الله هذه العلاقة بالنماء، تولاّها بالرعاية، تولاّها بالحفظ.

من طبق التوجيهات الإلهية كان الطلاق في طريقه إلى المراجعة :

لذلك..

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

ومن آياته أنك تسكن إليها، وتسكن إليك..

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ)

لا تطلّق وأنت غضبان، لا تطلّق وهي حائض، لا تطلّق في طهرٍ مسستها فيه، لا تطلّق إلا من ريبة، لا تطلّق وتُخْرِج، لا تخرجي أيتها الزوجة إذا طَلِقك زوجك بل تشبَّثي ببيتكِ، هذه كلّها ضمانات لكي يكون الطلاق في طريقه إلى المراجعة، إذا طبَّقت هذه التوجيهات الإلهية كان الطلاق في طريقه إلى المراجعة، وإلى التلاشي، أما إذا خالفت هذه التوجيهات فعندئذٍ يتفاقم الأمر..

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)

من يَتعَدَّ حُدودَ اللَّهِ فقدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ :

فالله عزَّ وجل كما يقول في الحديث القدسي الصحيح:

((... يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 71]

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

[سورة الروم: 44]

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

[سورة الجاثية: 15]

(وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)

أحياناً تجد زوجاً عنده زوجة صالحة، تدير أمر بيته، عنده منها خمسة أولاد، وهي راضية به، وهو راضٍ بها، ولسببٍ تافهٍ تافه، وفي ساعة غضبٍ طارئ يطلّقها طلقاتٍ ثلاثة، ويخرجها إلى بيت أهلها، الأمر يتفاقم، أهلها يتشبثون بها، يحرمونها منه، ويحرمونه منها، يأتي إلى البيت فإذا هو بيتٌ لا امرأة فيه، لا زوجة فيه، بيتٌ موحش، المرأة وجودها في البيت مؤنس، وحركتها في البيت مؤنسة.. فهي تُقدِّم خدمات كثيرة لزوجها وأولادها.. أولاده جياع، الطعام غير موجود، البيت غير نظيف، الثياب غير

جيدة، هو حائر، هو مضطرب، أنت الذي ظلمت نفسك، كانت هي عندك، وكانت في خدمتك، وكانت طَوْعَ إرادتك فكفرت بهذه النعمة.

نعمة الزواج من نعم الله الكبرى :

أيها الأخوة، نعمة الزواج من نعم الله الكبرى، أنا أقول هذا الكلام للأزواج والزوجات: يا أيها الزوج لا تكفر بنعمة الزوجة فتطلقها لأتفه سبب، أو تبعدها عن بيتك لأتفه نزوة، ويا أيتها الزوجة لا تكفري بنعمة الزوج، كم من النساء يتمنَّين أن يكن زوجات وعندهن أولاد؟ هذا الشيء لم يتح لهم، فيا أيها الزوج لا تكفر بنعمة الزوجة فتُحرَم منها، ويا أيتها الزوجة لا تكفُري بنعمة الزوج فتُحرَمي منه، فعَنْ ثَوْبَانَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ))

[الترمذي عن ثوبان]

هذه أيها الأخوة بعض ما في هذه الآية من حقائق.

ليس من السنَّة أن تطلِّق المرأة تطليقاتٍ ثلاثة في مجلسٍ واحدٍ :

الله عزَّ وجل حينما قال:

(لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

قال بعض العلماء: هذه الكلمات في هذه الآية هي دليل أنه ليس من السنَّة أن تطلِّق المرأة تطليقاتٍ ثلاثة في مجلسٍ واحدٍ، هذه الآية أصبحت لا معنى لها.

(يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

إن طلقتها تطليقة واحدة، إذاً تُراجِعُها، يحنُّ قلبك إليها، تنسى ما أغضبك منها، تنسى خطأها، تنسى انفعالها، أما إذا طلقتها بالثلاث طلاقاً بائناً بينونة كبرى فإن هذا الكلام لا معنى له، وهذه الفِقرات في هذه الآية أكبر حجَّة على أن الطلاق السُنِّي هو ما كان تطليقة واحدة في كل طهر، في كل طهر تطليقة واحدة، طهر وثلاثة أقْراء، طهر وثلاثة أقراء، طهر وبينونة كبرى.

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ)

[سورة البقرة: 229]

الثالثة :

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

[سورة البقرة: 229]

مشكلاتنا سببها خروج عن منهج الله وكل خروج سببه الجهل :

والله أيها الأخوة، ترتكب حماقات، وترتكب مخالفات في شأن الطلاق بين شباب المسلمين وشابَّات المسلمين فيما لا يُحصى، هذا دليل جهل، هذا دليل بعد المسلمين عن مجالس العلم.

مرَّةً.. أذكر هذه القصَّة، لأنها حدثت قبل عشرين عاماً فيما أذكر.. في أول عهدي بالخطابة، سألني أخٌ فقال لي: إن امرأتي تخونني منذ ثلاث سنوات، قلت له: مع من؟ قال لي: مع جاري، قلت له: وكيف عرفت أنها مع جارك؟ قال: زارنا مرَّةً فقلت لزوجتي: تعالي اجلسي معنا، إنه مثل أخيكِ، قلت له: لو حضرت مجلس علمٍ واحد، وعرفت حكم الله في شأن الاختلاط لما فعلت هذا، فيجب أن نعلم علم اليقين أن كل مشكلاتنا على الإطلاق سببها خروجٌ عن منهج الله، وأن كل خروج عن منهج الله سببه الجهل، وأن الجهل هو أعدى أعداء الإنسان، وأن الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوّه أن يفعله به، وإنني والله أستمع إلى مآسي بيوتات المسلمين، أحياناً يكون الزوج ضحيةً، وأحياناً تكون الزوجة هي الضحية، وأحياناً يكون الزوجان معاً هما الضحية بسبب الجهل، لذلك حينما تأتي إلى بيتٍ من بيوت الله لتتعرَّف إلى حكم الله في أخصِّ خصوصياتك.. في زواجك.. فأنت في هذا الوقت تستثمر الوقت لا تستهلكه، أنا لا أجد كلمة أشد جهلاً بصاحبها من الذي يقول: أنا لا يوجد عندي وقت لحضور مجلس علم، فإذا قلنا لإنسان: تعال وتعلَّم قيادة السيارة، يقول لك: أنا لا يوجد عندي وقت لتعلُّم القيادة لكن سأقود السيارة، إذا أردت أن تقودها بلا تَعَلُّم فالحادث حتمي، الحادث قد يكون مميتًا، فأنت شئت أم أبيت تقود سيارة، هي هذه الزوجة، أو هذا البيت تقوده أنت، فإن لم تتعلَّم فنّ القيادة، وإن لم تعلَّم حدود الله، وإن لم تتعلَّم ما ينبغي، وما لا ينبغي، ما يجب وما لا يجب، ما يجوز وما لا يجوز، ما هو ممكن وما ليس بممكن، فالحادث حتمي، فهل من الممكن لإنسان مهما كان ألمعياً وذكيا أن أجعله وراء المقود أول مرَّةٍ في حياته من دون أن يعرف عن هذه المركبة شيئاً، وأجعله ينطلق بسرعة مئة، كم تظن احتمال الحادث؟ الحادث بالمئة مئة، وأي إنسان لا يتعلَّم، لا يعرف حكم الله في الزواج، ولا في الزوجة، ولا في أصول معاملتها، ولا في أصول تربية الأولاد سيخفق في بيته حتماً، وسيدفع الثمن باهظاً.

تعلُّم الشرع من أولويات الدين :

إذاً تعلُّم الشرع من أولويات الدين، تعلُّم أحكام الشرع يأتي في الدرجة الثانية بعد معرفة الله عزَّ وجل، فالوقت الذي تُمْضيه في حضور مجلس علمٍ تتعرَّف فيه إلى كلام الله، وإلى سنَّة رسوله، هذا استثمارٌ للوقت، وليس استهلاكاً له، لذلك لو عندك وقتٌ طويل تحلل فيه بعض المشكلات الزوجية لوجدت أن الجهل هو السبب، جهل الزوج بأحكام الله في الزواج، أو جهل الزوجة بأحكام الله في الزواج.

مرَّة فيما أذكر امرأةٌ وقفت عند بائعٍ لتشتري، ألانت له القول من أجل أن يخفض لها السعر فقط، هو ظنَّ شيئاً آخر.. وهي تسكن قريباً منه.. ظنَّ شيئاً آخر فتبعها، فلمَّا فُتِحَ الباب اقتحمه، نادت إلى ابنها ليستنجد بزوجها، زوجها قريب، له عمل قريب، فجاء الزوج وقفل الباب، وجاء بالشرطة، وفُضِحَ الأمر، واتُّهمت بالخيانة، وطلّقت، والسبب فيما أعلم أنها بريئة إلا أنها جاهلة، قال تعالى:

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا)

[سورة الأحزاب: 32]

المرأة حينما تلين القول مع الأجانب قد يفهمون شيئًا آخر، طُلِقت، وفُضِحَت لماذا؟ لأنها ألانت القول، فلذلك لو حلّلت ما يجري في البيوت من مآسي، ومن فِراق، ومن طلاق، لوجدت أن معظمه يعود إلى الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان، والعلم هو العلاج، ولابدَّ للمسلم من مجلس علمٍ ينضمُّ إليه، لابدَّ من منهلٍ علميٍ يستقي منه، لابدَّ من مرجعٍ يسأله، أما أن يبقى الإنسان هكذا يتحرَّك حركةً عشوائية بلا علم، بلا حكم، بلا فهم، بلا حكمة فهذا شأن عامَّة الناس.

حكمة الطلاق كلّه في الآيات التالية :

ثم قال تعالى:

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

أي:

(لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

أي إن حكمة الطلاق كلّه في هذه الكلمات، أي طلقها وليست حائضة، في طهرٍ لم تلامسها فيه، طلّقها تطليقةً واحدة، أبقها في بيتك، لها أن تتزين، ولها أن تأكل معك، ولها أن تفعل كل شيء، انتظر أن تطهر أول شهر، وثاني طهر، وثالث طهر، فإن لم تراجعها ملكت نفسها، وإن ملكت نفسها بإمكانك أن تعيدها بعقدٍ جديد، ولا شيء عليك، فإن راجعتها عادت الأمور إلى مجاريها، نشأت مشكلة ثانية فلك أن تطلقها تطلقيةً واحدة في طهرٍ لم تلامسها فيه، وتبقى في بيتك أول شهر، ثاني شهر، ثلاثة أشهر، ففي الأعم الأغلب تسعة وتسعون بالمئة من الطلاق ناشئ عن غضب، ناشئ عن تحدٍّ، ناشئ عن انفعال، هذا الانفعال إلى تلاشٍ، هذا الغضب إلى تلاشٍ، أي إن الله وضع ثلاثة أشهر وثلاثة أشهر، أي ستة أشهر، أنا أعتقد أحياناً أن القضية تحلّ في ثلاثة أيام، يومين، جمعة، في خلال أسبوعين، وانتهى الأمر، فإذا أخرجتها من بيتك فقد عطّلت حكمة الله في شرعه، وإذا خرجتِ أيتها الزوجة عطّلتِ حكمة الله في شرعه..

الله عز وجل قد يُحدِث بعد الخصومة وفاقاً و بعد الحقد تسامحاً :

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

من أجل ماذا؟ استمعوا بدقَّةٍ إلى حكمة هذا التشريع:

(لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

لعل الله يُحدِث بعد الخصومة وفاقاً، بعد الغضب هدوءاً، بعد الحقد تسامحاً، بعد النفرة ميلاً، هذا شأن الزوج، وشأن الزوجة، والله هو الخالق، هو الذي يعرف ماذا يخلق.

(لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

اتخذ بعض العلماء من هذه الآية دليلاً على أن طلاق الثلاث في مجلسٍ واحد، وفي موضوع واحد لا يقع، وبعضهم قال: " يقع، ولكن هذا الطلاق خلاف السنَّة، السنَّة أن تطلّق في كل طهرٍ لم تلامسها فيه تطليقة واحدة، وتنتظر ثلاثة قروء ".

أي زوجة لها حقوق على الزوج أن ينفق عليها ويرعى أمرها ويحفظ غيبتها :

قال تعالى:

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

قال العلماء:

(بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

أي قاربن على انتهاء العدَّة.. لا يوجد غير حلَّين:

(فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)

أي زوجة لها حقوق الزوجة، تنفق عليها، وترعى أمرها، وتحفظ غيبتها، وتبالغ في مودَّتها، وفي إكرامها، وتجلس إلى جانبها بالعدل، هذا هو الزواج.

(أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)

أي انتظر حتى تنتهي عدَّتها، ثم أعطها مهرها المُعَجَّل والمؤخَّر، ومتعتها، وفارقها بإحسان، هذه المرأة التي قالت: " يا أبا أمية، لقد كان لك من نساء قومك من هي كفءٌ لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجة على كتاب الله وسنة رسوله، فاتَّق الله فيَّ "، وامتثل قوله تعالى:

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

[سورة البقرة: 229]

هذا كلام الله، هناك من يُمسِك زوجة بغير المعروف، لا يأتي إلى البيت، لا يُنفق عليها.

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

[سورة البقرة: 229]

وإلا.. فالله سبحانه وتعالى ينتقم أشد الانتقام، وإلا.. فالله سبحانه وتعالى يدمِّر.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج : 12]

المرأة التي تحسن تَبَعُّل زوجها كالمجاهدة في سبيل الله :

إياك أن تظلم امرأةً ضعيفة لا تملك من أمرها شيئاً، كم من زوجٍ ظلم زوجته فذاق وبال أمره؟ كم من زوجةٍ ظلمت زوجها فذاقت وبال أمرها؟ المؤمن يُعامل زوجته من خلال الله عزَّ وجل، أي لا يظلمها، ولا يُقصِّر في حقّها كي يرحمه الله عزَّ وجل، وهي كذلك لا تظلمه، ولا تقصّر في حقّه كي يرحمها الله عزَّ وجل، بل إن المؤمن يغض البصر عن سلبيَّات زوجته، ويؤدِّي ما عليه من حقوقٍ لها تقرَّباً إلى الله، والمؤمنة تغضُّ النظر عن سلبيات زوجها وتؤدِّي ما عليها من حقوقٍ تقرُّباً إلى الله، فإذا كان الزوجان يتقرَّبان إلى الله بخدمة بعضهما بعضاً فكم سعيد هذا البيت؟.. هكذا.. هي تتقرَّب إلى الله بخدمة زوجها، والقيام بحقوقه، والنبي عليه الصلاة والسلام وعد بأن المرأة التي تحسن تَبَعُّل زوجها كالمجاهدة في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام..

(وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

معرفة حقوق الزوجة و حقوق الزوج معرفة واجبة على الطرفين :

أيها الأخوة... الزوجة لها حقوق، والزوج له حقوق، لابدَّ أن يعرف الزوج حقوق زوجته، ولابدَّ من أن تعرف الزوجة حقوق زوجها، هذا من أجل أن نُطبق هذه الآية:

(فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)

أي وفق الشرع، فكيف تمسكها بمعروف، ولا يعرف بعض الأزواج حقوق الزوجة؟ أحياناً يُهملُها، أحياناً لا يأتي إلى البيت، عنده زوجة ثانية، يعيش مع الثانية أسابيع وأسابيع تلو الأسابيع، ويُهمل الأولى، ومع إهمال الأولى قد تنحرف، لذلك كيف تعامل الزوجة بالمعروف إن لم تعرف حدود هذا المعروف؟

(فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)

لذلك قالوا: العلم علمان، علمٌ فرض عين، وعلمٌ فرض كفاية، العلم الذي هو فرض عين ما ينبغي أن يُعلّم بالضرورة؛ أحكام الزواج، وحقوق الزوجة، وحقوق الزوج، علمٌ ينبغي أن يُعلم بالضرورة لكلٍ من الزوجة والزوج، لابد من أن تجلس في مجلس علم، أو أن تقرأ، أو أن تستمع إلى شريط.

أنا فيما أذكر كان قبل سنواتٍ عدَّة دروس يوم الأحد عن حقوق الزوجة و حقوق الزوج، فحقوق الزوجة شريطان، وحقوق الزوج أيضاً شريطان، وحقوق الآباء على أولادهم أربعة أشرطة، وحقوق الأولاد على آبائهم شريطان، أي إن المجموع عشرة، هذه المجموعة تبين حقوق الأزواج والزوجات، والآباء والأبناء، هذه أشياء دقيقة شرعية لابدَّ من أن تعرفها لكي لا يخالف الإنسان الشرع، فإذا خالف دفع الثمن باهظاً، نظام دقيق..

أضرب لكم مثلاً: قانون السقوط، هذا قانون، إن أردت ألاّ تعبأ به، إن احتقرته، إن لم تكترث به، وألقيت بنفسك من الطائرة من دون أن تراعي هذا القانون، القانون حينما لا تعبأ به يُطبَّق عليك وقد يُهلِكك، أما إذا عَبَأت به نزلت بالمظلّة.. أي إن القوانين والسنن لا تُلغى إن لم تعترف بها، إذا لم تعترف بها لا تُلغى، إن اعترفت بها أو لم تعترف، آمنت بها أو لم تؤمن، وَّقرَّتها أو لم توَقِّرها فهي نافذة، فهناك نظام دقيق جداً، فإن عرفته تكيَّفت معه، وإن لم تعرفه دفعت ثمنه.

السعادة الزوجية في البيوت مهمَّة جداً وهي أساس نجاح الإنسان خارج البيت :

لذلك:

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)

كيف يُمسِكُها بمعروف؟ قال العلماء:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة النساء: 19]

فسَّروا المعروف لا أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها، إذا وَطَّن الزوج نفسه أن يحتمل الأذى من زوجته، والزوجة إذا وَطَّنت نفسها أن تحتمل الأذى من زوجها، لم يعد هناك أية مشكلة، انتهت المُشكلات، إذا عرفت حقوقه، وعرف حقوقها، إذا عرفت حدودها، وعرف حدوده، إذا عرف ما له وما عليه، وعرفت ما لها وما عليها، انتهت المشكلة، إن سعدت البيوت سعِد المجتمع، إن اطمأنّ الإنسان في بيته أنتج في عمله، وضاعف إنتاجه، فقضية السعادة الزوجية في البيوت مهمَّة جداً هي أساس نجاحك خارج البيت، والأوامر معروفة، اطلب العلم، تعلَّم.

النبي عليه الصلاة و السلام قدوة لنا في أحواله كلّها :

كان عليه الصلاة والسلام قدوةً لنا في زواجه، في أحواله كلها، في معاملته لزوجاته.. فقد جاء طبقٌ من الطعام من السيدة صفية إلى بيت عائشة، فأصابتها الغيرة، أمسكت بالطبق وكَسَّرته، ماذا بإمكان النبي أن يفعل؟ بإمكانه أن يفعل كل شيء، ماذا قال؟ عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتْ الَّتِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِهَا يَدَ الْخَادِمِ فَسَقَطَتْ الصَّحْفَةُ، فَانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ، وَيَقُولُ: غَارَتْ أُمُّكُمْ، ثُمَّ حَبَسَ الْخَادِمَ حَتَّى أُتِيَ بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وَأَمْسَكَ الْمَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ الَّتِي كَسَرَتْ))

[البخاري عن أنس]

أي إنه امتص هذا الغضب، غضبت أمكم، غضبت أمكم، هو قدوةٌ لنا، طبعاً لا نسمح لهن بتكسير الأطباق، ولكن نقتدي برسول الله بحلمه، برحمته، بامتصاص غضبها، بعطفه عليها، فنحن يجب أن نقرأ سيرة النبي كي نعرف كيف كان النبي زوجاً ناجحاً.. تسأله من حينٍ لآخر أتحبُّني؟ يقول عليه الصلاة والسلام: كعقدة الحبل، تقول له: كيف العقدة؟ يقول: على حالها.. كان زوجاً ناجحاً. ورد في بعض السير أنه حينما فتح مكّة قال: انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة، وفاءً لها، فالإنسان أحياناً يتزوج زوجة ثانية بعد وفاة زوجته الأولى فيتقرَّب للثانية بذم الأولى دائماً... لكن النبي عليه الصلاة والسلام كلّما ذكر خديجة أثنى عليها، مرَّةً قالت له عائشة: ألم يبدلك الله خيراً منها؟ قال: لا والله، لا والله، وفاؤه لزوجاته عجيب، حلمه عليهن عجيب، رحمته بهن عجيب، لطفه لهن عجيب، كان إذا دخل بيته بسَّاماً ضحَّاكاً، كان يقول: أكرموا النساء، فوالله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحبُّ أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً، كان يقول: إنهن المؤنسات الغاليات.

المساواة بين الرجل و المرأة في التكليف والتشريف والمسؤولية :

في الإسلام لا توجد عندنا تفرقة، الزوجان متكافئان في التكليف والتشريف والمسؤولية، والنساء شقائق الرجال، والآيات القرآنية كلّها موجَّهة للنساء أيضاً، وأبلغ آية:

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

[سورة الأحزاب: 35]

يريد الله عزَّ وجل أن يؤكِّد:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)

[سورة آل عمران: 195]

مساواةٌ تامَّة بين الزوجين، قال تعالى:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

[سورة الطلاق: 6]

فهذا حكم الله في الزواج، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن تُتَرْجَم هذه الآيات إلى سلوك، أن تنتهي هذه الآيات إلى بيوت سعيدة.

السعادة أيها الأخوة لا تنبع من مساحة البيت، ولا من موقعه، ولا من ثمنه، ولا من مركبةٍ، ولا من دخلٍ كبير، تنبُع من داخل الزوجين إذا عرفا ربَّهما، وأقبلا عليه كان بيتهما قطعة من الجنَّة، فإذا ابتعدا عن الله عزَّ وجل كان البيت قطعة من الجحيم.

سِرُّ السعادة في الوفاق و سرّ الوفاق في طاعة الله :

أيها الأخوة الكرام، ما أردت من هذا الدرس أن يكون درس تفسير بقدر ما أردته أن يكون تطبيقًا عمليًّا، أن يكون هذا الدرس سبباً لسعادتكم في بيوتكم، المرأة تصبر على كل شيء، لكن لا تصبر على أن تُهان، أو أن تُجرَح كرامتها، قد تأكل أخشن الطعام، وقد ترتدي أخشن الثياب، وقد تقبع في بيتٍ لا يُسكَن إذا كان زوجها يحبُّها، وهي راضيةٌ عنه وراضٍ عنها، فَسِرُّ السعادة في الوفاق، سر الوفاق في طاعة الله، فأنت حينما تطيع الله عزَّ وجل كأنك تقول: يا رب، وفق بيننا، نحن من عبادك الصالحين وفق بيننا، أما إذا خالفت منهج الله عزَّ وجل فكأنك تقول: يا أيها الشيطان، تعال فرِّق بيننا، إذا بني الزواج على طاعة الله تولّى الله التوفيق بين الزوجين، بني على المعصية، كأن يكون فيه اختلاط، وأجهزة لهو.. الآن بعد قليل أقرأ لكم ما جاءني.. عندئذٍ يدخل الشيطان، ويفرِّق بين الزوجين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطلاق 065 - الدرس (3-6): تفسير الآيتان2-3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-12-27

بسم الله الرحمن الرحيم

الطلاق السُنِّي هو طلقةٌ واحدة في طهرٍ لم تمسَّ الزوجة فيه :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الطلاق، ومع الآية الثانية وهي قوله تعالى:

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)

أيها الأخوة، كلمة:

(فَإِذَا بَلَغْنَ)

أي فإذا اقترب، اقتربت نهاية العِدَّة، ألم يقل الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ)

أي طلقوهن مستقبلاتٍ عِدَّتَهُن.

(وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ)

الله جلَّ جلاله يقول:

(لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)

أي أن هذا الغضب الشديد، وهذا القرار العاطفي بعد أيامٍ عدة، أو بعد أسابيع عدة، أو بعد شهرٍ، أو شهرين، أو ثلاثة، ربما ثلاثة وعادت الأمور إلى مجاريها، فإذاً الطلاق السُنِّي هو طلقةٌ واحدة في طهرٍ لم تمسَّ فيه، لعل الزوج يراجع نفسه، لعله يراجعها قولاً أو عملاً، أو لعلها تملك نفسها، ويعود خاطباً لها من جديد، فيعقد عليها العقد ثانية بموافقتها وبمهرٍ جديد، الله عزَّ وجل ما أراد الطلاق أن يوقع إلا مرةً واحدة، وإلا خالف السُنَّة.

الله سبحانه وتعالى عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام وصَّانا بالنساء خيراً :

ثم قال تعالى:

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

أي قربت نهاية العدة، هنا

(بَلَغْنَ)

بمعنى اقتربت نهاية العدة، أما لو بلغن فانقضت العدة انتهى الأمر، صار الفراق:

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)

أي قبل أيامٍ من نهاية العدة أنت مخيَّر، إما أن تمسك بمعروف، وإما أن تطلّق بإحسان، إمساكٌ بإحسان أو تفريقٌ بمعروف، وذكرت في الدرس الماضي أن الزوجة ينبغي أن تكون زوجة بكل معنى الكلمة، لها حقوق، لها حق أن تنفق عليها، ولها حق أن تسكنها، وأن تطعمها إذا أكلت، وأنت تلبسها إذا لبست، وألا تعنّفها، وألا تضربها، وهذا من حقها.

(فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)

أما الذي يمسك زوجته ضراراً ليعتدي عليها فهذا يرتكب أكبر معصيةٍ، لأن الله سبحانه وتعالى عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام وصَّانا بالنساء خيراً.

الطلاق ينبغي أن يثبت والإرجاع ينبغي أن يثبت :

في الآية شيء جديد، هو أنك إذا أمسكتها راجعتها، أو فارقتها، يجب أن تُشْهِدَ شهوداً، السبب لو أن إنسانًا يملك ثروة طائلة، وطلّق زوجته، وبانت منه، وتوفي، ولم يخبر أحداً، ولم يشهد على التفريق أحداً، ثم ادعت أنه راجعها، لها نصيبٌ من الثروة كبير، لئلا يقع التجاحُد والإنكار، لعله يقع ضياع الحقوق، ربنا عزَّ وجل قال:

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

أشهد على أنك أرجعتها كي تثبت الزوجية، وتنال حقها منك، وأشهد إذا فارقتها كي يثبت الطلاق، فالطلاق ينبغي أن يثبت، والإرجاع ينبغي أن يثبت، لذلك:

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

على المراجعة أو على الفِراق، وهذا الأمر فيه خلاف بين الفقهاء حول وجوب الإشهاد، أو أنه مندوب، بين أنه واجب، وبين أن يكون مندوباً، على كلٍّ الأمر واضح.

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

الفرق كبير بين أن يراجع الزوج زوجته خلال العدة أو بعدها :

لكن الشيء الدقيق في موضوع الطلاق، أنك إذا أرجعتها خلال العِدَّة فليس لها خيار، لا خيار لها، لا تستطيع أن ترفض، لو أن الزوج طلق زوجته طلاقاً سُنِّياً، طلقها طلقةً في طهرٍ ما مسها فيه، ثم أراد أن يراجعها إما بقوله أو بسلوكه، ليس لها أن تتأبى، وليس لها أن ترفض، وليس لها خيار، أما حينما تنقضي عدتها، ويمضي القُرْء الأول والثاني والثالث، ويأتيها الحيض في القرء الثالث، ثم تطهر من الحيض فعندئذٍ ملكت نفسها، بإمكانك أن تعيد العقد عليها، بإمكانك أن تتزوج منها مرةً ثانية، ولكن بشرط أن توافق، المراجعة ليس لها خيار، وافقت أو لم توافق، لا اختيار لها، أما حينما تمضي القُروء الثلاث، حينما تنقضي عدتها أصبحت مخيرة، بإمكانها أن ترجع، وبإمكانها أن تمتنع، وإذا امتنعت فلا سلطان لك عليها، إذاً هناك فرق واضح بين أن تراجعها في خلال العدة، وبين أن تعقد عقداً عليها بعد انقضاء العدة، في الحالة الأولى ليس لها خيار، وليس لها ألاّ توافق، أما في الحالة الثانية فبيدها الأمر، توافق أو لا توافق.

العدالة صفةٌ نفسية والضبط صفةٌ عقلية :

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

دائماً لا يستطيع الإنسان أن ينكر شيئاً إذا شهد عليه شهودٌ عدول، وكلمة عدل هذا موضوع دقيق جداً، ينقلنا إلى موضوع العدالة في الإسلام، العدالة صفةٌ نفسيةٌ، والضبط صفةٌ عقلية، راوي الحديث ينبغي أن يكون ضبطاً عدلاً، ذاكرته قوية، يؤدِّي الحديث بنصه الحرفي دون زيادةٍ أو نقصان، ودون حذفٍ أو تبديل، هذه صفة الضبط، أما صفة العدل فأن يكون مخلصاً، صادقاً، لا يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، لا يكذب، لا يدلّس، لا يوهم، لا ينتفع براوية، ولا يعبأ بصحتها، فالعدالة من صفات المؤمن، وقد ذكرتُ في دروسٍ سابقة فيما أذكر أن العدالة قد تسقط ؛ فحينما تظلم الناس تسقط عدالتك، وحينما تكذب على الناس تسقط عدالتك، وحينما تخون الأمانة تسقط عدالتك، وحينما تُخْلِفُ الوعد تسقط عدالتك، فمن عامل الناس فلم يظلمهم، وحدَّثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كَمُلَتْ مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوَّته، وحرمت غيبته.

بعض المواقف التي تجرح فيها عدالة الإنسان :

وذكرت لكم أيضاً أن الإنسان حينما يأكل في الطريق تجرح عدالته، وحينما يمشي حافياً تجرح عدالته، وحينما يبول في الطريق تجرح عدالته، وحينما يتنزَّه في الطريق تجرح عدالته، وحينما يتحدث عن النساء عن شكلهن تجرح عدالته، وحينما يصاحب الأراذل تجرح عدالته، وحينما يأكل لقمة من حرام تجرح عدالته، وحينما يطفف بتمرةٍ تجرح عدالته، وحينما يعلو صياحه في البيت تجرح عدالته، وحينما يقود برزوناً يخيف الناس به تجرح عدالته، وحينما يطلق لفرسه العِنان.. أي يقود مركبته بسرعةٍ عالية.. تجرح عدالته، هذه بعض المواقف التي تجرح فيها عدالة الإنسان.

الإنسان حينما يُشْهِد الآخرين يتوقى أن ينكر الطرف الآخر عمله :

ثم قال ربنا جلَّ جلاله:

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

والإنسان حينما يُشْهِد الآخرين، على عقد بيع، أو زواج، أو أشياء نفيسة، إن أشهدت عليها شهوداً عدولاً فقد تَوَقَّيْت أن ينكر الطرف الآخر توقيعه، الآن كاتب عدل، أنت حينما تبرم عقداً، أو تبيع بيتًا، أو تهب شيئًا، وتأتي بكاتب العدل فيصدق ذلك، تقر أمامه وتوقّع أمامه، لا يستطيع الطرف الآخر أن يرفع دعوى بإنكار توقيعك لأنه وَّقع أمام كاتب العدل، وكاتب العدل هذه من القرآن:

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

أي خدمة كبيرة جداً، أحياناً هناك قضاياً ترفع إلى المحاكم ثماني سنوات لإنكار توقيع، يأتون بشهود، ويأتون بخبراء تواقيع، الدعوى إنكار توقيع، قد يكون هناك هبة، قد يكون هناك بيعاً بمبلغ كبير جداً، فيحتال الذي أبرم العقد فيدَّعي أن هذا ليس توقيعه، وهذا الموضوع قد يبقى في المحاكم ثماني سنوات من أجل إنكار توقيع، يأتون بخبير، ثم بخبيرين، ثم بثلاثة خبراء، إلى أن يأتي بخمسة خبراء للتحقق من صحة التوقيع، أما إذا أشهدت كاتب العدل فقد ألغيت كل هذا الطريق الوعر، لا يستطيع إنسان وَقَّع أمام كاتب العدل، وفي حضرته أن ينكر توقيعه.

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

من حصَّن أخاه بعقد موثق فقد قطع عليه طريق الشيطان :

قد ننتقل بالمناسبة إلى موضوع فرعي هو أنك إذا حصَّنت أخاك بعقد موثق فقد قطعت عليه طريق الشيطان، لو لم تحصن أخاك بعقدٍ موثق لجعلت للشيطان عليه سبيلاً، قد يأتيه الشيطان ويقول له: دعك من هذا العقد، وأنكر توقيعك، دعك من هذا العقد، البيت باسمك، ضمن شراكة البيت، دخل في البيت شراكة، فإذا لم توقِّع، ولم تنجز عقداً موثقاً، ولم يسجل العقد في محكمة البداية، ولم يشهد عليه كاتب العدل ربما أعنت أخاك على أن يأكل حراماً، لذلك أنا أقول لكم: الاتفاقات التي تتم بينكم وثِّقوها بعقد، والعقد وثِّقوه بكاتب العدل، أو بمحكمة البداية، بهذه الطريقة لا يستطيع الشيطان أن يدخل على أحد الأطراف أبداً .

يبدو أن الإنسان إذا أكل المال الحرام يحاسب عند الله أشد الحساب، ولكن قد يغيب عن أذهانكم أنك إذا مَكَّنْتَ إنساناً من أن يأكل المال الحرام فأنت شريكه في الإثم، إن سَيَّبْتَ أمورك، أهملت العقود، أهملت الإيصالات، أهملت التسجيل، أهملت التوثيق، فرأى الناس أنه بالإمكان أن ينكروا استلام هذه البضاعة، إن استلمت بضاعةً، ولم تعُدَّها تجعل الذي سلمك إياها يفكر أن يأخذ من حجمها شيئاً له .

حَدَّثني صديق مع أنه يبيع بيعاً غير معقول، في النهاية لا يربح، بل إنه يخسر، ثم اكتشف أنه كلما أُرْسِل له مواد أولية لمعمله يقول: ضعها هنا، وقد استلمتها، فشعر الذي يسلمه إيَّاها أنه لا يدقق، فصار يسلمه نصف الكمية، ويوقع على كامل الكمية، حصل الخلل، الإنسان يجب أن يضبط أموره، قد تفلّس من عدم استلام المواد الأولية، قد تفقد مالاً كثيراً من عدم ضبط القيود والسجِلاَّت، انظر الآية ما أدقها:

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

إعجاز القرآن الكريم :

طبعاً القرآن الكريم فيه شيء رائع جداً، هذا الشيء هو أن الآية وهي في سياقها لها معنى، فإذا نزعتها من سياقها وقرأتها وحدها فلها معنى آخر، وهذا من إعجاز القرآن، كل آيةٍ إن انتظمت مع أخواتها تؤَدِّي معنى محدداً، أما حينما تنزع من سياقها فتؤدي معنى شموليًّا كبيرًا جداً، وسوف يتضح هذا جلياً في قوله تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

في سياق الآيات لها معنى، فإذا نزعت من سياق الآيات فلها معنى آخر:

(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)

طبعاً في موضوع القضاء الذي بُحِثَ من قبل أنك إذا أتيت بشاهدين عَدْلين فهذا دليلٌ قويٌ جداً على أنك على حق.

أداء الشهادة من الأعمال الصالحة الجليلة :

ولكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ)

أخواننا الكرام، الشهادة عمل صالح في أعلى الدرجات، قد تركب في مركبة، ووقعتَ في حادث، والحادث فادح، والمبلغ كبير جداً، أنت شاهد من هو الذي أخطأ في قيادة المركبة، قد تجد أنه من عدم الحكمة أن تذهب، وتُدلي بشهادتك، ولا يوجد عندك وقت، الوقت قليل، والقضية شائكة، تقول: أنا ليس لي علاقة، هل تعلم أنك عصيت الله عزَّ وجل حينما لم تؤدِّ هذه الشهادة؟ إنك إذا أديت الشهادة حفظت الحقوق، وإنك إن امتنعت عن الإدلاء بالشهادة ضَيَّعت الحقوق، وعدل ساعةٍ يعدل عند الله أن تعبده ثمانين عاماً، طبعاً وإن كان الإدلاء بالشهادة يكلّف الإنسان وقتاً وجهداً، وأن يذهب إلى قصر العدل، وأن يبحث عن المحكمة، وأن ينتظر دوره في الإدلاء بالشهادة، وأن يكون متوضِّئاً، وأن يقسم على القرآن الكريم، وأن تكتب إفادته، وقد ينتظر يومين أو ثلاثة، ولكن أداء الشهادة من الأعمال الصالحة الجليلة، لذلك يقول الله عزَّ وجل:

(وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ)

يجب أن تشهد، فلا تكن سلبياً، لا تقل: أنا ليس لي علاقة، وقتي ضيِّق، إن قلت أنت: وقتي ضيق، وقال الآخر: وقتي ضيق، والثالث تهرَّب، والرابع قال: أنا ليس لي علاقة، فالقاضي إذاً كيف يعرف الحقيقة؟ يجب أن تعين القاضي على معرفة الحقيقة، فلعل الخصم ألحن بحجته من الآخر، أما الشاهد فيقيم الدليل.

أداء الشهادة جزءٌ من الدين :

إذاً يجب أن نعلم أيها الأخوة أن أداء الشهادة جزءٌ من الدين، بل من أجلّ الأعمال الصالحة، لأن الله حق، ويحب إحقاق الحق، ولأن عدل ساعةٍ يعدل عند الله ثمانين عاماً تعبده خالصاً لوجه الله.

(وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ)

والحقيقة كلمة شهادة، تقول: أنا شهدت، أي رأيت بأمِّ عينك، علمت علم اليقين، لا تشهد إلا على مثل الشمس في وضح النهار، على مثل هذا فاشهد، لا تكن شاهداً لأنه عَنْ أبي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((ألَا أنَبِّئُكُمْ بأكْبَرِ الكَبَائِرِ ؟ ثلاثًا، قالوا: بَلَى يا رَسولَ اللَّهِ، قالَ: الْإِشْرَاكُ باللَّهِ، وعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وجَلَسَ، وكانَ مُتَّكِئًا، فقالَ: ألَا وقَوْلُ الزُّورِ، قالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ))

[متفق عليه عَنْ أبي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فالشيء الذي يؤسَفُ له أنه حول المحاكم هناك مئات الشهود ينتظرون أن تَدفع لهم مبلغاً من المال ليشهدوا معك في أي شيء، مع أن الشاهد لا يكون شاهداً إلا إذا كان شاهداً، شَهِدَ الحقيقة بأم عينه.

الإنسان لا يستجيب لأمر الله إلا إذا عرف الله :

(وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

هذه الآية دقيقة جداً، الإنسان لا يستجيب لأمر الله إلا إذا عرف الله، لا يتقي أن يعصيه إلا إذا عرفه، لا يعمل للجنة إلا إذا عرفها، لا يتقي النار إلا إذا عرف لهيبها وحريقها، لذلك قال بعض العلماء: قرأت حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم استغنيت به عن علم الأولين والآخرين، هذا الحديث رواه الشِبْلي قال: "اعمل لله بقدر حاجتك إليه، واعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للجنة بقدر مقامك فيها، واتَّق النار بقدر صبرك عليها".

الجنة للأبد، اعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واتق النار بقدر صبرك عليها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، الدنيا محدودة، والآخرة ممدودة، والله سبحانه وتعالى يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء.

(وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ)

هذا التوجيه:

(يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

فروع الدين لأهل الإيمان أما أصول الدين فلمخاطبة أهل الإنكار والإلحاد :

لذلك في الدين أصول، وفي الدين فروع، لا تحاول أن تخاطب منكري الدين بفروع الدين، فروع الدين ليست لأهل الكُفر والإلحاد، فروع الدين لأهل الإيمان، أما أصول الدين فخاطب بها أهل الإنكار والإلحاد، لذلك أن تشهد، اعرض هذا الموضوع على إنسان من أهل الدنيا، يقول لك: ضيَّعت عقلي

حتى أضيّع يومين من أجل أن أدلي بشهادة سير، ضيعت عقلي، لا يرضى، أما المؤمن فيرى في الإدلاء بالشهادة عمل صالح، فيرى أن في الإدلاء بالشهادة عملاً صالحاً يتقرَّب به إلى الله عزَّ وجل، فالإنسان ليس سلبياً، المؤمن ينبغي أن يكون إيجابياً، يجب أن يُسْهِم في إحقاق الحق، يجب أن يسهم في رفع الظلم عن إنسان، كم من حادث يتَّهم فيه إنسان، وهو بريء، لكن لا يوجد شهود، لو جاء الشهود وأدلوا بشهاداتهم، وحلفوا على كتاب الله أنهم رأوا بأم أعينهم هذا، لكان الأمر غير الذي يوقع.

من طلق زوجته وفق السنة يجد مخرجاً إلى استرجاعها :

(يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

أخواننا الكرام، هذه الآية وردت في سورة الطلاق، معناها السياقي: أي أن من يتق الله في تطليق زوجته؛ يطلقها وفق السنة، يطلقها لعدتها، يطلقها في طهرٍ ما مسها فيه، يطلقها وهو اعتقد أن الله لعله يحدث بعد ذلك أمراً، من طلق زوجته وفق منهج الله عزَّ وجل، ووفق سنة النبي عليه الصلاة والسلام، طلقها لعدتها، وأحصى العدة، يجعل الله مخرجاً إلى الرجوع إليها، لو أنه ندم القضية سهلة جداً، لو أنه ندم بإمكانه أن يُرْجِعَها، لو أنه تأثّر لفراقها بإمكانه أن يرجعها، فالآية بمعناها السياقي:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

لاسترجاعها، الإنسان مهما كان غاضباً، مهما كان حانقاً، مهما كان حاقداً، مهما كان متألّماً، مهما شعر أنه لا يمكن أن يعيش مع هذه الزوجة، طلّقها وفق السنة، طلقها تطليقةً واحدة، وانتظر لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، لعلك تنسى هذه المشكلة، لعل قلبك يميل إلى إرجاعها، لعلك تمتلئ عَطفاً عليها، لعلك تحتاج إليها، طلقها وفق السنة، تجد مخرجاً إلى استرجاعها، هذه الآية معناها السياقي هكذا.

حكمة الله البالغة في تربية عباده :

هناك نقطة دقيقة في الآية معنى استنباطي:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

ماذا تفيد كلمة (مخرجاً)؟ يجعل الله له مخرجاً، لم يكن هناك مخرجاً، أي أن القضية محيطة، حلقات مغلقة، لو كان هناك مخرجاً لا يوجد حاجة لكي تبحث عن مخرج، لو أن الباب مفتوح لا تبحث عن مخرج، لكن متى تبحث عن مخرج؟ إن رأيت الأبواب كلها موصدة، وضاقت نفسك، إذاً الإنسان أحياناً يوضع في ظرف صعب، يوضع في ظرف يتوهَّم أن كل الأبواب موصدة، يوضع في ظرف يتوهَّم أن

مشكلته ليس لها حل؛ أن دخله لن يزيد، أنه لن يجد عملاً، أنه لن يوفق إلى زواج، أنه لن يشتري بيتاً، أنه لن يصبح كغيره من الناس، كلمة:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

كلمة (مخرجًا) تفيد أنه لم يكن هناك مخرجاً، ما دام يجعل الله له مخرجاً، لم يكن هناك مخرجاً..

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظن أنه لا تفرج

***

وهذا من حكمة الله البالغة في تربية عباده.

من يتق الله في الحرام يجعل الله له مخرجاً :

أحياناً يضعك في ظرف كل أبواب الحلال مغلقة، وكل الأبواب المشروعة مغلقة، وكل الطرق الآمنة مغلقة، وكل الأسباب التي رسمها الله عزَّ وجل مغلقة، ثم يفتح الله لك باب الحرام، باب المعصية، باب النفاق، باب الكذب، ويمتحنك، المؤمن يقول: والله لن أعصي الله ما حييت، ولن أتساهل في منهج الله قيد أنملة، أنا أعرف رجلاً أراد أن يشتري بيتاً، عرض عليه بيت بأقل من سعره، بعشرة آلاف ليرة، البيت ثمنه خمس وعشرون، عُرِض للبيع، والقصة قبل عشرين عاماً تقريباً، أما هو فقيمته تقدر بخمسة وثلاثين ألفًا، فهو معروض بسبب السفر بسعر مغرٍ.. معه مبلغ لا يكفي لثمنه، عنده سندات بإمكانه أن يحسمها في مصرف، فذهب ليحسمها، مدير المصرف ألهمه الله أن ينصحه، قال له: يا فلان، أنت رجل مسلم، وهذا حرامٌ في دينك، تلقَّى هذه الموعظة ممن يعمل في هذه الدائرة، قال لي: استحييت من الله أن أتلقى النصيحة بهذا الشكل، فرجعت إلى دُكَّاني وقلت: حسبي الله ونعم الوكيل، وعاهدت الله عزَّ وجل أن أصرف النظر عن هذا البيت، لأن في حسم هذه السندات ما يسميه العلماء رباً معكوساً، يقسم بالله العظيم أنه ما إن وصل إلى دُكَّانه حتى وجد صديقاً له ينتظره، قال له: أنا هنا من نصف ساعة أنتظرك، قال له: ليس هناك موعداً بيننا، قال له: أنا مسافر إلى الخليج، ومعي مبلغ من المال أريد أن يكون عندك، وأنشدك الله أن تستعمله، أنا سأغيب سنتين، أعطاه مئة ألف، هو بحاجة إلى عشرة آلاف، وأنشدك الله أن تستعمله في غيبتي، أنا سأعود بعد سنتين، فهو لما نصح قال: معاذ الله، أن أعصي الله عزَّ وجل، مثل هذه القصة لها مثيلات بالآلاف.

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

فيا أيها الأخوة الكرام، الذي يطلق زوجته وفق السُنَّة يجعل الله له مخرجاً إلى استرجاعها، إذا ندم فتكون جاهزة، بكلمة تسترجعها، بتصرف تسترجعها، لو وضعت يدك على يدها كما قال العلماء

تسترجعها، ولا خيار لها، لك أن تسترجعها في خلال ثلاثة أشهر، من ثاني يوم يمكنك استرجاعها، بعد أسبوع، أسبوعين، ثلاثة، أربعة، شهر، شهرين، في الشهر الثالث، لذلك:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

لو نزعنا هذه الآية من سياقها يُكتب عليها مجلّدات، من يتق الله في اختيار زوجته يجعل الله له مخرجاً من تطليقها .

الآية الكريمة وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا إذا نزعت من سياقها أصبحت قاعدة :

من تزوج المرأة لجمالها أذلّه الله.. لجمالها فقط.. ومن تزوجها لمالها أفقره الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءةً، فعليك بذات الدين تربت يداك .

إن تزوجتها ذات دينٍ وخلق يجعل الله لك مخرجاً من تطليقها، لا تحتاج إلى تطليقها، لأنها تعرف الله، الآن من رَبَّى أولاده تربية إسلامية جعل الله مخرجاً من عقوق الأولاد، من كسب المال وفق السُنَّة بالطريق المشروع جعل الله له مخرجاً من إتلاف المال وضياعه، من اتقى الله في أداء زكاة ماله يجعل الله له مخرجاً من ضياع الأموال وإتلافها، من اتقى الله في معرفته يجعل الله له مخرجاً من المعاصي التي ترتكب بسبب الجهل بالله عزَّ وجل، يمكن أن تطبق هذه الآية على آلاف الموضوعات، من اتقى الله في معاملة زوجته، الله عزَّ وجل قال:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة النساء: 19]

من اتقى الله في أصول معاملة الزوجة يجعل الله له مخرجاً من النَكَدِ الزوجي، والشقاء الزوجي، والخصومة الزوجية، والزوجان المتباغضان هذه مشكلة:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

من يتق الله في اختيار البيت المناسب، اختاره في حي محافظ، بعيد عن الشُبُهات، بعيد عن التفلُّت يجعل الله له مخرجاً من انحراف الأولاد، من اتقى الله ولم يجلب إلى بيته هذه البدع وتلك الصحون يجعل الله له مخرجاً من انحراف الأولاد الخطير الذي لا يُحْتَمَل، هذه الآية يمكن أن تطبق على مليون حالة، إذا نزعت من سياقها أصبحت قاعدة:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

والآية تشير بشكل أو بآخر إلى أنه قبل أن يخلق الله المخرج لم يكن هناك مخرجاً، يبدو أن الأمر مستعصٍ، الأمر مغلق، الأمر لا يوجد فيه فرج.

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

كلّ إنسان يتقي الله يفرِّج الله عنه ويخلق له فرجاً لم يكن في حسبانه:

أما لو أردنا أن ندلل على هذه الآية بالأدلة الكثيرة من واقع الحياة فهناك قصصٌ لا تعد ولا تحصى، بل إن كل واحد منكم إذا نظر إلى ما ساقه الله له يجد أن فعل الله عزَّ وجل يأخذ بالألباب، كل إنسان يتقي الله ربنا جلَّ جلاله يفرِّج عنه، ويخلق له فرجاً لم يكن في حسبانه:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

أي أن الله عزَّ وجل خلق الإنسان، وأمده بالرزق، موضوعان خطيران جداً، موضوع الحياة، وموضوع الرزق، فلو أن الإنسان توكَّل على الله حق توكُّلِهِ لكفاه الله أمر مؤونته، يرزقه من حيث لا يحتسب، الله هو الرزَّاق ذو القوة المتين، لذلك ورد:

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله عباد الله وأجملوا في الطلب))

[البزار عن حذيفة]

أجملوا في الطلب لأن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها.

من اتقى الله عزَّ وجل جاءه رزقٌ وفير من حيث لا يحتسب :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

فهذه الآية دقيقة، أحياناً تعرض عليك الدنيا من طريقٍ غير مشروع، قد يأتيك رزق وفير من معصية، من عملٍ مشبوه، من إنجاز عملٍ لا يرضي الله، من طريقةٍ لا ترضي الله، هذا المال الوفير الذي يأتيك من هذا الطريق لا بركة فيه، وقد يذهب، ويُذهب معه صاحبه، لكنك إذا اتقيت الله عزَّ وجل جاءك رزقٌ وفير من حيث لا تحتسب.

فأخٌ كريم سألني مرةً عن دخلٍ فيه شبهة، والشبهة واضحة، بضاعة لا ترضي الله يتعامل بها، قلت له: والله لا ينبغي أن تفعل هذا، قال: لي البديل أن أبقى على راتبي المحدود الذي لا يكفيني يومين، قلت له: هذا هو الحكم الشرعي، وافعل ما تريد، ترك هذه البضاعة التي لا ترضي الله بالتعامل بها، وبقي على دخلٍ محدودٍ جداً لا يكفيه يومين أو ثلاثة، ومضى شهرٌ وشهران وثلاثة أشهر، قلت له: أنت حينما ترضى بهذا الدخل المحدود جداً، والذي لا يكفيك لأنه حلال، وترفض الحرام، أنا لا أضمن لك أن يأتيك رزقٌ وفير بعد حين، أنت عليك أن تطيع الله وكفى، هو حكيم يرزق أو يؤَخِّر، فإذا جاء الرزق الوفير متأخراً أكد هذا صدقك مع الله، وصبرك على أمره، وبالحقيقة مضى شهران أو ثلاثة أرسل لي استفهاماً مع بعض أصدقائه، وقال لي: الامتحان هل سيطول؟ أصبحت طويلة، هبط دخله إلى العُشر،

هذه بضاعة محرم بيعها وشراؤها، لكنها تدر عليه رزقاً وفيراً، ثم فجأةً جاء الفرج من الله عزَّ وجل، فصار له دخل كبير، صديق صاحب معمل وثق فيه:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

لكن لا تطالب الله بالوقت، الوقت له حكمته، أنت عليك أن تعبد الله، الآية دقيقة، وهذه نقطة مهمة جداً.

لابد من ضيق ليظهر صدق الإنسان مع الله و بعد ذلك يأتي فرج الله :

لما ربنا عزَّ وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

[سورة التوبة: 28]

فهذه السياحة قديمة، حينما يأتي هؤلاء إلى المسجد الحرام يشترون الطعام والشراب، يسكنون في البيوت، ينفقون أموالاً كثيرة جداً، والآن تكاد تكون صناعة السياحة أروج صناعةٍ في كل البلاد، وتحقق أكبر دخلٍ من العملات الصعبة، فربنا عزَّ وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

[سورة التوبة: 28]

ما قال: نجسون، قال:

(نَجَسٌ)

أي هم عين النجاسة:

(فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

[سورة التوبة: 28]

طبعاً من لوازم هذا المنع انخفاض الدخل، طبيعي، قال :

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)

[سورة التوبة: 28]

أي فقراً.

(فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

[سورة التوبة: 28]

لكن لم يقل: يغنيكم، قال:

(فَسَوْفَ)

[سورة التوبة: 28]

أي أنه لابد من مرحلة من أجل أن يظهر صدقكم مع الله، من أجل أن يظهر ثباتكم على الحق، من أجل أن تظهر مؤاثرتكم، أي يا رب، رضاك أغلى عندنا من كل شيء، قال تعالى:

(فَسَوْفَ)

[سورة التوبة: 28]

وبعد حين يأتي فرج الله عزَّ وجل، هذه الآية قانون، أي إنسان إذا اتقى الله عزَّ وجل، وصرف نفسه عن دخل كبير فيه شبهة، وقنع بالقليل الذي لا يكفيه لأنه حلال، قد يعاني بعض الوقت ليدفع ثمن هذا القرار الحكيم، ليدفع ثمن هذه الطاعة، وبعد حين يرزقه من حيث لا يحتسب، فالإنسان لا يستعجل، فمن كان يريد لقاء الله فإن أجل الله آت.

الإنسان في امتحان دائم :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

والله الذي لا إله إلا هو آلاف القصص حول هذه الآية يمكن أن تذكر، وأنا أعتقد أنه لا يوجد أخ من أخواننا من دون استثناء إلا وله مع هذه الآية خبرة عملية:

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

أيها الأخوة الكرام، أعيد عليكم نص الحديث الشريف:

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

طبيعة الدرس لا تسمح برواية القصص الكثيرة، لكن ما من عبدٍ يقول: معاذ الله، إني أخاف الله رب العالمين، لا أفعل هذا، ولا أغضب الله، وأنا أرضى بالقليل الذي يرضي الله، وأؤثر عليه الكثير الذي لا يرضي الله، إلا رزقه الله الرزق الوفير بعد حين، إذاً:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

أنت في امتحان دائم، وطبيعة الحياة الدنيا فيها معصية، وفيها طاعة، فيها حرام، وفيها حلال، فيها شيء مشبوه، وشيء واضح، فيها شيء يرضي، وشيء لا يرضي، أما إذا اتقيت الله أن تعصيه، اتقيت أن تعصي الله عزَّ وجل فلك مخرجٌ من كل ضيق ورزقٌ وفير.

التوكل جُزء من الدين :

ولكن بعد حين.

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

أي أنه يكفيه، فالإنسان أحياناً يوكّل محامياً لامعاً، وله صلات وثيقة مع القضاة، يشعر بطمأنينة، يقول لك: وكّلنا فلانًا، أما إذا وكلت الله عزَّ وجل الذي بيده كل شيء، فكل شيء بيده، ولا يعجزه شيءٌ في السموات ولا في الأرض، أكبر أعدائك في قبضته، كل المتغيرات بيده، كل الظروف المحيطة بك بيده.

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

فالتوكل جُزء من الدين.

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة المائدة: 23]

فإن لم تتوكلوا فلستم بالمؤمنين.

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا)

[سورة المائدة: 23]

ما من عبد يعتصم بالله إلا جعل الله له مخرجاً من كل شيء :

الإنسان يمكن أن يلاحقه عدو قوته تزيد عن قوته بمئة ضعف، سيدنا موسى مع أصحابه، من وراءهم؟ فرعون، وما أدراكم ما فرعون، فرعون بجيشه، وقوته، وجبروته، وغطرسته، وقهره، واستعلائه، وهؤلاء سيدنا موسى وأصحابه شرذمة قليلون..

(وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ)

[سورة الشعراء: 55]

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ)

[سورة الشعراء: 55]

البحر أمامهم، وفرعون وراءهم احتمال الهلاك بالمئة كم؟ بالمئة مئة، البحر من أمامهم، وفرعون من ورائهم، بقوةٍ تفوق قوتهم بمئات المرَّات، فلا يوجد أمل..

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ* قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء: 61-62]

سيدنا النبي في الغار مع سيدنا الصديق، سيدنا أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ:

((لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ؟))

[متفق عليه عَنْ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ما من عبدٍ يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السموات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبدٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيَّته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطّعْت أسباب السماء بين يديه .

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة المائدة: 23]

الإنسان لا يستطيع أن يتوكل على الله إلا إذا كنت مطيعاً له واثقاً من رحمته :

ضعف الإيمان يسبب أشياء مقلقة كثيرة جداً، فهناك ألف سيف مُسَلَّط على رأس كلٍ منا، سيوف المرض، أحياناً حادث، أنت تمشي نظاميًّا على اليمين بسرعة معتدلة، وإنسان نائم، الإنسان تحت آلاف الأخطار، ما الذي يطمئنك؟ أن تتوكل على الله، لكنك لن تستطيع أن تتوكل عليه إلا إذا كنت في مرضاته، لن تستطيع أن تتوكل عليه إلا إذا كنت مطيعاً له، واثقاً من رحمته، وحكمته، واثقاً من عدالته، واثقاً من ربوبيَّته.

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

يكفيه..

(إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ)

أي أن أمر الله هو النافذ .

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

[سورة الرعد: 11]

ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ)

من تعجَّل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه :

الإنسان أحياناً يخطط، ولا يستطيع أن يصل إلى هدفه، أما ربنا عزَّ وجل فأمره هو النافذ.

(إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)

أي أن كل شيء يأتي في وقته المناسب، وفي القدر المناسب، وهذه حكمة الله عزَّ وجل.

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)

[سورة الشورى: 27]

فالقدر مناسب، والوقت مناسب، من تعجَّل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، حكمة الله تتجلى في أن هذا الشيء يناسبك منه بهذا القدر، وأن يأتيك بهذا الوقت، لو جاء قبل وقته لفُتِنْت، ولو جاء بأكثر من قدره لفُتنت، ولو جاء بأقل من قدره لفتنت، ولو جاء بعد وقته لفتنت، قبل الوقت، وبعد الوقت، وأكبر، وأصغر تُفْتَن، لكن يأتي بقدرٍ مناسب، وفي الوقت المناسب، ما كل ما يعلم يقال- كما قال سيدنا علي- وما كل ما يقال له رجال، ولا إذا وجد الرجال آن الأوان، هناك شيء لا يقال، وشيء يقال، والذي يقال لا يقال لكل الناس، يقال لبعضهم، وهذا الذي يقال لبعضهم لا يقال لهم في كل الأوقات، يقال لهم في بعض الأوقات، هذه الحكمة:

(إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)

على الإنسان أن يطيع الله و على الله الباقي :

النبي عليه الصلاة والسلام في الهجرة مطارد، مئتا ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، ينظر إلى سراقة الذي تبعه ليأخذ الجائزة، غاصت قدما فرسه في الرمل، أول مرة، وثاني مرة، فعلم أن هذا الإنسان ممنوعٌ منه، فرجا النبي أن يعفو عنه، قال له: كيف بك يا سُراقة إذا لبست سواري كسرى؟ الله جعل لكل شيء قدراً، أن يلبس سراقة سواري كسرى، عند الله يكون بعد رسول الله، وبعده سيدنا الصديق، فيكون في عهد عمر، في عهد عمر قال: أين سراقة، فجاؤوا بسراقة، فألبسه تاج كسرى وسواره وقميصه، وقال: بِخٍ بخٍ، أُعَيْرَابيٌ من بني مُدْلِج يلبس سواري كسرى، لقد تحققت نبوءة النبي عليه الصلاة والسلام، وكل واحد منا لا يجد فتاة مناسبة..

(إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)

هناك وقت مناسب لتتزوَّج، ووقت مناسب لإيجاد عمل، ووقت مناسب لتأمين سكن، ووقت مناسب للتألّق، أنت عليك أن تطيع الله:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

أطعه وكفى، وعلى الله الباقي.

من أطاع الله تولى الله أمره :

إذاً:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)

ملخَّص الدرس أنك إذا أطعت الله عزَّ وجل تولى أمرك، أنت في ظله .

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور: 48]

وأنك في حفظه، والحكمة البالغة أن يأتيك الشيء بالقدر المناسب، وفي الوقت المناسب، عليك أن تطيعه وكفى، وعلى الله الباقي.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا — فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

و لذ بحمانا واحتمي بجنابنا — لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل — وأخلص لنا تلقى المسرة و الهنا

وسلم إلينا الأمر في كل ما يكن — فما القرب و الإبعاد إلا بأمرنا

ينادى له في الكون أنا نحبه — فيسمع من في الكون أمر محبنا

فيكسى جلابيب الوقار لأنه — أقام بإذلالٍ على باب عزّنا

وجدناك مضطراً فقلنا لك — ادعنا نجبك فهل أنت حقاً دعوتنا

دعوناك للخيرات أعرضت نائ ياً فهل تلقى من يحسن لمثلك مثلنا؟

فيا خجلي منه إذا هو قال لي أيا عبدنا ما قرأت كتابنا؟

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً وتنظر ما به جاء وعدنا ؟

***

فالملخص: علينا أن نطيع الله وكفى، والله جلَّ جلاله يتولى أمورنا.

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

اجعل همك طاعة الله، وعلى الله الباقي.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطلاق 065 - الدرس (4-6): تفسير الآيتان 4-5

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-01-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

الدين عقيدةٌ وعبادة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع من سورة الطلاق، ومع الآية الرابعة وهي قوله تعالى:

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

أيها الأخوة الكرام، لابدَّ من بعض الحقائق أضعها بين أيديكم ونحن في صدد شرح آيات التشريع. الدين عقيدةٌ وعبادة، الدين حقائق نؤمن بها، وأوامر ونواهٍ نعمل بها، فكل من غلَّب جانباً على جانبٍ آخر ضلَّ سواء السبيل، الإنسان بالكون يعرف الله، لكنه بهذا القرآن يعبده، فربنا عزَّ وجل يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة الأنعام: 1]

الكون يدُّل على الله، لكن بعد أن عرفت الله، بعد أن آمنت بوجوده، بعد أن آمنت بوحدانيته، بعد أن آمنت بأنه لا إله إلا هو، كيف تتقرَّب إليه؟ بطاعته، كيف تطيعه؟ أول شيءٍ في طاعته أن تعرف أمره، لذلك وردت تفاصيل دقيقة جداً في شأن الزواج والطلاق، وكسب المال وإنفاق المال، فالذي لا يعبأ بهذه التفاصيل فإن شطراً من إيمانه قد ضاع منه، إيمانك يقتضي أن تؤمن بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، وأن تعمل بأمره ونهيه، فلذلك أخوةٌ من المؤمنين ينشدُّون إلى آيات التكوين.. الآيات الكونية.. ولا يكترثون كثيراً بالآيات التشريعية، الآيات التشريعية لا تقلّ في دلالتها على عظمة الله عن الآيات التكوينية..

مصادر معرفة الله عز وجل :

الآن سؤال يطرح نفسه علينا: هذا الذي يعيش مع زوجته في تفاهم ووئام، يمحضها ودَّه، وتمحضه ودَّها، وليس بحاجةٍ إطلاقاً إلى أن يطلّقها، لماذا تعنيه آية الطلاق؟ الجواب: أن الله سبحانه وتعالى تعرفه من خَلقه..

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران : 190-191]

ثانياً: وتعرفه من فعله، الحوادث التي تجري إنما هي من أفعال الله .

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأنعام: 11]

يمكن أن تعرفه من خَلقه عن طريق التفكُّر، ويمكن أن تعرفه من أفعاله عن طريق النظر، ويمكن أن تعرفه من كلامه عن طريق التدبُّر..

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)

[سورة محمد: 24]

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)

[سورة النساء: 82]

إذاً ثلاثة مصادر لمعرفة الله: خَلْقه الكون، أفعاله الحوادث، كلامه القرآن الكريم، لو أن الإنسان على وفاقٍ تام مع زوجته، ولا يفكّر إطلاقاً أن يطلّقها، إذا تأمَّل في آيات الطلاق يجد عظمة الخالق في تشريعه، عظمة الخالق في أمره ونهيه، عظمة الخالق في رحمته، عظمة الخالق في عدله، فالإنسان ينبغي أن يُمْعِن النظر في هذه الآيات التشريعية.

البيت أضيف إلى المرأة إضافة تشبُّث أو إضافة إشراف أو إضافة استقلال :

أيها الأخوة الكرام، في الدرس الماضي بيّنت لكم أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ)

كيف أن هذا البيت أُضيف إلى المرأة، قلت لكم في الدرس الماضي أو قبل الماضي: إنه أضيف إضافة تشبُّث، أو إنه أضيف إضافة إشراف، وهناك معنى ثالث لهذه الآية وهو أنه أضيف إضافة استقلال، أي كمال الزواج لا يتحقق إلا ببيتٍ مستقلّ تنفرد فيه الزوجة والزوج وأولادهما، فهذا من الإشارات اللطيفة التي تَشِفُّ عن هذه الآية الكريمة، هذا البيت بيتك، وفي السجلات الرسمية هو باسمك، لكنه في هذه الآية هو بيتها، أي عليها أن تتشبَّث به، فلا تخرج منه، وهو في الآية القرآنية بيتها من حقّها أن تشرف عليه تأكيداً لشخصيتها.

والمعنى الثالث: أنه بيتها على وجه الاستقلال من أجل أن يسعد الزوجان، هناك أنواعٌ كثيرة من الزواج تُخْفِق للاختلاط والمداخلات بين الأسر وبين الزوجين، على كلٍّ هذا استنباط ظنِّي.

المرأة التي لا تحيض كيف تُحسَب عدَّتها ؟

نعود إلى الآية الكريمة:

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ)

بعد أن حدَّثنا ربنا جلَّ جلاله عن عِدَّة المرأة التي تحيض، طلاقها، وإرجاعها، وفراقها، وعدَّتها، في الآيات السابقة، الآن لابدَّ من معرفة المرأة التي لا تحيض كيف تُحسَب عدَّتها؟ يقول الله عزَّ وجل:

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ)

أي أن المرأة بعد ردحٍ من الزمن ينقطع عنها الحيض فتُسمَّى الآيسة من الحيض، هذا من حكمة الله جلَّ جلاله، ففي مبيض المرأة عددٌ محدود من البويضات، فإذا انطلقت آخر بويضةٍ من المِبيض إلى الرحم عندئذٍ تدخل المرأة في سنَّ اليأس، وهي بخلاف الرجل، فبإمكانه أن يُنجِب في أي عمرٍ كان، ولو كان في التسعين، ولو كان في المئة، بينما المرأة لا تحمل إلا إذا كان في مبيضها بويضة، أما إذا انطلقت كل البويضات من المِبْيَض تنقطع عنها الدورة، وينتهي الحيض، وتدخل سنَّ اليأس.

وفي هذا أيها الأخوة حكمةٌ بالغة، تصوَّر امرأةٌ عمرها مئة عام تحمل، إنه شيء غير معقول إطلاقاً، حكمة ربنا في خَلقه لا حدود لها، الرجل ينجب، لكنه لا يحمل، أما التي تحمل فلا يستطيع جسمها تَحَمُّل هذا الحمل، ولا إمداده بحاجات الوليد، لذلك جعل الله في مبيض المرأة عدداً محدوداً من البويضات، فإذا انطلقت هذه البويضات في الأربعين، في الخامسة والأربعين، في الخمسين وانتهت، دخلت سنَّ اليأس وانقطع حيضها، وأصبح لها في الشرع حكمٌ آخر.

المرأة التي لا تحيض عدَّتها أن تُمْضي ثلاثة أشهر :

الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ)

ما عدَّتهن؟ قال:

(إِنِ ارْتَبْتُمْ)

أي إن شككتم في عدَّة هذه المرأة التي يئست من المحيض، فما عدَّتها؟

(إِنِ ارْتَبْتُمْ)

أي إن شككتم، والعلماء يقولون:

(إِنِ ارْتَبْتُمْ)

أي إن تيقَّنْتم، هذه من ألفاظ التضاد، كأن تقول: شرى أي باع، واشترى:

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ)

[سورة يوسف:20]

أي باعوه بثمنٍ بخس، كأن تقول: المولى، المولى هو السيّد، والمولى هو العَبد، هي من ألفاظ التضاد، كأن تقول: الجول وهو الأبيض والأسود، وفي اللغة العربية بعض ألفاظ التضاد التي تعني معنيين متعاكسين في وقتٍ واحد، فظنَّ بمعنى حَسِبَ، وبمعنى أيقن..

(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

[سورة البقرة:46]

أيقنوا.

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

[سورة الحجرات: 12]

بمعنى حَسِبَ، أيضاً ارتبتم بمعنى تَيَقَّنْتُم، أو شككتم، هنا لا تعرفون حكم المرأة التي انقطع عنها الحيض، فما عدَّتها؟..

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ)

قال تعالى:

(فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ)

خرجن من عدة القُرء الطهر أو الحيض إلى عدَّة الزمن، فاللاتي يئست من المحيض دخلت في سنِّ اليأس، وانقطع حيضها، ولم تعد من النوع الذي تأتيه الدورة، فإن هذه المرأة عدَّتها أن تُمْضي ثلاثة أشهر.

الله عز وجل أمر المرأة أن تعتدَّ من طلاق أو من وفاة :

هناك حالة ثانية: امرأةٌ بلغت سنَّ اليأس، أي انقطع حيضها فعدَّتها ثلاثة أشهر، امرأةٌ لا تدري ما إذا كان هذا الدم دم استحاضةٍ أم دم حيضٍ، هذه أيضاً عدَّتها ثلاثة أشهر..

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ)

لأن النبي عليه الصلاة والسلام حين يروى عنه يقول:

((لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْقِيَ مَاءَهُ زَرْعَ غَيْرِهِ...))

[أحمد عَنْ رُوَيْفِعِ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ]

بلاغةٌ نبويةٌ رائعة، ليس المقصود أن النبي عليه الصلاة والسلام يمنعنا أن نسقي أرض جيراننا بمائنا، ليس هذا هو المقصود، لكن القضية دقيقة جداً وخطيرة ومتعلّقة بالأنساب، لماذا أمر الله المرأة أن تعتدَّ

من طلاقٍ أو من وفاة؟ لأن هذا الرحم قد يكون فيه من ماء الزوج المتوفَّى، أو من ماء الزوج المُطلّق، فإن لم نراع أحكام العدَّة دخل ماءٌ على ماء، واختلطت الأنساب، فقد تنجب ولداً من زوجها الأول، وتُلحِقُه بالزوج الثاني، وكلكم يعلم ما في أخطار زواج الأقارب من التحريم ومن الضرر، فلو أن المرأة لم تهتم بهذه القضايا لاختلط ماء الرجلين، الرجل المُطلّق والرجل المتزوّج، فلذلك هناك دقَّة بالغة في أحكام الطلاق، ولاسيما في أحكام العدَّة، لئلا يسقي الرجل ماءه زرع غيره..

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ)

أي امرأة تجاوزت سنَّ اليأس، أو امرأة اختلط عليها نوع الدم، أهو دم حيضٍ أم دم استحاضة؟ إنها على مشارف سنِّ اليأس، فإن هذه المرأة عدَّتها ثلاثة أشهر ..

(وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ)

المرأة الحامل إن طُلِّقت فعدَّتها أن تضع حملها :

الفتيات الصغيرات اللواتي تزوَّجن وطُلِقن ولم يحضن، قال تعالى:

(وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ)

أي إن المرأة الحامل لو أنها طُلّقت فعدَّتها أن تضع حملها، المرأة التي تجاوزت سنَّ اليأس، والتي لم تبلغ سِنَّ الحيض هذه عدَّتها ثلاثة أشهر، أما اللاتي حملت فعدَّتها أن تضع حملها.

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

أي حينما تهتم اهتماماً بالغاً بهذه القضايا فإن الأنساب لا تختلط، وماء الرجل الأول لا يسقي زرع غيره.

(ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)

من يتوهَّم أن لا مخرج له فعليه بطاعة الله :

بيّنت لكم في درسٍ سابق أن قوله تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

والآية الثانية:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

والآية الثالثة:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)

هذه الآيات الثلاثة أيها الأخوة دقيقةٌ جداً في هذه السورة بالذَّات، حينما تضيق الأمور، وحينما تتوهَّم أنه لا مخرج عليك بطاعة الله، عندئذٍ يفتح الله لك مخرجاً واسعاً..

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

وبيّنت لكم في درسٍ سابق أن مثل هذه الآية يمكن أن تنزعها من سياقها، يُكتَبُ حولها مجلّدات، ويمكن أن تبقى في سياقها فتفيد أنه من يتق الله في تطليق زوجته يجعل الله له مخرجاً إلى استرجاعها، طلّقها طلاقاً سُنِّياً، ولم يطلّقها طلاقاً بدعياً، إذاً بإمكانه أن يسترجعها.

الآية الثانية:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

أي أن الله عزَّ وجل جعل للتيسير والتعسير قوانين.

من آمن بأحقّية هذا الدين و اتقى أن يعصي الله فله الجنة :

ينقلنا هذا إلى آيةٍ أخرى توضِّح هذه الحقيقة أشدَّ إيضاحاً:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل: 5-7]

هذا الذي آمن بأحقّية هذا الدين، وأنه خيرٌ مطلق، وأن هذا الدين يفضي بنا إلى الجنَّة- الجنة هي الحُسنى- لقوله تعالى:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

[سورة يونس: 26]

الله عزَّ وجل عَبَّر عن الجنَّة بالحُسنى، وأنت خُلِقت من أجل الجنَّة:

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل:5-6]

أي أنه آمن بأحقّية هذا الدين الذي ينتهي بالإنسان إلى الجنَّة، الإنسان خُلِقَ للجنَّة، ثم أعطى، واتقى أن يعصي الله عزَّ وجل، اتقى أن يُغضِبَه، اتقى أن يسخطه، اتقى أن يقع في مُحَرَّم، اتقى أن يقع في شُبهة، اتقى أن يكسب مالاً حراماً، اتقى أن يحيد عن منهج الله، ثم أعطى، جعل قربَته إلى الله في العطاء..

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل:5-6]

هذا كلام خالق الكون.

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

وليس من شعورٍ أحبُّ إلى النفس من التيسير:

((اللهمَّ لا سَهْلَ إلا ما جعلتَه سهلاً))

[ابن حبان عن أنس]

والإنسان حينما تيسَّر أموره يشعر وكأن الله راضٍ عنه، التيسير له ثمن، ادفع الثمن ودونك التيسير، ثمنه أن تؤمن بالله، أن تصدِّق بكتابه وبنبيّه، وأن تصدِّق باليوم الآخر، ثم من ثمنه أن تستقيم على أمره، ومن ثمنه أن تُنفق ما آتاك الله في سبيله..

(فَأَمَّا مَن أَعْطى وَاتَّقى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل:5-6]

من كان صادقاً في محبّته للنبي الكريم فلابدَّ من أن يُنفِق ماله :

أحدهم قال للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله، والله إني لأحِبُّك.. كلام طيّب.. قال: انظر ما تقول؟ قال: والله إني لأحِبُّك، قال: انظر ما تقول؟ قال: والله إني لأحِبُّك، فقال عليه الصلاة والسلام للمرَّة الثالثة: انظر ما تقول؟ قال: والله يا رسول الله أنا أحِبُّك، قال: إن كنت صادقاً فيما تقول للفقر أقرب إليك من شرك نعليك.

وقف بعض الناس أمام هذا الحديث وقفة متأنّية، كيف؟ هل يكون الفقر جزاء من أحبَّ رسول الله؟ مستحيل، فأين الآية التي تقول:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل:5-7]

لكن شُرَّاح الحديث قالوا: إن كنت صادقاً في محبَّتك للنبي فلابدَّ من أن تُنفِق مالك، هذا الفقر الذي يصنعه ، هذا الذيεالإنسان بيده حينما يُنفِق، هذا هو الفقر الذي ذكره النبي يَكْنِزُ المال ولا يُنفِقه، هذا الذي يستأثر به ولا يبذله، هذا لا يحبُّ رسول الله، لأنه إن كان صادقاً فيما يقول فلابدَّ من أن يُنفِق ماله في سبيل الله، عندئذٍ يبدو فقيراً بمعنى من المعاني، لم يعد يوجد تكديس أموال، صار هناك إنفاقاً، وأساساً إن أردت أن تعرف ما إن كنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة فانظر ما الذي يسعدك أن تأخذ المال أم أن تنفقه؟ لذلك قال له النبي: انظر ما تقول.. المرَّة الأولى.. والثانية: انظر ما تقول؟ والثالثة: انظر ما تقول؟ قال: والله إني لأحِبُّك، قال: إن كنت صادقاً فيما تقول للفقر أقرب إليك من شرك نعليك، إنك إن أحببتني اتبعت سنَّتي، ومن سنَّتي إطعام الطعام، ومن سنَّتي الإنفاق، وبعضهم يتوهَّم ونحن على أبواب رمضان أن الإنفاق متعلّق بالزكاة فقط، لكن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((في المال حقٌّ سوى الزكاة))

[الطبري عن فاطمة بنت قيس]

انظروا إلى قوله تعالى:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)

[سورة البقرة: 177]

إما على حبِّ المال، يحبّه فأنفق منه، وبذلك يرقى، أو آتى المال على حبِّ الله عزَّ وجل، محبَّة لله .

(وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ)

[سورة البقرة: 177]

الزكاة شيء مفروض، وإيتاء المال على حُبِّ الله شيءٌ مندوب، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((في المال حقٌّ سوى الزكاة))

[الطبري عن فاطمة بنت قيس]

من آمن بالدنيا استغنى عن طاعة الله وبنى حياته على الأخذ :

نعود:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل:5-7]

بالمقابل:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ)

[سورة الليل:8]

لم يُنفِق لا من وقته، ولا من جهده، ولا من ماله، ولا من خبرته، ولا من علمه، استأثر بكل شيء، يُنْفِق بأجرٍ باهظ، أما أن ينفق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله.

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

[سورة الليل:8]

عن طاعة الله..

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل:9]

لم يعبأ بأحكام هذا الدين، ولم يعبأ بالجنَّة التي وعد الله بها المتقين، قال تعالى :

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل:10]

التيسير أحبّ شعور إلى الإنسان :

ذكرت هذه الآية التفصيلية تعقيباً على قوله تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

وما من شعورٍ أحبُّ إلى الرجل أو إلى الإنسان من التيسير، الأمور ميسَّرة، من هنا كان عليه الصلاة والسلام يدعو فيقول:

((اللهمَّ لا سَهْلَ إلا ما جعلتَه سهلاً))

[ابن حبان عن أنس]

أحياناً الإنسان تيسَّر له سبل عمله، عمله ميسَّر، زواجه ميسَّر، بيته ميسَّر، رزقه ميسَّر، هذه من علامات الرضا:

((اللهمَّ لا سَهْلَ إلا ما جعلتَه سهلاً))

[ابن حبان عن أنس]

وحينما تتعقَّد الأمور، وحينما توصد الأبواب، وحينما تسدُّ السُبُل، وحينما تأتي الأمور على غير ما تشتهي، لعلَّ هناك خلل، لعلَّ هناك تقصير، لعلَّ هنالك عدوان، لعلَّ هناك ظُلم، لعلَّ هناك انحراف، هذا قانون التيسير والتعسير.

إن تتق الله يجعل لك مخرجاً :

لكن هنا:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

والله أيها الأخوة لو لم يكن في كتاب الله عزَّ وجل إلا هذه الآية لكَفَتْ..

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

قبلها:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

التي بعدها:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ)

ثلاث آيات.. إن تتق الله يجعل الله لك مخرجاً.. والحقيقة أن من حكمة الله عزَّ وجل أن الإنسان أحياناً يُضيّق عليه، الحلقات تتحكَّم به، استحكمت الحلقات حوله، الشدائد سيقت إليه من كل جانب، هذه مرحلةٌ لابدَّ منها يُمتَحَنُ فيها الرجل، فإن بقي على استقامةٍ وعلى حسن ظنٍّ بالله نجح في الامتحان، عندئذٍ

يفرِّج الله عنه كربه، وييسِّر أمره، ويحلّ عقدته، ويوفقه، وينصره، ويحفظه، ويُظهرَه على أعدائه، أما حينما تضيق به الأمور فيكفُر، تضيق به الأمور فيعصي، نحن ممتَّحنون، ما منَّا واحدٌ إلا والله يمتحنه كلّ يوم..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

[سورة العنكبوت: 2-3]

نحن مفتونون، نحن ممتحنون، نحن في دار ابتلاء.. إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء.. نحن في دار امتحان:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: 2]

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

المؤمن الصادق ما من شيءٍ يحرص عليه بعد معرفة الله كأن يستقيم على أمره :

لكن هل بإمكاننا أن نفعل كما فعلنا في الآية السابقة وأن ننزعها من سياقها؟ وأن ندرس شمولها؟ في عملك التجاري لو اتقيت الله عزَّ وجل في شرائك وبيعك، وألزمت نفسك المنهج الصحيح؛ لم تكذب، ولم تدلِّس، ولم تغش، ولم تحتكر، ولم تفعل شيئاً مخالفاً لمنهج الله في البيع والشراء يجعل الله لك من أمرك يسراً، تيسِّر أمورك، أما الإنسان إذا بنى تجارته على الكذب، أو على الغش، أو على الاحتكار، أو على العمل الذي لا يُرضي الله عزَّ وجل، أو كانت البضاعة التي يتعامل معها ليست مباحة في التعامل، أو أن الطريقة التي سلكها ليست صحيحة، عندئذٍ سيجد الإفلاسات، والمصادرات، والشيء لا يتحمَّله..

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

في كل جوانب الحياة، إن اتقيت الله في تربية أولادك جعل الله لك من أمرك يسراً في قطف ثمار البنّوة الصالحة، في أي مجالٍ أنت مع هذه الآية.

أيها الأخوة الكرام، مرَّة ثانية، الفرج محبَّب، والتيسير محبَّب، وتكفير السيئات محبَّب، وثمن تكفير السيئات، وثمن الفرج، وثمن التيسير أن تتقي الله عزَّ وجل، لذلك المؤمن الصادق ما من شيءٍ يحرص عليه بعد معرفة الله كأن يستقيم على أمره، ما من شيءٍ يحرص عليه بعد معرفة الله إلا أن يستقيم على أمره:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

هنا نقطة دقيقة، الناس يفعلون كل المعاصي، والمؤمن يستقيم، وقد يبدو أمامهم ضَيّق الأفق، ما الذي حصل؟ نحن نفعل هكذا، نفعل ما نريد، أنت تضيّق على نفسك، لكن هذا كلّه في حساب.

للإنسان منهجٌ يحكم تصرُّفاته :

أيها الأخوة الكرام، أقول لكم الآن كلمة: الدين كلّه قيود، فيه محرَّمات، فيه منهيات، فيه قيود، فيه حدود، فيه سدود.. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ، لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[أبو داود وأحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أنت لست مخيّراً أن تفعل ما تريد، هناك منهجٌ يحكم تصرُّفاتك، لذلك هذه القيود، وهذه الحدود، وهذه السدود التي تراها في بداية الطريق عبئاً عيك وتقييداً لحرِّيتك هي ثمنٌ لحرِّيتك التي تنالها بعد هذا التقيد.

الآن دققوا، مثل موضَّح جداً قريب وهو بين أيديكم: إنسان لم يخالف القوانين ولا الأنظمة، فهو حُر، له أن يذهب إلى أي مكان، وله أن يسكن في أي بيت، وله أن يسافر إلى أي بلد، وله أن يفعل ما يشاء، يتمتَّع بحرّيته، لأنه مطبقٌ للقوانين والأنظمة، لو أن إنسانًا ارتكب جريمة هل يملك حرّيته؟ هو فعلها بداع أنه حر، فلمَّا خالف المنهج فقد حرّيته، دائماً التقييد يؤدّي إلى الطلاقة، والطلاقة في البداية تؤدّي إلى القيد، من هنا قال الله عزَّ وجل:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة: 5]

الهدى رَفَعَهُم وأعلى شأنهم، وأعلى مقامهم، وحقق أهدافهم وأمانيّهم.

الضلال كلّه تفلّت وتحرُّر :

أما:

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة الأحقاف: 32]

هناك شيء ضمن شيء، الضلال كلُّه تفلُّت، وكلُّه تحرُّر، وكلُّه حرّية، هذا الانطلاق العشوائي في الحركة أوصله إلى كآبةٍ، وإلى مرضٍ نفسي، أو إلى سجنٍ، وإلى فقدِ حرِّية..

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

قيمة الأمر من قيمة الآمر :

الحياة أحياناً أيها الأخوة تنقلب إلى جحيم، لا تغترَّ بالصور الظاهرة، لا تغترَّ ببيتٍ فخم قد يكون جحيماً لأهله، لا تغترَّ بدخلٍ كبير قد يكون وبالاً على أصحابه، لا تغترَّ بقامةٍ مديدة قد تكون مغموسة في الأوحال، العبرة بطاعة الله، فأنت إن اتقيت الله عزَّ وجل يجعل الله لك من أمرك يسراً..

(ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ)

هذا أمر خالق الكون، والحقيقة لا تعرف قيمة أمر الله إلا إذا عرفت الله، لأن قيمة الأمر من قيمة الآمر، وقيمة المُرْسَلِ من قيمة المُرْسِلِ، قيمة الأمر من قيمة الآمر، فكلَّما كنت أعلى معرفةً بالآمر كان تعظيمك للأمر أكبر، من هنا قال الله عزَّ وجل:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج : 32]

(ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ)

لهذا قالوا: " لا تنظر إلى صِغَرِ الذنب ولكن انظر على من اجترأت "، وإذا عرفت الآمر وعرفت الأمر تفانيت في تطبيق الأمر، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفنَّنت في التفلُّت من الأمر، لذلك الدعوات الإسلامية لا تنجح إلا إذا سارت في خطَّين متوازيين، التعريف بالخالق والتعريف بأمره، فلو اكتفينا بأمره نتفلت من هذا الأمر، لأن قيمة الأمر من قيمة الآمر، فقبل أن - لا سمح الله ولا قدَّر - يفكِّر الإنسان في مخالفة أمر الله فليعُدَّ للمليون..

تعصي الإله وأنت تظهر حبَّه ذاك لعمري في المقال بديعُ

لو كان حبُّك صادقاً لأطعتهُ إن المحبَّ لمن يحبُّ يطيعُ

***

من يطبِّق أمر الله فيما هو قادرٌ عليه كفاه الله ما ليس قادراً عليه :

والحقيقة أيها الأخوة نحن بحاجةٍ ماسَّة إلى حسابٍ دقيق، لنحاسِب أنفسنا، أي أن الله عزَّ وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

الإنسان محاط بقوى كبيرة لا قِبَل له بها، وتوجد منطقة في حياته تحت إمرته، دائرة يملكها، ودائرة لا يملكها، أنت إذا أقمت أمر الله في الذي تَقْدِرُ عليه كفاك ما لا تقدر عليه، هذه قاعدة أساسية، ولو عرفها المسلمون اليوم لكانوا في حالٍ غير هذا الحال، الواحد منَّا ألا يملك بيته؟ إذا دخلت إلى بيتك، وأغلقت

الباب من يملك أمر هذا البيت غيرك؟ ألا تستطيع أن تقيم أمر الله في بيتك؟ ألا تستطيع أن تأمر أهلك بالصلاة وأن تصطبر عليهم؟ ألا تستطيع أن تلزم بناتك اللاتي هنّ من صلبك أن يقمن أمر الله في خروجهن؟ وفي سلوكهن؟ ألا تستطيع أن تُطعم أهل البيت اللقمة الحلال؟ هذا كلّه في إمكانك، ألا تستطيع أن تمنع كل نافذةٍ يأتي منها الفساد؟ تستطيع لأن هذا في إمكانك، أنت إن فعلت هذا، إن طبَّقت أمر الله فيما أنت قادرٌ عليه كفاك الله ما لست قادراً عليه، وهذه الآية من أدقِّ الآيات:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ)

[سورة الرعد: 11]

هذه الدائرة الكبيرة التي فيها قوى لا تستطيع أن تقابلها، هذه الدائرة الكبيرة التي فيها قوىً لا تستطيع أن تجابهها، أنت حينما تطبِّق أمر الله فيما أنت قادرٌ عليه كفاك الله في ما لست قادراً عليه..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

هذه الآية يجب أن تكون واضحة لكل المسلمين:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

من عظّم الله عظّم أمره :

أيها الأخوة:

(ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ)

أنت تعظّم أمر الله بقدر ما تعظّم الله، فكلّما كان الله عظيماً عندك عظّمت أمره، أما هذا الذي لا يعبأ، ولا يدقّق، ولا ينتبه للمعاصي والآثام التي يرتكبها فهو بالتأكيد لا يعظّم أمر الله، وهو بالتأكيد لا يعرف الله..

(ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ)

دائماً وأبداً هذه الآيات تطمئن التائب، الماضي ليس مشكلة، الماضي يكفَّر عنه، الماضي تغفَر ذنوبه، الماضي صفحة وطويَت..

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)

أرأيتم إلى هذا العَرض المُغري؟ أي ما عليك إلا أن تتوب والماضي يُغفَر كلُّه، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الزمر: 53]

بل إن الله سبحانه وتعالى أشدُّ فرحاً حينما يتوب عبدُه إليه من الضالّ الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد.

كثرة التوبة من الخصائص اللصيقة بالمؤمن :

إذاً المؤمن من خصائصه اللصيقة به كثرة توبته إلى الله..

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة الزمر: 21]

كثير الإياب إلى الله، يرجع إليه كثيراً، كلّما زلّت قدمه، كلّما غفل، كلّما انحرف سريعاً ما يعود إلى الله، الخطورة أيها الأخوة أن يطول عليك الأمد، فإن طال عليك الأمد قسا قلبك..

(فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

[سورة الحديد: 16]

والتوبة التي يُرجى خيرها هي التوبة التي بينها وبين الذنب وقتٌ قصير..

(ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ)

[سورة النساء: 17]

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأنعام: 54]

التوبة من قريب، أي بين الذنب وبين التوبة يجب أن يكون الوقت قليلاً، تُبْ إلى الله من تَوِّك..

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ)

المصائب التي تصيب المؤمن هي تكفيرٌ له من ذنوبه السابقة :

تكفير السيِّئات له أنواعٌ كثيرة، قد يصاب الإنسان بمحنة، قد يصاب ببلاء، قد يصاب بمصيبة.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة: 155]

كل أنواع المصائب التي تصيب المؤمن هي تكفيرٌ له من ذنوبه السابقة:

((عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى أمِّ السَّائِبِ، أَوْ أمِّ الْمُسَيَّبِ فَقَالَ: مَا لَكِ يَا أمَّ السَّائِبِ، أَوْ يَا أمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ؟ قَالَتْ: الْحُمَّى لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا، فَقَالَ: لَا تَسُبِّي الْحُمَّى، فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ))

[مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

المصائب مكفِّرة، وعزَّتي وجلالي، لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحبُّ أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئةٍ كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شدَّدت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه، أنت حينما تدخل في حَيِّز الإيمان فاعلم علم اليقين أن المصائب تغدو مكفِّرةً لك، ما من عثرةٍ، ولا اختلاج عرقٍ، ولا خدش عودٍ إلا بما قدَّمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ)

مرحلة التكريم تأتي بعد مرحلة التكفير :

بعد أن تتوب إلى الله، ويمحو الله عنك كل الخطايا والآثام فهناك مرحلة تكفير، ثم تأتي مرحلة التكريم:

(وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)

إذاً نحن كما ترون لسنا مخيّرين أمام هذا العطاء الكبير، اتّق الله يجعل لك مخرجاً، اتّق الله يجعل لك من أمرك يسراً، اتق الله يكفِّر عنك سيئاتك، معناها أن الأبواب الموصدة تُفتَح، والطرق المسدودة تُفتَح، والشيء المُعَسَّر يُيَسَّر، والضيق يصبح فرجاً، هذا إذا اتقيت الله، ثم إن الله سبحانه وتعالى يسعدك بالتيسير، إن الله عزَّ وجل كيف يشعر عبده المخلص المؤمن الصادق أنه يحبَّه؟ عن طريق التيسير، كيف يشعر عبده المنيب الراجع التائب أنه قبله؟ عن طريق التيسير، وعن طريق تفريج الهموم، وعن طريق التوفيق في الأعمال.

المعية العامة و المعية الخاصة :

لذلك العلماء قالوا في قوله تعالى:

(أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة: 123]

أي معهم بالتوفيق والتأييد، والنصر والحفظ، هذه المعية الخاصَّة، معهم بالتوفيق، ومعهم بالتأيّيد، ومعهم بالحفظ، ومعهم بالنصر، أما إذا قال الله عزَّ وجل:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد: 4]

هذه معية العلم، وهذه عامَّة لكل الناس، حتى ولو كان كافراً..

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد: 4]

معكم بعلمه، أما:

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة: 153]

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال: 19]

أي معهم حفظاً وتأييداً، ونصراً وتسديداً .

(ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطلاق 065 - الدرس (5-6): تفسير الآيتان 6-7
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-01-10

بسم الله الرحمن الرحيم

مستوى السُكنى للزوجة يجب أن يكون في مستوى السكنى للزوج :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس من سورة الطلاق، ومع الآية السادسة، وهي قوله تعالى:

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ)

أي أن مستوى السُكنى للزوجة هو مستوى السكنى للزوج:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة: 286]

يجب أن يطعمها مما يأكل، وأن يلبسها مما يلبس، وأن يسكنها في بيتٍ يسكنه، أما أن يكلِّف ما لا يطيق في السكنى أو في الإنفاق فهذا ظلمٌ للزوج.

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ)

لست مؤاخذاً أبداً أن تسوِّيها بنفسك، أما أن تتفضل عليها؛ أن تسكن أنت في مكانٍ فخمٍ، أو أن تسكن زوجتك الأولى في مكانٍ فخمٍ جداً، والثانية في مكانٍ قميء فهذا ظلم.

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ)

حظوظ الدنيا موزَّعة بين الخلق توزيعاً مؤدَّاه واحد :

الله عزَّ وجل لحكمةٍ بالغةٍ جعل بين الناس فروقاً، قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

هذه الآية لها معنى دقيق جداً، فمن هم بعضهم؟ كلنا بعضهم، وكلنا الآخر بعض، لولا هذا التفضيل لما انطلقت الحياة، ولما حصل الانسجام، هناك أناس يحبُّون الأعمال اليدوية، فضَّله الله عليك بهذا الاختصاص، هناك أناس يحبون الأعمال العلمية، فضله الله عليك بهذا الاختصاص، هناك إنسان يعمل بعقله، هناك من يعمل بيديه، هناك من يعمل بمشاعره، هناك من يقدِّم خدمات، هناك من يبيع، هناك من يشتري.

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

هذه الآية تشير في النهاية إلى أن المجموع ثابت، لو أمكن أن نعطي لكل حظٍ من حظوظ الدنيا علامات؛ فالزوجة الناجحة الصالحة لها علامة، والابن البار له علامة، والصحة لها علامة، والرزق الوفير له علامة، وراحة البال لها علامة، والوسامة لها علامة، لو أعطينا لكل حظوظ الدنيا علامات لفوجئنا أن المجموع ثابت، يعطي المال ويأخذ الصحة، يعطي الصحة ويأخذ المال، يعطي الصحة والمال ويأخذ الأولاد، يعطي الأولاد ويقلّ المال، لو أردت أن تبحث بشكلٍ موضوعي لوجدت أن حظوظ الدنيا موزَّعة بين الخلق توزيعاً مؤدَّاه واحد، خُذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً، كل إنسان عنده ميزات يقابل هذه الميزات مشكلات، كل إنسان عنده مغانم يقابلها مغارم، كل إنسان عنده دنيا واسعة تقابلها هموم واسعة، فمبدئياً:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

الله عز وجل يسّر لكل إنسان عملاً يتفوق به :

ألا تجد الذي يملك الملايين يقف أمام إنسان خبير لإصلاح المركبة يقف أمامه متأدِّباً ولا يعرف كيف يشكره إذا أصلحها له؟

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

يعطي المال بدرجات، يعطي القوة بدرجات، يعطي الصحة بدرجات، يعطي الوجاهة بدرجات، يعطي الوسامة بدرجات، يعطي طلاقة اللسان بدرجات.

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

هناك خدمات لا يمكن أن تفعلها أنت، لأنك لا تحسنها، أو لا ترضى بها، هناك إنسان يحب أن يعملها، وهي ضمن رغبته وطموحه، فكيف وزَّع الله الاختصاصات والقدرات والملكات والإمكانات؟ وكيف ألهم كل إنسانٍ أن يتقن عمله؟ سبحان الله! كلما اطلعت على عمل يقوم به إنسان في غاية التعقيد، صعب أحياناً، أو فيه مخاطرة، أو فيه منظر دماء، فالجراح مثلاً؛ قد يفتح البطن، وقد يفتح الصدر، وقد يخرج القلب، وهو طبيعي جداً، أنا أقول: كلما رأيت إنساناً يتقن عمله، وعمله يبدو لنا جميعاً أنه فوق المستطاع، أقول: سبحان من يَسَّرَ لكل إنسانِ عمله! هذا يعمل في بناء الأبنية، هذا يعمل في تأمين الطعام للناس، هذا يعمل في صُنع الألبسة، هذا يعمل في التعليم، هذا يعمل في القضاء، وكل حرفة لها

ملابساتها، ولها دقائقها، ولها خصائصها، وكل إنسان بالممارسة يتقن عمله يصبح متفوقاً فيه، يصبح مُفَضَّلاً فيه:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

مراتب الدنيا لا تعني شيئاً :

لعلي في هذا الدرس مَهَّدت هذا التمهيد لكلمة:

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ)

فممكن أن تشتري بيتًا بمئتين وخمسين ألفًا في أطراف دمشق، وهناك صنبور ثمنه يقدر بمئتين وخمسين ألفًا، يفتح على الضوء، ومُعَيَّر.

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة الإسراء: 21]

لكن أيها الأخوة:

(وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)

[سورة الإسراء: 21]

أريد أن أقف وقفة متأنية لعلها ضعيفة الصلة بالآيات، مراتب الدنيا لا تعني شيئاً.

ثانياً: مؤقَّتة، فمرتبة المال، قارون من أغنى الأغنياء، هل كان الله يحبه؟ لا، فرعون هل أحبه الله؟ لا.. سيدنا سليمان كان ملكاً، وأحبه الله، سيدنا عبد الرحمن بن عوف كان غنياً، وأحبه الله، مراتب الدنيا لا تعني شيئاً، فالله يحب إنسانًا غنيًّا، ويكره إنسانًا غنيًّا، معنى ذلك أن المحبة والكراهية لا علاقة لها بالغنى، ما دام يحب عبد الرحمن بن عوف الغني الذي أنفق ماله، يحب سيدنا عثمان بن عفان الغني الذي أنفق ماله، ويبغض قارون الذي تاه بماله على الناس:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

[سورة القصص: 79]

إذا كان الله يحب غنياً، ويبغض غنياً، ألا ينبغي أن نستنبط أن الغنى لا علاقة له بالحب والكراهية، يحب ملكاً كسليمان الحكيم، ويكره فرعوناً، لأنه طغى، وبغى، ونسي المبتدى والمنتهى، إذاً حظوظ الدنيا في الدنيا لا تعني شيئاً..

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ *وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)

[سورة الدخان: 25-29]

ليس عطاء الله إكراماً ولا منعه حرماناً :

إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، مراتب الدنيا لا تعني شيئاً، لأنها مؤقتة، هي مؤقتة ولا تعني شيئاً، أما أنها مؤقتة، فالموت ينهي الغنى، ينهي غنى الغني، لا يوجد قبر خمس نجوم، القبر قبر، ينهي غنى الغني، ينهي فقر الفقير، ينهي قوة القوي، ينهي ضعف الضعيف، ينهي صحة الصحيح، ينهي مرض المريض، ينهي وسامة الوسيم، ينهي دمامة الدميم، ينهي فصاحة الفصيح، ينهي عَي العَي، الموت ينهي كل شيء، المراتب مؤقتة، أولاً.

وثانياً: لا تعني أن من تفوّق في هذا يحبه الله، الله يحب المؤمن فقيراً كان أو غنياً، قوياً كان أو ضعيفاً، صحيحاً كان أم سقيماً، وسيماً كان أم دميماً، كان عليه الصلاة والسلام يضع أسامه بن زيد على فخذه ويقول: "اللهم إني أحبه فأحبه"، وكان يسمَّى عند أصحاب النبي حبَّ رسول الله، وكان أسود اللون، أفطس الأنف، فهذه قضية دقيقة جداً، مراتب الدنيا وحظوظها لا تعني شيئاً، لا تعني أن الله يحبّك، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

[سورة الفجر: 15]

هذه هي مقولته..

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا)

[سورة الفجر: 16 -17]

أي أنتم واهمون يا عبادي، ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء وحرماني دواء، فالإنسان الذي لا يجد المال الكافي، الصحة الكافية، أحياناً حظه من بعض المجالات قليل، لا ينبغي أن يشعر أنه مهان عند الله، لا:

((يا محمد أتحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً؟ قال: بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره))

[شرح السنة للبغوي قريبا من هذا اللفظ]

حظوظ الدنيا متفاوتة :

إذاً وصلنا إلى أن حظوظ الدنيا متفاوتة، أول حقيقة هي في المجموع واحدة، في المجموع، أما في التفاصيل فليست واحدة، قد يوفق الإنسان إلى زوجة صالحة جداً نعطيه تسعة، وإلى أولاد غير أبرار

نعطيه واحداً، مجموعهم عشرة، عنده زوجة صالحة جداً، أولاد غير جيدين، أو أولاد تسعة وزوجة واحدة، أو أولاد خمسة وزوجة اثنان، ومال ثلاثة، بالنهاية مجموع واحد .

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ *وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا)

[سورة الفجر: 15 -17]

- كلا -، أداة نفيٍ وردع، أي يا عبادي، أنتم واهمون، ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني دواء.

العبرة بالنتائج :

أيها الأخوة الكرام... كلامٌ دقيقٌ دقيقٌ أسوقه لكم، بيدك مال، لا تقل: هذا نعمة، ولا تقل: هذا نقمة، متزوج، لا تقل: الزواج نعمة، ولا الزواج نقمة، لك شأن، لا تقل: هذا الشأن نعمة أم نقمة؟ هذا المال إذا وظّفته في طاعة الله فهو نعمة، فإن أنفقته في المعاصي والآثام فهو نقمة، هذه الزوجة إن دللتها على الله فهي نعمة، أما إن تركتها جاهلة وعاثت في الأرض فساداً فهي نقمة، هذا الشأن العالي إن وظّفته في إحقاق الحق وإزهاق الباطل نعمة، أما إن لم توظفه في الحق فهو نقمة.

لا تسمِّ العطاء نعمة إلا إذا وظّف في طاعة الله، لا تسمِّ الذكاء نعمة إلا إذا وِّظف الذكاء في طاعة الله، لا تسمِّ طلاقة اللسان نعمةً إلا إذا وظّفت في طاعة الله، لا تسمِّ المال نعمة إلا إذا أنفق في طاعة الله، إيَّاك أن تسمّيَ حظوظ الدنيا نعماً إن استهلكتها في المعاصي والآثام، وَّإياك أن تسميَ الحرمان نقماً إن كان الحرمان سبب رجوعك إلى الله عزَّ وجل، فإذا انكشفت لك عين حكمة المنع انقلب المنع عين العطاء، ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك.

أحياناً تجد في بعض البلاد دنيا عريضة- شيئًا لا يوصف- مالاً وفيراً، بيوتاً جميلة، منطقة جميلة خضراء، دخلاً كبيرًا، أموراً ميسَّرة، تأمينًا صحيًّا كاملاً، الإنسان يُجري أي عملية مجاناً، هناك تعويضات مجزية له ولأولاده، الذي لا يعمل له ثمانون بالمئة من معاشه، وهو يعمل، هذه الدنيا العريضة قد تكون حجاباً بين هؤلاء وبين الله، وأحياناً الشدائد تدفعهم إلى باب الله، فالعبرة بالنتائج، الله عزَّ وجل قال:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

زوج فقير قد يكون أعلى عند الله ألف مرة من زوج غني، وإنسان يسكن بيتاً واسعاً قد يكون أقلّ شأناً عند الله من إنسان يسكن بيتًا صغيراً، لا اتساع البيت يعني شيئاً ولا ضيقه، النبي عليه الصلاة والسلام

كانت غرفته لا تتسع لصلاته ونوم زوجته، وهو سيد الخلق، وحبيب الحق، فالعبرة بالمؤدَّى، العبرة بالنهاية، أنت إنسان مجموعة أيام، بضعة أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منك، مفهوم الزمن عند الناس غير واضح، أنت بين يومٍ مضى لا تملكه، وبين يومٍ سيأتي لا تملكه، ولا تملك إلا الساعة التي أنت فيها، فلذلك: "ما مضى فات والمؤمَّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها".

من حملت زوجها على معصية الله فهي أكبر عدوةٍ له يوم القيامة :

أردت هذا التمهيد، قد لا يعبأ الناس بإنسان دخله محدود لجهلهم، ولضعف إيمانهم، فأحياناً حاجب في فندق مستقيم فرضاً، يقرأ القرآن، قد يكون أقرب إلى الله من نزلاء الفندق الأغنياء، لا تعرف مقام الناس عند الله إلا عرضت أعمالهم على كتاب الله وسُنَّة رسوله، لذلك هل نكلف زوجاً فقيراً أن يسرق من أن أجل أن يسكن زوجته منزلاً واسعًا؟ هل نكلف زوجاً أن يقبل الدخل الحرام من أجل أن يطعم زوجته طعاماً نفيساً؟ أن يلبسها ثياباً فخمة؟ أبداً، لا أحد يحتج أنه يوجد عنده ضغط من الداخل، هذا وضعي، وهذا دخلي، وهذا مستوى معيشتي، فإن شئتِ أن تعيشي معي بهذا أهلاً وسهلاً، ولك صدر البيت.. كما يقولون.. أما إن ضغطت عليه لتحمله على كسبٍ حرام أو على معصيةٍ، فهذه الزوجة ينبغي ألا تطاع، فلو أطعتها كانت أكبر أعدائك يوم القيامة..

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ)

[سورة التغابن: 14]

إن حملتك الزوجة على معصية الله فهي أكبر عدوةٍ لك يوم القيامة، لأن شقاء الإنسان يراه بسبب هذه الزوجة التي دفعته إلى معصية الله، كانت الصحابيَّات الجليلات يقفن يودِّعْنَ أزواجهن قبل الذهاب إلى العمل ويقُلن لهم: يا فلان، اتق الله فينا، فنحن بك، إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا، نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام.

الآن لسان حال النساء المتفلتات يدفعن أزواجهن إلى توسيع البيت، إلى تغيير الأثاث، إلى شراء الألبسة الفاخرة، إلى تأمين الطعام الطيِّب، ولا يعبأن من أين يجيء هذا الزوج بهذا المال الكثير، دخله محدود، من أين جاء بهذا المال الكثير؟ هي تعبأ أن تأكل، وأن تشرب، وأن تلبس، وأن تسكن، ولا تعبأ بدين زوجها، فلذلك: " اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الدنيا لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن أهون من أضحي بهن من أجلك ".

الإنسان السوي لا يسعده إلا أن يرى أهله وأولاده في حالة طيِّبة :

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ)

هذا المسكن الذي أستطيع أن أسكنه، تسكنين معي.

(مِنْ وُجْدِكُمْ)

ما تجدون.

(وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ)

الإنسان أحياناً يقيم الشرع في بيته، وأحياناً يستخدم مواد الشرع للتضييق على زوجته، من يعلم هذا؟ لا يعلم هذا إلا الله، الله وحده يعلم ما إذا كنت تضيِّق عليها، قد تدعي أنك لا تملك، والله يعلم أنك تملك، قد تدعي أنك لا تجد، والله يعلم أنك تجد:

((لذلك ليس منا من وسَّع الله عليه ثم قتر على عياله))

[الجامع الصغير عن جبير بن مطعم بسند ضعيف]

والبخيل إنسان شاذ، إنسان مريض، والأب السوي لا يسعده إلا أن يرى أهله وأولاده في حالة طيِّبة، لذلك:

((إنك يا سعد، لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله تعالى إلا أجرت عليها، حتى اللقمة تجعلها فِي فيّ امرأتك))

[متفق عليه عن سعد]

طلب الحلال فريضة بعد الفريضة :

لذلك هذا الذي رآه النبي عليه الصلاة والسلام مع أصحابه يستيقظ باكراً إلى عمله، فقال بعض الأصحاب: ليته كان هذا في سبيل الله، فتعجب النبي عليه الصلاة والسلام، وقال:

((إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان))

[الجامع الصغير عن كعب بن عجرة]

إذا خرج الإنسان من بيته ليعمل فيأتي بمال ليسعد زوجته وأولاده فهو في سبيل الله، الإنسان عمله من عبادته، وإن الله عزّ وجل جعل طلب الحلال فريضة بعد الفريضة، هذا الكلام كله:

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ)

النبي عليه الصلاة والسلام استوصى بالنساء خيراً :

الزوجة المؤمنة العاقلة لا تحمِّل زوجها ما لا يطيق، لا تطالبه إلا بما يجد، لذلك ورد في بعض الأحاديث أن من بركة المرأة قلة مؤونتها:

((أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة))

[الجامع الصغير عن عائشة]

((أعظم النساء بركة أقلهن مهراً))

[الجامع الصغير عن عائشة]

هذه المرأة حينما تقيس نفسها بحجم مهرها لا تعرف شيئاً، المرأة لا تقدَّر بثمن، المهر تعبير رمزي، ولكن ليس تعبيراً حقيقياً، فإذا حَمَّلَتْ المرأة زوجها ما لا يطيق فقد عصت الله ورسوله.

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ)

أحياناً هناك تقنين هدفه الإضرار، أحياناً هناك تضييق هدفه إيقاع الأذى بالمرأة، وليس من شِيَم المؤمن أن يوقع الأذى بزوجته، لأن النبي عليه الصلاة والسلام استوصى بالنساء خيراً قال:

((أكرموهن، فوالله ما أكرمهن إلا كريم، وما أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهم كل لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

[ورد في الأثر]

وقال:

((إنهن المؤنسات الغاليات))

[الجامع الصغير عن عقبة بن عامر]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((خيركم خَيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي))

[الترمذي عن عائشة، وابن ماجه عن ابن عباس]

المرأة العاقلة لا تُحمّل زوجها ما لا يطيق :

أما الآية الثانية:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

[سورة التحريم: 4]

المرأة إذا طالبت بحقها فلا شيء عليها، إنما إذا أرادت أن تَحْمِلَ زوجها على ما لا يطيق، وأن تكلفه ما لا يستطيع، وأن ترهقه، وأن تجعل حياته نكداً، ومعيشته ضنكاً، فهذه امرأةٌ لا تعرف الله، ولا ترقى عند الله.

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ)

بعض علماء التفسير قال: كيف تضاروهن؟ يطلقها، هو ينوي أن يفارقها نهائياً، يطلقها طلقةً أولى في طهرٍ لم يمسَّها فيه، فإذا انقضى أول قرءٍ شهر، وثاني قرء شهر، وثالث قرء شهر، قبل يومين يراجعها، فتعود إليه، وبعد أن تطهر يطلّقها، هدفه إزعاجها، هدفه إبقاءها في بيته مُهانة بعيدة عنه، وبعيد عنها، وهذا نوعٌ من أنواع التضييق، فإمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان.

يا أبا أمية، إنني امرأةٌ غريبة، لا أعرف ما تحب ولا ما تكره، فقل لي ما تحب حتى آتيه وما تكره حتى أجتنبه؟ ويا أبا أمية قد كان لك من نساء قومك من هي كفء لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجة على كتاب الله وسُنَّة رسوله ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فاتق الله فيَّ، وامتثل قوله تعالى:

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

[سورة البقرة: 229]

هذا كلام ربنا عزَّ وجل، إما أن تمسكها كزوجة، أو أن تسرِّحها سراحاً جميلاً، فأنا لا أتكلم من هراء، أتكلم من شكاوى كثيرة، لا هي زوجة، ولا هي مطلقة، ولا هي معلّقة، لكن فمن هي؟ زوجة، فلما لا تأتي إلى بيتها، هجرها، يسكن مع زوجة أخرى، زوجة يأتيها، ويؤتي نصيبها من اللقاء، فلمَ تعطي تلك المبالغ الطائلة وهذه تحرمها؟

على الزوج أن ينفق على زوجته الحامل و إن كانت مطلقة :

(وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ)

أي أن المطلّقة إذا كانت حاملاً تبقى في بيت زوجها فعلى زوجها أن ينفق عليها حتى تضع حملها، لأن المرأة تحمل الغلام وَهْنَاً، حملته وهناً، ووضعته كرهاً، قال:

(فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآَتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

هذه بعد أن طلقتها طلاقاً مبتوتاً، بعد أن بانت منك البينونة الكُبرى، إن كانت حاملاً فيجب أن تنفق عليها، وإن كانت غير حامل فيجب أن تُمْضي العدة في بيتك دون أن يكون هناك لقاء إطلاقاً، أو نظر.

(فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآَتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

كلمة [معروف]دقيقة جداً، هناك معروف في كل مجتمع، وهناك عمل شاذ وعمل بالمعروف، أنا سمعت عن امرأة توفي عنها زوجها، تسكن في بيت زوجها، زوجها متزوِّج من زوجة سابقة، وكانت قد توفيت، وله منها أولاد، ماذا فعل الأولاد بزوجة أبيهم؟ أول شيء هذا الزوج ترك مالاً في البيت، أول شيء أعطوها نصيبها من هذا المال حباً وكرامة، دون أن يخفوا شيئاً، قالت لهم: إن زوجي وعدني بالمال الفلاني الذي عند فلان أنه لكِ، كلاماً شفهياً، قالوا: هو لكِ إذاً، أعطوها تنازلاً، ثم جاؤوا بمهرها، مبلغ عشرة آلاف ليرة، بعد أن أعطوها المهر عادوا عليها بعد يومين أعطوها تسعين ألفًا، قالت: لمَ؟ قالوا: لأننا سألنا العلماء فقالوا: هذا المهر بعملة قيمتها قديماً تساوي شيئاً ثميناً، أما الآن فلا تساوي شيئاً، فحسبوها على الذهب، هذا هو المعروف.

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

[سورة البقرة: 229]

التُهَم التي تلقى إذا وُجِد خلاف زوجي كلها من الشيطان :

نحن إذا كان هناك خلافاً يوكلون المحامين، وكل طرف يحاول أن ينَكّل بالطرف الثاني، يحاول أن يتفنن بإيقاع العذاب والخسارة بالطرف الثاني، ألا يمكن أن نتفارق بالمعروف؟ ألا يمكن أن نطلق بالمعروف؟ ألا يمكن أن نعطي حقوق الزوجة بالمعروف؟ ألا يمكن أن نضبط ألسنتنا؟ قل: لا يوجد نصيب، إذا صار الطلاق تنشر الفضائح، وينشر الغسيل القذر على السطوح، وفي الشرفات، فلا يوجد نصيب، المسلم بحاجة إلى كمال، فإذا كان الوفاق كان المديح غير معقول، أيضاً إن صار خلاف كان الذم غير معقول، فيكون الزوج ولي من أولياء الله الصالحين، ثم بعد ذلك يقولون عنه: إنه يقع بالساعة، الحمد لله، خلصنا الله منه، رأساً يتهمونه بصحته، يتهمونه بشرفه، أو بالعكس، هذا كله من الجاهلية، هذه التُهَم التي تلقى إذا وُجِد عدم وفاق زوجي، أو صار الطلاق، هذا كله من الشيطان.

(يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ)

[سورة المائدة: 91]

مهمات الشيطان :

أخواننا الكرام، الشيطان له مهمات وضحها لنا ربنا، أول مهمة: التفريق بين المرء وزوجه، وصدقوني أيها الأخوة، إن الله لا يرضى عن الزوجين إلا إذا كانا متفاهمين، وإلا إذا كانا متعاونين، وإلا إذا كانا متضامنين، وإلا إذا كانا متسامحين، وإلا إذا كان متباذلين، هو يبذل، وهي تبذل، هو يسامح، وهي تسامح، مهمة الشيطان عكس ما يرضي الله عزَّ وجل، الخصومة، والكلمة القاسية، والنظرة القاسية،

والعبارة النابية لها ولأهلها، والعبارة النابية له ولأهله، هذا من عمل الشيطان، كل إنسان يمتحن إيمانه في بيته، هل هو مطواع؟ هل هو سلس القِياد؟ رحيم، يقول عليه الصلاة والسلام:

((خيركم خَيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي))

[الترمذي عن عائشة، وابن ماجه عن ابن عباس]

من يرفض أن تنصحه زوجته إنسان جاهل :

الآن طلق:

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

هناك عُرف، والعُرف مأخوذ من الفطرة، في بعض البلاد الأجنبية شيء في القضاء اسمه المحلّفين، خمسون شخصاً من قارعة الطريق تعرض عليهم قضية بحسب إدراكهم السليم وفطرتهم السليمة يعطون رأياً صحيحاً، العُرف قلما يخطئ، ربنا عزَّ وجل يقول:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

- وَأْتَمِرُوا - فيها معنى المشاركة، أي هذا الذي يرفض أن تنصحه زوجته إنسان جاهل:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

أي عليك أن تأمرها بالمعروف، وعليها أن تأمرك بالمعروف، ائمرها بالمعروف واقبل أمرها بالمعروف.. أحياناً عندنا فكرة جاهلية، أن الحق دائماً مع الرجل، لا، أحياناً يكون الحق مع المرأة، فكما أنه يجب أن تصغي إلى أمرك بالمعروف، الله عزَّ وجل يأمرك أن تصغي إلى أمرها بالمعروف، هناك امرأة مظلومة، والمرأة المظلومة قد يستمع الله إلى شكواها من فوق سبع سموات، إيَّاك أن تستضعف مخلوقاً، إيَّاك أن تقل: هذه الزوجة أهلها مسافرون، والدها متوفى، أخوها مسافر، ليس لها من يحميها، أنا أتحكم فيها، هذا كلام الجاهلية، كلام إنسان جاهل، الله ربها، وهو يدافع عنها، وقد يسوق الله الشدائد تلو الشدائد لمن يظلم زوجته.

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

أي مرها بالمعروف، فرضاً الزوج ضعفت صَلاته، إن نصحته زوجته هل عليه أن يغضب؟ نصحته أن يصلي الفجر في وقته، فقال لها: جزاك الله خيراً، هذه من أعظم النعم، أن تكون لك زوجة تأمرك بالمعروف، إن رأت دخلاً غير مشروع فسألتك: من أين هذا الدخل؟ أنا لا أرضى أن تكسب الحرام، هذه زوجة عظيمة، كما أنه مأمورٌ أن يأمرها بالمعروف، ومأمورٌ أيضاً أن يصغي إلى أمرها بالمعروف إن كانت صاحبة حق، لا تكن جاهلياً، كن رحمانياً، لا تكن مستبداً، كن خَيرِيَّاً.

القرآن الكريم جعل بديل حليب الأم مرضعة :

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ)

أي لو أن المرأة المطلقة التي أنجبت مولوداً جاء من يخطبها إلى بلدٍ بعيد، هل يستطيع الزوج أن يمنعها من الزواج والسفر؟ لا يستطيع، قال:

(وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى)

لا توجد مشكلة، أما هنا فهناك مشكلة الآن، والشيء العجيب أن القرآن الكريم جعل بديل حليب الأم مرضعة، الآن في العالم كله بديل حليب الأم الإرضاع الاصطناعي.

لا شيء يعادل حليب الأم و هو أروع هدية من الرحمن :

أحدث بحث اطلعت عليه وهو بحث مترجم، هناك علاقة وشيجة جداً بين الذكاء والإرضاع الطبيعي، هذا البحث كلَّف سنوات، أخذت عيِّنات من الأطفال من شتى بقاع العالم، وفي بلد، وهو جزيرة في المحيط الهادي وجد أن نسبة الذكاء بين أطفالها أعلى نسبة في العالم، أمريكا التي تدعي أنها في قمة المجتمع البشري، ترتيبها سبعة عشر في الذكاء، الأطباء عزوا ذلك إلى الإرضاع الطبيعي، لأن حليب القوارير هو حليب البقر أو الغنم، فيه مواد بروتينية لا تستطيع أجهزة الطفل تحمُّلها إطلاقاً، لا تستهلك منها إلا الخمس، والأربعة أخماس لا تستهلك، هذه المواد البروتينية، والأحماض الأمينية، تصبح عبئاً على جهاز الهضم والدوران في الطفل الصغير، بينما حليب الأم.. ودققوا فيما أقول: يتبدل تركيبه في أثناء الرضعة الواحدة، في أول الإرضاع نسب الماء ستون بالمئة، في نهاية الإرضاع أربعون بالمئة، حليب الأم يتبدَّل كل رضعة، وفي أثناء الرضعة الواحدة، وفيه مواد تمنع التصاق الجراثيم بالأمعاء، وفيه مناعة الأم كلها، وفيه مواد تعين على الهضم، وقد ثبت أن بعض الآفات القلبية والوعائية والكلوية في مستقبل حياة الإنسان تُرَدُّ إلى أنه رضع من حليبٍ صناعي، ولم يرضع من ثدي أمه.

أنا أقول لكم حقيقة: لو أن أماً طلقت، وأنجبت ولداً، وسافرت مع زوجها الجديد، ماذا نفعل؟ البديل ما هو؟ البديل مرضعة أخرى، بهذا أمر القرآن، هذا كلام الله عزَّ وجل، لأن لا شيء يعادل حليب الأم، وفي بعض البلاد الأجنبية، بل في أكثرها كل شركات حليب الأطفال أُمِرَتْ أن تكتب: " لا شيء يعادل حليب الأم "، في الدرجة الأولى، بل إن بعض أمراض الثدي، ومنها الأمراض الخبيثة.. الورم الخبيث.. سببه عدم الإرضاع، فالأم التي لا تُرضع طفلها لتحافظ على شكلها قد يتسبب ذلك في إصابتها بسرطان الثدي، لأن هذا من حق ابنها..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

[سورة البلد: 8-10]

هذه هدية الله، هذا الحليب حليب الثديين يجده الطفل الصغير جاهزاً، معقماً، بارداً صيفاً، ساخناً شتاءً، متوازناً، متعادلاً، متدرجاً في نسبه، فأروع هدية لهذا الطفل الصغير حليب الأم.

منعكس المص من آيات الله الدالة على عظمته :

رأيت في بحث علمي مصوَّر أن بعض الحيوانات ولدت مولوداً صغيراً، بعد ثانيتين التقم حلمة الثدي ورضع منها، من علّمه ذلك؟ هناك شيء لا يغيب عن أذهانكم أن في الإنسان ما يسمى منعكسَ المَص، هذا المنعكس لولاه لما كنا في هذا المسجد، تصور مولوداً جديداً لا يستطيع أن يأكل إلا الحليب، ولا يعرف كيف يمص ثدي أمه، يموت، لا توجد طريقة، قد يقول أحدكم: نعلمه، الآن هو ولد، نقول له: انتبه أيها الطفل، ضع فمك على حلمة ثدي أمك، وأحكم الإغلاق، واسحب الهواء، مستحيل، هذا المنعكس منعكس المص يولد مع الإنسان، فقضية الحليب، وقضية منعكس المص، شيء لا يكاد يصدق، يقال لك: الآلة بشحمها، فالطفل حينما يولد الله جلَّ جلاله لحكمٍ بالغة يجعل في كل جهازه الهضمي مواد شحميّة لتمنع التصاق الأوعية ببعضها، فالمواد الشحمية لابدَّ من أن تزول قبل أن يأكل، فالأربع والعشرين ساعة في أول إرضاع الطفل الصغير لا يرضع حليباً، يرضع مواد مذيبة شفَّافة صفراء، أول أربع وعشرين ساعة يخرج منه شيء أسود هو الشحم الذي كان في الجهاز الهضمي، تخطيط من؟ صُنع من؟ صنع الله عزَّ وجل، فلذلك:

(وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى)

معنى ذلك أن إرضاع الإنسان من قِبل أمه أو من قبل مرضعة.

ليس منا من كلّف نفسه ما لا يطيق :

ثم يقول الله عزَّ وجل:

(لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ)

لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[مسند الشهاب للقضاعي عن عائشة]

بالمقابل، ليس منا من كلّف نفسه ما لا يطيق، أي أكل مالاً حراماً ليوسع على عياله، الله لم يأمرك بهذا، وما كلفك ما لا تطيق.

(وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ)

المظاهر لا قيمة لها إطلاقاً :

أحياناً تجد عرساً.. طبعاً أنا لا أقول هذا لأنني موافق عليه.. كلف ستين مليونًا، وتجد عرساً فوق سطح منزل، وفيه تجلٍّ، وفائدة، ووفاق زوجي، و سعادة كبيرة.

في الحياة جوهر، وفيها ظواهر، المظاهر لا تقدِّم ولا تؤخِّر، قلنا لكم مرة: فندق من الفنادق الكبيرة في دمشق التي تجرى فيها عقود القران، والمبالغ بالملايين، عشرون، ثلاثون، إلى الستين، أعلى رقم: ستون مليونًا، أراد هذا الفندق أن يجمع الذين أجروا عقداً فيه خلال ستة أشهر كي يكافئهم، أجري إحصاء، كانت العقود ستة عشر عقداً، فدعوا أصحاب العقود ليقيموا لهم حفلاً تكريمياً، ففوجئوا أن ثلاثة عشر عقداً من هذه العقود قد آلت إلى الطلاق، فلذلك المظاهر لا قيمة لها، العبرة بالمخبر.

أحياناً تجد حفلاً فخماً يكلف الملايين، لكن لا يوجد فيه وفاق زوجي، وأحياناً تجد وفاقًا زوجيًّا في حفل متواضع جداً لم يكلف شيئاً، واللهِ سمعت أن بعض المساجد تجري فيها عقود القران، فيها تجلٍّ و سرور، وإلقاء كلمات، ومديح لرسول الله، وتوزَّع ضيافة، بكل بساطة، إذاً:

(لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آَتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)

لا أحد يتشاءم.

أحد أنواع التربية الإلهية أن يضيِّق على الإنسان ثم ييسر له :

(سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)

العسر مقصود، والعسر تربوي، والعسر يهذِّب المشاعر، إذا اغتنى إنسان بعد افتقار تجده متواضعاً، ويعرف قيمة الناس، وقيمة الفقراء، وقيمة الأخلاقيين، الملاحظ أن الإنسان إذا اغتنى بعد فقر عنده تواضع شديد، إنسان ويعرف قيمة المال، ويعرف قيمة المحرومين، بالعكس إنسان قد يكون من أسخى الناس، أما الذي ينشأ في الغنى، ولم يذق طعم الفقر فهذا قد لا يحتمل، فأحد أنواع التربية الإلهية أن يضيِّق إنسان ثم يفتح.

(سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)

بطولة الإنسان أن يتزوج امرأةً لا يحتاج إلى تطليقها :

أيها الأخوة هذا منهج الله في العلاقة الزوجية، لكن كما قلت في بداية أول هذه السورة: تزوجوا ولا تطلقوا، فالبطولة أن تتزوج امرأةً لا تحتاج إلى تطليقها، ألم أقل لكم مرةً: إن سيدنا معاوية سأل سيدنا عمرو بن العاص: ما بلغ من دهائك؟ قال له: والله ما دخلت مُدْخَلاً إلا أحسنت الخروج منه، قال له: لست بداهية، أما أنا والله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه.

الإنسان يوفق بزوجة صالحة، فلا يحتاج إلى تطليقها، أما إذا كانت الدراسة سريعة، والقرار تمّ على عجل، دون تمحيص، في الأحيان الكثيرة يحتاج الإنسان إلى أن يطلق زوجته، أما البطولة فأن تتزوج ولا تطلق، أي أن تدرس الأمر دراسة متأنية، وأن تبحث ملياً عن الأسرة، وعن أخلاقها، وعن مستواها، وعن دينها، وعن علاقاتها الاجتماعية، وعن طيبها، وعن دخلها، حتى يكون الاختيار صحيحاً.

وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى نتحدث كيف أن الله بعد هذه الآيات التشريعية هناك آيات ردعية، أو فيما يسمى في القوانين المؤيِّد القانون الذي يحمل الناس على طاعة الله..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا*فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الطلاق 065 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 8- 12

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-01-17

بسم الله الرحمن الرحيم

العقوبة تحجِّم الإنسان وتدفعه إلى تطبيق القانون :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس من سورة الطلاق، ومع الآية الثامنة، وهي قوله تعالى:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا*فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا)

أيها الأخوة الكرام، لا يخفى عليكم أن أي قانونٍ يصدر لا معنى له من دون عقوبات، لأن العقوبة تحجِّم الإنسان، وتدفعه إلى تطبيق القانون، هذا في حياتنا الدنيا، ربنا سبحانه وتعالى هو ربُّ العالمين، خلقنا، ولكنه يربينا، كيف يربينا؟ يضع لنا منهجاً نسير عليه، فلو حِدْنا عن هذا المنهج أدَّبنا، وهذا التأديب لصالحنا، لذلك بعد أن حدَّثنا ربّنا عن أحكام الطلاق، أحياناً الزوج يطلّق طلاقاً تعسُّفياً، يقول: هذه ضعيفة، لا أهل لها، أنا أفعل بها ما أريد، ربنا عزَّ وجل يُذَكِّر الأزواج، بعد أن حدَّثنا عن أحكام الطلاق، وعن الطلاق البِدعي والسنّي، وعن الطلاق الذي يجوز، والذي لا يجوز، قال:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا)

العقاب ردع لبقية الناس :

لماذا أمر الله أن يُقتَل القاتل؟ وأن يُقتَل على مرأى من جمهور المسلمين عقب صلاة الجمعة؟ لماذا أمر أن تُقطع يدُ السارق؟ وأن تقطع أمام الملأ؟

(وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

[سورة النور: 2]

لماذا؟ من أجل أن يكون هذا العقاب ردعاً لبقية الناس، فربنا عزَّ وجل يبين أنه - كَأين - أي كم، كم لها معنيان في اللغة: كم استفهامية، وكم تكثيرية، أي تعجُّبية، أنا أسألك: كم كتاباً عندك؟ تقول لي: ثلاثون كتاباً، أقول لك مرَّةً ثانية: كم كتابٍ عندي، أنا لا أسألك، ولكن أُكَثِّر من الكتب التي عندي، فالعلماء قالوا: كم استفهامية، وكم تكثيرية، وكأيِّن تساوي كم..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا)

عتت أي خرجت، واستكبرت أن تطيع الله عزَّ وجل، العتو الاستكبار، فكم من قريةٍ خرجت عن أمر الله عزَّ وجل، والآن ماذا يحصل؟ هناك قُرَى تصاب بزلازل، قرى تصاب بمجاعات، قرى تصاب بأمراض وبيلة، قرى تُهَجَّر من أماكنها، أبناء القرى يهجَّرون من أماكنهم، يُشَرَّدون في الآفاق، وأحياناً فيضانات، أحياناً كوارث طبيعية، أحياناً زلازل، أحياناً أمطار، أحياناً صقيع، كما تسمعون الآن سبعون تحت الصفر، يموت الناس بالعشرات من شدَّة البرد..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا)

أي إما أن تطيع الله عزَّ وجل، وإلا فتحمَّل..

التربية رحمة :

جاء أعرابي إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: "يا رسول الله عظني ولا تطل، فقال عليه الصلاة والسلام: قل آمنت بالله ثم استقم، قال هذا الأعرابي: أريد أخفَّ من ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: إذاً فاستعدَّ للبلاء".

أي أنك لست مخيّراً، مخيّر أن تطيع، أو ألا تطيع، أما إذا عصيت فليس لك الخيار أن تتحمَّل العقاب، أو أن ترفضه، خيارك في الطاعة أو المعصية، أما مع المعصية فلم يعد هناك خيار، وهذا شيء بديهي، شخص يقود مركبة، والإشارة حمراء، فهو مخير أن يقف متأدِّباً مع النظام، أو أن يخرق قواعد النظام، أما إذا خرق قواعد النظام فليس باختياره أن يقبل العقاب، أو أن يرفضه، كما قلت من قبل:

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ))

[متفق عليه عن أبي هُرَيْرَةَ]

أي مدركٌ نصيبه من عقوبة الزنا لا محالة حينما يزني، فالعبرة أن الله رب العالمين، ومعنى رب أي مربٍّ، ومعنى مربٍّ أي ممدّ، ومعنى ربّ أي مؤدِّب، فالإنسان حينما لا ينفِّذ أمر الله عزَّ وجل فرحمة به -كان من الممكن أن يُخلَق الإنسان، وأن يترك سدى- يوجد منهج، ويوجد رسل، ويوجد كتب، وانتهى الأمر، ولكن لا يوجد تأديب، الآن كم من إنسان يأتي طائعاً بعقله فقط؟ الآن في المدارس هناك عقوبات، هناك حرمان، هناك فصل، هناك حرمان من ستَّ دورات في الامتحان، هذه العقوبات تدفع الطالب إلى الالتزام، فربنا عزَّ وجل لو لم يؤدِّبنا، لو خلقنا، وأبلغنا رسالته عن طريق الأنبياء وتركنا، ولا توجد مصائب، ولا توجد أمراض، ولا توجد مخاوف، ولا توجد زلازل، أحياناً يقول: زلزلة من يومين شدتها أربعة رختر، هذا أسلوب تلويح العصا، أي انتبهوا، يا أيها العصاة انتبهوا، كأن لسان حال الذَّات الإلهية هكذا، فالتربية رحمة..

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

العقاب ظاهره أليم لكن نتائجه مرضيةٌ جداً :

الإنسان حينما يُجْرِم يحتاج إلى رحمة الله، ورحمة الله هي التأديب، كم من شابٍّ استقام على أمر الله عَقِبَ مشكلة؟ كم من زوجٍ استقام على أمر الله عقب مشكلة؟ آلاف مؤلّفة، بل إنَّ تسعين بالمئة من الذين اصطلحوا مع الله كان اصطلاحهم مع الله عقب مشكلة، عقب مشكلة مادِّية أو معنوية، خوف، أو فقر، أو نقص في الأموال والأولاد، فهذه المصائب صَمّامات أمان، هذه المصائب كالمكابح في السيارة، لابدَّ منها لضمان حسن سيرها، ولضمان سلامتها.

إذاً.. الحقيقة العقاب ظاهره سيئ، لكن له نتائج مرضية، لو أن أباً متشدِّد في تربية أولاده، شدَّته البالغة، وحرصه البالغ، وتأديبه الشديد، ومتابعته، انتهت بالأولاد إلى مركز راقٍ، إلى شهادة عُليا، أو إلى عمل جيِّد، أو إلى انضباط، أو إلى تديُّن، هذا الأب يصبح قرير العَين، وهذا الابن يذوب محبَّةً بوالده الشديد الذي حمله على أن يكون متفوّقاً في الدنيا، فالعقاب ظاهره أليم، لكن نتائجه مرضيةٌ جداً، والأب الذي يُسَيِّب أولاده يبدو له أنه يريحهم، ولكن في الحقيقة هو يدمِّرهم، فدائماً وأبداً الشدَّة من الله رحمة، رحمة بالغة، لو أن الله عزَّ وجل تركنا هملاً لما كنَّا كما نحن عليه الآن، لا يوجد إنسان إلا وخضع للتربية الإلهية، الله عزَّ وجل عنده أدوية كثيرة لا تعدّ ولا تحصى، خوف، وهم، مرض، فقر، أحياناً إنسان قوي يُخيف، فأنت من أجل ألاّ تقع تحت قسوة هذا القاسي تتوب إلى الله، وتصطلح معه.

الآيات التالية تبيِّن أن الشدَّة التي قد تبدو من معاملة ربنا إنما هي شدَّةٌ لصالحنا :

هذه الآية قد يقول أحدنا: ما علاقتها بالطلاق؟ السورة كلّها للطلاق، أحياناً الإنسان يتوهَّم أنه زوج، وهو قوي، والطلاق بيدّه، وهذه امرأة وضعيفة وبإمكانه أن يطلّقها، بإمكانه أن يعِّذبها، بإمكانه أن يدعها بلا طعام وشراب، بإمكانه أن يأكل حقوقها، الله عزَّ وجل يقول:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا*فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا)

أي عاقبة أمرها..

(وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا)

في الدنيا، وجحيماً في الآخرة، إذاً هذه الآيات تبيِّن أيها الأخوة أن الشدَّة التي قد تبدو من معاملة ربنا عزَّ وجل، إنما هي شدَّةٌ لصالحنا.

عقاب الله لعباده العُصاة له أهداف كثيرة :

بالمناسبة، هذه الشدَّة لها وظائف عديدة، لما قطعنا يد السارق، وعلّقناها على باب المسجد على مرأى من المصلّين، الطفل الصغير حينما يرى يداً معلّقة يُغرَس في أعماق أعماقه أن السرقة شيءٌ مخيف، وهذه نهاية السارق، حينما يُقتَل القاتل على مرأى من الناس، الآن يوجد إجراء لطيف، أي جريمة وقعت يُعدَم فيها المجرمون في مكان الجريمة، فأحياناً تقع جريمة مروّعة، محكمة سريعة جداً تحاكم هؤلاء المجرمين، وتعدمهم في ساحة الجريمة نفسها، هذه مما يجعل في النفوس ردعاً كبيراً، فالردع مهم جداً، فعقاب الله لعباده العُصاة له أهداف كثيرة، وأحد هذه الأهداف: أنه يؤدِّب هذا العاصي، وثاني هذه الأهداف أن الناس جميعاً يتَّعظون بهذه العقوبة الصارخة..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ)

ألم يقل الله عزَّ وجل:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل: 112]

ألم يقل الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ *يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

[سورة الحج : 1-2]

هذه الشدَّة رحمة بالعباد.

الشدَّة نعمة باطنة لا يعرف الإنسان حقيقتها إلا في نهاية المطاف :

لذلك فالشدَّة نعمةٌ باطنة:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

ظاهرة الصحَّة، باطنة المرض، ظاهرة المال، باطنة الفقر، ظاهرة السلامة، باطنة بعض العيوب في الخلق، هذه نعمٌ باطنة لا يعرف الإنسان حقيقتها إلا في نهاية المطاف..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا)

خرجت عن أمر الله استكباراً، وعدواناً:

(وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا)

قال أحدهم: يا رب، لقد عصيتك ولم تعاقبني؟ قال: وقع في قلبه: أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر. الإنسان لا يبالي بكسب المال، يكسبه حراماً، ثم يفاجأ بمصادرة، بضرائب لا تُحتمل، يفاجأ أحياناً بتلف المال، بهلاكه، بسرقته، هذا تأديب الله لهذا الإنسان، كل ذنب له طريقة في التأديب، فكسب المال الحرام لعلَّ من عقوبته إتلاف هذا المال، العدوان على أعراض الآخرين لعلَّ من عقوبته ألاّ تطمئن إلى أهلك، حينما تتجاوز الحدود يتجاوز غيرك الحدود، هذه:

(فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا)

(فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا*فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا)

الشقي من خسر الدنيا و الآخرة معاً :

الحقيقة أن الشيء الذي لا يُحتمل أن يخسر الإنسان الدنيا والآخرة معاً، الدنيا مشحونة بالمتاعب، يأتي ملك الموت فيواجه الإنسان شقاءً أبدياً، لأنه خالف منهج الله عزَّ وجل، والشيء اللطيف أنك إذا أطعت الله عزَّ وجل فُزت فوزاً عظيماً، كسبت الدنيا والآخرة..

(وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

[سورة يونس: 98]

في الدنيا مكرَّم، وفي الآخرة لك الجنَّة التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لذلك من الحُمْق الشديد أن تعصي الله، من الغَبْن الشديد أن تخرج عن منهج الله، من الكفر أن تعصي من خلقك، ومن أنعم عليك بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد..

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

يا أصحاب العقول، الإنسان قيمته بعقله، يخاطب الله العقل فيقول: "وعزَّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبَّ إليَّ منك، بك أعطي، وبك آخذ".

التوبة أحكم قرار يتخذه الإنسان لأنه سبب رخائه في الدنيا والآخرة :

أخواننا الكرام، الإنسان يسعد بمحاكمة منطقية، أحياناً الإنسان يستمع إلى موعظة، إلى تفسير آية، إلى تفسير حديث، فيتفاعل تفاعلاً شديداً، يجري محاكمة دقيقة فيتَّخذ قرار التوبة، هذا أحكم قرار تتخذه في حياتك، لأنه سبب الرخاء في الدنيا والآخرة..

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 71]

(إنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة: 222]

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا)

إن لم يتوبوا.

من ازداد علماً ازداد معرفة بحقيقته :

لذلك:

(يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

يا أصحاب العقول .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا)

أي إن الله خلق الكون، لكن نوره بالقرآن الكريم، بين لك ما ينبغي أن تفعل، وما لا ينبغي، بيّن الحلال والحرام، الخير والشر، طريق الهداية وطريق الغواية، طريق الحق وطريق الباطل، لكن الله عزّ وجل قال لك أيضاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة : 119]

كن مع الصادقين، كن مع المؤمنين، في أنس، في نور، في توجيه صحيح، القرآن مائدة الله عزّ وجل، لا تعرف أين موقعك من هذا الدين إلا إذا استمعت إلى تفسير القرآن، أين أنت؟ الواحد قلقٌ على نفسه، هل هو مؤمن أم غير مؤمن؟ مقصِّر؟ منافق؟ من هو؟ إن فهمت كتاب الله تعلم أين موقعك من هذا الدين العظيم، يا ترى مقتصد؟سابق؟ مقصِّر؟ متلبِّس بمعصية؟ المعصية في البيت؟ في العمل؟ في العلاقات الاجتماعية؟ فكلّما ازددت علماً ازددت معرفةً بحقيقتك، أين أنت من الدين؟

السماء ذَكَّرت الأرض في هذا القرآن الذي أنزل على النبي العدنان :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا)

أي السماء ذكَّرت الأرض، أناسٌ تائهون، شاردون، ضالّون، يتخبَّطون في المال الحرام، في الخمور، في الزنا، هذه هي الجاهلية، المرأة كانت تتقلَّب بين عشرة رجال، عشرة رجال على المرأة الواحدة، فوضى جنسية لا تُعَدُّ ولا تحصى في الجاهلية، خمور، ربا بأعلى نسب، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام وبيّن الحق، بيّن الباطل، بيّن الخير، بيّن الشر، بيّن المنهج، فالسماء ذكَّرت الأرض في هذا القرآن الذي أُنزل على النبي العدنان..

(فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا)

الرسول تذكير السماء لأهل الأرض :

ما هو هذا الذكر؟

(رَسُولًا)

الرسول تذكير السماء لأهل الأرض، طبعاً أعطاه معجزة، أعطاه كتاباً، أعطاه معجزة ليصدِّقه الناس أنه رسول الله، أعطاه كتاباً ليكون منهجاً لهم تفصيلياً..

(رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ)

يشير إلى خلق الله، إلى السموات، إلى الأرض.

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

[سورة الغاشية: : 17-20]

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا)

[سورة عبس : 24-25]

إلى شرابه، إلى أكله، إلى النباتات، إلى الحيوانات، إلى ابنه الصغير، هو يعلم علم اليقين ما سبب هذا الابن الصغير؟ حوينٌ واحد من خمسمئة مليون حوين دخل البويضة ولقَّحها، وتكاثرت هذه البويضة في تسعة أشهرٍ، فأصبحت طفلاً له رأس، له دماغ، له جمجمة، له خلايا عصبية، له عينان، له أذنان، له أنف، له فم، له لسان، له مريء، له معدة، له أمعاء، له كبد، له بنكرياس، له كُلية، عظام وعضلات، شرايين وأوردة، خلايا نخامية تزن نصف غرام، وتنتج اثني عشر هرمونًا، الهرمون الواحد فيه آلاف مؤلّفة من الحموض الأمينية، هذا خلق الإنسان.

تذكير ببعض آيات الله الدالة على عظمته :

والله عزَّ وجل قال:

(رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ)

خَلَقك آية، ابنك آية، زوجتك آية، طعامك الذي تأكله آية، شرابك آية، هذا الحليب الذي نشربه آية من آيات الله، أي من آيات الله الدالة على عظمته، بقرةٌ عجماء لا تفقه، تأكل هذا الحشيش، فيها غدَّة ثديّة ترشح الحليب، والعلماء حتى الآن في حيرةٍ من طريقة صنع الحليب، حول هذه الغدَّة الثدييّة التي هي كالقبَّة شبكة أوعية دموية كثيفة جداً، الغذاء يجري في هذه الأوعية.. أي الدم.. الخلية الثدييّة تنتقي من هذا الدم حاجتها، تأخذ البروتين، تأخذ الكلس، تأخذ مواد دسمة، ومواد أمنية، فيتامينات ومعادن،

تصنعها حليباً، وترشح هذه الخلية إلى جوفٍ هو ضرع البقرة، فالحليب وحده آية، ومشتقّات الحليب لا تعدُّ ولا تحصى، فطعامك آية، هذه الفواكه التي تأكلها آية، هذا الجو اللطيف آية، المطر آية، السحاب آية..

(رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

الشهوات ظلمات، المطامع الماديّة ظلمات، ظلمة المعصية، المعصية لها ظلمة، والشهوة لها ظلمة، والباطل له ظلمة، والأفكار الوضعية لها ظلمة..

(مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

إلى نور واحد، إلى نور الله.

الحياة الدنيا إعداد لحياة أبدية :

الحقيقة نحن شيء نألفه، ولأننا نألفه قد لا نعرف قيمته الكبرى، أنت تعرف أن لك ربًّا كريماً، إلهاً عظيماً، أنت في دنيا مؤقّتة إعدادٌ لحياةٍ أبدية، فهذه الحقائق هي نور، المؤمن مرتاح، عنده تفسير دقيق للكون، هذا الكون خلقه الله عزَّ وجل، خلقه ليكون دالاً على وجود الله، وعلى كماله، وعلى وحدانيته، خلقه ليكون مجسِّماً لأسماء الله الحُسنى، وصفاته الفضلى، خلقه ليكون آية لكل مؤمن، والحياة الدنيا إعداد، مرحلة مؤقّتة تبدأ بالولادة، وتنتهي بالوفاة، إعداد لحياة أبدية، والإنسان هو المخلوق المكرم، فهذه كلّها حقائق.

(رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

هذا كلام الله، وهذا وعد الله، والإنسان المؤمن يصدِّق وعد الله ووعيده، فينطلق إلى الجنَّة بكل طاقته، لأنها دار القرار، دار السلام..

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

[سورة الحجر: 48]

المتاعب المخيفة غير موجودة في الجنَّة :

في الحياة الدنيا قلق عميق، الإنسان إذا بلغ مرتبة من الغنى، سكن في بيتٍ مريح، له زوجة وله أولاد، ما القلق العميق؟ قد تتراجع صحَّته، قد يصاب بمرضٍ مفاجئ، قد يفقد ماله، قد يمرض ابنه، الحياة مشحونة بالمتاعب، أما في الجنَّة ...

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

[سورة الحجر: 48]

فلا يوجد هرم، لا توجد أمراض، لا يوجد فقر، لا يوجد خصوم، لا يوجد أعداء، لا يوجد موت، كل هذه المتاعب المخيفة غير موجودة في الجنَّة.

اختلاف نظام الدنيا عن نظام الآخرة :

لذلك...

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا)

فكلمة جنَّات كل شيء ترونه في الدنيا جميل، إذا كان في الجنَّة ليس بينهما من علاقةٍ إلا الاسم فقط، فالفواكه.. في الدنيا فاكهة، لكن فاكهة الآخرة ليست كفاكهة الدنيا، ليس بينهما من علاقةٍ إلا الاسم.. فيها من الحور العين.. قال بعض الصحابة لزوجته: " اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلَّت إحداهن على الأرض لغلب ضوء وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن أهون من أن أُضحّي بهن من أجلكِ.. "، كل شيء يوجد في الجنَّة، غير هذا أن الجنَّة نظامها من دون سعي..

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ)

[سورة ق: 35]

أي شيءٍ يخطر في بالك تجده أمامك، هذه الجنَّة..

(لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

من ظلمات الشهوات إلى أنوار الطاعات، من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، من ظلمات البُعد إلى نور القُرب، من ظلمات الدنايا إلى نور الفضائل، فالفضيلة نور...

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

اقتران العمل الصالح بالإيمان بالله :

في أكثر آيات كتاب الله الإيمان يجب أن يقترن بالعمل الصالح، لأنه لا معنى له من دون عمل..

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا)

الإيمان بلا عمل كالشجر بلا ثمر، أنت آمنت بأن الله موجود، ماذا فعلت؟ هو موجود، وأنت لم تفعل شيئاً، هذا اسمه تحصيل حاصل، إن لم تؤمن بوجوده فاتَّهم الناس عقلك، المقصود هو ماذا فعلت من أجل الله؟ ماذا قدَّمت لله من عمل؟ ماذا قدَّمت لآخرتك من إنفاق؟ هذا هو المقصود.

الله عز وجل جعل الدنيا مشحونة بالمتاعب لنعمل للآخرة :

إذاً:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا)

رزق الدنيا يأتي، وينقطع، يزيد وينقص، أحياناً الإنسان يكون رزقه وفيراً، لكن صحَّته معلولة لا ينتفع برزقه، أي أن الله عزَّ وجل أراد أن يكون الدنيا مشحونةً بالمتاعب كي نعمل للآخرة، الحقيقة.

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

[سورة يونس: 7]

هؤلاء مغبونون، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى، آثروا شيئاً سيمُرُّ عابراً على حياةٍ أبديةٍ مستقرَّة.

النظام الدقيق الذي يحكم النجوم كلّها هو نفسه يحكم الأرض :

ثم يقول الله عزَّ وجل في نهاية هذه السورة:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)

الحقيقة ليس هناك سبع أراض إطلاقاً، لأنه لم يرد في كتاب الله كلّه، لم ترد الأرض مجموعة، أراضين لا يوجد في القرآن، في كل القرآن الكريم السموات جمع، والأرض مفرد، السموات والأرض، لذلك توهَّم بعضهم أن هناك سبع أراضين، القرآن لم يذكر إلا الأرض مفردةً، لذلك قالوا: هذه لعلّها زائدة..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ)

أي والأرض مثلهن على نظامٍ واحد، الكواكب تدور حول بعضها، تتجاذب مع بعضها، قد تتعرَّض لنور بعضها، هذه سنَّة الله في خلقه، والأرض مثل الكواكب، أي أن هذه الأرض التي أنت عليها مثل أي كوكب جرمٌ يدور في مسارٍ مغلق حول جرمٍ آخر، يتجاذب معه بقوّةٍ تتناسب مع كتلته ومع مسافته، وهذا الكوكب بعضه منطفئ، وبعضه ملتهب، الملتهب منبع ضوئي، المنطفئ يتلقَّى هذا الضوء بحسب دورته، فهذا النظام الدقيق الذي يحكم النجوم كلّها هو نفسه يحكم الأرض..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ)

أي خلقها مثل السموات السبع، وبعضهم قال: [من]ليست زائدة، إنها حرف جرٍّ أصلي..

(وَمِنَ الْأَرْضِ)

مثل هذه السموات، وبعضهم فسَّر هذه السبع بأنها سبع طبقاتٍ في الأرض، وبعضهم قال: السبع لا تعني العدد، بل تعني الكثرة، أي كما أن السماء طبقات والأرض كذلك طبقات ؛ القشرة، توجد طبقة بازلتية، ثم الطبقة السائلة المائعة، فلعلَّ هذه الطبقات، لكن هذه الآية سواءً عرفنا تفسيرها الدقيق أو لم نعرف، هذا لا يتعلَّق بالتكليف، فلو أن الإنسان جلس في قبره ليسأله الملكان: من ربُّك؟ ما دينك؟ من نبيّك؟ لو أن إنساناً توفَّاه الله عزَّ وجل، ولا يعرف حقيقة الأرض، أهي سبع أراضين، أم أرضٌ واحدةٌ بسبع طبقات، أو أن هذه الأرض مثل السموات السبع، لا شيء عليه، الشيء الذي تُحاسب عليه هو التكليف، لكن هذه الآيات جعلها الله نماذج دالَّة على عظمته من دون أن تكون مكلَّفاً أن تعرف حقيقتها..

كلَّما تقدَّم العلم كشف جانباً من آيات الله الكونية :

النبي عليه الصلاة والسلام فصَّل كثيراً في الأحكام التشريعية، إلا أنه في الآيات القرآنية المُتَعَلِّقة بالكونيات أحجم عن تفسيرها، لماذا؟ النبي أوتي العلم الكثير، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام فسَّرها وفق ما وصلنا إليه نحن لأنكر عليه من كان معه في عصره، ولو فسَّرها تفسيراً بسيطاً لأنكرنا عليه نحن، هذه الآيات الكونية تُركت لتطور العلم، فكلَّما تقدَّم العلم كشف جانباً من عظمة هذا الكون، فلما ربنا قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[سورة الطارق: 11]

بعضهم فهم أن البحار تتبخَّر، وتعود أمطاراً، ترجع السماء بخار الماء مطراً، وبعضهم قال: هذه الموجات الصادرة عن الأرض ما الذي يرجعها إلى الأرض؟ طبقة اسمها الأثير..

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[سورة الطارق: 11]

وبعضهم قال: إن كل كوكبٍ في السماء يدور حول كوكبٍ آخر في مسارٍ مغلق، فلا بدَّ من أن يرجع إلى مكان انطلاقه، هذا تفسير ثانٍ، فالعلم مفتوح، كلَّما تقدَّم العلم كشف جانباً من آيات الله الكونية من دون أن يكون أحد هذه التفاسير صحيحاً مئة في المئة، لأن خلق الله عزَّ وجل معجز، كلَّما تقدَّم العلم كشف جانباً من خلق الله عزَّ وجل.

علّة خلق السموات والأرض أن نعلم :

الله الذي خلق سبع سموات..

(وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)

أي والأرض خلقها مثلهن، أي مثل السموات السبع بنظامٍ واحد، وحركةٍ واحدة، وجاذبيةٍ واحدة، والتهابٍ واحد، وانطفاءٍ واحد، القوانين التي تسري على السموات السبع تسري على الأرض أيضاً، أو جعل من الأرض أرضاً مثلهن، إذا اعتبرنا [من]حرف جر أصلي ، وجعل من الأرض أرضاً مثل هذه الكواكب العديدة، أو أن من الأرض طبقاتٍ كطبقات السماء.. مثلهن.. هذه المعاني التي يمكن أن تتداول حول هذه الآية، ولعلَّ السبعة لا تعني العدد.. الكم.. تعني الكثرة، العرب تستخدم السبعة ومضاعفاتها للتكثير، لكن الشيء الذي يعنينا..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

علّة خلق السموات والأرض أن نعلم، وهذه من أخطر الآيات، علّة خلق السموات والأرض أن نعلم، فهل معقول الله عزَّ وجل يعمل لك وسائل إيضاح فيها مجرَّات؟ معقول، مجرَّة تبعد عنَّا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية من أجل أن تعرف عظمة الله، واتساع ملكه، وقدرته اللامتناهية، وحكمته اللامتناهية، وعلمه اللامتناهي؟ قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

علّة الخلق العلم، فالذي يعطِّل عقله، أو يستخدمه لغير ما خُلِق له فإنه يهبط عن مستواه الإنساني إلى مستوى آخر لا يليق به.

من يعلم أن الله موجود ويعلم وسيُحاسِب فلابدَّ من أن يستقيم على أمره :

ماذا لنعلم؟ قال:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

سميع، هو يعلم، وهو قادر، هو طبعاً موجود، معنى هذا أنه موجود، يعلم، وقادر، هذه الأسماء الثلاث إذا تحقَّقنا منها استقمنا لأمر الله، لو عرضت على خمسة آلاف مليون إنسان هذه الحادثة: إنسان قوي أصدر تعليمات، ولا تستطيع أن تغيب عن علمه، فمثلاً: إذا كان هناك حاجزاً وطريقاً بين دولتين، وبغير الطريق صعب المسير؛ جبال ووديان، نتوءات ووهاد، لابدَّ من هذا الطريق المعبَّد، ولكن في هذا الطريق حاجزاً لابدَّ من إبراز الموافقة، وهذا الذي على الحاجز لا يتساهل أبداً، أنت إذا علمت أن الله موجود، ويعلم، وسيُحاسِب فلابدَّ من أن تستقيم على أمره، كن أي إنسان، لأنك تفعل هذا مع إنسان،

يقول لك: حاجز، لا يوجد طريق إلا أن تكون على هذا الطريق، وأن تقف أمام هذا الحاجز، ولن يُسْمَح لك بالمغادرة إلا بالموافقة، ماذا تفعل؟ تبحث عن موافقة، مع إنسان قوي لا تغيب عن علمه، ولا تتفلّت من قدرته، تطيع أمره قسراً، فلعلَّ الله سبحانه وتعالى جعل هذه الآية بهذا المعنى الدقيق..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أن الله موجود..

(وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

العلم قيد :

أخواننا، إنها ثلاث كلمات فقط، الله موجود، ويعلم، وسيُحاسب، تفضل واعص، إنك لا تقدر أبداً، صار هناك قيداً، العلم أيها الأخوة قيد، أحياناً الإنسان يقول له طبيب: هذا الدرج يُتلِف قلبك، وأنت معرَّض إلى أزمة، فتجده من اليوم الثاني يبيع البيت، يكون باذل جهدٍ كبيرٍ بشرائه وتزيينه وتنظيمه، فيبيعه.. كما قال الغزالي: " لو أنَّ طبيباً نهانا عن أكلةٍ نحبُّها لا شكَّ أننا نمتنع، أيكون الطبيب أصدق عندنا من الله؟ إذاً ما أكفرنا، أيكون وعيد الطبيب أشدَّ من وعيد الله؟ إذاً ما أجهلنا".

هذه الآية تكفينا، وكما قال هذا الأعرابي: "كُفيت، فقال عليه الصلاة والسلام: فقُهَ الرجل".

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

يعلم كل شيء، وقدير على كل شيء، وموجود، وهو يراقبك فكيف تعصيه؟ المعصية صارت مستحيلة.

من كان عقله راجحاً بادر إلى طاعة الله لينجو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة :

أيها الأخوة الكرام، الآيات الأخيرة من سورة الطلاق تفيد أنه إما أن تطيع الله عزَّ وجل، وإما أن يأتي التأديب الإلهي.. مرَّة سألني أخ كريم فقال لي: هل على العسل زكاة؟ قلت: نعم، قال: فإن لم ندفع؟ قلت له: القُرَّاض جاهز.. هذه آفَّة تصيب النحل.. الله جعل روادع، وكل معصية وكل أمر إلهي إن لم تفعله فهناك روادع، تمتنع عن إتلاف المال فهناك ألف طريق لإتلاف المال، تمتنع عن غضّ البصر فهناك ألف طريق للشقاء الزوجي، تمتنع عن نصح المسلمين فهناك ألف طريق كي تُغَش، أي إنه موجود، ويعلم، وسيُحاسِب في الدنيا والآخرة، فكلّما كان عقل الإنسان راجحاً فإنه يبادر إلى طاعة الله لينجو من

عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، والأكمل من ذلك أن تأتيه طائعاً مباشرةً، أن تحبَّه، إن خفت منه فهذا جيد، وإن أحببته فجيد، كلا الحالين جيد، كلا الحالين يفضيان بك إلى الجنَّة، لابدَّ من أن تخافه..

ثلاثة مشاعر يجب أن يشعر بها الإنسان؛ شعور الحُبّ و الخوف والتعظيم :

قال: يا رب أي عبادك أحبُّ إليك حتى أحبَّه بحبِّك؟ قال: أحبُّ عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبَّني، وأحبَّ من أحبَّني، وحبَّبني إلى خلقي، قال: يا رب، إنك تعلم أنني أحبُّك، وأحبّ من يحبُّك، فكيف أحبِّبك إلى خلقك؟ قال: ذكّرهم بآلائي ونعمائي وبلائي ".

ثلاثة مشاعر يجب أن تشعر بها: شعور الحُبّ من خلال النِعَم، شعور الخوف من خلال المصائب، شعور الخوف والحُبّ والتعظيم من خلال الآيات.. ذكّرهم بآلائي ونعمائي وبلائي.. فالنعماء تُحبِّب، والبلايا تخوّف، والآلاء تُعَظِّم، فالله عزَّ وجل خلق سبع سموات، إذا كان هناك مجرَّة تبعد عنَّا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، إذا كان في عينك مئة وثلاثون مليون عصيّة ومخروط ، وفي بالدماغ مئة وأربعون مليار خليّة لم تُعرَف وظيفتها بعد، هذه الآلاء، أما النعماء؛ فوجودك نعمة، سمعك نعمة، بصرك نعمة، أن تمشي على رجلين نعمة، بيتك نعمة، أهلك نعمة، أولادك نعمة، عقلك نعمة، صحَّتك نعمة، النعم تُحبِّب، وتوجد أمراض خبيثة، وتوجد أمراض وبيلة، وتوجد أمراض عضالة، ويوجد فقر، ويوجد قهر، ويوجد ذل، وتوجد متاعب، فالبلايا تخوّف، والنعم تحبِّب، والآلاء تعظِّم، فلابدَّ من أن يجتمع في قلبك تعظيمٌ لله من خلال آياته، وخوفٌ منه من خلال بلائه، ومحبَّةٌ له من خلال نعمائه.

علة وجود الإنسان أن يعرف الله عز وجل :

أخواننا الكرام، آخر آية من الآيات الأساسية، علّة وجود الكون أن تعرف الله من خلاله، علّة وجودك أن تعرف الله وإلا هبطت عن مستوى إنسانيتك، هذه اللام ليست لاماً قالها إنسان، هذه اللام قالها خالق الكون..

(لِتَعْلَمُوا)

أي يا عبادي، خلقتكم لتعرفوني، وإذا عرفتموني أطعتموني، وإن أطعتموني سعدتم بقربي، خلقتكم لتعرفوني فتطيعوني فتسعدوا بقربي.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

العبادة طاعة أساسها معرفة تنتهي بسعادة، العبادة هي الأساس، المعرفة هي السبب، السعادة هي النتيجة، تعرفه، تطيعه، تسعد به في الدنيا والآخرة، هذه الآية يجب أن نحفظها، وأن تكون في قلوبنا، وفي أذهاننا دائماً وأبداً، مخلوقٌ من أجل أن تعرفه، ثم تطيعه، ثم تسعد بقربه، الله موجود ويعلم وسيُحاسِب.

من يعصي الله مدموغ بالغباء و بالحُمق و بالجهل :

والله الذي لا إله إلا هو، إنسان واحد قوي، عنده إمكان أن يكشف الأخطاء كلّها، ولم يسامح أحداً، فإنك لا تجد واحداً يعصيه، وهذه المجتمعات أمامك أينما ذهبت، إنسان واحد قوي، عنده وسائل يكشف معصيتك، وسائل.. مثلاً الطريق مراقب..

كنت مرَّة في الخليج، السرعة فوق السرعة المقرَّرة، اثنان وتسعون، خمسمئة درهم، أي سبعة آلاف ليرة، تجد السيارات كلّها تسير دون الثمانين، لأن واضع القانون وضع جهازاً يكشف السرعات الزائدة، ويسجِّلها، والضريبة بالغة، سبعة آلاف ليرة للمخالفة.. مثلاً.. فإنك تجد طريقًا طويلاً بين دبي ورأس الخيمة، وكل الناس متقيّدون بالسرعة النظامية، ذلك لأن واضع القانون يوجد عنده جهاز يكشف المخالفة، ولا يرحم، وليس هناك إعفاء، حينما تُصوَر السيارة أنها متجاوزة السرعة يجب عليه أن يدفع خمسمئة درهم، لا يوجد شك أبداً، هذا مثل بسيط، إنسان عادي لكنه قوي، وضع أجهزة حديثة لكشف المخالفات، وإنه لن يعفي أحداً، فانتهت العملية، مع إنسان قوي يضبط أخطاءك، ولن يعفيك من العقاب تطيعه أشدَّ الطاعة، والذي وجودك بيده، واستمرار وجودك بيده، وسمعك بيده، وبصرك بيده، وكل إمكاناتك بيده، وهو يعلم السر وأخفى، وبيده كل شيء، وسيُعاقِب، وتوجد عنده جهنَّم، ونعصيه؟..

تعصي الإله وأنت تُظهرُ حبَّهُ ذاك لعمري في المقالِ بديعُ

لو كان حبُّك صادقاً لأطعته ه إن المحبَّ لمن يحبَّ يطيعُ

***

أخواننا الكرام، الذي يعصي الله مدموغ بالغباء، مدموغ بالحُمق، مدموغ بالجهل، لأنك تعصي من لا يغفل عنك، وكل أمرك بيده، مالك بيده، صحَّتك بيده، أعداؤك بيده، أصدقاؤك بيده، زوجتك بيده، أولادك بيده، نجاح عملك بيده، كل شيءٍ بيده.

درسنا كان في ثلاث كلمات، الله موجود، ويعلم، وسيُحَاسِب، تفضل واعص، أنت مع إنسان لا تفعل هذا، فكيف مع الواحد الديَّان؟

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التحريم 066 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1 ـ 4
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-01-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الأول من سورة التحريم.

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

1 ـ ليس في القرآن خطاب للنبي باسم محمد:

النبي كما تعلمون صلى الله عليه وسلّم سيد الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم، وهو حبيب الله وخليله، ما خاطبه الله في القرآن كلّه باسمه مباشرةً كما خاطب بقية الأنبياء، قال:

(يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ)

(سورة المائدة: الآية 110)

وقال:

(يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

(سورة مريم: الآية 12)

وقال:

(يَا زَكَرِيَّا)

(سورة مريم: الآية 7)

ولم يقل يا محمد، بل إنه قال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

وقال:

(يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

(سورة المائدة: الآية 67)

2 ـ سببُ نزول هذه الآية تحريمُ النبي مارية القبطية على نفسِه:

النبي عليه الصلاة والسلام في أوجه الروايات والتفاسير حرّم على نفسه مارّية القبطيّة التي أهداها إليه المقوقس حاكم مصر إرضاءً لزوجاته، لأن الضرائر كما تعلمون هنّ الضرائر في كل مكانٍ وفي كل زمان، والمرأة هي المرأة، تسمو إلى أعلى الدرجات، ولكن لا تتخلى عن طبيعتها.. الغَيورة.. الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

وكأن الله عزّ وجل يلخّص للنبي عليه الصلاة والسلام الزواج بمارية القبطية، ولا ينبغي أن يجعل إرضاء زوجاته ما يحرّم عليه الذي أحلّ الله له..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيم)

أي إن منهج الإسلام منهج متوازن ومتكامل، والإسلام يلبي حاجات الجسد كما يلبي حاجات الروح، يقول عليه الصلاة والسلام:

((وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي))

[مسلم]

وعَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:

((جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[متفق عليه]

النبي عليه الصلاة والسلام ابتغاء مرضاة زوجاته حرّم على نفسه ماريّة القبطيّة، فالله سبحانه وتعالى يبيّن له لا ينبغي أن تفعل هذا، الحق حق، والباطل باطل..

(قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ)

(سورة التحريم: الآية 2)

3 ـ التحلُّل من اليمين: قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ

هذه الآية يحتاجها كل إنسان، في أكثر الأحيان يتألّم الإنسان من موضوعٍ ما فيُقسِم يميناً مغلّظة أن لا يزور فلاناً.. أخته.. أو أن لا يفعل خيراً، أو أن لا يُعطي أمّه... إلخ، الله سبحانه وتعالى رحمةً بنا شرع لنا كفّارة اليمين أو تحلّة اليمين، تحلّة اليمين تكون قبل الحنث باليمين، أما كفّارة اليمين فتكون بعد الحَنث باليمين، الحنث باليمين أن تفعل خلاف القصد، فلو أن الإنسان قال: والله لا أزور أختي، فإما أن يدفع كفّارة اليمين قبل أن يزور أخته، عندئذٍ تسمى هذه الكفّارة تحلّةً، وإما أن يدفع الكفّارة بعد أن يزور أخته، عندئذٍ تسمى التحلّة كفّارةً، فالتحلّة قبل الحنث باليمين، والكفّارة بعد الحنث باليمين، ولكن الشيء الثابت أن الإنسان إذا حلف يميناً، ورأى الخير في الحنث باليمين فعليه أن يحنث بيمينه، وأن يبتغي الخير، وأن يكفّر عن يمينه.

لا حرج إطلاقاً، الإنسان في ساعة غضب حلف يميناً أن لا يفعل خيراً، أن لا يزور مريضاً، أن لا يمشي في جنازة، أن لا يعود مريضاً، أن لا يساعد إنساناً، واليمين منعقدة، هناك يمينٌ اللغو، وهناك يمين الغموس، وهناك اليمين المنعقدة، اليمين الغموس أن تحلف يميناً لتقتطع بها حقّ امرئٍ مسلم، هذه اليمين لا كفّارة لها، بل هي تُخرج الإنسان من الدين، وتغمسه في النار، لذلك من حلف يميناً غموساً ليقتطع به حقّ امرئٍ مسلم أمام القاضي فعليه أن يعيد النطق بالشهادتين، لأن هذه اليمين تُخرجه من الإسلام، وتغمسه في النار، والإنسان قبل أن يحلف يميناً غموساً ينبغي أن يَعُدّ للمليون، وفي بعض الآيات الكريمة فرق دقيق بين ألفاظها:

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة النحل)

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

قد يأتي ردّ الإله العظيم على اليمين الغموس فوراً، فيُصاب الإنسان بمرض عضال أو بشلل، أو يأتي متأخراً، إذا كان في الإنسان بقية خير.

على كلٍ اليمين الغموس أعاذنا الله منه، اخسر أي شيء، وإياك أن تحلف يميناً غموساً، اليمين الغموس لتغطي الماضي، أما الأيْمان الأخرى فللمستقبل، والله لا أفعل هذا، والله لا أزور فلانا، هذه للمستقبل، أما الغموس فللماضي..

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ مَصْبُورَةٍ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ بِوَجْهِهِ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ))

[أحمد]

التحلل أو الكفارة إذا رأى المسلمُ الخيرَ في غير ما حلف عليه:

اليمين المنعقدة: هي أن تعقد العزم موثقاً بقسم أن لا تفعل هذا الشيء، فإن كان هذا الشيء خيراً فينبغي أن تكفِّر عن يمينك، أو أن تتحلّل من يمينك، وأن تفعل هذا الشيء، هذا حكمٌ شرعي، ينبغي أن تتحلّل من يمينك أو أن تكفِّر عن يمينك، وأن تفعل الشيء الذي تراه صحيحاً، وتراه خَيراً، ولم يكن ربنا جلّ جلاله يريد أن يكون بينك وبين الخير، فلو حلفت بذاته، لو أقسمت يميناً معظّمةً أن لا تفعل خيراً، احنث بيمينك، وكفِّر عنها أو تحلّل منها، وافعل الخير، هذا أساس كبير في أسس الأيمان.

أما إذا اليمين المنعقدة فأيضاً افعل الخير، ولا تلتزم بيمين تحرمك الخير الذي أراده الله لك، لكن العلماء قالوا: حينما تستثني لا تحنث بيمينك، فإذا قلت: إن شاء الله لن أزور أختي، فإن هذه يمين معها استثناء لا يقع به الحَنْث، فأنت تحفّظ دائماً بكلمة إن شاء الله، والله لا أفعل هذا إن شاء الله، ما دام استثنيت بالمشيئة فإن الحنث باليمين لا يقع في هذا الكلام..

(قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ)

ورد في بعض الأحاديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ))

وأنا أقول هذه القاعدة: لأن كثرة الأيمان بين الناس علامة ضعف إيمانهم، فأكثر ساعات الغضب تنتهي بيمين تَحْرِم صاحبها الخير، فالله سبحانه وتعالى لا يريد أن يكون اسمه الكريم حجاباً بينك وبين الخير، فافعل الخير دائماً، وكفِّر عن يمينك، أو تحلّل منها..

(قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

4 ـ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

من لنا إلا الله ؟ الإنسان دائماً مرجعه هو الله، وقد وصف المؤمن بأنه أوّاب، أي كثير الأوبة، فكلّما زلّت قدمه يؤوب إلى الله، وكلّما غفل عنه يؤوب إلى الله، هذا من شأن العبد أن يقع في التقصير، أو أن يقع في مزلّة الأقدام، وليس له إلا الله ليتوب إليه..

(وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ)

(سورة التحريم: الآية 3)

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا

1 ـ الحديث الذي أسره النبي إلى بعض أزواجه هو عدم زواجه بمارية:

أي أن المجالس بالأمانة، النبي عليه الصلاة والسلام أسرّ إلى بعض أزواجه عزمه على أن لا يتزوج بمارية القبطية، هي مباشرةً أنبأت به أخواتها.. أزواج النبي عليه الصلاة والسلام..

(فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ)

2 ـ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ

أخبره الله عن طريق جبريل أنها نبّأت بهذا الحديث..

(فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ)

أي عاتب بعضهن، وذكر بعض الذي قُلْنَهُ، وأعرض عن بعضه الأخَر، وأعرض عن ذكر بعض بقية الحديث.

لا تحرجوا الناسَ بأخطائهم:

يُستنبط من هذا: إنسان تحرّج أمامك، واجهته بخطئه فتحرّج، فأنت اكتفِ بحدٍ معقول، لا تبالغ، هناك خطأ، واعترف بخطئه، فلا تقل له: هناك خطأ ثانٍ، ما دام قد تراجع، ما دام قد استحى، ما دام قد خجل، ما دام قد اعتذر، فأنت عرّفه ببعض أخطائه، وتجاوز عن بعض أخطائه الأخرى، هذا من خُلُق النبي عليه الصلاة والسلام، وقد قال:

((لا تحمِّروا الوجوه))

[ورد في الأثر]

لا تخجّل إنسانا، لا تحرج إنسانا، إياك أن تضع إنسانا في زاوية ضيقة، إيّاك أن تدفع إنسانا إلى أن يكذب، لأن شدّة التضييق تدفع إلى الكذب، هذا من أدب النبي عليه الصلاة والسلام.

كلُّكم يعلم القصة التي تروى عن رسول الله، وقد فسرها المفسرون تفسيراتٍ شتَّى: حينما كان مع أصحابه الكرام، وقد أكلوا لحم جزور، ثم ظهرت رائحةٌ غير طيّبة في المجلس، ثم أراد النبي أن يصلي العصر بأصحابه فقال عليه الصلاة والسلام:

((كل من أكل لحم جزور فليتوضّأ، قالوا: كلّنا أكلنا هذا اللحم، فقال عليه الصلاة والسلام: كلّكم فليتوضّأ))

[ورد في الأثر]

وأراد بهذا التوجيه أن يستر حال هذا الذي انتقض وضوءه، ولم يدر، هذا من أخلاق النبي، فإياك أن تحمِّر الوجوه..

سيدنا يوسف حينما التقى بإخوته، وكان عزيز مصر، وبإمكانه أن يحرجهم، وأن يوبِّخهم، وأن يعنِّفهم، وبإمكانه أن يذكِّرهم بجريمتهم، قال سيدنا يوسف:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ)

(سورة يوسف: الآية 100)

ولم يقل: من الجبّ، والحقيقة أن الجبّ أخطر من السجن، في السجن يكون السجين مضمونةً حياته ورزقه، أما الجبّ فهو معرّض للموت، لكن لئلا يذكِّر إخوته بفعلتهم.

إذاً..

(فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ)

3 ـ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ

أي إذا لم يتكلّم الإنسان، لم يواجه الناس بأخطائهم، لم يحرج الناس، ليس معنى هذا أنه لا يعلم، أحياناً التغابي يكون قمّة الذكاء، حتى إن بعضهم قال:

لَيسَ الغَبيُّ بِسَيِّدٍ في قومِهِ لَكِنّ سَيِّدَ قومِهِ المُتَغابي

***

التجاهل وعدم السمع.

يُروى عن عالمٍ جليل في هذه البلدة عاش قبل خمسين عاماً تقريباً، وكان قاضياً، جاءته امرأةٌ من أطراف المدينة، وفي أثناء صعودها إلى مكان المحاكمة صدر منها صوتٌ غير طيّب، فاحمرّ وجهها خجلاً وحياءً، وتألّمت أشدّ الألم، فلمّا وصلت إليه قال: ما اسمك يا أختي ؟ قالت: فلانة، فقال: لم أسمع ارفعي صوتك، فقالت: فلانة، قال: لم أسمع، لأن سمعي ضعيف، قالت لأختها: الحمد لله، معنى ذلك أنه لم يسمعنا.. فالإنسان كلّما كان كاملاً يتجنّب إحراج الناس، يتجنّب التدقيق، يتجنب أن تضعهم في زاوية ضيّقة، ويلتمس لهم العذر، ويتعامى عن أخطائهم.

(فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ)

4 ـ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ

فكان الوحي يأتيه بتفاصيل دقيقة جداً، وكانت هذه التفاصيل التي عاشها أصحاب النبي أحد أسباب إيمانهم بالوحي..

الإنباء أحد دلائل نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام:

سيدنا عُمَيْر التقى مع صفوان بن أمية، وقال: والله يا صفوان لولا ديون ركبتني، وأطفالٌ صغار أخشى عليهم العنَتَ من بعدي لذهبت، وقتلت محمداً، وأرحتكم منه، صفوان استغلّها، وقال: أما أولادك فهم أولادي ما امتدت بهم الحياة، وأما ديونك فهي عليّ بلغت ما بلغت، أنا ذو مالٍ كثير فامض لما أردتَ، عندما عمير بن وهب دخل على النبي مقيّداً بحمّالة سيفه قال عمر: هذا عدو الله جاء يريد شرّاً، قال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: يا عمير، ألم تقل لصفوان بن أمية: لولا ديون ركبتني.. إلخ ؟ فوقف، وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحدٌ إلا الله، وأنت رسوله.. فهذا الإنباء أحد أدلّة نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، اليهود أرادوا قتله كان عندهم، فأتمروا أن يصعد أحدهم إلى الحائط ويلقي عليه صخرةً، جاءه الوحي وبلّغه ذلك..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم: الآية 4)

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا

1 ـ معنى: صَغَتْ

صغت أي مالت، كان عليه الصلاة والسلام يُصغي الإناء للهرّة، أي يميّل الإناء للهرّة، فالإصغاء هو المَيل، والإنسان إذا استمع إلى كلامٍ رائع فإنه يصغي، أي يميل إلى هذا الكلام الرائع فيعطيه أذنه.

2 ـ علامة إصغاء القلب التوبةُ إلى الله:

إذاً: علامة المَيل التوبة، علامة الصدق التوبة، علامة الفهم التوبة، علامة السماع التوبة..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

لو صغنا المعنى صياغة أخرى: تُصغي قلوبكما إلى الحق حينما تتوبا إلى الله، لا تُعَدّ مصغياً للحق، مائلاً إليه معجباً به إلا إذا تُبْتَ إلى الله، وإلا ما تدّعيه من إعجابٍ بهذا الكلام، واهتمامٍ بهذا المضمون، وأنك مشدودٌ بهذه الخطبة، وأنك مأخوذٌ بهذه القصّة، هذا شيء لا قيمة له، فما لم تطبّق ما سمعت فكل هذا الكلام لا يُقدِّم ولا يؤخِّر، ولا تكون مصغياً حق الإصغاء، مائلاً حق الميل، معجباً غاية الإعجاب إلا إذا تُبْتَ إلى الله..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

مثلاً: إنسان معه مرض خطير، وله ثقة بإنسان عالم بالطب، وأنبأه عن دواء ناجح ومجرّب، لمجرّد أن هذا المريض الذي يعاني من مرضه لا يذهب ليشتري الدواء فوراً فهو لم يصغ إلى الطبيب، أو لم يعبأ بعلمه، أو لا يهتمّ بكلامه، ولا يُسمّى مصغياً مقدِّراً محترماً إلا إذا اشترى الدواء، فعلامة إصغائه، وعلامة تقديره، وعلامة إكباره، وعلامة إعجابه المبادرة إلى شراء الدواء، أما الإعجاب الجدلي، والمديح الكاذب، والنتيجة أنه لا يشتري الدواء فهذا لا يقدِّم ولا يؤخِّر.

هذه الآية دقيقة جداً:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

الإصغاء الميل، لا تكون مائلاً للحق، لا تكون مُنيباً إلى الحق، لا تكون معجباً بالحق، لا تكون مُكْبِراً للحق إلا إذا طبّقت الحق..

لا سمح الله إنسان مريض، ومرضه خطير، والدواء ناجح ورخيص، وميسور ومبذول، والمتكلِّم عندك صادق، إن لم تبادر إلى شراء الدواء فأنت لم تستمع، ولم تعقل، ولم تقدِّر، قل ما شئت.. فالمِحَكّ التطبيق..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ)

هذه الآية عجيبة جداً.. فالموضوع امرأتان فقط..

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ

فهل هاتان المرأتان الضعيفتان تحتاجان إلى هذا التضافر:

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

1 ـ كلُّ إنسانٍ يقف ضد الحق فإن الله وجبريل والمؤمنين جميعهم ضده:

قال بعض العلماء: **" ليس المقصود أن هاتين المرأتين تحتاجان إلى كل هذا، ولكن المقصود أن أيّ إنسانٍ يفكِّر أن يُطفئ نور الله عزّ وجل، أو أن يعارض الحق، أو أن يقف أمام الحق يجب أن يعلم أن الله وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة جميعهم ضدّه "**، ولكي تعرف أنه قبل أن تقف أمام الحق معارضاً الطرف الآخر.

أحياناً تقام مناورات في بعض الدول، يقولون لك: الأسطول الفلاني قام بمناورة في الخليج الفلاني، لكي تعلم الجهة الثانية مَن هو الطرف الآخر، ما حجمه.

العِبرة من هذه الآية: أن كل إنسان أراد أن يقف أمام الحق مناهضاً، أراد أن يُبطِل الحق، أراد أن يطعن في أهل الحق، أراد أن يُسَفِّه الحق، أراد أن يقلِّل من شأن الحق يجب أن يعلم سلفاً مَن هو الطرف الآخر..

(فَإِنّ اللّهَ)

خالق الأكوان..

(هُوَ مَوْلَاهُ)

طبعاً معه رسول الله..

(وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

مثلاً: إنسان عنده ألف جندي، وعنده مركبتان آليتان، وعنده عشر بنادق، هذا الإنسان مع عشر بنادق والمركبتين الآليتين هل يقدر أن يعلن الحرب على أكبر دولة في العالم ؟ عندنا قنابل تبيد الأرض خمس مرّات، هل هذا ممكن ؟

ما هو القصد في هذه الآية ؟ أن أي إنسان أراد أن يقف أمام الحق مَن هو الطرف الآخر ؟ الطرف الآخر هو خالق الكون، فعندما تريد أن تطعن في الدين، أو أن تطعن في أحقِّية القرآن، أو أن تطعن في النبي عليه الصلاة والسلام، أو أن تسفِّه التشريع، أو أن تقلِّل من قيمة هذا الإنسان يجب أن تعلم أنك تحارب الكون كلّه، تحارب خالق الكون، وتحارب رسول الله، وتحارب جبريل، وتحارب الملائكة جميعاً، فقبل أن تتحرّك خطوةً نحو هذا الموقف اعرف من هو الطرف الآخر، اعرف مَن هو الحق، لذلك أية معركةٍ بين باطلٍ وحق لا تدوم أبداً، لأن الله مع الحق، أية معركةٍ بين حقّين لا تكون، وأية معركةٍ بين باطلين لا تنتهي، وبين حقٍ وباطل لا تطول..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنّ اللّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

2 ـ اعلمْ مَن هو الطرف الآخر:

الآن كل الناس تقريباً إذا كان في علاقاتهم خلافات يقولون لك: خصمي لا أقدر عليه، الكلام البسيط خصمي لست كفئًا له، فلان معه، وفلان معه، وفلان معه، ويده طائلة، وليس لي مصلحة أن أخاصمه، وهذا من باب ما يجري بين الناس دائماً، فإذا كنت مع إنسان قوي تتحاشى أن تقف في وجهه، أيعقل أن تقف في وجه الحق ؟ أيعقل أن تحاول أن تُسَفِّه الدين ؟

الذين سفّهوا الدين أين هم الآن ؟ في مزابل التاريخ، هذا الكيان الذي ناهض الدين سبعين عاماً ما مصيره اليوم ؟ في الأوحال، لا يوجد مجتمع متمزّق، متفكِّك، ضعيف، فقير، فيه كل أنواع الانحرافات، كل أنواع الجرائم كهذا المجتمع الذي ناهض الدين سبعين عاماً، وهذا شيء بديهي.

هذه الآية دقيقة، دائماً فكِّر في الطرف الآخر ؛ مَن تحارب ؟ من تنتقد ؟ من تسفّه ؟ فيمن تطعن ؟ من تقلل من قيمته ؟ الطرف الثاني هو الحق، الله هو الحق، الله بيده كل شيء..

(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا)

هذه الآية إن شاء الله تعالى نرجعها إلى الدرس القادم لأنني في الدرس الماضي غَفَلْتُ عن الوقت، وقد أخرّتكم كثيراً، فأنا أعتذر إليكم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التحريم 066 - الدرس (2-5): تفسير الآيتان 4 - 5

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-01-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة التحريم، ومع الآية الخامسة، وهي قوله تعالى:

(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا)

(سورة التحريم)

تذكيرٌ بالسابق:

قد ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

1 ـ معنى الإصغاء:

صغت بمعنى مالت، وميل السمع أي الإصغاء.

2 ـ من لازم الإصغاء التوبة إلى الله:

والإصغاء عند الله عزّ وجل أي التوبة، فكل إنسانٍ أعطى أذنه للحق، وأظهر استماعا راقياً وأدباً جماً، ولم يطبق الذي سمعه فهو عند الله ليس مصغياً، الإصغاء في نص هذه الآية أي التطبيق.

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

أصغى الإناء أي أماله، صغى: أي مالَ.

إن الإنسان حينما يستمع إلى حديث مهم جداً يتحرّك، ويمدُّ عنقه، ويضع يده هكذا، ويقرّب رأسه من المتكلم، هذا هو الإصغاء، فالإصغاء عند الله عزّ وجل أي التطبيق، فلو مارست طقوس الإصغاء، وكنت في أعلى درجات الأدب كمستمع، ولم تعبأ بالذي قيل، ولم تتحرك، ولم تطبق، فأنت عند الله لست مُصغياً، إنما كنتَ لاهياً.

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

تعد عند الله مصغياً إن أعقب هذا الإصغاء توبة، ولا نريد أن نقف طويلاً عند خصوصية السبب في الآية، بل نريد عموم المعنى، فالذي يصغي إلى مجلس علم، ويذهب إلى البيت ليقيم الإسلام في البيت، يذهب إلى عمله ليقيم الإسلام في عمله، يقف عند حدود الله ولا يتعدّاها، يعطي ما عليه، يؤدي ما عليه، هذا الذي يتحرّك نحو طاعة الله، يُشَكِّل حياته وفق منهج الله، هذا يعد عند الله مصغياً.

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنّ اللّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

3 - الله تعالى وجبريل والمؤمنون يقفون جميعا ضد من يقف في وجه الحق:

قد بينت لكم أيضاً في الدرس الماضي، أيعقل أن الله جلّ جلاله خالق الأكوان، ورسوله، وجبريل، وصالح المؤمنين، كل هؤلاء ليقفوا جميعاً أمام امرأةٍ تظاهرتا على رسول الله ؟ المقصود ليس كذلك، المقصود أن أيّ إنسان كائناً من كان أراد أن يقف أمام الحق، أراد أن يقلل من قيمة الدين، أراد أن يقلل من قيمة آيةٍ كونية، أراد أن يَطعن ببعض أصحاب رسول الله، أراد أن يطعن بمصداقية الدين، كل إنسان أراد أن يقلل من شأن الدين، أو أن يقف في خندقٍ معادٍ له، فليعرف يقف أمام مَن ؟ مَن هو الخصم الذي سيخاصمه ؟ الله ورسوله وجبريل وصالح المؤمنين، فعُدّ للمليون قبل أن تفكر أن تعتدي على الدين، أو تعتدي على أفكار الدين بالتسفيه، أو تعتدي على مَن أوكلهم الله عزّ وجل بنقل هذا العلم للناس، أو تعتدي على مقام الأنبياء، أو تعتدي على مقام رسول الله، أو تجترئ على الله ورسوله، قبل أن تتحرك لتنال من الدين عُدّ للمليون، وفكِّر أمام مَن تقف ؟

4 - إيّاك أن يكونَ الله خصمَك:

لو أن إنسانًا أعزل من السلاح لا يملك شيئاً، إنسانا مستضعفا يقف أمام أقوى جيش في العالم متعدياً، ثمنه بحركة ينتهي وجوده، فالإنسان قلبه بيد الله، أوعيته بيد الله، أعصابه بيد الله، رزقه بيد الله، سلامة جسمه بيد الله، أجهزته، أعضاءه، أهله، أولاده، مَن حوله، مَن هم أعلى منه، مَن هم أدنى منه، كلهم بيد الله، وتفكِّر أن تعتدي على دين الله ؟ أن تسفه إنساناً يدعو إلى الله عزّ وجل بلا سبب، بلا مبرر، من أجل أن تظهر عليه ؟ فقبل أن تحارب الدين اعرف مَن هو خصمك ؟ خصمك الله:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: الآية 279)

ما قولك في حربٍ بين الله وأحدِ عبيده، هل هناك أمل في المليار واحد أن ينجح العبد ؟

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

آية دقيقة جداً.. أحياناً الإنسان بلا سبب يحب أن يسفه الدعاة، يحب أن يبحث عن النقائص ليزعزع ثقة الناس بالدين، أنا لا أقول: إن الدعاة معصومون، ولكن ليس من صالح الدعوة إلى الله أن تبحث عن العيوب، أن تكون قنّاصاً، هذا له تهمة، وهذا له تهمة، وهذا له تهمة، أي أن الدين باطل، وأن الدين ليس له منهج صحيح، سبحان الله ! لا يحلو لأهل الدنيا إلا أن يطعنوا في أهل الدين، يبحثون عن نقائصهم تحت مُكَبّر، يسلِطون عليهم الأضواء من أجل أن يثبتوا للناس أن الدين باطل، ومنهج غير عملي غير صحيح.

أحياناً تجلس مع إنسان ينتقي من بين ألف قصةٍ قصةً لا تحتمل، أن هذا الرجل الديّن أخلاقه سيئة، يكذب، يحتال على الناس، يتظاهر بالتدين، وهذا الذي لا يصلي فيه الصدق، والأمانة، والاستقامة، إلى هذه الدرجة !!! هو في الحقيقة يطعن في الدين، ولا يطعن في شخص أبداً، يريد أن يثبت لك أن الدين منهج غير صحيح، منهج غير عملي، لا يصلح لهذا الزمان، قبل أن تفكِّر أن تزعزع ثقة الناس بالدين إنْ من خلال انتقاد بعض أفكار الدين، أو انتقاد بعض من يمثلون الدين، أو الطعن بلا سبب في أهل الحق، يجب أن تعلم يا أخي مَن هو خصمك ؟ خصمك الله، ورسوله، وجبريل، وصالح المؤمنين، ليس القصد أبداً أن يقف هؤلاء جميعاً أمام امرأتين ضعيفتين، ولكن القصد أن تعرف مَن هو خصمك. دائماً الإنسان العاقل قبل أن يفتح نار معركة مع طرف آخر يعلم مَن هو خصمه، هذا من بديهيّات القتال، ولما دعي عليه الصلاة والسلام أن يحارب الكفار في مكة قال: أنتم قليل، أي لا يوجد تناسب إطلاقاً، أما في المدينة فصارت مواجهات، وكان للمسلمين مركز قوة، وأرض، وبلد، وصاروا كُثُرا، فلذلك اعرف مَن هو الطرف الآخر.

إن أردت أن تنال من الدين، وما أكثر الذين ينالون من الدين، حتى الإنسان لو تتبع عورات المؤمنين، تتبع الله عورته حتى يفضحه في عقر بيته، وهناك أشخاص نموذج القنص، همّه الوحيد أن يبحث في عيوب الناس، أن يدقق، أن يتوصّل إلى نقاط ضعفهم، أن يسجّلها، أن يرتبها، أن يبرمجها، كي يملك سلاحاً بيده، وإذا كانت هذه الأمور موجهة لأشخاصٍ عاديين فالحرب سجال، أما إذا كان هذا الأمرُ موجّهاً لأهل الحق فالله سبحانه وتعالى يدافع عنهم.

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة: الآية 257)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

[البخاري]

التعرُّضُ لأهل الحق بالباطل زعزعةٌ لثقة الناس في الدين وأهلِه:

أنا لا أقول: إن الدعاة معصومون.. أبداً.. فالعصمة لرسول الله وحده، لكن هناك أشياء تغتفر، وأشياء ينبغي أن لا ندقق بها، وأشياء وقعت، ولن تقع مرة ثانية، ليس من مصلحة الدعوة أن تزعزع ثقة المسلمين في رجال الدين.

أحياناً يلتقي إنسان مع علماء كثيرين، هناك بعض الأخطاء، لكن هذه نغفلها حفاظاً على مكانة الدين، إذا سُئلنا نبحث عن عذر، التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة، إن كنت تعلم التأويل فلا مانع.

أردت من هذه الوقفة أن الإنسان لا يخاطر بالتعرض لأهل الحق، لا لشيء إلا ليزعزع ثقة الناس بالدين، هذا موقف عِدائي، هذا موقفٌ اسمه عدوانٌ على الدين، فكلما أثبت لنا أن المؤمنين سيئون، والكفار جيدون، ففي النهاية ماذا تريد أن تقول ؟

تسمع أحياناً طوال السهرة طعنا في أهل الحق، تسفيها لآرائهم، لاستقامتهم، لمواعيدهم، لحديثهم، وإخلاصهم، واستشهادا بأهل الباطل، أنا أقول لمثل هذا الإنسان: أنت يا أخي الكريم، ماذا تريد أن تقول؟ قل صراحةً: إنك تريد أن تقول: الدين منهج باطل، والإنسان إذا حدثته نفسه أن يصل إلى هذا المستوى ليعلم مَن هو خصمه ؟

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلْ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ))

[الترمذي، أبو داود]

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

[الجامع الصغير عن أنس، وفي سنده ضعف]

يتناقل الناس أحياناً أن فلانا يشرب الخمر، وأنه له مظهرا دينيا، هذا كلام باطل وغير صحيح، وهذا الكلام هدفه أن يوضع منهج الله عزّ وجل في الوحل.

بالمناسبة ورد في الأثر أن:

((قذف محصنة يهدم عمل مائة سنة))

[الطبراني والبزار عن حذيفة، وفي إسناده ضعف]

هناك أشخاص لا يحلو لهم إلا أن يكشفوا أن هؤلاء المحجّبات أكثرهن منحرفات، ثم يثني على هذه السافرة بأنها شريفة، وأنها جادّة، الهدف مدح السافرات وذم المحجّبات، هذا عدوان على الدين، إنك تريد أن تقول: أحكام الدين ليست صحيحة، النموذج الإسلامي غير مقبول، هذا طموح أهل الدنيا، والحقيقة أن التفسير النفسي لهذا الأمر سهل، فحينما يخرج الإنسان عن منهج الله عزّ وجل يختل

توازنه، ويشعر بخلل داخلي، ويتوهَّم أن ترميم الخلل يأتي لا من أن يكون صالحاً، بل في أن يطعن بالصالحين، فلو أن إنسانا في مستوى راقٍ، وإنسان في مستوى أدنى، إذا كانت المسافة الكبيرة بينهما فعندنا حلاّن ؛ أن يصعد هذا الأدنى إلى هذا المستوى، والحل الثاني أن ينزل هذا إلى الأسفل بكلامه طبعاً فيرتاح، لذلك:

(إِنّ الّذِينَ يُحِبّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النور)

تمني الشر للمسلمين وقوعٌ في خندق المنافقين:

ما فعل شيئاً، ما تكلم ولا كلمة، ولا حرفا، بل إنما أراد، وتَبَنّى، أتصدقون أن الله عزّ وجل يعذِّب هؤلاء عذاباً أليماً في الدنيا دون أن يرتكبوا معصية، لأنهم تمنّوا أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، هذا الكلام دقيق، ليس في الأرض كلها أمٌ تتمنى فضيحة ابنتها، إلا في حالة واحدة أن تكون هذه الفتاة ليست ابنتها، فإذا تمنّت امرأةٌ فضيحة ابنتها فهناك استنباط دقيق أن هذه الفتاة ليست ابنتها، ولما يتمنى الإنسان أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا معنى ذلك هو ليس مؤمناً، هو مع المنافقين، ولمجرّد أن تتمنى أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا معنى ذلك أنك في خندق المنافقين، لقوله تعالى:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

(سورة التوبة: الآية 50)

بالمناسبة إخواننا الكرام، يمكن أن تمتحن إيمانك من شعورك بالراحة والسرور إذا اغتنى أخوك، أو إذا حقق إنجازا في الدنيا، تزوّج، اشترى منزلا، تسلّم منصبا، نال شهادة عليا، أخذ دكتوراه، تقول: اشتراها شراء، لا يتحمل، أما المؤمن فيفرح، ويقول لك: صار عندنا خمسة دكاترة، يعد نفسه مع المؤمنين أسرة واحدة، وكيف أن الأب يعمل ويتعب من أجل أولاده، وإذا كان الأب أُمِّيًا وابنه أخذ الدكتوراه هل يغار منه ؟ بالعكس يقول: ابني يحمل الدكتوراه، فالمنافق:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

لمجرد أن تتمنى أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فقد وضعت نفسك مع المنافقين، وأنت لا تدري، لذلك هذه السورة القصد منها أن الإنسان حينما يشرد عن الله، وحينما يضيع، وحينما يضل سواء السبيل، فعنده حلاّن ؛ إما أن يرتفع إلى مستوى المسلمين فيتوب إلى الله، ويستدرك ما فاته، وإما أن يطعن في هؤلاء كي يكونوا في مستواه، هذا الحل الثاني حل شيطاني، لذلك هذا معنى قوله تعالى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ)

أي تتعاونا..

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ

إخواننا الكرام، الذي قرأ منكم التاريخ، هل في تاريخ البشرية معركةٌ وقعت بين المؤمنين وغير المؤمنين، ولم يكن النصر إلى جانب المؤمنين ؟ إلهٌ يقول:

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر: الآية 51)

هذا كلام الله، كما قلت من قبل: كل الكتب المؤلّفة ضعها في مكان، وكتاب الله وحده في مكان آخر، والفرق بين كتاب الله وكتب البشر كالمسافة بين الله وبين البشر.

(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا)

عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ

حتى التي اصطفاها الله عزّ وجل لتكون زوجة رسول الله إن أساءت، وإن لم تكن في المستوى المطلوب الله جلّ جلاله يبدِّله خيراً منها، فالإنسان كما قال الله عزّ وجل:

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

(سورة محمد)

الله تعالى غنيّ عن المخلوقات:

إياك أن تَمُنَّ على الله، إياك أن تظن أنك في موقع لا يستطيع أحدٌ أن يقف فيه، مهما كنت ذا شأن، مهما تكن لك أعمالٌ عظيمة وجليلة حينما تغتر، وحينما تستغني عن الله، وحينما تستعلي، هناك من يحل محلك، فيجب أن تعلم أنك إذا عملت عملاً صالحاً نلت شرفاً، وهذا الدين دينُ الله عزّ وجل، وهذا القرآن كتابه، وهو قادرٌ على أن ينصر دينه وكتابه دون أن يكون لك أي نصيب، لكن أراد الله أن يكسبك شرف نصرة دينه.

قد تجد شخصًا يعمل عملا صالح يقول لك: أنا فعلت، لولاي لما كان هذا، هذا كلام مضحك، هذا كلام فيه شرك، إذا سمح لك الله عزّ وجل أن تعمل عملا صالحا، إذا قدّر الله على يدك الخير فهذا فضلٌ من الله عزّ وجل، سمح لك أن تدافع عن دينه، لأن الله عزّ وجل كما قال الله عزّ وجل:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

(سورة محمد: الآية 4)

الله عزّ وجل في غزوة الأحزاب انتصر منهم مباشرةً، أرسل عليهم ريحاً قلبت قدورهم، وخربت خيامهم، وأثارت الغبار في عيونهم، فارتحلوا.

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

(سورة الأحزاب: الآية 25)

إذاً: الله قادر على كل شيء، إن دعاك إلى فعل الخير من أجل أن يكسبك شرف هذا العمل.

(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ)

أي إن تظاهرتُنّ عليه..

(وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ)

فبعض المفسرين قال: يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشةٍ مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين، هل يعقل أن تأتي امرأة النبي عليه الصلاة والسلام بفاحشة ؟ الزنا !! قال بعض المفسرين جزاهم الله كل الخير: المرأة التي عند النبي لو أنها أتعبته قليلاً، لو أنها طالبته بما لا يستطيع أن يؤديه لها، كأنها أتت بفاحشة، أي أن المرأة التي اصطفاها الله لتكون امرأة رسول، المفروض أن تكون في خدمته، أن تعينه على الدعوة، فإذا كانت عبئاً عليه كأنها أتت بفاحشة، كيف أن الفاحشة كبيرة جداً، لو أن امرأةً أتعبت النبي عليه الصلاة والسلام حَمّلته ما لا يطيق، أي ضعضعت ثقة الناس ببيته، قال: هذه المرأة يضاعف لها العذاب ضعفين، لأنها أتت بعملٍ بمنزلة الفاحشة عند بقية النساء.

فإذا قدّرك الله عزّ وجل أن تخدم الناس فاخدم الذين يدعون إلى الله، كن عوناً لهم، ولا تكن عبئاً عليهم، وهناك شخص يَحمِل، وشخص يُحمَل، إنسان ينهض معك، يعينك، وإنسان هو عبءٌ عليك يجب أن تحمله، فكن حاملاً.. طبعاً بالمعنى اللغوي.. ولا تكن محمولاً.

(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ)

إسقاط على الواقع:

أحياناً هذه الآية نفهمها في واقعنا، أحياناً زوجة إنسان ميسور الحال، أخلاقه عالية، مؤمن، تشعر بقيمتها، تتعنّت، ترفض أي عمل صالح، فتجده يريد أن يطلقها، وهناك قصص كثيرة، تأخذ موقفا بلا

مبرر، موقفا غير ذكي، غير عاقل، وكأنه لا يمكن أن يعيش من دونها، تُطلّق، وتأتيه امرأةٌ، الوفاء مطلوب، وأحياناً تتجاوز المرأة الحد المعقول، تعتدُّ بشخصيتها، وتفرض آراءها بشكل غير مقبول، عندئذٍ يضطر زوجها إلى أن يستغني عنها.

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنّ اللّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4)عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلّقَكُنّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنّ)

ويا أيتها النساء الفاضلات اسمعن صفات المرأة المؤمنة:

(مُسْلِمَاتٍ)

صفات المرأة الربّانية:

1 ـ مسلمات:

أي مستسلماتٍ لأمر الله، أي طائعاتٍ لله، أي مطبقاتٍ لمنهج الله.

(مُؤْمِنَاتٍ)

2 ـ مُؤْمِنَاتٍ:

هناك مسلمة لها زوج أجبرها على الحِجاب، وأجبرها على عدم الاختلاط، لكنها في الحقيقة ليست قانعة بذلك، لكن تسايره لمصلحتها.

(مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ)

مسلمةٌ ومؤمنةٌ، فأعظم شيء في المرأة أن تكون دَيِّنَةً عن قناعة لا عن قمع، وهناك امرأة متدينة عن قمع ؛ زوجها صارمٌ في معاملته، أبوها شديد، إخوتها أشداء، فتستقيم، لكن لو أتيح لها لخرجت سافرة، لو أتيح لها لارتادت أماكن اللهو، لو أتيح لها لصاحبت شباباً، لكن بيتها صارمٌ جداً، هذه نقول لها: مسلمة، لكنها غير مؤمنة، والمطلوب مسلمة مؤمنة، تطبق أمر الله عن قناعة لا عن ضغطٍ وإكراه.

(مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ)

3 ـ قَانِتَاتٍ:

أي منقطعاتٍ لله، ورد في بعض الأثر النبوي:

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا، فإذا امرأةٌ تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي، فقلت: من هذه يا جبريل ؟ قال: هي امرأةٌ مات زوجها، وترك لها أولاداً، فأبت الزواج من أجلهن))

[ورد في الأثر]

إذا قنتت امرأة لله عزّ وجل، وأحسنت رعاية زوجها وأولادها فلها الجنة، بل لها أرقى مكان في الجنة، بل إنها مجاهدة في سبيل الله.

(تَائِبَاتٍ)

4 ـ تَائِبَات:

معنى ذلك أن ثمة خطأ، والمؤمن مذنب توّاب، أخطأتْ فتابت، وأخطأ فتاب، والتوبة صفة مستمرة في الإنسان، لأن الإنسان خلق ضعيفاً، وإذا أخطأ يتوب رأساً.

(تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ)

5 ـ عَابِدَاتٍ:

أي تُطبّق منهج الله عزّ وجل، وتعلم سر وجودها، وغاية وجودها.

(سَائِحَاتٍ)

6 ـ سَائِحَاتٍ:

بعضهم قال: صائماتٍ، أما الكلام الأوجه: السائحات اللواتي رافقن أزواجهن حينما هاجروا إلى المدينة، هذا في الأصل، أحياناً صحابة كرام لسببٍ شديدٍ جداً من ضغط زوجاتهم لم يهاجروا مع رسول الله، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال: الآية 72)

أما المرأة التي تعين زوجها، أحياناً يضطر أن يسافر فلا تسافر، السفر لمصلحة الأسرة، وهي لا تسافر، السفر في سبيل الله سمّاه الله سياحة، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إنّ سِيَاحَةَ أُمّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللّهِ تَعَالَى))

[أبو داود عن أبي أمامة]

السياحة هنا بعيدة جداً عن المفهوم المعاصر، السياحة المعاصرة كلها موبقات، حتى حدث هناك اصطلاح جديد والعياذ بالله بدأ يتداول على الألسنة " السياحة الجنسية "، يسافر لكي يزني، ليرتكب

الموبقات، مفهوم السياحة المعاصر هذا مفهوم بعيد جداً عن هذه السياحة، السياحة هنا الجهاد في سبيل الله، السياحة أن تسافر فراراً بدينك، والسياحة أن تسافر طلباً للعلم، والسياحة أن تسافر طلباً للرزق، فأحياناً تكون المرأة متمكنة إلى جانب أهلها تقتضي مصلحة الأسرة أن تسافر، ولا تُعارض.

(قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا)

7 ـ ثَيِّبَات وَأَبْكَارًا:

الثَّيِّب هي التي مات زوجها، إذاً: تثوب إلى بيت أهلها، تعود إلى بيت أهلها، أو طلقها زوجٌ فثابت إلى آخر، عادت إليه، أما البكر على أصل خلقها لم يمسّها بشر، إذاً: مسلمة، مؤمنة، قانتة، تائبة، عابدةٌ، سائحة، ثيبة وبكرٌ، هذه صفات المرأة المسلمة.

(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنّ)

عسى تفيد الاحتمال، لكن لأنه لم يطلقكن معنى ذلك أنهُنّ.

(خَيْرًا مِنْكُنّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ)

هذا تهديد، إن لم تكن كذلك طُلقتُن، واستغنى عنكم رسول الله، لأن الله عزّ وجل قال في آية أخرى:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)

(سورة الأحزاب)

(لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ)

خاتمة:

قال بعض العلماء: **" إن الله عزّ وجل تولى بنفسه تطهير أهل بيت النبي**، لماذا ؟ لأن أهل بيت النبي جزءٌ من الدعوة إلى الله، فأنت لا تقنع بعالم أو داعية هو يدعو إلى الله وبيته ليس كذلك، لا تقتنع، ولك سؤال كبير: إن كنت تقول حقاً فلمَ لا تطبقه ؟ إن قلت: لا أستطيع ؟ إذاً:لست أهلاً أن تعظ الناس، وإن قلت: لا أقدر، وهذا شيء فوق طاقتي، معنى ذلك أن مذهبك أو دعوتك غير واقعية، إما أننا نتَّهم دعوتك، أو أن نتهمك أنت، إن كان أهل بيت الداعية ليسوا على ما ينبغي، لذلك:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ)

تولى الله تطهير أهل بيت النبي لأنه جزءٌ من الدعوة إلى الله، وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى نتابع هذه السورة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التحريم 066 - الدرس (3-5): تفسير الآيتان 6 - 7

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-02-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثالث من سورة التحريم، ومع الآية السادسة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ

أيها الإخوة الكرام.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا)

1 - قُوا

هذا فعل أمر من وقى، هناك يومٌ آخر، وهناك حسابٌ دقيق، وهناك جزاءٌ، وهناك مصيرٌ ؛ إما إلى جنةٍ يدوم نعيمها أو إلى نارٍ لا ينفد عذابها، فالنار التي ذكرها الله في القرآن الكريم حق، وكل إنسانٍ شرد عن الله، وعصاه، وأوقع الأذى في عباده فلابدّ من أن يدخل النار، فلذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

أي إياكم أن تفعلوا فعلاً يوجب لكم النار.

القضية خطيرة جداً، الإنسان وهو في الدنيا يعيش مع الأفكار وكأنها أفكارٌ ليس غير، لكنه يوم القيامة هذه الأفكار تنقلب إلى حقائق، هذا الذي قرأه في القرآن الكريم يراه واقعاً أمامه، فلذلك علامة الندم باديةٌ على وجوه الذين شردوا عن الله عزّ وجل، الله جلّ جلاله يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

لابد من يوم تُسَوّى فيه الحسابات:

يا من آمنتم بي، يا من آمنتم بوجودي، يا من آمنتم بوحدانيتي، يا من آمنتم بكمالي، بعدالتي، بربوبيتي، أنتم في حياةٍ دنيا، أنتم في دار ابتلاء، أنتم في دار امتحان، لابدّ من يومٍ آخر، هذا اليوم تسوّى فيه

الحسابات، يؤخذ للمظلوم من الظالم، يؤخذ من القوي للضعيف، يدفع الإنسان ثمن انحرافه، وثمن خطئه، وثمن شروده، وثمن معصيته..

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

الحقيقة مركز الثقل في الآية عند كلمة:

(وَأَهْلِيكُمْ)

2- أَهْلِيكُمْ

الأهل الزوجة، والأولاد، ومن يلوذ بك، ومن تنفق عليه، ومن تتولّى أمره، هؤلاء أهلك..

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

كيف تقي نفسَك وأهلكَ النارَ ؟

العلماء لهم عند هذه الآية وقفةٌ متأنِّية، قوا أنفسكم بالطاعة، وقوا أهليكم بالنصيحة، بالأمر والنهي، أولادك أهلك، زوجتك أهلك، أخواتك اللواتي في بيتك أهلك، والدتك أهلك، والدك أهلك..

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

أنت لا تستطيع أن تكون وصيّاً على الآخرين، لأن النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق قال الله تعالى له:

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

(سورة هود)

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)

(سورة ق: الآية 45)

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

(سورة الزمر)

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(سورة البقرة: الآية 272)

(إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

(سورة الرعد)

ومع ذلك النبي عليه الصلاة والسلام أمر عشيرته الأقربين، يقول الله عزّ وجل:

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ(214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215))

(سورة الشعراء)

لابد من الدعوة إلى الله بين الأهل والأقارب:

أنا لا أصدِّق أن مؤمناً أنار الله قلبه، وعرّفه الحقيقة، وكان على بيّنةٍ من أمره، وآتاه الله رحمةً من عنده ثم يسكت، يرى مَن حوله في شرود وهو ساكت، يرى مَن حوله في انحراف وهو ساكت، يرى أقرب الناس إليه يقيم على معصية الله وهو ساكت، يرى زوجته تخرج بطريقةٍ لا ترضي الله وهو ساكت، يرى بناته شارداتٍ عن الله وهو ساكت، يرى أولاده لا يصلّون وهو ساكت، هذا الشيء مستحيل لا يتناسب مع الإيمان إطلاقا، لا يمكن أن يُقبَل من مؤمن أودع الله في قلبه الإيمان، ونوّر قلبه وبصيرته أنه لا يأمر أقرب الناس إليه ؛ زوجته، أولاده، أخواته البنات، إخوته الذكور، والده إذا كان يقبل النصيحة، والدته، هؤلاء أهلك..

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

أيها الإخوة الكرام، الإمام مجاهد يقول: **" قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيتكم ".**

ماذا تملك مع أختك إلا أن تنصحها ؟ إلا أن تبيّن لها ؟ إلا أن تقنعها ؟ إلا أن تسمعها الحق ؟ إلا أن ترشدها إلى سواء السبيل ؟ إلا أن تقدِّم لها خدمةً في دنياها من أجل أن تستميل قلبها ؟ هكذا افعلوا مع أخواتكم، ومع إخوتكم، ومع أولادكم، ومع زوجاتكم، ومع آبائكم، ومع أمّهاتكم، هؤلاء الذين هم حولك أوكلك الله بهم، هذا معنى:

((فَعَلَيْكَ بِخَاصّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ الْعَوَامّ))

فلا يوجد واحد منّا إلا و له أم، له أب، له زوجة، له أخ، له أخت، له ابن أخ، ابن أخت، جار، قريب، صديق، زميل، هؤلاء الذين حولك لا ينبغي أن تنساهم من الهدى الذي أكرمك الله به، كيف كنت شارداً، تائهاً، بعيداً عن الحق، منغمساً في المعاصي والآثام، وجاء رجل، وأحسن الظن بك، ودلّك على الله، وأخذ بيدك إليه، وعاونك على طاعته، زارك مرّةً، وأقنعك مرّةً، وقدّم لك هدية مرّةً، واستمال قلبك مرّةً، وتلطّف معك مرّةً إلى أن ملت إلى الحق ؟ كيف فُعِل بك افعل مع الآخرين ؟

(كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنّ اللّهُ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء: الآية 94)

أيها الإخوة الكرام، الحقيقة أن المؤمن الصادق شُغْله الشاغل من يلوذ به ؛ إخوته، أخواته، والإنسان عبد الإحسان..

" يا داود، ذكِّر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جُبلت على حبِّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها ".

بإمكانك أن تستعبد الأحرار بإحسانك، بإمكانك أن تستعبدهم، بمعنى أن تجعلهم يميلون إليك، بإحسانك، لماذا أنت مكتوف اليدين ؟ ماذا تنتظر ؟ زوجتك أحسن إليها بالكلمة الطيّبة، والحركة الطيّبة، والإيناس، والتلطّف، أولادك إن رأوك حريصاً عليهم، على مستقبلهم، على مكانتهم، على عملهم، على دنياهم، على زواجهم، على استقرارهم يميلون إليك، و لن تستطيع أن تهدي الناس وأنت قاس، لن تستطيع أن تهدي الناس وأنت عليهم.. كما يقولون: جبّار، لن تستطيع أن تهديهم إلا إذا فتحت قلوبهم، لذلك الإحسان قبل البيان، والقدوة قبل الدعوة، والأصول قبل الفروع، والتربية لا التعرية، هذا كُلّها من مبادئ الدعوة إلى الله.

أيها الإخوة الكرام، صَدِّقوا والله شهيدٌ على ما أقول: ما من عملٍ أعظم بعد أن تؤمن بالله عزّ وجل من الدعوة إليه، ما من عملٍ أعظم بعد أن شرّف الله قلبك بالهدى، وملأ قلبك إيماناً ونوراً، وعرّفك بذاته وبمنهجه، ما من عملٍ أعظم من أن تشكر الله بهداية خلقه إليه، كيف أن الله سبحانه وتعالى حَلُم عليك، وانتظرك، وأرسل لك من يبلِغك، ومن يهديك، ومن يبين لك، واستجبت مرّةً، ولم تستجب مرّةً، قصّرت وتَعَسَّرت، قمت وقعدت، والله سبحانه وتعالى حليمٌ عليك ؟ كيف عاملك الله عزّ وجل ؟ أنت مكلّفٌ أن تعامل عباده الشاردين كما عاملك يوم كنت شارداً، من هم أقرب الناس إليك ؟ أهلك، وأولادك، أيعقل أن يظهر خيرك في الآخرين، وأقرب الناس إليك محرومٌ من هذا الخير ؟!!

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

أنا لا أتصوّر مؤمنًا قد هداه الله وحده وهو يهمل أولاده، وزوجته، وأصدقاءه، بل إن إخوةً كثيرين جزاهم الله عنّا خيراً، أصحابهم في الجاهلية يأخذون بيدهم واحداً واحدا إلى طريق الحق، زملاءهم في العمل، جيرانهم، أصدقاءهم، كلّما ازداد الإيمان في قلبك توَسَّعت دائرة نشاطك، فمن زوجتك وأولادك إلى إخوتك وأخواتك، إلى عمّاتك وخالاتك، إلى أولاد عمِّك وبنات عمّك، إلى جيرانك، إلى زملائك، إلى أصدقائك، إلى الأصدقاء السابقين، هؤلاء كما منّ الله عليك بالهدى، كما أنعم الله عليك بنعمة الهدى، كما نوّر الله قلبك بالهدى، كما عرّفك بذاته وبمنهجه، كما حملك على طاعته، كما عرّفك بأهل الحق، لماذا أنت مكتوف اليدين ؟ ماذا تنتظر ؟ تحرّك، قم بزيارةٍ لهذا الصديق، أسمعه الحق، اذكر له ما سمعت في درسٍ معيّن، اذكر له ملخّص خطبةٍ سمعتها، أعطه شريطًا، تفقّده من حينٍ إلى آخر، جاء العيد قدِّم له هدية، جاءه مولود بارك له بهذا المولود، قدِّم له هديةً لتستميل قلبه شيئاً فشيئاً، فإذا أنعم الله عليك بأن جعل هداه على يديك فهذه أعظم تجارةٍ على الإطلاق، ماذا أقول لكم والنبي عليه الصلاة والسلام يقول لعلي رضي الله عنه:

((فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

[متفق عليه]

((خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس))

((خيرٌ لك من الدنيا وما فيها))

إن أيّ عطاءٍ تأخذه من الله في الدنيا ينتهي عند الموت، لو كنت أغنى أغنياء الأرض، لو سكنت في أجمل بيتٍ في الأرض، لو كانت عندك أجمل زوجةٍ على الإطلاق، لو أنك ارتقيت إلى أعلى منصبٍ في الأرض، يأتي الموت فيأخذ كل هذا منك في ثانيةٍ واحدة، أما العمل الذي عملته لهداية الخلق فهذا الذي يُرافقك إلى أبد الآبدين، هذا الذي تسعد به يوم الدين، هذا الذي ترقى به عند رب العالمين، هذا الذي يرفعك إلى أعلى علِّيين، لذلك المؤمن الصادق شغله الشاغل هداية من حوله، فمن أقرب الناس إليه ؟ زوجته، أولاده، إخوته وأخواته، عمّاته وخالاته، جيرانه وأصدقاءه، زملاءه، كلمة طيّبة، كلمة مؤنسة، زيارة خالصة لوجه الله، حديث طيّب، تفسير آية، تفسير حديث، شريط، افعل شيئاً، تحرّك، اخرج من ذاتك..

ذكرت من قبل أن الإنسان حينما يتيه عن منهج ربه ينتمي إلى ذاته فقط، لا يعنيه إلا أمر نفسه، لا تعنيه إلا ذاته، لا يعنيه إلا بيته، هذا يعيش لذاته، هذا ليس له عند الله أدنى قيمة، لأنه شرد عن منهج الله، لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(سورة المائدة)

حينما ترى أن بضعة أشخاصٍ اصطلحوا مع الله على يديك، وتابوا إلى الله بجهدٍ منك، وأقاموا أمر الله في بيوتهم بتوجيهٍ منك، واستطاعوا أن يستقيموا كما تريد، وأن يلتفتوا إلى الله كما تتمنّى، ما شعورك وأنت قد رددت خلق الله إلى الله ؟

الأب الذي له ولدٌ شاردٌ عنه، إذا جاءه رجل صديق فعثر على ابنه شارداً، فعلّمه وهذّبه، وأقنعه بوالده، وأطعمه وسقاه، وردّه إلى أبيه، ماذا يقول الأبُ لهذا الصديق ؟ يقول له: فعلت معي معروفاً لا أنساه حتى الموت، الله يُحبُّ خلقه جميعاً، هو الذي خلقك، محبّتنا كلّها مُسْتَقاةٌ من محبة الله لعباده، هو خلقهم، هو أرحم بهم من أنفسهم.

حينما تتبرّع أيها الأخُ الكريم فتأخذ بيد إنسانٍ إلى طريق الحق، تُقنِعه بأن يستقيم على أمر الله، تدلّه على الله، تُعينه على الإقبال على الله، تبيّن له طريق الجنّة والسعادة فالله سبحانه وتعالى سيشكرك، وإذا شكرك الله فحدِّث ولا حرج، خالق الكون يَشْكُرك على عملك، خالق الكون قدّمت له عبداً تائهاً فصار مطيعاً منيباً إليه..

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

أنا وسّعت الدائرة قليلاً، الآية هي:

(قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

أقرب الناس إليك أهلك الذين هم في بيتك، أولادك، بناتك.

أيها الإخوة، من يصدّق أن معظم البيوت فيها بنات، البيت الذي فيه بنتٌ واحدة يمكن أن تكون ضمانةً لدخول الجنّة لأبويها..

عَن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنّ، وَأَطْعَمَهُنّ، وَسَقَاهُنّ، وَكَسَاهُنّ مِنْ جِدَتِهِ كُنّ لَهُ حِجَابًا مِنْ النّار يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أحمد]

البيت موضع لأعمال صالحة كثيرة:

بنت واحدة ألا تستطيع أن تستميل قلبها ؟ ألا تستطيع أن تقدّم لها شيئاً يسرّها ؟ ألا تستطيع أن تحملها على طاعة الله ؟ ألا تستطيع أن تأمرها بالصلاة ؟ ألا تستطيع أن تُحَجّبها ؟ ألا تستطيع أن تعلِمها أحكام دينها ؟ ألا تستطيع أن تكون ليّناً معها ؟ أن تميل إليك، وأن تميل إلى اتجاهك وإلى سلوكك !! بنتك الوحيدة في البيت يمكن أن تكون طريقاً إلى الجنة، أبواك اللذان هم في البيت ببرّهما يمكن أن تكسب الجنة بسببهما.

أيها الإخوة الكرام، هذه آيةٌ دقيقة جداً، يخاطبنا ربنا عزّ وجل فيقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

أنت مكلّفٌ أن تهديهم إلى الله، مكلّفٌ أن تحببهم بالله عزّ وجل، ورد في بعض الأحاديث القدسية:

((يا رب، أيّ عبادك أحبُّ إليك حتى أحبّه بحبّك ؟ قال: أحبّ عبادي إليّ تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبّني، وأحبّ من أحبّني، وحبّبني إلى خلقي، قال: يا رب، إنك تعلم أني أحبُّك، وأحبُّ من يحبّك، فكيف أحبّبك إلى خلقك ؟ قال: ذكّرهم بآلائي ونَعْمائي وبلائي))

ادخل إلى بيتك تجد هناك آلاف الأعمال الصالحة ؛ أولادك، بناتك، الكلمة الطيّبة، الكلمة المؤنسة، الابتسامة، الهدية، الشيء الذي يفرحهم إن فعلته استملت قلوبَهم، ودللتهم على الله، أهلك زادك إلى الجنة، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((خير كسب الرجل ولده))

[الجامع الصغير عن أبي بردة]

أهلُ الرجل قرةُ عينه:

على الإطلاق خير كسب الرجل ولده، بل إن هداية الأهل لها جزاءٌ معجّلٌ في الدنيا قبل الآخرة، فما جزاؤها في الدنيا ؟ أن يكون الأولاد قرّة عينٍ لآبائهم، والآباء يعلمون هذه الحقيقة، فشعور الأب حينما يرى ابنه يُصلِّي، ويغضّ بصره، ويتكلّم الحق، شعور الأب وهو يرى زوجته تصلّي مثله، وتحبّ الله مثله، وترعى حقوق دينها مثله، حينما يرى الزوج زوجته حريصة على صلاتها وصيامها وزكاتها وطاعتها لله عزّ وجل، وهي تعينه على أمر دينه فإن قلبه يمتلئُ سكينةً لا توصف، وهذا ما ذكرته الآية الكريمة:

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا)

(سورة الفرقان)

حينما تصل إلى الدار الآخرة تُسأل: ماذا فعلت بأولادك ؟ جعلك الله قيماً عليهم، جعل الإنفاق عليهم بيدك، جعل أمرهم إليك، جعلهم أبناءك فماذا فعلت بهم ؟ هل قصّرت في حقِّهم ؟

لابد من رعاية تامة ومراقبة صارمة للبيت:

أيها الإخوة، أنا أدعوكم لتكون بيوتكم جنّة بتوجيه أولادكم، أما إذا كان في البيت ملهيات فإنهم لا يرونك إطلاقاً، فمن أنت ؟ يتابعون هذا المُسَلسَل، كن أنت مَحَطّ أنظارهم، كن أنت الموجِّه لهم، اجعل بيتك بيتاً فيه القرآن يُتلى، اجعل بيتك بيتاً فيه الصلوات تؤدّى، اجعل بيتك مسجداً، ولا تجعله ملهى، وهذا باختيارك أنت، فإذا قلت: هكذا الأمر، فماذا نفعل ؟ هذا لا يُقبل عند الله عزّ وجل..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

أجمل قول في هذه الآية قول الإمام مجاهد: **" قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيّتكم ".**

ينبغي أنى لا تسكت، ينبغي أن تتكلّم، ينبغي أن تأمر، وأن تنهى، ينبغي أن تتغاضب أحياناً، ينبغي أن تغضب، ينبغي أن يَرَوْكَ ليناً في أمر الدنيا شديداً في أمر الآخرة، ليناً جداً في أمر الدنيا شديداً جداً في أمر الآخرة، لكن بعض الآباء بالعكس، هم أشدّاء جداً في أمر الدنيا، ليّنون جداً في أمر الآخرة، إذا انتهكت حرمات الله عزّ وجل لا يبالون، لا يدقِّقون، تخرج ابنته إلى الشرفة بثيابٍ فاضحة فلا يتكلّم ولا كلمة، أما إذا كُسِرَ طبقٌ من الصحون تقوم الدنيا ولا تقعد، لن تستطيع أن تربيهم إلا إذا كنت عكس ذلك، ليناً متسامحاً في أمور الدنيا، شديداً شدّةً كبيرةً في أمور الآخرة، إذاً: **" قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصّيتكم ".**

كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ:

يقول عليه الصلاة والسلام:

((وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

[متفق عليه عن ابن عمر]

أسوق هذه الكلمة للآباء: إنّ فساد الزمان لا يُعفي الآباء من المسؤولية، أنت تقول: الزمان فاسد ماذا أفعل ؟ أنت مسؤولٌ عن أولادك شئت أم أبيت، في أي ظرفٍ، وفي أي عصرٍ، وفي أي مصرٍ، وفي أي بيئةٍ، أنت مسؤول، بإمكانك أن تفعل المستحيل لو أردت، لذلك:

((يَقُولُ كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

هناك نمط جديد، الأب في المسجد وفي الصف الأول، وابنته تنطلق سافرةً بأبهى زينةٍ، وهو لا يتكلّم كلمة، لو سألته ماذا يقول ؟ يقول: والله نصحتها ولم تنتصح، انتهى أمرك ؟ نصحتها مرّةً، ثم سكتت، وانتهى الأمر ؟ أليس هناك أساليب كثيرة ومحاولات متكرّرة ؟ تضييق أحياناً، ترغيب أحياناً، أن تكون معها دائماً، أن تقنعها كثيراً، الإمام الحسن يقول:

(قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

من معاني: قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ

" يأمرهم وينهاهم ".

وقال بعض العلماء: **" قوا أنفسكم دخل فيه الأولاد، لأن الولد بعضٌ من الإنسان، وجزءٌ منه "**، فالزوجة أهل، والأولاد في الدرجة الأولى، الزوجة والأولاد في الدرجة الأولى، ثم الإخوة والأخوات، ثم الأب والأم، ثم العمّات والخالات، ثم الجيران، ثم الأقارب، ثم الأصدقاء، ثم الزملاء، هؤلاء الذين هم حولك، وقد نوّرك الله بالهدى، هؤلاء الذين تتعامل معهم كل يوم، هؤلاء الذين تلتقي بهم، هؤلاء الذين مكّنك الله من أن تكون مشرفاً عليهم، هؤلاء الذين أناط الله أمرهم إليك، هؤلاء من أهلك.

الآية الكريمة:

(وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ)

(سورة النور)

بيوت أولادكم سمّاها الله بيوتكم، فلأن تكون أنت مكلّفًا بهداية الابن من باب أولى، لك أن تأكل من طعامه من دون إذنه، فكيف بهدايته إلى الله عزّ وجل ؟ ما معنى:

(قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

قال: يُعَلِّمه الحلال والحرام، ويجنِّبه المعاصي والآثام إلى غير ذلك من الأحكام، وقال عليه الصلاة والسلام:

((حق الولد على الوالد أن يُحسِن اسمه، وأن يعلِّمه الكتابة، وأن يزوّجه إذا بلغ))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة، وفي سنده ضعف]

هذا من حق الولد على الوالد، هؤلاء الآباء الذين يقولون: أنا كنت عِصامياً يا بني، ولتكن أنت كذلك، قد يأتي زمانٌ هذا الكلام لا يصح فيه، لا يستطيع الابن الآن أن يكون عصامياً لأن الحياة معقدةٌ جداً، لا يستطيع أن يبني ذاته بذاته من دون دعمٍ خارجي، فإن زلّت قدمه وانحرفت أخلاقه فالأب مسؤولٌ عنه، وكل أبٍ وأنا أعني ما أقول: كل أبٍ إذا كان بإمكانه أن يزوّج ابنه، وأن يُحَصِّنه ولم يفعل، وزلّت قدم الابن فالأب مسؤولٌ عن زلّة ابنه، إلى درجة أنه يوم القيامة قد يقول الابن لأبيه، أو قد يقول البنت لأبيها: **" يا رب لا أدخل النار حتى أدخِل أبي قبلي ".**

حصِّنوا أولادكم بالزواج:

أيها الإخوة، بعض الآيات التي قد يَحارُ فيها الإنسان:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

(سورة النور: الآية 33)

بربكم أيعقل أن تجدوا في الأرض كلّها مؤمناً واحداً يجبر ابنته على الزنا من أجل أن يكسب منها ؟ أنا لا أصدّق أن يوجد في الأرض كلّها، في شتّى بقاعها، في كل قارّاتها مؤمنٌ واحد يجبر ابنته على الزنا من أجل أن يكسب منها مالاً، فما معنى الآية، والآية موجّهة للمؤمنين ؟

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا)

إذا جاء خاطب فلا تضع العراقيل أمامه، لا تبحث عن إنسانٍ يسدّ حاجاتك، يحلّ مشكلاتك، ابحث عن إنسانٍ كُفء لابنتك، وانتهى الأمر، هذه نقطة دقيقة جداً، إنك إن رددت الخاطبين بلا سببٍ وجيه فكأنك قوّيت فيها الشهوة، فإن زلّت قدمها فأنت المسؤول، أنت لا ترضى ولا ترغب، ولا يعقل أن تفكِّر في هذا الاتجاه، ولكن تعنُّتك وإعضال ابنتك، ووضع العراقيل أمام خُطّابها من أجل أن تصل إلى مستوىً يدغدغ طموحك فإن هذا وحده ربّما كان إكراهاً لابنتك على الانحراف، وأنا أعرف إنساناً كلّما جاء خاطب بحث عن أحسن، إلى أن هربت ابنته مع صديق، وتزوّجها كرهاً وقهراً عن أبيها، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا)

أي إن وضعتم العراقيل، وضعتم الشروط التعجيزية أمام خطّاب بناتكم فربّما أدّى ذلك إلى أن ينحرفن، وأن تزل أقدامهن.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((حق الولد على الوالد أن يُحسِن اسمه، ويعلّمه الكتابة، ويزوجه إذا بلغ))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة، وفي سنده ضعف]

حينما تزوجه تحصّنه، ومن تزوج فقد ملك نصف دينه، فليتق الله في النصف الآخر، لذلك أي أب بإمكانه أن يزوج أولاده ولا يفعل فهو عند الله آثم.

وأقول لكم كلمة أخرى، واسمحوا لي أن أقولها: أيّ أبٍ إذا وَهَبَ لابنته بيتاً صغيراً يأتيه أفضل خاطبٌ لها، إذا كان زواج ابنته متوقفاً على أن يؤمّن لها بيتاً يختار من بين الخطّاب ما يشاء، البيت مشكلة كبيرة جداً، فأن تهب لها بيتاً في حياتك، وأن يكون هذا البيت سبباً في زواجها فإن هذا عملٌ طيّبٌ جداً، والعبرة أن لا تغادر الدنيا إلا وقد قرّت عينك بأولادك ذكوراً وإناثاً، وحينما تزوج ابنك قطعت عليه تسعة أعشار طريق الانحراف.. **" من تزوج فقد ملك نصف دينه فليتقي الله في النصف الآخر "**.. هذا تعلقي على قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((وليزوجه إذا بلغ))

أنا الآن أقول لكم: أنا من أنصار الزواج المُبَكِّر، لأن وضع العالم فسادٌ عريض، نساءٌ كاسياتٌ عاريات، مائلاتٌ مميلات.. فلابدّ من أن تحصّنوا شبابكم بالزواج، لابدّ من أن نفكِّر تفكيراً جمعياً بتأمين بيتٍ صغير، غرفةٍ ومنافعها، يجب أن نفكِّر تفكيرا جديا في تأمين البيوت للشباب، أنا والله كلّما أرى أباً باع بيتاً في دمشق، وسكن هو وأولاده خارج دمشق من أجل أن يزوِّجَهُم، أنا أراه بطلاً، أعرف أناساً كثيرين يسكن في أرقى أحياء دمشق، باع بيته واشترى أربعة بيوت بثمن بيته، وزوّج أولاده، هذا عند الله بطل، لأنه أحصنهم جميعاً، هؤلاء الأولاد حينما يرون أباهم حريصاً هذا الحرص يحترمونه احتراماً لا حدود له، أما إذا تنعّم الأبُ ببيتٍ واسع، وأكل أطيّب الطعام، وشرب أطيّب الشراب، وارتدى أجمل الثياب، وأولاده يحتاجون إلى غرفة يتزوجون فيها، ولا يعنيه أمرهم فهؤلاء الأبناء يتمنون موت أبيهم، إذا جاء الطبيب إليه، وقال لهم: قضيته بسيطة جداً عرضية، فإنهم يتألّمون ويقولون: ليتها كانت غير عرضية..

(يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ)

(سورة الحاقة)

لذلك إن أردت أن يحبك أولادك، وأن يتمنّوا بقاءك فوقهم فكن محسناً إليهم، هذه مسؤولية الآباء.. أقول لكم هذه الكلمة أيها الإخوة: لو لم يكن لك من عملٍ على الإطلاق إلا أنك ربّيت أولادك، وحصّنتهم بالزواج، والله الذي لا إله إلا هو هذا العمل وحده كافٍ لدخولك الجنّة، ليس لك عملٌ آخر إلا أن أولادك ذكوراً وإناثاً ربّيتهم، وعرّفتهم بربهم، وحصّنتهم بالزواج، ثم غادرت الدنيا، فإن هذا العمل ليس له جزاءٌ إلا الجنة.. انتبهوا.. إن دخلت البيت فهناك ألف طريقٍ يوصلك إلى الله وأنت في بيتك، قبل أن تخرج إلى السوق وأنت في البيت، الإنسان جنّته بيته، وأهله أولاده وزوجته، فإذا كان حريصاً على دينهم، على استقامتهم، على صلاتهم، على تفقيههم أمر دينهم، على تعليمهم القرآن، على حملهم على طاعة الواحد الديّان، إذا كان كذلك فالطريق إلى الله سالك.

تربية الأولاد على الدين:

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا مِنْ نَحْلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ))

[الترمذي عن عمرو بن سعيد بن العاص، وهو مرسَل]

هذا كلّه ينطوي تحت قوله تعالى:

(قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

أي آن الأوان أن تخرج من ذاتك إلى خدمة الخَلق، ومن أقرب الناس إليك ؟ أهلك الذين في البيت، أقول لكم هذه الكلمة: الآخرون أنت لهم وغيرك لهم، أما أهلك وأولادك فمن لهم غيرك ؟ الآخرون أنت لهم وغيرُك لهم، فإن لم تتقدّم أنت تقدّم غيرك، إن لم تعاون أنت عاوَن غيرك، أما هؤلاء الذين في البيت فمن لهم غيرك ؟ من يعرفهم إلا أنت ؟..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

لا يُقبَل منك أن تنجو بنفسك من النار، وهذا ليس من الوفاء أن تعاشر امرأةً أربعين عاماً، قد اهتديت إلى الله، وأدّيت الصلوات الخمس، وأقبلت على الله، ولم تبال بدينها، لا تصلي، أيعقل أن تراها لا تصلي وأنت ساكت ؟ أيعقل أن تراها متبذّلة وأنت ساكت ؟ أيعقل أنها تُقيمُ على معصيةٍ أمامك وأنت ساكت ؟ أهذا وفاءٌ مع زوجتك ؟ هذه التي عاشت معك أربعين عاماً تدعها إلى النار ؟ لذلك الأمر الإلهي:

(قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

نريد بيوتا مسلمة، أنا أقول لك هذه الكلمة: أنت في دائرتين ملِكٌ فيهما ؛ بيتك وعملك، لو أن كل مسلمٍ أقام الإسلام في بيته وفي عمله لكنّا في حالٍ غير هذا الحال، بيتك وعملك أقم فيهما الإسلام، وتنتهي

مهمتك، ولست مكلّفاً أكثر من ذلك، هؤلاء الذين جعلهم الله تحت يدك، وتحت توجيهك، هؤلاء الذين أناطهم الله بك، وجعل إنفاقهم عليك، هؤلاء الذين أهلك وخاصّتك..

((فَعَلَيْكَ بِخَاصّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ الْعَوَامّ))

ورد في الحديث الشريف:

((حَتّى إِذَا رَأَيْتَ شُحّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ الْعَوَامّ))

[الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني]

من هم خاصّة نفسك ؟ أهلك وأولادك، وإخوتك وأخواتك، وأبوك وأمك، وعمّاتك وخالاتك، وجيرانك وأقرباؤك، وأصدقاؤك وزملاؤك، هؤلاء خاصّة نفسك، لذلك الدعوة إلى الله فرض عين على من ؟ فرض عينٍ على كل مسلم من دون استثناء، الدليل:

(وَالْعَصْرِ(1)إِنّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ)

(سورة العصر)

التواصي بالحق أحد أركان النجاة، لا تنجو من الخسارة المحققة إلا بالتواصي بالحق، إنك إن تواصيت بالحق وَسّعْتَ دوائر الحق، وضَيّقْتَ دوائر الباطل، أما إذا سكتت نما الباطل، وضيّق على الحق. شيءٌ آخر.

(هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتّبَعَنِي)

(سورة يوسف: الآية 108)

إن كنت متبعاً لرسول الله فإنك تدعوا إلى الله على بصيرة، الدعوة المتاحة الآن لك خاصّة نفسك. عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ))

[أبو داود] يا الله، هذا كلامٌ مختصرٌ مفيد..

((مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ))

وفي حديثٍ آخر عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ الرّبِيعِ بْنِ سَبْرَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدّهِ قَالَ: قَالَ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مُرُوا الصّبِيّ بِالصّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ، وَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا))

لذلك:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتّقْوَى)

البيت بين نسمات الرزق والرحمة وأخطبوط الخيانات والفتن:

ما علاقة الأمر بالصلاة والرزق ؟ العلماء استنبطوا أن البيت الذي يُصلي أهله مرزوق، وأن البيت الذي يؤْمَر أهله بالصلاة مرزوق، وأن البيت الذي تقام فيه شعائر الدين مرزوق، وأن البيت تكون فيه الأعمال الصالحة مرزوق، وأن الأب إذا انشغل بالأمر بالصلاة لأولاده فإن الله يتكفّل له برزقه، هذه بشارة:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ)

والله سمعت عن أسرة نرجو الله أن نكون مثلها، يستيقظون قبل الفجر جميعاً يصلون قيام الليل، ثم يؤذِّن الفجر فيصلون الفجر جماعةً، ثم لهم أورادٌ يذكرون الله فيها، وبعدها ينطلق كلٌ إلى عمله، البيت ينتهي الساعة السابعة تنظيفاً وترتيباً، الطعام يُعَد الساعة السابعة والنصف ينطلق كل أفراد الأسرة.. طبعاً الذكور.. إلى أعمالهم، وقد أدوا ما عليهم من قيام الليل، ومن صلاة الفجر، ومن الذكر، ومن الأعمال الطيّبة، مثل هذا البيت ماذا تتوقّع أن يكون فيه ؟ جنّة، بيتٌ تؤدّى فيه الصلوات، أما إلى الساعة الثانية مسلسلات، فهذا صار شيئا آخر، ودخلنا في عالمٍ آخر..

قال لي مرّة أحدهم: هناك مسلسل واحد فيه ثلاثة عشر خيانة زوجية، ماذا يتعلّم الناس من هذه المسلسلات ؟ الخيانات، الانحراف، الاختلاط، التبدُّل، لذلك البيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن، ولا تؤدّى فيه الصلوات هذا بيتٌ خرب، هذا بيتٌ عشعش فيه الشيطان، لذلك بلا سبب مبرر ترى مشكلات في البيت لا تنتهي ؛ خصومات، تصرُّفات قاسية جداً، دائماً المشاحنات، البغضاء، الخصومة، لأتفه سبب تُطلّق المرأة، لأتفه سبب تُضرَب المرأة، الزوج في واد، والزوجة في واد، والأولاد في واد، هذا بيتٌ يسكنه الشيطان، لا تؤدّى فيه الصلوات، لا يُتلى فيه القرآن، اجعل بيتك مسجداً، اقرأ القرآن، أذكر الله عزّ وجل..

أنا أذكر أنّ بعض الإخوة المؤمنين يأتون إلى بيوتهم كما يقولون: دخولهم إلى البيت عيد، والتفاف أولادهم حولهم عيد، والوفاق الذي بينهم وبين زوجاتهم عيد، هذا هو العيد، أن تسعد بأهلك، أنا أركِز على هذا..

آية اليوم..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

معنى: وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ

(وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

لها معانٍ كثيرة..

أن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله.. في الجاهلية يوم جاء النبي عليه الصلاة والسلام بالإسلام فرأى قومه يعكفون على أصنامٍ لهم.. قال:

((هذه النار وقودها الناس والحجارة، هذه الأصنام في النار))

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

(سورة الأنبياء)

أراد الله جلّ جلاله أن يبيّن لنا شدّة النار، كلكم يعلم أن الأفران كلّها تُصنَع من حجر أسود، أرض الفرن حجر أسود، فما قولك بهذا الحجر إذا ذاب من شدّة الحر ؟ إذاً: ما حرارة هذه النار ؟ أنا سمعت أن الرصاص يذوب في درجة مائة، أما الحديد فلا يذوب إلا في درجة ألف وخمسمائة، أما حجر البازلت الأسود فلا يذوب إلا في ثلاثة آلاف درجة، هل تصدِّق أن ترى حجراً أسوداً يسيل كالماء من شدّة الحر ؟ هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

أنا أريد أن يقف الإنسان موقفاً واضحاً، هذا كلام الله، إذا كنت مصدِّقاً لما فيه كيف تعصي الله ؟ هذا كلام حقيقي أم تخويف ؟ قف موقفاً واضحاً، هذا الكلام حقيقي أم تخويف ؟ هل يليق بالله أن يخوّفنا دون أن يفعل شيئاً ؟ هذا لا يليق بمقام الله عزّ وجل، هذا كلام الله، هذا مصير كل عاصٍ أو كل كافرٍ..

(قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

حقيقة مهمة:

أيها الإخوة الكرام... هذه المشاهد.. مشاهد يوم القيامة.. لها حكمةٌ بالغة، الذي سيكون وَضّحَهُ الله لنا قبل أن يكون لنكون على بينةٍ من أمرنا، هذا مشهد من مشاهد يوم القيامة.

أختم هذا الدرس بهذه الحقيقة وأنا ذكرتها مئات المرّات: مهما بلغت من درجات العلو في الدنيا، فما هي الأشياء المستحيلة ؟ أن تكون أغنى أغنياء العالم ؟ أن تكون أقوى أقوياء العالم ؟ أن تحتلّ أرفع منصبٍ في العالم ؟ صَدِّق أو لا تصدِّق إن كان أولادك أشقياء تشقى بشقائهم، ولو بلغت قمّة المجد في العالم،

ولن تسعد إلا بأولادٍ أتقياء أطهار، وهذا يحتاج إلى جهدٍ كبير، ليكن ابنك معك دائماً، ائت به إلى المسجد، راقب أصدقاءه، راقب أين يذهب، ومن يصاحب، ممن تعلّم هذه القصّة، أين سهر هذه الليلة، لابدّ من أن تراقبه لأن إثمه متعلِّقٌ بك، لذلك تسعد بسعادة أولادك، تشقى بشقائهم، وهذا الكلام دقيق جداً، وأنا أقوله كثيراً، لأنه جزء أساسي من إيمانك تربية أولادك، ليكونوا امتداداً لك، ليكونوا استمراراً لك، فالأولاد أفلاذ الأكباد، فإن شقوا شقي الآباء بشقائهم.

أيها الإخوة... تكفينا هذه الآية، ولتكن منهجاً لنا في حياتنا، ليلتفت كلٌ منّا إلى بيته، إلى زوجته، إلى أولاده، ليُقِم الإسلام في بيته، وفي عمله، وعلى الله الباقي، لا نطالبكم إلا بهذا، أقم الإسلام في بيتك، ودع عنك أمر العامّة، أقمه في عملك، ودع عنك أمر العامّة، لو فعلنا هذا لكنّا في حالٍ غير هذا الحال إن شاء الله تعالى، وبإمكانك أن تصل إلى الجنة من خلال بيتك، من بيتك فقط بإمكانك أن تصل إلى أعلى مراتب الجنّة إذا كنت أباً صالحاً، أو زوجة وفية مخلصة، أو ابناً بارّاً، أو أخاً يعين إخوته على طاعة الله عزّ جل.

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى نتابع هذه الآيات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة التحريم: الآية 7)

خاتمة:

حينما أرى إخوتنا الكرام معهم أولادهم الصغار أشعر بسعادةٍ لا توصف، ابنك يجب أن يكون معك، يجب أن يألف المساجد، وهو في سنٍّ صغيرة، يجب أن يرى في المسجد كل تكريم، أنا أتألّم أشدّ الألم إذا وقف صبيٌّ في صفٍ من الصفوف، وأرجعه أحدٌ إلى الوراء، أتألّم أشدّ الألم، في أيّ صفٍّ وقف يجب أن يبقى في مكانه، ورد عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قُدّم له شراب، وكان عن يمينه غلامٌ صغير، وعن شماله شيخٌ كبير، فقال:

((يا غلام، أتأذن لي أن أسقي الشيخ الذي عن شمالي ؟ فقال: لا والله، لا أأذن له إنه حقّي))

[ورد في الأثر]

أرأيتم إلى هذه التربية ؟ غلامٌ يجلس إلى جنب رسول الله من حقِه أن يشرب بعده، لم يتنازل عن حقِه لغيره، الطفل ينبغي أن يكون في المسجد مُعَزّزا مكرّما، يجب أن يحبُّ المسجد، يجب أن يأتيه طوعاً، فلو أن الأب كافأه على ذهابه إلى المسجد بهديةٍ أو بشيءٍ محبّبٍ يكون قد ساهم في هدايته وهو لا يدري، يجب أن تكرّمه إذا كان في المسجد.

أنا أعلم أُناساً كثيرين إذا جاء ابنهم إلى المسجد يقيمون عليه النكير، أما إذا ذهب إلى الملاهي، وفعل الموبقات فلا شيء عليه، يقولون: هو يعيش وقته، أما إذا عرف الله في المسجد خافوا عليه عندئذٍ، خافوا عليه أن يستقيم، ولم يخافوا عليه أن ينحرف.

بالمناسبة هذا كلام خطير: الأب الذي يظهر من أولاده صلاحٌ وهداية، وليس راضياً عن هدايتهم وصلاحهم فليس له أجرٌ إطلاقاً في صلاحهم، لأنه ما أراده لهم، أراد عكس ذلك، وليس للإنسان إلا ما سعى، يقال له: أنت لم تسع إلى هذا، أنت رفضت هذا الاتجاه، وما كل أبٍ يثاب على تربية أولاده، فإذا نشأ الابن على طاعة الله، ولم يرض أبوه هذا الاتجاه فليس له أجر إطلاقاً، أما إذا حرص الأب على هداية ابنه، واهتدى ابنه إلى الله فله كل الأجر..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

(سورة الطور: الآية 21)

أي إن أعمال ذريّاتهم ألحقناها بهم.

(وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

(سورة الطور: الآية 21)

نحن أمامنا أبوابٌ واسعةٌ جداً مفتّحةٌ في بيوتنا إلى الجنة، اعتنوا بأهليكم وأولادكم ومن يلوذ بكم، وليكن شعار كل واحدٍ منّا أن يكون في المسجد مع أولاده، مع إخوته وأخواته، مع جيرانه وأقربائه، مع شركائه، مع زملائه، مع أصدقائه، كما هداه الله عزّ وجل فليأخذ بيدهم إلى الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التحريم 066 - الدرس (4-5): تفسير الآية 8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-02-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الرابع من سورة التحريم، ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة التحريم)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا

1 ـ التوبة النصوح بعد كل ذنبٍ:

أيها الإخوة الكرام، الذين آمنوا بالله، وآمنوا بكماله، وآمنوا بوحدانيته، وعرفوا سر وجودهم وغاية وجودهم، وعرفوا أنّهم خلقوا لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، هؤلاء الذين آمنوا يأمرهم الله عزّ وجل أن يتوبوا إليه كلما انحرفوا عن طريق الحق.

بشكلٍ أو بآخر، بشكلٍ بسيط مركبة مصممة لطريقٍ مُعَبّد كل ما فيها يعمل بانتظامٍ إذا كانت على هذا الطريق المعبد، مريحة، تنقلك من مكانٍ إلى مكان، فإن خرجت عن الطريق المُعَبّد إلى طريقٍ وعر تكسرت، وأصابها العطب، وليس هناك من حل إلا أن تعيدها إلى الطريق المعبد، فالتوبة تعني الرجوع إلى الله عزّ وجل.

2 ـ التوبة رجوع إلى أصل الفطرة:

أنت مصمم ومفطور، وجبلّتك تقتضي أن تكون مع الله، أن تكون مطبقًا لتعليمات الصانع، هذه النفس الإنسانية، وهذا الجسم الذي هو وعاء النفس لا تستقيم أجهزته، كما أن النفس لا يستقيم أمرها إلا إذا كانت وفق منهج ربها..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ)

الإنسان مخيّر، والإنسان فيه شهوات، وهو مخلوقٌ مكلّف، مخلوقٌ مكرم، أعطاه الله العقل، جبله جبلةً عالية، فطرةً سليمة، منحه حرية الاختيار، أودع فيه الشهوات، جعل له منهجاً يسير عليه، إذا غلبته شهوته فخرج عن منهج ربه اختل توازنه، نقول له: ارجع إلى ما كنت عليه، عُدْ إلى طريق الله، عد إلى باب الله، عد إلى فطرتك، عد إلى أصل عقلك، عد إلى منهج ربك.

بشكلٍ مبسط: شيء مصمم على أن يكون على هذا الطريق، كل ما في هذه المركبة من أجهزة لا تعمل بانتظام إلا إذا كانت على طريقٍ معبد، فإذا خرجت عن هذا الطريق المعبد إلى طريقٍ وعر اضطربت وأصابها الخلل وتكسرت، أول عمل حقيقي أن نعيدها إلى الطريق الصحيح، فأصل التوبة أن مخلوقاً أعطاه الله عقلاً، وفطره فطرةً عالية، أودع فيه الشهوات، جعله مخيراً، أعطاه منهجاً، خلقه ليعرف ربه، وليحمل نفسه على طاعة ربه، لكن في ساعة غفلة زلت قدمه خرج عن منهج الله، استخدم الشهوات لغير ما خلقت له، ماذا نقول له ؟ لابدّ من أن تعود إلى الله، لابدّ من أن تلجأ إليه، التوبة عودة كالقطار المصمم ليمشي على سكة، فتصميم القطار أن يمشي على سكة، فإذا خرج عن سِكّتِهِ فينبغي أن نعيده إلى هذه السكة، هذا كل ما في الأمر، التوبة الرجوع إلى الله عزّ وجل.

3 ـ فرحُ الله بتوبة العبد:

أيها الإخوة الكرام، الله جلّ جلاله في نصوص كثيرة ذكر أنه يفرح إذا تاب العبد إليه توبة نصوحاً:

((لله أفرح بتوبة عبده، من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[كنز العمال عن أبي هريرة]

النبي عليه الصلاة والسلام وصف أعرابياً على ناقته، وعليها طعامه وشرابه، يقطع بها الصحارى، جلس ليستريح فاستيقظ فلم يجد الناقة، فأيقن بالهلاك، فجلس يبكي ثم يبكي حتى أدركه التعب فأخذته سنةٌ من النوم، استيقظ فرأى الناقة أمامه، من شدة فرحه اختل توازنه فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمّ قَالَ مِنْ شِدّةِ الْفَرَحِ: اللّهُمّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدّةِ الْفَرَحِ))

[مسلم]

أنت لا تعلم أيها المؤمن حينما تعود إلى الله أن الله يفرح بك، فإذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.

الحقيقة أيها الإخوة لا تستحق أن يقال لك: هنيئاً، وأن يشد على يدك إلا إذا اصطلحت مع الله، فلو أنك اشتريت بيتاً فخماً فهذا البيت سوف تتركه، لو أنك اقتنيت مركبةً فخمةً لابدّ من أن تتركها، لو أنك تسلمت منصباً رفيعاً لابدّ من أن تتركه، فالتهنئة الحقيقية حينما تصطلح مع الله، لأن التائب عاد إلى أصل عقله، عاد إلى أصل فطرته، عاد إلى منهج ربه، عاد إلى طريق سعادته، عاد إلى طريق سلامته، فلذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

أوصافُ التوبة النصوح:

1 ـ التي لا رجعة فيها إلى الذنب:

أيها الإخوة الكرام... التوبة النصوح وصفها العلماء بأوصافٍ كثيرةٍ جداً، من هذه الأوصاف كما قال الإمام القُرطبي: **" التوبة النصوح هي التوبة التي لا رجعة فيها "**، هل يُعْقَل أن يعود الحليب إلى الضرع ؟ كما أنه لا يعقل أن يعود الحليب إلى الضرع، لا يعقل أن يرجع التائب عن ذنبه، لابدّ من أن يعود التائب إلى الله عزّ وجل دون أن ينقض توبته.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ)

التوبة النصوح هي التوبة التي لا عودة بعدها كما لا يعود اللبن إلى الضَرع، طفلٌ خرج من بطن أمه هل يعود إليه ؟ التوبة النصوح أن تترك الذنب، وأن لا تعود إليه كما لا يعود الطفل إلى رحم أمه، وكما لا يعود الحليب إلى ضرع البقرة، هذا معنى التوبة النصوح، هذا هو أول معنى.

2 ـ الصادقة الناصحة الخالصة:

المعنى الثاني: التوبة النصوح التوبة الصادقة الناصحة الخالصة، أي أنه أقلع عن هذا الذنب كُلِياً دون أن تراوده نفسه أن يعود إليه.

3 ـ بغض الذنب الذي عصى ربه به:

التوبة النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبّه، وأن يستغفر منه ربه، فإذا كان الذنب محببا للإنسان فتوبته ليست نصوحا، ما دام الذنب محبباً له فالتوبة ليست نصوحةً كما قال الله عزّ وجل، أن يبغض الذنب الذي عصى ربه به أن يبغضه بعد أن كان أحبه من قبل.

4 ـ الخوف من عدم قبول التوبة:

التوبة النصوح من شدة خوف العبد من الله يتوب من الذنب، وهو يخاف ألا يقبل الله توبته، فهو على وَجَل، من شدة معرفته بالله، من شدة خوفه من الله يتوب من هذا الذنب، ويخاف ألا تقبل توبته.

5 ـ عدم الحاجة إلى توبة أخرى:

وقيل: التوبة النصوح هي التي لا يحتاج معها إلى توبةٍ أخرى، ما دام تبت من هذا الذنب، اضطررت بعد حين أن تتوب منه ثانيةً، هذه إذاً ليست توبةً نصوحًا، التوبة النصوح هي التوبة التي لا تحتاج بعدها إلى توبةٍ أخرى، أي أقلعت عن الذنب إقلاعاً كلياً ،

وقيل: التوبة النصوح هي الندم بالقلب.

أركان التوبة: علمٌ وحالٌ وسلوكٌ:

إخواننا الكرام، التوبة فيها أركان ثلاثة فيها علم، وفيها حال وفيها سلوك، علمٌ وحالٌ وسلوك.

1 ـ العلمُ:

لماذا ينبغي أن تحضر مجالس العلم ؟ هناك إنسان ضغطه مرتفع فكيف يُخَفِّضُهُ ؟ كيف يذهب إلى الطبيب ؟ كيف يتناول العقاقير المناسبة ؟ كيف يُطَبِّق تعليمات الطبيب إن لم يعرف أن ضغطه مرتفع ؟ فلابدّ من أن تعرف أنك مذنب، كيف تعرف أنّك مذنب ؟ إذا عرفت أمر الله ونهيه، إذا عرفت الحلال والحرام، إذا عرفت الخير والشر، إذا عرفت ما ينبغي وما لا ينبغي، إذا عرفت الحق من الباطل، لا يمكن أن تتحرك نحو الله قبل أن تعرف الله، لذلك التوبة أول أركانها العِلم، والعلم فريضة، فإنّك بالعلم تعرف موقعك من الدين، فهؤلاء الذين لا يطلبون العلم يرتكبون أكبر المعاصي، فإن سألتهم يقولون لك: ماذا فعلنا ؟ لم نفعل شيئاً، كإنسان لم يتعلم اللغة العربية إطلاقاً، وقرأ نصّا، وارتكب مع كل كلمة غلطة،

يقول لك: هل تجد أروع من هذه القراءة ؟ لأنه لا يعرف اللغة العربية كل كلمةٍ قرأها قراءةً غير صحيحة، ومع ذلك يظن أنه يقرأ قراءة صحيحة، أما لو طلب العلم، وتعلم قواعد اللغة لحاسب نفسه على حركة واحدة في نص طويل.

إذاً: إنك لن تتوب إلا إذا عرفت موقعك من الدين، ولم تعرف موقعك من الدين إلا إذا طلبت العلم، وحينما يكون الإنسان مع الجماعة المؤمنة يعرف الحلال والحرام، الخير والشر، ما ينبغي وما لا ينبغي، أما إذا شرد وحده فإنه يفتي لنفسه، ويتصوّر لنفسه تصورات ما أنزل الله بها من سلطان، يقول لك: ماذا نعمل ؟ أنا ألتقي مع أناسٍ كثيرين، أنا أعلم علم اليقين أنهم غارقون في أكثر المعاصي، يقولون لك: نحن مستقيمون، لأنه ما طلب العلم، ولم يعرف موقعه من الدين، ولا عرف الحلال والحرام، ولا الخير والشر، ولا ما ينبغي، وما لا ينبغي.

لذلك التوبة النصوح من أركانها أن تتعلم، إن تعلمت عرفت أنك مذنب أو غير مذنب، عرفت أنك على حق أو على باطل، عرفت أنك على المنهج الصحيح أو المنهج غير الصحيح، عرفت ما إذا كان دخلك حلالاً أو حراماً، عرفت ما إذا كان إنفاقك حلالاً أو حراماً، هذا لا تعرفه إلا إذا طلبت العلم.

2 ـ الحال والعمل:

الشيء الثاني أن الإنسان إذا علم أنه على غلط، وأنه في طريق غير صحيح يتألّم لحرصه على نفسه، ولحبه لوجوده، وحبه لسلامة وجوده، وحبه لكمال وجوده، وحبه لاستمرار وجوده يتألم، إذا لم يكن هناك تألم لم تكن هناك توبة، لأن العلم يورث حالاً، والحال يورث عملاً.

بشكل مبسّط: رجل يمشي في بستان فرأى أفعى، إن تصورتها قضيباً فإنك لا تخاف، ولا ينشأ عندك حال، أما لو رأيت هذا القضيب يتلوّى ـ أعوذ بالله ـ معنى ذلك أنها أفعى، فإن علمت أنها أفعى اضطربت، والاضطراب دليل سلامة الإدراك، فإن كان الإدراك صحيحاً صار عندك حال، وخوف، واضطراب، ووجل، وإذا كان الاضطراب صحيحا والحال صحيحا كان هناك حركة، فإما أن تقتلها، وإما أن تولي هارباً منها، هذا قانون: إذا صح الإدراك، صح الانفعال، صح السلوك، تدرك، تنفعل، تتحرك، هذه أركان التوبة، علمٌ، وحالٌ، وعمل.

طالب العلم فضله عظيم:

أيها الإخوة، لابدّ من أن تطلب العلم، لابدّ من أن تعكف على طلب العلم، لابدّ من أن تجلس على ركبتيك لتعرف منهج ربك، وما من إنسانٍ أكثر تقديساً في الدين من طالب العلم، فعَن أَبِي الدّرْدَاءِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنّةِ، وَإِنّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنّمَا وَرّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))

[الترمذي]

إذا خرجت من بيتك تبتغي أن تعرف الحق، أن تعرف أمر الله ونهيه، هذا الطريق ينتهي بك إلى الجنة إن شاء الله، فإن طالب العلم عند الله كبير، وعند الناس كبير، لأن رتبة العلم أعلى الرتب، إذاً العلم هو الذي يعرّفك بموقعك من الدين، هناك خطأ وصواب، دخل حرام ودخل حلال، يا ترى العين اتقيت بها الله، هناك إطلاق بصر وغض بصر، وسماع غناء وكف عن سماع الغناء، تتغنى بالقرآن، تتغنى بغير القرآن، البيت إسلامي، غير إسلامي، الدخل، العمل، إنفاق المال، كسب المال، كيف تعرف أنك على حق إن لم تطلب العمل ؟ العلم الصحيح يعقبه حال صحيح، وندم.

الندم على ارتكاب الذنب توبة:

قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((النّدَمُ تَوْبَةٌ))

[ابن ماجه]

فهذا الحال الندم، والندم توبة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، فلو أن إنسانًا ارتكب معصية فسببت له أوائل مرض عُضال، ندم أشد الندم على أن مرضاً أصابه، فتاب عن هذا الشرب مثلاً، هل يقال لهذا: تائب ؟ لا، لم يتب من هذا الذنب على أنه معصية، بل تاب منه لأنه أضر بجسمه، فليس كل ندم توبة، الندم إذا كان على شيءٍ تفعله على أنه معصية هذا هو الندم، ندمت على أنك عصيت الله فقط، أما الذي يفعل شيئاً يسبب له ألماً في جسمه، أو قرحة في معدته، أو ورماً في جلده، ثم يقلع عن هذه المعصية لأنه أصيب بمرض عضال، يقال: هذا ندم على شيءٍ فعله لا لأنه معصية، بل لأنه أضر بجسمه، ينبغي أن يكون الندم على معصيةٍ حصراً.

الشيء الآخر.. أحياناً الإنسان يرتكب المعاصي إلى أن يمل منها، فالذي يدَع المعصية مللاً ليس هو التائب، وهناك أشخاص كثيرون يفعلون الموبقات إلى أن يملوا، ثم يقلعون عن هذه الموبقات لا لأنهم عرفوا الله وخافوا منهم، بل للملل، فليس من ترك المعصية مللاً هو التائب، وليس من ترك المعصية لأنها أضرّت بجسمه هو التائب، الذي يدعُ المعصية ويندم عليها أشد الندم لأنه عصى الله فقط هو التائب، هذه ناحية مهمة جداً.

التوبة الأولى سهلة، وتكرارها صعب:

الحقيقة.. حقيقة أقولها لكم: أهون توبةٍ أن تتوب أول مرة، الصلح بلمحة، فإذا كان الإنسان مرتكبا المعاصي، وقال: يا رب، لقد تبت إليك، يشعر أن الله قبل توبته، وأنا يا عبدي قد قبلت، إلا أن المشكلة أن الذي يتوب مرة ثانية من ذنبٍ واحد يشعر بضعفٍ أمام الله عزّ وجل، فإذا تكرر صارت التوبة عليه أصعب من نحت جبلٍ بإبرة، فالتوبة أول مرة سهلة جداً، مهما يكن الذنب كبيراً.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: الآية 53)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ قَالَ:

((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ مَا كَانَ فِيكَ، ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ إِنْ تَلْقَانِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا لَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً بَعْدَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ إِنْ تُذْنِبْ حَتَّى يَبْلُغَ ذَنْبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَسْتَغْفِرُنِي أَغْفِرْ لَكَ وَلَا أُبَالِي))

[أحمد]

أما المرة الثانية فأصعب بكثير، المرة الثانية أصعب وأصعب، فالإنسان لا يقيس على أول توبة، أول توبة سهلة، هو مقيم على معصية، تاب منها، في ثانية شعر أن كابوساً قد أزيح عن صدره، وشعر كأن جبالاً أُزيحت عن صدره، وشعر براحة، وبخفّة، وبسرور، وبطمأنينة، والله يتجلى على قلبه، هذه أول مرة، إذا كنت صادقاً في التوبة فليس بينك وبين الله حجاب، أما المرة الثانية إذا عاد الإنسان إلى الذنب مرةً ثانية يشعر أن التوبة الآن أصبحت أصعب من ذي قبل، فكلما كرر الذنب كانت التوبة أصعب، هذه قاعدة.

لو فرضنا إنسانا وقع في الذنب، وتاب منه، ثم اقترفه مرة ثانية، ماذا نقول له: وأتبع السيئة الحسنة تمحها، لم يعد يكفيه أن يقول: يا رب تبت إليك، يجب أن تتوب إلى الله، وأن تعمل عملاً يرمم هذا الذنب، هذه قاعدة: إذا وقعت في ذنبٍ مرّتين في المرة الثانية لا تحتاج إلى أن تتوب فقط، تحتاج إلى

عملٍ صالح، إلى صدقةٍ، إلى برٍ، إلى إنفاقٍ، إلى إحسانٍ، إلى صيامٍ، من أجل أن يكون هذا الذنب الذي فعلته ثانيةً قد رمم وقد محي.

العلماء قالوا: لو أن إنسانا تاب عن معصيةٍ، وفي النوم رأى نفسه يفعلها وهو مسرور، نقول له: هذه التوبة ليست نصوحا، لأنها لم تتغلغل في أعماق النفس، فهو بعقله باطل يتمنى أن يفعل هذه المعصية، التوبة قُبِلَتْ، ولكن التائب ضعيف.

إذا ندم الإنسان على شيءٍ سبب له مرضا، فهذا الندم ليس توبةً، وإذا ترك الإنسان المعصية مللاً، هذا الترك ليس توبةً، وإذا وقع الإنسان في الذنب مرتين صارت التوبة أصعب من الأولى، ماذا بقي علينا ؟ بقي علينا أنك إذا خِفْتَ من الله عزّ وجل، وكَبُرَ عليك أن تعصيه، وأقلعت عن الذنب، وندمت عليه بعد أن علمت أنك لست على حق، هذه هي التوبة التي أرادها الله عزّ وجل.

أيها الإخوة الكرام، إن الإنسان إذا وقع في الذنب، وتاب منه فوراً فالتوبة سهلة جداً، أما إذا طال عليه الأمد وقسا قلبه قد يصعب أن يتوب، الإنسان لا يقول بسذاجة: أنا في أيّ لحظة أتوب، لا، أهون توبةٍ أن تكون بعد وقوع الذنب مباشرةً، فكلما أخَّرت التوبة صار الإقلاع عن الذنب أصعب، ويصبح الذنب جزءًا من سلوكك، وربما صعب عليك أن تدع الذنب، فلذلك قال تعالى:

(ثُمّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ)

(سورة النساء: الآية 17)

الجهل بالذنب يسهّل التوبة:

مما يسهل التوبة أن تكون جاهلاً بأن هذا الذي فعلته ذنباً:

(وَإِذَا جَاءَكَ الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرّحْمَةَ أَنّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة الأنعام)

مما يسهل التوبة أن تجهل أن هذا الذي فعلته هو ذنب.

التوبة واجبةٌ على الفور:

أيها الإخوة الكرام، التوبة واجبةٌ على الفور، فمن وقع في ذنبٍ ولم يتب منه وقع في ذنبين، الذنب الأول هو الذنب الذي ارتكبه، والذنب الثاني لأنه لم يتب من قريب، فوقع في ذنبٍ أضافه إلى الذنب.

من أوصاف التوبة النصوح:

أيها الإخوة الكرام، نعود إلى موضوع التوبة النصوح:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

1 ـ هي التوبة المقبولة من الله:

قال بعض العلماء: التوبة النصوح هي التوبة المقبولة من قبل الله عزّ وجل، وقال بعض العلماء أيضاً: التوبة النصوح هو خوف ألا تقبل، إذا خفت ألا تقبل توبتك فهذه توبةٌ نصوح، وأن ترجو أن تقبل، أن تجمع بين الخوف والرجاء، وأن تدمن على الطاعة، أن تخاف ألا تقبل، وأن ترجو أن تقبل، وأن تدمن على الطاعات، هذه هي التوبة النصوح التي أرادها الله بهذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

2 ـ نصحُ النفس بالتوبة:

وقال الإمام سعيد بن المسَيِّب: **" التوبة النصوح هي التوبة التي تنصحون بها أنفسكم "**، فلا يوجد إنسان يتوب إلا وقد نصح نفسه، التوبة النصوح هي التوبة التي تنصحون بها أنفسكم.

3 ـ الابتعاد عن رفقة السوء:

قال بعض العلماء: ويجمعها أربعة أشياء: **" الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان**، أي أن تعقد العزم على ألا تعود إليه، والشيء الرابع: مهاجرة سيئ الخُلاّن، أن تبتعد عن هؤلاء السيئين.

ذهب أحدهم إلى الحج، وأقلع عن شرب الخمر، وتاب إلى الله توبةً لا أقول: نصوحا، لأنه عاد إلى أصدقائه الذين شرب معهم الخمر، قال لي مرةً وقد التقيت به عرضاً.. قال له أحد أصدقائه: كم كلّفتك هذه الحجة ؟ قال له: خمسون ألفا، قال له: خذها واشرب الخمر، لمَ لمْ تكن توبةً نصوحاً ؟ لأنه لم يقلع عن هؤلاء الخُلاّن السيّئين، علامة التوبة النصوح هؤلاء الذين مارست معهم المعصية ينبغي أن تتبرأ منهم، أن تبتعد عنهم، أن تنضم إلى المؤمنين، أن تعيش في بيئةٍ صحيحة بمجتمعٍ سليم، التوبة النصوح الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وضمان ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الخُلاّن، هذه هي التوبة النصوح.

4 ـ استحضار الذنب:

وقال بعض العلماء: التوبة النصوح أن يكون الذنب بين عيني المذنب، دائماً ذنبه أمامه يخشى ألا تقبل توبته، فلا يزال كأنه ينظر إليه.

والتوبة النصوح كما قال بعض العلماء: أن تنقض الذنب الذي أقللت فيه الحياء من الله أمام عينيك، وتستعد للقاء الله، وأنت بريء منه.

هناك إنسان يفعل كل الذنوب ويقول: ماذا فعلت ؟ أما المؤمن فالذنب عنده كجبلٍ جاثمٍ على صدره، والمنافق ذنبه كذبابةٍ طارت أمام وجهه فأطارها.

5 ـ ضيق الأرض على المذنب:

التوبة النصوح أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، وأن تضيق عليك نفسك، بعدها تتوب توبة نصوحا، فكلما كان الألم الذي يسببه الذنب شديداً كلما كانت التوبة منه نصوحاً.

ومما يقلل قيمة التوبة، أن الذي يتوب من ذنبٍ ضّيع عليه بعض رفاهية الدنيا تركه ليعود إلى رفاهية الآخرة، هذا مما يقلل قيمة التوبة، التوبة الخالصة، لأنك عصيت الله تستحي منه، أقلعت عن الذنب لأنه معصية فقط، لا لأنه فوّت عليك مباهج الدنيا، أو ربما فوّت عليك مباهج الآخرة.

6 ـ ردُّ المظالم:

وقال بعض العلماء: التوبة النصوح هي ردُّ المظالم، فلو أن إنسانا أكل مالا حراما، مغتصبا شيئًا، يذهب إلى الحج، ويطوف حول كعبة الله، ويقول: يا رب، تبت إليك، اغفر لي ذنبي.. هذا دجل.. لا يقبل الذنب المتعلق بحقوق العباد إلا بالأداء والمسامحة، ومن توهَّم أن الإنسان إذا حج بيت الله الحرام عاد من ذنوبه كيوم ولدته أمه دون أن يؤدِّي الحقوق لأصحابها، أو أن يستسمح منهم فهذا إنسانٌ جاهل، اذهب إلى الحج متى تشاء، في أي سنة تشاء، لن تغفر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد إلا بالأداء والمسامحة، لكن الذنوب التي بينك وبين الله وحدها هي التي تُغْفَر بالحج، فالإنسان قبل أن يحج بيت الله الحرام ينبغي أن يتوب من حقوق العباد، يجب أن يؤدِّيها، أو أن يستسمح منهم عنها، لذلك قالوا: التوبة النصوح هي رَدُّ المظالم، واستحلال الخصوم، وإدمان الطاعات، هذه هي التوبة النصوح.

7 ـ قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام:

وقال بعض العلماء: علامة التوبة النصوح، قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، أي أنه دخل في مجال القرب من الله عزّ وجل، شغله القرب من الله عن كل شيء، فقلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام.

8 ـ كثرة اللوم:

والتوبة النصوح أن يكثر الإنسان التائب الملامة على نفسه، دائماً يتّهم نفسه بالتقصير.

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ(1)وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

(سورة القيامة)

هذه من علامة التوبة النصوح.

9 ـ نصحُ المؤمنين:

التوبة النصوح لا تصح إلا بنصْح المؤمنين، فأنت تبت، واستقمت، والله قبلك، وأنت ساكت لا تنصح الناس بالتوبة ؟! التوبة النصوح تنصح بها نفسك وإخوانك المؤمنين، فعلامة أنك تبت من هذا الذنب تتجه إلى خاصة نفسك، إلى من حولك، تنصحهم بالتوبة، تنصح بها نفسك وإخوانك المؤمنين، هذا من علامات التوبة النصوح.

لازلنا في التوبة النصوح التي قال الله عنها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

10 ـ البكاء ومخالفة الأهواء:

قال بعض العلماء: التوبة النصوح أن يكون لصاحبها دمعٌ مسفوح، وقلبٌ عن المعاصي جموح.
وقال بعضهم: علامتها ثلاث: مخالفة الهوى، وكثرة البكاء، ومكابدة الجوع والظمأ في الصوم..

11 ـ التوبة بالرجوع عن البدعة إلى السنة:

وقال بعضهم، وهذا من أخطر ما يقال في هذا الدرس: التوبة النصوح هي التوبة لأهل السنة والجماعة، لأن المبتدع لا توبة له، المشكلة أنك إذا أخطأت خطأً من أحد الأخطاء هذا الخطأ يغفر بالتوبة، أما إذا اعتقدت أنك على صواب وأنت مخطئ، فهذا لا يغفر.

أثرُ فساد الاعتقاد في التوبة:

عندنا ميزان، أن تخطئ في الوزن فالقضية سهلة، هذا الخطأ لا يتكرر، أما أن يكون الميزان خطأً فهذا الخطأ لا يصحح، لذلك أخطر من الذنب أن تكون مبتدعاً، أن تعتقد اعتقادا فاسداً، أن تزعم أنك على حق ولست على ذلك، الذنب إذا وقعت فيه، وعرفت أنه ذنب فالقضية سهلة جداً، تتوب منه، هذا الذنب لا يتكرر، أما إذا ظننت أنك على حق، وأنت على باطل، إذا اعتقدت اعتقادا فاسداً، إذا تعلقت بفتوى غير صحيحة، وأقمت على ذنب فمن المستحيل أن تتوب منه، فالخطورة لا في الذنب، بل الخطورة في عدم التوبة من الذنب، إذا صَحّت عقيدتك سهل التوبة من الذنب، أما إذا فسدت العقيدة صار من الصعب أن تتوب من الذنب.

مثلاً: لو قرأت الحديث الشريف الصحيح: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

[مسلم]

إن فهمت هذا الحديث وحدك من دون مَن تسأله، وظننت أنه لابدّ من أن ترتكب الذنب حتى ينقلب هذا الذنب يوم القيامة إلى عملٍ عظيم، فالذي يفهم هذا الفهم لن يتوب من ذنبه، إذا ظننت أن النبي عليه الصلاة والسلام لن يدخل الجنة إلا إذا أدخل أمّته كلّهم إلى الجنة، مطيعهم وعاصيهم، لن تتوب من الذنب، تتعلّق بشفاعةٍ ليست هي التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام، وليست التي أرادها الله عزّ وجل، بشفاعةٍ ساذجةٍ، فالمشكلة أنك حينما تخطئ في العقيدة لن تتوب من الذنب.

إذا اعتقدت مثلاً:

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران: الآية 130)

أن الله نهانا عن الأضعاف المضاعفة، لكن لم ينهنا عن الأضعاف غير المضاعفة، تأكل الربا، ولن تتوب من هذا الذنب، لأنك فهمت الآية فهماً مغلوطاً، فلذلك لمن التوبة ؟ لمن صَحّت عقيدته، لمن التوبة؟ لمن فهم كلام الله على النحو الذي أراد الله ؟ لمن التوبة ؟ لمن فهم حديث رسول الله على النحو الذي أراد النبي الكريم، أما إذا أخطأت في العقيدة فسدت عقيدتك، فسد فهمك لكتاب الله، لسنّة النبي، عندئذٍ لن تتوب من الذنب، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته))

[الطبراني عن أنس بإسناد صحيح]

تقول له: هذا غلط، هذه معصية كبيرة، يقول لك: هذا ظل وليس حقيقة، هذا خيال، فإذا كان الإنسان واقفا في شرفة ومرآة أمامه فوق المغسلة، ونظر إلى المرآة فرأى جارته في البناء المقابل بشكلٍ لا

يرضي الله، فملأ عينيه من المرآة لا من جارته مباشرة، يقول لك: هذا خيال، أنت إذاً لن تتوب من الذنب، لن تتوب منه إطلاقاً، فالخطورة ليس في أن تقع بالذنب، أن تتوهم أن هذا الذي تفعله ليس ذنباً، إذا لن تتوب منه، لذلك الحديث خطير، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته))

إذا فهمت القرآن فهما فيه ابتداع ليس كما أراد الله عزّ وجل، إذا فهمت آية الربا:

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

النهي عن الأضعاف المُضاعفة، إذاً: لن تتوب من الربا، إذا فهمت أنك إذا نظرت إلى الظل، وإلى الخيال، ولم تنظر إلى الحقيقة، هذه على الشاشة، هذه ليست حقيقة، هذه صورة، فقد تفعل الصورة أضعاف ما تفعله الحقيقة أحياناً، فحينما تفهم الذنب فهماً مغلوطاً لن تتوب منه، فكل صاحب بدعةٍ لن يتوب من بدعته، هذه هي الخطورة، أما إذا صحت عقيدتك، وصح فهمك لكتاب الله ولحديث رسول الله تبت من الذنب.

مثلاً: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى، وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ))

[مسلم]

يقول لك: ليس هذا بيدي، الله كتب علينا الزنا، فيفعل ذلك وهو مرتاح، هكذا النبي قال:

((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ))

يقول لك: ليس باليد حيلة، كاسات معدودة بأماكن محدودة، يقول لك: هذا ترتيب سيدك، أما لو فهمت الحديث كما ينبغي: كتب على ابن آدم أن ينال نصيبه من عقوبة الزنا مدركٌ ذلك لا محالة، فلن يزني، العين تزني وزناها النظر، الأذن تزني وزناها السمع، اليد تزني، اللسان يزني أحياناً.

حينما تفسد عقيدة الإنسان، وحينما يفسد فهمه لكلام الله، وحينما يخطئ في فهم حديث رسول الله، يقع في أكبر الذنوب ولا يتوب منها، وهنا المشكلة، أما إذا صحّت عقيدتك، وعرفت أنك مذنب تتوب من هذا الذنب، لذلك هذا الحديث أخطر ما يقال في هذا الدرس، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته))

المشكلة لا أن تذنب، المشكلة أن تذنب، وأن تتوهم بأنك لست بمذنب، فأخطر ما في الأمر أن تقع في أكبر الذنوب، وأن تتوهم معها أنك لست مذنباً، هذه الذنوب لا يمكن أن تتوب منها، لأنك قانعٌ أنها ليست ذنوباً، وعلى هذا أمور كثيرة جداً، الشيطان ماذا يفعل ؟ إن الشيطان يئس أن يعبد في أرضكم، أي

مستحيل، أن يعبد صنمٌ في بلاد المسلمين، مستحيل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ، وَلَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ مِنْكُمْ بِمَا تَحْقِرُونَ))

[أحمد]

لذلك: **" لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار ".**

العبرة أن تصح عقيدتك، وأن يصح ميزانك، وأن يصح منهجك، ويصح فهمك لكلام الله وسنة رسول الله، عندئذٍ قد ترتكب ذنباً، أما هذا الذنب فمعروفٌ عندك أنه ذنب، ويمكن أن تتوب منه سريعاً، أما الخطورة فأن تقع في أكبر الذنوب، وأن تقول: ماذا فعلت ؟ من الناس من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهذا شيطانٌ فاحذروه، لذلك أبى الله أن يجعل لصاحب توبة بدعة:

((إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته))

ويقول بعض العلماء: بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب، ثم يعود فيه، والعائد من توبته كالمستهزئ بربّه.

معنى كلمة: النصوح:

أصل التوبة النصوح قال: الخلوص، نقول: هذا عسلٌ ناصح أي لا شمع فيه، عسل مُصَفّى، عسلٌ ناصح أي لا شائبة فيه من شمع أو غير ذلك أي عسل مصفى، تاب الإنسان من هذا الذنب تركه كلية، إجمالاً وتفصيلاً بقَضِّهِ وقضيضه، تركه كلياً، وقال: التوبة النصوح مأخوذة من النصاحة، وهي الخياطة، كيف أن الخيّاط يجمع بين قطعتي الثوب، ويخيطهما محكماً إيّاهما، كذلك المؤمن بالتوبة يلتقي مع الطاعة ومع إخوانه المؤمنين.

وأجمل ما قيل في هذه الآية: التوبة النصوح هي التوبة التي تنصحون بها أنفسكم، أي أن ما أعظمَ قرار حكيم تتخذه في حياتك كأن تتوب إلى الله، ولا تنسوا أيها الإخوة أن الله يحب التوابين.

باب التوبة مفتوح:

هناك نقطة مهمة جداً: تصور أنه لا توبة، الناس يذنبون، ارتكب الإنسان ذنبا انتهى، طُرِد من رحمة الله، يفعل كل ذنب عندئذٍ، من أصغر الذنوب إلى أكبرها، لكن ربنا عزّ وجل جعل باب التوبة مفتوحٌ على مصراعيه دائماً.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر)

في الأثر:

((إذا قال العبد: يا رب وهو راكع، قال الله: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا رب وهو ساجد، قال الله: لبيك يا عبدي، فإذا قال العبد: لبيك وهو عاصٍ قال الله: لبيك ثم لبيك ثم لبيك))

أي أن باب التوبة مفتوح:

((ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ إِنْ تُذْنِبْ حَتَّى يَبْلُغَ ذَنْبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَسْتَغْفِرُنِي أَغْفِرْ لَكَ وَلَا أُبَالِي))

[أحمد عن أبي ذر]

بل إن الله يفرح بك إذا تبت إليه كما يفرح العقيم الوالد، والضال الواجد، والظمآن الوارد.

أيها الإخوة... باب التوبة مفتوحٌ على مصراعيه، وما علينا إلا أن نتوب، والإنسان عليه أن يتوب إلى الله دائماً، والمؤمن مذنبٌ توّاب، أما حينما يتوب من كل ذنب، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ))

[ابن ماجه]

هناك آية كريمة تقول:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة النور)

وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

لما يتوب الإنسان، وحده والمجتمع كله متفلِّت لا يقطف ثمار التوبة، أما إذا مان كل المجتمع منضبطا يقول لك: الحياة جميلة جداً، الناس جميعاً مؤمنون، أتقياء، أمناء، صادقون، نساؤهم مُحَجَّبات، الحياة مريحة جداً، فثمار التوبة اليانعة لا تقطف إلا إذا تبنا جميعاً ،

مثلاً: إنسان عنده هاتف في بيته، وله مئة صديق ليس عندهم هاتف، الهاتف أصبح بغير طعم و لا فائدة، أما إذا كان عند المئة صديق هواتف قطفت ثمار اتصال الهواتف، الكل عندهم هواتف، هذه كلمة جميعاً لها معنى جديد، نحن قد لا نقطف ثمار التوبة إلا إذا تبنا إلى الله جميعاً، كلنا منضبطون، كلنا صادقون، كلنا أُمناء، كلنا نستحي، كلنا أَعِفّة، عندئذٍ تعيش مجتمعاً هو جنة الله في الأرض، وفي الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، جنة الله في الأرض مجتمع المؤمنين، أنت مرتاح، أنت

مطمئن، كل من حولك يحبّونك، صادقون معك، أمناء، لا يغشونك، لا يخادعونك، لا يحتالون عليك، فلذلك التوبة لا تُقْطَفُ ثمارها إلا إذا كانت مجتمعةً.

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا)

إذا لم يتمكن الإنسان أن يصلح المجتمع كله، فإذا كان في جماعة مؤمنة في مسجد، وكل إخوانه مؤمنون، صادقون، مستقيمون، محبون، الحياة مع هؤلاء المؤمنين جنة الله في الأرض.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة التحريم 066 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 9 - 12
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-02-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الخامس ولعلّه الأخير من سورة التحريم، ومع الآية التاسعة وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

1 - ينبغي إيقاظ همّة الكافر والمذنب ليرجعا إلى الله:

لو أن الإنسان داهن الكافر أو جامله أو أثنى عليه، هذا الكافر والمنافق يبقى على حاله، ولا يتحرّك نحو الأحسن، لا يتحرّك نحو التوبة، لابدّ من أن توقظ عقله، فأي أسلوبٍ من شأنه أن يوقظه، أن يبصِّره بكفره أو بنفاقه، أن يدعوه إلى باب الله عزّ وجل، أن يدعوه إلى التأمُّل في الكون، إلى معرفة سرّ وجوده، إلى معرفة غاية وجوده هو الأسلوب الذي يرضى الله عنه، أما أن ترضي الناس جميعاً، أما أن تثني عليهم جميعاً، أما أن تكون مجاملاً لهم لدرجة أن أحداً من هؤلاء المنحرفين في عقيدتهم أو في سلوكهم لا ينتبه أنه على خطأ، فالعبرة أن تنقذه من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فإذا كانت القسوة، والمقاطعة أحياناً، وإيقاظ العقول، وإيقاظ الهمم سبيلاً إلى هداه فينبغي أن تفعل هذا.

فماذا نستفيد من هذه الآية ؟ لو أنّ إنساناً صديقاً، أو أخاً في أسرة انحرف أشدّ الانحراف، وبقي إخوته يثنون عليه، ويرحبّون به ويودّونه، هذا الإنسان كيف يهتدي إلى أنه على خطأ ؟ أما إذا وجد إعراضاً من أمِّه وأبيه، إعراضاً من إخوته وأخواته، إذا وجد نفسه منبوذاً لعلّه يستيقظ، لعلّه يهتدي..

قال لي بعض الإخوة الكرام: إن سبب إيماني وتوبتي إلى الله سائق سيارة، ركبت معه، ومعي مشروبٌ كحولي، فلّما رآه طردني من السيّارة، وقفت ساعة، ولم أجد مركبةً أخرى تُقِلُّني إلى بيتي، فتألّمت أشدّ الألم، وشعرت بصَغارٍ ما بعده صَغار، وكان هذا الموقف القاسي من هذا السائق سبب توبتي..

أحياناً إنسان منحرف لا ينبغي أن نضحك في وجهه، لا ينبغي أن نحترمه، لا ينبغي أن نَشُدّ على يده في أثناء المصافحة، ينبغي أن يشعر أنه منحرف عقيدةً أو سلوكاً، طبعاً هذا لا يقودنا إلى أن نعادي الناس، ولكن هذه الابتسامة الرقيقة، وهذا الود البالغ هذا لا يكون إلا للمؤمن، أما غير المؤمن فيجب أن يرى منك إعراضاً، أو تأنيباً، أو موقفاً يشعره أنه على باطل لا على حق، لعلّ هذا يكون سبباً في

هدايته.

إن الإنسان اجتماعي بالطبع، فإذا وجد نفسه أنه منبوذٌ في مجتمعٍ ما، بعيدٌ عن ودِّهم، عن ملاطفتهم لعلّه يستيقظ، لعلّ في هذا تذكرةً أو تنبيهاً إلى خطئه.

العبرة أن قلب المؤمن يتّسع للناس جميعاً، فإذا كانت الحكمة أن يصلّهم وصلهم، إن كانت الحكمة أن يقطعهم قطعهم، إن كانت الحكمة أن يعطيهم أعطاهم، إن كانت الحكمة أن يمنع عنهم منع عنهم، عطاؤه ومنعه، وصلته وقطعه، وغضبه وابتسامته موظّفةٌ كلّها في سبيل الله، موظّفةٌ كلّها في رد الناس إلى باب الله، وفي دعوتهم إلى الله.

قد يكون من الحكمة أن تكون لطيفاً في موقف، قد يكون هذا أقوى منك، فإن رأى منك مودّةً، وحسن صلةٍ لعلّ قلبه يميل، وإن كنت أقوى منه، ورأى منك إعراضاً وصدّاً لعلّه يتوب إلى الله عزّ وجل.

2 ـ الحكمةُ في استعمال الشدة واللين كلّ في موضعه المناسب:

ليس هناك قاعدة ثابتة، القاعدة الثابتة أن تجتهد في أن هذا الأسلوب يردُّه إلى الله، في أن هذا الأسلوب يُعينه على نفسه.

سيدنا عمر عندما بلغه أن أحد أصدقائه قد سافر إلى الشام، وانغمس في الملاهي، والمجون، والخمر، كتب له كتاباً رقيقاً يقول فيه: **<< أما بعد، فإني أحمد الله إليك، غافر الذنب، قابل التوب، شديد العقاب ذي الطول >>**، وذكر له عن رحمة الله وعن حكمة الله الشيء الكثير، فبكى هذا الإنسان، وحمله بكاؤه على التوبة..

ينبغي أن تجتهد، لعلّ في هذا الأسلوب إيقاظاً له، لعلّ في هذا الموقف، في هذا الوصل، في هذا القطع، في هذا العطاء، في هذا المنع، في هذا التغاضب، أو هذا التلاطف، لعلّ في أحد هذه الأساليب ما يردّه إلى الله عزّ وجل، أنت هدفك الأكبر أن تدفع الناس إلى باب الله.

أحياناً المؤمن يبالغ في مودّته، وغير المؤمن قد تجد من الحكمة أن تقاطعه، أو أن لا تجامله، أو أن لا تداهنه، تجد من الحكمة أن تكون جافّاً في معاملتك معه، أو غير ملاطفٍ له إلى درجةٍ يتوهّم أنه على حق، هذا يعود إلى حكمة المؤمن، ولكل زمانٍ أساليبه، وكل زمن هناك ظروف، وهناك أساليب تكون فعّالةً في تحقيق الأهداف، وهذه الأساليب الناجحة لا يعدَمُها المؤمن، لأن الإنسان حينما يصدق مع الله سبحانه وتعالى في هداية الخلق يلهمه الأسلوب المناسب والطريقة المثلى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

أريد من هذه الآية أن يتضح لكم أن المؤمن ليس معنياً أن يُرضي الناس جميعاً، ليس معنياً أن يحبّه الناس جميعاً، لا بدّ للمؤمن من خصوم، خصوم عقيدة، خصوم سلوك، فأنت كن على حق، ولا يعنيك أمر الآخرين إلا بالقدر الذي تأخذ بيدهم إلى الله عزّ وجل.

أيها الإخوة الكرام، نحن أمام آيات قد يتوهمها الإنسان بسيطة، ولكن هي من أخطر آيات هذه السورة، يقول الله عزّ وجل:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)

(سورة التحريم: الآية 10)

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ

1 ـ لا ينفعك مصاحبةُ النبي إن لم تستفد منه:

الإنسان أحياناً يكون مع نبيٍّ عظيم، لو أنه جلس إلى جنب النبي، ولامست كتفه كتف النبي، ولم يكن على منهج النبي فإنه لا يستفيد شيئاً، الذي جلس إلى جنب النبي، وكان رئيس المنافقين قبيل وفاته قال: **" أعطوني قميص النبي عليه الصلاة والسلام "**، وفيما قرأت من السيرة أن النبي ألبسه قميصه بيده، ثم مات، فلمّا مات قال عليه الصلاة والسلام:

((الآن استقرّ في جهنم حجرٌ كان يهوي به سبعين خريفاً))

[ورد في الأثر]

لا ينفعك أن تكون قريباً من النبي، ولا أن تعامل النبي، ولا أن تجالسه بل ينفعك أن تكون على منهجه، الإنسان أحياناً يطمئن لفتوى قالها إنسان يعمل في الحقل الديني.

أيها الأخ الكريم: لو أن النبي عليه الصلاة والسلام أفتى لك، لا أقول لك: عالمٌ جليل، أو مفتٍ عظيم، أو مجتهدٌ كبير، لا.. لو أن النبي صلى الله عليه وسلّم التقيت به، وعرضت عليه قضيةً، وأفتى لك، أو لو أنك اتجهت مع خصمٍ لك إلى النبي، وحكم النبي عليه الصلاة والسلام بينكما، وكان الحكم لصالحك.. الآن دقق فيما سأقول.. ولم تكن محقّاً فإنك لا تنجو من عذاب الله، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول كما في حديث أُمّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((قَالَ إِنّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيّ، وَلَعَلّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[متفق عليه]

هل من علاقةٍ بين شخصين على وجه الأرض أمْتَن وأعمق وأكثر التحاماً من زوجين ؟ سيدنا نوح ألم ينجب من امرأته ابنه ؟ إن أشد علاقةٍ بين شخصين هي علاقة الزواج، وهي أكثر العلاقات عُمْقاً واتصالاً، ومع ذلك:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا)

2 ـ معنى خيانة امرأة نوح وامرأة لوط لزوجيهما:

امرأة نوح كانت تصف زوجها بأنه مجنون، وامرأة لوط كانت تشعل النيران لتدل قومها على ضيوفه إنهم منحرفون أخلاقياً، لا امرأة نوحٍ استطاعت أن تنجو من عذاب النار لأنها زوجة نبيٍّ عظيم، ولا امرأة لوطٍ استطاعت أن تنجو من عذاب النار لأنها زوجة نبيٍّ عظيم، هل من علاقةٍ أكثر التصاقاً ومتانةً، وعمقاً واستمرارية من علاقة الزوج بزوجته ؟ ومع ذلك لم تنجو امرأة نوحٍ ولا امرأة لوطٍ من عذاب النار.

أيها الإخوة الكرام، هذا مثلٌ.. أحياناً إنسان يدعو بعض العلماء، ويفرح بوجودهم، ويتبارك بوجودهم، يلقون الكلمات في حفلته ويطمئن، القضية انتهت، لا لم ينته شيء، إن لم تطبّق أمر الله، وإن لم تنتهِ عمّا نهى الله فإنك لا تستفيد من واحدٍ منهم شيئاً، والدليل: أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لابنته فاطمة، وهي أحبُّ الناس إليه:

((يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[متفق عليه]

يا أيها الإخوة الكرام... ينبغي أن تعلموا علم اليقين أن خيانة زوجة نوحٍ وزوجة لوطٍ لم تكن خيانة فِراش، ولا يمكن لامرأة نبيٍّ أن تخونه في الفِراش، هذا مستحيل، لكنها خانته خيانة دعوة، لم تؤمن بدعوته، وصفته بأنه مجنون كما تروي كتب التفسير، أو دلّت قومها على ضيوفه كما رَوَت أيضاً كتب التفسير، أي لم تؤمن به، وخانت دعوته، لذلك كان مصير امرأة نوحٍ، ومصير امرأة لوطٍ النار..

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ)

3 ـ لا ينفعك إلا عملك الصالح، ولا أحد من الناس يملك ضرا ولا نفعا:

مرّةً كنت في العمرة فرأيت أناساً يصلون مكان في المكان الذي صلّى النبي عليه الصلاة والسلام فيه، وهم يبكون، وأنا صلّيت والله، وبكيت كثيراً، ولكن جاءني خاطر أن أستاذاً كبيراً جداً يحمل أعلى

الشهادات له أكثر من مئة مؤلّف، لو أنّ خادمه أو حاجبه في غيبته جلس على كرسيّه هل يرقى شيئاً ؟ لو أنه قرأ كتاباً واحداً فإنه سار في طريق أستاذه، فلا ينجي الإنسان أن يقلِّد، بل ينجيه أن يتبع سنّة النبي، أن يطبّق منهجه، أن يطلب العلم، أما إذا جلس في مكان النبي، أو صلّى مكان النبي فهذا شيء طيّب، ويُدخِل على القلب السرور، ولكن لا ينجي من المسؤولية إذا كان الإنسان منحرفاً، القضية ليست بالتقليد، ولا بالتبرُّك، القضية بالمتابعة.

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: الآية 108)

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود: الآية 112)

الإنسان العاقل يتعلّق بالثوابت، لا يتعلّق بغير الثوابت، الثوابت طاعة الله، وهي كل شيء، لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

لك أن تجلس مع الصالحين، وترتاح إلى مجلسهم، وتستفيد من علمهم، وتستفيد من أحوالهم، ولكن إن لم تسر على منهج الله فلا تنفعك هذه المجالسة، لك أن تتبرّك بالصالحين، أما أن ينفعك هؤلاء.. لا.. لماذا ؟ لأن الله عزّ وجل يخاطب نبيّه الحبيب يقول له:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

(سورة الجن)

وفي آيةٍ أخرى:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

(سورة الأعراف: الآية 188)

فلأن لا أملك لكم من باب أولى.

آية ثالثة:

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة الأنعام)

(وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ)

(سورة الأعراف: الآية 188)

آية رابعة:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام)

4 ـ لا نَسَب يوم القيامة ولا خلّة:

أيها الإخوة، لا تقبلوا مني إلا القرآن الكريم وسنّة النبي الصحيحة، هذه ثوابت الدين، فإذا كان عليه الصلاة والسلام يقول:

((قالَ إِنّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيّ، وَلَعَلّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النّار فَلَا يَأْخُذْهَا))

[متفق عليه]

هل تنفعك شفاعة العلماء ؟ لا، لكنك تستفيد من علمهم، ومن أحوالهم، وإن لم تطبق منهج الله عزّ وجل فإنك لا تنجو من عذاب الله، وهذه الآية تؤكِّد هذه الحقيقة، فكل إنسان على صلة مع رجل صالح، مع مؤمن، فإن هذه الصلة، وتلك المجاملة، وهذه الزيارة، وهذه الدعوة، هذه إن لم تكن مستقيماً على أمر الله عزّ وجل فلا تنتفع منها إطلاقاً، والإنسان لا ينجو بتقليده، بل ينجو باستقامته، ينجو بطاعته لله عزّ وجل..

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

(سورة المؤمنون)

ورد عن النبي صلى الله عليه وسلّم أن السيدة عائشة سألته: يا رسول الله أيعرفُ بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ قال:

((نعم يا أمّ المؤمنين إلا في ثلاثة مواطن: إذا الصحف نشرت وعند الميزان وفي موطنٍ ثالث، وفيما سوى هذه المواطن قد تقع عين الأم على ابنها، أو قد تقع عين الابن على أمه))

هكذا يقول عليه الصلاة والسلام

((تقول الأم: يا بني، لقد جعلت لك صدري سقاءً، وحجري وطاءً، وبطني وعاءً، فهل من حسنةٍ يعود عليّ خيرها اليوم ؟ يجيبها ابنها يوم القيامة: ليتني أستطيع ذلك يا أمّاه، إنني أشكو مما أنت منه تشكين))

[ورد في الأثر]

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

فإذا كانت زوجة نبي دخلت النار فكيف بزوجة رجلٍ يدعو إلى الله ؟ لم تلتزم، أو لم تأتمر، لا تنجو أبداً، فلا تتوهّم أن هذه العلاقات الطيّبة مع أهل الإيمان تشفع لك يوم القيامة، لا يشفع لك إلا طاعتك لله،

واستقامتك على أمره، وهذا كلام دقيق، كلام مأخوذٌ من كتاب الله ومن سنة رسول الله، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا، سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي))

[البخاري]

فكل إنسانٍ تعلّق بصلةٍ، بعلاقةٍ طيّبةٍ، بزيارةٍ، بدعوةٍ، بقرابةٍ، مع رجل صالح، وهو يفعل ما يشاء، وهو مرتاح، يقول لك: أنا فلان، جدي فلان، جدي العالم الفلاني، عمي العالم الفلاني، هذه القرابات لا تقدِّم ولا تؤخِّر.

فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ

ذكرت لكم في مطلع الدرس ما من علاقةٍ على وجه الأرض أشدُّ عمقاً، ومتانةً، واستمراريةٍ من علاقة الزوج بزوجته، أنجب منها ابناً، ومع ذلك:

(فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)

لا أحدَ يحمل وزرَ أحدٍ:

الشيء الأساسي، وهذا شيء مريح جداً أنه:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام: الآية 164)

كلٌ محاسبٌ بعمله، لا تُحاسَبُ عن غيرك، ولا يُحَاسَب غيرك عنك..

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: الآية 286)

إن الإنسان بهذه المعاني يكون واقعياً، وموضوعياً، وعلميّاً، يتعامل مع الله مباشرةً، لا ينجيه نَسَبٌ ولا صلة، ولا مودّةٌ، ولا قرابةٌ، وإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول لابنته فاطمة:

((يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[متفق عليه]

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا)

أذكِّركم مرّةً ثانية بأنه لا يمكن لامرأة نبيّ أن تكون بغيًّا، ولا أن تخونه في الفِراش، إلا أن الخيانة هنا خيانة دعوة، أي لم تؤمن بدعوته، الأولى اتهمته بالجنون أمام قومها، والثانية دلّت قومها على ضيوفه ليفعلوا معهم الفاحشة، وهذه من أفظع الخيانات..

(وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ)

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ

1 ـ المرأة مستقلة في دينها:

الآن هذه الآية موجّهة إلى النساء جميعاً، المرأة مستقلة بدينها، فأية امرأةٍ تقول: هكذا زوجي، هكذا يريد ماذا أفعل ؟ يطلقني، هذا كلامٌ مرفوض، المرأة إنسان مكرّمة، مسؤولة محاسبة، مكلّفة بالإيمان والإسلام، محاسبة عن أفعالها محاسبة دقيقة، ولا ينجيها من محاسبتها أن زوجها يأمرها أن تفعل كذا وكذا، المرأة مستقلّة في دينها، وإيمانها، واستقامتها، ومسئوليتها عن زوجها، لذلك المرأة العالمة الفقيهة إذا أمرها زوجها بمعصية تقول: لا أفعل، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، ولو هدّدها، افعل ما بدا لك، فإن الله لا يضيعني، ولا يتركني، وسينصرني، وسيكرمني، أما هذه المرأة التي تقول: هكذا زوجي، هكذا يريد، هكذا يحب، ماذا أفعل معه ؟ هو المسؤول، هذه الآية تنفي هذا الكلام كلّه:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ)

2 ـ امرأة فرعون إحدى النساء الكاملات:

شاءت حكمة الله أن تكون السيدة آسية امرأة فرعون إحدى أربع نساءٍ كاملاتٍ في الأرض، قال عليه الصلاة والسلام:

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمَلَ مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))

[البخاري]

هذه السيدة إحدى أربع نساء في الأرض كَمُلَتْ، وجعلها الله عزّ وجل زوجة لأكبر طاغيةٍ كافرٍ جبّار، وفيما تروي الكتب اضطهدها، وعذّبها لأنها عبدت غيره.. عبدت ربّها.. وكانت قد آمنت بسيدنا موسى..

(إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ)

(سورة التحريم: الآية 11)

إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ

تروي بعض الكتب أنه كان يعذِّبها أشد العذاب، وهي تضحك، فعجب، وقال: لعلّها جُنَّت، لقد أراها الله قصرَها في الجنّة، فكانت تضحك..

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

هذا يقودنا إلى قوله تعالى:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

(سورة النور: الآية 26)

وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ

هذه الآية ليست أمراً تكوينياً، بل هي أمرٌ تكليفيٌ، لو أن هذه الآية أمرٌ تكويني لوجب أن تكون كل زوجةٍ على شاكلة زوجها..

(وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

وما دمنا نجد نساءً كثيرات طاهرات عفيفات، مؤمناتٍ مسلمات، صائماتٍ مصلِّيات، ولهن أزواجٌ منحرفون، فاسدون، جبّارون، عصاة، والعكس أيضا، قد نجد رجلاً صالحاً، مؤمناً، مستقيماً وله زوجة فاجرة، ماذا نفعل بقوله تعالى:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

العلماء قالوا: **" هذه الآية هي أمرٌ تكليفي وليست أمراً تكوينياً "**، فإذا كانت أمراً تكليفياً فإنهم يُقَدِّرون هذه الكلمة معها، أي: ينبغي أن يكون الطيبون للطيبات، ويا عبادي إذا زوّجتم بناتكم، أو زوّجتم شبابكم فابحثوا عن الطيبين للطيبات، هذا أمر تكليفي، فإذا خالف الناس هذا الأمر فقد نجد طيبة تحت إنسانٍ سيئ، أو طيبا مع امرأة خبيثة، فإذا كان كذلك فلا بدّ من أن يُحاسب كل امرئٍ عن نفسه، فالزوجة لا يعفيها من مسئوليتها أن زوجها منحرف، وأن زوجها يأمرها بأن تعصي الله عزّ وجل، هذا لا ينجيها من مسئوليتها أبداً.

أيها الإخوة الكرام...

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

حظوظ الدنيا موزّعة في الدنيا توزيع ابتلاء، وفي الآخرة توزيع جزاء:

أضع بين أيديكم هذه الحقيقة: حظوظ الدنيا موزّعةٌ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء، فالمرأةُ زوجها مِن قدرها، والرجلُ زوجته مِن قدره، أولادُها من قدرها، وأولاده من قدر الله عزّ وجل، كلُّ إمكانات الإنسان وقدراته وحظوظه من الدنيا امتُحِن بها في الدنيا، لكن هذه الحظوظ سوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء، وإنّ أيّ امرأة صالحة، طيبة مؤمنة، مسلمة تقية، عفيفة طائعة، صائمة عابدة، ذاكرة مصلِّية.. إلخ، لو أن زوجها كان سيئ الأخلاق، فظّ الطباع، بعيداً عن منهج الله، ماذا نقول لها ؟ الدنيا محدودة، إذا نجحتِ في هذا الامتحان، وصبرتِ عليه، وأدّيتِ الذي عليكِ، وطلبتِ من الله الذي لكِ، وحظّك من الزواج لم يكن وافياً، لكن الآخرة المديدة هذه سوف تنعمين بها في جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، ونقول لرجل له زوجةٌ على غير ما يريد، ليست صالحة، أتعبته كثيراً، نقول له: اصبر عليها، فهذه مِن قدرك، فإذا صبرت عليها فلعلّ الله سبحانه وتعالى يدخلك جنة عرضها السماوات والأرض، وفيها من الحور العين كما وصف النبي عليه الصلاة والسلام، فالدنيا دار ابتلاء، والآخرة دار جزاء، الدنيا دار عمل، والآخرة تشريف.

الآية الأخيرة:

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ)

كما قال عليه الصلاة والسلام:

((كَمَلَ مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))

[البخاري]

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا)

1 ـ من صفات المؤمن والمؤمنة إحصانُ الفرج:

فمن أولى صفات المؤمن أنه يحصن فرجه، ومن أولى صفات المؤمنة أنها تحصن فرجها، ماذا قال سيدنا جعفر للنجاشي ؟

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ))

[أحمد عن أم سلمة]

أربع صفات: صدقه وأمانته وعفافه ونسبه. فأحد أكبر صفات المؤمن عفته عما حرم الله عليه.

من إحصان الفرج الإحصانُ من مقدِّماته:

فهذه امرأة عمران أحصنت فرجها، والحقيقة قضية إحصان الفرج تحتاج إلى مُقَدِّمات كثيرة، فغض البصر من إحصان الفرج، لأن الله عزّ وجل يقول:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: الآية 30)

جاءت هذه الآية قبل الثانية لتشير أن حفظ الفرج أساسه غض البصر، فالمرأة من إحصان فرجها غض بصرها، والرجل من إحصان فرجه غض بصره، عدم الخَلوة من إحصان الفرج، عدم التعامل مع أناس ساقطين من إحصان الفرج.

ذكرت لكم من قبل أن ثلاثاً وثلاثين صفة تجرح عدالة الإنسان، وكلكم يعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدّثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كَمُلَت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوّته، وحرمت غيبته))

[ورد في الأثر]

أي ظهرت عدالته، فعدالة الإنسان إحدى صفتين أساسيتين في المؤمن، الضبط صفة عقلية، والعدالة صفة نفسية، هذه العدالة تَسْقُط إذا كذب الإنسان، وتسقط إذا ظلم الإنسان، وتسقط إذا أخلف وعده، لكنها تُجْرَح، وجرحها شيء، وسقوطها شيءٌ آخر، تجرح بأن يمشي الإنسان في الطريق حافياً، أو أن يبول في الطريق، أو أن يأكل في الطريق، أو أن يتنزّه في الطريق، أو أن يصحب الأراذل، أو أن يأكل لقمة من حرام، أو أن يُطَفِف بتمرة، أو أن يتحدث عن النساء، أو أن يقود برذوناً يخيف الناس به، أو أن يطلق لفرسه العِنان، أو أن يعلو صوته في البيت، هذا كلّه مما يجرح العدالة..

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا)

من إحصان الفَرج غض البصر، من إحصان الفرج عدم الخلوة بأجنبي، من إحصان الفرج ألا تَصْحَب الأراذل، إن صحبتهم جرحوا عدالتك، من إحصان الفرج ألا تتحرك خطوةً نحو شيءٍ لا يرضي الله عزّ وجل، لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)

(سورة الإسراء)

ينبغي أن تبقي بينك وبين المعصية هامش أمان.

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: الآية 187)

أبقوا بينكم وبينها هامش أمان.

فهذه مريم ابنة عمران أحصنت فرجها، فإذا طبّق الإنسان وسائل حفظ الفرج حفظه الله عزّ وجل، وما من إنسان يقع في الفاحشة إلا بسبب أنه لم يأخذ بأسباب حفظ الفرج، ،

أضرب لكم هذا المثل: صخرةٌ مُتَمَكِّنَةٌ في قمة جبل، أنت أمام أحد الخيارين ؛ إما أن تبقيها في مكانها المنيع، وإما أن تدفعها، إن دفعتها فلن تستقر إلا في قاع الوادي، هناك من يَزْعُم أنه يدفعها لتقطع متراً واحداً، إن دفعتها من قمة الجبل فلن تستقر إلا في قعر الوادي، وكذلك الشهوة، إما أن تضبطها كما أراد الله عزّ وجل، فإن لم تضبطها فالأمر لا ينتهي إلا إلى قاع الوادي.

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا)

(سورة التحريم)

2 ـ معنى: أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا

بالمناسبة في البلاغة شيء اسمه الاستخدام، يضربون على هذا الضرب من البلاغة.

مثلاً: تقول لإنسان: أقر الله عين الأمير.. أيْ عينه هذه، وأجرى له ماءها.. عين الماء.. ووقاه الله شرّها.. عين الحسود.. أنت ماذا فعلت ؟ ذكرت العين على حقيقتها، ثم أعدت عليها ضميراً إلى معنىً مجازي لها، ثم أعدت ضميراً ثالثاً إلى معنى مجازي لها، فالفرج فتحة القميص، هي أحصنت فرجها.

(أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا)

3 ـ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا

هذه الهاء تعود على معنىً آخر من معاني الفرج، وهي فتحة القميص، جيب الرداء.

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا)

أي أنها جاءت بسيدنا عيسى من دون أب، وهذه معجزة.

(وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ)

4 ـ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ

الإيمان تصديق، المؤمن هو الذي يصدِّق بكلام الله، يصدق وعد الله، يصدق وَعيد الله، يصدق منهج الله.

(وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ)

المنقطعين لله.

هذه آية ثالثة.

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ)

لذلك لما ربنا عزّ وجل قال:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3)وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(4)وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6)فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ)

(سورة المؤمنون)

ملخص القول:

الذي يبتغي وراء زوجته بقية الله خير لكم، ماذا بقي لك من النساء ؟ زوجتك، لا تثريب عليك، ما سوى الزوجة محاسبٌ أشد المحاسبة.

1 ـ علاقة المعصية بنتائجها الحتمية:

وشيءٌ آخر أيها الإخوة أذكره لكم، الإنسان إذا سلك منهج الله عزّ وجل، فغض بصره عما سوى زوجته أكرمه الله بمودةٍ بالغةٍ بينه وبين زوجته، أما إذا أطلق بصره دَفَعَ الثمن باهظاً في بيته، وكلّ شيء له ثمن، وإنّ كل طاعةٍ لله فيها بذور نتائجها، فلو أن إنسانا لمس مدفأة مشتعلة فاحترقت يده، نقول: لمس المدفأة سببٌ علميٌ لاحتراق اليد، فإن كل طاعةٍ هي سببٌ علميٌ لنتائجها، وإن كل معصيةٍ

هي سببٌ علميٌ لنتائجها، فلذلك هناك علاقةٌ علمية بين المعاصي ونتائجها وبين الطاعات ونتائجها، فهذه السيدة الكريمة الصدّيقة:

(الّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ)

2 ـ يعنينا من القصة الدروس والعبر لا الأحداث:

أيها الإخوة الأكارم... لا يعنينا قصةٌ وقعت قبل ألفي عام، الذي يعنينا من هذه القصة الحقيقة التي تَشُعُّ منها، الذي يعنينا من هذه القصة القاعدة التي قعّدَها الله في هذه القصة، الذي يعنينا من هذه القصة السنة التي بينها الله عزّ وجل من خلالها:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة فاطر: الآية 18)

كلٌ محاسبٌ بعمله.

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: الآية 286)

لا يطمع الإنسان أن يصل إلى الجنة إلا إذا كان على صلةٍ طيبةٍ بأهل الإيمان، لا يصل إلى الجنة إلا إذا كان مستقيماً على منهج الواحد الديان، والذي يخرج عن منهج الله بضغطٍ من قريبٍ منه، فهذا القريب لا ينفعه، لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

3 ـ المرأة مستقلة في دينها، وهي مسؤولة عن عملها:

فأول شيءٍ أتمنى أن يكون واضحاً في هذا الدرس أن المرأة مستقلة في دينها، وفي إيمانها عن زوجها، وأكبرُ مثلٍ امرأة فرعون، صدّيقة تحت يدي كافرٍ طاغٍ، ومع ذلك لم يستطع أن يحملها على أن تعبده، ولم تخضع له، وأطاعت ربها، وهذا الذي أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون واضحاً لديكم، لا تعتذر بعذرٍ رفضه الله عزّ وجل، لا تقل امرأةٌ: لا أستطيع، هكذا زوجي يريد، المرأة الصالحة ترضي الله عزّ وجل، وترضي زوجها في حدود منهج الله، أما أن تستجيب له في معصية فعندئذٍ لا تنجو من عذاب الله، لأنها مسؤولةٌ مسؤولية تامة عن عملها.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس